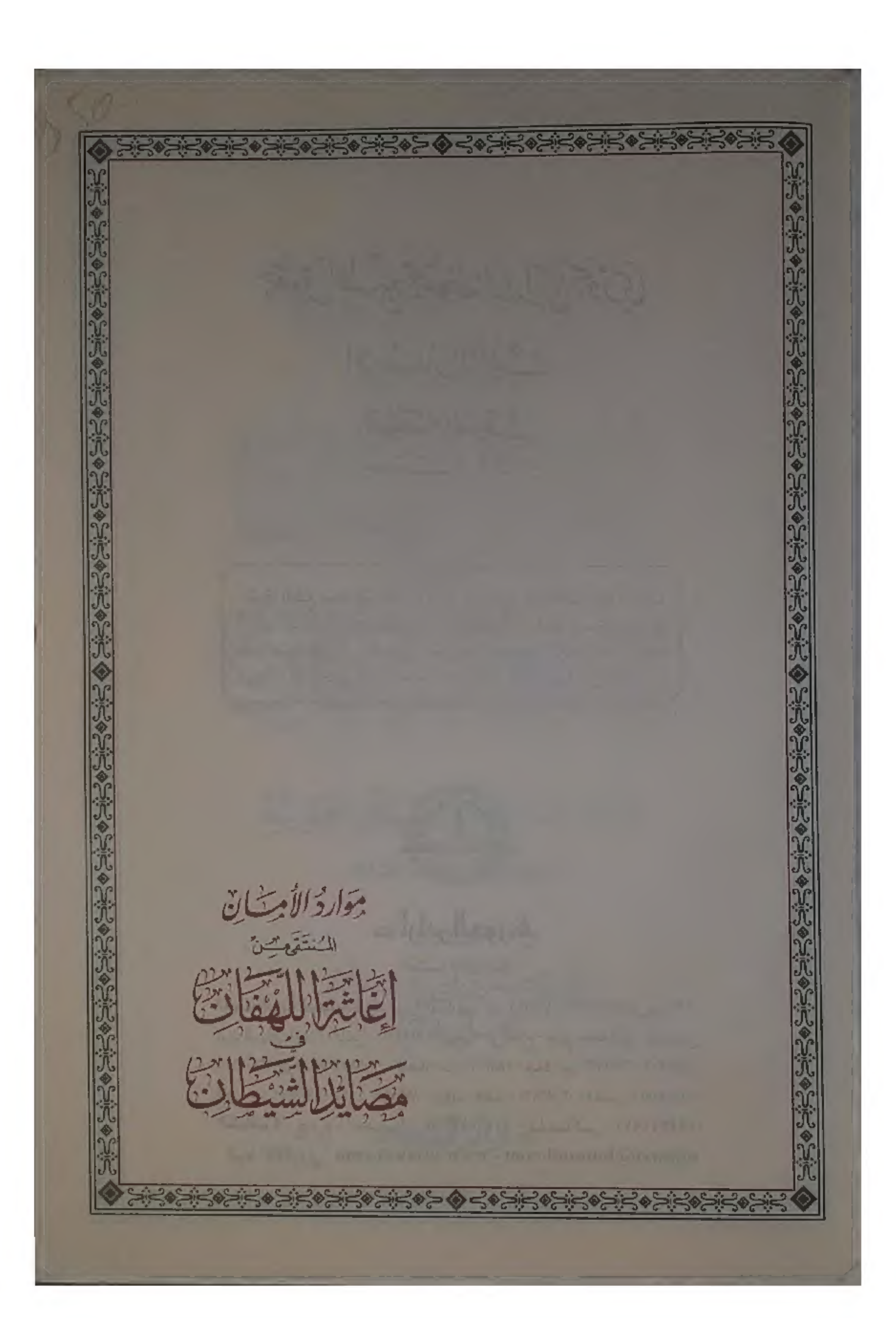
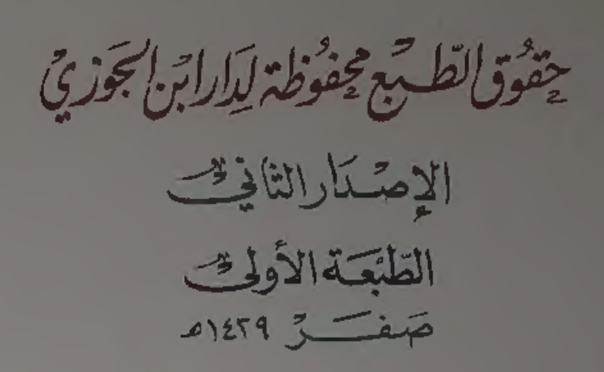

موارد الأمان
المنتقى من
إغاثة اللهفان
في
مصايد الشيطان





دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

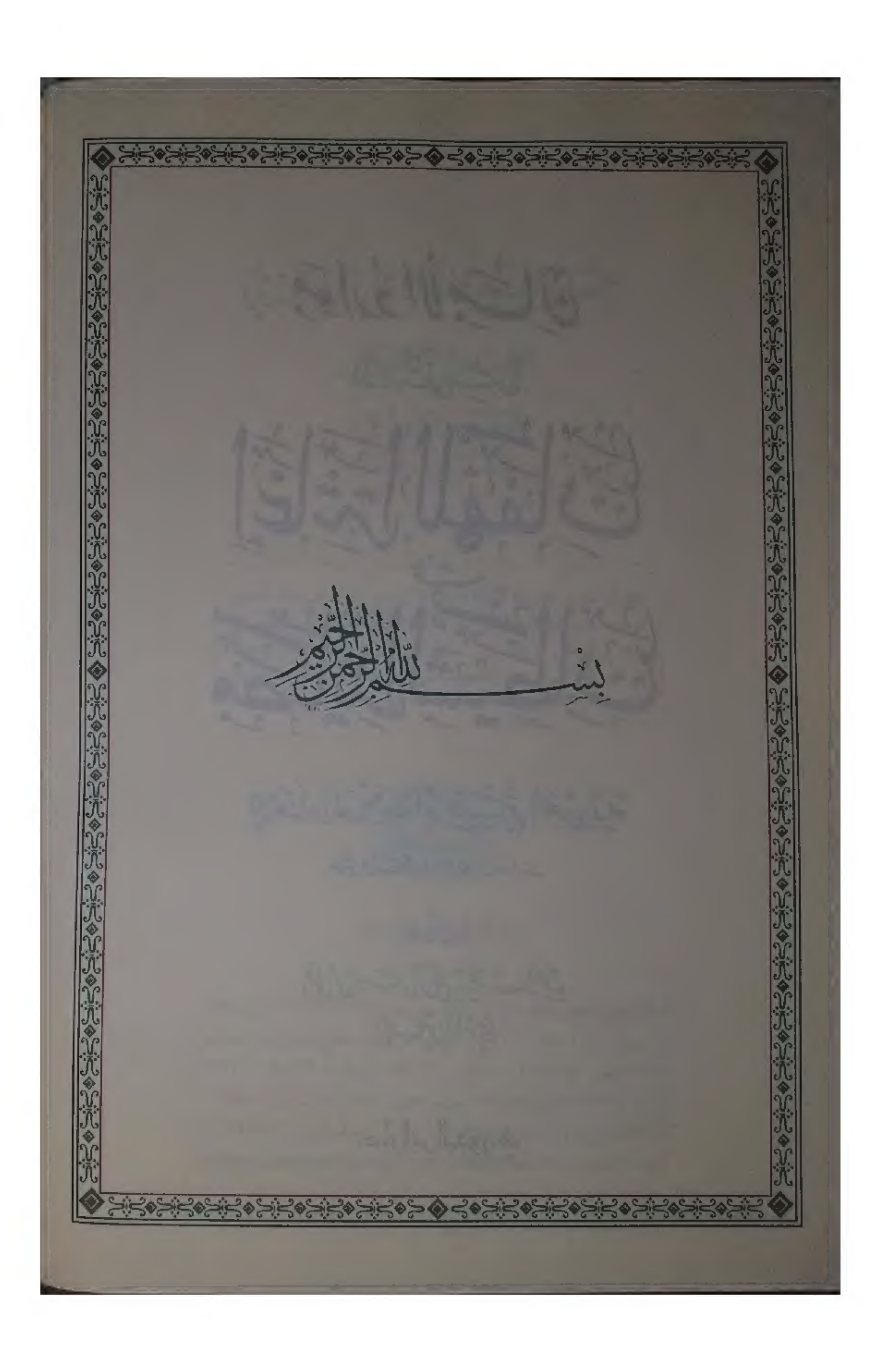
المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - حي الفلاح - مقابل جامعة الإمام - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الخبر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com



للإمام العلامة ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١هـ رحمه الله

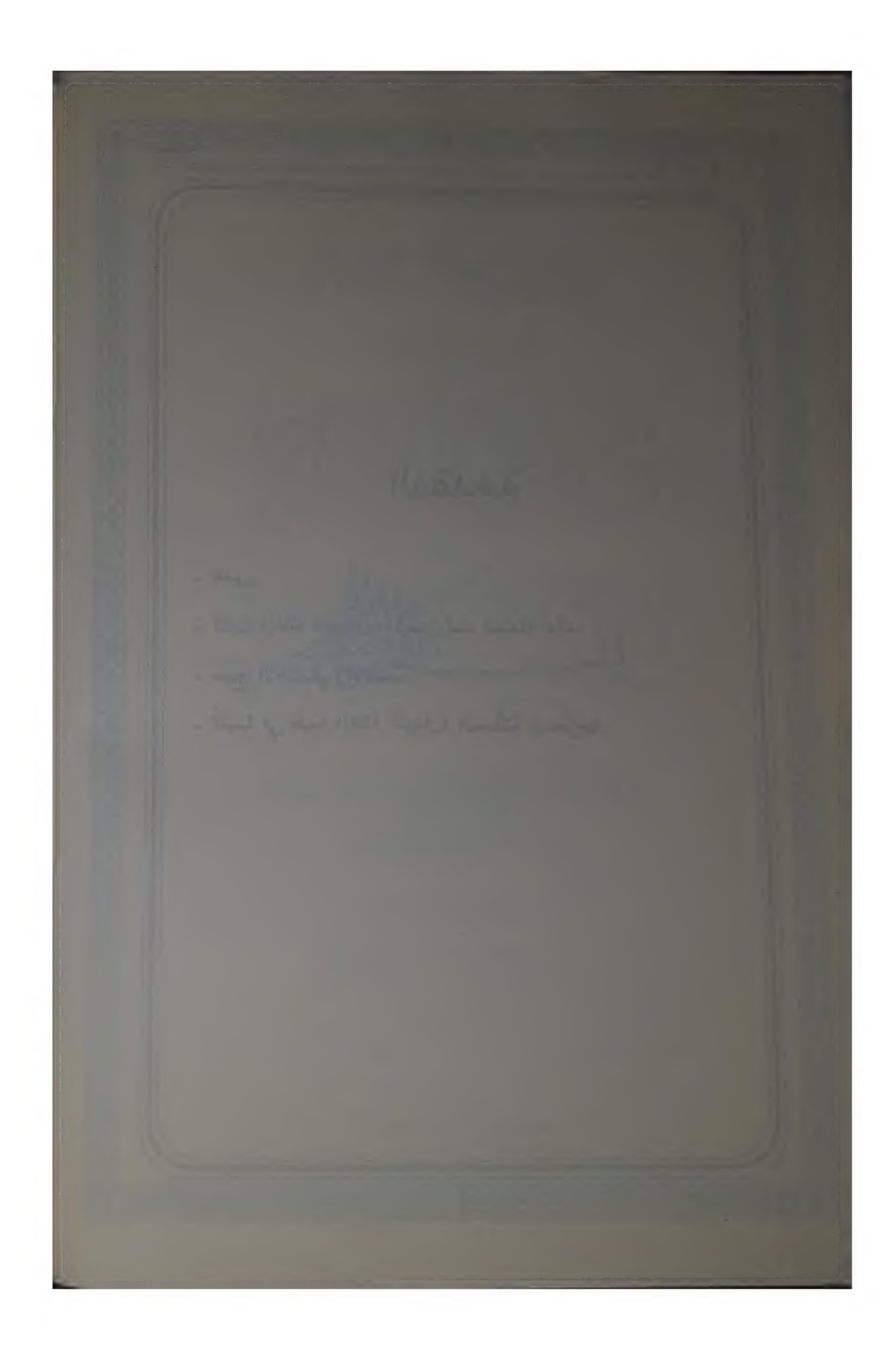
بقلم
علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد
الحلبي الأثري

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

- تقديم.
- كتاب «إغاثة اللهفان»؛ قيمتُه وثناء العلماء عليه.
- منهج الاختصار والانتقاء.
- كُليمة في طبعة «إغاثة اللهفان» المحقَّقة المخرَّجة.



تقديم

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسِنا ومِن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ؛ فلا مضلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ؛ فلا هاديَ له.

وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ.

وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ.

أما بعدُ:

فإنَّ الشَّيطانَ قد نَصَبَ شِباكَه لِبني آدَمَ أجمعين، منذُ أخَذَ المُهْلَةَ مِن ربِّ العالَمين؛ فتنَةً للكافرين، وابتِلاءً للموَحِّدين؛ ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١٤، ١٥].

وفي القُرآنِ الكريم؛ حكايةً عن ذٰلك اللَّئيم: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

ولقد جاءَتِ الآياتُ مُتواليةً في التَّحذيرِ مِن خَطَرِه، والأحاديثُ تَترى في تَبْيينِ شَرِّهِ وضَرَرِه، فانْتَفَعَ بذٰلك مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تعالى للخَيْر، فاجْتَنَبَ مَصايِدَهُ؛ مُحاذِراً مِن كُلِّ ضَيْر.

ولا زالَ أهلُ العلمِ وأئمَّةُ الدِّين، لتَلبيسِهِ مُبيِّنين، ومِن إضلالِهِ مُحذِّرين، فألَّفوا بذٰلك المؤلَّفاتِ، فاستفادَ منها كُلُّ مَاضٍ وسَيستَفيدُها كُلُّ آت.

ومِن بينِ هٰذه التَّواليفِ النَّافعة، التي هي كالبَراهينِ السَّاطعة، كتابُ «إغاثَةِ اللَّهْفَان مِنْ مَصايِدِ الشَّيْطان»، وهو كِتابٌ أحْلى مِنْ إنسانِ العَيْنِ في عَيْنِ الإنسان؛ لمؤلِّفِهِ إمامِ أهلِ السُّنَّةِ النَّبويَّة، شمسِ الدين ابنِ قَيِّمِ الجوزيَّة، وهو

إمامٌ عظيمٌ مشهور[١]، لا زالتْ تصانيفُهُ مُنتشرةً عبرَ الأزمانِ والدُّهور، وكِتابُهُ هٰذا مِن أنفعِ الكُتُبِ وأجْوَدِها، ومِن أحْسَنِ المؤلَّفاتِ وأفضلِها.

لكنَّهُ رحمه الله قد طوَّلَ في بعضِ المسائِلِ الفقهيَّة[٢] أبوابَه، ممَّا لا يُناسِبُ ـ فيما أرى ـ كِتابَه، وكَذا وقَعَ عندَه ـ يرحمُهُ اللهُ ـ بَعضُ الأحاديثِ الضَّعيفة، فكانَ بيانُها والتَّنبيهُ عليها مِن أعلى المطالِبِ المُنيفة، ولأنَّ هٰذا الكِتابَ واسِعُ المِضْمار، حَصَلَ فيهِ بعضُ الإعادةِ والتَّكرار.

فلاجْتِنابِ كُلِّ هٰذه الأشْياء، رَأيْتُ أفْضَلَ الطُّرُقِ لهُ: الانتِقاء، فاستشرْتُ بعض الإخوةِ والأصْحابِ، فكان مِنْ رَأيِهِمْ أنَّ هٰذا صَواب، فحمدْتُ اللهَ عَلى التَّوفيق، سائلاً لهُ سُبحانَهُ أنْ يُسَهِّلَ لي الطَّريق، وأنْ يُجَنِّبَ عَمَلي ما يُخالِفُ التَّدقيقَ والتَّحقيق.

فقُمْتُ بالعَمَلِ على مَهَلٍ مِنِّي؛ مُسْتَصْحِباً الأناةَ والتَّأنِّي، فخَرَجَ معي ـ وللهِ الحَمْدُ ـ هٰذا الكِتاب، مُحْتوياً على اللُّبِّ واللُّباب، وسميَّتُهُ: «مواردَ الأمان المُنْتَقى مِن إغاثَةِ اللَّهْفان»، عسى أنْ يكونَ المضمونُ مُوافقاً للعنوان.

وفي الخِتام أقول، وبحولِهِ سُبحانَهُ أصول: هٰذا ما استطعْتُه، وبين أيديكُمْ ما فعلْتُه، فإنْ كانَ خيراً؛ فاحْمَدُوا اللهَ عليه، وإنْ كانَ غيرَ ذلك؛ فهو منِّي والشَّرُّ ليسَ إليه.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّهِ وعبدِه، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ووَفْدِه.

كَتَبَهُ

الراجي رحمة ربِّه العليّ ـ أبو الحارث الحلبيّ الأثريّ

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد

الزرقاء ـ الأردن ـ غرة جمادى الأولى سنة ١٤١١هـ

---

(١) توفي سنة (٧٥١هـ)، وقد ترجمتُه في مقدِّمتي على «الرسالة التبوكية» له، فلا أعيدها؛ لشهرته الكبيرة رحمه الله.

وقد استقصى القول في حياته وذكر مؤلفاته أخونا المفضال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه المعطار: «ابن القيِّم: حياتُه، وآثاره».

(٢) كمسألة الطلاق، ومسألة الحيل، وغيرهما.

كتاب «إغاثة اللهفان»
قيمتُه وثناءُ العلماء عليه

يعدُّ هٰذا الكتابُ مِن أنفعِ ما ألَّفهُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ وأحسنِه:

قالَ الآلُوسِيُّ في «غايةِ الأماني» (٢/٥): «هو كِتابٌ مشهورٌ مِن كُتُبِ السُّنَّةِ، أودَعَهُ مؤلِّفُه رَحِمَهُ اللَّهُ مُهِمَّاتِ المطالِبِ، وأبطل بهِ حبائل الشّيطانِ ومصايِدَهُ، ودَسائسَهُ ومَكايِدَهُ، فلا بِدْع أنْ نَفَرَتْ منهُ جُنودُهُ، واضْطربتْ منهُ أعوانُهُ وأولياؤهُ، واللهُ لا يُصلِحُ عمل المُفْسِدين».

وقد كتبَ بعضُ أهلِ العلمِ على طُرَّةِ بعضِ نُسَخِهِ المخطوطةِ[١] ما نصُّهُ:

إنْ شِئْت أنْ تَنْجُو مِنَ الشَّيْطانِ ... فالْزمْ كِتاب «إغاثَةِ اللَّهْفانِ»
فيهِ شِفاءُ القَلْبِ مِنْ أمراضِهِ ... وهُو الطَّريقُ إلى رِضا الرَّحْمنِ
للهِ درُّ بَنانِ ناظِمِ عقْدِهِ ... كَمْ ضمَّ فِيهِ مِنْ فَريدِ جُمانِ
حِكَمٌ هِي الدُّرَرُ المُصفَّى لوْ تَرَى ... عَيْنٌ ويَسْمعُ مَنْ لَهُ أُذُنانِ

في أبياتٍ أُخَرَ.

وقال آخَرُ[٢]:

يَا مَنْ يَخافُ مَكايِدَ الشَّيْطانِ ... ويَرُومُ سُبْل خُلاصَةِ الإيمانِ
شَمِّرْ ذُيولَكَ كَيْ تَرى سُنَنَ الهُدَى ... في طَيِّ زُبْدِ إغاثَةِ اللَّهْفانِ

والخُلاصةُ: أنَّ «هٰذا الكِتابَ مِنْ أعْظَمِ كُتُبِهِ وأجلِّها»[٣].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٣٦) بتحقيق: محمد عفيفي.
(٢) المرجع السابق.
(٣) «ابن القيم: حياته، وآثاره» (ص١٨٤).

وقد نسبه لمؤلِّفه سائرُ مَن ترجم له؛ كابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٥٠)، وابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب» (٦/ ١٧٠)، والشوكاني في «البدر الطالع» (٢/ ١٤٤)، وحاجي خليفة في «كشف الظنون» (١/ ١٢٩)، وصدِّيق حسن خان في «التاج المكلَّل» (ص٤١٩)، وغيرُهم؛ بعضُهم يذكُرُ اسمَه تامّاً، وبعضُهم مقتصراً على «مصايدِ الشَّيطانِ».

وقد تفنَّنَ ابنُ القيِّمِ في كِتابِهِ هٰذا؛ مُودِعاً فيهِ فُنوناً مِنَ العِلْمِ:

فتراهُ يبحثُ في (١/ ٣٢)[1] في أُصولِ الفِقْهِ.

وفي (١/ ٤٥) يردُّ على المتكلِّمينَ.

وفي (١/ ٣٢ و٥٠) في علمِ التَّفسيرِ.

وفي (١/ ٥٠) في علمِ النَّحْوِ.

وفي (١/ ٤٦) في معاني اللُّغَةِ.

وفي (١/ ٢٨) في شرحِ بعضِ الأحاديثِ.

وفي (١/ ٥٥) في صِفاتِ البَاري.

وفي (١/ ٥٦) في القَدَرِ.

وهٰكذا؛ في فوائِدَ عِلميَّةٍ منثورَةٍ، لا يعلمُ قَدْرَها إلَّا مَنْ يَعْرِفُ العلمَ وقيمَتَهُ.

وتَراهُ في (١/ ٥٧) يذكُرُ سُؤالَهُ لشيخِهِ، ثم يَنْقُلُ خُلاصَةَ جَوابِهِ لهُ.

وفي (١/ ١٧) يذكر مذاكرتَهُ لبعضِ رؤساءِ الطِّبِّ في بعضِ المسائِلِ.

وهٰذا كُلُّهُ يدُلُّ على مَدى اتِّساعِ دائِرَةِ عِلْمِهِ رَحِمَهُ اللهُ ومعارِفِهِ، ودقَّتِهِ في التَّصنيفِ والتَّأليفِ.

ولقيمةِ هٰذا الكِتابِ وتيسيرِ الانتفاعِ بِهِ اختصَرَهُ غيرُ واحِدٍ مِن أهلِ العلمِ، ومن أهمِّ مختَصراتِهِ:

---

(١) العزو لمطبوعة الشيخ حامد الفقي في مجلَّدين.

١ ـ «مختصرُ إغاثةِ اللَّهْفانِ»[1]: للشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن أبا بَطين، المتوفى سنة (١٢٨٢هـ).

٢ ـ «مختصر إغاثةِ اللَّهْفانِ»: لابن غانِم المقدِسِي، المتوفَّى سنة (١٠٠٤هـ)، وهو مطبوعٌ في مكتبةِ القرآنِ، بتحقيق: إبراهيم بن محمد الجَمَل.

بل قدِ اخْتُصِرَتْ بعضُ أبحاثِهِ وأُفْرِدَتْ؛ كمثلِ «بحث» (زِيارَةِ القُبورِ الشَّرعيَّةِ والشِّرْكِيَّةِ) للبِرْكويِّ المتوفَّى سنة (٩٨١هـ)، وهي مطبوعةٌ مِراراً.

ولبعضِ المُعاصِرينَ شَيْءٌ مِن ذٰلكَ أيضاً.

فما قُمْتُ بِهِ ـ وللهِ الحَمْدُ ـ لمْ أَخْرُجْ بِهِ عَن عَمَلِ أَهْلِ العِلْمِ السَّابِقينَ في شيءٍ، بل سَلَكْتُ دَرْبَهُمْ، ونَسَجْتُ على مِنْوالِهِم.

(١) «ابن القيم: حياته، وآثاره» (ص١٨٤).

مَنْهَجُ الاختصارِ والانْتِقاءِ

كانَ المَنْهَجُ الَّذي سِرْتُ عليهِ في هٰذهِ «المَوارِدِ» قائِماً على أُمورٍ، أهمُّها:

١ ـ حذفتُ المَسائِلَ الفقهِيَّةَ المُتَشَعِّبَةَ التي هِيَ بكُتُبِ الفُروعِ أَلْيَقُ.

٢ ـ حَذَفْتُ بعضَ العِباراتِ أو المواضيعِ المُكَرَّرَةِ.

٣ ـ حَذَفْتُ الأحاديثَ الضعيفةَ والموضوعةَ؛ إلَّا ما لا بُدَّ مِنْهُ لبيانِ أَمْرٍ أَو رَبْطِ موضوعٍ أو نحوِهِ.

٤ ـ خَرَّجتُ الأحاديثَ الصَّحيحَةَ تخريجاً عِلمِيّاً مُوجزاً.

٥ ـ ضَبَطْتُ نَصَّ الكِتابِ، ورَتَّبْتُ فِقْراتِهِ، ووضَعْتُ لهُ عَناوِينَ فَرعيَّةً.

كُلَيْمَةٌ في طَبعةِ
«إغاثةِ اللَّهْفانِ» المحقَّقةِ المخرَّجة!!

كانَ بينَ يديَّ وأنا أقومُ بعَمَلي في «الموارِدِ» طبعتانِ لـ«إغاثَةِ اللَّهْفانِ»؛ كُلٌّ مِنهما في مجلَّدَيْنِ:

الأولى: طبعةُ الشيخِ حامد الفقي، وهي المُتَداوَلَةُ والمشهورةُ، المطبوعَةُ سَنَةَ (١٣٥٧هـ).

والثانية: نشرةُ المَكْتَبِ الإسلاميِّ، بتحقيقِ محمد عفيفي، طُبِعَتْ سنةَ (١٤٠٥هـ).

وقد اعتمدتُ في الاختصارِ الطبْعَةَ الأولى؛ إلَّا في مَواضِعَ أشكَلَتْ عَليَّ كُنْتُ أقارِنُ معَها الثانِيَةَ، ثمَّ إنِّي تتَبَّعْتُ في بعضِ الأحْيانِ مواضِعَ أُخْرى مِن الطَّبعَةِ الثَّانيةِ؛ لزيادَةِ فائدَةٍ أو نَحْوِ ذلك؛ فخَرَجَ معي مِن هٰذا التتبُّعِ ملاحظاتٌ عِدَّةٌ لم أُحِبَّ تفويتَها على القُرَّاءِ في هذا الموضعِ، فأقولُ وباللهِ التَّوفيقُ:

◘ القِسْمُ الأَوَّلُ: مُلاحظاتٌ عامَّةٌ:

١ ـ نَقَل في (١/ ٢٥٥ و٣١٩) بعضَ تعليقاتِ الشّيخ محمد حامِد الفِقي دُونَ أَنْ يعزوَها إليهِ!!

٢ ـ وقَدْ تَابَعَ مَطبوعَةَ الشَّيخِ حامِدٍ رَحِمَهُ اللهُ في مَواضِعَ غَالِطٍ فيها، سَواءٌ في الضَّبْطِ أو في الطَّبْعِ:

أ ـ (١/ ٣٦٩): «فإنَّهُ يَنْقُصُ الحياء...»، والصواب: «يُنْقِصُ».

ب ـ (١/ ٣٥٣): في بيتِ شِعرٍ: «... بأنَّ الغناء سُنَّةٌ تُتَّبَعْ»، والصَّوابُ: «بأنَّ الغِنا سُنَّةٌ تُتَّبَعُ»؛ لاقتضاءِ النَّظم.

ج ـ (١/ ٣٥٥): «أشْمَتُّمو»؛ بدون ألف، والصواب وجودُها.

د ـ (١/ ٣٥٩): «والأصاف»، صوابُهُ: «والأصناف».

هـ ـ (١/ ٥١٨): «ليسَ هٰذا صَيدٌ يوم السَّبت»، والصواب: «ليس هٰذا صيْدَ يومِ السَّبتِ»؛ لأنَّ (صيد) خبرُ (ليس)، فيجبُ أنْ تكونَ مَنْصوبةً، فإما أنْ تكونَ: «صَيْداً يَوْمَ السَّبْتِ»، وإمَّا أنْ تكونَ: «صَيْدَ يَوْمِ السَّبْتِ».

و ـ (١/ ٤٢٣): «يكونُ النِّكاحُ فاسِداً»، صوابُه: «بِكَوْنِ النِّكاحِ فاسِداً».

ز ـ (١/ ٣٤٦): «لٰكِنَّهُ إِطراقَ سَاهٍ...»، صوابُهُ: «إطراقُ».

ح ـ (١/ ١١٧): «فحَيٌ»، صوابُهُ: «فحَيٌّ».

وثَمَّةَ أمثلةٌ أُخرى، ونكتفي بما أورَدْناهُ.

٣ ـ وتراهُ لا يفصِلُ بينَ المباحِثِ والفُصولِ بِما يُظْهِرُها ويُبيِّنُ أنَّها فَصْلٌ أو مبحَثٌ جَديدٌ؛ كما في (١/ ٣٤٤) منه.

٤ ـ لم يَعْتَنِ بالضَّبْطِ والتَّبْويبِ للكِتابِ، وهذا ظاهِرٌ في عُمومِ كِتابِهِ، ليسَ بحاجَةٍ لذِكْرِ أمثلةٍ عليهِ.

• القِسمُ الثَّاني: مُلاحظاتٌ حَديثيَّةٌ:

وهو الأهمُّ، إذْ لهُ في تعليقِهِ ألوانٌ مِن الخَلْطِ والوَهَمِ، أذكُرُ عليها أمثلةً:

١ ـ (١/ ١٤٩): قال: «أخرجَه البخاريُّ في (صحيحه)»!

قلتُ: وإنَّما هُو معَلَّقٌ، ليسَ بموصولٍ!!

٢ ـ (١/ ٣٨٤): حديث: «نهيتُ عَنْ صَوْتينِ أَحمقَيْنِ...»؛ خرَّجهُ مِن التِّرمِذِيِّ مُكْتَفِياً بقولِهِ: «حديثٌ حَسَنٌ»!

قلتُ: معَ أنَّ في إسنادِهِ ضَعْفاً، وللحديثِ شَواهِدُ تُصَحِّحُ سندَهُ، لم يُبَيِّنْها أو يُشِرْ إليها!

٣ ـ خَلَطَ في تَخريجِ حَديث: «لعَنَ رَسولُ اللهِ المُحَلِّلَ والمُحَلَّلَ لهُ» (١/ ٤٠٥) خَلطاً واضِحاً؛ كما يُرى ذلك بأدنى مُقارَنَةٍ معَ التَّخريجِ الآتي في «الموارِدِ» في موضِعِه.

٤ ـ (١/ ٣٦١): خرَّجَ حَديثَ: «مَنْ قَعَدَ إلى قَيْنَةٍ...»؛ نقلاً عنِ الشَّيخ محمد الحامد (!) في «حُكْمِ الإسلام في الغِناءِ»!! هٰكذا!! أهٰذا هُو عِلْمُ الحَديثِ؟! معَ أنَّ الحَديثَ وارِدٌ في كُتُبٍ حديثيَّةٍ ـ بالسَّندِ ـ كثيرةٍ؛ مِنها: «العلل المُتناهِيَة» (٢/ ٣٠٠)، و«المُحَلَّى» (٩/ ٥٧)، وبغير السَّند؛ كـ«كنز العُمَّال» (٤٠٦٦٩)، و«تفسير القُرطبي» (١٤/ ٥٣)، و«أحكام القُرآن» (٣/ ١٤٩٤)، وغيرِها.

ثمَّ هُو ـ مَعَ هٰذا كُلِّهِ ـ لم يُبيِّنْ أنَّ الحَديثَ صعيفٌ، ضَعَّفَهُ جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ، منهم: ابنُ حزم، وابنُ العربيِّ، وابنُ الجوزيِّ؛ في المصادِرِ السابقةِ، وكذا ابنُ حَجَر في «اللِّسانِ» (١/ ٢٤٤، ٥/ ٣٤٩)، وغيرهُم!!

٥ ـ (١/ ٤٢٨ و٤٣٠): يخرِّجُ طويلاً لأحاديثَ ليسَ لها صلةٌ بتخريجِهِ!!

٦ ـ (١/ ١٧): حديث: «القُلوبُ أربعةٌ...» مرفوعاً، نَقَلَ كلامَ أهلِ العِلمِ في تَضعيفِ ليثِ بنِ أبي سُليم وتوهينِهِ، وكانَ مِمَّا نَقَلَهُ قولُ الإمامِ أحمدَ فيهِ: «مُضْطَرِبُ الحَديث، ولكنْ حدَّث عنهُ النَّاسُ»!

فكانَ خاتِمةَ بحثِهِ أنْ قالَ: «فالرَّجُلُ متكلَّمٌ فيهِ، ولكنْ لا يُردُّ حَديثُهُ»؛ كما قالَ الإمامُ أحمدُ: «ولٰكِنْ حَدَّث عنهُ النَّاسُ»، فالحديثُ حَسنٌ!!

كذا قال! وكأنَّ ذٰلكَ التَّضعيفَ كُلَّهُ مَردودٌ بمجرَّدِ أنْ «روى عنهُ النَّاسُ»!

فهَلْ روايةُ هٰؤلاءِ النَّاسِ توثيقٌ؟

ومَنْ هُم هؤلاءِ النَّاسِ؟

ومِن عَجَبٍ أنَّهُ يَتناقَضُ! ففي (١/ ٣٩٦) ذكرَ ابنُ القيِّم حَديثاً وأعلَّهُ بفَرْقَدٍ السَّبخيِّ، ثم نقلَ قولَ التِّرمذيِّ فيهِ: «تكلَّمَ فيهِ يَحيى بنُ سَعيدٍ، وقدْ روى عنهُ النَّاسُ»! فكانَ حكمُهُ (!) أنَّ «الحديثَ ضَعيفٌ»!

فما الفرقُ يا هٰذا؟!

٧ ـ وهُناكَ أحاديثُ عِدَّةٌ لم يُخَرِّجْها (١/١٣١ و١٧٤ و٣٤٨ و٣٦٥ و٣٦٨ و٤٠٩ و٥٠٨)، وغيرُها كثيرٌ!

٨ ـ تعقَّبَ (ص٢٧٩ ـ ٢٨١) شيخَنا الألبانيَّ في تضعيفِهِ حديثاً في «غايةِ المَرامِ»، وقد تخلَّلَ تعقُّبَهُ عدَّةُ أوهامٍ؛ منها:

أ ـ قولُه: «ولم أعْثُرْ على «شَرحِ الأربعينَ» لابنِ رَجَب، ولكنِّي وجدتُ كَلامَ ابنِ رَجَبٍ في «جامعِ العلومِ والحِكَمِ»...»!

كذا! مع أنَّهُ هُو هُو!

ثمَّ قالَ في الصفحةِ التاليةِ: « .. رُغمَ أنَّ كِتابَ «شرحِ الأربعينَ» هو جُزءٌ مِنْ كِتابِ «جامعِ العُلومِ»...».

وهٰذه عجيبةٌ أُخرى! فكيفَ يكونُ جُزءاً منهُ وهو نفسُه!

ب ـ وهو في أصلِ تعليقِهِ واهمٌ بما يُلاحَظُ بأدنى مُقارنةٍ بينَ كلامِهِ وبينَ كلامِ شيخِنا في المصدرِ المُشارِ إليهِ، وكذا مقدّمته ـ حفظه اللهُ ـ على «رياضِ الصَّالحينَ» (فائدة: ٢٠)[١]!

٩ ـ ومِن عجائبِهِ (١/٤٦) أنَّهُ تكلَّمَ على حديثِ: «إنَّ مِن سعادةِ ابنِ آدَمَ استِخارَةَ اللهِ...»! فضعَّفَ سَنَدَهُ، ثمَّ قالَ: «ولٰكِنْ يَشْهَدُ لهُ الحديثُ الصَّحيحُ المتَّفَقُ عليهِ: كانَ يُعَلِّمنا الاستِخَارَةَ...»!

عجباً! أيْنَ هٰذا مِن ذاكَ؟! وهل هٰكذا تكونُ الشَّواهِدُ؟!

١٠ ـ أوردَ (١/٣٩) في التَّعليقِ حديثَ: «تَسمَّوْا بأسماءِ الأنبياءِ...»، ثم نقلَ عنِ ابنِ القطَّان ـ بواسطةِ «فيضِ القَديرِ» ـ قولَهُ في عقيلِ بنِ شَبيبٍ: «فيهِ غفلةٌ»، فقالَ أخيراً: «فالحديثُ حَسنٌ»!

---

(١) وله في (١/١٦٨ ـ ١٦٩ و٢/١٩٥ و٣٤٠) تعقُّبات(!) أخرى على شيخنا، تضحك منها الثَّكلى، كما يقولون، والنظر إليها بقليلٍ من الدِّقَّة والمقارنة يكشفُ عن وهائها وضعفِها!!

قلتُ: كذا! مع أَنَّ ابنَ القَطَّانِ قالَ فيهِ: «مجهولُ الحَالِ»؛ كما في «التهذيب» (٧/ ٢٥٤)، وقال الذهبيُّ في «الميزانِ» (٣/ ٨٨): «لا يُعْرَفُ»!

فلعلَّ هٰذا مِن أوهامِ المُناويِّ! وتابَعَهُ عليهِ المعلِّقُ المذكور!! والحديثُ ـ على كُلِّ حالٍ ـ ضعيفٌ.

١١ ـ (١/ ٥١): خَلَطَ بينَ حديثينِ، فخَرَّجَهما في مَساقٍ واحدٍ؛ مُهْمِلاً الثَّاني منهُما!!

١٢ ـ (١/ ٥٧): خرَّج حديث: «السَّفرُ قِطعةٌ مِن العَذابِ» مِن «مسند أحمد» مكرَّراً له ـ بالإسناد ـ مرَّتينِ من طريق أَبي صالح عن أبي هريرة، ثم قال: «وفي الرِّوايتينِ: أبو صالح، يُراجَعُ ما قيلَ فيه في حديث: «لعنَ اللهُ زوَّاراتِ القُبورِ»، وما قالَهُ الإمامُ ابنُ تيميَّةَ بشأنِهِ، وإسنادُه حسنٌ»!

كذا! وفيهِ مِن الخَلْطِ صُورٌ:

أ ـ أنَّ حديثَ «السَّفرُ قطعةٌ مِن العَذابِ» متَّفقٌ عليهِ بينَ الشَّيخينِ البُخاريِّ ومسلم!!

ب ـ أنَّ أَبا صالحٍ راويَه عن أبي هُريرةَ إنَّما هُو ذكوانُ الثِّقةُ العلَمُ ـ كما في «تُحفةِ الأشراف» (٩/ ٣٩٠) ـ، وليس هو باذامَ المضعَّفَ راويَ حديثِ زيارةِ النِّساءِ للقُبورِ.

ج ـ أنَّ لفظَ حديثِ الزِّيارةِ الَّذي هي سندِهِ باذامُ هو: «لعنَ اللهُ زائراتِ القُبورِ...»، أمَّا لفظُ «زوَّارات»؛ فأخرجهُ الترمذيُّ (١٠٥٦)، والطَّيالسيُّ (٨١٧)، وأحمدُ (٢/ ٣٣٧) بسند حَسَن؛ كما فصَّلتُه في «الإتمام» (٨٤٣٠).

د ـ تحسينُ سندِهِ بَعيدٌ؛ كما فصَّلهُ شيخُنا في «سلسلةِ الأحاديثِ الضَّعيفة» (رقم ٢٢٥).

هـ ـ أمَّا كلامُ شيخِ الإسلامِ؛ فقد وقفتُ عليهِ، وليسَ هٰذا الموضعُ موضعَ مناقشته رَحِمَهُ اللهُ.

١٣ ـ (٥٩/١): خرّج حَديثَ «يقولُ اللهُ تعالى: ابنَ آدَمَ! تفرَّغْ لِعبادَتي؛ أمْلأ صَدْرَكَ غِنى...»، ولم يوردْ لهُ إلا سنداً واحداً! مع أنَّ في سَندِهِ زائِدةَ بنَ نشيطٍ؛ مجهولٌ! وخفيَ عليهِ الشَّاهدُ الَّذي يصحِّحُه؛ كما ستراهُ في موضعِه في هٰذا الكتابِ.

١٤ ـ (١٤٩/١ ـ ١٥٠): حديثُ: «للهُ أشدُّ أذَناً للقارئِ حَسَنِ الصَّوْتِ بالقُرآنِ...»؛ خلَط في تخريجهِ خلطاً عجيباً، فانظُرْ لهُ تعليقي على «المنتقى النَّفيس» (ص٣١١).

١٥ ـ ومثلهُ في (١٩١/١) منهُ!

وغيره كثير!

وبعدُ:

فمجالُ تعقُّبِ هٰذه الطَّبعةِ كبيرٌ جدّاً، فلولا خشيةُ الإطالةِ؛ لضربتُ أمثلةً أكثرَ، وإنْ كانَ فيما ذكرْتُ كِفايَة لأهلِ الإنصافِ مِن طلبة العلم، مع التَّذكيرِ والتَّنبيهِ أنَّ جُلَّ هذهِ المُلاحظاتِ إنَّما جاءَ بحثاً استطراديّاً لا تتبُّعاً استقرائيّاً.

واللهُ الهَادي إلى سواءِ السَّبيلِ، وهو سُبحانهُ المُستعان.

❊ ❊ ❊



للإمام العلامة ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة ٧٥١ هـ رحمه الله

بقلم

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد
الحلبي الأثري

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمَةُ المؤلِّف

الحمدُ للهِ الذي ظَهَرَ لأوليائِه بنُعوتِ جلالِه، وأنارَ قلوبَهم بمُشاهدةِ صفاتِ كمالِه، وتعرَّف إليهم بما أسْداهُ إليهم من إنعامِهِ وإفضالِه، فعَلِموا أنَّهُ الواحدُ الأحدُ، الصَّمَدُ، الذي لا شريكَ له في ذاتِه ولا في صفاتِه ولا في أفعالِه، بل هو كما وَصَفَ بهِ نفسَه، وفوقَ ما يصفهُ بهِ أحدٌ مِن خلقِه في إكثارِه وإقلالِه.

لا يُحْصي أحدٌ ثناءً عليهِ، بل هو كما أثْنى على نفسِه على لِسانِ مَنْ أكْرَمَهُم بإرسالِهِ، الأولُ الذي ليسَ قبلَهُ شيءٌ، والآخِرُ الذي ليس بعدهُ شيءٌ، والباطنُ الذي ليسَ دونَه شيءٌ، الحيُّ القيُّومُ، الواحدُ الأحَدُ، الصَّمَدُ، المنفردُ بالبقاءِ، وكلُّ مخلوقٍ مُنتهي إلى زوالِه.

السميعُ الذي يسمعُ ضجيجَ الأصواتِ باختلافِ اللُّغاتِ على تفنُّنِ الحاجاتِ، فلا يَشْغَلُهُ سمعٌ عن سَمْعٍ، ولا تُغَلِّطُهُ المسائلُ، ولا يتبرَّمُ بإلحاحِ المُلِحِّينَ في سؤالِهِ، البصيرُ الذي يرى دَبيبَ النملةِ السوداءِ، على الصَّخرةِ الصمَّاءِ، في الليلةِ الظَّلماءِ، حيثُ كانت مِن سَهْلِه أو جِبالِه.

وألطفُ مِن ذلك رؤيتُهُ لتقلُّبِ قلبِ عبدِه، ومُشاهَدَتُه لاختلافِ أحوالِه، فإنْ أقبلَ إليهِ تلَقَّاهُ، وإنَّما إقبالُ العبدِ عليهِ مِن إقبالِه، وإنْ أعرضَ عنهُ لم يَكِلْهُ إلى غَيْرِه، ولم يَدَعْهُ في إهمالِه، بل يكونُ أرحمَ به من الوالدةِ بولدها الرفيقةِ به في حملِهِ ورضاعِه وفِصالِه. فإنْ تابَ؛ فهو أفرحُ بتوبتِه من الفاقدِ لراحلتِه التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في الأرضِ الدَّوِّيَّةِ[1] المُهْلِكَةِ إذ وجدها وقد تهيأ

---

(١) هي الصحراء المقفرة

لموتِه وانقطاعِ أوصالِه(١).

وإنْ أصرَّ على الإعراضِ ولم يتعرَّضْ لأسبابِ الرَّحمةِ، بل أصرَّ على العِصيانِ في إدبارِهِ وإقبالِه، وصالَحَ عَدُوَّ اللهِ وقاطَعَ سيِّدَه، فقد استحقَّ الهلاكَ، ولا يَهْلِكُ على اللهِ إلا الشقيُّ الهالكُ(٢) لعظيمِ رحمتِه وَسَعَةِ إفضالِه.

وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلَهاً واحداً أحداً صَمداً، جَلَّ عن الأشباهِ والأمثالِ، وتقدَّس عن الأضدادِ والأندادِ والشُّرَكاءِ والأشكالِ، لا مانعَ لما أعطى ولا مُعْطِيَ لما مَنَعَ، ولا رادَّ لحُكْمِهِ ولا مُعَقِّبَ لأمرِه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ القائمُ لهُ بحقِّهِ، وأمينُه(٣) على وحيِهِ، وخيرتُه مِن خَلْقِهِ، أرسلهُ رحمةً للعالمينَ، وإماماً للمتَّقينَ، وحسرةً على الكافرينَ، وحُجَّةً على العبادِ أجمعينَ، بعَثَهُ على حينِ فترةٍ مِن الرُّسلِ، فهدى بهِ إلى أقومِ الطُّرُقِ وأوضحِ السُّبُلِ، وافترضَ على العبادِ طاعتَه ومحبَّتَه، وتعظيمَه وتوقيرَه والقيامَ بحقوقِه، وسدَّ إلى جَنَّتِه جميعَ الطُّرُقِ فلم يَفْتَحْ لأحدٍ إلَّا مِن طريقِه، فشرحَ لهُ صدْرَهُ، ووضعَ عنهُ وِزْرَهُ، ورفعَ لهُ ذِكْرَه، وجعلَ الذُّلَّ والصَّغارَ على مَن خالَفَ أَمْرَه(٤)، وأقسمَ بحياتِه في كتابِه

---

(١) أي: أسباب حياته.
والمصنِّف ﷺ يُشير إلى قول النبي ﷺ: «للهُ أفرحُ بتوبةِ عبده المؤمن من رجلٍ نَزَل في أرضٍ دوِّيَّة...» إلخ.
رواه البخاري (١١/ ٨٨)، ومسلم (٢٧٤٤)؛ عن ابن مسعود.

(٢) كما رواه مسلم (١٣١) (٢٠٨) عن ابن عباس مرفوعاً بالحديث القُدسي.

(٣) أخرج البخاري (٨/ ٦٧)، ومسلم (١٠٦٤) (١٤٤)؛ عن أبي سعيد الخُدري عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «ألا تَأْمَنوني وأنا أمينُ مَن في السماء، يأتيني خَبَر مَن في السماء صباحَ مساء؟!».

(٤) وذلك قوله ﷺ: «بُعِثْتُ بالسيفِ بين يدي الساعة، حتى يُعْبَد الله تعالى وحده لا شريك له، وجُعِلَ رزقي تحت ظلِّ رمحي، وجُعِلَ الذُّلُّ والصَّغارُ على مَن خالَفَ أمري، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم» وهو حديث صحيح، طوّلت تخريجه في أوائل كتاب «الحِكَم الجديرة بالإذاعة...» (ص٨ ـ ٩) لابن رجب، بتعليقي.

المُبينِ[1]، وقرنَ اسمَهُ باسمِه، فلا يُذكَرُ إلَّا ذُكِرَ معهُ؛ كما في التشهُّدِ والخُطَبِ والتَّأذينِ.

فلم يزلْ ﷺ قائماً بأمرِ اللهِ لا يردُّهُ عنهُ رادٌّ، مُشَمِّراً في مرضاةِ اللهِ لا يصدُّهُ عن ذلك صادٌّ، إلى أنْ أشرَقَتِ الدُّنيا برسالتِه ضياءً وابتهاجاً، ودخَلَ الناسُ في دينِ اللهِ أفواجاً أفواجاً، وسارتْ دعوتُه مسيرَ الشمسِ في الأقطارِ، وبَلَغ دينُه القيِّمُ ما بلَغَ الليلُ والنّهار، ثم استأثرَ اللهُ بهِ لِيُنْجِزَ لهُ ما وعدَهُ بهِ في كتابِه المُبين، بعد أنْ بَلَّغَ الرِّسالةَ، وأدّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حَقَّ الجهاد، وأقامَ الدِّين، وتركَ أُمَّتَهُ على البيضاءِ[2] الواضحةِ البيِّنة للسّالكين، وقال: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أما بعد:

فإنَّ اللهَ سبحانَه لم يخلُقْ خَلْقَهُ سُدًى هَملاً، بل جعلَهُم مَوْرِداً للتَّكليفِ، ومحلًّا للأمرِ والنَّهْيِ، وألزمَهُم فَهْمَ ما أرشدَهُم إليهِ مُجمَلاً ومُفَصَّلاً، وقسَمهُمْ إلى شقيٍّ وسعيدٍ، وجعلَ لكلِّ واحدٍ مِن الفريقينِ مَنْزِلاً، وأعطاهُم موادَّ العلمِ والعملِ: مِن القلبِ، والسَّمعِ، والبصرِ، والجوارحِ، نعمةً منهُ وتَفَضُّلاً، فمَنِ استعملَ ذلك في طاعتِه، وسلكَ بهِ طريقَ معرفتِه على ما أرشدَ إليهِ، ولم يَبْغِ عنهُ عُدولاً؛ فقد قامَ بشُكْرِ ما أُوتيَه مِن ذلك، وسلكَ بهِ إلى مرضاةِ اللهِ سبيلاً، ومَن استعملهُ في إرادتِه وشَهَواتِه ولم يَرْعَ حقَّ خالقهِ فيهِ يَخْسَرْ إذا سُئل عن ذلك، ويَحْزَنْ حُزْناً طويلاً؛ فإنَّهُ لا بدَّ من الحِساب على حَقِّ هذه الأعضاءِ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].
وانظر: «بداية السول» (ص٣٧) للعزّ بن عبد السلام، بتحقيق شيخنا الألباني.

(٢) يُشير إلى قوله ﷺ: «تركتُكُم على مثل البيضاء نقيّة...».
وهو حديثٌ حسنٌ، خرَّجتُه في «أربعي الدعوة والدعاة» (رقم ٦).

ولمَّا كانَ القلبُ لهٰذه الأعضاءِ كالمَلِكِ المتصرِّفِ في الجنودِ، الذي تَصْدُرُ كلُّها عن أَمرِه، ويستعمِلُها فيما شاءَ، فكلُّها تحت عبوديَّتِه وقهرِه، وتكتسبُ منهُ الاستقامةَ والزَّيغَ، وتَتْبَعُهُ فيما يعقِدُه من العزم أو يحُلُّه، قال النبيُّ ﷺ: «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[1]، فهو مَلِكُها، وهي المُنَفِّذَةُ لما يأمُرها به، القابلةُ لما يأتيها من هديَّتِه. ولا يستقيمُ لها شيءٌ مِن أعمالِها حتى تَصْدُرَ عن قصدِه ونيَّتِه، وهو المسؤولُ عنها كُلِّها؛ لأنَّ كُلَّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيَّتِه[2]: كانَ الاهتمامُ بتصحيحِه وتسديدِه أولى ما اعْتَمَدَ عليهِ السَّالكونَ، والنَّظرُ في أمراضِهِ وعلاجِها أهمَّ ما تنسَّكَ به النَّاسِكونَ.

ولمَّا عَلِمَ عدُوُّ اللهِ إبليسُ أنَّ المدارَ على القلبِ والاعتمادِ عليهِ؛ أَجْلَبَ عليهِ بالوساوسِ، وأقبلَ بوجوهِ الشَّهواتِ إليهِ، وزيَّنَ لهُ مِن الأحوالِ والأعمالِ ما يصدُّهُ بهِ عن الطَّريقِ، وأمدَّهُ مِن أسبابِ الغَيِّ بما يقطَعُهُ عن أسبابِ التَّوفيقِ، ونَصَبَ لهُ مِن المصايدِ والحبائلِ ما إنْ سَلِمَ مِن الوقوعِ فيها لم تَسْلَم من أنْ يَحْصُلَ له بها التَّعويقُ، فلا نجاةَ مِن مصايِدِهِ ومكايدِهِ إلَّا بدوامِ الاستعانةِ باللهِ تعالى، والتعرُّضِ لأسبابِ مرضاتِه، والتجاءِ القلبِ إليهِ وإقبالِه عليهِ في حَرَكاتِه وسَكَناتِه، والتحقُّقِ بذُلِّ العُبوديَّةِ الذي هو أولى ما تلبَّسَ به الإنسانُ ليَحْصُلَ لهُ الدُّخولُ في ضمانِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فهٰذه الإضافةُ هي القاطعةُ بينَ العبدِ وبينَ الشَّياطينِ، وحصولُها سببُ تحقيقِ مقامِ العبوديَّةِ لربِّ العالمينَ، وإشعارِ القلبِ إخلاصَ العملِ، ودوامَ اليقينِ، فإذا أُشْرِبَ القلبُ العبوديةَ والإخلاصَ صارَ عندَ اللهِ مِن المُقرَّبينَ، وشَمِلَهُ استثناءُ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٣].

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٩)، ومسلم (١٢١٩)؛ عن النعمان بن بشير.

(٢) كما أخرجه البخاري (١٣/ ١٠٠)، ومسلم (١٨٢٩)؛ عن ابن عُمَر.

ولمَّا منَّ اللهُ الكريمُ بلُطْفِهِ بالاطِّلاعِ على ما اطُّلِعَ عليهِ مِن أمراضِ القُلوبِ وأدوائِها، وما يَعْرِضُ لها من وساوِسِ الشياطينِ أعدائِها، وما تُثْمِرُ تلكَ الوساوسُ مِن الأعمالِ، وما يكتسبُ القلبُ بعدَها مِن الأحوالِ؛ فإنَّ العملَ السَّيِّء مصدرُهُ عن فسادِ قَصْدِ القلبِ، ثم يعرضُ للقلبِ مِن فسادِ العملِ قسوةٌ، فيزدادُ مرضاً على مرضِهِ حتى يموتَ، ويبقى لا حياة فيهِ ولا نورَ له.

وكلُّ ذٰلك من انفعالِهِ بوسوسةِ الشَّيطانِ، ورُكونِه إلى عدوِّهِ الذي لا يُفْلِحُ إلَّا مَن جَاهَرَهُ بالعصيانِ: أردتُ أنْ أُقَيِّدَ ذٰلك في هٰذا الكتابِ؛ لأستَذْكِرَهُ مُعترفاً فيهِ للهِ بالفضلِ والإحسانِ، ولينتَفِعَ بهِ مَن نَظَرَ فيهِ داعياً لمؤلِّفِهِ بالمغفرةِ والرحمةِ والرِّضوانِ. وسمَّيْتُهُ: «إغاثَة اللَّهْفان في مصائِدِ الشَّيطانِ»[١].

ورتَّبْتُهُ على ثلاثةَ عشرَ باباً، آخرها في مكايدِ الشَّيطانِ التي يَكيدُ بها ابنَ آدَمَ، وهو البابُ[٢] الذي لأجلِه وُضِعَ الكتابُ، وفيه فصولٌ جمَّةُ الفوائدِ، حسَنَةُ المقاصدِ.

واللهُ تعالى يجعَلُهُ خالصاً لوجهِهِ، مؤمِّناً مِن الكَرَّةِ الخاسرةِ، وينفعُ بِهِ مصنِّفَهُ وكاتِبَهُ[٣] والنَّاظِرَ فيهِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ إنَّهُ سميعٌ عليمٌ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ.

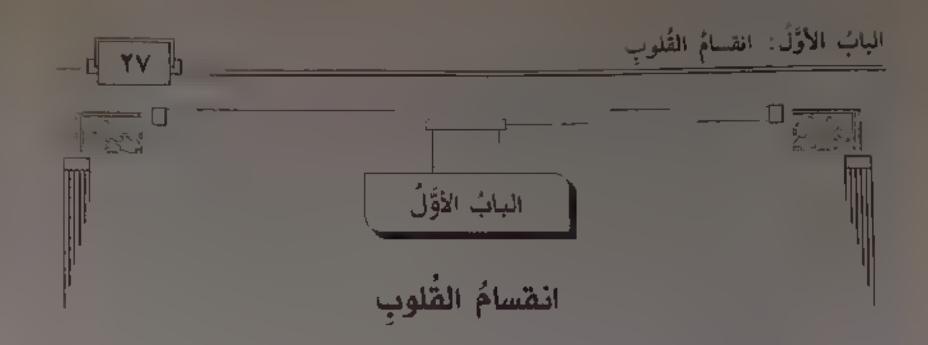
---

(١) وبين يديك مختصره المسمَّى: «موارد الأمان»، عسى أن أكون قد قرَّبتُ فوائده.

(٢) وهو أطول أبوابه كلِّها، إذ استغرق ثلاثة أرباع الكتاب.

(٣) ومختصِرَه وناشِره.





انقسامُ القُلوبِ

لمَّا كانَ القلبُ يُوصَفُ بالحياةِ وضدِّها؛ انقسمَ بحَسَبِ ذلك إلى أحوالٍ ثلاثةٍ:

○ أولاً: القلبُ الصَّحيحُ:

وهو القلبُ السليمُ الذي لا ينجو يومَ القيامةِ إلَّا مَن أتى اللهَ بهِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ و٨٩].

والسليمُ هو السَّالمُ، وجاء على هٰذا المثالِ؛ لأنَّهُ للصفاتِ؛ كالطويلِ، والقصيرِ، والظَّريفِ.

فالسَّليمُ القلبِ: الذي قد صارَتِ السَّلامةُ صفةً ثابتةً لهُ، كالعليمِ والقديرِ، وأيضاً؛ فإنَّهُ ضدُّ المريضِ، والسقيمِ، والعليلِ.

وقد اختلفتْ عباراتُ النَّاسِ في معنى القلبِ السَّليمِ.

والأمرُ الجامعُ لذلك أنه الذي قد سَلِمَ مِن كُلِّ شهوةٍ تُخالفُ أمرَ اللهِ ونهيَهُ، ومِن كُلِّ شُبهةٍ تُعارِضُ خبرَهُ، فسَلِمَ مِن عبوديَّةِ ما سواهُ، وسَلِمَ مِن تحكيمِ غيرِ رسولِهِ، فسلم في محبَّةِ اللهِ مع تحكيمِهِ لرسولِهِ في خوفِه ورجائِهِ والتوكُّلِ عليهِ، والإنابةِ إليهِ، والذُّلِّ لهُ، وإيثارِ مرضاتِه في كلِّ حالٍ، والتَّباعُدِ مِن سَخَطِهِ بكلِّ طريقٍ. وهٰذا هو حقيقةُ العُبوديَّةِ التي لا تصلُحُ إلا للهِ وحدَه.

فالقلبُ السَّليمُ: هو الذي سَلِمَ مِن أنْ يَكونَ لغيرِ اللهِ فيهِ شِرْكٌ بوجهٍ ما، بل قد خَلَصَتْ عبوديتُه للهِ تعالى: إرادةً ومحبَّةً، وتوكُّلاً، وإنابةً، وإخباتاً،

وخشيةً، ورجاءً، وخَلُصَ عملُه للهِ، فإنْ أحبَّ أحبَّ في اللهِ، وإنْ أبغضَ أبغضَ في اللهِ، وإنْ أعطى أعطى للهِ، وإنْ مَنَعَ منعَ للهِ(١).

ولا يكفيهِ هذا حتى يَسْلَمَ مِن الانقيادِ والتَّحكيمِ لكُلِّ مَن عدا رسولِه صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآله وسلَّم، فيعقدُ قلبُه معهُ عَقْداً مُحْكَماً على الائتمامِ والاقتداءِ بهِ وحدَه، دونَ كلِّ أحدٍ في الأقوالِ والأعمالِ، مِن أقوالِ القلبِ ـ وهي العقائدُ ـ وأقوالِ اللسانِ ـ هي الخبرُ عمَّا في القلبِ ـ، وأعمالِ القلبِ ـ وهي الإرادةُ والمحبَّةُ والكراهةُ وتوابعُها ـ، وأعمالُ الجوارحِ.

فيكونُ الحاكمُ عليهِ في ذٰلك كُلِّه؛ دِقِّهِ وجِلِّه، هو ما جاءَ بهِ الرسولُ صلى اللهُ تعالى عليهِ وآله وسلَّم، فلا يتقدَّمُ بينَ يديهِ بعقيدةٍ ولا قولٍ ولا عَمَلٍ، كما قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]؛ أي: لا تقولوا حتى يقولَ، ولا تفعلوا حتى يأْمُرَ.

قالَ بعضُ السَّلَفِ: ما مِن فِعْلَةٍ ـ وإنْ صَغُرتْ ـ إلَّا يُنشَرُ لها ديوانانِ: لِمَ؟ وكيفَ؟

أي: لِمَ فعلتَ؟ وكيفَ فعلتَ؟

فالأوَّلُ سؤالٌ عن علَّةِ الفعلِ، وباعثِهِ، وداعيهِ: هل هو حظٌّ عاجلٌ مِن حُظوظِ العاملِ، وغرضٌ مِن أغراضِ الدُّنيا في محبَّةِ المدحِ مِن الناسِ، أو خوفِ ذَمِّهم، أو استجلابِ محبوبٍ عاجلٍ، أو دفعِ مكروهٍ عاجلٍ، أم الباعثُ على الفعلِ القيامُ بحقِّ العبوديَّةِ، وطلبُ التودُّدِ والتقرُّبِ إلى الرَّبِّ ﷻ، وابتغاءُ الوسيلةِ إليهِ.

ومحلُّ هٰذا السؤالِ أنَّهُ: هل كانَ عليكَ أنْ تفعَلَ هٰذا الفعلَ لمولاكَ، أم فعَلْتَهُ لحظِّكَ وهواكَ؟

---

(١) كما ورد ذلك في حديث صحيح لغيره:
أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، والبغوي (١٣/ ٥٤)؛ عن أبي أُمامة بسند حسن.
وأخرجه الترمذي (٢٥٢١)، وأحمد (٣/ ٤٤٠)؛ عن مُعاذ بن أنس، وفيه ضعف.
وانظر: «أربعي الشخصيَّة الإسلاميَّة» (رقم ٢٠) بقلمي.

والثاني: سؤالٌ عن متابعةِ الرَّسولِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في ذٰلك التعبُّدِ؛ أي: هل كانَ ذٰلك العملُ ممَّا شَرَعْتُهُ لكَ على لسانِ رسولي، أمْ كانَ عملاً لم أشْرَعْهُ ولم أرْضَهُ؟

فالأوَّلُ: سؤالٌ عن الإخلاصِ، والثاني: عن المُتابَعَةِ؛ فإنَّ اللهَ لا يقبلُ عملاً إلَّا بِهِما[1].

فطريقُ التخلُّصِ مِن السؤالِ الأوَّلِ بتجريدِ الإخلاصِ.

وطريقُ التخلُّصِ مِن السؤالِ الثَّاني بتحقيقِ المُتابعةِ، وسلامةِ القلبِ مِن إرادةٍ تُعارِضُ الإخلاصَ، وهوًى يُعارِضُ الاتِّباعَ.

فهٰذا حقيقةُ سلامةِ القلبِ الذي ضُمِنَتْ لهُ النجاةُ والسعادةُ.

○ ثانياً: القلبُ الميِّتُ:

هو الذي لا حياةَ بهِ، فهو لا يعرِفُ ربَّهُ، ولا يعبُدُه بأمرِهِ وما يحبُّهُ ويرضاهُ، بل هو واقفٌ مع شهواتِه ولذاذاتِه، ولو كانَ فيها سَخَطُ ربِّهِ وغضبُهُ. فهو لا يُبالي إذا فاز بشهوتِه وحظِّهِ، رضي ربُّهُ أم سَخِطَ، فهو متعبِّدٌ لغيرِ اللهِ؛ حُبّاً، وخوفاً، ورجاءً، ورِضًى، وسخطاً، وتعظيماً، وذُلّاً، إنْ أحبَّ أحبَّ لهواه، وإنْ أبغضَ أبغضَ لهواهُ، وإنْ أعطى أعطى لهواهُ، وإنْ مَنَعَ منعَ لهواهُ. فهواهُ آثرُ عندَه وأحبُّ إليهِ مِن رضى مولاهُ، فالهوى[2] إمامُهُ، والشهوةُ قائدُهُ، والجهلُ سائقُهُ، والغفلةُ مركَبُهُ.

فهُو بالفكرِ في تحصيلِ أغراضِهِ الدُّنيويَّةِ مغمورٌ، وبسكرةِ الهوى وحُبِّ

---

(١) قال ابنُ كثير في «تفسيره» (١/٢٣١): «... فإن للعَمَل المتقبَّل شرطين: أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً؛ لم يُتَقَبَّل».

(٢) وقد استللتُ من «روضة المحبِّين» للمصنِّف رحمه الله رسالةَ «ذم الهوى واتِّباعه»، وهي جد نافعة، نشر المكتبة الإسلامية، عمان.

العاجلةِ مخمورٌ، يُنادى إلى اللهِ وإلى الدَّارِ الآخرةِ مِن مكانٍ بعيدٍ، ولا يستجيبُ للنَّاصحِ، ويتَّبعُ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ، الدُّنيا تُسخِطُهُ وتُرضيهِ، والهوى يُصِمُّهُ عمَّا سوى الباطلِ ويُعميهِ، فهو في الدُّنيا كما قيلَ في ليلى:

عَدُوٌّ لِمَنْ عادَتْ وسِلْمٌ لأهْلِها ... ومَنْ قَرَّبَتْ لَيْلى أحَبُّ وأَقْرَبُ

فمخالَطةُ صاحبِ هٰذا القلبِ سَقَمٌ، ومعاشرتُهُ سُمٌّ، ومجالستُه هلاكٌ.

• ثالثاً: القلبُ المريضُ:

قلبٌ لهُ حياةٌ وبهِ عِلَّةٌ، فله مادَّتانِ، تمدُّهُ هٰذه مرةً، وهٰذه أُخرى، وهو لِما غلبَ عليهِ منهُما.

ففيهِ مِن محبَّةِ اللهِ تعالى والإيمانِ بهِ والإخلاصِ لهُ، والتوكُّلِ عليهِ ما هُو مادَّةُ حياتِه.

وفيهِ مِن محبَّةِ الشَّهواتِ وإيثارِها والحرصِ على تحصيلِها، والحسدِ، والكِبْرِ، والعُجْبِ، وحُبِّ العُلُوِّ والفسادِ في الأرضِ بالرياسةِ ما هُو مادةُ هلاكِه وعَطَبِه.

وهو مُمْتَحَنٌ بينَ داعيينِ: داعٍ يدعوهُ إلى اللهِ ورسولِهِ والدَّارِ الآخرةِ، وداعٍ يدعوهُ إلى العاجلةِ.

وهو إنَّما يُجيبُ أقرَبَهُما منهُ باباً، وأدناهُما إليهِ جِواراً.

فالقلبُ الأوَّلُ حيٌّ مُخْبِتٌ ليِّنٌ واعٍ.

والثاني: يابسٌ مَيِّتٌ.

والثالثُ: مريضٌ، فإمَّا إلى السَّلامةِ أدنى، وإمَّا إلى العَطَبِ أدنى.

وقد جمعَ اللهُ سبحانَه بينَ هٰذه القلوبِ الثلاثةِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

فجَعلَ اللهُ ﷻ القلوبَ في هٰذه الآياتِ ثلاثةً: قلبينِ مفتوينِ، وقلباً ناجياً:

فالمفتونانِ: القلبُ الذي فيهِ مرضٌ، والقلبُ القاسي.

والنَّاجي: القلبُ المؤمنُ المُخْبِتُ إلى ربِّهِ، وهو المطمئنُّ إليهِ، الخاضعُ لهُ، المستسلمُ المُنْقادُ.

وذٰلك أنَّ القلبَ وغيرَه مِن الأعضاءِ يُرادُ منهُ أنْ يكونَ صحيحاً سليماً لا آفةَ بِهِ، يتأتَّى منهُ ما هُيِّئَ لهُ، وخُلِقَ لأجْلِهِ.

وخروجُهُ عن الاستقامةِ[1]: إمَّا لِيُبْسِهِ وقساوتِه، وعدمِ التأتِّي لما يُرادُ منهُ؛ كاللسانِ الأخرسِ، والعينِ التي لا تُبْصِرُ شيئاً، وإمَّا بمرضٍ وآفةٍ فيه تمنَعُهُ مِن كمالِ هٰذه الأفعالِ ووقوعِها على السَّدادِ.

فلذٰلكَ انقسمتِ القلوبُ إلى هذه الأقسامِ الثلاثةِ:

فالقلبُ الصَّحيحُ السليمُ: ليس بينَه وبينَ قَبولِ الحقِّ[2] ومحبَّتِهِ وإيثارِهِ سوى إدراكِهِ، فهو صحيحُ الإدراكِ للحقِّ، تامُّ الانقيادِ والقَبولِ لهُ.

والقلبُ الميِّتُ القاسي: لا يقبَلُهُ ولا يَنقادُ لهُ.

والقلبُ المريضُ: إنْ غَلَبَ عليهِ مرضُهُ الْتَحَقَ بالميِّتِ القاسي، وإنْ غلبتْ عليهِ صحَّتُه التَحَقَ بالسَّليمِ.

فما يُلقيهِ الشيطانُ في الأسماعِ مِن الألفاظِ، وفي القُلوبِ مِن الشُّبه والشُّكوكِ: فتنةٌ لهٰذينِ القلبينِ، وقوةٌ للقلبِ الحيِّ السليمِ؛ لأنَّهُ يَرُدُّ ذلك ويكرهُهُ ويُبْغِضُهُ، ويعلمُ أنَّ الحقَّ في خلافِهِ، فيُخْبِتُ للحقِّ ويطمئنُّ وينقادُ،

---

(١) ولي رسالة: «الاستقامة وأثرها في تحقيق العُبودية لله سبحانه»، يسَّر الله إتمامها.

(٢) وفي رسالتي: «قَبول الحقِّ بين الدوافع والموانع» تفصيل ما أُجمِلَ هنا.

ويعلمُ بُطلانَ ما ألقاهُ الشيطانُ، فيزدادُ إيماناً بالحقِّ، ومحبّةً لهُ، وكفراً بالباطلِ، وكراهةً لهُ، فلا يزالُ القلبُ المفتونُ في مِريةٍ مِن إلقاءِ الشَّيطانِ.

وأمَّا القلبُ الصحيحُ السليمُ: فلا يضرُّهُ ما يُلقيهِ الشَّيطانُ أبداً.

قال حُذيفةُ بنُ اليمانِ ﷺ: قال رسولُ اللهِ ﷺ «**تُعْرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كعَرْضِ الحصيرِ عُوداً عُوداً، فأَيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيهِ نُكْتَةٌ سوداءُ، وأَيُّ قلبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فيهِ نُكتةٌ بيضاءُ، حتَّى تعودَ القلوبُ على قلبينِ: قلبٍ أَسودَ مُرْباداً كالكُوزِ مُجَخِّياً، لا يَعْرِفُ معروفاً ولا يُنْكِرُ مُنكَراً؛ إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ، وقلْبٍ أبيضَ، فلا تضُرُّهُ فِتنةٌ ما دامتِ السَّماواتُ والأرضُ**»(١).

فشبَّهَ عرضَ الفِتَنِ على القُلوبِ شيئاً فشيئاً؛ كعَرْضِ عيدانِ الحصيرِ ـ وهي طاقاتُه ـ شيئاً فشيئاً.

وقسَّمَ القلوبَ عندَ عرضِها عليها إلى قسمينِ

قلبٌ إذا عُرِضَتْ عليهِ فتنةٌ أُشْرِبهَا؛ كما يُشرَبُ السِّفَنْجُ الماءَ، فتُنْكَتُ فيه نكتةٌ سوداءُ، فلا يزالُ يُشْرَبُ كلَّ فتنةٍ تُعْرَضُ عليهِ حتى يَسْوَدَّ وينتكسَ، وهو معنى قولِه: «كالكوزِ مُجَخِّياً»؛ أَي: مكبوباً منكوساً، فإذا اسودَّ وانتكسَ عرضَ لهُ مِن هاتينِ الآفتينِ مرضانِ خطيرانِ مترامِيانِ بهِ إلى الهلاكِ:

أحدُهُما: اشتباهُ المعروفِ عليهِ بالمنكرِ، فلا يعرِفُ معروفاً، ولا يُنْكِرُ منكراً، وربَّما استحكمَ عليهِ هٰذا المرضُ حتى يعتقدَ المعروفَ منكراً، والمنكرَ معروفاً، والسُّنَّةَ بِدعةً والبدعةَ سُنَّةً، والحقَّ باطلاً والباطلَ حقّاً.

الثَّاني: تحكيمُهُ هواهُ على ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّم، وانقيادُهُ للهوى واتِّباعُه لهُ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٤).
(نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداءُ)، أي: أثَّر فيه أثراً أسود، وهو دليل السَّخط
(مُربدّاً). هو الذي في لونِه رُبْدَةٌ، وهي بين السواد والغُبرة.

وقلبٌ أبيضُ قد أشرقَ فيهِ نورُ الإيمانِ، وأزهَرَ فيهِ مِصباحُهُ، فإذا عُرضتْ عليهِ الفتنةُ أنكرَها وردَّها، فازدادَ نورُه وإشراقُه وقوَّتُه.

والفِتَنُ التي تُعْرَضُ على القلوبِ هي أسبابُ مرضِها، وهي فِتَنُ الشَّهواتِ وفِتَنُ الشُّبُهاتِ[1]، فِتَنُ الغيِّ والضَّلالِ، فتنُ المعاصي والبِدَعِ، فتنُ الظُّلمِ والجهلِ.

فالأولى توجِبُ فسادَ القصدِ والإرادةِ.

والثانيةُ توجِبُ فسادَ العلمِ والاعتقادِ.

وقد قسَّمَ الصحابةُ رضيَ اللهُ تعالى عنهُم القُلوبَ إلى أربعةٍ؛ كما صحَّ[2] عن حُذيفةَ بنِ اليمانِ: «القُلوبُ أربعةٌ: قلبٌ أجردُ فيهِ سراجٌ يُزهِرُ، فذلك قلبُ المؤمنِ، وقلبٌ أغلفُ، فذلك قلبُ الكافرِ، وقلبٌ منكوسٌ، فذلك قلبُ المنافقِ، عَرَفَ ثم أَنْكَرَ، وأبصَرَ ثم عَمِيَ، وقلبٌ تمدُّهُ مادَّتانِ: مادَّةُ إيمانٍ، ومادَّةُ نفاقٍ، وهو لِما غَلَبَ عليهِ منهُما».

فقولُهُ: «قلبٌ أجردُ»؛ أي: متجرِّدٌ ممَّا سوى اللهِ ورسولِهِ، فقد تجرَّدَ وسَلِمَ ممَّا سوى الحقِّ.

و«فيهِ سراجٌ يُزْهِرُ»، وهو مِصباحُ الإيمانِ، فأشارَ بتجرُّده إلى سلامتِه مِن شُبُهاتِ الباطلِ وشَهَواتِ الغيِّ، وبحصولِ السِّراجِ فيهِ إلى إشراقِهِ واستنارتِه بنورِ العلمِ والإيمانِ.

وأشارَ بـ«القلبِ الأغلفِ» إلى قلبِ الكافرِ؛ لأنَّهُ داخلٌ في غلافِهِ وغشائِه،

---

(١) وهما أساسُ كلِّ شرٍّ.

(٢) سنده صحيحٌ موقوفاً، وقد رُوي مرفوعاً، ولا يصحُّ.
وقد خرَّجتُه في تعليقي على «اتِّباع الرسول بصحيح المنقول وصريح المعقول» (ص٣٥ ـ ٣٦) لشيخ الإسلام ابن تيميَّة، طبع المكتبة الإسلامية.
ويُراد عليه أنَّه قد رواه موقوفاً ـ أيضاً ـ: الإمام عبدُ الله ابن الإمام أحمد في «السنة» (٨٢٠)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (ص١٧)؛ بالسند الصحيح أيضاً.

فلا يَصِلُ إليهِ نورُ العلمِ والإيمانِ؛ كما قال تعالى حاكياً عن اليهودِ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨]، وهو جمعُ (أغلف)، وهو الدَّاخلُ في غلافِه، كقُلْفٍ وأقْلَف[١].

وهٰذه الغِشاوةُ هي الأكِنَّةُ التي ضَرَبَهَا اللهُ على قلوبِهم، عقوبةً لهُم على ردِّ الحقِّ والتكبُّرِ عن قَبولِه، فهي أكِنَّةٌ على القُلوبِ، ووقْرٌ في الأسماعِ، وعمًى في الأبصار، وهي الحجابُ المستورُ عن العيونِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥ و٤٦].

فإذا ذُكِرَ لهٰذه القلوبِ تجريدُ التَّوحيدِ وتجريدُ المتابعةِ؛ ولَّى أصحابُها على أدبارِهِم نُفوراً.

وأشارَ بـ«القلبِ المَنكوسِ» ـ وهو المكبوبُ ـ إلى قلبِ المنافقِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النساء: ٨٨]؛ أي: نَكَّسَهُم وردَّهُم في الباطلِ الذي كانُوا فيهِ، بسَبَبِ كسبِهم وأعمالِهم الباطلةِ.

وهٰذا شرُّ القُلوبِ وأخْبَثُها؛ فإنَّهُ يعتقدُ الباطلَ حقّاً ويُوالي أصحابَهُ، والحقَّ باطلاً ويُعادي أهلَهُ.

فاللهُ المستعانُ.

وأشارَ بـ«القلبِ الذي لهُ مادَّتانِ» إلى القلبِ الذي لم يتمكَّنْ فيهِ الإيمانُ، ولم يُزْهِرْ فيهِ سراجُهُ، حيث لم يتجرَّدْ للحقِّ المَحْضِ الذي بَعَثَ اللهُ بِهِ رسولَهُ، بل فيهِ مادَّةٌ منهُ، ومادَّةٌ من خِلافِه، فتارةً يكونُ للكُفْرِ أقربَ منهُ للإيمانِ، وتارةً يكونُ للإيمانِ أقربَ منهُ للكُفْرِ، والحُكْمُ للغالِبِ وإليهِ يَرْجِعُ.

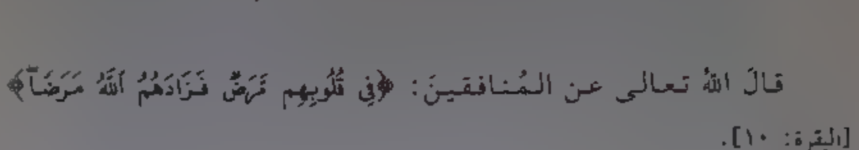
---

(١) (القُلْفة): هي «الجِلدة التي تُقْطَع في الختان»؛ كما في «المصباح المنير» (٥١٤)، ومن لم تُقْطَع جلدتُه، فهو أقلف، والجمع قُلْف.





الباب الثَّاني



ذِكْرُ حَقيقةِ مرضِ القلبِ

قالَ اللهُ تعالى عن المُنافقينَ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣].

وقالَ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ أمرَهُنَّ أنْ لا يَلِنَّ في كلامِهِنَّ؛ كما تلينُ المرأةُ في منطِقِها، فيطمَعَ الذي في قلبِهِ مرضُ الشهوةِ، ومع ذلك فلا يَخْشَنَّ في القولِ بحيثُ يلتحقُ بالفُحْش، بل يقُلْنَ قولاً معروفاً[١].

وقالَ تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ...﴾ الآية [الأحزاب: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ [المدثر: ٣١].

فأخبرَ اللهُ سُبحانَه عن الحِكمةِ التي جَعَلَ لأجلِها عِدَّةَ الملائكةِ الموَكَّلينَ بالنَّارِ تسعةَ عشرَ[٢]. فذَكَرَ سُبحانَه خمسَ حِكَمٍ:

---

(١) أي وسطاً بين هذين.

(٢) وتمويهاتُ البهائيِّين وبعض جهَلة المسلمين في الرقم (١٩) مما لا ينبغي الالتفات إليه، أو الاعتزاز به، إنْ هي إلا زخارف باطلة، ومقالات عاطلة =

أ ـ فِتْنَةُ الكافِرينَ: فيكونُ ذٰلك زيادةً في كُفرِهم وضلالِهم.

ب ـ وقُوَّةُ يقينِ أهلِ الكتابِ: فيقوى يقينُهُم بموافقةِ الخَبَرِ بذٰلك لما عندَهُم عن أنبيائِهم مِن غيرِ تَلَقٍّ مِن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وآلِهِ وسلَّمَ عنهُم، فتقومُ الحُجَّةُ على مُعانِدِهِم، وينقادُ للإيمانِ مَن يُرِدِ اللهُ أنْ يهْدِيَهُ.

ج ـ وزِيادةُ إيمانِ الَّذين آمَنوا: بكمالِ تصديقِهِم بذٰلك والإقرارِ بِهِ.

د ـ وانتفاءُ الرَّيْبِ عن أهلِ الكتابِ: لجزمِهِم بذٰلك، وعن المؤمِنينَ لكمالِ تصديقِهِم بِهِ.

فهٰذه أربعةُ حِكَمٍ: فتنةُ الكُفَّارِ، ويقينُ أهلِ الكتابِ، وزيادةُ إيمانِ المؤمنينَ، وانتفاءُ الرَّيْبِ عن المؤمنينَ وأهلِ الكتابِ.

والخامسةُ: حَيْرَةُ الكافِرِ ومَن في قَلبِهِ مرضٌ، وعَمِيَ قلبُهُ عن المرادِ بذٰلك، فيقولُ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

وهٰذا حالُ القلوبِ عندَ وُرودِ الحقِّ المُنَزَّلِ عليها:

قلبٌ يَفْتَتِنُ بِهِ كُفراً وجُحوداً.

وقلبٌ يزدادُ بِهِ إيماناً وتصديقاً.

وقلبٌ يتيقَّنُهُ عليهِ بِهِ الحجَّةُ.

وقلبٌ يُوجِبُ له حيرةً وعمًى، فلا يَدْري ما يُرادُ بِهِ!

واليقينُ وعدمُ الرَّيبِ في هٰذا الموضعِ إنْ رَجَعا إلى شيءٍ واحدٍ؛ كانَ ذِكْرُ عدمِ الرَّيبِ مقرِّراً لليقينِ، ومؤكِّداً لهُ، ونافياً عنهُ ما يضادُّهُ بوجهٍ مِن الوجوهِ، وإنْ رَجعا إلى شيئينِ، بأنْ يكونَ اليقينُ راجعاً إلى الخَبَرِ المذكورِ عن عدَّةِ الملائكةِ، وعدَمُ الرَّيبِ عائداً إلى عُموم ما أخبرَ الرسولُ بِهِ؛ لدلالةِ هٰذا الخبرِ الذي لا يُعْلَمُ إلَّا مِن جهةِ الرُّسُلِ على صدقِهِ، فلا

= وانظر تعليقي على هذه الضلالة في: «التصفية والتربية وأثرهما في استئناف الحياة الإسلامية» (ص٣٤ ـ ٣٥، بقلمي).

يَرْتَابُ مَن قد عَرَفَ صحّةَ هٰذا الخبرِ بعدَ صدقِ الرسولِ ﷺ، ظهرتْ فائدةُ ذكرِه.

والمقصودُ: ذِكْرُ مَرَضِ القلبِ وحقيقتِه.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: ٥٧]، فهو شفاءٌ لما في الصُّدورِ مِن مرضِ الجَهْلِ، والغَيِّ؛ فإنَّ الجهلَ مرضٌ شفاؤهُ العلمُ والهُدى، والغَيُّ مرضٌ شِفاؤهُ الرُّشْدُ.

وقد نَزَّهَ اللهُ سبحانَه نبيَّهُ عن هٰذينِ الداءينِ، فقالَ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ١ ـ ٢].

ووصَفَ رسولُهُ صلى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ خُلفاءَهُ بضدِّهما، فقال: **«عليكُم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ المهديِّينَ مِن بعدي»**[1].

وجعَلَ كلامَه سُبحانَه موعظةً للنَّاسِ عامَّةً، وهُدى ورحمةً لمن آمَنَ بهِ، خاصَّةً، وشفاءً تامّاً لما في الصُّدورِ، فمَنْ استشفى بهِ صحَّ وبرئَ مِن مرضِهِ، ومَن لم يستَشْفِ بهِ؛ فهو كما قيلَ:

إذا بَلَّ[2] مِنْ داءٍ بهِ ظَنَّ أَنَّهُ ... نَجا وبهِ الدَّاءُ الّذي هُو قَاتِلُهْ

وقالَ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢]، والأظهرُ أنَّ (مِن) ها هُنا لبيانِ الجنسِ، فالقرآنُ جميعُه شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين.

---

(١) هو قطعة من حديث: «تركتُكم على البيضاء...» المتقدِّم تخريجه. ولهذه القطعة منه شواهد عدَّة.

وانظر: «جامع العلوم والحكم» (ص٢٤٣ ـ ٢٥٤) لابن رجب.

(٢) قال الشيخ محمد حامد الفقي: «بلّ وأبلّ من مرضه: إذا تَعافى وبَرَأَ منه، والبيتُ في الهَرَم والشيخوخة؛ فإنَّ الهرِم إذا برئَ من مرَضٍ عارضٍ؛ فإنه لن يبرأ من ضعفِ الكِبر والشيخوخة».

أسبابُ ومُشخَّصاتُ مرضِ البدنِ والقَلْبِ:

ولمَّا كانَ مَرَضُ البدنِ خلافَ صحَّتِهِ وصلاحِهِ، وهو خروجُهُ عن اعتدالِهِ الطبيعيِّ؛ لفسادٍ يَعْرِضُ لهُ، يُفْسِدُ بِهِ إدراكَهُ وحَرَكَتَهُ الطَّبيعيَّةَ.

فإمَّا أَنْ يُذْهِبَ إدراكَهُ بالكُلِّيَّةِ كالعَمى والصَّمَمِ والشَّلَلِ.

وإمَّا أَنْ يُنْقِصَ إدراكَهُ لضعفٍ في آلاتِ الإدراكِ مع استقامةِ إدراكِهِ.

وإما أَنْ يُدْرِكَ الأشياءَ على خِلافِ ما هِيَ عليهِ؛ كما يُدْرِكُ الحلوَ مرّاً، والخبيثَ طيِّباً، والطَّيِّب خبيثاً.

ومدارُ الصِّحَّةِ على حفظِ القوَّةِ، والحِمْيَةِ عن المؤذي، واستفراغ الموادِّ الفاسدةِ.

ونَظَرُ الطَّبيبِ دائرٌ على هٰذه الأصولِ الثلاثةِ، وقد تضمَّنَها الكتابُ العزيزُ، وأرشدَ إليها مَن أَنْزَلَهُ شفاءً ورحمةً:

فأمَّا حِفْظُ القوَّةِ؛ فإنَّهُ سبحانَه أَمَرَ المسافرَ والمريضَ أَنْ يُفْطِرا في رمضانَ، ويَقْضي المسافرُ إذا قَدِمَ، والمريضُ إذا برئَ[1]، حِفْظاً لقوَّتهما عليهما، فإنَّ الصومَ يزيدُ المريضَ ضَعْفاً، والمسافرُ يحتاجُ إلى توفيرِ قوَّته عليه لمشقَّةِ السَّفرِ، والصَّومُ يُضْعِفُها.

وأمَّا الحِمْيَةُ عن المؤذي؛ فإنَّهُ سبحانَه حمى المريضَ عن استعمال الماءِ البارِدِ في الوضوءِ والغُسْلِ إذا كانَ يضرُّهُ، وأمرهُ بالعُدولِ إلى التيمُّم[2]؛ حِمْيةً لهُ عن وُرودِ المؤذي عليهِ مِن ظاهرِ بدَنِه، فكيف بالمؤذي لهُ في باطنِهِ؟!

وأمَّا استفراغُ المادَّةِ الفاسدَةِ؛ فإنَّهُ سبحانَه أباحَ للمُحْرِمِ الذي بهِ أذًى مِن

(١) كما هو نصُّ آياتِ الصيام في سورة البقرة (١٨٣ ـ ١٨٥). وانظر كتابنا «صفة صوم النبي ﷺ في رمضان» (ص٣٤ ـ ٤٠).

(٢) كما في الآية (٦٥) من سورة المائدة.

رأْسِهِ أَنْ يَحْلِقَهُ[1]، فيسْتَفْرِغُ بالحَلْقِ الأبخرةَ المؤذيةَ لهُ، وهٰذا من أسهلِ أنواعِ الاستفراغِ وأخفِّها، فنبَّهَ بهِ على ما هو أحوجُ إليهِ منهُ.

وإذا عُرِفَ هٰذا؛ فالقلبُ محتاجٌ إلى:

ما يحفظُ عليهِ قوَّتَه، وهو الإيمانُ وأورادُ الطَّاعاتِ.

وإلى حِمْيَةٍ عن المؤذي الضَّارِّ، وذٰلك باجتنابِ الآثامِ والمعاصي، وأنواعِ المُخالَفاتِ.

وإلى استفراغِهِ مِن كلِّ مادةٍ فاسدةٍ تَعْرِضُ لهُ، وذٰلك بالتوبةِ النَّصوحِ، واستغفارِ غافرِ الخطيئاتِ.

ومرضُهُ هو نوعُ فسادٍ يحصُلُ لهُ، يفْسُدُ بهِ تصوُّرُهُ للحقِّ وإرادتُهُ لهُ، فلا يرى الحقَّ حقّاً، أو يراهُ على خِلافِ ما هو عليهِ، أو ينقُصُ إدراكُهُ لهُ، وتفسدُ بهِ إرادتُهُ لهُ، فيُبْغِضُ الحقَّ النَّافِعَ، أو يُحِبُّ الباطلَ الضَّارَّ، أو يحتَمِعانِ لهُ ـ وهو الغالبُ ـ.

ولهٰذا يُفَسَّرُ المرضُ الذي يَعْرِضُ لهُ، تارةً بالشَّكِّ والرِّيَبِ، كما قال مجاهدٌ وقتادةُ[2] في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]؛ أيْ: شكٌّ.

وتارةً بشهوةِ الزِّنا؛ كما فُسِّرَ بهِ[3] قولُهُ تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فالأوَّلُ: مرضُ الشُّبهةِ.

والثَّاني: مرضُ الشَّهوةِ.

والصِّحَّةُ تُحْفَظُ بالمِثْلِ والشِّبَهِ، والمرضُ يُدْفَعُ بالضِّدِّ والخلافِ، وهو يقوى بمثلِ سببِهِ، ويزولُ بضدِّهِ، والصِّحَّةُ تُحْفَظُ بمثلِ سببِها، وتضعُفُ أو تزولُ بضدِّهِ.

---

(١) كما في الآية (١٩٦) من سورة البقرة.

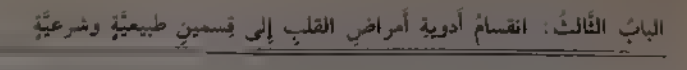
(٢) أخرجه عَبْد بن حُمَيد وابن جرير، كما في «الدُّرِّ المنثور» (١/٧٦).

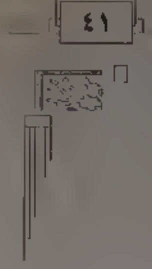
(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/٤٣) للإمام البغوي.

ولمَّا كانَ البدنُ المريضُ يؤذيهِ ما لا يؤذي الصَّحيحَ؛ مِن يسيرِ الحَرِّ، والبَرْدِ، والحركةِ، ونحوِ ذٰلك، فكذٰلك القلبُ إذا كانَ فيهِ مَرَضٌ آذاهُ أدنى شيءٍ مِن الشُّبهةِ أو الشَّهوةِ، حيثُ لا يَقْوى على دَفْعِهما إذا وَرَدَا عليهِ، والقلبُ الصَّحيحُ القويُّ يطرُقُهُ أضعافُ ذٰلك، وهو يدفَعُهُ بقوَّتِهِ وصحَّتِه[1].

وبالجملةِ؛ فإذا حصلَ للمريضِ مثلُ سببِ مرضِه؛ زادَ مرضُهُ، وضَعُفَتْ قوَّتُه، وترامى إلى التَّلَفِ، ما لم يتدارَكْ ذٰلك بأَنْ يَحْصُلَ لهُ ما يُقوِّي قوَّتَه ويُزيلُ مرضَه.

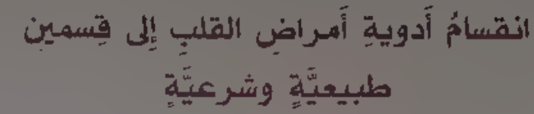
(١) فالواجب على المسلم أن يقوِّي عقيدته، ويفهَمَ توحيد ربه جلَّ وعلا، حتى تكون قاعدته متينة قوية، لا يؤثِّر فيها ما يَعْرض لها من ابتلاءات، ولا تزلزلُها المصائب والفتن.







البابُ الثّالث



انقسامُ أدويةِ أمراضِ القلبِ إلى قِسمينِ طبيعيَّةٍ وشرعيَّةٍ



مرضُ القلبِ نوعانِ:

نوعٌ لا يتألَّمُ بهِ صاحبُهُ في الحال، وهو النوعُ المتقدِّمُ؛ كمرضِ الجهلِ، ومرضِ الشُّبُهاتِ والشُّكوكِ، ومرضِ الشَّهواتِ.

وهٰذا النَّوعُ هو أعظمُ النوعينِ ألَماً، ولكنْ لفسادِ القلبِ لا يُحِسُّ بالألمِ، ولأنَّ سَكْرَةَ الجهلِ والهوى تَحولُ بينه وبينَ إدراكِ الألَمِ، وإلّا فألَمُهُ حاضرٌ فيه حاصلٌ لهُ، وهو مُتوارٍ عنهُ باشتغالِهِ بضدِّه، وهذا أخطرُ المرضينِ وأصعبُهما.

وعلاجُهُ إلى الرُّسُلِ وأتباعِهِم، فهُم أطبَّاءُ هٰذا المرضِ.

والنوعُ الثّاني: مرضٌ مؤلمٌ لهُ في الحالِ، كالهمِّ والغمِّ والحَزَنِ والغيظِ.

وهٰذا المرضُ قد يزولُ بأدويةٍ طبيعيَّةٍ؛ كإزالةِ أسبابه، أو بالمداواة بما يضادُّ تلكَ الأسبابَ، وما يدفَعُ موجبَها مَع قيامِها، وهٰذا كما أنَّ القلبَ قد يتألَّمُ بما يتألَّمُ به البَدنُ، ويشقى بما يشقى بهِ البَدَنُ، فكذٰلك البَدَنُ يتألَّمُ كثيراً بما يتألَّمُ بهِ القلبُ، ويُشقيهِ ما يُشقيهِ.

فأمراضُ القلبِ التي تزولُ بالأدويةِ الطبيعيَّةِ مِن جنسِ أمراضِ البدنِ، وهٰذه قد لا تُوجِبُ وحدَها شقاءَهُ وعذابَهُ بعدَ الموتِ، وأمَّا أمراضُهُ التي لا تزولُ إلّا بالأدويةِ الإيمانيَّةِ النبويّةِ، فهي التي توجِبُ لهُ الشَّقاءَ والعذابَ الدّائم، إنْ لم يتداركْها بأدويتِها المضادَّةِ لها، فإذا استعملَ تلكَ الأدويةَ حَصلَ لهُ الشِّفاءُ، ولهٰذا يُقالُ: «شفَى غيْظَهُ»، فإذا استولى عليهِ عدوُّهُ آلمه ذٰلك، فإذا انْتَصَفَ منهُ اشْتَفى قلبُهُ، قالَ تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ

﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ۝١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ [التوبة: ١٤ و١٥]، فأمَرَ بقتالِ عدوِّهم، وأعلَمَهُم أنَّ فيه ستَّ فوائدَ[١].

فالغيظُ يؤلِمُ القلبَ، ودواؤهُ في شِفاءِ غيظِهِ، فإنْ شَفاهُ بحقٍّ اشتفى، وإنْ شفاهُ بظُلْمٍ فإنَّ ذلك يَزيدُ مرضَهُ، ويوجِبُ لهُ أمراضاً أُخَرَ أصعبَ مِن مرضِ العشقِ.

وكذلكَ الغَمُّ والهَمُّ والحَزَنُ أمراضٌ للقلبِ، وشفاؤها بأضدادِها مِن الفَرَحِ والسُّرورِ، فإنْ كانَ ذلك بحقٍّ اشتفى القلبُ وصحَّ وبَرِئَ مِن مرضِهِ، وإنْ كانَ بباطلٍ توارى ذلك واسْتَتَر، ولم يَزلْ، وأعْقَبَ أمراضاً هي أصعبُ وأخطرُ.

وكذلك الجهلُ مرض يُؤلِمُ القلبَ، ومِنَ النَّاسِ مَن يُداويهِ بعلوم لا تنفعُ[٢]، ويعتقدُ أنَّهُ قد صحَّ مِن مرضِهِ بتلكَ العلومِ، وهي في الحقيقةِ إنَّما تزيدُهُ مرضاً إلى مرضِهِ، لكنِ اشتغلَ القلبُ بها عن إدراكِ الألَمِ الكامنِ فيهِ، بسببِ جهْلِهِ بالعلوم النَّافعةِ، التي هي شَرْطٌ في صحَّتِهِ وبُرْئِه، وقد قال النبيُّ صلى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ في الَّذينَ أفْتَوا بالجهلِ، فهَلَكَ المستفتي بفتواهُمْ: «**قَتَلوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، ألا سَألُوا إذْ لَمْ يَعْلَموا؟ فإنَّما شِفاءُ العِيِّ السُّؤالُ**»[٣].

فجعلَ الجهلَ مرضاً، وشِفاءَهُ سؤالَ أهلِ العلمِ.

وكذلكَ الشَّاكُّ في الشيءِ المُرتابُ فيهِ، يتألَّمُ قلبُهُ حتى يحصُلَ لهُ العلمُ

(١) وهي المذكورةُ في الآية نفسِها.

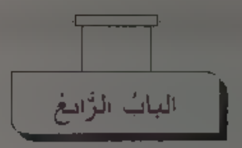
(٢) كعلوم المنطقِ، والكلامِ، والفلسفةِ، والتصوُّفِ، وغيرها.

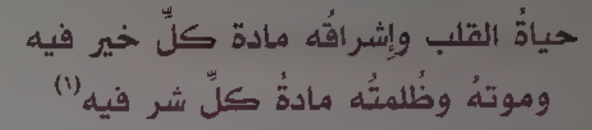
(٣) وهو حديثٌ صحيحٌ، أما ذِكْرُ العصْبِ على الجُرحِ فيه ـ كما في مناسبته ـ: فلا يصحُّ، كما بيَّنتُهُ مفصَّلاً في جُزئي: «الدلائل المنيرة في حكم المسح على الجبيرة»، وهو الجزء (رقم ٥) من «سلسلة: قضايا فقهية حديثيّة».

واليقينُ، ولمَّا كانَ ذٰلك يوجِبُ لهُ حرارةً؛ قيلَ لمَن حَصَلَ لهُ اليقينُ: ثَلَجَ صدرُهُ، وحَصَلَ لهُ بَرْدُ اليقينِ، وهو كذٰلكَ يَضيقُ بالجهلِ والضَّلالِ عن طَريقِ رُشْدِهِ، وينشرحُ بالهُدى والعلمِ، قالَ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والمقصودُ أنَّ مِن أمراضِ القلوبِ ما يزولُ بالأدويةِ الطَّبيعيَّةِ، ومنها ما لا يزولُ إلَّا بالأدويةِ الشَّرعيَّةِ الإيمانيَّةِ، والقلبُ لهُ حياةٌ وموتٌ، ومرضٌ وشفاءٌ، وذٰلك أعظمُ ممَّا للبَدَنِ.







حياةُ القلب وإشراقُه مادة كلِّ خير فيه وموتهُ وظُلمتُه مادةُ كلِّ شر فيه[1]

أصلُ كُلِّ خيرٍ وسعادةٍ للعبدِ، بل لكلِّ حيٍّ ناطقٍ: كمالُ حياتِه ونورِه، فالحياةُ والنُّورُ مادَّةُ الخير كلِّهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فَجَمَعَ بينَ الأصلينِ: الحياةِ والنُّورِ، فبالحياةِ تكونُ قوَّتُه، وسمعُه، وبصرهُ، وحياؤهُ، وعِفَّتُه، وشجاعتُه، وصبرُهُ، وسائرُ أخلاقِهِ الفاضلةِ، ومحبَّتُه للحُسْنِ، وبُغْضُهُ للقبيحِ، فكلَّما قويَتْ حياتُه قوِيَتْ فيهِ هٰذه الصفاتُ، وإذا ضَعُفَتْ حياتُه ضَعُفَتْ فيه هٰذه الصفاتُ، وحياؤهُ مِن القبائِحِ هو بحَسَبِ حياتِهِ في نفسِهِ.

فالقلبُ الصَّحيحُ الحيُّ إذا عُرِضَتْ عليهِ القبائحُ؛ نفرَ منها بطبعِهِ وأبْغَضها، ولم يلتَفِتْ إليها؛ بخلافِ القلبِ الميِّتِ؛ فإنَّهُ لا يُفَرِّقُ بينَ الحسنِ والقبيحِ، كما قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ: «هَلَكَ مَن لم يَكُنْ لهُ قلبٌ يعرِفُ بِهِ المعروفَ ويُنْكِرُ بِهِ المنكَرَ»[2].

---

(١) اختصر من هذا الباب ابنُ أبي العزِّ الحَنَفي في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٧٤ ـ ٢٧٥).

(٢) قال شيخنا في تعليقه على «شرح الطحاوية» (ص٢٧٥): «لا أعرفُه»!

قلتُ: قد رواه الطبراني في «الكبير» (٥٨٦٤)، وعنه أبو نُعيم في «الحلية» (١/ ١٣٥)؛ من طريق سفيان عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب به.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٧٥): «ورجاله رجال الصحيح». وهذا سندٌ صحيحٌ.

وانظرِ مقدِّمة شيخنا على «الطحاوية» (ص٣٠ ـ ٣١) لتعرفَ ضررَ وخَطَرَ «مختصَر =

وكذٰلك القلبُ المريضُ بالشهوةِ؛ فإنَّهُ لضعفهِ يميلُ إلى ما يَعْرِضُ لهُ مِن ذٰلك بحَسَبِ قوَّةِ المرضِ وضَعْفِه.

وكذٰلك إذا قَوِيَ نورُهُ، وإشراقُهُ؛ انكَشَفَ لهُ صُوَرُ المعلوماتِ وحقائقُها على ما هِيَ عليهِ، فاستبانَ حُسْنُ الحسنِ بنورِهِ، وآثرهُ بحياتِه، وكذٰلك قُبْحَ القَبيحِ.

وقد ذَكَرَ ﷻ هٰذينِ الأصلينِ في مواضعَ مِن كتابِه، فقالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]، فجَمَعَ بينَ الرُّوحِ الذي يحصُلُ بهِ الحياةُ، والنُّورِ الذي يحصُلُ بهِ الإضاءةُ والإشراقُ.

وأخبرَ أنَّ كتابَهُ الذي أنزلَهُ على رسولِهِ ﷺ متضَمِّنٌ للأمرينِ؛ فهو روحٌ تَحيى بهِ القلوبُ، ونورٌ تستضيءُ وتُشرقُ بهِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ أي: أوَمَنْ كانَ كافراً مَيِّتَ القلبِ، مَغْموراً في ظُلمةِ الجهلِ، فهَدَيناهُ لرُشْدِهِ، ووفَّقناهُ للإيمانِ، وجَعَلْنا قلبَهُ حيّاً بعدَ موتِه، مُشْرِقاً مُستنيراً بعد ظُلمتِه؟ فجَعَلَ الكافرَ - لانصرافهِ عن طاعتِهِ، وجَهْلِهِ بمعرفتِه وتوحيدِهِ وشرائعِ دِينِهِ، وتَرْكِ الأخذِ بنصيبهِ مِن رضاهُ، والعملِ بما يُؤدِّيهِ إلى نجاتِهِ وسعادتِهِ - بمنزلَةِ الميِّتِ الذي لا ينفعُ نفسَهُ بنافعةٍ، ولا يدفعُ عنها مِن مكروهٍ، فهَدَيْناهُ للإسلامِ، وأنعشناهُ بهِ، فصارَ يعرفُ مضارَّ نفسِهِ ومنافعَها، ويعملُ في خلاصِها مِن سَخَطِ اللهِ تعالى وعقابِهِ، فأبصرَ الحقَّ بعدَ عماهُ عنهُ، وعَرَفَهُ بعدَ جَهْلِهِ بهِ، واتَّبَعَهُ بعد إعراضِهِ عنهُ، وحَصَلَ لهُ نورٌ وضياءٌ يستضيءُ بهِ؛ فيمشي بنورِهِ بينَ النَّاسِ، وهُم في سُدَفِ[1] الظَّلامِ؛ كما قيل:

= النصوص» الذي اغترّ به بعضُ الأغمار! إذ قد بنى هذا «المُخَصِّرُ» على عدم وقوف شيخِها على هذا الأثر قُصوراً وعلالي!! لكنها متهاويةٌ متهافتةٌ!! وقارن بكتابي «كشف المتواري» (ص٩٠ - ٩٢).

(١) مفردها: سُدْفة، وهي الظُّلمة.

لَـيْـلِـي بِـوَجْـهِـكَ مُـشْـرِقٌ وظَـلامُـهُ فـي الـنَّـاسِ سـارِي

الـنَّـاسُ فـي سُـدَفِ الـظَّـلا مِ ونَـحْـنُ فـي ضَـوْءِ الـنَّـهـارِ

ولهٰذا يَضرِبُ اللهُ ﷻ المَثَلينِ المائيَّ والنَّاريَّ لوَحْيِهِ ولعبادِهِ:

أمَّا الأوَّلُ؛ فكما في سورة الرعد: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

فضربَ لوحيهِ المَثَلَ بالماءِ؛ لما يَحْصُلُ بهِ مِن الحياةِ، وبالنَّارِ لما يحصُلُ بهِ مِن الإضاءةِ والإشراقِ، وأخبرَ سبحانَه أنَّ الأوديةَ تَسيلُ بقَدَرِها، فوادٍ كبيرٌ يَسَعُ ماءً كثيراً، ووادٍ صغير يسعُ ماءً قليلاً! كذٰلك القُلوبُ مُشبَّهةٌ بالأوديةِ، فقلبٌ كبيرٌ يَسَعُ علماً كثيراً، وقلبٌ صغير إنَّما يَسَعُ بقَدَرِهِ.

وشَبَّهَ ما تحمِلُهُ القلوبُ مِن الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، بسببِ مخُالطةِ الوحي لها، وإمازتِه[١] لما فيها مِن ذٰلك، بما يحتمِلُهُ السَّيلُ مِن الزَّبَدِ.

وشَبَّهَ بُطلانَ تلكَ الشُّبُهاتِ باستقرارِ العلمِ النافعِ فيها، بذهابِ ذٰلك الزَّبَدِ، وإلقاءِ الوادي لهُ، وإنَّما يستقرُّ فيهِ الماءُ الذي بهِ النَّفعُ.

وكذٰلك في المَثَلِ الذي بعدَهُ: يَذْهَبُ الخَبَثُ الَّذي في ذٰلك الجوهرِ، ويستقرُّ صفوُهُ.

وأمَّا ضَرْبُ هذينِ المَثَلَيْنِ للعبادِ؛ فكما قال في سورةِ البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧ ـ ١٨]، فهٰذا المثلُ النَّاريُّ.

ثُمَّ قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]، فهٰذا المثلُ المائيُّ.

---

(١) ماز الشيء: عزله، وفرزه، وكذا ميّزه تمييزاً فانماز.

والمقصودُ أنَّ صلاحَ القلبِ وسعادتَهُ وفلاحَهُ موقوفٌ على هٰذين الأصلين؛ قالَ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠]، فأخبرَ أنَّ الانتفاعَ بالقرآنِ والإنذارَ بهِ إنَّما يَحْصُلُ لمَن هو حيُّ القلبِ؛ كما قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فأخبرَ ﷺ أنَّ حياتَنا إنَّما هي باستجابتِنا لما يَدْعونا إليهِ اللهُ والرَّسولُ مِن العلمِ والإيمانِ، فعُلِمَ أنَّ موتَ القلبِ وهلاكَهُ بفَقْدِ ذٰلك.

وشبَّهَ سُبحانَهُ مَن لا يستجيبُ لرسولِهِ بأصحابِ القُبورِ، وهٰذا مِن أحسنِ التَّشبيهِ؛ فإنَّ أبدانَهُم قُبورٌ لقُلوبِهِم، فقد ماتَتْ قُلوبُهُم، وقُبِرَتْ في أبدانِهِم. فقالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

ولقد أَحْسَنَ القَائِلُ:

وفي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لأهْلِهِ ... وأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ
وأَرْواحُهُمْ في وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ ... ولَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

ولهٰذا جَعَلَ سُبحانَه وحْيَهُ الذي يُلقيهِ إلى الأنبياءِ رُوحاً، كما قالَ تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] في موضعينِ مِن كتابِه[1]، وقالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأنَّ حياةَ الأرواحِ والقُلوبِ بهِ، وهٰذه الحياةُ الطَّيِّبةُ هي التي خَصَّ بها سبحانَه مَنْ قَبِلَ وَحْيَهُ، وعَمِلَ بهِ، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾ [النحل: ٩٧]، فخصَّهُم ﷻ بالحياةِ الطيبةِ في الدَّارين.

ومثلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

---

(١) والموضع الثاني: سورة النحل: ٢.

ومثلُهُ قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

ومثلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ﴾ [الزمر: ١٠]، فبيَّن سبحانَه أنَّهُ يُسْعِدُ المُحْسِنَ بإحْسانِه في الدُّنيا وفي الآخرةِ، كما أخبرَ أنهُ يُشْقي المسيءَ بإساءَتِه في الدُّنيا والآخرةِ، قالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

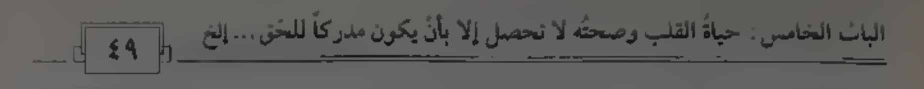
وقال تعالى: ـ وقد جمَعَ بينَ النَّوعين ـ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

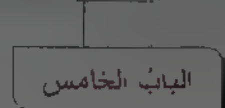
فأهلُ الهُدى والإيمانِ لهُم شَرْحُ الصَّدْرِ واتِّساعُهُ وانفساحُهُ، وأهلُ الضَّلالِ لهُم ضيقُ الصَّدْرِ والحرج.

وقالَ تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢].

فأهْلُ الإيمانِ في النُّورِ وانشراحِ الصَّدْرِ، وأهْلُ الضلالِ في الظُّلمةِ وضيقِ الصَّدْرِ.

والمقصودُ أنَّ حياةَ القلبِ وإضاءَتَهُ مادَّةُ كُلِّ خيرٍ فيهِ، وموتُه وظُلمَتُه مادَّةُ كُلِّ شرٍّ فيهِ.





الباب الخامس

حياةُ القلب وصحتُه لا تحصل إلا بأنْ يكون مدركاً للحق، مريداً له، مؤثِراً له على غيره

لمَّا كانَ في القلبِ قوَّتانِ: قُوَّةُ العلمِ والتَّمييزِ، وقُوَّةُ الإرادةِ والحُبِّ؛ كانَ كمالُه وصلاحُه باستعمالِ هاتينِ القوَّتينِ فيما ينفعُهُ، ويعودُ عليهِ بصلاحِه وسعادتِه، فكمالُه باستعمالِ قوَّةِ العلم في إدراكِ الحقِّ، ومعرفتِه والتَّمييزِ بينَه وبينَ الباطلِ، وباستعمالِ قُوَّةِ الإرادةِ والمحبَّةِ في طَلَبِ الحقِّ ومحبَّتِهِ وإيثارِهِ على الباطلِ.

فمَن لم يعرِفِ الحقَّ؛ فهو ضالٌّ.

ومَن عَرَفَهُ وآثَرَ غيرَهُ عليهِ؛ فهو مغضوبٌ عليهِ

ومَن عَرَفَه واتَّبَعَهُ؛ فهُو مُنْعَمٌ عليه.

وقد أَمَرنا الله ﷻ أنْ نَسْأَلَهُ في صلاتِنا أنْ يهْدِيَنا صراطَ الَّذين أنعمَ اللهُ عليهِم غير المغضوبِ عليهم ولا الضَّالينَ.

ولهٰذا كان النَّصارى أخصَّ بالضّلالِ؛ لأنَّهم أُمَّةُ جهلٍ.

واليهودُ أخصُّ بالغضبِ؛ لأنَّهُم أمَّةُ عِنادٍ، وهٰذه الأمّةُ هُم المُنْعَمُ عليهِم.

ولهٰذا قال سُفيانُ بنُ عُيينَةَ: «مَنْ فَسَدَ مِن عُبَّادِنا؛ ففيهِ شَبَهٌ مِن النَّصارى، ومَن فَسَدَ مِن عُلمائِنا ففيهِ شَبَهٌ مِن اليهودِ».

لأن النّصارى عَبدوا بغيرِ علمٍ، واليهودَ عَرفوا الحقَّ وعَدَلوا عنهُ.

وفي «المسند» و«التِّرمذيِّ»[(١)] مِن حديثِ عَدِيِّ بنِ حاتم عن النبيِّ صلى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ؛ قالَ: «**اليهودُ مَغْضوبٌ عليهِمْ، والنَّصارى ضَالُّونَ**».

وقد جَمَعَ اللهُ سُبحانَهُ بينَ هٰذينِ الأصلينِ في غيرِ موضعٍ مِن كتابِه، فمنها قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، فجَمَعَ سبحانَه بينَ الاستجابةِ لهُ والإيمانِ بهِ.

ومنها قولُه عن رسولِه ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقالَ تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

وقالَ تعالى في وَسَطِ السورةِ: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ...﴾ إلى آخرِ الآيةِ [البقرة: ١٧٧].

وقالَ تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥٤ و٢٩٥٥)، والطيالسي (١٠٤٠)، وغيرهما؛ بسند حسن.
ولتمام تخريجه انظر: «الإتمام لتخريج أحاديث المسند الإمام» (١٩٤٠٠) يسَّره الله.

فأَقْسَمَ ﷻ بالدَّهْرِ الَّذي هُو زَمَنُ الأعمالِ الرَّابحةِ والخاسرةِ، على أنَّ كُلَّ واحدٍ في خُسْرٍ؛ إلَّا مَنْ كَمَّلَ قُوَّتَه العِلْميَّةَ بالإيمانِ باللهِ، وقُوَّتَه العَمَليَّةَ بالعملِ بطاعتِه.

فهٰذا كمالُهُ في نفسِهِ.

ثمَّ كمَّلَ غيرَهُ بوصيَّتِه لهُ بذٰلك، وأمْرِهِ إيَّاهُ بهِ، وبملاكِ ذٰلك، وهو الصَّبْرُ، فكمَّلَ نفسَهُ بالعلمِ النافعِ والعملِ الصَّالحِ، وكَمَّل غيرَهُ بتعليمِه إيَّاهُ ذٰلك، ووصيَّتِه لهُ بالصَّبْرِ عليهِ، ولهٰذا قال الشافعيُّ ﷺ: «لو فَكَّرَ النَّاسُ في سورةِ ﴿وَالْعَصْرِ﴾؛ لَكَفَتْهم».

وهٰذا المعنى في القُرآنِ في مواضعَ كثيرةٍ، يُخبِرُ سبحانَه أنَّ أهلَ السَّعادةِ هُم الذينَ عرَفوا الحَقَّ واتَّبعوهُ، وأنَّ أهلَ الشَّقاوةِ هُمُ الَّذينَ جَهِلُوا الحَقَّ وضَلُّوا عنهُ، أو عَلِموهُ وخالَفوهُ واتَّبعوا غيرَهُ.

وينبغي أنْ تعرِفَ أنَّ هاتينِ القوَّتينِ لا تتعطَّلانِ في القلبِ، بل إنِ استَعْمَلَ قوَّتَه العلميَّةَ في معرفةِ الحقِّ وإدراكِه، وإلَّا استعْمَلَها في معرفةِ ما يليقُ بهِ ويناسبُهُ مِن الباطلِ، وإنِ استَعْمَلَ قوَّتَه الإراديَّةَ العمَليَّةَ في العملِ بهِ، وإلَّا استَعْمَلَها في ضدِّهِ، فالإنسانُ حارثٌ هَمَّامٌ بالطبعِ؛ كما قالَ النبيُّ صلى الله تعالى عليهِ وسلَّم: «**أصدقُ الأسماءِ: حارِثٌ وهَمَّامٌ**[1]».

---

(١) رواه ابنُ وهب في «الجامع» (ص٧)؛ قال: أخبرني ابنُ لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن عامر اليحْصِبي مرسلاً: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن، ونحو هذا، وأصدق الأسماء الحارث وهمَّام**». وسنده صحيحٌ مرسلاً. وله شاهدٌ أخرجه أحمد (١٩٠٥٤)، وأبو داود (٤٩٥٠)، والنسائي في «سننه» (٦/ ٢١٨)؛ من طريق عَقيل بن شبيب عن أبي وهب الجُشَمي به. وسنده ضعيفٌ، لكنه يُقوِّي ما قبله.
ولقد أورد الحديثَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميه في «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٧٩)، وعزاه لـ«صحيح مسلم» عن ابن عُمر!
وهذا وَهَمٌ منه ﷺ، إذ حديث ابن عُمر ليس فيه ذكر الحارث وهمام!

فالحارِثُ الكاسِبُ العاملُ، والهمّامُ المُريدُ، فإنَّ النَّفسَ متحرِّكةٌ بالإرادةِ، وحَرَكَتُها الإراديَّةُ لها مِن لوازِمِ ذاتِها، الإرادةُ تستلزمُ مُراداً يكونُ مُتَصَوَّراً لها، مُتَميِّزاً عنده، فإنْ لم تتصوَّرِ الحَقَّ، وتَطْلُبْهُ وتُرِدْهُ؛ تصوَّرَتِ الباطلَ، وطَلَبَتْهُ، وأرادَتْهُ ولا بُدَّ.

* * *

البابُ السَّادسُ

لا سعادةَ للقلبِ ولا لذّةَ ولا نعيمَ ولا صلاحَ إلَّا بأنْ يكونَ اللهُ هُو إلهَهُ وفاطِرَهُ وَحْدَهُ وهُو معبودَهُ وغايةَ مطلوبِه وأحبَّ إليهِ مِن كلِّ ما سواهُ

معلومٌ أنَّ كلَّ حيٍّ ـ سوى اللهِ سبحانَه ـ مِن مَلَكٍ أو إنسٍ أو جِنٍّ أو حَيوانٍ؛ فهُو فقيرٌ إلى جَلْبِ ما ينفعُهُ، ودَفْعِ ما يضرُّهُ، ولا يتمُّ ذلك لهُ إلا بتصوُّرِهِ للنَّافعِ والضَّارِّ، والمنفعةُ من جنسِ النَّعيمِ واللَّذَّةِ، والمضرَّةُ مِن جنسِ الألمِ والعذابِ.

فلا بُدَّ لهُ مِن أمرينِ:

أحدُهما: معرفةُ ما هُو المحبوبُ المطلوبُ الذي يُنْتَفَعُ بهِ ويُلْتَذُّ بإدراكِهِ.

والثَّاني: معرفةُ المُعينِ الموصلِ المحصِّلِ لذلك المقصودِ.

وبإزاءِ ذلك أمرانِ آخرانِ:

أحدُهما: مكروهٌ بغيضٌ ضارٌّ.

والثَّاني: مُعينٌ دافعٌ لهُ عنه.

فهذه أربعةُ أشياءَ:

أحدُها: أمرٌ هو محبوبٌ مطلوبُ الوجودِ.

الثَّاني: أمرٌ مكروهٌ مطلوبُ العدمِ.

الثَّالثُ: الوسيلةُ إلى دَفْعِ المكروهِ.

الرَّابعُ: الوسيلةُ إلى دفعِ المكروهِ.

فهٰذه الأمورُ الأربعةُ ضروريَّةٌ للعبدِ، بل ولكلِّ حيوانٍ، لا يقوم وجودُه وصلاحُهُ إلَّا بها.

فإذا تقرَّر ذٰلك؛ فاللهُ تعالى هُو الذي يجِبُ أَنْ يكونَ هو المقصودَ المدعوَّ المطلوبَ، الذي يُرادُ وجهُهُ، ويُبْتَغى قُربُهُ، ويُطْلَبُ رضاهُ، وهو المُعينُ على حُصولِ ذٰلك.

وعُبوديَّةُ ما سواهُ، والالتفاتُ إليهِ، والتعلُّقُ بهِ: هو المكروهُ الضَّارُّ، واللهُ هو المُعينُ على دفعِهِ، فهو سبحانَه الجامعُ لهٰذه الأمورِ الأربعةِ دونَ ما سواهُ، فهُو المعبودُ المحبوبُ المُرادُ، وهو المعينُ لعبدِهِ على وصولِهِ إليهِ وعبادتِه لهُ، والمكروهُ البغيضُ إنَّما يكونُ بمشيئتِهِ وقُدرتِه، وهو المُعينُ لعبدِهِ على دَفْعِهِ؛ كما قالَ أعرفُ الخَلْقِ بهِ: **«أعوذُ برضاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وأعوذُ بمعافاتِكَ مِن عُقوبَتِك، وأعوذُ بكَ مِنكَ»**[1]، وقالَ: **«اللهُمَّ إنِّي أسلمتُ نفسي إليكَ، ووجَّهْتُ وَجْهي إليكَ، وفوَّضْتُ أمري إليكَ، وألجأْتُ ظهري إليكَ، رغبةً ورهبةً إليكَ، لا مَلْجَأَ ولا مَنْجى منكَ إلَّا إليكَ»**[2].

فمنهُ المنجى، وإليهِ الملجأُ، وبه الاستعاذةُ مِن شرِّ ما هُو كائنٌ بمشيئتِه وقُدرتِهِ، فالإعاذةُ فِعْلُهُ، والمُستعاذُ منهُ فِعْلُه، أو مفعولُهُ الذي خَلَقَهُ بمشيئتِه.

فالأمرُ كلُّهُ له، والحمدُ كلُّه له، والمُلْكُ كلُّه له، والخيرُ كلُّه في يديهِ، لا يُحْصي أحدٌ مِن خلقهِ ثناءً عليهِ، بل هو كما أثنى على نفسِهِ، وفوقَ ما يُثْني عليهِ كُلُّ أحدٍ مِن خَلْقِهِ.

وهٰذا كانَ صلاحُ العبدِ وسعادتُه في تحقيقِ معنى قولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنَّ العبوديةَ[3] تتضمَّنُ المطلوبَ، لكنْ على

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٤٨٧) عن عائشة.

(٢) أخرجه البخاري (١١/ ٢٩٧)، ومسلم (٢٧١٠)؛ عن البراء بن عازب.

(٣) وللمصنِّف رحمه الله كتابٌ كبيرٌ سمّاه: «مدارج السالكين في منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾» مطبوع في ثلاث مجلّدات.

أكملِ الوجوهِ، والمستعانُ هو الذي يُستعانُ بهِ على المطلوبِ:

فالأوَّلُ: في معنى أُلوهيَّتِه.

والثَّاني: من معنى ربوبيَّتِه.

فإنَّ الإلٰهَ هو الذي تألَهُهُ القُلوبُ؛ محبةً، وإنابةً، وإجلالاً، وإكراماً، وتعظيماً، وذُلّاً، وخُضوعاً، وخوفاً، ورجاءً، وتوكُّلاً، والربُّ هو الذي يُربِّي عبدَهُ، فيُعطيهِ خَلْقَهُ، ثم يَهْديهِ إلى مصالِحِهِ، فلا إلٰهَ إلا هُو، ولا ربَّ إلَّا هُو، فكما أنَّ ربوبيَّةَ ما سواهُ أبطلُ الباطلِ، فكذٰلكَ إلٰهيَّةُ ما سواهُ.

وقد جمعَ اللهُ سبحانَه بينَ هٰذينِ الأصليِنِ في مواضعَ مِن كتابهِ كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقولِه عن نبيِّهِ شُعيبٍ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقولِه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقولِه: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٨، ٩]، وقولِه: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقولِه عن الحُنفاءِ أتباعِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]

فهٰذه سبعةُ مواضعَ تنتظمُ هٰذينِ الأصليِنِ الجامعينِ لمعنَيَي التَّوحيدِ اللَّذيْنِ لا سعادَةَ للعبدِ بدونِهما ألبتَّة.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى خلقَ الخَلْقَ لعبادته، الجامعة لمعرفتِه والإنابةِ إليهِ ومحبَّته، والإخلاصِ لهُ، فبِذِكْرِه تطمئنُّ قلوبُهُم، وتسكُنُ نفوسُهُم، وبرؤيتِه في الآخرةِ تَقَرُّ عيونُهم، ويتمُّ نعيمُهم، فلا يُعطيهِم في الآخرةِ شيئاً هو أحبُّ إليهِم، ولا أقرُّ لعيونِهم، ولا أنعمُ لقلوبِهِم، مِن النَّظَرِ إليهِ، وسماعِ كلامِه منهُ بلا واسطةٍ، ولم يُعْطِهِم في الدُّنيا شيئاً خيراً لهُم ولا أحبَّ إليهِم، ولا أقرَّ لعيونِهم مِن الإيمانِ بهِ، ومحبَّتِه، والشَّوقِ إلى لقائِهِ، والأُنسِ بقُرْبِه، والتَّنعُّمِ بذكرِه.

وقد جَمَع النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم بينَ هٰذينِ الأمرينِ في الدُّعاءِ

الذي رواهُ النَّسائيُّ والإمامُ أحمدُ وابنُ حِبَّانَ في «صحيحِه» وغيرُهم[١]، مِن حديثِ عمَّارِ بنِ ياسرٍ: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ، كانَ يدعو بهِ: «**اللهُمَّ بعِلْمِكَ الغَيْبَ، وقُدْرَتِك على الخَلْقِ، أحْيِني ما علمتَ الحياةَ خيراً لي، وتوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي، وأسألُكَ خشيتَكَ في الغيبِ والشَّهادةِ، وأسألُكَ كلمةَ الحقِّ في الغضبِ والرِّضى، وأسألُكَ القصدَ في الفقرِ والغِنى، وأسألُكَ نعيماً لا ينفدُ، وأسألُكَ قرَّةَ عينٍ لا تنقطعُ، وأسألُكَ الرِّضا بعدَ القضاءِ، وأسألُكَ بردَ العيشِ بعدَ الموتِ، وأسألُك لذَّةَ النَّظرِ إلى وجهِكَ، وأسألُكَ الشَّوقَ إلى لقائِكَ، في غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ، اللهُمَّ زَيِّنَّا بزينةِ الإيمانِ، واجْعَلْنا هُداةً مُهْتدينَ**»[٢].

فجمعَ في هٰذا الدُّعاءِ العظيمِ القَدْرِ بينَ أطيبِ شيءٍ في الدُّنيا، وهو الشوقُ إلى لقائِه سبحانَه، وأطيبِ شيءٍ في الآخرةِ، وهو النَّظرُ إلى وجهِه سبحانَه، ولمَّا كانَ كمالُ ذٰلك وتمامُه موقوفاً على عدمِ ما يضرُّ في الدُّنيا، ويفتنُ في الدِّينِ؛ قال: «في غيرِ ضرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ».

ولمَّا كانَ كمالُ العبدِ في أنْ يكونَ عالماً بالحقِّ، مُتَّبعاً لهُ، معلِّماً لغيرِهِ، مُرْشِداً لهُ؛ قالَ: «واجْعَلْنا هُداةً مُهْتَدينَ».

ولمَّا كانَ الرِّضى النافعُ المُحَصِّلُ للمقصودِ هو الرِّضى بعدَ وقوعِ القضاءِ لا قبلَهُ؛ فإنَّ ذٰلك عزمٌ على الرِّضى، فإذا وقعَ القضاءُ انفسَخَ ذٰلك العزمُ، سألَ الرِّضى بعدَه، فإنَّ المقدورَ يكتنفُهُ أمرانِ:

الاستخارةُ قبلَ وقوعِه، والرِّضى بعدَ وُقوعِهِ.

---

(١) أخرجه النَّسائي (٣/ ٥٤)، وابن حبان (١٩٧١)، وابن خُزيمة (ص١٢)، والحاكم (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥)؛ من طريق حماد بن زيد عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عمَّار. وسنده صحيحٌ، إذ رواية حماد عن عطاء قبل اختلاطِه. وله طريق أخرى في «المسند» ترى الكلامَ عليها مطوَّلاً في «الإتمام» (١٨٣٥١).

(٢) وللحافظ ابن رجب الحنبلي رسالةٌ مفردةٌ في شرح هذا الحديث، طُبعت قريباً.

فمِنْ سعادةِ العبدِ أنْ يجمَعَ بينَهما(١).

ولمَّا كانت خشيةُ اللهِ ﷻ رأسَ كُلِّ خيرٍ في المشهدِ والمَغيبِ؛ سألَهُ خشيَتَهُ في الغيبِ والشَّهادةِ.

ولمَّا كانَ أكثرُ النَّاسِ إنَّما يتكلَّمُ بالحقِّ في رضاهُ، فإذا غَضِبَ أخرجَهُ غَضَبُهُ إلى الباطلِ، وقد يُدْخِلُهُ أيضاً رضاهُ في الباطلِ، سألَ اللهَ ﷻ أنْ يُوَفِّقَهُ لكلمةِ الحَقِّ في الغَضَبِ والرِّضى. ولهٰذا قالَ بعضُ السَّلف: «لا تَكُنْ ممَّن إذا رَضِيَ أدْخَلَهُ رضاهُ في الباطلِ، وإذا غَضِبَ أخرَجَهُ غَضَبُهُ مِن الحقِّ».

ولمَّا كانَ الفقرُ والغنى بَلِيَّتينِ ومِحْنَتَينِ، يَبْتَلي اللهُ بهما عبدَهُ، ففي الغِنى يبسطُ يدَهُ، وفي الفقرِ يقبِضُها؛ سألَ اللهَ ﷻ القَصْدَ في الحالينِ، وهو التوسُّطُ الذي ليسَ معهُ إسرافٌ ولا تقتيرٌ.

ولمَّا كانَ النعيمُ نوعينِ: نوعاً للبدنِ، ونوعاً للقلبِ، وهو قُرَّةُ العينِ، وكمالُهُ بدوامِهِ واستمرارِهِ؛ جَمَعَ بينهما في قولِه: «أسْألُكَ نعيماً لا ينفدُ، وقُرَّةَ عينٍ لا تنقطعُ».

ولمَّا كانتِ الزِّينةُ زينتينِ: زينةَ البدنِ، وزينةَ القلبِ؛ وكانت زينةُ القلبِ أعظمَهُما قَدْراً وأجلَّهُما خطراً، وإذا حصلتْ حَصَلَتْ زينةُ البدنِ على أكملِ الوجوهِ في العُقْبى؛ سألَ ربَّهُ الزِّينةَ الباطنةَ، فقالَ:

«زَيِّنَّا بزينَةِ الإيمانِ».

ولمَّا كانَ العيشُ في هٰذه الدَّارِ لا يَبْرُدُ لأحدٍ كائناً مَن كان، بل هو محشوٌّ بالغُصَصِ والنَّكَدِ، ومحفوفٌ بالآلامِ الباطنةِ والظَّاهرةِ، سألَ بَرْدَ العيشِ بعدَ الموتِ.

---

(١) وقد رُوي: «من سعادة ابن آدم استخارة الله...» الحديث، وهو ضعيف، لا يصح، وقد أشرت إلى ذلك في مقدمة هذا الكتاب (ص١٦).

والمقصودُ: أنَّهُ جَمَعَ في هٰذا الدُّعاءِ بينَ أطيبِ ما في الدُّنيا، وأطيبِ ما في الآخرةِ.

فإنَّ حاجةَ العبادِ إلى ربِّهِمْ في عبادَتِهم إيَّاهُ، وتأليهِهِمْ لهُ؛ لحاجتِهِم إليهِ في خلْقِهِ لهُم، ورزْقِهِ إيَّاهُم، ومُعافاةِ أبدانِهِم، وسَتْرِ عوراتِهِم، وتأمينِ رَوْعاتِهِم، بل حاجتُهُم إلى تأليهِهِ ومحبَّتِه وعبوديَّتِه أعظمُ؛ فإنَّ ذٰلك هو الغايةُ المقصودةُ لهُم، ولا صلاحَ لهُم ولا نعيمَ ولا فلاحَ ولا لذَّةَ ولا سعادةَ بدونِ ذٰلك بحالٍ، ولهٰذا كانت (لا إلٰهَ إلَّا اللهُ) أحسنَ الحسناتِ، وكانَ توحيدُ الإلٰهيَّةِ رأسَ الأمرِ.

وأمَّا توحيدُ الرُّبوبيَّةِ الذي أقرَّ بهِ المسلمُ والكافرُ، وقرَّرَهُ أهلُ الكلامِ في كُتُبِهِم، فلا يكفي وحدَه[1]، بل هُو الحجَّةُ عليهِم؛ كما بيَّنَ ذلك سُبحانَه في كتابِهِ الكريمِ في عدَّةِ مواضعَ، ولهٰذا كان حقُّ اللهِ على عبادِهِ أنْ يعبدُوهُ ولا يُشْرِكوا بهِ شيئاً، كما في الحديثِ الصَّحيحِ الذي رواهُ مُعاذ بنُ جَبَلٍ رضي الله عنه عن النبيِّ صلَّى الله تعالى عليهِ وسلَّمَ؛ قالَ: **«أتَدْري ما حَقُّ اللهِ على عبادِهِ؟»**. قلتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قالَ: **«حقُّهُ على عِبادِهِ أنْ يَعْبُدوهُ ولا يُشْرِكوا بهِ شيئاً، أتَدْري ما حَقُّ العبادِ إذا فَعَلوا ذٰلك؟»**، قلتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قال: **«حقُّهُمْ عليهِ أنْ لا يُعَذِّبهُم بالنَّارِ»**[2].

ولذٰلك يُحِبُّ سبحانَه عبادَه المؤمنينَ الموحِّدينَ ويفرحُ بتوبتِهِم؛ كما أنَّ في ذٰلك أعظمَ لذَّةِ العبدِ وسعادتَه ونعيمَه، فليس في الكائناتِ شيءٌ غيرُ اللهِ عز وجل يَسْكُنُ القلبُ إليهِ، ويطمئنُّ به، ويأنَسُ بهِ، ويتنعَّمُ بالتوجُّهِ إليهِ، ومن عَبَدَ غيرَهُ سبحانَه، وحَصَلَ لهُ بهِ نوعُ منفعةٍ ولذَّةٍ، فمضرَّتُهُ بذٰلك أضعافُ أضعافِ منفعتِهِ، وهو بمنزلةِ أكلِ الطَّعامِ المسمومِ اللَّذيذِ.

---

(١) تعرف بهذا غلط بعض الجماعات الدعوية المعاصرة في الاقتصار عليه، والتركيز على أصوله؛ دونَ التفاتٍ إلى توحيد الألوهية أو توحيد الأسماء والصِّفات.

(٢) رواه البخاري (١٣/ ٣٠٠)، ومسلمٌ (٣٠)؛ عن مُعاذ.

وكما أنَّ السماواتِ والأرضَ لو كانَ فيهما الهةٌ غيرُهُ سبحانَهُ لَفسدتا؛ كما قالَ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فكذلك القلبُ إذا كانَ فيهِ معبودٌ غيرُ اللهِ تعالى؛ فسَدَ فساداً لا يُرْجَى صلاحُهُ إلَّا بأنْ يُخْرِجَ ذلك المعبودَ منهُ، ويكونَ اللهُ تعالى وحدَهُ إلـهَهُ ومعبودَهُ الذي يحبُّهُ ويرجوهُ، ويخافُه ويتوكَّلُ عليه، ويُنيبُ أليهِ.

الوجهُ الثَّالثُ أنَّ فقرَ العبدِ إلى أنْ يَعْبُدَ اللهَ سبحانَه وحدَهُ لا يُشْرِكُ بهِ شيئاً ليس له نظيرٌ فيُقاسُ بهِ، لكنْ يُشْبِهُ مِن بعضِ الوجوهِ حاجةَ الجسدِ إلى الغذاءِ والشَّرابِ والنَّفَسِ، فيُقاسُ بها، لكنْ بينَهُما فروقٌ كثيرةٌ.

فإنَّ حقيقةَ العبدِ قلبُهُ وروحُه، ولا صلاحَ لهُ إلَّا بإلٰهِهِ الحقِّ الذي لا إلٰهَ إلا هُو، فلا يطمئِنُّ إلَّا بذكرِهِ، ولا يَسْكُنُ إلَّا بمعرفَتِه وحُبِّهِ، وهو كادحٌ إليهِ كَدْحاً فمُلاقيه، ولا بُدَّ له مِن لقائِهِ، ولا صلاحَ لهُ إلَّا بتوحيدِ محبَّتِه وعبادتهِ وخوفِهِ ورجائِهِ، ولو حَصَلَ لهُ من اللَّذَّاتِ والسُّرورِ بغيره ما حَصَلَ فلا يدومُ لهُ ذلك، بل ينتقلُ من نوعٍ إلى نوعٍ، ومِن شخصٍ إلى شخصٍ، ويتنعَّمُ بهذا في حالٍ وبهذا في حالٍ، وكثيراً ما يكونُ ذلك الَّذي يتنعَّمُ به هو أعظمَ أسبابِ ألمهِ ومَضَرَّتِه.

وأمَّا إلٰهُهُ الحقُّ؛ فلا بدَّ لهُ منهُ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ حالٍ، وأينما كانَ فنَفْسُ الإيمانِ به ومحبَّتُهُ وعبادَتُه وإجلالُهُ وذِكْرُهُ هو غذاءُ الإنسانِ وقوَّتُه، وصلاحُه وقوامُه، كما عليهِ أهلُ الإيمانِ، ودلَّتْ عليهِ السُّنةُ والقرآنُ، وشهدتْ بهِ الفطرةُ والجَنانُ[1]، لا كما يقولُه مَن قلَّ نصيبُهُ مِن التَّحقيقِ والعِرْفانِ، وبَخْسَ حظُّه من الإحسانِ: إنَّ عبادَتَه وذِكْرَهُ وشُكْرَهُ تكليفٌ ومشقَّةٌ، لمجرَّدِ الابتلاءِ والامتحانِ، أو لأجلِ مجرَّدِ التعويضِ بالثَّوابِ المنفصلِ كالمعاوضةِ بالأثمانِ، أو لمجرَّدِ رياضةِ النَّفسِ وتهذيبِها ليرتفعَ عن درجةِ البهيمِ مِن

---

(١) القلب.

الحيوانِ، كما هي مقالاتُ[1] مَن بَخُسَ حَظُّهُ مِن معرفةِ الرحمٰنِ، وقلَّ نصيبُهُ مِن ذَوْقِ حقائقِ الإيمانِ، وفَرِحَ بما عندَه مِن زَبَدِ الأفكارِ وزُبالةِ الأذهانِ، بل عبادتُه ومعرفتُه وتوحيدُه وشكرُه قُرَّةُ عينِ الإنسانِ، وأفضلُ لذَّةٍ للروحِ والقلْبِ والجَنانِ، وأطيبُ نعيمٍ نالَه مَن كانَ أهلاً لهٰذا الشأنِ.

واللهُ المستعانُ، وعليهِ التُّكلانُ.

وليس المقصودُ بالعبداتِ والأوامرِ المشقَّةَ والكُلْفةَ بالقصدِ الأوَّلِ، وإنْ وقعَ ذٰلك ضِمْناً وتَبَعاً في بعضِها، لأسبابٍ اقتَضتْهُ لا بدَّ منها، هي مِن لوازِمِ هٰذه النَّشأةِ.

فأوامِرُهُ سُبحانَه، وحَقُّهُ الذي أوجَبَهُ على عِبادِهِ، وشرائعُهُ التي شَرَعها لهُم، هي قُرَّةُ العيونِ، ولذَّةُ القلوبِ، ونعيمُ الأرواحِ وسرورُها، وبها شِفاؤُها وسَعادتُها وفَلاحُها، وكمالُها في معاشِها ومعادِها، بل لا سُرورَ لها ولا فَرَحَ ولا لذَّةَ ولا نعيمَ في الحقيقةِ إلَّا بذٰلك؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨]، قال أبو سعيدٍ الخُدري: «فضلُ اللهِ: القرآنُ، ورحمتُه: أنْ جَعَلَكُم مِن أهلِهِ».

وقالَ هِلالُ بنُ يِسافٍ[2]: «بالإسلام الذي هداكُمْ إليهِ، وبالقرآنِ الذي علَّمكُم إيَّاهُ، هو خيرٌ ممَّا تجمَعونَ: مِن الذَّهبِ والفضَّةِ».

وكذٰلك قالَ ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، وقَتادةُ: «فضلُهُ: الإسلامُ، ورحمَتُه: القرآنُ».

---

(١) كما يقوله الصوفيَّةُ قديماً، ومعتزلةُ العصر(!) حديثاً، الذين حكَّموا عقولَهم على شرعِ الله، وجعلوها الأساس الذي به يقيسون الشرائع والاعتقادات، فما دَخَلَ(!) عقلَهُم قبلوه! وما رفَضَهُ عقلُهُم(!) ردُّوه!! وفي كتابي الحديد «علم أصول البدع» تفصيل مطوَّلٌ.

(٢) بكسر الياء وتخفيف السين: تابعيٌّ، ثقةٌ، من رجال «التهذيب».

وقالتْ طائفةٌ مِن السَّلَفِ: «فضلُهُ القرآنُ، ورحمتُهُ الإسلامُ»(١).

والتَّحقيقُ: أَنَّ كُلّاً مِنهما فيهِ الوصفانِ: الفضلُ والرحمةُ، وهما الأمرانِ اللَّذانِ امْتَنَّ اللهُ بِهما على رسولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، واللهُ سبحانَهُ إِنَّما رَفَعَ مَن رَفَعَ بالكتابِ والإيمانِ، ووضَعَ مَن وضَعَ بعَدَمِهِما.

فإِنْ قيلَ: فقد وَقَعَ تسميةُ ذٰلك تكليفاً في القرآنِ؛ كقولِه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقولِه: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]!!

قيل: نعم؛ إِنَّما جاءَ ذٰلك في جانبِ النَّفيِ، ولم يُسَمِّ سبحانَه أوامِرَهُ ووصاياهُ وشرائعَهُ تكليفاً قَطُّ، بل سمَّاه رُوحاً ونُوراً، وشفاءً، وهُدًى، ورحمةً، وحياةً، وعهداً، ووصيَّةً، ونحوَ ذٰلك(٢).

الوجهُ الرَّابعُ: أَنَّ أفضلَ نعيمِ الآخرةِ وأَجَلَّهُ وأعلاهُ على الإطلاقِ هو النَّظرُ إلى وجهِ الرَّبِّ ﷻ، وسماعُ خِطابِهِ؛ كما في «صحيح مسلم»(٣) عن صُهيبٍ ؓ عن النبيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليه وآلِهِ وسلَّمَ: **«إذا دَخَلَ أَهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ نادى مُنادٍ: يا أَهلَ الجنَّةِ! إِنَّ لكُم عندَ اللهِ موعداً يُريدُ إِنْ يُنْجِزَكموهُ، فيقولونَ: ما هُوَ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وجوهَنا، ويُثَقِّلْ موازينَنا، ويُدْخِلْنا الجنَّةَ، ويُجِرْنا مِن النارِ؟ قالَ: فَيَكْشِفُ الحجابَ، فيَنْظُرونَ إِليهِ، فما أَعطاهُم شيئاً أَحَبَّ إِليهِم مِن النَّظرِ إِليهِ»**.

وفي حديثٍ آخرَ: **«فلا يلتَفِتونَ إِلى شيءٍ مِن النَّعيمِ ما دَامُوا ينظُرونَ إِليهِ»**(٤).

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٤/٣٦٧).

(٢) انظر بحثَ المصنِّف لهذه المسألة في: «مدارج السالكين» (١/٩١)، و«إعلام الموقعين» (٣/١٧١).

(٣) برقم (١٨١).

(٤) أخرجه ابنُ ماجه (رقم ١٨٤)، والبزَّار (٢٢٥٣)، واللالكائي في «السنة» (٨٣٦)، وابن عدي (٦/٢٠٣٩ ـ ٢٠٤٠)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/٢٧٤ ـ ٢٧٥)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (رقم ٩١)، وفي «الحلية» (٦/٢٠٨)، والآجري في «التصديق

فبيَّنَ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ أنَّهُم مع كمالِ تنعُّمِهِمْ بما أعطاهُمْ رَبُّهُم فِي الجَنَّةِ، لم يُعْطِهم شيئاً أحبَّ إليهِم مِن النَّظرِ إليهِ، وإنَّما كانَ ذٰلك أحبَّ إليهِم لأنَّ ما يَحْصُلُ لهُم بهِ مِن اللَّذَّةِ والنَّعيمِ والفَرَحِ والسُّرورِ وقُرَّةِ العينِ، فوقَ مَا يَحْصُلُ لهُم مِن التمتُّعِ بالأكلِ والشُّربِ والحُورِ العِينِ، ولا نِسْبَةَ بينَ اللَّذَّتَيْنِ والنَّعيمينِ ألبتَّةَ.

ولهٰذا قالَ ﷻ في حَقِّ الكُفَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝﴾ [المطففين: ١٥ ـ ١٦]، فجمع عليهِم نَوْعَي العذابِ: عذابِ النَّارِ، وعَذابِ الحجابِ عنهُ سُبحانَه، كما جمعَ لأوليائِهِ نَوْعَيِ النعيمِ: نعيمِ التمتُّعِ بما في الجنَّةِ، ونعيمِ التمتُّعِ برؤيتِهِ.

وذكر سبحانَه هٰذه الأنواعَ الأربعةَ في هٰذه السورةِ، فقالَ في حقِّ الأبرارِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٣]، ولقد هَضَمَ معنى الآيةِ مَن قالَ: ينظُرُونَ إلى أعدائِهِمْ يُعَذَّبونَ، أو ينظُرُونَ إلى قُصورِهِم وبَساتِينِهم، أو ينظُرُ بعضُهُم إلى بعضٍ! وكُلُّ هٰذا عُدُولٌ عن المقصودِ إلى غيرِهِ[1]، وإنَّما المعنى: يَنْظُرونَ إلى وجهِ ربِّهم، ضِدَّ حالِ الكفَّار الذين هُم عن ربِّهِم لَمَحْجُوبُونَ: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦].

= بالنظر» (رقم ٤٨) وفي «الشريعة» (ص٢٦٧)، من طريق أبي عاصم العبّاداني عن الفضل الرَّقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر في حديث طويل. وسنده ضعيفٌ جدّاً؛ فإن العبّادانيّ واهٍ، والرّقاشي منكر الحديث.

وقد أورد ابنُ الجوزي في «اللآلئ» (٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦١) طريقاً أخرى للحديث من «تاريخ ابن النجّار» عن أبي هُريرة! وهي ضعيفةٌ أيضاً.

فقولُ أخينا سمير الزُّهيري في تعليقه على «التصديق بالنظر» (ص٦٨): «حديث موضوع»! ليس دقيقاً تماماً!

والقطعةُ التي أوردها المصنِّفُ ؒ منه هي في معنى حديث صُهَيب الذي أورده قبله.

(١) كما يفعلُهُ إباضيَّةُ عصرنا في رسائلهم، وتسجيلاتهم! فليكُن أهلُ السنة على حَذَرٍ منهم؛ فهم من العلم فارغون، لا يحسنون إلا تزيين الكلام!

وتأمَّلْ كيفَ قابَلَ سُبحانَهُ ما قالَهُ الكُفَّارُ في أعدائِهِمْ في الدُّنيا وسَخِرُوا بهِ مِنهُم بضِدِّهِ في القِيامةِ؛ فإنَّ الكُفَّارَ كانُوا إذا مَرَّ بِهِمْ المؤمنونَ يَتغامَزونَ ويَضحَكُونَ مِنهُم: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٣٢]، فقالَ تَعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]؛ مُقابلةً لتَغامُزِهِمْ وضَحِكِهِم منهُم، ثمَّ قالَ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥]، فَأَطْلَقَ النَّظَرَ، ولم يُقيِّدْهُ بمنظورٍ دونَ منظورٍ، وأعلى مَا نظروا إليهِ أجلُّهُ وأعظمُه هو اللهُ سبحانَه، والنَّظرُ إليهِ أجلُّ أنواعِ النَّظرِ وأفضلُها، وهو أعلى مراتِبِ الهدايَةِ، فقابَلَ بذلك قولَهُم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، فالنَّظَرُ إلى الرَّبِّ سُبحانَهُ مُرادٌ مِن هٰذينِ الموضعينِ ولا بُدَّ، إمَّا بخصوصهِ وإمَّا بالعمومِ والإطلاقِ، ومَن تأمَّلَ السِّياقَ؛ لم يَجِدِ الآيتينِ تحتَملانِ غيرَ إرادةِ ذٰلك، خُصوصاً أو عُموماً.

لَذَّةُ النَّظَرِ إلى وجْهِ اللهِ يَوْمَ القِيامَةِ تابعةٌ للتَّلَذُّذِ بمعرفتِهِ ومحبَّتِه في الدُّنيا:

وكما أنه لا نِسْبَةَ لنعيمِ ما في الجنةِ إلى نعيمِ النَّظرِ إلى وجهِهِ الأعلى سُبحانَه؛ فلا نسبةَ لنعيمِ الدُّنيا إلى نعيمِ محبَّتِه ومعرفتِه والشوقِ إليهِ والأُنسِ به، بل لذَّةُ النَّظرِ إليهِ سبحانَه تابعةٌ لمعرفتِهِم بهِ ومحبَّتِهم له؛ فإنَّ اللَّذَّةَ تتبعُ الشُّعورَ والمحبَّةَ، فكلَّما كانَ المحبُّ أعرفَ بالمحبوبِ، وأشدَّ محبَّةً لهُ؛ كانَ الْتِذاذُهُ بقُرْبِه ورُؤيتِه ووصولِه إليهِ أعظمَ.

الوجهُ الخامسُ: أنَّ المخلوقَ ليسَ عندَهُ للعبدِ نفعٌ ولا ضُرٌّ، ولا عطاءٌ ولا منعٌ، ولا هُدًى ولا ضَلالٌ، ولا نصْرٌ ولا خُذلانٌ، ولا خَفْضٌ ولا رَفعٌ، ولا عِزٌّ ولا ذُلٌّ، بل اللهُ وحدَهُ هو الذي يملِكُ لهُ ذلك كلَّهُ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

وقالَ تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

وقالَ تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ...﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقالَ تعالى عن صاحبِ (يسۤ): ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣].

وقالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣].

وقالَ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [المُلك: ٢٠ ـ ٢١].

فجمَعَ سبحانَه بينَ النَّصرِ والرِّزقِ؛ فإنَّ العبدَ مضطرٌّ إلى مَن يدفَعُ عنهُ عدُوَّهُ بنصرِه، ويجلبُ لهُ منافعَهُ برزْقِهِ، فلا بدَّ لهُ مِن ناصرٍ ورازِقٍ، واللهُ وحدَهُ هُو الذي ينصُرُ ويرزُقُ، فهو الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتينُ.

ومِنْ كَمالِ فِطنةِ العبدِ ومعرفتِه: أنْ يعلَمَ أنَّهُ إذا مَسَّهُ اللهُ بسوءٍ؛ لم يَرْفَعْهُ عنهُ غيرُه، وإذا نالَهُ بنعمةٍ؛ لم يَرْزُقْهُ إيَّاها سواهُ.

وقد قالَ تعالى عن السَّحَرةِ: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهو سُبحانَه وحدَه الذي يكفي عبدَه وينصرُهُ ويرزقُهُ ويَكْلَؤهُ(١).

وهٰذا الوجهُ يقتضي التوكُّلَ على اللهِ تعالى والاستعانَةَ بهِ، ودُعاءَهُ، ومسألَتَهُ دونَ ما سواهُ.

ويقتضي أيضاً: محبَّتَهُ، وعبادَتَه؛ لإحسانِهِ إلى عبدِهِ، وإسباغِ نِعَمِهِ عليهِ، فإذا أحبُّوهُ وعَبَدوهُ وتوكَّلُوا عليهِ مِن هٰذا الوجهِ؛ دَخلوا منهُ إلى الوجهِ الأوَّلِ.

ونظيرُ ذٰلك: مَن يَنْزِلُ بهِ بلاءٌ عظيمٌ أو فاقةٌ شديدةٌ، أو خوفٌ مُقْلِقٌ،

---

(١) يحفظُهُ.

فجَعَلَ يدعو الله سبحانَهُ ويتضرَّعُ إليهِ، حتى فَتَحَ لهُ مِن لذيذِ مُناجاتِه وعظيمِ الإيمانِ بهِ، والإنابةِ إليهِ ما هو أحبُّ إليهِ مِن تلكَ الحاجةِ التي قَصَدَه أوّلاً، ولكنَّه لم يكُنْ يعرفُ ذلك أوَّلاً حتى يَطْلُبَهُ ويشتاقَ إليهِ.

وفي نحوِ ذلك قال القائلُ:

جَزَى اللّهُ يَوْمَ الرَّوْعِ خَيْراً فإنَّهُ ... أَرَانَا عَلَى عِلَّاتِهِ أُمَّ ثَابِتِ
أرَانَا مَصُوناتِ الحِجَالِ ولَمْ نَكُنْ ... نَرَاهُنَّ إلَّا عِنْدَ نَعْتِ النَّوَاعِتِ

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ تعلُّقَ العبدِ بما سوى اللهِ تعالى مَضَرَّةٌ عليهِ، إذ أَخذَ منهُ فوقَ القَدْرِ الزَّائدِ على حاجتِه، غيرَ مستعينٍ بهِ على طاعتِه، فإذا نالَ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ والنِّكاحِ واللباسِ فوقَ حاجتِه ضَرَّهُ ذلك، ولو أحبَّ سوى اللهِ ما أَحَبَّ، فلا بُدَّ أنْ يُسْلَبَهُ ويُفارِقَهُ، فإنْ أحبَّهُ لغيرِ اللهِ؛ فلا بُدَّ أنْ تضرَّهُ محبَّتُه، ويعذَّبَ بمحبوبِه، إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرةِ، والغالبُ إنَّهُ يُعذَّبُ في الدَّارينِ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

وقالَ تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

والتفسيرُ المختارُ لهذه الآيةِ أنْ يُقالَ: تعذيبُهُم بها هو الأمرُ المشاهَدُ مِن تعذيبِ طُلَّابِ الدُّنيا ومحبِّيها ومُؤثِريها على الآخرةِ: بالحرصِ على تحصيلِها، والتَّعَبِ العظيمِ في جَمْعِها، ومُقاساةِ أنواعِ المشاقِّ في ذلك، فلا تجدُ أَتعبَ ممَّن الدُّنيا أكبرُ همِّهِ، وهو حريصٌ بجُهْدِهِ على تحصيلِها، والعذابُ هنا هو الألمُ والمشقَّةُ والنَّصَبُ، كقولِهِ صلَّى اللهُ تَعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: «**السَّفرُ قطعةٌ مِن العذابِ**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣/٤٩٦)، ومسلم (١٩٢٧)؛ عن أبي هريرة.

وقولِهِ: «**إنَّ الميِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكاءِ أهلِهِ عليهِ**»[١]؛ أيْ: يتألَّمُ ويتوجَّعُ؛ لا أنّهُ يُعاقَبُ بأعمالِهِم، وهٰكذا مَنِ الدُّنيا كلُّ همِّهِ أو أكبرُ هَمِّهِ، كما قالَ صلى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّم في الحديثِ الذي رواهُ التِّرمذيُّ وغيرُهُ مِن حديثِ أنسٍ ﷺ: «**مَن كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللهُ غِناهُ في قلبِهِ، وجَمَعَ لهُ شَمْلَهُ، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهي راغمةٌ، ومَن كانت الدُّنيا هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللهُ فقرَهُ بينَ عينَيْهِ، وفرَّقَ عليهِ شَمْلَهُ، ولم يأْتِهِ مِن الدُّنيا إلَّا مَا قُدِّرَ لهُ**»[٢].

ومِنْ أبلغِ العذابِ في الدُّنيا: تشتيتُ الشَّمْلِ، وتفريقُ القلبِ، وكونُ الفقرِ نُصْبَ عينَيِ العبدِ لا يُفارِقُهُ، ولولا سَكْرةُ عُشَّاقِ الدُّنيا بحبِّها لاستغاثُوا مِن هذا العذابِ، على أنَّ أكثرَهُم لا يزالُ يشكو ويصرخُ منهُ.

وفي «التِّرمذيِّ»[٣] أيضاً عن أبي هُريرةَ ﷺ عن النبيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّم؛ قالَ: «**يقولُ اللهُ تبارَكَ وتَعالى: ابنَ آدَمَ! تفرَّغْ لِعبادتي أَمْلأْ صَدْرَكَ غنًى، وأَسُدَّ فقرَكَ، وإنْ لا تفعَلْ ملأْتُ يديكَ شُغْلاً، ولم أَسُدَّ فقرَكَ**».

وهٰذا أيضاً مِن أنواعِ العذابِ، وهو اشتغالُ القلبِ والبدنِ بتحمُّلِ أنكادِ الدُّنيا، ومحاربةِ أهلِها إيَّاهُ، ومُقاساةِ مُعاداتِهِم؛ كما قالَ بعضُ السَّلفِ: «مَن أحَبَّ الدُّنيا؛ فلْيُوَطِّنْ نفسَهُ على تحمُّلِ المصائِبِ».

---

(١) رواه البحاري (٣/ ١٢٧)، ومسلم (٩٢٨)؛ عن ابن عمر.

(٢) رواه الترمذي (٢٥٨٧)، والبعوي (٤١٤٢)، وابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (رقم ٣٥٣)؛ من طريق يزيد الرَّقاشي عن أنس. ويزيد ضعيف.
ولكنَّ له شاهداً، أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣)، وابن ماجه (٤١٠٥)، وابن حبان (٧٢)، والدارمي (١/ ٧٥)؛ من طريق شُعبة عن عمرو بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت: (فذكره). وسنده صحيح.
وللحديث شواهد أُخرى لا مجال لسردِها هنا. فانظر: «الإتمام» (٢١٦٣٠).

(٣) برقم (٢٤٦٦).
وأخرجه ابن ماجه (٤١٠٧)، وابن حبان (٢٤٧٧) وفيه ضعفٌ.
لكنّ له شاهداً يقوِّيه، تكلَّمت عليه في «الإتمام لتخريج أحاديث المسند الإمام» (رقم ٨٦٧١)، فانْظُرْه.

ومُحِبُّ الدُّنيا لا ينفكُّ مِن ثلاثٍ:

همٌّ لازمٌ.

وتعبٌ دائمٌ.

وحَسْرَةٌ لا تنقضي.

وذٰلك أنَّ محبَّها لا ينالُ منها شيئاً إلَّا طَمَحَتْ نفسُه إلى ما فوقَهُ؛ كما في الحديثِ الصَّحيحِ عن النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «**لو كانَ لابنِ آدَمَ واديانِ مِن مالٍ؛ لابْتَغى لهُما ثالثاً**»[1].

وذكرَ ابنُ أبي الدُّنيا[2] أنَّ الحسنَ البصْرِيَّ كتبَ إلى عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: «أمَّا بعدُ، فإنَّ الدُّنيا دارُ ظَعْنٍ، ليست بدارِ إقامةٍ، إنَّما أُنْزِلَ إليها آدمُ ﷺ عُقوبةً، فاحْذَرْها يا أميرَ المؤمنين! فإنَّ الزَّادَ منها تركُها، والغِنى فيها فَقْرُها، لها في كلِّ حينٍ قتيلٌ، تُذِلُّ مَن أعزَّها، وتُفْقِرُ مَن جَمَعَها، هي كالسُّمِّ يأْكُلُهُ مَن لا يعرِفُه، وهو حَتْفُهُ، فكُنْ فيها كالمُداوي جِراحَه؛ يحتمي قليلاً؛ مخافةَ ما يَكْرَهُ طويلاً، ويصبرُ على شِدَّةِ الدَّواءِ مخافةَ طولِ البلاءِ، فاحْذَرْ هٰذه الدَّارَ الغرَّارةَ، الخدَّاعةَ الخيَّالةَ، التي قد تزيَّنَتْ بخِدَعِها، وفَتَنَتْ بغرورِها، وخَتَلَتْ بآمالِها، وتشوَّفتْ لخُطَّابِها، فأصبحَتْ كالعروسِ المجلوَّةِ، العيونُ إليها ناظرةٌ، والقلوبُ عليها والهةٌ، والنُّفوسُ لها عاشقةٌ، وهي لأزواجِها كُلِّهم قاتلةٌ، فعاشقٌ لها قد ظفِرَ منها بحاجتِهِ، فاغترَّ وطغى، ونسي المعادَ، فشَغَلَ بها لُبَّهُ، حتى زَلَّتْ عنها قدَمُه، فعَظُمَت عليها نَدامتُه، وكَثُرتْ حَسْرتُه، واجتمعتْ عليهِ سكَراتُ الموتِ وألَمُه، وحسراتُ الفَوْتِ، وعاشقٌ لم يَنَلْ منها بُغْيَتَهُ، فعاشَ بغُصَّتِهِ، وذَهَبَ بكَمَدِهِ، ولم يُدْرِكْ منها ما طَلَبَ، ولم تسترِحْ نفسُهُ من التَّعَبِ، فخرَجَ بغيرِ زادٍ، وقَدِمَ على غيرِ مِهادٍ، فكُنْ أسرَّ ما تكونُ فيها أَحْذَرَ مَا تكونُ

---

(١) أخرجه البخاري (١١/٢١٧)، ومسلم (١٠٤٨)؛ عن أنس بن مالك.

(٢) وفي كتابه «ذم الدنيا» نصوصٌ كثيرة في ذلك.

لها؛ فإنَّ صاحبَ الدُّنيا كلَّما اطمأنَّ منها إلى سُرورٍ أشْخَصَتْهُ إلى مكروهٍ، وُصِلَ الرَّخاءُ منها بالبلاءِ، وجُعِلَ البقاءُ فيها إلى فناءٍ، سرورُها مشوبٌ بالحُزْنِ، أمانيُّها كاذبةٌ، وآمالُها باطلةٌ، وصفْوُها كَدَرٌ، وعيشُها نَكَدٌ، فلو كانَ ربُّنا لم يُخْبِرْ عَنها خبراً، ولم يَضْرِبْ لها مثلاً؛ لكانَتْ قد أيقظتِ النَّائمَ، ونبَّهتِ الغافلَ، فكيفَ وقد جاءَ مِن اللهِ فيها واعظٌ، وعنها زاجرٌ؟ فما لها عندَ اللهِ قَدْرٌ ولا وزنٌ، ولا نَظَرَ إليها منذُ خَلَقَها، ولقد عُرِضَتْ على نبيِّنا بمفاتيحِها وخزائِنِها[1]، لا ينقصُها عند اللهِ جَناحُ بَعُوضةٍ، فأبى أنْ يَقْبَلَها، كَرِهَ أنْ يُحِبَّ ما أبغضَ خالِقُه، أو يرفعَ ما وضعَ مليكُه، فزواها[2] عن الصَّالحين اخْتِيَاراً، وبَسَطها لأعدائِهِ اغْتِراراً، فيظنُّ المغرورُ بها المقتدرُ عليها أنَّهُ أُكْرِمَ بها، ونَسِيَ ما صَنَعَ اللهُ ﷺ برسولِهِ حينَ شدَّ الحجَرَ على بَطنِهِ»[3].

وقالَ الحسنُ أيضاً: «إنَّ قوماً أكْرَموا الدُّنيا فصَلَبَتْهُم على الخُشُبِ، فأَهِينُوها فأَهْنَأُ ما تكونُ إذا أَهَنْتُموها».

وهٰذا بابٌ واسعٌ.

وأهلُ الدُّنيا وعُشَّاقُها أعلمُ بما يُقاسُونَهُ مِن العذابِ وأنواعِ الألَمِ في طَلَبِها.

ولمَّا كانت هي أكبَرَ هَمِّ مَن لا يُؤمِنُ بالآخرةِ، ولا يرجو لِقاءَ ربِّه؛ كانَ عذابُهُ بها بحسبِ حِرْصِه عليها، وشدَّةِ اجتهادِهِ في طَلَبِها.

وإذا أردتَ أنْ تعرِفَ عذابَ أَهلِها، فتأمَّلْ حالَ عاشقٍ؛ فانٍ في حُبِّ معشوقِهِ، وكلَّما رامَ قُرباً مِن معشوقِهِ؛ نَأى عنهُ، ولا يَفي لهُ، ويهجُرُهُ، ويَصِلُ

---

(١) يُشير إلى قوله ﷺ: «وإني قد أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض...».
أخرجه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦)؛ عن عقبة بن عامر.

(٢) جَمَعَها وأبعَدَها.

(٣) انظر لزاماً: «فتح الباري» (٤/٢٠٨، ١١/٢٨٤).

عدُوَّهُ، فهو معَ معشوقِهِ في أنْكَدِ عَيْشٍ، يختارُ الموتَ دونَه، فمعشوقُهُ قليلُ الوفاءِ، كثيرُ الجفاءِ، كثيرُ الشُّركاءِ، سريعُ الاستحالةِ، عظيمُ الخيانةِ، كثيرُ التلوُّن لا يأْمَنُ عاشقُهُ معهُ على نفسِهِ ولا على مالِه، مع أنَّهُ لا صَبْرَ لهُ عنه، ولا يجدُ عنهُ سبيلاً إلى سَلْوةٍ تُريحُهُ، ولا وصالٍ يدومُ لهُ، فلو لم يكنْ لهذا العاشقِ عذابٌ إلا هٰذا العاجلَ؛ لكفى به، فكيفَ إذا حِيلَ بينَهُ وبينَ لذّاتِه كُلِّها، وصارَ معذَّباً بنفسِ ما كانَ ملتذّاً بهِ على قَدْرِ لذّتِه به، التي شَغَلَتْهُ عن سعْيِهِ في طلبِ زادِهِ، ومصالحِ معادِهِ؟

والمقصودُ بيانُ أنَّ مَن أحبَّ سوى اللهِ تعالى، ولم تَكُنْ محبَّتُهُ لهُ للهِ تعالى، ولا لكونِهِ مُعيناً لهُ على طاعةِ اللهِ تعالى: عُذِّبَ بهِ في الدُّنيا قبلَ يومِ القيامةِ؛ كما قيلَ:

أَنتَ القَتيلُ بكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ ... فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الهَوَى مَنْ تَصْطَفي

فإذا كانَ يومُ المعادِ ولَّى الحَكَمُ العدلُ سبحانَه كلَّ محبٍّ ما كانَ يُحِبُّهُ في الدُّنيا، فكانَ معهُ: إمّا منعَّماً أو معذَّباً. ولهٰذا «يُمثَّلُ لصاحبِ المالِ مالُه شجاعاً أقرعَ يأْخُذُ بلِهْزِمَتَيْهِ ـ يعني شِدْقيهِ ـ يقولُ: أنا مالُك، أنا كَنْزُك، ويُصَفَّحُ لهُ صفائحُ مِن نارٍ يُكوى بها جَبينُه وجَنبُه وظَهْرُه»[١].

وكذٰلك عاشِقُ الصُّوَرِ إذا اجتمعَ هو ومعشوقُهُ على غيرِ طاعةِ اللهِ تعالى؛ جَمَعَ اللهُ بينَهما في النّارِ، وعُذِّبَ كُلٌّ منهما بصاحبِه، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وأخبر سبحانه أنَّ الَّذينَ توادُّوا في الدُّنيا على الشِّركِ يكفُرُ بعضُهُم ببعضٍ يومَ القيامةِ، ويلْعَنُ بعْضُهُم بعضاً، ومأْواهُمُ النّارُ وما لهُم مِن ناصِرينَ[٢].

فالمحبُّ مع محبوبِهِ دُنيا وأُخرى، وقد قالَ صلّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ:

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢١٢)، ومسلم (٩٨٧)؛ عن أبي هريرة.
و(الشجاع الأقرع): هو ذكر الحيَّة كثير السم.

(٢) إشارة إلى الآية (٢٥) من سورة العنكبوت.

«المرءُ معَ مَنْ أحبَّ»[١].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وقالَ تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٥].

قالَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه: «أزواجُهُمْ: أشباهُهُمْ ونُظراؤهُم»[٢].

وقالَ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]. فقُرِنَ كلُّ شَكْلٍ إلى شكلِهِ، وجُعِلَ معهُ قريناً وزوجاً: البَرُّ مَعَ البَرِّ، والفاجرُ معَ الفاجِرِ.

والمقصودُ أنَّ من أحَبَّ شيئاً سوى الله عز وجل فالضَّرَرُ حاصلٌ لهُ بمحبوبه: إنْ وُجِدَ وإنْ فُقِدَ.

فإنَّهُ إنْ فَقَدَهُ عُذِّبَ بفواتِهِ وتألَّم على قَدْرِ تعلُّقِ قلبِهِ به.

وإنْ وَجَدَه كان ما يحصُلُ لهُ مِن الألَم قبلَ حُصولِهِ، ومِنَ النَّكَدِ في حالِ حُصولِهِ، ومِن الحسرةِ عليهِ بعدَ فوتِهِ: أضعافَ أضعافِ ما في حُصوله لهُ من اللَّذَّةِ.

فَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ ... وإِنْ وَجَدَ الهَوَى حُلْوَ المَذاقِ
تَـرَاهُ بـاكِـيـاً فـي كُـلِّ حـالٍ ... مَـخـافَـةَ فُـرْقَـةٍ أو لاشْـتِـيـاقِ
فَـيَـبْـكِـي إنْ نَـأَوْا شَـوْقـاً إِلَـيْـهِـمْ ... ويَـبْـكِـي إِنْ دَنَـوْا حَـذَرَ الـفِـراقِ

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٤٦٢)، ومسلم (٢٦٤١)؛ عن أبي موسى الأشعري. وفي الباب عن عدّةٍ من الصحابة.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي شيبة، وغيرهم «الدر المنثور» (٧/ ٨٣).

وتَسْخُنُ عَيْنُهُ عندَ الفِراقِ   فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عندَ التَّلاقِي

وهٰذا أمرٌ معلومٌ بالاستقراءِ والاعتبارِ والتجارِبِ، ولهذا قال النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّم في الحديثِ الذي رواهُ الترمذيُّ وغيره: **«الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ مَا فيها إلَّا ذِكْرَ اللهِ وما والاهُ»**[١].

فذِكْرُهُ: جميعُ أنواعِ طاعتِه، فكلُّ مَن كانَ في طاعتِه؛ فهو ذاكِرٌ لهُ، وإنْ لم يتحرَّكْ لسانُه بالذِّكْرِ، وكُلُّ مَن والاهُ اللهُ؛ فقد أحبَّهُ وقرَّبهُ، فاللعنةُ لا تَنالُ ذٰلك بوجهٍ، وهي نائلةٌ كُلَّ مَا عداهُ.

الوجهُ السابعُ: أنَّ اعتمادَ العبدِ على المخلوقِ وتوكُّلَهُ عليهِ يوجِبُ لهُ الضَّرَرَ مِن جهتِهِ هو ولا بدَّ، عكسَ ما أمَّلَهُ منه، فلا بدَّ أنْ يُخْذَلَ مِن الجهةِ التي قَدَّرَ أنْ يُنْصَرَ منها، ويُذَمَّ مِن حيثُ قدَّرَ أنْ يُحْمَدَ، وهٰذا أيضاً كما أنَّهُ ثابتٌ بالقرآنِ والسُّنةِ؛ فهو معلومٌ بالاستقراءِ والتَّجارِبِ.

قالَ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]، وقالَ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤ - ٧٥]؛ أي: يغضبونَ لهُم ويُحارِبون كما يغضبُ الجندُ ويحارِبُ عن أصحابِهِ، وهم لا يستطيعونَ نصْرَهُم، بل هم كلٌّ عليهم

وقالَ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠١]؛ أي: غير تَخْسيرٍ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤١١٢)، والبغوي (٤٠٢٨)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (رقم ١٣٣٠)؛ من طريقين عن عطاء بن قُرَّة عن عبد الله بن ضمرة عن أبي هريرة. وسنده حسنٌ، إذ ابنُ ضَمرة روى عنه جماعةٌ، ووثَّقه ابنُ حبان والعجْلي.
وله شاهدٌ في «الحلية» (٣/ ١٥٧ و٧/ ٩٠) عن جابر يزداد به قوَّة
وانظر: «تخريج أحاديث الإحياء» (٢٩٣٧).

وقالَ تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقالَ تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

فإنَّ المشركَ يرجو بشِركِهِ النَّصرَ تارةً، والحمدَ والثَّناءَ تارةً، فأخبرَ سُبحانَه أنَّ مقصودَهُ ينعكسُ عليهِ، ويحصُلُ لهُ الخذلانُ والذَّمُّ.

والمقصودُ أنَّ هذينِ الوجهينِ في المخلوقِ ضدُّهما في الخالقِ سُبحانَه:

فصلاحُ القلبِ وسعادتُه وفلاحُه في عبادةِ اللهِ تعالى والاستعانةِ به.

وهلاكُهُ وشقاؤهُ وضررُه العاجلُ والآجلُ في عبادةِ المخلوقِ، والاستعانةِ بهِ.

الوجْهُ الثَّامنُ: أنَّ اللهَ سبحانَه غنيٌّ كريمٌ، عزيزٌ رحيمٌ، فهو محسِنٌ إلى عبدِه مع غِناهُ عنهُ، يريدُ بهِ الخيرَ، ويكشفُ عنهُ الضُّرَّ، لا لجلبِ منفعةٍ إليهِ مِن العبدِ، ولا لدَفْعِ مَضرَّةٍ بل رحمةً منهُ وإحساناً. فهو سُبحانَهُ لم يَخْلُقْ خَلْقَهُ ليتكَثَّرَ بهِمْ مِن قِلَّةٍ، ولا ليعتزَّ بهِمْ مِن ذِلَّةٍ، ولا ليرزُقُوهُ ولا لِيَنْفَعوهُ، ولا ليدفعوا عنهُ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

وقالَ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]، فهو سُبحانَه لا يوالي مَن يواليهِ مِن الذُّلِّ كما يوالي المَخلوقُ المَخلوقَ، وإنَّما يُوالي أولياءَهُ إحساناً ورحمةً ومحبَّةً لهُم.

وأمَّا العبادُ؛ فإنَّهم كما قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨] فهُم لفقرِهِم وحاجتِهِم إنَّما يُحْسِنُ بعضُهم إلى بعضٍ لحاجتِه إلى ذلك وانتفاعِه بهِ عاجلاً أو آجلاً، ولولا تصوُّرُ ذلك النفعِ لما أَحْسَنَ إليهِ، فهو في

الحقيقةِ إنَّما أرادَ الإحسانَ إلى نفسِه، وجَعَلَ إحسانَه إلى غيرِه وسيلةً وطريقاً إلى وُصولِ نفعِ ذٰلك الإحسانِ إليهِ؛ فإنَّهُ إمَّا أنْ يُحْسِنَ إليهِ لتوقُّعِ جزائِهِ في العاجِلِ، فهو محتاجٌ إلى ذٰلك الجزاءِ، أو مُعاوضةً بإحسانِه، أو لتوقُّعِ حَمْدِهِ أو شُكْرِهِ، وهو أيضاً إنَّما يُحْسِنُ إليهِ ليُحَصِّلَ منهُ ما هُو محتاجٌ إليهِ مِن الثَّناءِ والمدحِ، فهو محسنٌ إلى نفسهِ بإحسانِه إلى الغيرِ، وإمَّا أنْ يُريدَ الجزاءَ من اللهِ تعالى في الآخرةِ، فهو أيضاً مُحْسِنٌ إلى نفسِهِ بذلك، وإنَّما أخَّرَ جزاءَهُ إلى يومِ فَقْرِهِ وفاقتِهِ، فهو غيرُ ملومٍ في هٰذا القصدِ؛ فإنَّهُ فقيرٌ محتاجٌ، وفقرُهُ وحاجتُهُ أمرٌ لازمٌ لهُ مِن لوازِمِ ذاتِه، فكمالُهُ أنْ يَحْرِصَ على ما ينفعُهُ، ولا يعجِزُ عنهُ.

وقالَ تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وقالَ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقالَ تعالى فيما رواهُ عنهُ رسولُه صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّم: «**يا عِبادي إنَّكُم لن تَبْلُغوا نفعي فتَنْفَعوني، ولن تَبْلُغوا ضُرِّي فتضُرُّوني. يا عِبادي! إنَّما هي أعمالُكُم أُحْصيها لكُم، ثم أُوَفِّيكُم إيَّاها، فمَن وَجَدَ خيراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ، ومَن وَجَدَ غيرَ ذٰلك فلا يَلومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ**»(١).

فالمخلوقُ لا يَقْصِدُ منفعتَكَ بالقَصْدِ الأوَّلِ، بل إنَّما يقصُدُ انتفاعَهُ بكَ، والربُّ تعالى إنَّما يريدُ نفعَكَ لا انتفاعَهُ بِهِ، وذٰلك منفعةٌ مَحْضَةٌ لكَ خالصةٌ مِن المَضرَّةِ، بخلافِ إرادةِ المخلوقِ نفعَكَ؛ فإنَّه قد يكونُ فيهِ مَضَرَّةٌ عليكَ، ولو بتحمُّلِ منّتِه.

فتدبَّرْ هٰذا؛ فإنّ ملاحظتَه تمنَعُكَ أنْ ترجو المخلوقَ أو تعامِلَهُ دونَ اللهِ ﷻ، أو تطلُبَ منهُ نفعاً، أو دفعاً، أو تعلُّقَ قلبكَ بهِ؛ فإنَّهُ إنَّما يريدُ انتفاعَهُ بكَ لا محضَ نفعكَ. وهٰذا حالُ الخَلْقِ كُلِّهِم بعضِهِم مع بعضٍ. وهو حالُ الولدِ مع والدِهِ، والزوجِ معَ زوجِه، والمملوكِ معَ سيِّدِهِ، والشَّريكِ مَعَ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذرّ.
وانظر: «نصيحة الملك الأشرف» (ق١٩) للضياء المقدسي، وتعليقي عليها.

شريكِه. فالسعيدُ مَن عامَلَهُم للهِ تعالى بالإحسانِ إليهِم، ولم يَرْجُهُم معَ اللهِ، وأحبَّهُم لحبِّ اللهِ، ولم يُحِبَّهُم مع اللهِ تعالى؛ كما قالَ أولياءُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

الوجْهُ التّاسعُ: أنَّ العبدَ المخلوقَ لا يعلمُ مصلَحَتَك حتى يُعرِّفَهُ اللهُ تعالى إيَّاها، ولا يَقْدِرُ على تحصيلِها لك حتى يُقَدِّرُهُ اللهُ تعالى عليها، ولا يريدُ ذٰلك حتى يَخْلُقَ اللهُ فيهِ إرادةً ومشيئةً، فعادَ الأمرُ كلُّهُ لمَنِ ابتَدَأَ منهُ، وهو الذي بيدِهِ الخيرُ كلُّهُ، وإليهِ يرجِعُ الأمرُ كلُّه، فتعلُّقُ القلبِ بغيرِه رجاءً وخَوْفاً وتوكُّلاً وعبوديَّةً ضرَرٌ محضٌ، لا منفَعَةَ فيهِ، وما يحصُلُ بذٰلك مِن المنفعةِ فهو سبحانَه وحدَه الذي قدَّرَها ويسَّرها وأوصَلَها إليكَ.

الوجْهُ العاشِرُ: أنَّ غالبَ الخَلْقِ إنَّما يريدونَ قضاءَ حاجاتِهم منكَ، وإنْ أضَرَّ ذٰلك بدينِكَ ودُنياكَ، فهُم إنَّما غرضُهُم قضاءُ حوائجِهِم ولو لمضرَّتِك. والرَّبُّ تباركَ وتعالى إنَّما يريدُك لكَ، ويريدُ الإحسانَ إليكَ لكَ لا لمنفعتِه، ويريدُ دَفْعَ الضَّرَرِ عنكَ، فكيفَ تُعَلِّقُ أمَلَكَ ورجاءَكَ وخَوْفَكَ بغيرِه؟ وجُمَّاعُ هٰذا أنْ تعلَمَ: «أنَّ الخَلْقَ كُلَّهُم لو اجتَمَعوا على أنْ ينفَعُوكَ بشيءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلَّا بشيءٍ قد كَتَبهُ اللهُ لكَ، ولو اجتَمَعوا كلُّهُم على أنْ يَضُرُّوكَ بشيءٍ لم يَضُرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ تعالى عليكَ»[1]، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

والخُلاصةُ أنَّهُ:

لمَّا كانَ الإنسانُ، بل وكلُّ حيٍّ متحرِّكٍ بالإرادةِ، لا ينفكُّ عن علمٍ

---

(١) كما رواه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وأبو يعلى (٢٥٥٦)؛ من طريق حَنَش الصَّنْعاني عن ابن عبّاس، وسنده حسنٌ وللحديث طُرُقٌ أُخرى كثيرةٌ استوعبها أخونا الفاضل محمد بن ناصر العجْمي في تعليقه على رسالة ابن رجب: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس» (ص٣١ ـ ٣٣، الطبعة الثانية).

وإرادةٍ وعملٍ بتلكَ الإرادةِ، وله مُرادٌ مطلوبٌ، وطريقٌ وسببٌ يُوصِلُ إليهِ، مُعينٌ عليهِ، وتارةً يكونُ السببُ منهُ، وتارةً يكونُ مِن خارجٍ منفصلٍ عنهُ، وتارةً منهُ ومِن الخارجِ، فصارَ الحيُّ مجبولاً على أنْ يقصِدَ شيئاً ويريدَهُ، ويستعينَ شيءٍ ويعْتَمِد عليهِ في حُصولِ مُرادِهِ.

والمُرادُ قسمانِ:

أَحدُهُما: ما هُو مُرادٌ لنفسِه.

والثَّاني: ما هُو مُرادٌ لغيرِهِ.

والمُستعانُ قسمانِ:

أَحدُهما: ما هُو مستعانٌ بنفسِهِ.

والثَّاني: ما هُو تَبَعٌ لهُ وآلةٌ.

فهٰذه أربعةُ أمورٍ: مرادٌ لنفسِهِ، ومرادٌ لغيرِه، ومُستعانٌ بنفسِهِ، ومستعانٌ بكونِه آلةً وتَبعاً للمستعانِ بنفسِهِ.

فلا بدَّ للقلبِ مِن مطلوبٍ يطمئنُّ إليهِ، وتنتهي إليهِ محبَّتُه، ولا بدَّ لهُ مِن شيءٍ يتوَصَّلُ به، ويستعينُ بهِ في حُصولِ مطلوبِهِ، والمستعانُ مدعوٌّ ومسؤولٌ، والعبادةُ والاستعانةُ كثيراً ما يتلازمانِ، فمَن اعتمدَ القلبُ عليهِ في رزقِهِ ونصرِهِ ونفعِهِ خَضَعَ لهُ، وذَلَّ له، وانقادَ لهُ، وأحبَّهُ من هٰذه الجهةِ، وإِن لم يُحِبَّهُ لذاتِه، لٰكنْ قَدْ يَغْلِبُ عليهِ حُكْمُ الحالِ حتَّى يُحِبَّهُ لذاتِه، وينسى مقصودَهُ منهُ، وأَمَّا مَن أحبَّهُ القلبُ وأرادهُ وقصَدَهُ فقد لا يستعينُ بهِ، ويستعينُ بغيرِهِ عليهِ، كمَنْ أَحَبَّ مالاً أو منصِباً أو امرأةً، فإنْ علمَ أنَّ محبوبَهُ قادرٌ على تحصيلِ غرَضِهِ استعانَ بهِ، فاجتَمَعَ لهُ محبَّتُهُ والاستعانةُ بهِ.

فالأقسامُ أربعةٌ:

محبوبٌ لنفسهِ وذاتِه، مُستعانٌ بنفسِهِ، فهذا أعلى الأقسامِ، وليس ذٰلك

إلَّا للهِ وحدَه، وكُلُّ مَا سواهُ فإنَّما ينبغي أَنْ يُحَبَّ تبعاً لمحبّته، ويُستعانَ بهِ لكونِه آلةً وسبباً.

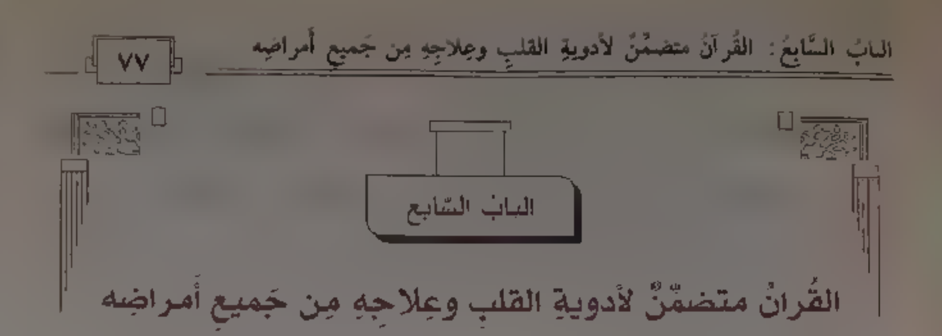
الثَّاني: محبوبٌ لغيرِهِ ومُستعانٌ بِهِ أيضاً؛ كالمحبوبِ الذي هو قادرٌ على تحصيلِ غرَضِ مُحِبِّهِ.

الثَّالثُ: محبوبٌ مستعانٌ عليهِ بغيرِه.

الرَّابعُ: مستعانٌ بهِ غيرُ محبوبٍ في نفسِهِ.

فإذا عُرِفَ ذٰلك تبيَّنَ مَن أحقُّ هٰذه الأقسامِ الأربعةِ بالعبوديَّةِ والاستعانةِ، وأَنَّ محبَّةَ غيرِه واستعانَتَه بهِ إنْ لم تَكُنْ وسيلةً إلى محبَّتِه واستعانتِه، وإلَّا كانتْ مَضَرَّةً على العبدِ، ومفسدتُها أعظمُ مِن مصلحَتِها.

واللهُ المستعانُ، وعليهِ التُّكلانُ.



الباب السّابع

القُرآنُ متضمّنٌ لأدويةِ القلبِ وعِلاجِهِ مِن جَميعِ أمراضِه

قـــالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

وقـــالَ تـــعـــالـــى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد تقدَّمَ أنَّ جُمَّاعَ أمراضِ القلبِ هي أمراضُ الشُّبُهاتِ والشَّهواتِ.

والقرآنُ شفاءٌ للنَّوعينِ، ففيهِ مِن البيِّناتِ والبراهينِ القطعيَّةِ ما يبيِّنُ الحقَّ مِن الباطلِ، فتزولُ أمراضُ الشُّبَهِ المفسدةِ للعلمِ والتصوُّرِ والإدراكِ، بحيثُ يَرى الأشياءَ على ما هِيَ عليهِ.

وليس تحتَ أديمِ السَّماءِ كتابٌ متضمِّنٌ للبراهينِ والآياتِ على المطالبِ العاليةِ؛ مِن التَّوحيدِ، وإثباتِ الصِّفاتِ، وإثباتِ المعادِ والنُّبوَّاتِ، وردِّ النِّحَلِ الباطلةِ والآراءِ الفاسدةِ: مثلُ القرآنِ، فإنَّهُ كفيلٌ بذٰلك كلِّهِ، متضمِّنٌ لهُ على أتمِّ الوجوهِ وأحْسَنِها، وأقرَبِها إلى العُقولِ وأفصَحِها بياناً، فهُو الشِّفاءُ على الحقيقةِ مِن أدواءِ الشُّبَهِ والشُّكوكِ.

ولكنَّ ذٰلك موقوفٌ على فهمِهِ ومعرفةِ المرادِ منهُ، فمَن رَزَقَهُ اللهُ تعالى ذٰلك أبْصَرَ الحقَّ والباطلَ عَياناً بقلْبِهِ، كما يرى الليلَ والنَّهارَ، وعَلِمَ أنَّ ما عداهُ مِن كُتُبِ النَّاسِ وآرائِهم ومعقولاتِهم: بينَ علومٍ لا ثقةَ بها ـ وإنَّما هي آراءٌ وتقليدٌ ـ وبينَ ظُنونٍ كاذبةٍ لا تُغْني عن الحقِّ شيئاً، وبينَ أُمورٍ صحيحةٍ لا منفَعَةَ للقلبِ فيها، وبينَ علومٍ صحيحةٍ قد وعَّروا الطَّريقَ إلى تحصيلِها، وأطالوا الكلامَ في إثباتِها، مع قِلَّةِ نفْعِها، فهي «لحمُ جَمَلٍ غَثٌّ على رأسِ

جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سهلٌ فيُرْتَقى، ولا سَمينٌ فيُنْتَقل»(١)!

وأحسنُ ما عندَ المتكلِّمينَ وغيرِهم فهو في القرآنِ أَصحُّ تَقريراً، وأحسنُ تفسيراً، فليس عندَهم إلا التكلُّفُ والتَّطويلُ والتعقيدُ؛ كما قيلَ:

لَوْلَا التَّنافُسُ في الدُّنْيا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتْبُ التَّناظُرِ لا المُغْني ولا العُمَدُ(٢)

يُحَلِّلُونَ بِزَعْمِ مِنْهُمُ عُقَداً ... وبِالَّذي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ

فهُم يزعُمونَ أَنَّهُم يدفعونَ بالذي وضعوهُ الشُّبَهَ والشُّكوكَ، والفاضلُ الذكيُّ يعلمُ أنَّ الشُّبَهَ والشُّكوكَ زادتْ بذلك، ومِن المُحالِ أنْ لا يَحْصُلَ الشفاءُ والهُدى، والعلمُ واليقينُ مِن كتابِ اللهِ تعالى وكلامِ رسولِه، ويحْصُلَ مِن كلامِ هؤلاءِ المُتَحَيِّرينَ المُتَشَكِّكينَ الشَّاكِّينَ، الذينَ أخبَرَ الواقِفُ على نهاياتِ إقدامِهِمْ بما انتهى إليهِ مِن مَرامِهِم، حيثُ يقولُ(٣):

«نِهايَةُ إِقْدامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وأَكْثَرُ سَعْيِ العالَمِينَ ضَلَالُ

وأَرْوَاحُنا في وَحْشَةٍ مِن جُسومِنا ... وحَاصِلُ دُنْيانا أَذًى وَوَبَالُ

ولَمْ نَسْتَفِدْ مِن بَحْثِنا طُولَ عُمْرِنا ... سِوى أَنْ جَمَعْنا فيهِ قيلَ وقَالوا

لقد تأمَّلْتُ الطُّرُقَ الكلاميَّةَ، والمناهجَ الفلسفيَّةَ، فما رأيتُها تَشْفي عليلاً، ولا تَرْوي غليلاً، ورأيتُ أقربَ الطُّرُقِ طريقةَ القرآنِ، أقرأُ في الإثباتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وأقرأُ في النَّفيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومَن جرَّبَ مِثْلَ تجْربتي؛ عَرَفَ مثلَ معرِفتي.

فهٰذا إنشادُهُ وألفاظُهُ في آخِرِ كُتُبه، وهو أفضلُ أهلِ زمانِه على الإطلاقِ في علمِ الكلامِ والفلسفة.

---

(١) قطعةٌ من حديث أم زَرْع الذي رواه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٢) «المُغْني» و«العُمَد»: من كُتب المعتزلة

(٣) هو الفخر الرازي في «أقسام اللَّذات»؛ كما ذكره شيخُ الإسلام ابن تيمية في عدَّةٍ من كتبه، منها: «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٦٠)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٧١)، وغيرها

وكلامُ أمثالِهِ في مثلِ ذٰلك كثيرٌ جدّاً.

ومنهُ قولُ بعضِ العارفينَ بكلامِ هٰؤلاءِ: «آخِرُ أمرِ المتكلِّمينَ الشكُّ، وآخرُ أمرِ المتصوِّفينَ الشَّطحُ».

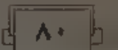
والقرآنُ يوصِلُكَ إلى نفسِ اليقينِ في هٰذه المطالِبِ التي هي أعلى مطالِبِ العبادِ، ولذٰلكَ أنْزَلَهُ مَن تَكَلَّمَ بهِ، وجَعَلَهُ شفاءً لِما في الصُّدورِ، وهُدًى ورحمةً للمُؤْمِنينَ.

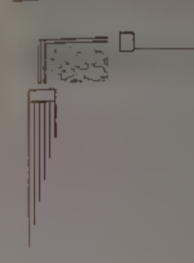
وأمَّا شِفاؤُهُ لمرضِ الشَّهواتِ فذٰلك بما فيهِ مِن الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والتَّزهيدِ في الدُّنيا، والتَّرغيب في الآخرةِ، والأمثالِ والقَصَصِ التي فيها أنواعُ العِبَرِ والاستبصار، فيرغبُ القلبُ السليمُ إذا أبصرَ ذٰلك فيما ينفَعُهُ في معاشِهِ ومعادِه، ويرغبُ عمَّا يضرُّهُ، فيصيرُ القلبُ مُحِبّاً للرُّشْدِ، مُبغضاً للغَيِّ، فالقرآنُ مُزيلٌ للأمراضِ المُوَجِّهَةِ للإراداتِ الفاسدةِ، فيُصْلِحُ القسبَ، فتصْلُحُ إرادتُه، ويعودُ إلى فطرتِهِ التي فُطِرَ عليها، فتَصْلُحُ أفعالُهُ الاختياريَّةُ الكسبيَّةُ، كما يعودُ لبَدَنُ بصحَّتِهِ وصلاحِهِ إلى الحالِ الطَّبيعِيِّ، فيصيرُ بحيثُ لا يقبلُ إلَّا الحقَّ؛ كما أنَّ الطفلَ لا يقبَلُ إلَّا اللَّبَنَ.

فيتغذَّى القلبُ مِن الإيمادِ والقرآنِ بما يزكِّيهِ ويقوِّيه، ويؤيِّدُهُ ويُفرِحُهُ، ويَسرُّهُ ويُنَشِّطُهُ، ويُثبِّتُ مُلْكَه؛ كما يتغذَّى البدنُ بما يُنمِّيهِ ويقوِّيه.

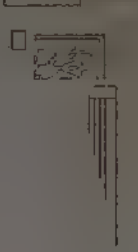
وكلٌّ مِن القلبِ والبدنِ محتاجٌ إلى أنْ يتربَّى فينموَ ويزيدَ، حتى يكْمُلَ ويَصْلُحَ، فكما أنَّ البدنَ محتاجٌ إلى أنْ يزكُو بالأغذيةِ المصلحةِ والحِمْيَةِ عمَّا يضرُّهُ، فلا يسمو إلَّا بإعطائِهِ ما ينفعُهُ، ومنعِ ما يضرُّهُ، فكذٰلك القلبُ لا يَزكو ولا ينمو ولا يتمُّ صلاحُهُ إلَّا بذٰلك. ولا سبيلَ لهُ إلى الوصول إلى ذٰلك إلَّا مِن القُرآنِ، وإنْ وَصَلَ إلى شيءٍ منهُ مِن غيرِه؛ فهو نَزْرٌ يسيرٌ، لا يحصُلُ لهُ بهِ تمامُ المقصودِ، وكذٰلك الزَّرعُ لا يتمُّ إلَّا بهٰذينِ الأمرينِ، فحينئذٍ يُقالُ: زَكا الزَّرعُ وكَمُلَ.

ولمَّا كانتْ حياتُهُ ونعيمُه لا تتمُّ إلَّا بزكاتِه وطهارته؛ لم يكنْ بدٌّ مِن ذِكرِ هذا وهٰذا، وشرحِه وبيانِه. وهو البابُ الآتي:









زَكَاةُ القَلْبِ

الزَّكاةُ في اللُّغةِ[1]: هي النَّماءُ والزِّيادةُ في الصَّلاحِ وكمالِ الشيءِ؛ يُقالُ: زَكا الشيءُ إذا نَما، قالَ اللهُ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فجمَع بينَ الأمرينِ: الطهارةِ والزَّكاةِ؛ لتلازُمِهما.

فإنَّ نجاسَةَ الفواحِشِ والمعاصي في القلبِ بمنزلةِ الأخلاطِ الرَّديئةِ في البدنِ، وبمنزلةِ الدَّغَلِ في الزَّرعِ، وبمنزلةِ الخُبْثِ في الذّهَبِ والفضّةِ والنُّحاسِ والحديدِ، فكما أَنَّ البدنَ إذا اسْتُفْرِغَ مِن الأخلاطِ الرَّديئةِ؛ تخلَّصَت القوَّةُ الطَّبيعيَّةُ منها فاستَراحَتْ، فعَمِلَتْ عَمَلَها بلا مُعوِّقٍ ولا مُمانِعٍ، فنما البدنُ، فكذٰلكَ القلبُ إذا تخلَّصَ مِن الذُّنوبِ بالتَّوبةِ فقد استُفْرِغَ مِن تخليطِهِ، فتخلَّصَتْ قُوَّةُ القلبِ وإرادتُه للخيرِ، فاستراحَ مِن تلكَ الحوادِثِ الفاسدةِ والموادِّ الرَّديئةِ: زَكا ونَما، وقوِيَ واشتدَّ، وجَلَس على سريرِ مُلكِهِ، ونَفَذ حُكْمُهُ في رعيَّتِه، فسَمِعَتْ لهُ وأطاعَتْ، فلا سبيلَ لهُ إلى زكاتِهِ إلّا بعدَ طهارَتِه؛ كما قالَ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠]، فجَعَلَ الزَّكاةَ بعدَ غضِّ البصرِ وحِفْظِ الفرجِ.

ولهٰذا كانَ غَضُّ البصرِ عن المحارِمِ يوجِبُ ثلاثَ فوائدَ عظيمَةِ الخطرِ، جَليلةِ القَدْرِ:

---

(١) «القاموس المحيط» (ص١٦٦٧)، «المصباح المنير» (ص٢٥٤)، «الصحاح» (ص٢٧٣ ـ مختاره).

إحداها: حلاوةُ الإيمانِ ولذَّتُه، التي هي أحلى وأطيبُ وألذُّ مِمَّا صَرَفَ بَصَرَهُ عنهُ، وتَرَكَهُ للهِ تعالى، فإنَّ «مَنْ تَرَكَ شيئاً للهِ عَوَّضَهُ اللهُ ﷻ خيراً منهُ»[1]، والنَّفسُ مُولَعَةٌ بحُبِّ النَّظَرِ إلى الصُّورِ الجميلةِ، والعينُ رائدُ القلبِ، فيبعثُ رائِدَهُ لنَظَرِ ما هُناكَ، فإذا أَخْبَرَهُ بحُسْنِ المنظورِ إليهِ وجمالِهِ، تحرَّكَ اشتياقاً إليهِ، وكثيراً ما يُتْعِبُ ويُتْعِبُ رَسولَهُ ورائِدَهُ؛ كما قيلَ:

وكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً ... لِقَلْبِكَ يَوماً أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذي لا كُلَّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ ولا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

فإذا كَفَّ الرَّائدُ عن الكَشْفِ والمطالعةِ؛ استراحَ القلبُ مِن كُلْفَةِ الطلبِ والإرادةِ، فمَن أطلَقَ لحظاتِه دامَتْ حَسراتُهُ، فإنَّ النَّظَرَ يُوَلِّدُ المحبَّةَ[2]، فتبدأُ علاقةً يتعلَّقُ القلبُ بالمنظورِ إليهِ، ثمَّ تقوى فتصيرُ صَبابةً ينصَبُّ إليه القلبُ بكُلِّيَّتِهِ، ثمَّ تقوى فتصيرُ غراماً يَلْزَمُ القلبَ كلزومِ الغريمِ الذي لا يُفارِقُ غَريمَهُ، ثمَّ يقوى فيصيرُ عِشْقاً، وهو الحبُّ المُفْرِطُ، ثم يقوى فيصيرُ شَغَفاً، وهو الحبُّ الذي قد وصَلَ إلى شَغافِ القلبِ ودخَلَهُ، ثمَّ يقوى فيصيرُ تَتَيُّماً. والتَّتَيُّمُ: التَّعَبُّدُ، ومنهُ تَيَّمَهُ الحبُّ إذا عَبَّدَهُ، وتَيَّمَ اللهِ: عَبَدَ اللهِ، فيصيرُ القلبُ عبداً لمَن لا يصلُحُ أنْ يكونَ هو عبداً لهُ. وهٰذا كلُّهُ جنايةُ النَّظرِ، فحينئذٍ يقعُ القلبُ في الأَسْرِ، فيصيرُ أَسيراً بعدَ أنْ كانَ مَلِكاً، ومسجوناً بعدَ أنْ كانَ مُطْلقاً، يتظلَّمُ مِن الطَّرْفِ ويشكوهُ، والطَّرْفُ يقولُ: أنا رائِدُك ورسولُك، وأَنْتَ بَعَثْتَني!

وهٰذا إنَّما تُبْتَلى بهِ القلوبُ الفارغةُ مِن حُبِّ اللهِ والإخلاصِ لهُ، فإنَّ

---

(١) رواه أحمد (٥/٣٦٣)، والمروزي في «زوائد الزهد» (٤١٢)، والنسائي في «الكبرى»، كما في «تحفة الأشراف» (١١/١٩٩)، عن أحد الصَّحابة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّك لن تدع شيئاً لله إلا أبدلك اللهُ به ما هو خيرٌ منه» بسند صحيح.
وانظر في «الإتمام ...» (٢٣١٢٤) زيادة بيان.

(٢) وقد ذكر المصنِّف في «روضة المحبِّين» (ص١٦) ما يقرب من ستين صفةً أو أثراً للحُبِّ، عدَّها أهل العلم أسماءً له.

القلبَ لا بدَّ لهُ مِن التعلُّقِ بمحبوبٍ، فمَن لَم يَكُنِ اللهُ وحدَهُ محبوبَهُ وإلٰهَهُ ومعبودَهُ؛ فلا بدَّ أَنْ يتعبَّدَ قلبُهُ لغيرِهِ(١).

قالَ تعالى عن يُوسُفَ الصِّدِّيقِ ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فامرأةُ العزيزِ لمَّا كانت مُشْرِكةً؛ وَقَعَتْ فيما وَقَعَتْ فيهِ، مع كونِها ذاتَ زوجٍ، ويوسُفُ ﷺ لمَّا كانَ مُخْلِصاً للهِ تعالى نَجا من ذٰلك مع كونِهِ شاباً عَزَباً غَريباً مَمْلوكاً.

القائدةُ الثَّانيةُ: في غَضِّ البَصَرِ نورُ القلبِ وصِحَّةُ الفراسةِ، قال ابن شُجاع الكِرْمانيُّ(٢): «مَن عَمَّرَ ظاهِرَهُ باتِّباعِ السُّنَّةِ، وباطنَهُ بدوامِ المُراقبةِ، وكفَّ نفسَهُ عن الشَّهواتِ، وغَضَّ بصَرَهُ عن المَحارِمِ، واعتادَ أَكْلَ الحلالِ لم تُخطئ لهُ فراسةٌ».

وقد ذَكَرَ اللهُ سُبحانَهُ قصَّةَ قومِ لوطٍ وما ابْتُلُوا بِهِ، ثمَّ قالَ بعدَ ذٰلك: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وهُم المُتَفَرِّسُونَ الذين سَلِموا مِن النَّظَرِ المحرَّمِ والفاحشةِ.

وقالَ تعالى عَقيبَ أَمرِهِ للمؤمِنينَ بغَضِّ أبصارِهِم وحِفْظِ فُروجِهِم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

وسرُّ هٰذا أَنَّ الجزاءَ مِن جِنْسِ العَمَلِ، فمَن غَضَّ بصَرَهُ عمَّا حَرَّمَ اللهُ ﷻ عليهِ، عوَّضَهُ اللهُ تعالى مِن جِنسِهِ ما هُو خيرٌ منهُ، فكما أَمسكَ نُورَ بصرِهِ عن

---

(١) كما يُقال:

أتاني هواها قبلَ أن أعرفَ الهوى فصادَفَ قلباً خاوياً فتمكَّنا

وانظر كلام المصنِّف في هذه القضيَّة الجليلة فيما يأتي (ص١٢٧)، وفي «الداء والدواء» (ق١٧٠) له بتحقيقي، نشر دار ابن الجوزي.

(٢) أحد المذكورين بالزهد، واسمه شاه، وكنيته أبو الفوارس؛ كما في «الحلية» (١٠/ ٢٢٨)، و«الرسالة القشيرية» (ص٢٩)، ووقع اسمه في طبعتي «إغاثة اللهفان»: «أبو شجاع»، وهو تحريف.

المحرَّماتِ أطلَقَ اللهُ نورَ بصيرتِهِ وقلبِهِ، فرأى بهِ ما لم يَرَهُ مَن أطلَقَ بصَرَهُ ولم يَغُضَّهُ عن محارِمِ اللهِ تعالى.

وهٰذا أمرٌ يُحِسُّهُ الإنسانُ مِن نفسِهِ، فإنَّ القلبَ كالمرآةِ، والهوى كالصَّدأ فيها، فإذا خلَصَتِ المِرآةُ مِن الصَّدأ؛ انطَبَعَتْ فيها صُورُ الحقائقِ كما هي عليهِ، وإذا صدِئتْ؛ لم تَنْطَبِعْ فيها صُورُ المعلوماتِ، فيكونُ عِلمُهُ وكلامُهُ مِن بابِ الخَرْصِ[1] والظُّنونِ.

الفائدةُ الثالثةُ. قُوَّةُ القلبِ وثباتُهُ وشجاعَتُه، فيُعطيهِ اللهُ تعالى بقوَّتِهِ سُلطانَ النُّصْرَةِ، كما أعطاهُ بنورِهِ سُلطانَ الحُجَّةِ، فيجمعُ لهُ بينَ السُّلْطانَيْنِ، ويهربُ الشَّيطانُ منهُ؛ كما في الأثَرِ: «إنَّ الذي يُخالِفُ هَواهُ يَفْرَقُ[2] الشَّيطانُ مِن ظِلِّهِ».

ولهٰذا يوجَدُ في المُتَّبِعِ هواهُ مِن ذُلِّ النَّفسِ وضَعْفِها ومَهانَتِها ما جَعَلَهُ اللهُ لمَنْ عَصاهُ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ جَعَلَ العزَّ لمَن أطاعَهُ والذُّلَّ لِمَنْ عَصاهُ.

قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقالَ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]؛ أي: مَن كانَ يطلُبُ المعصيةِ لَفي قُلوبِهم، أبى اللهُ ﷻ إلَّا أنْ يُذِلَّ مَن عَصاهُ.

وقالَ بعضُ السَّلَفِ: «النَّاسُ يطلُبونَ العزَّ بأبوابِ الملوكِ، ولا يَجِدونَهُ إلَّا في طاعةِ اللهِ».

وقالَ الحسنُ: «وإنْ هَمْلَجَتْ بهِمُ البَراذينُ، وطَقْطَقَتْ بهِمُ البِغالُ، إنَّ ذُلَّ المعصيةِ لَفي قُلوبِهم، أبى اللهُ ﷻ إلَّا أنْ يُذِلَّ مَن عَصاهُ».

وذٰلك أنَّ مَن أطاعَ اللهَ تعالى فقد والاهُ، ولا يُذَلُّ مَن والاهُ ربُّهُ؛ كما

---

(١) انظر «تنوير الأفهام» (١/ ٨٧ ـ ٩٢) لأستاذنا الشيخ محمد شقرة.

(٢) يخافُ ويهربُ، ولا يثبتُ هذا في المرفوع!

في دُعاءِ القُنوتِ: «إنَّهُ لا يَذِلُّ مَن والَيْتَ، ولا يَعِزُّ مَن عادَيْتَ»(١).

والمقصودُ أنَّ زكاةَ القلبِ موقوفةٌ على طهارتِه؛ كما أنَّ زكاةَ البدنِ موقوفةٌ على استفراغِهِ مِن أخلاطِهِ الرَّديئةِ الفاسدةِ. قالَ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]، ذكرَ ذٰلك سُبحانَه عَقيبَ تَحريمِ الزِّنا والقذفِ ونكاحِ الزَّانيةِ، فدلَّ على أنَّ التَّزكِّي هو باجتنابِ ذٰلك.

وكذٰلك قولُهُ تعالى في الاستئذانِ على أهْلِ البُيوتِ: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]؛ فإنَّهُم إذا أُمِروا بالرُّجوعِ لئلَّا يَطَّلِعوا على عَوْرةٍ لم يُحِبَّ صاحِبُ المنزلِ أنْ يَطَّلِعَ عليها كانَ ذٰلك أزكى لهُم، كما أنَّ ردَّ البَصَرِ وغَضَّهُ أزْكى لصاحِبِهِ.

وقالَ تعالى عن موسى ﷺ في خِطابِهِ لفِرْعَوْنَ: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨].

وقالَ تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ و٧].

قالَ أكثرُ المفسِّرينَ مِن السَّلَفِ ومَن بعدَهُم(٢): هِي التَّوحيدُ: شهادةُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ، والإيمانُ الذي بهِ يَزْكو القلبُ؛ فإنَّهُ يتضمَّنُ نَفْيَ إلٰهيَّةِ ما سوى الحقِّ مِن القلبِ، وذٰلك طهارتُهُ، وإثباتُ إلٰهيَّتِهِ سُبحانَه، وهو أصلُ كُلِّ زكاةٍ ونَماءٍ.

فإنَّ التَّزكِّي - وإنْ كانَ أصلُهُ النَّماءَ والزِّيادةَ والبركةَ - فإنَّهُ إنَّما يحْصُلُ

---

(١) قِطعةٌ من حديث دُعاء القُنوت، أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والنَّسائي (٣/٢٤٨)، والتِّرمذي (٤٦٤)، وابن ماجه (١١٧٨)، والدارمي (١/٣١١ - ٣١٢)، وأحمد (١/١٩٩ - ٢٠٠)، وابن خزيمة (٢/١٥١ - ١٥٢)، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما. والحديث صحيح. وقد تُكلِّم في إسناد الحديث كثيراً، وكلُّه مدفوعٌ، فانظر: «نصب الراية» (٢/١٢٥)، و«التلخيص الحبير» (١/٢٤٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٥/٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٤/١٣٩).

بإزالةِ الشَّرِّ، فلهٰذا صارَ التَّزكِّي ينتظِمُ الأمرينِ جميعاً، فأصلُ ما تَزْكو بهِ القلوبُ والأرواحُ: هو التَّوحيدُ، والتَّزكيةُ جعلُ الشَّيءِ زكيّاً، إمَّا في ذاتِه، وإمَّا في الاعتقادِ والخبَرِ عنهُ؛ كما يُقالُ: عدَّلتُه وفسَّقتُهُ، إذا جعَلْتَهُ كذٰلك في الخارجِ أو في الاعتقادِ والخبرِ.

وعلى هٰذا؛ فقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] هو على غيرِ معنى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؛ أيْ: لا تُخبِروا بزكاتِها وتقولوا: نحنُ زاكُونَ صالِحونَ مُتَّقونَ، ولهٰذا قالَ عَقِيْبَ ذٰلك: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وكانَ اسمُ زينَبَ بَرَّةَ، فقالَ: «تُزَكِّي نفسَها»، فسمَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّم زينَبَ، وقالَ: «اللهُ أَعْلَمُ بأهْلِ البِرِّ منكُم»[1].

وكذٰلك قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [النساء: ٤٩]؛ أيْ: يعتقدونَ زكاءَها، ويُخبرونَ بهِ؛ كما يُزكِّي المُزَكِّي الشاهد، فيقولُ عن نفسِهِ ما يقولُ المُزَكِّي فيهِ، ثمَّ قالَ اللهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩]؛ أيْ: هو الذي يَجْعَلُهُ زاكِياً، ويُخبِرُ بزكاتِهِ، وهٰذا بخلافِ قولِه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٩]؛ فإنَّهُ مِن بابِ قولِه: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨]؛ أي: تعمَلَ بطاعةِ اللهِ تعالى، فتصيرَ زاكياً.

ومثلُهُ قولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾: معناهُ الصَّحيحُ الذي عليهِ جمهورُ المُفسِّرينَ[2] ما قالَهُ قتادةُ: «مَنْ عَمِلَ خيراً زَكَّاها بطاعةِ اللهِ عَجَّلَ»

---

(١) أخرج مسلمٌ (٢١٤٢) (١٩) عن زينب بنت أبي سلمة منه قوله: «الله أعلم بأهل البرِّ منكم»، وتغيير الاسم.
وأخرج البخاريُّ (١٣/١٩٦)، ومسلم (٢١٤١)؛ عن أبي هريرة قوله ﷺ: «تُزَكِّي نفسَها».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/٨١٦).

وقالَ أيضاً: «قد أفْلَحَ مَن زكَّى نفسَهُ بعملٍ صالحٍ».

وقال الحسنُ: «قد أفلَحَ مَنْ زكَّى نفسَهُ فأصلَحَها وحَمَلَها على طاعةِ اللهِ تعالى، وقد خابَ مَن أهلَكَها وحَمَلها على معصيةِ اللهِ تعالى».

قال ابنُ قُتَيْبَةَ[1]: «يُريدُ: أفلحَ مَن زكَّى نفسَه؛ أي: نَمَّاها وأعلاها بالطاعةِ والبِرِّ والصَّدَقةِ، واصطناعِ المعروفِ، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنٰهَا﴾ [الشمس: ١٠]؛ أيْ نَقَصها وأخفاها بتَرْكِ عَمَلِ البِرِّ ورُكوبِ المعاصي».

والفاجرُ أبداً خَفِيُّ المكانِ، زَمِنُ[2] المُروءَةِ، غامِضُ الشَّخْصِ[3]، ناكِسُ الرَّأْسِ، فمرتكبُ الفواحشِ قد دسَّ نفسَهُ وقَمَعَها. ومصطنعُ المعروفِ قد شَهَرَ نفسَهُ ورفَعَها.

وقالَ بعضُ أهلِ التَّفسيرِ: خابَ مَن دَسَّ نفسَهُ معَ الصَّالحينَ وليسَ منهُم.

حكاهُ الواحِدِيُّ؛ قالَ: «ومعنى هٰذا أنَّهُ أخفى نفسَهُ في الصَّالحينَ، يُري النَّاسَ أنَّهُ منهُم، وهو مُنْطَوٍ على غيرِ ما ينطوي عليهِ الصَّالحونَ».

وهٰذا ـ وإنْ كانَ حقّاً في نفسِهِ ـ لكنْ في كونِهِ هو المرادَ بالآيةِ نظرٌ، وإنَّما يدخُلُ في الآيةِ بطريقِ العُمومِ؛ فإنَّ الذي يدسُّ نفسَهُ بالفجورِ إذا خالَطَ أهلَ الخيرِ دَسَّ نفسَهُ فيهم.

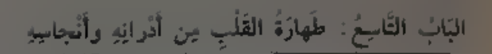
واللهُ تعالى أعلمُ.

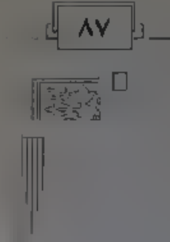
---

(١) في «تأويل مشكل القرآن» (ص٣٤٤ ـ ٣٤٥).

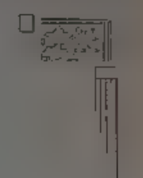
(٢) مريض.

(٣) والمسلمُ الصادقُ البصيرُ المتَّبِعُ هو الذي يكون واضحَ الشخصيّة، جليَّ المُعاملة، ظاهرَ التصرُّف، فلا خفاء، ولا غموض. وبخاصَّةٍ مع إخوانه وأحبابه! لا أنْ يكون ذا وجهين، وصاحبَ لسانَيْن!!









الباب التَّاسع

طَهارَةُ القَلْبِ مِن أَدْرانِهِ وأَنْجاسِهِ

هٰذا البابُ، وإنْ كانَ داخلاً فيما قَبلَهُ؛ كما بَيَّنَّا أَنَّ الزَّكاةَ لا تحصُلُ إلَّا بالطَّهارَةِ، ولٰكنَّا أَفرَدْناهُ بالذِّكْرِ لبيانِ معنى طهارَتِه، وشدَّةِ الحاجةِ إليها، ودلالةِ القرآنِ والسنَّةِ عليها:

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④﴾ [المدثر: ١ ـ ٤].

وقالَ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]، وجمهورُ المفسِّرينَ مِن السَّلَفِ ومَن بعدَهُم[1] على أنَّ المرادَ بالثيابِ هٰهُنا القلبُ، والمرادَ بالطَّهارةِ إصلاحُ الأعمالِ والأخلاقِ.

قالَ الواحِدِيُّ: اختلَفَ المفسِّرونَ في معناهُ:

فروى عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ ﷺ؛ قالَ: «يعني من الإثمِ، وممَّا كانتِ الجاهليَّةُ تجيزُهُ».

وهٰذا قولُ قتادَةَ ومجاهدٍ؛ قالا: «نفسَكَ فطَهِّرْها مِن الذنبِ».

ونحوُهُ قولُ الشَّعبيِّ وإبراهيمَ والضَّحَّاكِ والزُّهريِّ[2].

وعلى هٰذا القولِ: «الثياب» عبارةٌ عن النَّفسِ، والعربُ تَكْني بالثياب عن النَّفسِ.

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٩ ـ ٦٦).
(٢) «الدر المنثور» (٨/ ٣٢٥).

وقالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ: «كانَ الرَّجلُ إذا كانَ غادِراً؛ قيلَ: دَنِسُ الثِّيابِ، وخَبيثُ الثِّيابِ».

وقال السُّدِّيُّ: «يُقالُ للرَّجُلِ إذا كانَ صالحاً: إنَّهُ لَطاهِرُ الثِّيابِ، وإذا كانَ فاجراً: إنَّهُ لَخبيثُ الثِّيابِ».

وكما وَصَفُوا الغادِرَ الفاجِرَ بدَنَسِ الثَّوبِ، وَصَفُوا الصَّالحَ بطهارَةِ الثوبِ؛ قالَ امرُؤ القَيْسِ:

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارٌ نَقِيَّةٌ

يُريدُ أَنَّهُم لا يَغْدُرونَ، بل يَفونَ.

وقالَ الحَسَنُ: «خُلُقَكَ فحَسِّنْهُ»[١].

وهٰذا قولُ القُرطُبيِّ[٢].

وعلى هٰذا: الثِّيابُ عبارةٌ عن الخُلُقِ؛ لأنَّ خُلُقَ الإنسانِ يشتَمِلُ على أَحوالِهِ اشتمالَ ثِيابِهِ على نفسِهِ.

وذَهَبَ بعضُهُم في تفسيرِ هٰذه الآيةِ إلى ظاهِرها، وقالَ: إنَّهُ أُمِرَ بتطهيرِ ثِيابِهِ مِن النَّجاساتِ التي لا تجوزُ معها الصَّلاةُ، وهو قولُ ابنِ سِيرينَ، وابنِ زيدٍ.

وذكر أبو إسحاقَ: «وثِيابَكَ فَقَصِّرْ». قالَ: «لأنَّ تقصيرَ الثوبِ أبعدُ مِن النَّجاسةِ؛ فإنَّهُ إذا انْجَرَّ على الأرضِ لم يُؤْمَنْ أنْ يُصيبَهُ ما ينجِّسُهُ».

وهٰذا قولُ طاوس.

وقالَ ابنُ عَرَفَة: «معناهُ: نِساءَكَ طَهِّرْهُنَّ»، وقد يُكْنى عن النِّساءِ بالثِّيابِ واللِّباسِ، قالَ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٩/٦٦).

(٢) «الدر المنثور» (٨/٣٢٥).

قلتُ: الآيةُ تعمُّ هٰذا كلَّهُ، وتدلُّ عليهِ بطريقِ التَّنبيهِ واللُّزومِ، إنْ لم تتناولْ ذٰلك لفظاً؛ فإنَّ المأمورَ بهِ إنْ كانَ طهارَةَ القلبِ، فطهارةُ الثوبِ وطيبُ مكسبِهِ تكميلٌ لذٰلك، فإنَّ خُبْثَ المَلْبَسِ يُكْسِبُ القلبَ هَيْئَةً خبيثةً[1]؛ كما أنَّ خُبْثَ المطعمِ يُكْسِبُهُ ذٰلك، ولذٰلك حُرِّمَ لبسُ جُلودِ النُّمورِ والسِّباعِ بنَهْيِ النبيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عن ذٰلك في عدَّةِ أحاديثَ صحاحٍ[2] لا معارضَ لها، لما تُكْسِبُ القلبَ مِن الهيئةِ المُشابهةِ لتلكَ الحيواناتِ؛ فإنَّ الملابسةَ الظَّاهرةَ تَسْري إلى الباطِنِ، ولذٰلك حُرِّمَ لبسُ الحريرِ والذَّهبِ على الذُّكورِ[3] لما يكتسبُ القلبُ مِن الهيئةِ التي تكونُ لِمَنْ ذلك لِبْسُهُ مِن النِّساءِ وأهلِ الفخرِ والخُيَلاءِ.

والمقصودُ أنَّ طهارَةَ الثَّوبِ وكونَه مِن مكسبٍ طيِّبٍ هو مِن تمامِ طهارةِ القلبِ وكمالِها، فإنْ كانَ المأمورُ به ذلك، فهو وسيلةٌ مقصودةٌ لغيرِها، فالمقصودُ لنفسِهِ أولى أنْ يكونَ مأموراً بهِ، وإنْ كانَ المأمورُ بهِ طهارَةَ القلبِ وتزكِيَةَ النفسِ، فلا يتمُّ إلَّا بذٰلك، فتبيَّنَ دِلالةُ القرآنِ على هٰذا وهٰذا.

وقولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ عقيبَ قولِهِ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: ٤١] ممَّا يدلُّ على أنْ العبدَ إذا اعتادَ سماعَ الباطلِ وقبولَهُ

(١) وفي كتابي «تَبْصير الناس بأحكام اللباس» تفصيلٌ جيِّدٌ في هذا الباب.

(٢) منها ما رواه أبو داود (٤٠٣٢)، والترمذي (١٧٧١)، والنسائي (٧/١٧٦)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/٢٦٤)، والحاكم (١/١٤٨)، وأحمد (٥/٧٤ و٧٥)؛ من طريق أبي المليح بن أسامة عن أبيه؛ قال: «نهى رسول الله ﷺ عن جلود السِّباع أن تُفْتَرَشَ». وسنده صحيح. وقد أُعِلَّ هذا الحديث بالإرسال؛ كما تراه والجوابَ عنه في «الإتمام» (٢٠٧٢٥) يسَّره الله على خير.

(٣) كما في قوله ﷺ: «الحرير والذهب حرامٌ على ذكور أمَّتي...».

رواه الترمذي (١٧٢٠) وغيره، وهو حديث صحيح طرقه، فانظر: «الإتمام» (١٩٥٣٣).

أكسبَهُ ذلك تحريفاً للحَقِّ عن مواضعِهِ، فإنَّهُ إذا قَبِلَ الباطلَ أحبَّهُ ورَضِيَهُ، فإذا جَاءَ الحقُّ بخِلافهِ رَدَّهُ وكذَّبَهُ إنْ قَدِرَ على ذٰلك، وإلَّا حَرَّفَهُ؛ كما تصنَعُ الجهميَّةُ بآياتِ الصِّفاتِ وأحاديثِها، يَرُدُّونَ هٰذه بالتأويلِ الذي هو تكذيبٌ بحقائقِها، وهٰذه بكونِها أخبارَ آحادٍ[1] لا يجوزُ الاعتمادُ عليها في بابِ معرفةِ اللهِ تعالى وأسمائِهِ وصفاتِه.

فهٰؤلاءِ وإخوانُهم مِن الذينَ لَم يُرِدِ اللهُ أنْ يُطَهِّرَ قلوبَهُم؛ فإنَّها لو طَهُرَتْ لَما أَعْرَضَتْ عن الحقِّ، وتعوَّضَتْ بالباطلِ عن كلامِ اللهِ تعالى ورسولِهِ؛ كما أنَّ المنحرفينَ مِن أهلِ الإرادةِ لمَّا لم تَطْهُرْ قلوبُهُم تَعَوَّضوا بالسماع الشَّيطانيِّ عن السَّماعِ القرآنيِّ الإيمانيِّ[2].

قالَ عُثمانُ بنُ عفَّانَ رضي الله عنه: «لو طَهُرَتْ قُلوبُنا لمَّا شَبِعَتْ مِن كَلامِ اللهِ».

فالقلبُ الطَّاهرُ ـ لكمالِ حياتِه ونُورِه وتخلُّصِه مِن الأدرانِ والخبائِثِ ـ لا يشبعُ مِن القُرآنِ، ولا يتغذَّى إلا بحقائِقِه، ولا يَتَداوى إلَّا بأدويتِهِ، بخلافِ القلبِ الَّذي لم يُطَهِّرْهُ اللهُ تعالى؛ فإنَّهُ يتغَذَّى مِن الأغذيةِ التي تُناسبُه، بحسبِ ما فيهِ مِن النَّجاسةِ؛ فإنَّ القلبَ النجسَ كالبَدَنِ العليلِ المريضِ، لا تُلائِمُهُ الأغذيةُ التي تُلائِمُ الصَّحيحَ.

ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ طهارَةَ القلبِ موقوفةٌ على إرادةِ اللهِ تعالى، وأنَّهُ سُبحانَه لمَّا لم يُرِدْ أنْ يُطَهِّرَ قلوبَ القائلينَ بالباطلِ، المُحَرِّفينَ للحقِّ، لم يُحَصِّلْ لها الطَّهارَةَ.

ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ مَن لم يُطَهِّرِ اللهُ قَلبَهُ فلا بدَّ أنْ ينالَهُ الخِزْيُ في الدُّنيا والعذابُ في الآخرةِ، بحسبِ نجاسةِ قلبِه وخُبثِه، ولهٰذا حرَّمَ اللهُ سبحانَه

---

(١) وهي فلسفةٌ أخذَها عنهم بعض حزبيِّي هذا العصر، وطاروا بها؛ يُنافِحون عنها، ويردُّون بها السُّنن والعقائد. ولكشفِ ضلالاتهم يُنْظَر «الصواعق المرسلة» (٢/ ٣٣٢ ـ ٤٤٦) للمصنِّف.

(٢) وسيُطوِّلُ المصنِّف (٢٤٢ ـ ٢٧٢) من هذا الكتاب في بيان باطلهم، ونقض فِعالهم.

الجنَّةَ على مَنْ في قلبِهِ نجاسةٌ وخُبْثٌ، ولا يدخُلُها إلَّا بعدَ طِيبِهِ وطُهْرِهِ؛ فإنَّها دارُ الطَّيِّبينَ، ولهٰذا يُقالُ لهُم: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]؛ أي: ادْخُلوها بسببِ طيبِكُم، والبشارةُ عندَ الموتِ لهٰؤلاءِ دونَ غيرِهِم؛ كما قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢] فالجنَّةُ لا يدخُلُها خبيثٌ، ولا مَن فيهِ شيءٌ مِن الخُبْثِ.

فمَن تَطَهَّرَ في الدُّنيا ولَقِيَ اللهَ طاهراً مِن نجاساتِه دَخَلها بغيرِ مَعُوقٍ، ومَن لم يتطهَّرْ في الدُّنيا فإنْ كانتْ نجاستُه عينيةً؛ كالكافِرِ[1]، لم يدخُلْها بحالٍ، وإنْ كانتْ نجاستُهُ كَسْبيَّةً عارِضةً[2]؛ دَخَلَها بعدَما يتطهَّرُ في النَّارِ مِن تلكَ النَّجاسةِ، ثم لا يَخْرُجُ منها، حتى إنَّ أهلَ الإيمانِ إذا جازوا الصِّراطَ حُبِسوا على قنطرةٍ بينَ الجنةِ والنَّارِ، فيُهَذَّبونَ ويُنَقَّوْنَ مِن بقايا بقيَتْ عليهِم، قصَّرتْ بهِم عن الجنَّةِ، ولم تُوجِبْ لهُم دُخولَ النَّارِ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا؛ أُذِنَ لهُم في دُخولِ الجنَّةِ[3].

واللهُ سبحانَهُ بحِكْمَتِهِ جَعَلَ الدُّخولَ عليهِ موقوفاً على الطَّهارةِ، فلا يدخُلُ المصلِّي عليهِ حتى يتطهَّرُ، وكذٰلكَ جَعَلَ الدُّخولَ إلى جَنَّتِهِ موقوفاً على الطِّيبِ والطَّهارةِ، فلا يدخُلُها إلَّا طَيِّبٌ طاهرٌ.

فهما طهارتانِ: طهارةُ البدنِ، وطهارةُ القلبِ، ولهٰذا شُرِعَ للمتوضِّئِ أنْ يقولَ عقيبَ وُضوئِهِ: «أشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه

---

(١) أي: لازِمةً له لكُفْرِه، وليس المُراد أنها نجاسةٌ حقيقة، بل هي حُكمية.

(٢) أي: عَرَضَت له بسببِ ذُنوبه ومَعاصيه.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٢٤٤٠) عن أبي سعيدٍ الخُدري أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا خَلَصَ المؤمنون من النار؛ حُبِسوا بقنطرةٍ بين الجنَّة والنار، فيتقاصُّون مظالمَ كانت بينَهم، حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا؛ أُذِنَ لهم بدُخولِ الجنَّةِ، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده؛ لأحدُهم بمسكنهِ في الجنَّةِ أدلُّ بمنزله كان في الدُّنيا».

ورسولُه، اللهُمَّ اجْعَلْني مِن التَّوَّابينَ واجْعَلْني مِن المُتَطهِّرينَ»[١].

فطهارةُ القلبِ بالتَّوبةِ، وطهارةُ البدنِ بالماءِ، فلمَّا اجتمَعَ لهُ الطُّهرانِ؛ صَلُحَ لدُّخولِ على اللهِ تعالى، والوقوفِ بينَ يديهِ ومُناجاتِه.

وسألتُ شيخَ الإسلامِ[٢] عن معنى دُعاءِ النبيِّ ﷺ: «اللهُمَّ طَهِّرْني مِن خَطايايَ بالماءِ والثَّلجِ والبَرَدِ»[٣] كيف يُطَهِّرُ الخطايا بذلك؟ وما فائدةُ التَّخصيصِ بذلك؟ وقولِهِ في لفظٍ آخرَ: «الماءِ البارِدِ»، والحارُّ أبلغُ في الإنقاءِ؟

فقالَ: «الخَطايا تُوجِبُ للقلبِ حرارةً ونجاسةً وضعفاً، فيرتخي القلبُ وتضطرمُ فيهِ نارُ الشَّهوةِ وتُنَجِّسُهُ؛ فإنَّ الخَطايا والذُّنوبَ له بمنزلةِ الحَطَبِ الذي يُمِدُّ النَّارَ ويوقِدُها. ولهذا كلَّما كَثُرَت الخطايا اشتدَّتْ نارُ القلبِ وضعفُهُ، والماءُ يغسلُ الخُبْثَ ويُطفئُ النَّارَ، فإنْ كانَ بارداً أَوْرَثَ الجسمَ صلابةً وقوَّةً، فإنْ كانَ معهُ ثلجٌ وبردٌ كانَ أقوى في التَّبريدِ وصلابةِ الجسمِ وشدَّتِه، فكانَ أذْهَبَ لأثرِ الخطايا».

هذا معنى كلامِهِ، وهو محتاجٌ إلى مَزيدِ بيانٍ وشرحٍ:

فاعْلَمْ أنَّ ها هُنا أربعةَ أُمورٍ: أمرانِ حسيَّانِ، وأمرانِ معنويَّانِ.

فالنَّجاسةُ التي تزولُ بالماءِ هِي ومُزيلُها حِسِّيَّانِ.

وأثرُ الخطايا التي تزولُ بالتَّوبةِ والاستغفارِ هي ومزيلُها معنويَّانِ.

وصلاحُ القلبِ وحياتُهُ ونعيمُهُ لا يَتِمُّ إلَّا بهذا وهذا، فذكَرَ النبيُّ

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤) عن عُقبة بن عامر.

(٢) هو الإمام العلامة ابن تيميَّة، الذي أصبح لقب (شيخ الإسلام) عَلَماً عليه ودليلاً إليه؛ رغم أنوف الشانئين!

وانظر: «التذكرة والاعتبار» (ص٤ ـ ١٣) لابن شيخ الحزّامين، وتعليقي عليها.

(٣) رواه مسلم (٢٠٤) عن ابن أبي أوفى.

وانظر: «مسند عبد الله بن أبي أوفى» (رقم ١٩) وتعليق أخينا الشيخ سَعْد الحُمَيِّد عليه.

صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ مِن كُلِّ شَطْرٍ قسماً نَبَّهَ بِهِ على القسمِ الآخرِ، فتضمَّنَ كلامُهُ الأقسامَ الأربعةَ في غايةِ الاختصارِ، وحُسْنِ البيانِ، كما في حديثِ الدُّعاءِ بعدَ الوضوءِ: «**اللهُمَّ اجْعَلْني مِن التَّوَّابينَ واجْعَلْني مِن المُتَطَهِّرينَ**»؛ فإنَّهُ يتضمَّنُ ذكرَ الأقسامِ الأربعةِ.

ومِن كمالِ بيانِهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، وتحقيقِهِ لما يُخْبِرُ بِهِ، ويأْمُرُ بِهِ: تمثيلُهُ الأمرَ المطلوبَ المعنويَّ بالأمرِ المحسوسِ، وهٰذا كثيرٌ في كلامِهِ، كقولِهِ في حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ: «سَلِ اللهَ الهُدى والسَّدادَ، واذْكُرْ بالهُدَى هدايَتَكَ الطَّريقَ، وبالسَّدادِ سَدادَ السَّهْمِ»[1]، إذ هٰذا مِن أبْلَغِ التَّعليمِ والنُّصحِ، حيثُ أمَرَهُ أنْ يَذْكُرَ إذا سألَ اللهَ الهُدى إلى طَريقِ رِضاهُ وجَنَّتِهِ، كونَهُ مُسافراً، وقد ضلَّ عن الطَّريقِ، ولا يَدْري أينَ يتوجَّهُ، فطَلَعَ لهُ رجلٌ خبيرٌ بالطَّريقِ، عالمٌ بها، فسألَهُ أنْ يَدُلَّهُ على الطَّريقِ. فهكذا شأنُ طريقِ الآخرةِ، تمثيلاً لها بالطَّريقِ المحسوسِ للمسافرِ، وحاجةُ المسافرِ إلى اللهِ سبحانَهُ، إلى أنْ يهديَهُ تلكَ الطَّريقَ، أعظمُ مِن حاجةِ المسافرِ إلى بلدٍ إلى مَن يَدُلُّهُ على الطَّريقِ الموصِلِ إليها.

وكذٰلك السَّدادُ ـ وهو إصابَةُ القَصدِ قولاً وعملاً ـ فمثلُهُ مَثَلُ رامي السَّهمِ إذا وقَعَ سهْمُهُ في نفسِ الشيءِ الذي رَماهُ؛ فقد سدَّدَ سهْمَهُ وأصابَ، وإذا لم يَقَعْ باطلاً؛ فهٰكذا المصيبُ للحقِّ في قولِهِ وعملِهِ بمنزلةِ المصيبِ في رميِهِ.

وكثيراً ما يُقْرَنُ في القرآنِ هذا وهٰذا، فمنهُ قولُه تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أمر الحاجَّ بأنْ يتزوَّدوا لِسَفَرِهم، ولا يُسافِروا بغيرِ زادٍ، ثمَّ نبَّهَهُم على زادِ سفرِ الآخرةِ، وهو التَّقوى، فكما أنَّهُ لا يَصلُ المسافرُ إلى مقصدِهِ إلَّا بزادٍ يُبلِّغُهُ إيَّاهُ؛ فكذٰلكَ المسافرُ إلى اللهِ تعالى والدَّارِ الآخرةِ لا يَصِلُ إلَّا بزادٍ مِن التَّقوى، فجَمَعَ بينَ الزَّادينِ.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٧٢)، والحميدي (رقم ٥٢)، واختصره النسائي (٨/ ١٥٧). ورواه مسلمٌ (٢٧٢٥) بنحوه.

ومنهُ قولُه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فجَمَعَ بينَ الزِّينتينِ: زينةِ البَدَنِ باللباسِ، وزينةِ القلبِ بالتَّقوى، زينةِ الظَّاهِرِ والباطنِ، وكمالِ الظَّاهِرِ والباطنِ.

ومنهُ قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، فنفى عنهُ الضَّلالَ الذي هو عذابُ القَلْبِ والرُّوحِ، والشقاءَ الذي هُو عذابُ البدنِ والرُّوحِ أيضاً، فهو مُنَعَّمُ القلبِ والبدنِ بالهُدى والفلاحِ.

ومنهُ قولُ امرأةِ العزيزِ عن يوسُفَ ﷺ لمَّا أَرَتْهُ النِّسوةَ اللائماتِ لها في حُبِّهِ: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، فأَرَتْهُنَّ جمالَهُ الظَّاهِرَ، ثم قالَتْ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، فأَخْبَرَتْ عن جمالِهِ الباطنِ بعفَّتِه، فأخبَرَتْهُنَّ بجمالِ باطنهِ، وأَرَتْهُنَّ جمالَ ظاهِرِهِ.

فنبَّهَ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّم بقولِهِ: «**اللهُمَّ طَهِّرْني مِن خَطايايَ بالماءِ والثَّلْجِ والبَرَدِ**» على شدَّةِ حاجةِ البدنِ والقلبِ إلى ما يطهِّرُهُما ويُبَرِّدُهُما ويُقَوِّيهِما، وتضمَّنَ دُعاؤهُ سؤالَ هٰذا وهٰذا.

واللهُ تعالى أعلمُ.

وقريبٌ مِن هٰذا أنَّهُ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ كان إذا خرَجَ مِن الخَلاءِ؛ قالَ: «**غُفرانَكَ**»[1]، وفي هٰذا مِن السِّرِّ ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّ النَّجْوَ[2] يُثْقِلُ البَدَنَ ويُؤذِيهِ باحتِباسِهِ، والذُّنوبُ تُثْقِلُ القلبَ وتُؤذيهِ باحتباسِها فيهِ، فهُما مؤذِيانِ مضرَّانِ بالبدنِ والقلبِ، فحَمَدَ اللهَ عندَ خُروجِهِ على خَلاصِهِ مِن هٰذا

---

(١) رواه الترمذي (رقم ٧)، وأبو داود (رقم ٣٠)، وابن ماجه (٣٠٠)، والدارمي (١/ ١٧٤)، وأحمد (٦/ ١٥٥)، وابن خُزيمة (١/ ٤٨)؛ من طريق يوسُف بن أبي بُردة عن أبيه عن عائشة. ويوسُف بن أبي بُردة: روى عنه اثنان، ووثَّقه العجلي وابن حِبَّان، وقال الذهبي: «ثقةٌ»! وقال ابن حَجَر: «مقبولٌ». وقد صحّح الحديث جماعةٌ من أهل العلم! والله أعلم.

(٢) وأحاديث الحمد بعد التخلّي ضعيفة؛ كما بيّنه شيخُنا في «الإرواء» (٥٣) وفي «تمام المنة» (ص٦٦).

المؤذي لبدنِهِ، وخِفَّةِ البدنِ وراحتِه، وسأَلَ أَنْ يُخَلِّصهُ مِن المؤذي الآخرِ، ويُريحَ قلبَهُ منه، ويُخَفِّفَهُ[١].

وأَسرارُ كَلماتِهِ وأَدعِيَتِهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسَلَّمَ فوقَ ما يخطرُ بالبالِ[٢].

نَجاسَةُ الشِّرْكِ:

وقد وَسَمَ اللهُ سُبحانَه الشِّركَ والزِّنا واللِّواطَةَ بالنَّجاسةِ والخُبْثِ في كتابِهِ دونَ سائرِ الذُّنوبِ، وإِنْ كانت مُشتملةً على ذلك، لكنَّ الذي وَقَعَ في القرآنِ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقولُهُ تعالى في حَقِّ اللُّوطيَّةِ: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقالتِ اللُّوطيَّةُ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، فأَقرُّوا مع شِركِهِم وكُفرِهم أَنَّهُم هُم الأخابثُ الأنجاسُ، وأَنَّ لوطاً وآلَه مُطَهَّرونَ مِن ذلك باجتنابِهِم لهُ.

وقالَ تعالى في حقِّ الزُّناة: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

فأَمَّا نجاسةُ الشِّرك؛ فهي نوعانِ: نجاسةٌ مُغَلَّظةٌ، ونجاسةٌ مخفَّفةٌ:

فالمُغَلَّظَةُ: الشِّركُ الأكبرُ الذي لا يغفِرُهُ اللهُ ﷻ؛ فإِنَّ اللهَ لا يغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ.

والمخفَّفةُ: الشِّرْكُ الأصغرُ؛ كيسيرِ الرِّياءِ، والتصنُّعِ للمَخلوقِ،

---

(١) هو العائظ.

(٢) وبه تعرفُ خطأً كثير من مُتفقِّهةِ العصر الذين (يحشرون) وراء كل مسألةٍ فقهيَّةٍ (حِكْمَة مشروعيتها)! منتحلين في سبيل ذلك شتَّى الطرق والأساليب، بتمحُّل واضحٍ، وتكلُّف بيِّن! وكثيرٌ من ذلك خافٍ عنا، غيرُ معروفٍ لنا.

والحَلِفِ به[١]، وخوفِهِ، ورجائِهِ.

ونجاسةُ الشِّرْكِ عينيَّةٌ، ولهٰذا جَعَلَ سبحانَه الشِّركَ نَجَساً ـ بفتح الجيم ـ ولم يَقُلْ: إنَّما المُشرِكونَ نَجِسٌ ـ بالكسر ـ فإنَّ النَّجَسَ عينُ النَّجاسَةِ، والنَّجِسُ ـ بالكسر ـ هُو المُتَنَجِّسُ.

فالثَّوبُ إذا أصابَهُ بولٌ نَجِسٌ، والبولُ نَجَسٌ، فأنْجَسُ النَّجاسةِ الشِّركُ، كما أنَّهُ أظلمُ الظُّلم؛ فإنَّ النَّجَسَ في اللغةِ والشرعِ هو المُسْتَقْذَرُ الَّذي يُطلبُ مُباعَدَتُه والبعدُ منهُ، بحيثُ لا يُلْمَسُ ولا يُشَمُّ ولا يُرى؛ فضلاً أنْ يُخالَطَ ويُلابَسَ لقذارَتِهِ، ونُفْرَةِ الطِّباعِ السَّليمةِ عنهُ، وكُلَّما كانَ الحيُّ أكملَ حياةً وأصحَّ حيةً كانَ إبعادُهُ لذٰلك أعْظَمَ، ونُفْرَتُهُ منهُ أقوى.

فالأعيانُ النَّجِسَةُ إمَّا أنْ تُؤذِي البدنَ أو القلبَ، أو تُؤذيهما معاً. والنَّجَسُ قد يُؤذي برائحتِهِ، وقد يُؤذِي بملابَسَتِه، وإنْ لم تَكُنْ لهُ رائحةٌ كريهةٌ.

والمقصودُ أنَّ النَّجاسَةَ تارةً تكونُ محسوسةً ظاهرةً، وتارةً تكونُ معنويَّةً باطنةً، فيغْلِبُ على الرُّوحِ والقلبِ الخبثُ والنجاسةُ، حتى إنَّ صاحبَ القلبِ الحيِّ لَيَشُمُّ مِن تِلكَ الرُّوحِ والقلبِ رائحةً خَبيثةً يتأذَّى بها كما يتأذَّى مَن شَمَّ رائِحَةَ النَّتْنِ، ويظهرُ ذٰلك كثيراً في عَرَقِهِ، حتى لَيوجَدُ برائحةِ عَرَقِهِ نَتْناً؛ فإنَّ نَتْنَ الرُّوحِ والقلبِ يتَّصِلُ بباطنِ البدنِ أكثرَ مِن ظاهِرِهِ، والعَرَقُ يَفيضُ مِن الباطنِ.

ولهٰذا كانَ الرجلُ الصَّالحُ طَيِّبَ العَرَقِ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّم أطيبَ النَّاسِ عَرَقاً.

قالتْ أمُّ سُلَيْمٍ، وقد سألَها رسولُ اللهِ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ عنه،

---

(١) قال الشيخ محمد حامد الفقي تعليقاً في هذا الموضع: «هذا إذا لم يكن على سبيل التعظيم والخوف منه؛ كما يحلفُ أكثر العامّة بالأولياء و لأنبياء إذا أرادوا عَدَمَ الحِنْثِ، ويحلفون بالله كذباً من غير خوفٍ منه ولا رهبةٍ».

وهي تلتَقِطُهُ: «هُو مِن أطْيَبِ الطِّيبِ»(١).

فالنَّفْسُ النَّجِسَةُ الخبيثةُ يقوى خُبْثُها ونجاستُها حتى يَبْدُو على الجسدِ. والنفسُ الطَّيِّبَةُ بضدِّها، فإذا تجرَّدَتْ وخَرَجَتْ مِن البدنِ وجدَ لهذه كأطيَبِ نَفْحَةِ مِسكٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأرضِ، ولتلكَ كأنْتَنِ ريحِ جِيفةٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأرضِ(٢).

والمقصودُ أنَّ الشِّركَ لَمَّا كانَ أظلَمَ الظُّلْم، وأقبحَ القبائحِ، وأنكَرَ المُنْكَراتِ، كانَ أبغضَ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى وأكْرَهَها لهُ، وأشدَّها مَقْتاً لديهِ، ورَتَّبَ عليهِ مِن عُقوباتِ الدُّنيا والآخرةِ ما لم يرتِّبْهُ على ذنبٍ سواهُ، وأخبرَ أنَّهُ لا يغفِرُهُ، وأنَّ أهْلَهُ نَجَسٌ، ومَنَعَهُم مِن قُربانِ حَرَمِه، وحرَّمَ ذبائِحَهُم ومُناكَحَتَهُم، وقَطَعَ الموالاةَ بينَهُم وبينَ المؤمنينَ، وجَعَلَهُم أعداءً لهُ سبحانَه ولملائكتِهِ ورُسُلِهِ وللمؤمنينَ، وأباحَ لأهلِ التَّوحيدِ أموالَهُم ونساءَهُم وأبناءَهُم، وأنْ يَتَّخِذوهُم عبيداً.

وهٰذا لأنَّ الشِّرْكَ هَضْمٌ لحقِّ الرُّبوبيَّةِ، وتنقيصٌ لعظمةِ الإلٰهيَّةِ، وسوءُ ظنٍّ بربِّ العالَمينَ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح: ٦]، فلم يجْمَعْ على أحدٍ مِن الوعيدِ والعقوبةِ ما جَمَعَ على أهلِ الشِّركِ؛ فإنَّهُم ظَنُّوا بهِ ظنَّ السَّوْءِ، حتى أشْرَكوا بهِ، ولو أحْسَنُوا الظَّنَّ بهِ لوحَّدوهُ حقَّ توحيدِهِ.

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٣٣١) عن أنسٍ. وانظر: «الأنوار في شمائل النبي المختار» (١/١٥٧ ـ ١٦٠) للإمام البغوي.

(٢) كما أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، وابن ماجه (١٥٤٨)، والنسائي (٤/٧٨)، والطيالسي (٧٥٣)، وأحمد (٤/٢٨٧ و٢٨٨)، والحاكم (١/٣٧ ـ ٤٠)؛ عن البراء بن عازب، مطوَّلاً ومختصراً. وسنده صحيحٌ. وفي «أحكام الجنائز» (١٥٦ ـ ١٥٩) سياقٌ مطوَّلٌ له، مع ذكر زياداته وتفصيلها مما لا تراه في موضعٍ، فانظره غيرَ مأمورٍ.

ولهٰذا أخبَرَ سبحانَهُ عنِ المُشرِكينَ أَنَّهُم ما قَدَروهُ حَقَّ قَدْرِهِ في ثلاثةِ مواضِعَ مِن كتابِهِ(١)، وكيف يقدُرُهُ حقَّ قَدْرِهِ مَن جَعَلَ لهُ عَدْلاً ونِدّاً يُحِبُّهُ ويخافُهُ ويرجوهُ ويذلُّ لهُ ويخضَعُ لهُ(٢)، ويهرُبُ مِن سَخَطِهِ، ويؤثِرُ مرصاتَهُ؟

قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقالَ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]؛ أي: يجعلون له عَدْلاً في العبادةِ والمحبَّةِ والتَّعظيمِ، وهٰذه هي التَّسويةُ التي أثبتَها المُشرِكونَ بينَ اللهِ وبينَ آلهتِهِمْ، وعَرَفوا ـ وهُم في النَّارِ ـ أنَّها كانت ضَلالاً وباطِلاً، فيقولونَ لآلهتِهم وهُم في النَّارِ معَهُم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧ و٩٨].

ومعلومٌ أنَّهُم ما سَوَّوهُم بهِ في الذَّاتِ والصِّفاتِ والأفعالِ، ولا قالوا: إنَّ آلهتَهُم خَلَقَتِ السَّماواتِ والأرضَ، وإنَّها تُحيي وتُميتُ، وإنَّما سَوَّوها بهِ في محبَّتِهم لها، وتعظيمِهم لها، وعبادتِهم إيَّاها؛ كما ترى عليهِ أهلَ الإشْراكِ ممَّن يَنْتَسِبُ إلى الإسلامِ.

ومِن العَجَبِ أنَّهُم يَنْسِبونَ أهلَ التَّوحيدِ إلى التَّنَقُّصِ بالمشايخِ والأنبياءِ والصَّالحينَ(٣)، وما ذَنْبُهُم إلَّا أنْ قالوا: إنَّهُم عَبيدٌ لا يملِكُونَ لأنفسِهِم ولا لغيرِهِم ضَرّاً ولا نَفْعاً، ولا مَوتاً ولا حياةً ولا نُشوراً، وإنَّهُم لا يشفَعونَ

---

(١) الموضع الأول: سورة الأنعام: ٩١، والموضع الثاني: سورة الحج: ٧٤، والموضع الثالث: سورة الزمر: ٦٧.

(٢) انظر: «تجريد التوحيد المفيد» (ص٤٩ ـ ٥٢) للمقريزي، وتعليقي عليه.

(٣) وهكذا في كلِّ عصر ومصر، يفعلونها... ويُكَرِّرونها... ويُرَدِّدونها، من غير وازع ولا ضمير! وألقابُهم تتجدَّد بتجدُّد الأزمان، لكنّ حقيقتَها واحدةٌ لا تتغيّر!! فاليوم يُسمُّونهم (وهّابيّة)!! ويقولون: هؤلاء لا يحبُّون النبيَّ ﷺ!! كلُّ ذلك تنفيراً للناس منهم، وإبعاداً للمنصفين عنهم، تالله إن ذلك لإفك مفترى.

لعابِديهِم أبداً، بل قد حَرَّمَ اللهُ شفاعَتَهُم لهُم، ولا يشفَعُونَ لأهلِ التَّوحيدِ إلَّا بعدَ إذْنِ اللهِ لهُم في الشَّفاعَةِ، فليس لهُم مِن الأمرِ شيءٌ، بل الأمرُ كلُّهُ للهِ، والشَّفاعَةُ كُلُّها لهُ سُبحانَه، والولايةُ لهُ، فليس لخلقِهِ مِن دُونِهِ وليٌّ ولا شفيعٌ(١).

فالشِّرْكُ والتَّعطيلُ مبنيَّانِ على سوءِ الظَّنِّ باللهِ تَعالى، ولهٰذا قالَ إبراهيمُ إمامُ الحُنَفاءِ لخصمائِهِ مِن المُشركينَ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٦ و٨٧]، وإنْ كانَ المعنى: ما ظنُّكُم بهِ أنْ يعامِلَكُم ويجازيَكُم بهِ، وقد عبَدْتُم معهُ غيرَهُ وجَعَلْتُم لهُ نِدّاً؟

فأنْتَ تجِدُ تحتَ هٰذا التَّهديدِ: ما ظننتُمْ بربِّكُمْ مِنَ السُّوءِ حتَّى عَبَدْتُم معهُ غيرَهُ؟ فإنَّ المشركَ إمَّا أنْ يظنَّ أنَّ اللهَ سبحانَه يحتاجُ إلى مَن يُدَبِّرُ أمرَ العالمِ معهُ؛ مِن وَزيرٍ، أو ظهيرٍ، أو عونٍ، وهٰذا أعظمُ التَّنقيصِ لمَن هو غنيٌّ عن كلِّ ما سواهُ بذاتِهِ، وكلُّ ما سواهُ فقيرٌ إليهِ بذاتِهِ، وإمَّا أنْ يَظُنَّ أنَّ اللهَ سُبحانَه إنَّما تتِمُّ قُدْرَتُه بقُدْرَةِ الشَّريكِ، وإمَّا أنْ يَظُنَّ بأنَّهُ لا يعلمُ حتى يُعَلِّمَهُ الواسطةُ، أو لا يرحَمُ حتى يجعَلَهُ الواسطةُ يرحَمْ، أو لا يكفي عَبْدَهُ وحدَهُ، أو لا يفعَلُ ما يريدُ العبدُ حتى يشفَعَ عندَهُ الواسطةُ، كما يشفَعُ المخلوقُ عندَ المخلوقِ، فيحتاجُ أنْ يقبلَ شفاعَتَهُ لحاجتِهِ إلى الشَّافعِ وانتفاعِهِ بهِ، وتكثُّرِهِ بهِ مِن القلَّةِ، وتعزُّزِه بهِ مِن الذِّلَّةِ، أوْ لا يجيبُ دُعاءَ عِبادِهِ حتى يسألوا الواسِطةَ أنْ ترْفَعَ تلكَ الحاجاتِ إليهِ؛ كما هو حالُ ملوكِ الدُّنيا، وهٰذا أصلُ شِرْكِ الخَلْقِ.

أو يظنُّ أنَّهُ لا يسمعُ دُعاءَهُم لبُعْدِهِ عنهُم، حتى يرفَعَ الوسائطُ إليهِ ذٰلك، أو يظنُّ أنَّ للمخلوقِ عليهِ حقّاً، فهو يُقْسِمُ عليهِ بحقِّ ذٰلك المخلوقِ عليهِ(٢)،

---

(١) انظر: «هذه مفاهيمنا» (ص١٢٩ ـ ١٤٩) للأخ الفاضل الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وفقه المولى. وكذا كتاب: «القول الجلي في حُكْم التوسُّل بالنبي والولي» لشيخ الشفيري، وتعليقي عليه.

(٢) وبعضهم يروي في ذلك حديثاً، وهو: «اللهُمَّ إني أسألك بحقِّ السائلين عليك...»!

ويتوسَّلُ إليهِ بذٰلك المخلوقِ؛ كما يتوسَّلُ النَّاسُ إلى الأكابرِ والملوكِ بمَنْ يعزُّ عليهِم، ولا يُمْكِنُهُم مُخالَفَتُهُ.

وكلُّ هٰذا تَنَقُّصٌ للرُّبوبيَّةِ، وهَضْمٌ لحقِّها، ولو لم يَكُنْ فيهِ إلَّا نَقْصُ محبَّةِ اللهِ تعالى وخوفِهِ، ورجائِهِ، والتوكُّلِ عليهِ، والإنابةِ إليهِ، مِن قلبِ المشركِ، بسببِ قِسمَتِهِ ذٰلك بينَه سبحانَه وبينَ مَن أشركَ بهِ، فينقُصُ ويضعُفُ أو يضمَحِلُّ ذٰلك التَّعظيمُ والمحبَّةُ والخوفُ والرَّجاءُ، بسببِ صرفِ أكثرِهِ أو بعضِهِ إلى مَن عَبَدَهُ مِن دُونِه؛ لكفى في شناعَتِه.

فالشِّركُ ملزومٌ لتنقُّصِ الرَّبِّ سبحانَه، والتَّنَقُّصُ لازمٌ لهُ ضرورةً، شاءَ المشرِكُ أَمْ أبى.

ولهٰذا اقتضى حَمْدُهُ سبحانَه، وكمالُ ربوبيَّتِهِ أنْ لا يَغْفِرَهُ، وأنْ يُخَلِّدَ صاحِبَهُ في العذابِ الأليمِ، ويجْعَلَهُ أشقى البريَّةِ، فلا تَجِدُ مشرِكاً قطُّ إلَّا وهُو مُتَنَقِّصٌ للهِ سُبحانَه، وإنْ زعَمَ أنَّهُ يُعَظِّمُهُ بذٰلك، كما أنَّكَ لا تَجِدُ مبتَدِعاً إلَّا وهُو مُتنقِّصٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ تَعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّم، وإنْ زَعَمَ أنَّهُ معظِّمٌ لهُ بتلكَ البدعةِ. فإنَّهُ يزعُمُ أنَّها خيرٌ مِن السُّنَّةِ وأولى بالصَّوابِ، أو يزعُمُ أنَّها هي السُّنَّةُ، إنْ كانَ جاهلاً مقلِّداً، وإنْ كان مستبصراً في بدعَتِه؛ فهو مُشاقٌّ للهِ ورسولِه.

فالمتَنَقِّصونَ المنقوصونَ عندَ اللهِ تعالى ورسولِه وأوليائِهِ: هُم أهلُ الشِّركِ والبِدعةِ، ولا سِيَّما مَن بَنى دينَهُ على أنَّ كلامَ اللهِ ورسولِهِ أدلَّةٌ لفظيَّةٌ لا تُفيدُ اليقينَ[1]، ولا تُغْني مِن اليقينِ والعلمِ شيئاً، فيا للهِ لِلمسلمينَ، أيُّ شيءٍ فاتَ مِن هٰذا التَّنَقُّصِ؟!

= وهو حديثٌ ضعيفٌ لا يصحُّ؛ كما حقَّقتُه في جُزئي المُفْرَد: «الكشف والتبيين لعلل حديث: (اللهمَّ إني أسألك بحق السائلين)»! ولو صحَّ؛ فليس دليلاً على التوسُّل الممنوع، إذ حقُّ السائلين على الله الإجابة والإثابة. والله الموفِّق للصواب.

(١) أي: أخبار آحاد، وقد سبق التنبيهُ على فساد قولهم.

وكذٰلك مَن نفى صفاتِ الكمالِ عن الرَّبِّ تعالى خشيةَ مَا يتوهَّمُهُ مِن التَّشبيهِ والتَّجسيمِ، فقد جاءَ مِن التَّنقُّصِ بضدِّ ما وصفَ اللهُ سبحانَه بِه نفسَهُ مِن الكمالِ.

والمقصودُ أنَّ هاتينِ الطَّائفتينِ هُم أهلُ التَّنقُّصِ في الحقيقةِ، بل هُم أعظمُ النَّاسِ تنقُّصاً، لَبَّسَ عليهِمُ الشَّيطانُ حَتَّى ظَنُّوا أنَّ تَنقُّصَهُم هو الكمالُ، ولهٰذا كانتِ البدعَةُ قَرينةَ الشِّرْكِ في كتابِ اللهِ تَعالى. قالَ تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

فالإِثْمُ والبَغْيُ قَرينانِ، والشِّرْكُ والبِدْعةُ قَرينانِ.

• نَجاسَةُ الذُّنوبِ والمَعاصي:

وأَمَّا نَجاسَةُ الذُّنوبِ والمعاصي؛ فإِنَّها بوجهٍ آخَرَ:

إِذْ هي لا تستلزمُ تنقيصَ الرُّبوبيَّةِ ولا سوءَ الظَّنِّ باللهِ ﷻ، ولهٰذا لم يرتِّبِ اللهُ سبحانَه عليها مِن العقوباتِ والأحكامِ ما رتَّبَهُ على الشِّركِ. وهٰكذا استقرَّتِ الشَّريعةُ على أَنَّهُ يُعفى عن النَّجاسةِ المخفَّفَةِ؛ كالنَّجاسةِ في محلِّ الاستِجْمارِ[1]، وأسفلِ الخُفِّ والحذاءِ[2]، أو بول الصَّبيِّ الرَّضيعِ[3] وغيرِ ذٰلك، ما لا يُعفى عن المغلَّظةِ، وكذٰلك يُعفى عن الصَّغائرِ ما لا يُعفى عن

---

(١) روى البخاري (١٥٦)، ومسلم (٢٦٢)؛ عن ابن مسعود. أنَّ النبي ﷺ كان يستنجي بثلاثة أحجارٍ، ونهاهم أن يستنجوا بأقل من ذلك. فمثلُ هذا المسح يترك أثراً خفيفاً، فعُفِي عنه لأجل ذلك.

(٢) وذلك كقوله ﷺ: «إذا وَطِئ أحدُكم بنعله الأذى؛ فإن التراب له طَهور». رواه أبو داود (٣٨٦)، وابن خزيمة (٢٩٢)، والبيهقي (٢/ ٤٣٠)، وغيرهم؛ عن عائشة، بالسند الصحيح. ومثل هذا المسح - أيضاً - يُبقي أثراً.

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٣)، ومسلم (٢٨٧)؛ عن أمِّ قيس بنت مِحْصَن أنها أتت رسول الله ﷺ بابنٍ لها لم يأكل الطعام، فوضَعَتْهُ في حِجْره، فبال، فلم يزد على أن نَضَحَ الماء.

الكبائرِ، ويُعْفى لأهلِ التَّوحيدِ المَحْضِ الذي لمْ يَشوبُوهُ بالشِّركِ ما لا يُعْفى لمَن ليس كذلك.

فلو لَقِيَ الموحِّدُ الَّذي لم يُشْرِكْ باللهِ شيئاً ألبتَّةَ رَبَّهُ بِقُرابِ الأرضِ خطايا؛ أتاهُ بقُرابِها مغفرةً[1]، ولا يَحْصُلُ هٰذا لمن نَقَصَ توحيدَهُ، وشابَهُ بالشِّركِ، فإنَّ التوحيدَ الخالِصَ الَّذي لا يشوبُهُ شِرْكٌ لا يبقى معهُ ذَنْبٌ: فإنَّهُ يتضمَّنُ من محبَّةِ اللهِ تعالى وإجلالِهِ، وتعظيمِهِ، وخوفِهِ، ورجائِهِ وحدَهُ، ما يوجِبُ غَسْلَ الذُّنوبِ، ولو كانتْ قُرابَ الأرضِ، فالنَّجاسَةُ عارِضةٌ، والدَّافِعُ لها قويٌّ، فلا تثبُتُ معَه.

ولكنَّ نجاسةَ الزِّنا واللُّواطَةِ أغلظُ مِن غيرِها مِن النَّجاساتِ؛ مِن جهةِ أنَّها تُفْسِدُ القلبَ، وتُضْعِفُ توحيدَهُ جدّاً؛ ولهٰذا كانَ أحظى النَّاسِ بهٰذه النَّجاسةِ أكثرَهُم شِركاً، فكلَّما كانَ الشِّركُ في العبدِ أغلبَ؛ كانتْ هٰذه النَّجاسةُ والخبائثُ فيهِ أكثرَ، وكلَّما كانَ أعظمَ إخلاصاً؛ كانَ منها أبعدَ، كما قالَ تعالى عن يوسُفَ الصِّدِّيقِ ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإنَّ عِشْقَ الصُّورِ المحرَّمةِ نوعُ تعبُّدٍ لها، بل هُو مِن أعلى أنواعِ التعبُّدِ، ولا سيَّما إذا استولى على القَلْبِ، وتمكَّنَ منهُ، صارَ تَتَيُّماً، والتَّتَيُّمُ التَّعَبُّدُ، فيصيرُ العاشقُ عابداً لمعشوقِهِ، وكثيراً ما يغْلِبُ حُبُّهُ وذِكْرُهُ والشَّوْقُ إليهِ والسَّعيُ في مرضاتِه، وإيثارُ محبَّتِه على حُبِّ اللهِ وذِكْرِهِ، والسَّعْيِ في مرضاتِه.

بل كثيراً ما يذهَبُ ذٰلكَ مِن قلبِ العاشقِ بالكلِّيَّةِ، ويصيرُ متعلِّقاً بمعشوقِهِ مِن الصُّوَرِ؛ كما هُو مشاهَدٌ، فيصيرُ المعشوقُ هو إلٰهَهُ مِن دونِ اللهِ ﷻ، يُقَدِّمُ رضاهُ وحُبَّهُ على رضى اللهِ وحُبِّهِ، ويتقرَّبُ إليهِ ما لا يتقرَّبُ إلى اللهِ، ويُنْفِقُ في

---

(١) كما رواه الترمذي (٣٥٣٤) وغيره عن أنسٍ. وفي سنده ضعفٌ يسيرٌ، لكنّ له طرقاً أخرى استوعبتُها في «موسوعة الأحاديث القدسية» (ق٨٨) يسّر الله إتمامها، فهو صحيحٌ.

مرضاتِهِ ما لا ينفِقُهُ في مَرضاةِ اللهِ، ويتجنَّبُ مِن سَخَطِهِ ما لا يتجَنَّبُ مِن سَخَطِ اللهِ تعالى، فيصيرُ آثرَ عندَهُ مِن ربِّهِ؛ حُبّاً، وخُضوعاً، وذُلّاً، وسمعاً، وطاعةً.

ولهٰذا كانَ العِشْقُ والشِّركُ مُتلازِمَيْنِ، وإنَّما حكى اللهُ سُبحانَهُ العِشْقَ عنِ المُشركينَ مِن قومِ لوطٍ، وعن امرأةِ العزيزِ، وكانتْ إذ ذاكَ مشركةً، فكلَّما قوِيَ شِرْكُ العبدِ بُلِيَ بعِشْقِ الصُّوَرِ، وكلَّما قوِيَ توحيدُهُ صُرِفَ ذٰلك عنهُ.

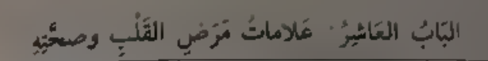
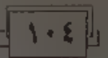
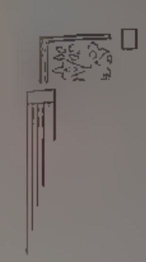
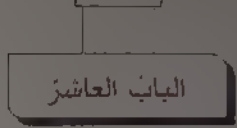
والزِّنا واللِّواطةُ كمالُ لذَّتِهما إنَّما يكونُ معَ العِشْقِ، ولا يخلو صاحِبُهما منهُ، وإنَّما لتنقُّلِهِ مِن محلٍّ إلى محلٍّ، لا يبقى عشقُهُ مقصوراً على محلٍّ واحدٍ، بل ينقسمُ على سهامٍ كثيرةٍ، لكلِّ محبوبٍ نصيبٌ مِن تألُّهِه وتعبُّدِه.

فليس في الذُّنوبِ أفسدَ للقلبِ والدِّينِ مِن هاتينِ الفاحشتينِ، ولهما خاصِّيَّةٌ في تبعيدِ القلبِ مِن اللهِ، فإنَّهُما مِن أعظَمِ الخبائثِ، فإذا انصَبَغَ القلبُ بهِما؛ بَعُدَ ممَّنْ هُو طَيِّبٌ، ولا يصعَدُ إليهِ إلَّا طَيِّبٌ، وكلَّما ازدادَ خُبثاً؛ ازدادَ مِن اللهِ بعداً.

والمُشْرِكُ ينقُمُ على الموحِّدِ تجريدَهُ للتَّوحيدِ، وأنَّهُ لا يشوبُهُ بالإشراكِ، وهٰكذا المبتَدِعُ ينقُمُ على السُّنِّيِّ تجريدَهُ متابعةَ الرَّسولِ، وأنَّهُ لم يَشُبْها بآراءِ الرِّجالِ[1]، ولا بشيءٍ مِمَّا خالفَها، فصَبْرُ الموحِّدِ المتَّبِعِ للرَّسولِ على ما يقمُهُ عليهِ أهلُ الشِّركِ والبدعةِ خيرٌ لهُ وأنفعُ، وأسهلُ عليهِ مِن صبرِهِ على ما ينقمُهُ اللهُ ورسولُهُ عليهِ مِن موافقةِ أهلِ الشِّركِ والبدعةِ.

إذا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِن الصَّبْرِ فاصْطَبِرْ عَلى الحَقِّ ذَاكَ الصَّبْرُ تُحْمَدُ عُقْباهُ

(١) فلذلك تراهم عليهم يحقدون، وعنهم يبتعدون، ومنهم يُنفِّرون؛ حقداً من قلوبهم، وحسداً من عند أنفسهم!!

البابُ العاشرُ

عَلاماتُ مَرَضِ القَلْبِ وصحَّتِه

اعلمْ أنَّ مرضَ القلبِ أنْ يتعذَّرَ عليهِ ما خُلِقَ لهُ مِن معرِفَةِ اللهِ ومحبَّتِهِ والشَّوقِ إِلى لِقائِهِ، والإِنابةِ إِليهِ، وإِيثارِ ذٰلك على كلِّ شهوةٍ، فلو عَرَفَ العبدُ كلَّ شيءٍ، ولم يعرِفْ ربَّهُ، فكأَنَّهُ لم يعْرِفْ شيئاً، ولو نالَ كلَّ حَظٍّ مِن حُظوظِ الدُّنيا ولذَّاتِها وشهواتِها ولم يظفَرْ بمحبَّةِ اللهِ، والشَّوقِ إِليهِ، والأُنسِ بهِ، فكأَنَّهُ لم يَظْفَرْ بلذَّةٍ ولا نعيمٍ ولا قُرَّةِ عينٍ، بل إِذا كانَ القلبُ خالياً عن ذٰلك عادَتْ تلكَ الحُظوظُ واللَّذَّاتُ عذاباً لهُ ولا بدَّ، فيصيرُ معذَّباً بنفسِ ما كان منعّماً به، من جهتَيْنِ:

مِن جهةِ حسرةِ فَوْتِه، وأَنَّهُ حِيلَ بينَهُ وبينَه، مع شدَّةِ تعلُّقِ روحِهِ بهِ.

ومِن جهةِ فَوْتِ ما هُو خيرٌ لهُ وأنفعُ وأدومُ، حيث لم يَحْصُلْ لهُ، فالمحبوبُ الحاصِلُ فاتَ، والمحبوبُ الأعظمُ لم يَظْفَرْ بِه.

وكلُّ مَن عَرَفَ اللهَ أَحَبَّهُ، وأخلَصَ العبادةَ لهُ ولا بدَّ، ولم يُؤْثِرْ عليهِ شيئاً من المحبوباتِ، فمَن آثَرَ عليهِ شيئاً من المَحبوباتِ؛ فقلبُهُ مريضٌ، كما أنَّ المعدةَ إِذا اعتادَتْ أكلَ الخبيثِ وآثَرَتْهُ على الطيِّبِ سَقَطَتْ عنها شهوةُ الطَّيِّبِ، وتعوَّضَتْ بمحبَّةِ غيرِه.

وقد يمرَضُ القَلبُ ويشتَدُّ مرضُه، ولا يعرِفُ بهِ صاحِبُهُ؛ لاشتغالِهِ وانصرافِهِ عن معرفةِ صحَّتِه وأسبابِها، بل قد يموتُ وصاحبُهُ لا يشعرُ بموتِه، وعلامةُ ذٰلك أَنَّهُ لا تؤلِمُه جِراحاتُ القبائِحِ، ولا يوجِعُهُ جَهْلُهُ بالحقِّ وعقائِدِهِ الباطلةِ؛ فإِنَّ القلبَ إِذَا كانَ فيهِ حياةٌ تَأَلَّمَ بورودِ القبيحِ عليهِ، وتألَّمَ بجهْلِهِ بالحقِّ بحسبِ حياتِهِ.

وما لِجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ[(١)].

وقد يشعُرُ بمرضِهِ، ولكنْ يشتَدُّ عليهِ تحمُّلُ مرارةِ الدَّواءِ، والصَّبْرُ عليها، فهو يؤثِرُ بقاءَ ألمِهِ على مشقَّةِ الدَّواءِ؛ فإنَّ دواءَهُ في مخالفةِ الهوى، وذٰلك أصعبُ شيءٍ على النَّفسِ، وليس لها أنفعُ منهُ.

وتارةً يوطِّنُ نفسَهُ على الصَّبْرِ، ثمَّ ينفَسِخُ عَزْمُهُ، ولا يستمرُّ معهُ لضَعْفِ علمِهِ وبصيرته وصَبْرِه؛ كمنْ دَخَلَ في طريقٍ مخوفٍ مفضٍ إلى غايةِ الأمْنِ، وهو يعلَمُ أنَّهُ إنْ صَبَرَ عليهِ انقضى الخوفُ وأعْقَبَهُ الأمْنُ، فهو محتاجٌ إلى قوَّةِ صبرٍ، وقوَّةِ يقينٍ بما يصيرُ إليهِ، ومتى ضَعُفَ صبْرُهُ ويقينُهُ رَجَعَ مِن الطَّريقِ، ولم يتحَمَّلْ مشقَّتها، ولا سيما إنْ عَدِمَ الرَّفيقَ، واستوحَشَ مِن الوحْدَةِ، وجَعَلَ يقولُ: أينَ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فلي بِهِم أُسوةٌ، وهٰذه حالُ أكثرِ الخَلْقِ، وهي التي أهلَكَتْهُم.

فالبَصيرُ الصَّادِقُ لا يستوحِشُ مِن قِلَّةِ الرَّفيقِ، ولا مِن فقدِهِ إذا استشْعَرَ قَلْبُهُ مُرافقةَ الرَّعيلِ الأوَّلِ، الذينَ أنعمَ اللهُ عليهِم مِن النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولٰئك رفيقاً، فتفرُّدُ العبدِ في طريقِ طَلَبِهِ دليلٌ على صِدْقِ الطَّلَبِ.

ولقد سُئِلَ إسحاقُ بْنُ راهَوَيْهِ عن مسألةٍ، فأجابَ، فقيلَ لهُ: إنَّ أخاكَ أحمدَ بنَ حنبلٍ يقولُ فيها بمثلِ ذٰلك. فقالَ: ما ظَنَنْتُ أنَّ أحداً يوافِقُني عليها.

ولم يستوحِشْ بعدَ ظهورِ الصَّوابِ لهُ مِن عدمِ الموافقةِ؛ فإنَّ الحقَّ إذا لاحَ وتبيَّنَ لم يَحْتَجْ إلى شاهدٍ يشهَدُ بهِ، والقَلْبُ يُبْصِرُ الحقَّ كما تُبْصِرُ العينُ الشَّمْسَ، فإذا رأى الرّائي الشَّمسَ لم يَحْتَجْ في علمِهِ بها واعتقادِهِ أنَّها طالعةٌ إلى مَن يشهَدُ بذٰلك ويوافِقُهُ عليهِ.

---

(١) هذا عَجُز بيت للمتنبي، وهو:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوانُ عليهِ ... مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

انظر: «ديوانه» (٤/٩٢ ـ ١٠١، بشرح العكبري).

ما أحسنَ ما قالَ أبو محمدٍ عبدُ الرَّحمٰنِ بنُ إسماعيلَ المعروفُ بأبي شامَةَ في كتابِ «الحوادِثِ والبدعِ»(١):

«حيثُ جاءَ الأمرُ بلزومِ الجماعةِ؛ فالمرادُ بهِ لزومُ الحقِّ واتّباعُه، وإنْ كانَ المتمسِّكُ بهِ قليلاً، والمخالفُ لهُ كثيراً؛ لأنَّ الحقَّ هو الذي كانتْ عليهِ الجماعةُ الأولى مِن عهدِ النبيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وأصحابِه، ولا نظرَ إلى كثرةِ أهلِ البدَعِ بعدهُم».

قالَ عمرو بنُ ميمون الأوْدِيُّ: «صَحِبْتُ مُعاذاً باليمن، فما فارقتُهُ حتى واريْتُهُ في التُّرابِ بالشامِ، ثم صَحِبْتُ بعدَهُ أفقَهَ النَّاسِ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ ﷺ، فسمِعْتُه يقولُ: عليكُم بالجماعةِ؛ فإنَّ يدَ اللهِ على الجماعةِ، ثم سَمِعْتُهُ يوماً مِن الأيامِ وهو يقولُ: سَيَلي عليكُم وُلاةٌ يُؤخِّرونَ الصَّلاةَ عن مواقيتِها، فصَلُّوا الصَّلاةَ لميقاتِها، فهي الفريضةُ، وصلُّوا معهُم؛ فإنَّها لكُم نافلةٌ. قالَ: قلتُ: يا أصحابَ محمَّدٍ! ما أدري ما تُحَدِّثونا؟ قالَ: وما ذاكَ؟ قالَ: تأمُرُني بالجماعةِ وتَحُضُّني عليها، ثمَّ تقولُ: صَلِّ الصَّلاةَ وحدَكَ، وهي الفريضةُ، وصلِّ معَ الجماعةِ وهي نافلةٌ؟ قالَ: يا عمرَو بنَ مَيمونٍ، قد كنتُ أظُنُّكَ مِن أفقهِ أهلِ هٰذه القريةِ، تَدْري ما الجماعةُ؟ قلتُ: لا، قالَ: إنَّ جمهورَ الجماعةِ: الذينَ فارقوا الجماعةَ. الجماعةُ ما وافَقَ الحقَّ، وإنْ كُنْتَ وحدَكَ»(٢).

وفي طريقٍ أُخرى: «فضَرَبَ على فَخِذي، وقالَ: وَيْحَكَ! إنَّ جمهورَ النَّاسِ فارقوا الجماعةَ، وإنَّ الجماعةَ ما وافَقَ طاعةَ اللهِ ﷻ».

---

(١) واسمه: «الباعث على إنكار البدع والحوادث»، والقولُ فيه (ص١٩ ـ ٢٠). ونقلَه عنه ابنُ أبي العزّ الحَنَفي في «شرح الطحاوية» (ص٣٦٢). وأبو شامة توفي سنة (٦٦٥هـ)، ترجمته في «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٦٠).

(٢) رواه اللالكائي في «السنة» (رقم ١٦٠). وانظر كتابي: «الدعوة إلى الله..» (ص٨٩ ـ ٩٥)، فصل: الجماعة مصطلح وبيان.

قالَ نُعيمُ بنُ حمَّادٍ: «يعني: إذا فسدَتِ الجماعةُ؛ فعليكَ بما كانَتْ عليهِ الجماعةُ قبلَ أنْ تَفْسُدَ، وإنْ كنتَ وحدَكَ؛ فإنَّكَ أنْتَ الجماعةُ حينئذٍ».

وعن الحسنِ البصريِّ قال: «السُّنَّةُ ـ والذي لا إله إلَّا هُو ـ بينَ الغالي والجافي، فاصْبِروا عليها رَحِمَكُم اللهُ؛ فإنَّ أهل السُّنَّةِ كانوا أقلَّ النَّاسِ فيما مضى، وهُم أقلُّ النَّاسِ فيما بقيَ: الَّذينَ لم يذهَبُوا مع أهلِ الإترافِ في إترافِهِم، ولا مع أهلِ البِدعِ في بدعِهِم، وصَبَروا على سُنَّتِهم حتى لقوا ربَّهُم، فكذلك إنْ شاء اللهُ فكونوا».

وكانَ محمَّدُ بنُ أسلمَ الطوسِيُّ[1] الإمامُ المتَّفَقُ على إمامَتِه ـ مع رُتبَتِه ـ أتْبَعَ النَّاسِ للسُّنَّةِ في زمانِه، حتى قَالَ: «ما بلَغَني سُنَّةٌ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليه وسلَّمَ إلَّا عَمِلْتُ بها، ولقد حَرِصْتُ على أنْ أطوفَ بالبيتِ راكباً، فما مُكِّنْتُ مِن ذٰلك.

فسُئِلَ بعضُ أهلِ العلمِ في زمانِه عن السَّوادِ الأعظمِ الذي جَاءَ فيهم الحديثُ: «إذا اختَلَفَ النَّاسُ؛ فعليكُمْ بالسَّوادِ الأعظمِ»[2]، فقالَ: «محمَّدُ بنُ أسلمَ الطُّوسيُّ هو السَّوادُ الأعظمُ»[3].

وصدَقَ واللهِ، فإنَّ العَصْرَ إذا كانَ فيهِ عارِفٌ بالسُّنَّةِ داعٍ إليها فهُو الحجَّةُ، وهو الإجماعُ، وهو السَّوادُ الأعظمُ، وهو سبيلُ المؤمنينَ التي مَن فارَقَها واتَّبَعَ سواها ولَّاهُ اللهُ ما تولَّى، وأصلاهُ جَهَنَّمَ، وساءتْ مصيراً[4].

والمقصودُ أنَّ مِن علاماتِ أمراضِ القُلوبِ عُدولَها عن الأغذيةِ النَّافعةِ

(١) توفي سنة (٢٤٢هـ)، ترجمتُه في «سير النبلاء» (١٢/١٩٥).
(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٥٠)، وابن أبي عاصم (٨٤)، واللالكائي (١٥٣)؛ عن أنس. وسنده ضعيفٌ جداً، فيه أبو خلف المكفوف، واسمه حازم بن عطاء، تركه جماعةٌ من أهل العلم، وكذَّبه ابن معين.
(٣) «حلية الأولياء» (٩/٢٣٨ ـ ٢٣٩)، ومن طريقه الذهبي في «السير» (١٢/١٩٦).
(٤) كما أشارت إليه الآية الكريمة من سورة النساء: ١١٥.

الموافقةِ لها إلى الأغذيةِ الضَّارَّةِ، وعدولَها عن دوائِها النَّافعِ إلى دائِها الضَّارِّ، فهنا أربعةُ أمورٍ: غذاءٌ نافعٌ، ودواءٌ شافٍ، وغذاءٌ ضارٌّ، ودواءٌ مُهْلِكٌ.

فالقلبُ الصَّحيحُ يُؤْثِرُ النَّافِعَ الشَّافي على الضَّارِّ المؤذي، والقلبُ المريضُ بضدِّ ذلك.

وأنفعُ الأغذيةِ غِذاءُ الإيمانِ، وأنفعُ الأدويةِ دواءُ القرآنِ، وكلٌّ منهُما فيهِ الغذاءُ والدَّواءُ.

ومِن علاماتِ صحَّتِه أيضاً: أنْ يرتَحِلَ عن الدُّنيا حتى ينزلَ بالآخرةِ، ويَحِلَّ فيها، حتى يَبْقى كأنَّهُ مِن أهلِها وأبنائِها، جاءَ إلى هٰذه الدَّارِ غريباً يأْخُذُ منها حاجَتَهُ، ويعودُ إلى وطنِه كما قالَ ﷺ لعبدِ اللهِ بنِ عُمَر: «كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ، وعُدَّ نفسَكَ مِن أهلِ القُبورِ»[1].

فحَيَّ عَلى جَنَّاتِ عَدْنٍ فإنَّها ... مَنازِلُكَ الأوْلى وفيها المُخَيَّمُ
ولٰكِنَّنا سَبْيُ العَدُوِّ فَهَلْ تَرَى ... نَعُودُ إلى أوطانِنا ونُسَلَّمُ[2]

وكلما صحَّ القلبُ مِن مرضِه؛ تَرَحَّلَ إلى الآخرةِ، وقَرُبَ منها، حتى يصيرَ مِن أهلِها، وكلَّما مَرِضَ القلبُ واعتلَّ؛ آثَرَ الدُّنيا واستوطَنَها، حتى يصيرَ مِن أهلِها.

ومِن علاماتِ صحَّةِ القلبِ أنَّهُ لا يزالُ يضرِبُ على صاحِبِهِ حتى يُنيبَ إلى اللهِ ويُخْبِتَ إليهِ، ويتعَلَّقَ بهِ تعلُّقَ المحبِّ المضطرِّ إلى محبوبه، الذي لا حياةَ لهُ، ولا فلاحَ، ولا نعيمَ، ولا سرورَ؛ إلَّا برضاهُ وقُرْبِهِ والأُنْسِ بِه، فبِهِ يطمَئِنُّ، وإليهِ يسكُنُ، وإليهِ يأْوي، وبه يفرَحُ، وعليهِ يتوكَّلُ، وبهِ يثِقُ، وإيَّاهُ يرجو، ولهُ يخافُ.

---

(١) رواه البخاري (١١/١٩٩)، والفقرة الثانية منه لأحمد (٤٧٦٤) وغيره.

(٢) من قصيدة للمصنِّف ﷺ، أودعها كتابَه المستطاب النافع: «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (ص٧). وقد أفردها وشرحَها بعض طلبة العلم أخيراً، وطُبعت في مصر.

فذِكْرُهُ: قوَّتُه، وغذاؤهُ ومحبَّتُه والشَّوقُ إليهِ: حياتُه ونعيمُهُ ولذَّتُهُ وسُرورُهُ، والالتفاتُ إلى غيرِهِ والتعلُّقُ بسواهُ: داؤهُ، والرّجوعُ إليه: دواؤهُ.

فإذا حَصَلَ لهُ ربُّهُ؛ سَكَنَ إليهِ، واطمأنَّ بِه، وزالَ ذٰلك الاضطرابُ والقَلَقُ، وانسدَّتْ تلكَ الفاقةُ.

فإنَّ في القلبِ فاقةً لا يسدُّها شيءٌ سوى اللهِ تَعالى أبداً.

وفيهِ شَعَثٌ لَا يَلُمُّهُ غيرُ الإقبالِ عليهِ.

وفيهِ مَرَضٌ لا يشفيهِ غيرُ الإخلاصِ لهُ، وعبادَتِه وحدَهُ.

فهو دائماً يضرِبُ على صاحبِهِ حتى يسكُنَ ويطمئنَّ إلى إلٰهِه ومعبودِهِ، فحينئذٍ يُباشِرُ روحَ الحياةِ، ويذوقُ طعمَها، ويَصيرُ لهُ حياةٌ أُخرى غيرَ حياةِ الغافلينَ المُعْرِضينَ عن هٰذا الأمرِ الذي لهُ خُلِقَ الخَلْقُ، ولأجْلِهِ خُلِقَتِ الجنَّةُ والنَّارُ، ولهُ أُرْسِلَتِ الرُّسُلُ ونَزَلَتِ الكُتُبُ، ولو لم يكُنْ جَزاءٌ إلَّا نفسَ وجودِهِ لَكَفى بِهِ جزاءً وكفى بفَوْتِه حسرةً وعقوبةً.

قالَ أبو الحسينِ الورّاقُ: «حياةُ القلبِ في ذِكرِ الحيِّ الذي لا يموتُ، والعيشُ الهنيُّ الحياةُ مع اللهِ تعالى لا غيرَ».

ولهٰذا كانَ الفَوْتُ عندَ العارفينَ باللهِ أشدَّ عليهِم مِن الموتِ؛ لأنَّ الفَوْت انقطاعٌ عن الحقِّ، والموتَ انقطاعٌ عن الخَلْقِ، فكم بينَ الانقطاعين؟

وقالَ آخرُ: «مَن قرَّتْ عينُهُ باللهِ تعالى قَرَّتْ بِهِ كلُّ عَيْنٍ، ومَن لم تَقَرَّ عينُهُ باللهِ تَقَطَّعَ قلبُهُ على الدُّنيا حَسَراتٍ».

وقال يحيى بنُ مُعاذٍ: «مَن سُرَّ بخدمةِ اللهِ؛ سُرَّتِ الأشياءُ كلُّها بخدمَتِه، ومَن قَرَّتْ عينُه باللهِ قرَّتْ عُيونُ كلِّ أحدٍ بالنَّظَرِ إليهِ».

ومِن علاماتِ صحَّةِ القلبِ: أنْ لا يَفْتُرَ عن ذِكْرِ ربِّهِ، ولا يسأَمَ مِن خِدْمَتِهِ، ولا يأْنَسَ بغيرِهِ؛ إلَّا بِمَنْ يَدُلُّهُ عليهِ، ويُذَكِّرُهُ بِهِ، ويُذاكِرُهُ بهٰذا الأمرِ.

ومِن علاماتِ صحَّتِه: أنَّهُ إذا فاتَهُ وِرْدُهُ وَجَدَ لفواتِه ألماً أعظمَ مِن تألُّمِ الحريصِ بفواتِ مالِهِ وفَقْدِه.

ومِن علاماتِ صحَّتِه: أنَّهُ يشتاقُ إلى الخِدمةِ؛ كما يشتاقُ الجائعُ إلى الطَّعامِ والشَّرابِ.

ومِن علاماتِ صحَّتِه: أنَّهُ إذا دَخَلَ في الصَّلاةِ ذَهَبَ عنهُ همُّهُ وغَمُّهُ بالدُّنيا، واشتدَّ عليهِ خروجُهُ منها، ووجَدَ فيها راحتَهُ ونعيمَه، وقُرَّةَ عينِه وسُرورَ قلبِهِ.

ومِن علاماتِ صحَّتِه: أنْ يكونَ هَمُّهُ واحداً، وأنْ يكونَ في اللهِ.

ومِن علاماتِ صحَّتِه: أنْ يكونَ أشَحَّ بوقتِهِ أنْ يذهَبَ ضائعاً مِن أشدِّ النَّاسِ شُحّاً بمالِه.

ومِنها: أنْ يكونَ اهتمامُهُ بتصحيحِ العملِ أعظمَ منهُ بالعملِ، فيحْرِصُ على الإخلاصِ فيهِ والنَّصيحةِ والمُتابعةِ والإحسانِ، ويشهَدُ معَ ذٰلك منَّةَ اللهِ عليهِ وتقصيرَهُ في حقِّ اللهِ.

فهٰذه ستُّ مشاهدَ لا يشهَدُها إلا القلبُ الحيُّ السليمُ.

وبالجملةِ؛ فالقلبُ الصَّحيحُ: هو الذي همُّهُ كلُّهُ في اللهِ، وحبُّهُ كلُّهُ لهُ، وقصدُهُ لهُ، وبَدَنُه لهُ، وأعمالُه له، ونومُهُ لهُ، ويقظتُهُ لهُ، وحديثُه والحديثُ عنهُ أشْهى إليهِ مِن كُلِّ حَديثٍ، وأفكارُهُ تحومُ على مراضِيهِ ومحابِّهِ.

الخَلْوَةُ بهِ آثَرُ عندَه مِن الخُلطَةِ إلا حيثُ تكونُ الخلطةُ أحبَّ إليهِ وأرْضى لهُ، قُرَّةُ عينِهِ به، وطمأنينَتُهُ وسكونُهُ إليهِ، فهُو كلَّما وَجَدَ مِن نفسِهِ التفاتاً إلى غيرِه تَلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨].

فهُو يُرَدِّدُ عليها الخطابَ بذٰلك ليسمَعَهُ مِن رَبِّهِ يومَ لِقائِهِ، فينصَبِغَ القلبُ بينَ يدي إلٰهِهِ ومعبودِهِ الحقِّ بصبغةِ العبوديَّةِ، فتصيرُ العبوديَّةُ صفةً لهُ وذوقاً لا تكلُّفاً، فيأتي بها تودُّداً وتحبُّباً وتقرُّباً، كما يأتي المحبُّ المقيمُ في محبَّةِ محبوبِهِ بخدمَتِه وقضاءِ أشغالِه.

فكلَّما عَرَضَ لهُ أمرٌ مِن ربِّهِ أو نَهْيٌ أَحَسَّ مِن قلبِهِ ناطقاً ينطِقُ: لَبَّيْكَ وسَعْديكَ؛ إِنِّي سامعٌ مُطيعٌ ممتثلٌ، ولك عليَّ المِنَّةُ في ذٰلك، والحمدُ فيهِ عائِدٌ إليكَ.

وإذا أصابَهُ قَدَرٌ وَجَدَ مِن قلبِهِ ناطقاً يقولُ: أنا عبدُكَ ومسكينُكَ وفقيرُك، وأنا عبدُكَ الفقيرُ العاجزُ الضَّعيفُ المسكينُ، وأنتَ ربِّي العزيزُ الرَّحيمُ، لا صبرَ لي إِنْ لم تُصَبِّرْني، ولا قوَّةَ لي إِنْ لم تَحْمِلْني وتُقَوِّني، لا ملجأَ لي منكَ إلَّا إليكَ، ولا مستعانَ لي إلَّا بكَ، ولا انصرافَ لي عن بابِك، ولا مذهَبَ لي عنكَ.

فينطرحُ بمجموعِهِ بينَ يديهِ، ويعتَمِدُ بكُلِّيَّتِه عليهِ، فإِنْ أصابَهُ بما يكرَهُ؛ قالَ: رحمةٌ أَهْدِيَتْ إليَّ، ودواءٌ نافِعٌ مِن طبيبٍ مُشْفِقٍ، وإِنْ صَرَفَ عنهُ ما يحبُّ قال: شَرّاً صُرِفَ عنِّي:

وكَمْ رُمْتُ أَمْراً خِرْتَ لي في انْصِرافِهِ ... وما زِلْتَ بي مِنِّي أَبَرَّ وأَرْحَما

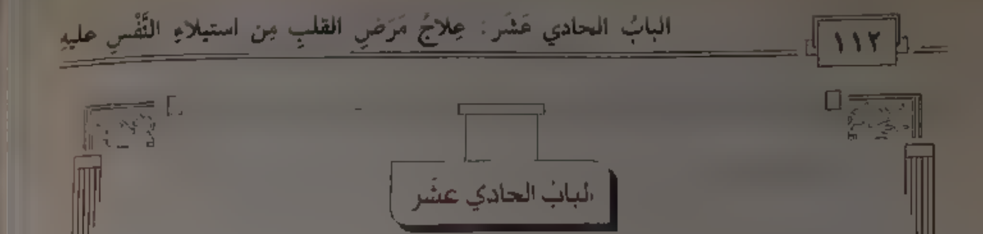
فكلُّ ما مَسَّهُ بِهِ مِن السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ اهتَدى بها طريقاً إليهِ، وانفَتَحَ له منهُ بابٌ يدخُلُ منهُ عليهِ؛ كما قيلَ:

مَا مَسَّنِي قَدَرٌ بِكُرْهٍ أو رِضاً ... إلَّا اهْتَدَيْتُ بهِ إليكَ طَرِيقَا

أَمْضِ القضاءَ على الرِّضا مِنِّي بهِ ... إنِّي وَجَدْتُكَ في البِلادِ رَفيقا

وللهِ هاتيكَ القُلوبُ وما انْطَوَتْ عليهِ مِن الضَّمائِرِ، وماذا أَودَعَتْهُ مِن الكُنوزِ والذَّخائِرِ، وللهِ طيبُ أسرارِها، ولا سيَّما يومَ تُبْلَى السَّرائِرُ.

باللهِ؛ لقد رُفِعَ لها عَلَمٌ عظيمٌ فشمَّرَتْ إليهِ، واستبانَ لها صراطٌ مستقيمٌ، فاستقامتْ عليهِ، ودعاها ما دونَ مطلوبِها الأعلى فلم تستَجِبْ إليهِ، واختارتْ على ما سواهُ وآثَرَتْ ما لديهِ.



عِلاجُ مَرَضِ القلبِ مِن استيلاءِ النَّفْسِ عليهِ

هٰذا البابُ كالأساسِ والأصلِ لما بعدَهُ مِن الأبوابِ؛ فإنَّ سائرَ أمراضِ القلبِ إنَّما تنشأُ مِن جانبِ النَّفسِ، فالموادُّ الفاسدةُ كلُّها إليها تنصبُّ، ثم تنبَعِثُ منها إلى الأعضاءِ، وأَوَّلُ ما تَنالُ القَلْب، وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ في خُطْبَةِ الحاجةِ: «**الحمدُ للهِ نستعينُهُ ونَستَهديهِ، ونستغفرُهُ ونعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أنْفُسِنا وسَيِّئاتِ أعمالِنا**»[١].

وقد استعاذَ ﷺ مِن شَرِّها عُموماً، ومِن شرِّ ما يتولَّدُ مِنها مِن الأعمالِ، ومِن شرِّ مَا يترتَّبُ على ذٰلك مِن المكارهِ والعقوباتِ، وجَمَعَ بينَ الاستعاذةِ مِن شرِّ النَّفسِ ومِن سيِّئاتِ الأعمالِ.

وفيهِ وجهانِ:

أَحدُهما: أنَّهُ مِن بابِ إضافةِ النَّوعِ إلى جنسهِ؛ أيْ: أعوذُ بكَ مِن هٰذا النَّوعِ مِن الأعمالِ.

والثَّاني: أنَّ المرادَ بهِ عقوباتُ الأعمالِ التي تسوءُ صاحِبَها.

فعلى الأوَّلِ: يكونُ قدِ استعاذَ مِن صفةِ النَّفْس وعَمَلِها.

---

(١) رواه الترمذي (١١٠٥)، والنسائي (٦/ ٨٩)، وأبو داود (٢١١٨)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد (٣٧٢١ و٤١١٦)؛ من طرق عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود. وسنده صحيحٌ، إذ رواه عن أبي إسحاق - ممَّن رواه - الإمام شعبةُ بن الحجَّاج، وروايته عنه مأمونة.
وفي الباب عن عدَّة من الصحابة، استقصى ذكْرَهُم شيخُنا الألباني في رسالتِه المفيده الجامعةِ «خُطبة الحاجة»، فلتراجع.

وعلى الثَّاني: يكونُ قدِ استعاذَ مِن العُقوباتِ وأسبابِها.

ويدخُلُ العملُ السَّيِّءُ في شرِّ النَّفسِ، فهل المعنى: ما يسوؤني مِن جزاءِ عملي، أو مِن عملي السَّيِّءِ؟

وقد يترجَّحُ الأوَّلُ؛ فإنَّ الاستعاذةَ مِن العملِ السَّيِّءِ بعدَ وقوعِه إنَّما هي استعاذةٌ مِن جزائِهِ وموجِبِهِ، وإلَّا فالموجودُ لا يمكِنُ رفعُهُ بعَيْنِه.

وقد اتَّفَقَ السَّالكونَ إلى اللهِ على اختلافِ طُرُقِهم وتبايُنِ سُلوكِهِم على أنَّ النفسَ قاطعةٌ بينَ القلبِ وبينَ الوصولِ إلى الرَّبِّ، وأنَّهُ لا يُدْخَلُ عليهِ سبحانَه ولا يوصَلُ إليهِ إلَّا بعدَ إماتَتِها وتَرْكِها بمخالفتِها والظَّفَرِ بها.

فإنَّ النَّاسَ على قسمينِ:

قسمٌ ظَفِرَتْ بِهِ نفسُهُ فملكَتْهُ وأهلَكَتْهُ وصارَ طوعاً لها تحتَ أوامرِها.

وقسمٌ ظَفِروا بنفوسِهِم فقَهَروها، فصارتْ طوعاً لهم منقادةً لأوامِرِهِم.

قالَ بعضُ العارفينَ: انتهى سَفَرُ الطَّالبينَ إلى الظَّفرِ بأنفُسِهِم، فمن ظَفِرَ بنفسِهِ؛ أفْلَحَ وأنْجحَ، ومَن ظَفِرَتْ بِهِ نفسُهُ خسِرَ وهَلَكَ. قالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

فالنَّفسُ تدعو إلى الطُّغيانِ وإيثارِ الحياةِ الدُّنيا، والربُّ يدعو عبدَه إلى خَوْفِهِ ونَهْيِ النَّفْسِ عنِ الهوى، والقلبُ بينَ الدَّاعيَيْنِ، يميلُ إلى هٰذا الدَّاعي مرةً، وإلى هٰذا مرَّةً.

وهٰذا موضِعُ المحنةِ والابتلاءِ، وقد وَصَفَ سبحانَهُ النَّفْسَ في القرآنِ بثلاثِ صفاتٍ: المطمئنَّةِ، والأمَّارةِ بالسُّوءِ، واللَّوَّامةِ.

فالنَّفْسُ إذا سَكَنَتْ إلى اللهِ، واطمَأنَّتْ بذِكْرِهِ، وأنابَتْ إليهِ، واشتاقَتْ إلى لِقائه، وأنِسَتْ بقُرْبِه، فهي مُطْمَئِنَّةٌ، وهي التي يُقالُ لها عندَ الوفاةِ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ يقولُ: المصدِّقَةُ.

وقالَ قَتادَةُ: «هو المؤمِنُ، اطمأَنَّتْ نفسُهُ إلى ما وَعَدَ اللهُ».

وقالَ الحسنُ: «المطمَئِنَّةُ بما قالَ اللهُ، والمصدِّقَةُ بما قالَ».

وقال مجاهدٌ: «هي المُنيبَةُ المُخْبِتَةُ التي أيقنَتْ أنَّ اللهَ ربُّها، وضَرَبَتْ جَأْشاً[1] لأمْرِهِ وطاعَتِه، وأيقَنَتْ بلقائِهِ»[2].

وحقيقةُ الطُّمأْنينَةِ: السُّكونُ والاستقرارُ، فهي التي قد سَكَنَتْ إلى ربِّها وطاعَتِه وأمْرِهِ.

وإذا كانتْ بضدِّ ذٰلك فهي أَمَّارةٌ بالسُّوءِ، تأْمُرُ صاحِبَها بما تهواهُ؛ مِن شهواتِ الغيِّ، واتباعِ الباطلِ، فهي مأْوى كلِّ سوءٍ، وإنْ أطاعَها قادَتْهُ إلى كلِّ قبيحٍ وكلِّ مكروهٍ.

وقد أخبَرَ سبحانَه أنَّها أمَّارةٌ بالسوءِ، ولم يَقُل: «آمرةٌ» لكثرةِ ذٰلك منها[3]، وأنَّهُ عادَتُها ودَأْبُها إلَّا إذا رحِمَها اللهُ وجعَلَها زاكيةً تأْمُرُ صاحِبَها بالخيرِ، فذٰلك مِن رحمةِ اللهِ، لا مِنها، فإنَّها بذاتِها أمَّارةٌ بالسُّوءِ؛ لأنَّها خُلِقَتْ في الأصلِ جاهلةً ظالمةً؛ إلَّا مِن رحمةِ اللهِ، والعَدْلُ والعلمُ طارئٌ عليها بإلهامِ ربِّها وفاطرِها لها ذٰلك، فإذا لم يُلْهِمْها رُشْدَها بَقِيَتْ على ظُلمِها وجَهْلِها، فلم تَكُنْ أمَّارةً إلا بموجِبِ الجهلِ والظُّلمِ، فلولا فضلُ اللهِ ورحمتُه على المؤمنينَ ما زَكَتْ منهُم نفسٌ واحدةٌ.

فإذا أرادَ اللهُ سبحانَهُ بها خيراً جعلَ فيها ما تزكو بهِ وتصلُحُ: مِنَ الإراداتِ والتصوُّراتِ وإذا لم يُرِدْ بها ذٰلك تَرَكَها على حالِها التي خُلِقَتْ عليها مِن الجهلِ والظُّلْم.

وسببُ الظُّلْمِ: إمَّا جَهْلٌ وإمَّا إباحةٌ.

---

(١) أي: قرَّت عيناً، واطمأنَّت. «اللسان» (مادة: جأش)

(٢) «الدر المنثور» (٥١٣/٨ ـ ٥١٤).

(٣) إذ اللفظ جاء على صيغة المبالغة.

وهي في الأصْلِ جاهلةٌ، والحاجةُ لازمةٌ لها، فلذٰلك كانَ أمْرُها بالسُّوءِ لازماً لها إنْ لم تُدْرِكْها رحمةُ اللهِ وفَضْلُه.

وبهٰذا يُعْلَمُ أنَّ ضرورةَ العبدِ إلى ربِّهِ فوقَ كلِّ ضرورةٍ، ولا تُشبِهُها ضرورةٌ تُقاسُ بها؛ فإنَّهُ إنْ أمسكَ عنهُ رَحْمَتَهُ وتوفيقَهُ وهِدايتَه طرفةَ عينٍ خَسِرَ وهَلَكَ.

وأمَّا اللَّوَّامَةُ: فاختُلِفَ في اشتقاقِ هٰذه اللَّفظةِ، هل هي مِن التَّلَوُّمِ، وهو التلوُّنُ والتَّردُّد، أو هي مِن اللَّومِ؟ وعِباراتُ السَّلفِ تدورُ على هٰذينِ المعنيينِ[1]:

قالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ: «قُلْتُ لابنِ عبَّاسٍ: ما اللَّوامَةُ؟ قال: هي النَّفْسُ اللؤومُ».

وقال مُجاهدُ: «هي الَّتي تَنْدَمُ على ما فات وتلومُ عليهِ».

وقال قَتادةُ: «هي الفاجرةُ».

وقالَ عِكرمَةُ: «تلومُ على الخيرِ والشَّرِّ».

وقالَ عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: «كلُّ نفسٍ تلومُ نفسَها يومَ القيامةِ، تلومُ المُحْسِنَ نفسُهُ أنْ لا يكونَ ازدادَ إحساناً، وتلومُ المسيءَ نفْسُهُ أنْ لا يكونَ رَجَعَ عن إساءَتِه».

وقالَ الحسنُ: «إنَّ المؤمِنَ ـ واللهِ ـ ما تراهُ إلَّا يلومُ نفسَهُ على كلِّ حالاتِه، يستقصرُها في كلِّ ما يفعَلُ فيندَمُ ويلومُ نفسَهُ، وإنَّ الفاجِرَ لَيَمْضي قُدُماً لا يُعاتِبُ نفسَهُ».

فهٰذه عباراتُ مَن ذَهَبَ إلى أنَّها مِن اللَّوْمِ.

وأمَّا مَن جَعَلَها مِن التَّلَوُّمِ؛ فلكثرَةِ تردُّدِها وتلوُّمِها، وأنَّها لا تستقرُّ على حالٍ واحدةٍ.

---

(١) «الدر المنثور» (٨/ ٣٤٣).

والأوَّلُ أظهَرُ: فإنَّ هٰذا المعنى لو أُريدَ لقيلَ: المتلَوِّمَةُ؛ كما يُقالُ: المتلوِّنَةُ والمتردِّدةُ. ولكنْ هو مِن لوازِمِ القولِ الأوَّلِ؛ فإنَّها لتلوُّمِها وعَدَمِ ثباتِها تفعَلُ الشَّيْءَ ثم تلومُ عليهِ، فالتلَوُّمُ مِن لوازِمِ اللَّوْمِ.

والنَّفْسُ قد تكونُ تارةً أمَّارةً، وتارةً لوَّامةً، وتارةً مطمئنَّةً، بل في اليومِ الواحدِ والسَّاعةِ الواحدةِ يحصلُ منها هٰذا وهٰذا، والحكمُ للغالبِ عليها مِن أحوالِها.

فكَوْنُها مطمئنَّةً وَصْفُ مَدْحٍ لها.

وكونُها أمَّارةً بالسُّوءِ وَصْفُ ذَمٍّ لها.

وكونُها لوَّامَةً ينقسِمُ إلى المَدْحِ والذَّمِّ بحسبِ ما تلومُ عليه.

والمقصودُ: ذِكْرُ عِلاجِ مَرَضِ القَلْبِ باستيلاءِ النَّفسِ الأمَّارةِ عليهِ، وله علاجانِ:

محاسَبَتُها، ومُخالَفَتُها، وهلاكُ القلبِ مِن إهمالِ محاسَبَتِها، ومِن موافَقَتِها واتِّباعِ هواها.

وذكرَ الإمامُ أحمدُ[1] عن عمرَ بنِ الخطَّابِ ﷺ أنَّهُ قالَ: «حاسِبُوا أنْفُسَكُم قبلَ أنْ تُحاسَبُوا، وزِنُوا أنْفُسَكُم قبلَ أنْ تُوزَنوا؛ فإنَّهُ أهونُ عليكُم في الحسابِ غداً أنْ تُحاسِبوا أنْفُسَكُمُ اليومَ، وتزَيَّنُوا للعَرْضِ الأكْبَرِ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾» [الحاقة: ١٨].

وذَكَرَ أيضاً عَن الحسنِ قالَ: «لا تَلْقى المؤمِنَ إلَّا يُحاسِبُ نفسَهُ: ماذا أرَدْتِ تَعملينَ؟ وماذا أرَدْتِ تَأْكُلينَ؟ وماذا أرَدْتِ تَشْربينَ؟ والفاجِرُ يَمْضي قُدُماً لا يُحاسِبُ نفْسَهُ».

وقالَ قَتادَةُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]: «أضاعَ نفَسهُ وغبَن، مع ذلك تراهُ حافِظاً لمالِهِ مُضيِّعاً لدينِهِ».

---

(١) في «الزهد» (٢/ ٣٠)، وبعضهم يذكره مرفوعاً، ولا يثبُتُ!

وقالَ الحسنُ: «إنَّ العبدَ لا يزالُ بخيرٍ مَا كانَ لهُ واعِظٌ مِن نفسِهِ، وكانتِ المحاسبةُ مِن همَّتِهِ».

وقالَ ميمونُ بنُ مِهرانَ: «لا يكونُ العبدُ تقيّاً حتى يكونَ لنفسهِ أشدَّ محاسبةً مِن الشَّريكِ لشريكهِ، ولهٰذا قيلَ: النَّفْسُ كالشَّريكِ الخوَّانِ، إنْ لم تُحاسِبْهُ؛ ذَهَبَ بمالِكَ».

وقالَ ميمونُ بنُ مِهرانَ أيضاً: «أنَّ التَّقِيَّ أشدُّ محاسبةً لنفسِهِ مِن سلطانٍ عاصٍ، ومِن شريكٍ شحيحٍ».

وكانَ الأحنفُ بنُ قيسٍ يجيءُ إلى المصباحِ، فيضعُ إصبَعَهُ فيهِ، ثمَّ يقولُ: حَسِّ[1] يا حُنَيْفُ! ما حمَلَكَ على ما صنعْتَ يومَ كذا؟ ما حَمَلَكَ على ما صنَعْتَ يومَ كذا؟

وكتبَ عمرُ بنُ الخطَّابِ إلى بعضِ عمَّالِه: «حاسِبْ نفسَكَ في الرَّخاءِ قبلَ حسابِ الشِّدَّةِ؛ فإنَّ مَن حَاسَبَ نفسَهُ في لرَّخاءِ قبلَ حِسابِ الشِّدَّةِ عادَ أمرُهُ إلى الرِّضى والغِبْطَةِ، ومَن ألْهَتْهُ حياتُه وشَغَلَتْهُ أهواؤهُ؛ عادَ أمْرُهُ إلى النَّدامَةِ والحسارةِ».

ومُحاسَبَةُ النَّفْسِ نوعانِ:

نوعٌ قبلَ العَمَلِ، ونوعٌ بعدَه:

فأمَّا النَّوعُ الأوَّلُ: فهو أنْ يَقِفَ عندَ أوَّلِ همِّهِ وإرادتِه، ولا يُبادِرَ بالعمَلِ حتى يتبَيَّنَ لهُ رُجْحانُهُ على تركِه.

قالَ الحسنُ رحمه الله: «رَحِمَ اللهُ عبداً وَقَفَ عندَ همِّهِ، فإنْ كانَ للهِ مَضى، وإنْ كانَ لغيرِه تأخَّرَ».

وشرحَ هٰذا بعضُهُم، فقالَ: إذا تحرَّكَتِ النَّفسُ لعملٍ مِن الأعمالِ، وهَمَّ

---

(١) كلمة تُقال عند الألم المفاجئ.

بهِ العبدُ؛ وَقَفَ أَوَّلاً ونَظَرَ: هل ذٰلك العملُ مقدورٌ لهُ أو غيرُ مقدورٍ ولا مستطاعٍ؟

فإنْ لمْ يَكُنْ مَقدوراً لم يُقدِمْ عليهِ.

وإنْ كانَ مقدوراً وَقَفَ وَقْفَةً أُخرى ونظرَ: هَلْ فِعْلُهُ خيرٌ لهُ مِن تركِهِ، أو تَرْكُهُ خيرٌ لهُ مِن فِعْلِه؟ فإنْ كانَ الثاني؛ تَرَكَهُ ولم يُقْدِمْ عليهِ.

وإنْ كانَ الأَوَّلُ وَقَفَ وقفَةً ثالثةً، ونظرَ: هل الباعثُ عليهِ إرادةُ وجهِ اللهِ ﷻ وثوابِهِ أو إرادةُ الجاهِ والثَّناءِ والمالِ مِن المَخْلوقِ[1]؟ فإنْ كانَ الثاني لم يُقْدِمْ عليهِ، وإنْ أَفْضَى بهِ إلى مطلوبِهِ؛ لئلَّا تَعتادَ النَّفْسُ الشِّرْكَ، ويخفَّ عليها العملُ لغير اللهِ، فبِقَدْرِ ما يَخِفُّ عليها ذٰلك يَثْقُلُ عليها العَمَلُ للهِ تعالى، حتَّى يصيرَ أَثقَلَ شيءٍ عليها.

وإنْ كانَ الأَوَّلُ وَقَفَ وَقْفَةً أُخرى، ونظرَ: هل هُو مُعانٌ عليهِ، وله أعوانٌ يُساعِدونَهُ ويَنْصُرونَه إذا كانَ العملُ محتاجاً إلى ذٰلك أم لا؟ فإنْ لم يَكُنْ لهُ أعوانٌ أمسَكَ عنهُ؛ كما أَمْسَكَ النبيُّ ﷺ عن الجهادِ بمكَّةَ حتى صارَ لهُ شَوْكَةٌ وأنصارٌ[2].

وإنْ وَجَدَهُ مُعاناً عليهِ فليُقْدِمْ عليهِ؛ فإنَّهُ منصورٌ.

ولا يُفَوِّتُ النَّجاحَ إلَّا مَنْ فوَّتَ خَصْلَةً مِن هٰذه الخِصالِ، وإلَّا فَمَعَ اجتماعِها لا يفوتُهُ النَّجاحُ.

فهٰذه أربعُ مقاماتٍ يحتاجُ إلى محاسَبَةِ نفسِه عليها قبلَ العملِ، فما كلُّ ما يريدُ العبدُ فِعْلَهُ يكونُ مقدوراً لهُ، ولا كلُّ ما يكونُ مقدوراً لهُ يكونُ فِعْلُهُ

---

(١) ودقائق النفوس هذه تخفى على كثيرٍ من الناس الذي يُضيِّعون حساباتهم تَبَعاً لنظرتهم الدنيويّة، ومنطلقاتهم المعيشيَّة، فلا الثمرةَ ينظرون.. ولا النيَّة يحسِّنون!!

(٢) فلْيَعْتَبِر بهذه النفيسة المُسْتَعْجِلون، ولْيَعْلَموا أنَّ عَجَلَتَهُم ستُودي بهم إلى الهاوية إن لم يتَّقوا الله سبحانه، ويسيروا وَفْق نهج رسول الله ﷺ.

خيراً لهُ مِن تَرْكِه. ولا كلُّ ما يكونُ فِعْلُهُ خيراً لهُ مِنْ تَرْكِه يفْعَلُهُ للهِ، ولا كُلُّ ما يفعَلُهُ لله يكونُ معاناً عليهِ، فإذا حَاسَبَ نفسَهُ على ذلك تَبيَّنَ لهُ ما يُقْدِمُ عليهِ، وما يُحْجِمُ عنهُ.

النَّوعُ الثَّاني: مُحاسَبَةُ النَّفْسِ بعدَ العَمَلِ:

وهو ثلاثةُ أنواعٍ:

أَحَدُها: مُحاسَبَتُها على طاعةٍ قصَّرَتْ فيها مِن حَقِّ اللهِ تعالى، فلم تُوقِعْها على الوجهِ الَّذي ينبغي.

وحقُّ اللهِ تعالى في الطَّاعةِ ستَّةُ أُمورٍ تقدَّمَتْ، وهي:

الإخلاصُ في العملِ.

والنَّصيحَةُ للهِ فيهِ.

ومُتابعةُ الرَّسولِ فيه.

وشُهودُ مَشْهدِ الإحسانِ فيه.

وشُهودُ مِنَّةِ اللهِ عليهِ.

وشُهودُ تقصيرِه فيه بعدَ ذلك كلِّه.

فيُحاسِبُ نَفْسَهُ: هَلْ وَفَّى هٰذه المقاماتِ حقَّها؟ وهل أتى بها في هٰذه الطَّاعةِ؟

الثَّاني: أَنْ يُحاسِبَ نفسَهُ على كلِّ عملٍ كانَ تَرْكُه خيراً لهُ مِن فِعْلِهِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يُحاسِبَ نفسَهُ على أَمْرٍ مُباحٍ أو مُعتادٍ: لِمَ فَعَلَهُ؟ وهل أرادَ بِهِ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ؟ فيكونَ رابحاً، أو أرادَ بِهِ الدُّنيا وعاجِلَها، فيَخْسَرَ ذٰلك الرِّبحَ ويفوتَهُ الظَّفَرُ بِهِ!

● ضررُ تَركِ المُحاسَبة:

وأضَرُّ مَا عليهِ الإهمالُ، وتركُ المُحاسَبَةِ، والاسترسالُ، وتسهيلُ

الأمورِ، وتمشيَتُها؛ فإنَّ هٰذا يَؤولُ بهِ إلى الهلاكِ، وهٰذه حالُ أهلِ الغُرورِ؛ يُغْمِضُ عينَيْهِ عنِ العواقِبِ، ويُمَشِّي الحال، ويَتَّكِلُ على العفوِ، فيُهْمِلُ مُحاسَبَةَ نفسِهِ والنَّظَرَ في العاقبةِ، وإذا فَعَلَ ذٰلك سَهُلَ عليهِ مواقَعَةُ الذُّنوبِ، وأَنِسَ بها، وعَسُرَ عليه فِطامُها، ولو حَضَرَهُ رُشْدُهُ لَعَلِمَ أنَّ الحِمْيَةَ أسهَلُ مِن الفِطامِ، وتركِ المألوفِ والمُعتادِ.

وجِماعُ ذٰلك: أنْ يُحاسِبَ نفسَهُ أوَّلاً على الفرائِضِ، فإنْ تَذَكَّرَ فيها نَقْصاً تَدارَكَهُ، إمَّا بقضاءٍ أو إصلاحٍ.

ثمَّ يحاسِبُها على المناهي، فإنْ عَرَفَ أنَّهُ ارتَكَبَ منها شيئاً تدارَكَهُ بالتَّوبةِ والاستغفارِ والحسناتِ الماحِيَةِ.

ثمَّ يحاسِبُ نفسَهُ على الغَفْلَةِ، فإنْ كانَ قد غَفِلَ عمَّا خُلِقَ لهُ؛ تداركَهُ بالذِّكْرِ والإقبالِ على اللهِ تعالى.

ثمَّ يحاسِبها بما تكلَّمَ به، أو مَشَتْ إليهِ رجلاهُ، أو بَطَشَتْ يداهُ، أو سمعَتْهُ أُذناهُ: ماذا أرادَتْ بهٰذا؟ ولمنْ فَعَلَتْهُ؟ وعلى أيِّ وجهٍ فعلَتْهُ؟

فالأوَّلُ: سؤالٌ عن الإخلاصِ.

والثَّاني: سؤالٌ عن المُتابَعَةِ.

وقالَ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقالَ تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

وقالَ تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

فإذا سُئِلَ الصَّادِقونَ وحُوسِبوا على صِدْقِهم فما الظَّنُّ بالكاذِبينَ؟

قالَ مُقاتِلٌ: «يقولُ تعالى: أخذْنا مِيثاقَهُم لكَيْ يسأَلَ اللهُ الصَّادِقينَ ـ يعني: النَّبيِّينَ ـ عن تَبليغِ الرِّسالةِ».

وقالَ مُجاهِدٌ: «يسألُ المُبَلِّغينَ المؤدّينَ عَنِ الرُّسُلِ - يعني: هَلْ بَلَّغُوا عنهُم - كما يسألُ الرُّسُلَ هل بَلَّغُوا عنِ اللهِ تعالى؟»[(١)].

والتَّحقيقُ: أنَّ الآيةَ تتناولُ هٰذا وهٰذا، فالصَّادِقونَ هُمُ الرُّسُلُ، والمبلِّغونَ عنهُم، فيُسْأَلُ الرُّسُلُ عن التَّبليغِ، ويُسْأَلُ المبلِّغونَ عنهُم ما بَلَّغَهُم الرُّسُلُ، ثمَّ يَسْأَلُ الذينَ بَلَغَتْهُمُ الرِّسالةُ ماذا أجابُوا المُرْسَلينَ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥].

فإذا كانَ العبدُ مسؤولاً ومُحاسَباً على كلِّ شيءٍ حتى عَلى سَمْعِهِ وبَصَرِهِ وقَلْبِهِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ فهُو حقيقٌ أنْ يُحاسِبَ نفسَهُ قبلَ أنْ يُناقَشَ الحسابَ[(٢)].

وقد دلَّ على وُجوبِ محاسَبَةِ النَّفسِ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، يقولُ تعالى: لِيَنْظُرْ أحدُكُم ما قَدَّمَ ليومِ القيامةِ مِن الأعمالِ: أمِنَ الصَّالحاتِ التي تُنْجيهِ، أم مِن السَّيِّئاتِ التي تُوبِقُهُ.

قالَ قَتادَةُ: «ما زالَ ربُّكُم يُقَرِّبُ الساعةَ حَتَّى جَعَلَها كَغَدٍ».

والمقصودُ أنَّ صلاحَ القَلْبِ بمحاسبةِ النَّفْسِ، وفسادَهُ بإهمالِها والاسترسالِ معَها.

---

(١) أخرجه الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم؛ كما في «الدر المنثور» (٦/٥٦٨).

(٢) روى البخاريُّ (١/١٧٦)، ومسلم (٢٨٧٦)؛ عن ابن أبي مُلَيكة أنه قال: إن عائشة كانت لا تسمعُ شيئاً لا تعرفُه إلا راجعت فيه حتى تَعْرِفَه، وإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَن نُوقِش الحسابَ عُذِّب**»، فقالت: أليس يقول الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩]؟ فقال: «**إنما ذلك العَرْض، وليس أحدٌ يُحاسَب يوم القيامة إلا هَلَك**».

وفي محاسبةِ النَّفسِ عِدَّةُ مصالحَ:

منها: الاطِّلاعُ على عُيوبِها، ومَن لم يطَّلِعْ على عَيْبِ نفسِهِ؛ لم يُمْكِنْهُ إزالتُه، فإذا اطَّلَعَ على عَيْبِها؛ مَقَتَها في ذاتِ اللهِ تعالى.

وقد روى الإمامُ أحمدُ[١] عن أبي الدَّرداءِ ﷺ؛ قالَ: «لا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كلَّ الفِقْهِ حتَّى يَمْقُتَ النَّاسَ في جَنْبِ اللهِ، ثم يَرْجِعُ إلى نفسِهِ فيكونَ لها أشدَّ مَقْتاً».

وقالَ مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ: «لولا ما أعْلَمَ مِن نَفْسي لَقَلَيْتُ[٢] النَّاسَ».

وقالَ أيُّوبُ السَّخْتِيانيُّ: «إذا ذُكِرَ الصَّالِحونَ كنتُ عنهُم بمَعْزِلٍ».

ولما احْتُضِرَ سفيانُ الثَّوريُّ؛ دَخَلَ عليهِ أبو الأشهبِ[٣] وحمَّادُ بنُ سَلَمة، فقالَ لهُ حمَّادُ: يا أبا عبد اللهِ! أليسَ قد أمِنْتَ ممَّا كنتَ تخافُه؟ وتقْدَمُ على مَن ترجوهُ، وهو أرْحَمُ الرَّاحمينَ. فقالَ: يا أبا سَلَمة! أتَطْمَعُ لِمثْلي أنْ ينجُوَ مِن النَّارِ؟ قالَ: «إيْ واللهِ؛ إنِّي لأرجو لكَ ذٰلك».

وقالَ يونُسُ بنُ عُبيدٍ: «إنِّي لأجِدُ مئةَ خَصْلَةٍ مِن خِصالِ الخيرِ، ما أعْلَمُ أنَّ في نفسي منها واحدةً».

وقالَ محمَّدُ بنُ واسعٍ: «لو كانَ للذُّنوبِ ريحٌ؛ ما قَدِرَ أحدٌ يجلِسُ إليَّ»[٤].

وذُكِرَ داودُ الطَّائيُّ عندَ بعضِ الأمراءِ، فأثْنَوا عليهِ، فقالَ: «لو يَعْلَمُ النَّاسُ بعضَ ما نحنُ فيهِ؛ ما ذلَّ لنا لسانٌ بذِكْرِ خيرٍ أبداً».

وقالَ أبو حفصٍ: «مَن لم يَتَّهِمْ نَفْسَه على دوامِ الأوقاتِ، ولم يُخالِفْها

---

(١) في «الزهد»، وليس هو في المطبوع منه، إذ هو ناقص.
(٢) هَجَرْتُهم، وفارقْتُهم.
(٣) هو جعفر بن حيان العُطارِدي، توفي سنة (١٦٢هـ)، ترجمتُه في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦٨).
(٤) انظر ـ رحمك الله ـ هَضْمَهُم أنفُسَهم، وتعظيمَنا أنفُسَنا!

في جميعِ الأحوالِ، ولم يَجُرَّها إلى مكروهِها في سائرِ أوقاتِه؛ كانَ مغروراً، ومَن نَظَرَ إليها باستحسانِ شيءٍ منها؛ فقد أهْلَكَها».

فالنَّفْسُ داعيةٌ إلى المَهالِكِ، مُعينَةٌ للأعداءِ، طامِحَةٌ إلى كلِّ قبيحٍ، مُتَّبِعَةٌ لكُلِّ سوءٍ، فهي تَجْري بطَبْعِها في ميدانِ المُخالَفَةِ.

فالنِّعْمَةُ التي لا خَطَر لها: الخروجُ منها، والتَّخَلُّصُ مِن رِقِّها؛ فإنَّها أَعظمُ حجابٍ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالى، وأعرَفُ النَّاسِ بها أشدُّهُم إزراءً عليها، ومَقْتاً لها.

ومَقْتُ النَّفسِ في ذاتِ اللهِ مِن صفاتِ الصِّدِّيقينَ. ويدنو العبدُ بِهِ مِن اللهِ تعالى في لحظةٍ واحدةٍ أضعافَ أضعافِ ما يَدنو بالعملِ.

ومِن فوائِدِ محاسبةِ النَّفْسِ: أنَّهُ يعرِفُ بذلك حقَّ اللهِ تعالى، ومَن لم يَعْرِفْ حقَّ اللهِ تعالى عليهِ؛ فإنَّ عبادَتَهُ لا تكادُ تُجْدي عليه، وهي قليلةُ المنفعَةِ جدّاً.

فمِنْ أنْفَعِ ما للقلبِ النَّظَرُ في حقِّ اللهِ على العبادِ؛ فإنَّ ذلك يورِثُهُ مَقْتَ نفسِه، والإزراءَ عليها، ويُخلِّصُه مِن العُجْبِ ورُؤيَةِ العملِ، ويفتَحُ لهُ بابَ الخضوعِ والذُّلِّ والانكسارِ بينَ يدي ربِّهِ، واليأسِ مِن نفسِهِ، وأنَّ النَّجاةَ لا تحصُلُ لَهُ إلَّا بعفوِ اللهِ، ومغفرَتِه ورحمتِه، فإنَّ مِن حقِّهِ أنْ يُطاعَ ولا يُعْصى، وأنْ يُذْكَرَ فلا يُنْسَى، وأنْ يُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ.

فَمَنْ نَظَرَ في هٰذا الحقِّ الذي لربِّهِ عَلِمَ علمَ اليقينِ أنَّهُ غيرُ مؤدٍّ له كما ينبغي، وأنَّهُ لا يسعهُ إلَّا العفوُ والمغفرةُ، وأنَّهُ إنْ أُحيلَ على عملِهِ هَلَكَ.

فهٰذا محلُّ نظرِ أهلِ المعرفةِ باللهِ تعالى وبنفوسِهم، وهٰذا الذي أيْأَسَهُم مِن أنْفُسِهم، وعلَّق رجاءَهُم كلَّهُ بعفوِ اللهِ ورحمتِه.

وإذا تأمَّلْتَ حالَ أكثرِ النَّاسِ؛ وَجَدْتَهُم بضدِّ ذلك، ينظُرونَ في حقِّهم على اللهِ، ولا ينظرُونَ في حَقِّ اللهِ عليهِم. ومِن ها هُنا انْقَطَعوا عن اللهِ، وحُجِبتْ قلوبُهُم عن معرفتِه ومحبَّتِه والشَّوقِ إلى لقائِهِ والتَّنَعُّمِ بذِكرِه وهٰذا غايةُ جهلِ الإنسانِ بربِّهِ وبنفسِهِ.

فمحاسَبَةُ النَّفْسِ هي نظرُ العَبْدِ في حقِّ اللهِ عليه أَوَّلاً.

ثمَّ نَظَرَهُ: هل قامَ بِهِ كما ينبغي ثانياً.

وأَفْضَلُ الفِكْرِ الفِكْرُ في ذٰلك، فإِنَّهُ يُسَيِّرُ القلبَ إلى اللهِ ويَطْرَحُهُ بينَ يديه ذَليلاً، خاضِعاً مُنْكَسِراً كَسْراً فيه جَبْرُه، ومفتقراً فقراً فيهِ غِناهُ، وذليلاً ذُلًّا فيهِ عِزُّهُ، ولو عَمِلَ مِن الأعمالِ، ما عساهُ أَنْ يعْمَلَ، فإِنَّهُ إذا فاتَه هٰذا؛ فالذي فاتَه من البرِّ أَفضلُ مِن الَّذي أَتى بِهِ.

• ومِن فوائِدِ نَظَرِ العبدِ في حقِّ اللهِ عليهِ:

أنْ لا يَتْرُكَهُ ذٰلك يُدِلُّ بعملٍ أصلاً، كائناً ما كانَ، ومَن أدلَّ بعملِهِ لم يَصْعَدْ إلى اللهِ تعالى، كما ذكرَ الإمامُ أحمدُ عن بعضِ أهلِ العلم باللهِ أَنَّهُ قالَ لهُ رجلٌ: إنِّي لأقومُ في صلاتي فأَبْكي حتى يكادُ يَنْبُتُ البَقْلُ من دُموعي. فقالَ لهُ: إنَّكَ إنْ تَضْحَكْ وأنتَ تعترِفُ للهِ بخطيئتِكَ خيرٌ من أَنْ تبكي وأَنْتَ مُدِلٌّ بعَمَلِكَ؛ فإنَّ صلاةَ الدَّالِ لا تصعَدُ فوقَهُ.

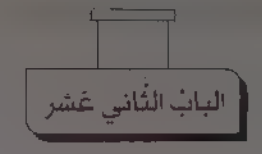
فقالَ لهُ: أَوْصِني. قالَ: عليكَ بالزُّهْدِ في الدُّنيا وأَنْ لا تُنازِعَها أَهْلَها، وأَنْ تكونَ كالنَّحْلَةِ، إنْ أَكَلَتْ طيّباً، وإِنْ وَضَعَتْ طيِّباً، وإِنْ وَقَعَتْ على عُودٍ لم تَضُرَّهُ ولم تَكْسِرْهُ، وأُوصيكَ بالنُّصْحِ للهِ ﷻ نُصْحَ الكَلْبِ لأهلِهِ؛ فإنَّهُم يُجيّعونَه ويطرُدونَه ويأبى إلَّا أنْ يحوطَهُم وينصَحَهُم[1]!

---

(١) وذلك لشديد وفائه. ولابن المَرْزُبان رسالةٌ لطيفةٌ عنوانها: «تفضيل الكلاب على كثير ممَّن لبس الثياب» مطبوعة قديماً. وقد جدَّد طبعه قريباً (بعضهم).

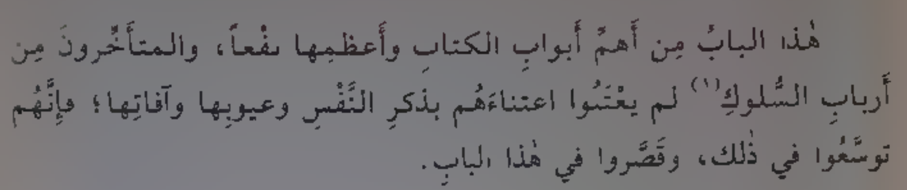








في عِلاجِ مَرَضِ القَلْبِ بالشَّيطانِ



هٰذا البابُ مِن أهمِّ أبوابِ الكتابِ وأعظمِها نفْعاً، والمتأخِّرونَ مِن أربابِ السُّلوكِ[١] لم يعْتَنُوا اعتناءَهُم بذكرِ النَّفْسِ وعيوبِها وآفاتِها؛ فإنَّهُم توسَّعُوا في ذٰلك، وقَصَّروا في هٰذا البابِ.

ومَن تأمَّلَ القرآنَ والسُّنَّةِ وجَدَ اعتناءَهُما بذكرِ الشَّيطانِ وكَيْدِه ومحاربته أكثر مِن ذِكرِ النَّفْسِ؛ فإنَّ النَّفْسَ المذمومَة ذُكِرَتْ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، واللَّوَّامَةُ في قولِه: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وذُكِرَتِ النَّفْسُ المذمومَةُ في قولِه: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

وأمَّا الشَّيطانُ؛ فذُكِرَ في عدَّةِ مواضِعَ:

فتحذيرُ الرَّبِّ تَعالى لعبادِهِ منهُ جاءَ أكثرَ مِن تحذيرِهِ مِن النَّفْسِ، وهذا هو الَّذي لا ينبغي غيرُهُ؛ فإنَّ شرَّ النَّفْسِ وفسادَها ينشأُ مِن وَسْوَسَتِه، فهي مركَبُه وموضِعُ شَرِّه ومحلُّ طاعتِه.

وقد أمَرَ اللهُ سُبحانَهُ بالاستعاذَةِ منهُ عندَ قراءَةِ القرآنِ وغيرِ ذٰلك، وهذا لشدَّةِ الحاجَةِ إلى التَّعَوُّذِ منهُ، ولم يأْمُرْ بالاستعاذَةِ مِنَ النَّفْسِ في موضعٍ واحدٍ، وإنَّما جاءَتِ الاستعاذَةُ مِن شرِّها في خُطْبَةِ الحاجةِ في قولِهِ ﷺ: «**ونَعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أَنْفُسِنا ومِن سَيِّئاتِ أعمالِنا**» كما تقدَّم[٢].

وقد جَمَعَ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليه وآلِهِ وسلَّمَ بينَ الاستعاذَةِ مِن

---

(١) وهم الصوفية، وهذا هو سببُ ضلالِهم، ومنشأُ انحرافِهم، وكذا من سايَرَهُم وشابَهَهُم!

(٢) انظر (ص١١٢).

الأمرينِ في الحديثِ الذي رواهُ التِّرمذيُّ[١] وصحَّحَهُ عن أبي هُريرةَ ﷺ: أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ قالَ: يا رسولَ اللهِ! عَلِّمْني شيئاً أقولُهُ إذا أصْبَحْتُ وإذا أمْسَيْتُ، قالَ: «**قُلْ: اللهُمَّ عالِمَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ، فاطرَ السَّماواتِ والأرضِ، ربَّ كلِّ شيءٍ ومَليكَهُ، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا أنتَ، أعوذُ بكَ مِن شرِّ نَفْسي وشَرِّ الشَّيطانِ وشِرْكِه، وأنْ أقتَرِفَ على نفسي سوءاً، أو أجُرَّهُ إلى مُسْلِمٍ. قُلهُ إذا أصْبَحْتَ، وإذا أمسيتَ، وإذا أخذتَ مَضْجَعَكَ**».

فقد تَضَمَّنَ هٰذا الحديثُ الشَّريفُ الاستعاذَةَ مِن الشَّرِّ وأسبابِه وغايَتِه، فإنَّ الشَّرَّ كلَّهُ إمَّا أنْ يَصْدُرَ مِن النَّفسِ أو مِن الشَّيطانِ، وغايَتُه: إمَّا أنْ تعودَ على العامِلِ، أو على أخيهِ المسلمِ.

فتضمَّنَ الحديثُ مَصْدَرَي الشَّرِّ اللَّذينِ يَصْدُرُ عنهما، وغايتَيْهِ الَّتينِ يَصِلُ إليهِما.

○ الاستعاذةُ باللهِ مِن الشَّيطانِ:

قالَ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠].

ومعنى: «استعِذْ باللهِ»: امْتَنِعْ واعتَصِمْ بِهِ والجأْ إليه.

ومصدَرُهُ العَوْذُ[٢]، والعِياذُ، والمَعاذُ، وغالبُ استعمالِهِ في المستعاذِ بِه.

ومنهُ قولُه صلَّى اللهُ تعالى عليه وآلِهِ وسلَّم: «**لقدْ عُذْتِ بِمَعاذٍ**»[٣].

وأصلُ اللَّفْظَةِ مِن اللَّجَإِ إلى الشَّيْءِ والاقترابِ منهُ، ومِن كلامِ العربِ: «أطيبُ اللحْمِ عوذُهُ»؛ أيْ الذي قد عاذَ بالعَظْمِ واتَّصلَ بِهِ. وناقَةٌ عائِذٌ: يَعوذُ بها وَلَدُها، وجَمْعُها: «عُوذٌ»؛ كحُمْر.

---

(١) برقم (٣٦٣٢)، وأخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والدارمي (٢/٦٨٨)؛ بسند صحيح.

(٢) «القاموس المحيط» (ص٤٢٨).

(٣) رواه البخاري (٥٢٥٥) عن عائشة.

ومنهُ في حديثِ الحُدَيبِيَةِ: «معهُم العُوذُ المطافيلُ»[1].

والمطافيلُ: جمعُ مُطْفِلٍ، وهي النَّاقةُ التي معها فَصيلُها.

قالتْ طائفةٌ ـ منهُم صاحِبُ «جامعِ الأصولِ»[2] ـ استعارَ ذٰلك للنِّساءِ؛ أيْ: معهُم النِّساءُ وأطفالُهُم!.

ولا حاجَةَ إلى ذٰلك، بل اللَّفْظُ على حقيقَتِهِ؛ أي: قد خَرَجوا إليكَ بدوابِّهِم ومراكِبِهِم حتى أخرَجُوا معهُم النُّوقَ التي معها أولادُها، فأَمَرَ سبحانَهُ بالاستعاذَةِ بِهِ مِن الشَّيطانِ عندَ قراءةِ القرآنِ، وفي ذٰلك وجوهٌ:

منها: أنَّ القرآنَ شفاءٌ لما في الصُّدورِ يُذْهِبُ لما يُلقيهِ الشَّيطانُ فيها مِن الوساوِسِ والشَّهَواتِ والإراداتِ الفاسِدَةِ، فهو دواءٌ لما أَمَرَهُ فيها الشَّيطانُ، فأُمِرَ أنْ يَطْرُدَ مادَّةَ الدَّاءِ ويُخْلِيَ منهُ القَلْبَ لِيصادِفَ الدَّواءُ محلّاً خالياً، فيتمكَّنَ منهُ، ويُؤثِّر فيهِ؛ كما قيلَ:

أَتَاني هواها قبلَ أنْ أعْرِفَ الهَوَى   فَصادَفَ قَلْباً خالِياً فتَمَكَّنَا

فيَجيءُ هـٰذا الدَّواءُ الشَّافي إلى القلبِ قد خَلا مِن مُزاحِمٍ ومُضادٍّ لهُ فينجَعُ فيهِ.

ومِنها: أنَّ الملائكةَ تدنُو مِن قارئِ القرآنِ وتستمِعُ لقراءَتِه، كما في حديثِ أُسَيْدِ بنِ حُضَيْرٍ لمَّا كانَ يقرأُ ورأى مِثْلَ الظُّلَّةِ فيها مثل المصابيح، فقالَ عليه الصَّلاةُ والسلامُ: **«تلكَ الملائكةُ»**[3]، والشَّيطانُ ضِدُّ المَلَكِ عدُوُّهُ.

فأُمِرَ القارئُ أنْ يطلُبَ مِن اللهِ تعالى مباعَدَةَ عدوِّهِ عنهُ حتى يحضُرَهُ خاصُّ ملائكَتِهِ، فهـٰذه منزلةٌ لا يجتَمِعُ فيها الملائِكَةُ والشَّياطينُ.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١) عن المِسْوَر بن مَخْرَمة.

(٢) هو الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجَزَري، المتوفى سنة (٦٠٦هـ)، ترجمتُه في «سير أعلام النبلاء» (٢١/٤٨٨). وانظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/١٣٠) له.

(٣) رواه مسلم (٧٩٦) عن أبي سعيد، وعلَّقه البخاري (٩/٥٦).

ومنها: أَنَّ الشَّيطان يُجْلِبُ على القارئِ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، حتى يَشْغَلَهُ عن المقصودِ بالقرآنِ، وهو تدبُّرُهُ، وتفهُّمُه ومعرفةُ ما أرادَ بِهِ المتكلِّمُ بهِ سبحانَهُ، فيحرِصُ بجهْدِهِ على أَنْ يحولَ بينَ قَلْبِهِ وبينَ مقصودِ القرآنِ؛ فلا يَكْمُلُ انتفاعُ القارئِ بِهِ، فأُمِرَ عندَ الشُّروعِ أَنْ يستعيذَ باللهِ ﷻ منهُ.

ومنها: أَنَّ القارئَ يُناجِي اللهَ تعالى بكلامِه[1]، والشَّيطانُ إِنَّما قراءَتُه الشِّعْرُ والغناءُ، فأُمِرَ القارئُ أَنْ يَطْرُدَهُ بالاستعاذةِ عندَ مفاجأةِ اللهِ تعالى واستماعِ الرَّبِّ قراءَتَهُ.

ومنها: أَنَّ اللهَ سبحانَه أخبرَ أَنَّهُ ما أَرْسَلَ مِن رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إِذا تَمَنَّى أَلقى الشَّيطانُ في أُمْنِيَّتِه[2].

والسَّلَفُ كلُّهُم على أَنَّ المعنى: إذا تَلا أَلقى الشَّيطانُ في تلاوتِه.

قالَ الشَّاعِرُ في عُثمانَ:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وآخِرَهُ لاقَى حِمامَ المَقادِرِ

فإذا كانَ هٰذا فِعْلَهُ معَ الرُّسُلِ ﷺ، فكيفَ بغيرِهم[3]؟!.

ولهٰذا يُغَلِّطُ القارئَ تارةً ويخلِطُ عليهِ القراءَةَ، ويُشوِّشُها عليهِ، فيخبِطُ عليه لسانَه، أو يشوِّشُ عليهِ ذِهْنَهُ وقَلْبَهُ، فإذا حَضَرَ عندَ القراءةِ؛ لمْ يَعْدَمِ القارئُ هٰذا أَوْ هٰذا، وربَّما جمعَهُما لهُ، فكانَ مِن أَهَمِّ الأمورِ: الاستعاذَةُ باللهِ تعالى منهُ.

---

(١) روى البخاري (٩/ ٦٠)، ومسلم (٧٩٢)؛ عن أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «ما أذِنَ الله لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ أن يتغنَّى بالقُرآن».

(٢) يُشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ...﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

(٣) وفي كتابي: «دلائل التحقيق لإبطال قصة الغرانيق» تفصيلٌ مطوَّل في هذه المسألة الحليلة، وفيه الردُّ على بعض زنادقة العصر ممَّن طعن في القرآن العظيم ونبيِّنا الكريم ﷺ.

ومنها: أنَّ الشَّيطانَ أحرَصُ ما يكونُ على الإنسانِ عندَما يَهُمُّ بالخيرِ، أوْ يدخُلُ فيهِ، فهو يشتَدُّ عليهِ حينئذٍ ليقْطَعَهُ عنهُ.

وَفي «الصَّحيحِ»(١) عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ شيطاناً تَفَلَّتَ عليَّ البارحةَ، فأرادَ أنْ يَقْطَعَ عليَّ صَلاتي...» الحديث.

وكُلَّما كانَ الفعلُ أنفَعَ للعبدِ وأحبَّ إلى اللهِ تعالى كانَ اعتراضُ الشَّيطانِ لهُ أكثرَ.

وفي «مسندِ الإمام أحمدَ» مِن(٢) حديثِ سَبْرَةَ بنِ أبي الفاكِهِ أنَّهُ سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: **«إنَّ الشَّيطانَ قَعَدَ لابنِ آدَمَ بأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بطريقِ الإسلامِ، فقالَ: أتُسْلِمُ وتَذَرُ دِينَكَ ودِينَ آبائِكَ وآباءِ آبائِكَ، فعصاهُ، فأَسْلَمَ، ثم قَعَدَ لَهُ بطريقِ الهِجْرَةِ، فقالَ: أتُهاجِرُ وتَذَرُ أرضَكَ وسماءَكَ؟ وإنَّما مثلُ المهاجرِ كالفَرسِ في الطِّوَلِ، فعصاهُ وهاجَرَ، ثم قَعَدَ لهُ بطريقِ الجهادِ، وهو جهادُ النَّفْسِ والمالِ، فقالَ: تُقاتِلُ فتُقْتَلُ، فتُنْكَحَ المرأةُ ويُقَسَّمُ المالُ؟ قالَ: فعصاهُ فجاهَدَ»**.

فالشَّيطانُ بالرَّصيدِ للإنسانِ على طريقِ كلِّ خيرٍ.

وقالَ منصورٌ عن مجاهدٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ما مِن رفقةٍ تخرُجُ إلى مكَّةَ إلَّا جَهَّزَ معهُم إبليسُ مِثْلَ عِدَّتِهم». رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ في «تفسيرِه».

فهو بالرَّصَدِ، ولا سيَّما عندَ قراءةِ القرآنِ، فأَمَرَ سبحانَهُ العبدَ أنْ يُحارِبَ عدوَّهُ الذي يقطَعُ عليهِ الطَّريقَ، ويستعيذَ باللهِ تعالى منهُ أوَّلاً، ثم يأخُذَ في السَّيْرِ، كما أنَّ المسافرَ إذا عَرَضَ لَهُ قاطعُ طريقٍ اشتَغَلَ بدَفْعِهِ، ثمَّ اندَفَعَ في سيْرِه.

ومنها: أنَّ الاستعاذَةَ قبلَ القراءةِ عنوانٌ وإعلامٌ بأنَّ المأتِيَّ بِهِ بعدَها

---

(١) رواه البخاري (١/٤٦١)، ومسلم (٥٤١)؛ عن أبي هُريرة.

(٢) (٣/٤٨٣)، ورواه النَّسائي (٦/٢١ ـ ٢٢)، وابن حبَّان (١٦٠١)، وسنده حسنٌ. وقد وَقَعَ في السند اختلافٌ بيَّنْتُه في «الإتمام لتخريج أحاديث المسند الإمام» (١٦٠٠٠) يسَّر الله إتمامه.

القرآنُ، ولهذا لم تُشْرَعِ الاستعاذةُ بينَ يدَي كلامٍ غيره، بل الاستعاذةُ مقدِّمةٌ وتنبيهٌ للسَّامعِ أنَّ الذي يأتي بعدَها هو التِّلاوةُ، فإذا سَمِعَ السَّامِعُ الاستعاذةَ استعَدَّ لاستماعِ كلامِ اللهِ تعالى، ثم شُرِعَ ذٰلك للقارئ، وإنْ كانَ وحْدَهُ؛ لما ذَكَرْنا مِن الحِكَمِ وغيرِها.

فهٰذه بعضُ فوائِدِ الاستعاذَةِ.

وفي «المسندِ» والتِّرمذيِّ(١) مِن حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ قالَ: «كانَ النبيُّ ﷺ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ استفْتَحَ، ثمَّ يقولُ: أعوذُ باللهِ السَّميعِ العَليمِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ مِن هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ».

وقد جاءَ في الحديثِ تفسيرُ ذٰلك؛ قالَ: «وهَمْزِهِ المُوتَةُ، ونَفْخِهِ: الكِبْرُ، ونَفْثِهِ: الشِّعْرُ»(٢).

وقالَ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

والهَمَزات: جمعُ هَمْزةٍ؛ كتَمرات وتَمْرة، وأصلُ الهمزِ الدَّفْعُ.

قالَ أبو عُبيدٍ(٣) عن الكسائيِّ: «هَمَزْتُهُ، ولَمَزْتُهُ، ولَهَزْتُهُ، ونَهَزْتُهُ: إذا دَفَعْتَه».

والتَّحقيقُ أنَّهُ دَفْعٌ بنَخْزٍ، وغَمْزٌ يشبِهُ الطَّعْنَ، فهو دَفْعٌ خاصٌّ، فهَمَزاتُ الشَّياطينِ: دَفْعُهُم الوساوسَ والإغواءَ إلى القلبِ.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٥٠)، والترمذي (٢٤٢)، وأبو داود (٧٧٥)، وابن ماجه (٨٠٤)؛ من طريق علي بن علي الرفاعي عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخُدري، وسنده حسن. وترى الكلام عليه موسَّعاً في «الإتمام» (١١٤٩١).

(٢) رواه الطيالسي (٩٤٧)، وأبو داود (٧١٤)، وابن ماجه (٨٠٧)؛ عن عَمْرو بن مُرَّة من قوله. وعلَّقه أحمد (٦/ ١٥٦) عن أبي سَلَمة يُنميه إلى النبي ﷺ مرسلاً، وهو من مراسيل «المسند» القليلة! وانظر: «إرواء الغليل» (٣٤١) لشيخنا الألباني، و«الإتمام» (٢٥٢٦٦).

(٣) في «غريب الحديث» (٣/ ٧٧ ـ ٧٨).

قالَ ابنُ عبَّاسٍ والحسنُ: «هَمَزاتُ الشَّياطينِ: نَزغاتُهُم ووساوِسُهُم».

وفُسِّرتْ هَمزاتُهُم بنفخِهِمْ ونَفْثِهِم.

وهٰذا قولُ مجاهدٍ.

وفُسِّرَتْ بخنقِهِم، وهو المُوتَةُ التي تُشْبِهُ الجُنونَ.

وظاهِرُ الحديثِ أنَّ الهَمْزَ نوعٌ غيرُ النَّفْخِ والنَّفْثِ.

وقد يُقالُ ـ وهو الأظهَرُ ـ: إنَّ هَمَزاتِ الشَّياطينِ إذا أُفرِدَتْ دَخلَ فيها جميعُ إصاباتِهِم لابنِ آدَمَ، وإذا قُرِنَتْ بالنَّفْخِ والنَّفْثِ كانَت نوعاً خاصّاً؛ كنظائرِ ذٰلك.

ثمَّ قالَ: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

قالَ ابنُ زَيْدٍ: في أُموري.

وقالَ الكلبيُّ: عنْدَ تِلاوةِ القرآنِ.

وقالَ عكرِمَةُ: عندَ النَّزْعِ والسِّياقِ. فأمَرَهُ أنْ يستَعيذَ مِن نَوْعَي شَرِّ إصابَتِهم بالهَمْزِ وقُرْبِهم ودُنُوِّهِم منهُ.

فتضمَّنَتِ الاستعاذةُ أنْ لا يَمَسُّوهُ ولا يَقْرَبوهُ.

وذَكَرَ ذٰلك سبحانَهُ عَقيبَ قَوْلِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦]، فأمَرَهُ أنْ يَحْترِزَ مِن شَرِّ شياطينِ الإنسِ بدفْعِ إساءَتِهِمْ إليهِ بالَّتي هي أحْسَنُ، وأنْ يَدْفَعَ شرَّ شياطينِ الجنِّ بالاستعاذةِ منهُم.

ونظيرُ هٰذا قولُهُ في سورةِ الأعرافِ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [١٩٩]، فأمَرَهُ بدَفعِ شَرِّ الجاهِلينَ، بالإعراضِ عنهُم، ثمَّ أمَرَهُ بدَفْعِ شَرِّ الشَّيْطانِ بالاستعاذَةِ منهُ، فقالَ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ونظيرُ ذٰلك قولُهُ في سورةِ فُصِّلَت: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [٣٤].

• وَهَاءُ سُلْطانِ الشَّيطانِ:

فالقرآنُ أَرْشَدَ إلى دَفْعِ هـٰذينِ العَدُوَّيْنِ بأَسْهَلِ الطُّرُقِ؛ بالاستعاذةِ، والإعراضِ عن الجاهِلينَ، ودَفْعِ إساءتِهِم بالإحسانِ.

وأخبرَ عَنْ عِظَمِ حظِّ مَن لَقَّاهُ ذٰلك؛ فإِنَّهُ ينالُ بذٰلك؛ كفَّ شرِّ عدوِّهِ وانقلابَهُ صديقاً، ومحبَّةَ النَّاسِ لهُ، وثناءَهُم عَليهِ، وقَهْرَ هواهُ، وسلامَةَ قلبِهِ مِنَ الغِلِّ والحِقْدِ وطُمأْنينَةِ النَّاسِ - حتى عَدُوِّهِ - إليهِ، هـٰذا غيرُ ما ينالُهُ مِن كَرامَةِ اللهِ وحُسْنِ ثوابِهِ ورِضاهُ عنهُ، وهـٰذهِ غايةُ الحظِّ عاجلاً وآجلاً، ولمَّا كانَ ذٰلك لا يُنالُ إلَّا بالصَّبْرِ؛ قالَ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت: ٣٥]؛ فإِنَّ النَّزِقَ الطَّائِشَ لا يصبِرُ على المُقابَلَةِ.

ولمَّا كانَ الغَضَبُ مَرْكَبَ الشَّيطانِ، فتَتعاوَنُ النَّفسُ الغَضَبيَّةُ والشَّيطانُ على النَّفْسِ المطمَئِنَّةِ التي تأْمُرُ بدَفْعِ الإساءَةِ بالإحسانِ، أَمَرَ أَنْ يُعاوِنَها بالاستعاذَةِ منهُ، فتُمِدُّ الاستعاذَةُ النَّفْسَ المطمئِنَّةَ، فتقْوى على مُقاوَمَةِ جيشِ النَّفْسِ الغَضَبيَّةِ، ويأْتي مَدَدُ الصَّبْرِ الذي يكونُ النَّصْرُ معهُ، وجاءَ مَدَدُ الإيمانِ والتوكُّلِ، فأَبْطَلَ سُلطانَ الشَّيطانِ، فـ ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩].

قالَ مُجاهِدٌ وعكرمةُ والمفسِّرونَ: «ليس لهُ حُجَّةٌ».

والصَّوابُ: أَنْ يُقالَ: ليسَ لهُ طريقٌ يَتَسَلَّطُ بهِ عليهِم، لا مِنْ جِهَةِ الحُجَّةِ، ولا مِن جِهَةِ القُدْرةِ.

والقُدْرَةُ داخِلَةٌ في مسمَّى السُّلْطانِ، وإِنَّما سُمِّيَتِ الحُجَّةُ سُلطاناً؛ لأنَّ صاحِبَها يَتَسَلَّطُ بها تسلُّطَ صاحِبِ القُدْرَةِ بيدِهِ.

وقد أَخبَرَ سُبحانَهُ أَنَّهُ لا سُلطانَ لعدوِّهِ على عِبادِهِ المُخْلَصينَ المتوكِّلين، فقالَ في سورَةِ الحِجْرِ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [٣٩ - ٤٢].

وقالَ في سورةِ النَّحلِ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [٩٩، ١٠٠].

فتضَمَّنَ ذٰلك أمرينِ:

أحدُهما: نَفيُ سُلطانِهِ وإبطالُهُ على أهلِ التَّوحيدِ والإخلاصِ.

والثَّاني: إثْباتُ سُلطانِهِ على أهلِ الشِّركِ وعلى مَن تولَّاهُ.

ولـمَّا عَلِمَ عَدُوُّ اللهِ أنَّ اللهَ تعالى لا يُسَلِّطُهُ على أهْلِ التَّوحيدِ والإخلاصِ؛ قالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾.

فعَلِمَ عدوُّ اللهِ أنَّ مَن اعتصَمَ باللهِ ﷻ وأَخْلَصَ لَهُ وتوكَّلَ عليهِ لا يَقْدِرُ على إغوائِهِ وإضلالِهِ، وإنَّما يكونُ لَهُ السُّلطانُ عَلى مَنْ تَوَلَّاهُ وأشركَه مع اللهِ، فهـؤلاءِ رَعِيَّتُه، فهو وَلِيُّهُم، وسُلطانُهم ومَتبوعُهم.

فإنْ قيلَ: فقدْ أَثْبَتَ لهُ السُّلْطانَ على أوليائِهِ في هٰذه المواضِعِ، فكيفَ ينفيهِ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

فالجوابُ ما قالَهُ ابنُ قُتيبَةَ: إنَّ إبليسَ لمَّا سألَ اللهَ تعالى النَّظْرَةَ فأَنْظَرَهُ؛ قالَ: لأُغْوِيَنَّهُمْ ولأُضِلَّنَّهُم ولآمُرَنَّهُم بكذا، ولأتَّخذنَّ مِن عِبادِكَ نصيباً مفروضاً[1]، وليس هو في وقتِ هٰذه المقالةِ مُسْتيْقِناً أنَّ ما قَدَّرَهُ فيه يتمُّ، وإنَّما قالَ ظانّاً، فلمَّا اتَّبَعُوهُ وأطاعوهُ صَدَّقَ عليهم ما ظَنَّهُ فيهم، فقالَ تعالى: «وما كانَ تَسليطُنا إيَّاهُ إلَّا لِنَعْلَمَ المؤمِنينَ مِن الشَّاكِّينَ، يعني: نَعْلَمُهُم موجودينَ ظاهِرين فَيَحِقُّ القولُ ويَقَعُ الجزاءُ».

وعلى هٰذا فيكونُ السُّلطانُ ها هُنا عَلى مَن لم يُؤمِنْ بالآخرةِ وشكَّ

(١) كما ذكره الله ﷻ عنه في سورة النساء (١١٧ ـ ١١٩).

فيها، وهُم الذينَ تَوَلَّوْهُ وأشْرَكوا بهِ، فيكونَ السُّلطانُ ثابِتاً لا مَنْفِيّاً، فتتَّفِقُ هٰذه الآيةُ مع سائِرِ الآياتِ.

فإنْ قيلَ: فماذا تَصْنَعُ بالَّتي في سورَةِ إبراهيمَ حيثُ يقولُ لأهْلِ النَّارِ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وهٰذا وإنْ كانَ قولَهُ فاللهُ سُبحانَه أخبرَ بهِ عنهُ مُقَرِّراً لهُ، لا مُنْكِراً، فدَلَّ على أنَّهُ كذلكَ؟.

قيلَ: هٰذا سؤالٌ جيِّدٌ، وجوابُهُ أنَّ السُّلطانَ المنفِيَّ في هٰذا المَوْضِعِ هو الحُجَّةُ والبُرهانُ؛ أيْ: ما كانَ لي عليكُمْ مِن حُجَّةٍ وبُرهانٍ أحْتَجُّ بِهِ عليكُمْ؛ كما قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «ما كانَ لي مِن حُجَّةٍ أحْتَجُّ بها عليكُم».

أيْ: ما أظْهَرْتُ لكُم حُجَّةً إلَّا أنْ دَعَوْتُكُم فاسْتَجَبْتُم لي، وصدَّقْتُم مقالَتي، واتَّبَعْتُموني بلا برهانٍ ولا حُجَّةٍ.

وأمَّا السُّلطانُ الَّذي أثْبَتَهُ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠]، فهو تَسَلُّطُهُ عليهم بالإغواءِ والإضلالِ، وتمكُّنُه مِنهُم، بحيثُ يؤزُّهُم إلى الكفرِ والشِّرْكِ ويُزْعِجُهُم إليهِ، ولا يَدَعُهُم يترُكونَهُ؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣].

فهٰذا مِن السُّلطانِ الَّذي لهُ على أوليائِهِ وأهلِ الشِّركِ، ولكنْ ليس لهُ على ذٰلك سلطانُ حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وإنَّما استجابُوا لهُ بمجرَّد دَعْوَتِهِ إيَّاهُمْ، لمَّا وافَقَتْ أهواءَهُمْ وأغراضَهُمْ، فهُم الَّذينَ أعانُوا على أنْفُسِهِم، ومكَّنُوا عَدُوَّهُمْ مِن سُلطانِهِ عليهِمْ، بموافَقَتِه ومُتابَعَتِهِ، فلمَّا أُعْطوا بأَيْديهِم واسْتَأْسَروا لَهُ سُلِّطَ عليهِم؛ عُقوبَةً لهُم.

وبهٰذا يظهَرُ معنى قولِهِ سُبحانَه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

فالآيةُ على عُمومِها وظاهِرِها، وإنَّما المؤمِنُونَ يَصْدُرُ عَنْهُم مِن المعصِيَةِ والمُخالَفَةِ التي تُضادُّ الإيمانَ ما يصيرُ بهِ للكافِرينَ عليهِمْ سَبيلٌ بحسَبِ تلكَ

المُخالَفَةِ، فهُم الَّذين تَسَبَّبوا إلى جعْلِ السَّبيلِ عليهِمْ، كما تَسَبَّبوا إليهِ يومَ أُحُدٍ بمعصِيَةِ الرَّسُولِ ومُخالَفَتِهِ[1].

واللهُ سُبحانَه لم يَجْعَلْ للشَّيطانِ على العبدِ سُلطاناً، حتى جَعَلَ لَهُ العَبْدُ سَبيلاً إليهِ بطاعَتِهِ والشِّركِ بهِ، فجَعَلَ اللهُ حينئذٍ لهُ عليهِ تَسَلُّطاً وقَهْراً، فمَنْ وَجَدَ خَيراً فلْيَحْمَدِ اللهَ تَعالى، ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلكَ فَلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ.

فالتَّوحيدُ والتَّوكُّلُ والإخلاصُ يمنَعُ سُلطانَهُ. والشِّرْكُ وفُروعُهُ يوجِبُ سُلطانَهُ، والجميعُ بقضاءِ مَن أَزِمَّةُ[2] الأمُورِ بيدِهِ، ومَرَدُّها إليهِ. وله الحجَّةُ البالِغَةُ، فلو شاءَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً، ولكنْ أَبَتْ حِكْمَتُه وحَمْدُه ومُلْكُه إلَّا ذٰلك.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

---

(١) كما رواه البخاري (٣٠٣٩) عن البراء بن عارب.

(٢) مفردها زمام، وهو ما يُمْسَك به لشيء، يريد أن الأمور بيد الله، مالك كلّ شيء



مَكايدُ الشَّيطانِ التي يَكيدُ بها ابنَ آدَمَ ومَصايدُهُ

قالَ اللهُ تَعالى إخباراً عن عَدُوِّهِ إبليسَ لمَّا سأَلَهُ عن امتناعِهِ عنِ السُّجودِ لآدَمَ واحتجاجِهِ بأَنَّهُ خيرٌ منهُ وإخراجِهِ مِن الجنَّةِ أَنَّهُ سأَلَهُ أَنْ يُنْظِرَهُ، فأَنْظَرَهُ، ثمَّ قالَ عدوُّ اللهِ: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

والتَّقديرُ: لأَقْعُدَنَّ لهُم على صِراطِكَ، فكأَنَّهُ قال: لأَلزَمَنَّهُ، ولأَرْصُدَنَّهُ، ولأُعَوِّجَنَّهُ، ونحوُ ذٰلك.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «دِينُكَ الواضِحُ».

وقالَ ابنُ مسعودٍ: «هُو كِتابُ اللهِ».

وقالَ جابِرٌ: «هُو الإسلامُ».

وقالَ مُجاهِدٌ: «هو الحَقُّ»[2].

والجميعُ عباراتٌ عن معنًى واحدٍ، وهو الطَّريقُ الموصِلُ إلى اللهِ تعالى.

وقد تقدَّمَ حديثُ سَبْرَةَ بنِ الفاكِهِ: «إنَّ الشَّيطانَ قَعَدَ لابنِ آدم بأَطْرُقِهِ كُلِّها...» الحديث، فما مِن طريقِ خيرٍ إلَّا والشَّيطانُ قاعِدٌ عليهِ يَقْطَعُهُ على السَّالِكِ.

---

(١) قال المصنف (ص٢٥): «وهو الباب الذي لأجله وُضِع الكتاب، وفيه فصولٌ جمَّة الفوائد، حسنة المقاصد».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/٣٢٨).

وقولُهُ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾؛ قالَ الحسنُ: «مِن قِبَلِ الآخرةِ؛ تكذيباً بالبعثِ والجنَّةِ والنَّارِ».

وقالَ مجاهِدٌ: «﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: مِن حيثُ يُبْصِرونَ».

﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾؛ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «أُرَغِّبُهُم في دُنياهُم».

وقال الحسنُ: «مِنْ قِبَلِ دُنْياهُمْ أُزَيِّنُها لهُم وأُشَهِّيها لهُم».

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ روايةٌ أُخرى: «مِن قِبَلِ لآخرةِ».

وقالَ أبو صالحٍ: «أُشَكِّكُهُم في الآخرةِ وأُباعِدُها عليهِم».

وقالَ مُجاهدٌ أيضاً: «مِن حَيْثُ لا يُبْصِرونَ».

﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «أُشَبِّهُ عليهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ».

وقالَ أبو صَالِحٍ: «الحقَّ أُشَكِّكُهُم فيهِ».

وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضاً: «مِن قِبَلِ حَسَناتِهم».

وقالَ أبو صالحٍ أيضاً: «﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾: أُنَفِّقُهُ عليهِم، وأُرَغِّبُهُم فيهِ».

وقالَ الحسنُ: «﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾: السَّيِّئاتُ يأمُرُهُم بها، ويحثُّهُم عليها، ويُزيِّنُها في أعيُنِهم».

وصحَّ[1] عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ: «ولَمْ يَقُلْ مِن فوقِهِم؛ لأنَّهُ عَلِمَ أنَّ اللهَ مِن فوقِهِم».

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول السنة» (٦٦١) بسند حَسَن.
وهذا الخَبَرُ مِن الدلائل الكثيرة المتواترة على عُلُوِّ الله ﷻ على خَلْقِه، لا كما يزعُمُ المُبْطلون المُمَخْرِقونَ المُحَرِّفون.. من أنه ـ سبحانه ـ لا فوق ولا تحت، ولا شمال ولا جنوب، ولا شرق ولا غرب، ولا داخل العالم ولا خارجه!! كذا يقولُ الذين لا يعقلون!! وفي «نصيحة الإخوان» لابن شيخ الحزَّامين ـ بتعليقي ـ تفصيلٌ مطوَّلٌ لما اختلط على بعض أغمار الكاتبين في هذا العصر!

قالَ الشَّعبيُّ: «فاللهُ ﷻ أنزَلَ الرَّحمةَ مِن فوْقِهِم».

وقالَ قَتادَةُ: «أتاكَ الشَّيطانُ يا ابنَ آدَمَ مِنْ كُلِّ وجهٍ غيرَ أنَّهُ لم يأْتِكَ مِن فوقِكَ، لم يستَطِعْ أنْ يحولَ بينَكَ وبينَ رحمةِ اللهِ».

قالَ الواحِدِيُّ: «وَقَوْلُ مَن قالَ: الأيمان كِنايةٌ عنِ الحسناتِ، والشَّمائِلُ كِنايةٌ عنِ السَّيِّئاتِ؛ حسنٌ؛ لأن العَرَبَ تقولُ: اجْعَلْني في يَمينِكَ، ولا تَجْعَلْني في شمالِكَ؛ تُريدُ: اجْعَلْني مِن المقدَّمينَ عندَكَ، ولا تَجعَلْني مِن المؤخَّرينَ».

قالَ شقيقٌ: «ما مِن صباحٍ إلَّا قَعَدَ لي الشَّيطانُ على أربعةِ مراصِدَ: مِن بينِ يديَّ، ومِنْ خَلْفي، وعن يَميني، وعن شِمالي، فيقولُ: لا تَخَفْ فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ، فأقرأُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وأما مِن خَلفي فيُخَوِّفُني الضَّيْعَةَ على مَن أُخَلِّفُهُ، فأقرأُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ومِن قِبَلِ يميني يأْتيني مِن قِبَلِ النِّساءِ، فأقرأُ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ومِن قِبَلِ شِمالي فيأْتيني من قِبَلِ الشَّهواتِ، فأقرأُ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]».

قلتُ: السُّبُل التي يسلُكُها الإنسانُ أربعةٌ لا غيرُ، فإنَّهُ تارةً يأْخُذُ على جهةِ يمينِه، وتارةً على شِمالِه، وتارةً يرجِعُ خَلْفَهُ، فأيُّ سبيلٍ سَلَكَها مِن هذه وَجَدَ الشَّيْطانَ عليها رَصَداً لهُ، فإنْ سَلَكَها في طاعةٍ وَجَدَهُ عليها يُثَبِّطُهُ عنها ويَقْطَعُهُ، أو يُعَوِّقُهُ ويُبَطِّئُهُ، وإنْ سَلَكَها لمعصيةٍ وَجَدَهُ عليها حاملاً لهُ وخادِماً ومُعيناً ومُمَنِّياً، ولو اتَّفَقَ لهُ الهُبوطُ إلى أسفَلَ لأتاهُ مِن هُناكَ.

ومِمَّا يَشهَدُ لصِحَّةِ أقوالِ السَّلَفِ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

قال الكَلبيُّ: «ألْزَمْناهُم قُرناءَ مِن الشَّياطينِ».

وقالَ مُقاتِلٌ: «هَيَّأْنا لهُمْ قُرناءَ مِنَ الشَّياطينِ».

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: «ما بينَ أيْدِيهِمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنيا، وما خَلْفَهُمْ مِن أمْرِ الآخرةِ».

والمعنى: زيَّنُوا لهُم الدُّنيا حتى آثروها، ودَعَوْهُم إلى التَّكذيبِ بالآخِرَةِ والإعراضِ عنها.

فَقولُ عَدُوِّ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ يتناوَلُ الدُّنيا والآخرةَ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾؛ فإنَّ مَلَكَ الحَسَناتِ عنِ اليَمينِ يستَحِثُّ صاحِبَهُ على فِعْلِ الخيرِ، فيأتيهِ الشَّيطانُ مِن هٰذه الجهةِ يُثَبِّطُهُ عنهُ، وإنَّ مَلَكَ السَّيِّئاتِ عن الشِّمال ينهاهُ عنها، فيأتيهِ الشَّيطانُ مِن تلكَ الجهةِ يُحَرِّضُه عليها.

وهٰذا يُفَصِّلُ ما أَجْمَلَهُ في قولِه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١١٧، ١٢٠]. قال الضَّحَّاكُ: «﴿مَّفْرُوضًا﴾؛ أي: معلوماً».

وقالَ الزَّجَّاجُ: «أي: نصيباً افترَضْتُهُ على نَفسي».

وقالَ الفَرَّاءُ: «يَعني ما جُعِلَ لهُ عليهِ السَّبيلُ مِن النَّاسِ، فهُو كالمَفْروضِ».

قلتُ: حقيقةُ الفَرْضِ هُو التَّقديرُ.

والمعنى: أنَّ مَنِ اتَّبَعَ الشَّيطانَ وأطاعَهُ فهو مِن نصيبِهِ المفروضِ وحظِّهِ المقسوم، فكلُّ مَن أَطاعَ عدوَّ اللهِ فهو مِن مفروضِهِ، فالنَّاسُ قِسمانِ: نَصيبُ الشَّيطانِ ومفروضُهُ، وأولياءُ اللهِ وحِزْبُهُ وخاصَّتُهُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: البَتْكُ: القَطْعُ، وهو في

هٰذا الموضعِ: قطعُ آذانِ البَحِيرَةِ[١] عندَ جَميعِ المُفسِّرينَ.

ومِن ها هُنا كَرِهَ جُمهورُ أهلِ العلمِ تَثْقيبَ أُذُنَي الطِّفلِ للحَلَقِ، ورَخَّصَ بعضُهم في ذٰلك للأنثى دونَ الذَّكَرِ[٢]؛ لحاجتِها إلى الحِلْيَةِ، واحتجُّوا بحديثِ أُمِّ زرعٍ، وفيهِ: «أناسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ»[٣]، وقالَ النبيُّ ﷺ: «**كُنْتُ لكِ كأبي زرعٍ لأُمِّ زَرْعٍ**».

ونَصَّ أحمَدُ رَحِمَهُ اللهُ على جَوازِ ذٰلك في حَقِّ البِنْتِ، وكراهَتِه في حَقِّ الصَّبِيِّ.

وقولُهُ: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «يُريدُ دينَ اللهِ».

وهو قولُ إبراهيمَ، ومجاهدٍ، والحسنِ، والضَّحَاكِ، وقَتادَةَ، والسُّدِّيِّ، وسعيدِ بنِ المسيِّبِ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ.

ومعنى ذٰلك: هو أنَّ اللهَ تَعالى فَطَرَ عِبادَهُ على الفِطْرَةِ المستقيمَةِ، وهي مِلَّةُ الإسلامِ، كما قالَ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

ولهٰذا قالَ ﷺ: «**ما مِن مولودٍ إلَّا يولَدُ عَلى الفِطرةِ، فأبواهُ يُهَوِّدانِهِ أو يُنَصِّرانِهِ أوْ يُمَجِّسانِهِ، كما تُنتَجُ البهيمةُ بَهيمةً جَمْعاءَ، فهَلْ تُحِسُّونَ فيها مِن جَدْعاءَ، حتى تكونُوا أَنْتُم تَجْدَعونَها؟**». ثم قرأَ أبو هُريرةَ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ...﴾ الآيةَ. متَّفقٌ عليهِ[٤].

---

(١) هي الناقة، كانت في الجاهلية إذا وَلَدت خمسة أبطن شقُّوا أذنها.

(٢) وفي «تُحفة المودود» (ق١٣٠ ـ ١٣١) للمؤلِّف تفصيلٌ لِما أجمله هُنا، فانظره بتحقيقي.

(٣) رواه البخاري (٩/ ٢٢٠)، ومسلم (٢٤٤٨)؛ عن عائشة.

(٤) رواه البخاري (٣/ ١٧٦)، ومسلم (٢٦٥٨). وقال ابن الأثير في «جامع الأصول» (١/ ٢٧١): «ومعنى هذا الحديث: أنَّ المولود يولد على نوعٍ من الجِبِلَّة، وهي =

فجَمَعَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بينَ الأمرينِ:

تَغْييرِ الفِطْرةِ بالتَّهويدِ والتَّنْصيرِ.

وتَغْييرِ الخِلْقَةِ بالجَدْعِ.

وهما الأمرانِ اللَّذانِ أخبرَ إبليسُ أنَّهُ لا بُدَّ أنْ يُغَيِّرَهُما.

فغيَّرَ فطرةَ اللهِ بالكُفرِ، وهو تغييرُ الخِلْقَةِ التي خُلِقوا عليها، وغيَّرَ الصُّورَةَ بالجَدْعِ والبَتْكِ، فغيَّرَ الفِطْرَةَ إلى الشِّركِ، والخِلْقَةَ إلى البَتْكِ والقَطْعِ، فهٰذا تغييرُ خِلْقَةِ الرُّوحِ، وهٰذا تغييرُ خِلْقَةِ الصُّورَةِ.

ثمَّ قالَ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾، فوَعْدُهُ: ما يَصِلُ إلى قلبِ الإنسانِ، نحوُ: سَيطولُ عُمْرُكَ، وتنالُ مِن الدُّنيا لذَّتَك، وسَتَعْلو على أقرانِك، وتظفَرُ بأعدائِكَ، والدُّنيا دُوَلٌ ستكونُ لكَ كما كانتْ لغيْرِكَ، ويُطَوِّلُ أمَلَهُ، ويَعِدُهُ بالحُسْنى على شِرْكِه ومعاصيهِ، ويُمَنِّيهِ الأمانيَّ الكاذبَةَ على اختلافِ وجوهِها.

والفَرْقُ بينَ وَعْدِهِ وتَمْنِيَتِهِ أنَّهُ يَعِدُ الباطلَ، ويُمَنِّي المُحالَ، والنَّفْسُ المَهينَةُ التي لا قَدْرَ لها تغتذي بوَعْدِه وتَمْنِيَتِه؛ كما قالَ القائلُ:

مُنًى إنْ تَكُنْ حَقّاً تَكُنْ أَحْسَنَ المُنى … وإلَّا فَقَدْ عِشْنا بِها زَمَناً رَغْداً

فالنَّفْسُ المُبْطِلَةُ الخسيسةُ تلتذُّ بالأماني الباطلَةِ والوعودِ الكاذِبَةِ، وتفرَحُ بها كما يفرَحُ بها النِّساءُ والصِّبيانُ، ويتحرَّكونَ لها، فالأقوالُ الباطلَةُ مصدَرُها وَعْدُ الشَّيْطانِ وتَمْنِيَتُه، فإنَّ الشَّيطانَ يُمَنِّي أصحابَها الظَّفَرَ بالحقِّ وإدراكَهُ، ويَعِدُهم الوصولَ إليهِ مِن غيرِ طريقِهِ، فكلُّ مُبْطلٍ لَهُ نصيبٌ مِن قولِهِ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

= فطرةُ الله تعالى، وكونه متهيِّئاً لقبول الحقيقة طبعاً وطوعاً، ولو خلَّته شياطين الإنس والجن وما يختار؛ لم يختَر إلا إيَّاها، وضرب لذلك ـ الجَمْعاء والجَدْعاء ـ مثلاً؛ يعني: أن البهيمة تولدُ سويَّة الأطراف، سليمةً من الجدْع ونحوه، لولا النَّاسُ وتعرُّضهم إليها؛ لبقيت ـ كما وُلدت ـ سليمةً».

ومِن ذٰلك قولُه تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقيلَ: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾؛ يُخَوِّفُكم بهِ، يقولُ: إنْ أنفَقْتُم أموالَكُم افتَقَرْتُم، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ قالوا: هي البخلُ في هٰذا الموضعِ خاصَّةً.

ويُذْكَرُ عن مقاتلٍ والكَلْبيِّ: «كلُّ فحشاءَ في القرآنِ فهي الزِّنا، إلَّا في هٰذا الموضعِ؛ فإنَّها البُخْلُ».

والصَّوابُ: أنَّ الفحشاءَ على بابِها، وهي كلُّ فاحشةٍ، فهي صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، فَحَذْفُ مَوصوفِها إرادةٌ للعُمومِ؛ أيْ بالفِعْلَةِ الفَحْشاءِ، والخَلَّةِ الفَحْشاءِ، ومِن جُملَتِها البخلُ، فذَكَر سُبحانَه وعْدَ الشَّيطانِ وأَمْرَهُ: يأْمُرُهُم بالشَّرِّ ويخوِّفُهُم مِن فِعْلِ الخيرِ، وهٰذانِ الأمرانِ هما جِماعُ ما يطلُبُه الشَّيطانُ مِن الإنسانِ، فإنَّهُ إذا خَوَّفَهُ مِن فعلِ الخيرِ تَرَكَهُ، وإذا أَمَرَهُ بالفَحْشاءِ وزيَّنَها لهُ ارْتَكَبها، وسمَّى سبحانَه تخْويفَهُ وَعْدَ الانتظارِ الذي خَوَّفَهُ إيَّاهُ كما ينتَظِرُ الموعودُ ما وُعِدَ بهِ، ثمَّ ذكرَ سُبحانَه وعْدَهُ على طاعتِهِ، وامتثالِ أوامِره، واجتنابِ نواهِيه، وهي المغفِرَةُ والفَضْلُ، فالمغْفِرَةُ: وقايةُ الشَّرِّ، والفَضْلُ: إعطاءُ الخيرِ.

• تَخْييلُهُ الشَّرَّ خيراً:

ومِن كيدِهِ للإنسانِ أنَّهُ يوردُه المواردَ التي يُخَيِّلُ إليه أنَّ فيها مَنْفَعَتَهُ، ثم يُصْدِرُهُ المصادِرَ التي فيها عَطَبُه، ويتخلَّى عنه ويُسْلِمُه ويقفُ يَشْمَتُ به، ويضحَكُ منهُ، فيأْمُرُه بالسَّرِقَةِ والزِّنا والقَتْلِ، ويدُلُّ عليهِ ويفضَحُه، قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨]؛ كما قالَ حسَّانُ:

دَلَّاهُمُ بِغُرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ ... إنَّ الخَبيثَ لِمَنْ والاهُ غَرَّارُ

وكذٰلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦].

وهٰذا السِّياقُ لا يختصُّ بالَّذي ذُكِرَتْ عنهُ هٰذه القصَّةُ[1]، بل هُو عامٌّ في كلِّ مَن أطاعَ الشَّيطانَ في أمرِهِ لهُ بالكُفرِ؛ ليَنْصُرَه ويقضِيَ حاجَتَه، فإنَّهُ يتَبَرَّأُ منهُ ويُسْلِمُه كما يتبَرَّأُ مِن أوليائِهِ جملةً في النَّارِ، ويقولُ لهُم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فأَوْرَدَهُم شرَّ الموارِدِ وتَبَرَّأَ منهُم كلَّ البراءةِ.

وتَكَلَّمَ النَّاسُ في قولِ عدُوِّ اللهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾:

فقالَ قتادةُ وابنُ إسحاقَ: «صَدَقَ عدُوُّ اللهِ في قولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وكَذَبَ في قولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، واللهِ ما بِهِ مخافةُ اللهِ، ولكنْ عَلِمَ أنَّهُ لا قُوَّةَ لهُ، ولا مَنَعَةَ، فأَوْرَدَهم وأَسلَمَهُم، وكذٰلك عادَةُ عَدوِّ اللهِ بمَنْ أطاعَهُ».

وقالتْ طائفةٌ: «إنَّما خافَ بَطْشَ اللهِ تعالى بِه في الدُّنيا، كما يخافُ الكافِرُ والفاجِرُ أنْ يُقْتَلَ أو يُؤخَذَ بجُرْمِه، لا أنَّهُ خافَ عقابَهُ في الآخرةِ».

وهٰذا أَصَحُّ، وهذا الخوفُ لا يستلْزِمُ إيماناً ولا نجاةً.

وقالَ عطاءٌ: «إنِّي أخافُ اللهَ أنْ يُهْلِكَني فيمَن يَهْلِكُ»، وهٰذا خوفُ هلاكِ الدُّنيا فلا ينفَعُه.

تَخويفُ المؤمنينَ:

ومِن كَيْدِ عَدُوِّ اللهِ تعالى أنَّهُ يُخَوِّفُ المؤمنينَ مِن جُنْدِهِ وأَوْليائِهِ[2]، فلا يُجاهِدُونَهم ولا يأْمُرونَهم بالمعروفِ، ولا يَنْهَوْنَهُم عن المنكَرِ، وهٰذا مِن أعظمِ كَيْدِه بأهلِ الإيمانِ، وقدْ أخبَرَنا اللهُ تعالى سُبحانَه عنهُ بهٰذا فقالَ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

---

(١) هو بَرْصيصا العابد، وقصته من قَصَص بني إسرائيل، وهي مذكورة في كثير من التفاسير، ولا تصحُّ!

(٢) أي: من جُند الشيطان وأوليائه ومُريديه!

المعنى عندَ جميعِ المفسِّرينَ: يُخَوِّفُكُم بأوليائِهِ.

قالَ قَتادَةُ: «يُعَظِّمُهُم في صُدورِكُم، ولهـٰذا قالَ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فكلَّما قَوِيَ إيمانُ العبده زالَ مِن قَلْبِهِ خَوْفُ أولياءِ الشَّيطانِ، وكلَّما ضَعُفَ إيمانُهُ، قَوِيَ خَوْفُه منهُم».

ومِن مكايدِهِ أنَّهُ يَسْحَرُ العقْلَ دائماً حتى يَكيدَهُ، ولا يسلَمُ مِن سِحْرِه إلَّا مَن شاءَ اللهُ فَيُزَيِّنُ لهُ الفِعْلَ الَّذي يَضُرُّهُ حتَّى يُخَيِّلُ إليهِ أنَّهُ مِن أنْفَعِ الأشياءِ، ويُنَفِّرُ مِن الفِعْلِ الذي هو أنفعُ الأشياءِ لهُ، حتى يُخَيِّلُ لهُ أنَّهُ يَضُرُّهُ.

فلا إلـٰهَ إلَّا اللهُ، كَمْ فُتِنَ بهـٰذا السِّحْرِ مِنْ إنسانٍ، وكَم حَالَ بهِ بينَ القلبِ وبينَ الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ؟.

وكَمْ جَلا الباطِلَ وأبْرَزَهُ في صورةٍ مُسْتَحْسَنَةٍ، وشنَّعَ الحقَّ وأخرَجَهُ في صورةٍ مستَهْجَنَةٍ؟.

وكَمْ بَهْرَجَ مِن الزُّيوفِ على النَّاقِدينَ؟.

وكَمْ رَوَّجَ مِن الزَّغَلِ على العارِفين؟ .

فهُو الَّذي سَحَرَ العُقول حتى ألقى أربابَها في الأهواءِ المختَلِفَةِ، والآراءِ المتشعِّبَةِ، وسَلَكَ بهِم مِن سُبُلِ الضَّلالِ كُلَّ مسْلَكٍ، وألقاهُم مِن المهالِكِ في مَهْلَكٍ بعدَ مَهْلَكٍ، وزيَّنَ لهُم عبادَةَ الأصنامِ، وقَطيعَةَ الأرحامِ، ووَأْدَ البَناتِ، ونِكاحَ الأمَّهاتِ، ووَعَدَهُم الفَوْزَ بالجنَّاتِ معَ الكُفْرِ والفُسوقِ والعِصْيانِ، وأبرَزَ لهُم الشِّرْكَ في صورةِ التَّعظيمِ، والكُفْرَ بصفاتِ الرَّبِّ تعالى وعُلُوِّهِ وتكلُّمِهِ بكُتُبِهِ في قالَبِ التَّنزيهِ، وتَرْكَ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيَ عنِ المنكرِ في قالَبِ التَّوَدُّدِ إلى النَّاسِ، وحُسْنِ الخُلُقِ معهُم، والعَمَلِ بقولِه[1]: ﴿عَلَيْكُمْ

---

(١) روى أبو داود (٢٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٩)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والنسائي في «الكبرى» - كما في «تحفة الأشراف» (٥/٣٠٣) -، وأحمد (١/٢ و٥ و٧ و٩)، وأبو يعلى (١٢٨)، وابن حبان (١٨٣٧)، والمروزي في «مسند أبي بكر» (رقم ٨٦)؛ من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر في قصّة معه =

أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والإِعراضَ عمَّا جاءَ بِهِ الرَّسولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في قالَبِ التَّقْليدِ والاكتفاءِ بقولِ مَن هُو أعلمُ منهُم، والنِّفاقَ والإِدْهانَ في دينِ اللهِ في قالَبِ العَقْلِ المعيشيِّ الذي يندرِجِ بِهِ العبدُ بينَ النَّاسِ.

فهُو صاحِبُ الأبوينِ حينَ أَخْرَجَهُما مِن الجنَّةِ، وصاحِبُ قابيلَ(١) حينَ قتلَ أخاهُ، وصاحِبُ قومِ نوحٍ حينَ أُغْرِقوا، وقومِ عادٍ حينَ أُهْلِكوا بالرِّيحِ العقيمِ، وصاحِبُ قومِ صالحٍ حينَ أُهلِكوا بالصَّيْحةِ، وصاحِبُ الأمَّةِ اللُّوطيَّةِ حينَ خُسِفَ بهِم وأُتْبِعوا بالرَّجْمِ بالحجارةِ، وصاحِبُ فرعونَ وقومِهِ حينَ أُخِذوا الأَخْذَةَ الرَّابِيَةَ، وصاحِبُ عُبَّادِ العِجْلِ حينَ جَرى عليهِم ما جَرى، وصاحِبُ قريشٍ حينَ دُعوا يومَ بَدْرٍ، وصاحِبُ كُلِّ هالِكٍ ومَفْتونٍ.

● كَيْدُهُ لآدَمَ وحَوَّاءَ:

وأوَّلُ كَيْدِهِ ومَكْرِهِ: أنَّهُ كادَ الأبوينِ بالأيمانِ الكاذِبَةِ: أنَّهُ ناصحٌ لهُما، وأنَّهُ إنَّما يريدُ خُلودَهُما في الجنَّةِ؛ قالَ تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

فالوسوسَةُ: حديثُ النَّفسِ، والصَّوْتُ الخَفيُّ، وبهِ سُمِّيَ صوتُ الحُليِّ وسواساً، ورَجُلٌ مُوسْوِسٌ - بكسرِ الواوِ ولا يفتَحُ فإنَّهُ لحنٌ -، وإنَّما قيلَ لَهُ: موسْوِسٌ؛ لأنَّ نفسَهُ توسْوِسُ إليهِ، قالَ تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

وعَلِمَ عدوُّ اللهِ أنَّهما إذا أكلا مِن الشَّجرَةِ بَدَتْ لهُما عوراتُهما؛ فإنَّها معصيةٌ. والمعصيةُ تهْتِكُ سِتْرَ ما بينَ اللهِ وبينَ العبدِ، فلمَّا عَصَيا انْهَتَكَ ذَلكَ

= توضح المعنى الصحيح لهذه الآية. وسنده صحيح.

(١) علّقتُ في «المنتقى النفيس» (ص٢٨) أن هذا الاسم لم يرد في القرآن، ولا في الأحاديث الصحيحة، إنما هو من الإسرائيليات

وأزيد هنا العزو إلى ما علّقه شيخُنا على رسالة «بداية السول» (ص٧٠ - ٧٢) للعز بن عبد السلام، وكذا «معجم المناهي اللفظيّة» (ص٢٥٩) للأخ الشيخ بكر أبو زيد.

السِّتْرُ فَبدَتْ لهُما سوآتُهما. فالمعصيةُ تُبْدي السَّوْأَةَ الباطنَةَ والظَّاهِرَةَ، ولهٰذا رأى النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم في رُؤياهُ الزُّناةَ والزَّواني عُراةً باديةً سوآتُهم[(١)].

وهٰكذا إذا رُئِيَ الرَّجُلُ أو المرأةُ في منامِه مكشوفَ السَّوْأةِ؛ فإنَّهُ يدُلُّ على فسادٍ في دينِهِ[(٢)]، قالَ الشَّاعِرُ:

إنِّي كأنِّي أرى مَنْ لا حَياءَ لَهُ ... ولا أمانَةَ وَسْطَ النَّاسِ عُرْيانا

فإنَّ اللهَ سُبحانَه أنزلَ لباسَيْنِ: لباساً ظاهراً يُواري العَوْرَةَ ويستُرُها، ولباساً باطِناً مِن التَّقوى، يُجَمِّلُ العبدَ ويستُرُهُ، فإذا زالَ عنهُ هٰذا اللِّباسُ؛ انكَشَفَتْ عَوْرَتُه الباطِنَةُ، كما تنكَشِفُ عورَتُه الظَّاهِرَةُ بنَزْعِ ما يَسْتُرُها.

ثُمَّ قالَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾؛ أي: إلَّا كراهَةَ أنْ تكونا مَلَكَيْنِ، وكَراهَةَ أنْ تَخْلُدا في الجنَّةِ.

ومِن ها هُنا دَخَلَ عليهِما لمَّا عَرَفَ أنَّهُما يُريدانِ الخُلودَ فيها، وهٰذا بابُ كَيْدِه الأعظمِ الذي يَدْخُلُ منهُ على ابنِ آدمَ؛ فإنَّهُ يَجْري منهُ مَجْرى الدَّم[(٣)] حتَّى يُصادِفَ نَفْسَهُ، ويُخالِطَهُ، ويسألَها عمَّا تُحِبُّهُ وتُؤثِرُه، فإذا عَرَفَهُ استعانَ بها على العبدِ، ودَخَلَ عليهِ مِن هٰذا البابِ.

وكذٰلكَ عَلَّمَ إخوانَه وأولياءَهُ مِنَ الإنسِ إذا أرادوا أغراضَهُم الفاسِدَةَ مِن بعضِهِم بعضاً أنْ يَدْخُلوا عليهِم مِن البابِ الَّذي يُحِبُّونَه ويَهْوونَهُ، فإنَّهُ بابٌ لا يُخْذَلُ عن حاجتِه مَن دَخَلَ منهُ، ومَن رامَ الدُّخولَ مِن غيرِهِ فالبابُ عليهِ مسدودٌ، وهو عن طريقِ مقْصِدِهِ مصدودٌ.

---

(١) رواه البخاري (١٢/ ٣٨٥) عن سَمُرة بن جُندب.

(٢) ولمعرفة دقائق المسائل حول تعبير الرؤى والأحلام تُنْظر رسالتي: «تحقيق المرام في الرؤى والأحلام»، يسَّر الله إتمامَها.

(٣) روى البخاري (٤/ ٢٤٠)، ومسلم (٢١٧٥)؛ عن صفيَّة ـ ضِمْن قصَّة ـ أن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم».

فشامَّ عَدُوُّ اللهِ الأبوين، فأحَسَّ منهُما إيناساً ورُكوناً إلى الخُلْدِ في تلكَ الدَّارِ في النَّعيم المقيم، فَعَلِمَ أنَّهُ لا يدخُلُ عليهِما مِن غيرِ هـٰذا البابِ، فقاسَمَهُما باللهِ إنَّهُ لهُما لَمِن النَّاصِحينَ، وقالَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾.

وكانَ ابنُ عبَّاسٍ يَقرؤها (مَلِكَيْنِ)[1]؛ بكسر اللام، ويقولُ: «لَمْ يَطْمَعا أَنْ يكونا مِن الملائِكَةِ، ولـٰكِن اسْتَشْرفا أنْ يكونا مَلِكَيْنِ، فأتاهُما مِن جِهةِ المُلْكِ».

ويَدُلُّ على هذه القراءةِ قولُه الآيةِ الأخرى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وأما على القِراءَةِ المشهورةِ، فيقالُ: كيفَ أطمَعَ عَدُوُّ اللهِ آدَمَ ﷺ أنْ يكونَ بأكْلِهِ مِن الشَّجَرَةِ مِن الملائِكَةِ، وهو يرى الملائِكَةَ لا تأكُلُ ولا تَشْرَبُ، وكانَ آدَمُ ﷺ أعلَمَ بالله وبنَفْسِهِ وبالملائِكَةِ مِنْ أنْ يَطْمَعَ أنْ يكونَ مِنْهُم بأكْلِه، ولا سيَّما ممَّا نهاهُ اللهُ ﷻ عنهُ؟.

فالجوابُ: أنَّ آدَمَ وحَوَّاءَ ﷺ لم يَطْمَعا في ذٰلك أصلاً، وإنَّما كَذَبَهُما عَدُوُّ اللهِ، وغرَّهُما، وخَدَعَهُما؛ بأنْ سَمَّى تلكَ الشَّجَرَةَ شجَرَةَ الخُلْدِ، فهـٰذا أوَّلُ المَكْرِ والكَيْدِ، ومنهُ وَرِثَ أتباعُهُ تسمِيَةَ الأمورِ المحرَّمَةِ بالأسماءِ التي تُحِبُّ النُّفُوسُ مُسَمَّياتِها[2]، فسَمَّوا الخمرَ: أُمَّ الأفراحِ[3]، وسمَّوُا الرِّبا

---

(١) هي قراءة يحيى بن أبي كثير والضَّحَّاك؛ كما في «تفسير القرطبي» (٧/ ١٧٨).

(٢) وهذه قاعدةٌ مهمَّةٌ، جلَّيتُها في رسالتي الجديدة: «الدعوة إلى الله بين التجمُّع الحِزْبي والتعاون الشرعي» (ص١٠٩ ـ ١١٢)، وهي تحت الطبع، بيَّنتُ فيها ـ ضمن ما بيَّنتُ ـ أنَّ تسمية (الحزب) (عملاً جماعيّاً)، أو (جمعيَّةً)، أو غير ذلك! لا يخرجُهُ عن حقيقته ومضمونه!! فهو حرامٌ قبلَها وبعدها!

(٣) ولهم ـ اليوم ـ تسمياتٌ عجيبةٌ لكثير من المحرَّمات، يستغفلون بها الناس، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]!

بالمُعامَلَةِ[١]، وسمَّوُا المُكوسَ بالحقوقِ السُّلْطانيَّةِ[٢]، وسمَّوْا أقبَحَ الظُّلمِ وأفْحَشَهُ شَرْعَ الدِّيوانِ، وسمَّوا أبلَغَ الكُفرِ، وهو جَحْدُ صِفاتِ الرَّبِّ تَنْزيهاً، وسمَّوا مجالِسَ الفسوقِ مجالِسَ الطِّيبةِ.

فلمَّا سمَّاها شجَرَةَ الخُلْدِ؛ قالَ: ما نَهاكُما عَنْ هٰذه الشَّجَرَةِ إلَّا كَراهَةَ أنْ تأكُلا مِنها فتَخْلُدا في الجنَّةِ، ولا تَموتا فتكونانِ مِثْلَ الملائكَةِ الَّذينَ لا يَموتُونَ، ولم يَكُنْ آدمُ ﷺ قد عَلِمَ أنَّهُ يموتُ بعدُ، واشْتَهى الخلودَ في الجنَّةِ، وحَصلَتِ الشُّبْهَةُ مِن قولِ العدوِّ وإقسامِهِ باللهِ جَهْدَ أيْمانِهِ، أنَّهُ ناصِحٌ لهُما، فاجتَمَعَتِ الشُّبْهَةُ والشَّهْوَةُ، فأخَذَتْهما سِنَةُ الغَفْلَةِ، واسْتَيْقَظَ لهُما العدُوُّ.

وورَّثَ عدوُّ اللهِ هٰذا المَكْرَ لأوليائِهِ وحِزْبِهِ عندَ خِداعِهِم للمؤمنينَ كما كانَ المُنافِقونَ يقولونَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ إذا جاؤوهُ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢]، فأكَّدوا خبرَهُم بالشَّهادَةِ وبـ(إنَّ) وبلامِ التَّأكيدِ، وكذٰلكَ قولُه سبحانَه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [براءة: ٥٦].

ثمَّ قالَ تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾؛ قالَ أبو عُبيدَةَ: خَدَلَهما وخَلَّاهُما، مِن تَدْلِيَةِ الدَّلْوِ وهو إرسالُها في البئْرِ.

قالَ مُطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ: «قالَ لهُما. إنِّي خُلِقْتُ قَبْلَكُما، وأنا أعْلَمُ منكُما، فاتَّبِعاني أُرْشِدْكُما، وحَلَفَ لهُما، وإنَّما يُخْدَعُ المؤمِنُ باللهِ».

قالَ قَتادَةُ: «وكانَ بعضُ أهلِ العلمِ يقولُ: مَن خادَعَنا باللهِ خُدِعْنا»، فـ«المؤمِنُ غِرٌّ كَريمٌ والفاجِرُ خَبٌّ لَئيمٌ»[٣].

---

(١) قارن بتعليقي على «تشبُّه الخسيس» (ص٤٣) للإمام الذهبي.

(٢) وهي المعروفة اليوم بـ(الجمارك).

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤١٨)، وأبو داود (٤٧٩٠)، والترمذي (١٩٦٤)، والحاكم (١/٤٣)؛ من طريق بِشْر بن رافع عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة. وبشر ضعيف. ولكنّه توبع؛ كما شرحتُه في «الإتمام» (٩١٠٧). فالحديثُ حسنٌ.

وفي «الصَّحيحِ»[1]: «أنَّ عيسى ابنَ مريَم ﷺ رأى رجلاً يسرِقُ، فقالَ: سَرَقْتَ؟ فقالَ: لا واللهِ الذي لا إلَهَ إلَّا هُو. فقالَ المسيحُ: آمَنْتُ باللهِ وكَذَّبْتُ بَصَرِي».

وقد تأوَّلَهُ بعضُهُم على أنَّهُ لمَّا حَلَفَ لهُ جَوَّزَ أنْ يكونَ قَدْ أخَذَ مِن مالِهِ، فظَنَّهُ المسيحُ سِرْقَةً!

وهٰذا تَكَلُّفٌ، وإنَّما كانَ اللهُ ﷻ في قلبِ المسيحِ ﷺ أجَلَّ وأعظَمَ مِنْ أنْ يَحْلِفَ بِهِ أحدٌ كاذِباً، فلمَّا حَلَفَ لهُ السَّارِقُ دارَ الأمْرُ بينَ تُهْمَتِهِ وتُهْمَةِ بَصَرِهِ، فردَّ التُّهْمَةَ إلى بصرِهِ لمَّا اجتَهَدَ لهُ في اليمينِ، كما ظنَّ آدَمُ ﷺ صِدْقَ إبليسَ لمَّا حَلَفَ لهُ باللهِ ﷻ، وقالَ: ما ظَنَنْتُ أحداً يَحْلِفُ باللهِ تعالى كَاذباً!

بينَ الغُلُوِّ والتَّقصيرِ:

ومِن كَيْدِهِ العجيبِ أنَّهُ يشامُّ[2] النَّفْسَ حتى يعلَمَ أيَّ القُوَّتينِ تَغْلِبُ عليهِ: قوَّةُ الإقدامِ والشَّجاعَةِ، أم قُوَّةُ الانكفافِ والإحجامِ والمَهانَةِ؟

فإنْ رأى الغالِبَ على النَّفْسِ المَهانَةَ والإحجامَ؛ أخَذَ في تَثبيطِهِ وإضعافِ همَّتِهِ وإرادَتِهِ عنِ المأمورِ بِهِ، وثَقَّلهُ عليهِ، فهَوَّنَ عليهِ تَرْكَهُ، حتى يَتْرُكَهُ جُملةً، أو يُقَصِّرَ فيهِ ويتهاوَنَ بِهِ.

وإنْ رأى الغالبَ عليهِ قُوَّةَ الإقدامِ وعُلُوَّ الهِمَّةِ أخَذَ يُقَلِّلُ عندَه المأمورَ بهِ، ويوهِمَهُ أنَّهُ لا يَكفيهِ، وأنَّه يحتاجُ معهُ إلى مُبالَغَةٍ وزيادةٍ فيُقَصِّرُ بالأوَّلِ ويتجاوَزُ بالثَّاني، كما قالَ بعضُ السَّلَفِ: «ما أَمَرَ اللهُ تَعالى بأَمْرٍ إلَّا وللشَّيْطانِ فيهِ نَزْغَتانِ: إمَّا إلى تَفْريطٍ وتَقْصيرٍ، وإمَّا إلى مُجاوَزَةٍ وغُلُوٍّ، ولا يُبالي بأيِّهما ظَفِرَ».

وقد اقتطعَ أكثرَ النَّاسِ إلَّا أقلَّ القليلِ في هذينِ الواديَيْنِ: وادِي التَّقصيرِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨)؛ عن أبي هريرة.

(٢) أي: يختبره ليرى ما عندها.

ووادِي المُجاوزةِ والتَّعَدِّي، والقليلُ منهُم جدّاً الثابِتُ على الصِّراطِ الذي كانَ عليهِ رسولُ الله صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ:

فقومٌ قصَّرَ بهِمْ عن الإتيانِ بواجِباتِ الطَّهارَةِ، وقومٌ تَجَاوَزَ بهِم حتَّى أَخْرَجُوا جَميعَ مَا في أَيديهِم وقَعَدوا كَلًّا على النَّاسِ، مستشرِفينَ إلى ما بأَيْديهِم!

وقومٌ قَصَّرَ بهِم عن تَناوُلِ ما يحتاجونَ إليهِ مِن الطَّعَامِ والشَّرابِ واللِّبَاسِ حتى أَضَرُّوا بأَبدانِهم وقُلوبِهم، وقومٌ تَجاوَزَ بهِم حتَّى أَخَذوا فَوْقَ الحاجةِ، فأَضَرُّوا بقلوبِهم وأبدانِهم.

وكذٰلك قَصَّرَ بقومٍ في حقِّ الأنبياءِ وَوَرَثَتِهم حتَّى قَتَلوهُم، وتَجاوَزَ بآخَرينَ حتى عَبَدُوهُم.

وقَصَّرَ بقومٍ في خُلْطَةِ النَّاسِ حتى اعْتَزَلوهُم في الطَّاعاتِ؛ كالجمعةِ والجماعاتِ والجهادِ وتعلُّمِ العلمِ، وتَجاوَزَ بقومٍ حتى خالَطوهُم في الظُّلْمِ والمَعاصي والآثام.

وقَصَّرَ بقومٍ حتَّى منَعَهُم من الاشتغالِ بالعلمِ الذي يَنْفَعُهم، وتَجاوَزَ بآخرينَ حتَّى جَعَلوا العلمَ وحدَهُ هُو غايَتَهم دونَ العملِ به[١].

وقَصَّرَ بقومٍ حتى أَطْعَمَهُم مِن العُشْبِ ونباتِ البرِّيَّةِ دونَ غِذاءِ بَني آدَم، وتَجاوَزَ بآخرينَ حتى أَطْعَمَهُم الحرامَ الخالصَ.

وقَصَّرَ بقومٍ حتَّى زَيَّنَ لهُم تَرْكَ سُنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مِن النِّكاحِ، فرَغِبوا عنهُ بالكُلِّيَّةِ، وتَجاوَزَ بآخَرينَ حتَّى ارتكبُوا ما وَصَلُوا إليهِ مِن الحرامِ.

وقصَّرَ بقومٍ حتى جَفَوُا الشُّيوخَ مِن أهلِ الدِّينِ والصَّلاحِ، وأَعْرَضوا عنهم، ولم يَقُوموا بحقِّهم، وتَجاوَزَ بآخرينَ حتَّى عَبَدُوهُم مع اللهِ تعالى.

---

(١) اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ.

وكذلك قصَّرَ بقومٍ حتَّى مَنَعَهُم قبولَ أقوالِ أهلِ العلمِ والالتفاتِ إليها بالكُلِّيَّةِ، وتَجاوَزَ بآخرينَ حتى جَعَلوا الحلالَ مَا حلَّلوهُ، والحرامَ ما حَرَّموهُ، وقدَّموا أقوالَهُم على سُنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ الصَّحيحةِ الصَّريحةِ[1].

وقصَّرَ بقومٍ حتَّى قالوا: إنَّ اللهَ سبحانَه لا يَقْدِرُ على أفعالِ عِبادِهِ، ولا شاءَها منهُم، ولكنَّهُم يعمَلونَها بدونِ مشيئةِ اللهِ تعالى وقُدْرَتِه، وتَجاوَزَ بآخرينَ حتَّى قالوا: إنَّهُم لا يفعلونَ شيئاً ألبتَّةَ، وإنَّما اللهُ سبحانَه هو فاعلُ تلكَ الأفعالِ حقيقةً، فهي نفسُ فِعْلِه لا أفعالُهُم، والعبدُ ليس لهُم قُدْرةٌ ولا فعلٌ ألبتَّةَ.

وقصَّرَ بقومٍ حتى قالوا: إنَّ ربَّ العالَمينَ ليسَ داخِلاً في خَلْقِه، ولا بائناً عنهُم، ولا هو فوقَهُم، ولا تحتَهُم، ولا خَلْفَهُم، ولا أمامَهُم، ولا عَنْ أيمانِهِم، ولا عن شمائِلِهِم، وتَجاوزَ بآخرينَ حتَّى قالوا: هو في كلِّ مكانٍ بذاتِه، كالهواءِ الذي هو داخِلٌ في كلِّ مكانٍ[2].

وقصَّرَ بقومٍ حتَّى قالوا: لم يتكلَّمْ الرَّبُّ بكلمةٍ واحدةٍ ألبتَّةَ، وتَجاوَزَ بآخرينَ حتَّى قالوا: لم يَزَلْ أزلاً وأبداً قائلاً: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، ويقولُ لموسى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ [طه: ٢٤]، فلا يزالُ هٰذا الخطابُ قائماً بهِ ومسموعاً منهُ؛ كقيامِ صفةِ الحيوةِ بهِ.

وقصَّرَ بقومٍ حتى قالوا: إنَّ اللهَ سبحانَه لا يُشَفِّعُ أحداً في أحدٍ ألبتَّةَ، ولا يرحَمُ أحداً بشفاعَةِ أحدٍ، وتَجاوزَ بآخرينَ حتَّى زعموا أنَّ المخلوقَ يشفَعُ عندَه بغيرِ إذنِهِ، كما يشفَعُ ذو الجاهِ عندَ المُلوكِ ونَحْوِهِم.

وقصَّرَ بقومٍ حتَّى قالوا: إيمانُ أفسَقِ النَّاسِ وأظْلَمِهِمْ كإيمانِ جِبريلَ

---

(١) والحقُّ بينهما: إذ كلامُ أهلِ العلم وسيلةٌ لفهم نصوص الكتاب والسُّنَّة، فإذا كانت ثمَّ مخالفةٌ منهم لأحد الوحيين الشريفين؛ فالعَمل والمُعَوَّلُ عليه هو: الكتابُ والسُّنَّةُ.

(٢) والصوابُ الذي لا محيد عنه أنه سبحانه في السماء فوق عرشه عالٍ على خلقِه.

وميكائيلَ؛ فضلاً عن أبي بكرٍ وعمرَ، وتَجاوَزَ بآخرينَ حتَّى أخرجوا مِن الإسلامِ بالكبيرةِ الواحدةِ(١).

وقصَّرَ بقومٍ حتَّى نَفَوا حَقائِقَ أسماءِ الرَّبِّ تعالى وصفاتِهِ وعَطَّلوهُ منها، وتَجاوَزَ بآخرينَ حتَّى شَبَّهُوهُ بخَلْقِهِ ومَثَّلوهُ بهِم.

وقصَّرَ بقومٍ حتَّى عادوا أهلَ بيتِ رسولِ الله صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، وقاتَلوهُم، واستحلُّوا حُرْمَتَهُم، وتَجاوَزَ بقومٍ حتَّى ادَّعوا فيهم خصائصَ النُّبُوَّةِ؛ مِن العصمةِ وغيرِها، وربَّما ادَّعوا فيهِم الإلٰهيَّةَ(٢).

وكذٰلك قصَّرَ باليهودِ في المسيحِ حتَّى كذَّبوهُ ورَمَوْهُ وأُمَّهُ بِما بَرَّأَهُما اللهُ تعالى منهُ، وتَجاوَزَ بالنَّصارى حتى جَعلوهُ ابنَ اللهِ، وجعلوهُ إلٰهاً يُعْبَدُ معَ اللهِ.

وقصَّرَ بقومٍ حتَّى نَفَوُا الأسبابَ والقُوى والطَّبائعَ والغرائزَ، وتَجاوَزَ بآخرينَ حتَّى جَعَلوها أمراً لازماً لا يُمْكِنُ تغييرُهُ ولا تَبديلُهُ، وربَّما جَعَلَها بعضُهم مستقلَّةً بالتَّأثيرِ.

وقصَّرَ بقومٍ حتَّى تَعَبَّدوا بالنَّجاساتِ، وهُم النَّصارى وأشباهُهُم. وتَجاوَزَ بقومٍ حتى أفضى بهِمُ الوَسْوَاسُ إلى الآصارِ والأغلالِ. وهُم أشباهُ اليهودِ.

وقصَّرَ بقومٍ حتَّى تَزيَّنُوا للنَّاسِ وأَظْهَروا لهُم مِن الأعمالِ والعباداتِ ما يحمَدونَهُم عليهِ، وتَجاوَزَ بقومٍ حتَّى أظْهَرُوا لهُم مِن القَبائِحِ ومِن الأعمالِ السَّيِّئَةِ ما يُسْقِطونَ بهِ جَاهَهُم عندَهُم، وسمَّوْا أنْفُسَهُم الملامَتِيَّةَ(٣).

وقصَّرَ بقومٍ حتَّى أهْمَلوا أعمالَ القُلوبِ، ولم يلتَفِتوا إليها، وعدُّوها

---

(١) كمثل جماعة التكفير والهجرة في العصر الحديث، وهم جهَلَةٌ أغمارٌ، حفظوا كلماتٍ يردِّدونها كالبَّبغاوات دونما فهم أو وعي، وقد أنقذ الله المخلصين منهم، فرجعوا إلى جادَّة الصواب.

(٢) وبعض طوائف الروافض تصنعُ أكثر من ذلك!

(٣) وهي من طوائف الصوفية الباطنيّة.

فضلاً، أو فُضولاً، وتَجاوَزَ بآخرينَ حتّى قَصَروا نَظَرَهُم وعمَلَهُم عليها، ولم يلتفِتوا إلى كثيرٍ مِن أعمالِ الجوارحِ.

وهٰذا بابٌ واسعٌ جدّاً، لو تتبَّعْناهُ لبَلَغَ مبلغاً كثيراً، وإنَّما أشَرْنا إليهِ أدنى إشارةٍ.

○ الرَّأْيُ والهَوى:

ومِن حِيَلِه ومكايدِه: الكلامُ الباطلُ، والآراءُ المُتهافِتَةُ، والخيالاتُ المتناقضَةُ، التي هي زُبالَةُ الأذهانِ، ونُحاتَةُ الأفكارِ، والزَّبَدُ الذي يَقْذِفُ بهِ القلوبَ المُظلِمَة المتحيِّرَةَ، التي تعدِلُ الحقَّ بالباطلِ، والخطأَ بالصَّوابِ.

قد تَقاذَفَتْ بها أمواجُ الشُّبهاتِ، ورانَت عليها غُيومُ الخيالاتِ، فمركَبُها القيلُ والقالُ، والشَّكُّ والتَّشكيكُ، وكثرةُ الجدالِ، ليس لها حاصلٌ مِن اليقينِ يُعَوَّلُ عليهِ، ولا معتَقَدٌ مطابِقٌ للحقِّ يُرْجَعُ إليهِ، يوحِي بعْضُهُم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً، فقدِ اتَّخذوا لأجْلِ ذٰلك القرآنَ مَهْجوراً، وقالوا مِن عندِ أَنْفُسِهِم، فقالوا مُنْكَراً مِن القولِ وزوراً، فهُم في شكِّهِم يَعْمَهونَ، وفي حَيْرَتِهِم يَتَرَدَّدونَ، نَبَذُوا كتابَ اللهِ وراءَ ظُهورِهم كأنَّهُم لا يعلمونَ، واتَّبعوا ما تَتْلُوهُ الشَّياطينُ على ألسنَةِ أسلافِهِم مِن أهلِ الضَّلالِ، فهُم إليهِ يحاكِمونَ، وبهِ يتخاصَمونَ، فارَقوا الدَّليلَ، واتَّبعوا أهواءَ قومٍ قد ضَلُّوا مِن قبلُ وأضَلُّوا كثيراً وضلُّوا عن سواءِ السَّبيلِ.

○ الاعتمادُ على العقلِ:

ومِن كيدِهِ بهِم وتَحَيُّلِه على إخراجِهِم مِن العلمِ والدِّينِ: أنْ ألقى على ألسِنَتِهِم أنَّ كلامَ اللهِ ورسولِه ظواهِرُ لفظيَّةٌ لا تُفيدُ اليقينَ، وأوْحى إليهِم أنَّ القواطِعَ العقليَّةَ والبراهينَ اليقينِيَّةَ في المناهجِ الفلسفيَّةِ، والطُّرُقِ الكلاميَّةِ، فحالَ بينَهُم وبينَ اقتباسِ الهُدى واليقينِ مِن مِشكاةِ القرآنِ، وأحالَهُم على منطِقِ يونانَ، وعلى ما عندَهُم مِن الدَّعاوى الكاذبةِ العَرِيَّةِ عن البرهانِ، وقالَ لهُم:

تلكَ علومٌ قديمةٌ صَقَلَتْها العقولُ والأذهانُ، ومَرَّتْ عليها القُرونُ والأزمانُ!

فانْظُرْ كيفَ تَلَطَّفَ بكيدِهِ ومكْرِه، حتى أخْرَجَهُم مِن الإيمانِ؛ كإخراجِ الشَّعرَةِ مِن العَجينِ.

• شَطْحُ الصُّوفيَّةِ:

ومِن كَيْدِهِ: ما ألقاهُ إلى جُهَّالِ المتصوِّفَةِ مِن الشَّطْحِ والطَّامَّاتِ، وأبْرَزَهُ لهُم في قالَبِ الكشْفِ مِن الخيالاتِ، فأوْقَعَهُم في أنواعِ الأباطيلِ والتُّرَّهاتِ، وفتَح لهُم أبوابَ الدَّعاوى الهائلاتِ، وأوحى إليهِم: أنَّ وراءَ العلمِ طريقاً إنْ سلكوهُ أفضى بهِم إلى كشفِ العَيانِ، وأغناهُم عن التَّقَيُّدِ بالسنَّةِ والقرآنِ!

فحسَّنَ لهُم رياضةَ النُّفوسِ وتهذيبَها، وتصفيةَ الأخلاقِ والتَّجافي عمَّا عليهِ أهلُ الدُّنيا، وأهلُ الرِّياسةِ والفقهاءُ، وأربابُ العلومِ، والعملَ على تفريغِ القلبِ وخُلُوِّهِ مِن كلِّ شيءٍ، حتى ينتَقِشَ فيهِ الحقُّ بلا واسطةِ تَعَلُّمٍ! فلما خَلا مِن صورةِ العلمِ الذي جاءَ بهِ الرَّسولُ نَقَشَ فيهِ الشَّيطانُ بحسبِ ما هُو مستَعِدٌّ لهُ مِن أنواعِ الباطلِ، وخَيَّلَه للنَّفْسِ حتى جَعَلَهُ كالمشاهِدِ كشفاً وعَياناً، فإذا أنكَرَهُ عليهِم وَرَثَةُ الرُّسلِ؛ قالوا: لكُم العلمُ الظَّاهرُ، ولنا الكَشْفُ الباطِنُ، ولكم ظاهِرُ الشَّريعةِ، وعندنا باطِنُ الحقيقةِ، ولكُمُ القُشورُ ولنا اللُّبابُ[1].

فلمَّا تمكَّنَ هٰذا مِن قلوبِهم؛ سَلَخَها مِن الكتابِ والسنَّةِ والآثارِ كما ينسلخُ الليلُ مِن النَّهارِ، ثمَّ أحالَهُم في سُلوكِهم على تلكَ الخيالاتِ، وأوهَمَهُم أنَّها مِن الآياتِ البيِّناتِ، وأنَّها مِن قِبَلِ اللهِ سبحانَه إلهاماتٌ

---

(١) وكثيرٌ من ذوي الحزبيّات المعاصرة يُنْكِرون على أهل السنة ودُعاة التوحيد تمسُّكهم بالدعوة إلى نبذ البدع وردُّ الخُرافات، زاعمين أن هذه (قشورٌ)، والواجب الدعوة إلى (اللبب)! وما هو (اللبابُ) في زعمهم؟! إنه الكلام العاطفيُّ الأهوج الذي لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوع! فلا بـ(القشور) التزموا، ولا لـ(اللباب) دَعَوْا!! وللإمام العزّ بن عبد السلام في «فتاويه» (ص٧١ ـ ٧٢) كلمةٌ طيِّبةٌ في نقد ونقض هذه الكلمة الكاذبة، فلْتُنظر.

وتعريفاتٌ، فلا تُعْرَضُ على السُّنَّةِ والقرآنِ، ولا تُعامَلُ إلَّا بالقَبولِ والإذعانِ.

فلغيرِ اللهِ لا لهُ سبحانَه ما يفتَحُه عليهِم الشَّيطانُ مِن الخيالاتِ والشَّطَحاتِ، وأنواعِ الهَذَيانِ.

وكلَّما ازدادوا بُعْداً وإعراضاً عن القرآنِ وما جاءَ بِهِ الرَّسولُ كانَ هٰذا الفتحُ على قلوبِهم أعْظَمَ.

• تحسينُ المُنْكَر:

ومِن أنواعِ مكايِدِه ومكرِهِ: أنْ يَدْعو العَبْدَ بحسنِ خُلُقِه وطلاقَتِه وبِشْرِه إلى أنواعٍ مِن الآثامِ والفُجورِ، فيلقاهُ مَن لا يُخَلِّصُه مِن شَرِّهِ إلَّا تَجَهُّمه والتَّعبيسُ في وجْهِه والإعراضُ عنهُ، فيُحَسِّنُ له العدوُّ أنْ يلقاهُ ببِشرِهِ، وطلاقَةِ وجْهِهِ، وحُسْنِ كلامِه، فيتعلَّقُ بهِ، فيرومُ التَّخَلُّصَ منهُ فيَعْجَزُ، فلا يزالُ العدوُّ يسعى بينَهما حتَّى يصيبَ حاجَتَه، فيدخُلَ على العبدِ بكيدِهِ مِن بابِ حُسنِ الخُلُقِ، وطلاقةِ الوجهِ!

ومِن ها هُنا وصَّى أطبَّاءُ القلوبِ بالإعراضِ عن أهلِ البِدَعِ، وأنْ لا يسلِّمَ عليهِم، ولا يُرِيَهم طلاقةَ وجْهِه، ولا يلقاهُم إلَّا بالعُبوسِ والإعراضِ[1].

وكذٰلكَ أوصوا عندَ لقاءِ مَن تخافُ الفِتنةُ بلقائِه مِن النِّساءِ والمُردانِ، وقالوا: متى كَشَفْتَ للمرأةِ أو الصَّبِيِّ بياضَ أسنانِك؛ كَشَفا لكَ عمَّا هُنالك، ومتى لقيتَهُما بوجهٍ عابسٍ؛ وُقيتَ شرَّهُما[2].

ومِن مكايِدِه أنَّهُ يأمُرك أن تَلقى المساكينَ وذوي الحاجاتِ بوجهٍ عَبوسٍ

---

(١) وهو دواءٌ نافعٌ ـ تاللهِ ـ لهم، إذ به يعرفونَ أنهم مُبْطِلون.. ومِن خلالِه يعلمون أنهم مخدوعون. وللإمام السُّيوطي رسالة «الزجر بالهجر»، وللأستاذ الشيخ بكر أبو زيد «هجر المبتدع»، ولأخينا مشهور حسن: «الهجر في الكتاب والسنة»، وهناك مصنَّفات في الباب غيرُها.

(٢) فأنت بعيدٌ عن المهالك!

ولا تُريهِم بِشراً ولا طلاقةً، فيطْمَعوا فيكَ، ويتجرَّؤوا عليكَ، وتسقُطَ هيبَتُكَ مِن قلوبهم، فيحرِمَكَ صالحَ أَدعِيَتِهِم، وميلَ قلوبِهم إليكَ، ومحبَّتَهم لكَ، فيَأْمُرَكَ بسوءِ الخُلُق، ومنعِ البِشْرِ والطَّلاقَةِ مع هٰؤلاءِ، وبحُسْنِ الخُلُقِ والبِشْرِ مع أولٰئكَ؛ ليفتحَ لكَ بابَ الشَّرِّ، ويغلِقَ عنكَ بابَ الخيرِ.

• إعزازُ النَّفسِ:

ومِن مكايدِه أنه يأْمُرُكَ بإعزازِ نفسِكَ وصونِها حيثُ يكونُ رضى الرَّبِّ في إذلالِها وابتذالِها؛ كجهادِ الكفَّارِ والمنافِقينَ، وأَمْرِ الفُجَّارِ والظَّلَمةِ بالمعروفِ ونَهْيِهم عن المنكَرِ، يُخَيِّلُ إليكَ أنَّ ذٰلك تعريضٌ لنفسِكَ إلى مواطنِ الذُّلِّ، وتسليطِ الأعداءِ، وطَعْنِهم فيكَ، فيزولُ جاهُكَ، فلا يُقْبَلُ منكَ بعدَ ذلك، ولا يُسْمَعُ منك.

ويأْمُرُك بإذلالِها وامتهانِها حيثُ تكونُ مصلَحَتُها في إعزازِها وصيانَتِها، كما يأْمُرُكَ بالتَّبَذُّلِ لذوي الرِّياساتِ، وإهانةِ نفسِكَ لهم، ويُخيلُ إليكَ أنَّكَ تُعِزُّها بهم، وترفَعُ قدْرَها بالذُّلِّ لهُم. ويُذَكِّرُكَ قولَ الشَّاعرِ:

أهِيْنُ لَهُمْ نَفْسِي لأرْفَعَها بهِمْ ... ولَنْ تُكْرَمَ النَّفْسُ الَّتي لا تُهينُها

وغَلِطَ هٰذا القائلُ؛ فإنَّ ذٰلك لا يصلُحُ إلَّا لله وحدَه؛ فإنَّهُ كلَّما أهانَ العبدُ نفسَهُ لهُ أكْرَمَهُ وأعزَّهُ، وبخلافِ المخلوقِ، فإنَّكَ كلَّما أهَنْتَ نفسكَ لهُ ذَلَلْتَ عندَ اللهِ وعندَ أوليائِه وهُنْتَ عليهِ[1].

• عُزْلَةُ النَّاسِ:

ومِن كيدِه وخداعِه: أنَّهُ يأْمُرُ الرَّجُلَ بانقطاعِهِ في مسجدٍ، أو رباطٍ، أو زاويةٍ، أو تُربةٍ، ويحبِسُهُ هناك، وينهاهُ عن الخروجِ، ويقولُ لهُ: متى خَرَجْتَ

---

(١) فليتأمَّل هذه الدُّرر أولئك المفتونون بالدنيا وزخارفِها ومناصبِها وكراسيِّها وجاهِها... وهم يخدعون أنفسهم أنهم يفعلون ذلك من أجل (الدِّين)... زعموا!! فلا قوَّة إلا بالله.

تبذَّلتَ للنَّاسِ، وسَقَطتَ مِن أعيُنِهم، وذَهَبَتْ هَيْبَتُكَ مِن قلوبِهم، وربَّما ترى في طريقِكَ مُنْكَراً، وللعدوِّ في ذلك مقاصِدُ خفيَّةٌ يريدُها منهُ: منها الكِبْرُ، واحتقارُ النَّاسِ، وحِفْظُ النَّاموسِ، وقيامُ الرِّياسةِ، ومخالَطةُ الناسِ تُذْهِبُ ذلك، وهو يُريدُ أنْ يُزارَ ولا يَزورُ، ويقصِدَه النَّاسُ ولا يقصِدَهم، ويفرَحَ بمجيءِ الأمراءِ إليهِ، واجتماعِ النَّاسِ عندَه، وتقبيلِ يده، فيترك مِن الواجباتِ والمستحبَّاتِ والقُرُباتِ ما يقرِّبُه إلى اللهِ، ويتعوَّضُ عنهُ بما يُقرِّبُ النَّاسَ إليهِ[١].

وقد كانَ أبو بكرٍ ﵁ يخرُجُ إلى السُّوقِ يحمِلُ الثِّيابَ، فيبيعُ ويشتَري.

ومرَّ عبدُ اللهِ بنُ سلَامٍ ﵁ وعلى رأسِه حُزْمَةُ حطبٍ، فقيلَ لهُ: ما يحمِلُكَ على هذا وقد أغناكَ اللهُ ﷻ؟ فقالَ: أردتُ أنْ أدْفَعَ بهِ الكِبْرَ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ يقولُ: «**لا يدْخُلُ الجَنَّةَ عبدٌ في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن الكِبْرِ**»[٢].

وكانَ أبو هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ يحمِلُ الحطبَ وغيرَهُ مِن حوائجِ نفسِهِ، وهو أميرٌ على المدينةِ، ويقولُ: «افسَحوا لأميرِكُم، افسَحوا لأميرِكُم».

وخَرَج عمرُ بنُ الخطَّابِ ﵁ يوماً وهو خليفةٌ في حاجةٍ لهُ ماشياً، فأُعْيِيَ، فرأى غُلاماً على حمارٍ لهُ، فقالَ: يا غُلامُ! احْمِلْني فقد أُعييتُ. فنزلَ الغُلامُ عن الدَّابَّةِ، وقالَ: اركَبْ يا أميرَ المؤمنينَ! فقالَ: لا؛ اركَبْ أنتَ وأَنا خلفَكَ، فركِبَ خلفَ الغُلامِ، حتى دَخَلَ المدينةَ والنَّاسُ يرَوْنَهُ.

● تعظيمُ النَّفْسِ:

ومِن كيدِه: أنَّهُ يُغْري النَّاسَ بتقبيلِ يدِه، والتمسُّحِ بهِ، والثَّناءِ عليهِ،

---

(١) إرضاءً لغرور أنفسهم!

(٢) رواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده حَسَنٌ. قاله الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ٩٩). وراجع له «المستدرك» (٣/ ٤١٦). وفي الباب عن عدَّة من الصحابة بالمرفوع، فانظر: «الإتمام» (١٧٢٤٥).

وسؤالِه الدُّعاءَ، ونحوِ ذٰلك، حتى يَرى نفسَهُ، ويعْجِبَهُ شأنُها، فلو قيلَ لهُ: إنَّكَ مِن أوتادِ[١] الأرضِ، وبكَ يُدْفَعُ البلاءُ عن الخَلْقِ؛ ظنَّ ذٰلك حقّاً، وربَّما قيلَ لهُ: إنَّهُ يُتَوَسَّلُ بهِ إلى اللهِ تعالى ويُسألُ اللهُ تعالى بهِ وبحُرْمَتِه، فيَقضي حاجَتَهُم! فيقعُ ذٰلك في قلبِهِ، ويفرَحُ بهِ، ويظنُّهُ حقّاً، وذٰلك كلُّ الهلاكِ، فإذا رأى مِن أحدٍ مِن النَّاسِ تجافياً عنهُ، أو قلَّةَ خُضوعٍ لهُ، تَذَمَّرَ لذٰلك، ووجَدَ في باطنِه.

وهٰذا شرٌّ مِن أربابِ الكبائرِ المصرِّينَ عليها، وهُم أقربُ إلى السَّلامَةِ منهُ.

● تحسينُ الظَّنِّ بالنَّفْسِ:

ومِن كيدِه أنَّهُ يُحَسِّنُ إلى أربابِ التخلِّي والزُّهدِ والرِّياضةِ العملَ بها جِسِّهُم وواقِعَهُم، دونَ تحكيمِ أمرِ الشَّارعِ، ويقولونَ: القلبُ إذا كانَ محفوظاً معَ اللهِ كانتْ هواجِسُه وخواطِرُه معصومةً مِن الخطإ، وهٰذا مِن أبلغِ كَيْدِ العدوِّ فيهِم.

فإنَّ الخواطِرَ والهواجِسَ ثلاثةُ أنواعٍ: رحمانيَّةٌ، وشيطانيَّةٌ، ونفسانيَّةٌ، كالرُّؤيا، فلو بلغَ العبدُ مِن الزُّهْدِ والعبادةِ ما بلغَ، فمعهُ شيطانُه ونفسُه لا يفارقانِه إلى الموتِ، والشَّيطانُ يجري منهُ مجرى الدَّمِ، والعِصْمَةُ إنَّما هي للرُّسُلِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِم الذين هُم وسائِطُ بينَ اللهِ ﷻ وبينَ خَلْقِه، في تبليغِ أمرِه ونهيِهِ، ووعْدِه ووعيدِه، ومَن عَداهُم يُصيبُ ويُخطئُ، وليس بحجَّةٍ على الخَلْقِ.

وقد كانَ سيِّدُ المحدَّثِينَ الملهَمينَ: عُمرُ بنُ الخطَّابِ ﷺ يقولُ الشَّيْءَ فيَرُدُّهُ عليهِ مَن هُو دونَه، فيتبيَّنُ لهُ الخطأُ، فيرجعُ إليهِ[٢].

---

(١) وهي من ألفاظ الصوفيّة؛ كالأبدال، والأقطاب، وغيرهما، وهي - جميعاً - ألفاظٌ لا أصل لها في الشرع.

(٢) أما قصّة المرأة التي اعترضَتْهُ في مسألة المهور، فقال لها: «كل الناس أفقه من عمر»؛ فهي قصّةٌ ضعيفةٌ لا تثبُتُ، وإنْ صحّحها بعضُ العلماء! ولأخينا نزار عرعور رسالة مفردة في بيان ضعفها، طُبعت قريباً.

وكانَ يَعرِضُ هواجِسَهُ وخواطِرَه على الكتابِ والسنَّةِ، ولا يلتَفِتُ إليها، ولا يحكُمُ بها، ولا يعْمَلُ بها.

وهٰؤلاءِ الجُهَّالُ يُرى أَحدُهُم أدنى شيءٍ، فَيُحَكِّمُ هواجِسَهُ وخواطِرَه على الكتابِ والسُّنَّةِ، ولا يلتَفِتُ إليهِما، ويقولُ: حَدَّثني قلبي عن ربِّي، ونحنُ أَخَذْنا عن الحيِّ الذي لا يموتُ، وأنتُم أَخَذْتُم عن الوسائِطِ، ونحنُ أَخَذْنا بالحقائقِ، وأنتُم اتَّبَعْتُم الرُّسومَ!

وأمثالُ ذٰلك مِن الكلامِ الذي هُو كُفْرٌ وإلحادٌ، وغايةُ صاحِبِهِ أَنْ يكونَ جاهِلاً يُعْذَرُ بجهْلِهِ[1]، حتَّى قيلَ لبعضِ هٰؤلاءِ: ألا تذهَبُ فتسمَعَ الحديثَ مِن عبدِ الرَّزَّاقِ؟ فقالَ: ما يَصْنَعُ بالسَّماعِ مِن عبدِ الرَّزَّاقِ مَن يسمَعُ مِن الملِكِ الخلَّاقِ؟!

وهٰذا غايةُ الجهلِ؛ فإنَّ الذي سمِعَ مِن المَلِكِ الخلَّاقِ موسى بنُ عمرانَ كليمُ الرَّحمٰنِ.

وأَمَّا هٰذا وأمثالُه؛ فلم يَحْصُلْ لهُم السَّماعُ مِن بعضِ وَرَثَةِ الرَّسولِ، وهو يدَّعي أنَّهُ يسمعُ الخطابَ مِن مُرْسِلِه، فيستَغْني بِهِ عن ظاهِرِ العلمِ، ولعلَّ الَّذي يخاطِبُهم هو الشَّيطانُ، أو نَفْسُه الجاهِلَةُ، أو هُما مجتَمِعَيْنِ ومنفرِدَيْنِ!

ومَن ظنَّ أنَّهُ يستغني عمَّا جاءَ بِهِ الرَّسولُ بما يُلْقى في قلبِهِ مِن الخواطِرِ والهواجِسِ فهو مِن أعظمِ النَّاسِ كُفْراً.

وكذلك إنْ ظَنَّ أنَّهُ يكتفي بهٰذا تارةً وبهٰذا تارةً!

فما يُلْقى في القلوبِ لا عبرةَ بهِ، ولا التفاتَ إليهِ، إنْ لم يُعْرَضْ على ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ، ويشهَدْ لهُ بالموافقةِ، وإلَّا؛ فهُو مِن إلقاءِ النَّفْسِ والشَّيْطانِ.

وقد سُئِلَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ عن مسألةِ المفوَّضَةِ[2] شهراً، فقالَ بعدَ

---

(١) وهو الحق. لكنّه لا يُعفى من إثم التقصير في طلب العلم ومعرفة الحق.

(٢) رواه أبو داود (٢١١٤ و٢١١٥ و٢١١٦) عن مسروق عنه بأسانيد صحيحة. و«المُفوَّضَة»: هي التي أهمت حُكْم المهر. «المصباح المنير» (ص٤٨٣).

الشَّهْرِ: «أقولُ فيه برأيي، فإنْ يَكُنْ صواباً فمِنَ اللهِ، وإنْ يَكُنْ خطأً؛ فمِنِّي ومِن الشَّيطانِ، واللهُ بريءٌ منهُ ورسولُه».

وكَتَبَ كاتبٌ لعُمَر ﷺ بينَ يديهِ: «هٰذا ما أرى اللهُ عُمَرَ، فقالَ: لا، امْحُهُ، واكتُبْ: هٰذا ما رأى عُمرُ».

واتِّهامُ الصَّحابةِ لآرائِهم كثيرٌ مشهورٌ، وهم أَبَرُّ الأمَّةِ قلوباً، وأعمقُها علماً، وأبعدُها مِن الشَّيطانِ، فكانُوا أتبعَ الأمَّةِ للسُّنَّةِ، وأشدَّهُم اتِّهاماً لآرائِهم، وهٰؤلاء ضِدُّ ذٰلك.

وأهلُ الاستقامةِ منهُم سلَكوا على الجادَّةِ، ولم يلتفِتوا إلى شيءٍ مِن الخواطرِ والهواجسِ والإلهاماتِ، حتى يقومَ عليه شاهِدانِ.

قالَ الجُنَيْدُ: «قالَ أبو سُليمانَ الدَّارَانِيُّ: ربَّما يقعُ في قلبي النُّكْتَةُ مِن نُكَتِ القومِ أيّاماً، فلا أَقبَلُها إلا بشاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ»[١].

وقال سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ: «مَن ادَّعى باطنَ علمٍ ينقُضُهُ ظاهِرُ حكْمٍ؛ فهو غالِطٌ».

وقال الجُنيدُ: «مَذْهَبُنا هٰذا مقيَّدٌ بالأصولِ بالكتابِ والسُّنَّةِ، فمَن لم يحفَظِ الكتابَ، ويَكْتُبُ الحديثَ، ويتفقَّهْ؛ لا يُقْتَدى بهِ».

وقال أبو بكرٍ الدَّقَّاقُ: «مَن ضيَّعَ حُدودَ الأمْرِ والنَّهْيِ في الظَّاهرِ حُرِمَ مشاهَدَةَ القلبِ في الباطنِ».

وقالَ أبو الحسينِ النُّورِيُّ: «مَن رأيْتَهُ يدَّعي معَ اللهِ حالةً تُخْرِجُهُ عن حَدِّ العلمِ الشَّرعِيِّ؛ فلا تَقْرَبْهُ، ومَن رأيْتَه يدَّعي حالةً لا يشهَدُ لها حفظُ ظاهِرِه؛ فاتَّهِمْهُ على دينِه».

وقال أبو حفصٍ الكبيرُ الشأْنِ: «مَن لم يَزِنْ أحوالَهُ وأفعالَه بالكتابِ والسنَّةِ، ولم يتَّهِمْ خواطِرَهُ؛ فلا تَعُدُّوهُ في ديوانِ الرِّجالِ».

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/١٨٣)، و«طبقات الصوفية» (ص٧٧).

وما أَحْسَنَ ما قالَ أبو أحمدَ الشِّيرازيُّ: «كانَ الصُّوفيَّةُ يسخَرونَ مِن الشَّيطانِ، والآنَ الشَّيطانُ يسخَرُ منهُم»[١].

● تَحْزيبُ النَّاسِ:

ومِن كيدِه: أمرُهُم بلزومِ زِيٍّ واحدٍ، ولِبْسَةٍ واحدةٍ، وهيئةٍ ومِشْيَةٍ معيَّنَةٍ، وشيخٍ معيَّنٍ، وطريقةٍ مختَرَعَةٍ، ويفرضُ عليهِم لزومَ ذٰلك بحيثُ يلزمونَه كلزومِ الفرائضِ، فلا يخرُجونَ عنهُ، ويقدَحونَ فيمَن خَرَجَ عنهُ ويذمُّونَه[٢]، وربَّما يلزَمُ أحدُهُم موضِعاً معيَّناً للصَّلاةِ لا يصلِّي إلَّا فيهِ، وقد نهى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ أنْ يوطِّنَ الرَّجُلُ المكانَ للصَّلاةِ كما يوطِّنُ البعيرُ[٣].

وكذٰلك ترى أحدَهُم لا يُصَلِّي إلَّا على سَجَّادةٍ. ولم يصلِّ عليهِ السلامُ على سجَّادَةٍ قطُّ، ولا كانتِ السَّجَّادَةُ تُفْرَشُ بينَ يديهِ، بل كانَ يصلِّي على الأرضِ، وربَّما سَجَدَ في الطِّينِ، وكان يُصلِّي على الحصيرِ[٤]، فيُصلِّي على ما اتَّفَقَ بَسْطُه، فإنْ لم يكنْ ثَمَّةَ شيءٌ صلَّى على الأرضِ.

وهٰؤلاءِ اشتَغَلوا بحفظِ الرُّسومِ عن الشَّريعةِ والحقيقةِ، فصاروا واقِفينَ معَ الرُّسومِ المُبْتَدَعَةِ، ليسوا مِن أهلِ الفِقْهِ، ولا مِن أهلِ الحقائقِ.

---

(١) فكيف اليوم؟! بل إن ضلالاتهم وانحرافاتهم تشجِّع على المنكرات والفواحش!
من ذلك ما حدَّثناه بعض مَن نثقُ به من طُلّاب كلية شرعيّة أن أستاذاً لهم، وهو دكتورٌ صوفيٌّ، (عليٌّ) في الشهرة والصيت، (فقيرٌ) في العلم والحلم، سألهم في الدرس عن رجلٍ من أهل المشرق، وكَّلَ صاحباً له لزواج امرأة من أهل المغرب، فتمَّ له هذا، ثم بعد ستة أشهر ولدَت المرأة! فهل يكون هذا زنا تحدُّ به المرأة أم لا؟ فكان جواب الطلبة: إن هذا زنا؛ لأن بين المرأة وزوجها (بالوكالة) بعدَ المشرق والمغرب. فقال (فقير) العلم: لا؛ بل إن ثمَّة شبهة تدفع الحدَّ وهي أنه (قد) يكون الرجل من أهل الخطوة!! هكذا الصوفية وفتاويهم وعلمهم.

(٢) وهكذا - بل أشدُّ وطأةً - أحوالُ حِزْبيِّي العصر الحاضر، مهما تعدَّدت أشكالُهم، وتنوّعت صُوَرُهم!

(٣) حديثٌ صحيحٌ، خرَّجتُه في «الإتمام» (٨٣٣٢) عن عدَّة من الصحابة.

(٤) وهذا كلُّه صحيحٌ مشهورٌ في كتب الشمائل.

فصاحِبُ الحقيقةِ أشدُّ شيءٍ عليهِ التَّقَيُّدُ بالرُّسومِ الوضعيَّةِ، وهي مِن أعظمِ الحُجُبِ بينَ قلبِهِ وبينَ اللهِ، فمتى تَقَيَّدَ بها حَبَسَ قلبَهُ عن سيرِه، وكانَ أَخَسَّ أحوالِه الوقوفُ معها، ولا وقوفَ في السَّيْرِ، بل إمَّا تَقَدُّمٌ وإمَّا تأخُّرٌ، كما قَالَ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾ [المدثر: ٣٧]، فلا وقوفَ في الطَّريقِ إنَّما هو ذهابٌ وتقدُّمٌ، أو رجوعٌ وتأخُّرٌ.

ومَن تأمَّلَ هَدْيَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وسيرَتَه وجَدَهُ مُناقِضاً لهَدْيِ هٰؤلاءِ؛ فإنَّهُ كانَ يلبَسُ القميصَ تارةً، والقَباءَ تارةً، والجُبَّةَ تارةً، والإزارَ والرِّداءَ تارةً، ويركَبُ ما حَضَرَ، ويجلِسُ على الأرضِ تارةً، وعلى الحصيرِ تارةً، وعلى البساطِ تارةً، ويمشي وحدَهُ تارةً، ومع أصحابِه تارةً[١].

وهَدْيُه عَدَمُ التَّكَلُّفِ والتَّقَيُّدِ بغيرِ ما أمرَهُ بِهِ ربُّهُ، فبيْنَ هَدْيِهِ وهَدْيِ هٰؤلاءِ بَوْنٌ بعيدٌ.

◘ الوَسْواسُ في الطَّهارةِ:

ومِن كيدِهِ الذي بَلَغَ بهِ مِن الجهّالِ مَا بَلَغَ: الوَسْواسُ الذي كادَهم بِهِ في أمرِ الطَّهارةِ والصَّلاةِ عندَ عقدِ النيَّةِ، حتَّى ألقاهُم في الآصارِ والأغلالِ، وأخرَجَهُم عِن اتِّباعِ سُنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ، وخَيَّلَ إلى أحَدِهِم أنَّ ما جاءَتْ بهِ السُّنَّةُ لا يكفي حتَّى يَضُمَّ إليهِ غَيْرَهُ[٢]. فجَمَعَ لهُم بينَ هٰذا الظَّنِّ الفاسِدِ، والتَّعَبِ الحاضِرِ، وبُطلانِ الأجْرِ أو تنقيصِهِ.

ولا ريبَ أنَّ الشَّيطانَ هو الدَّاعي إلى الوسواسِ، فأَهْلُهُ قد أطاعوا الشَّيطانَ، ولبَّوْا دعْوَتَهُ، واتَّبعوا أمْرَهُ، ورَغِبوا عنِ اتِّباعِ سنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وطريقتِه، حتَّى إنَّ أحدَهم لَيَرى أنَّهُ إذا توضَّأَ وضوءَ

---

(١) وهذا كلُّه صحيحٌ مشهورٌ في كتب الشمائل

(٢) فيتأمَّل هذا دُعاةُ الحزبيَّة الباطلة والبيعات الفاسدة، الذين يُريدون دفعَ الناس للدِّين بما ليس من الدين... كأنه ينقصُهُ... فهم يُتمِّمونه به! تعالى الله عما هم يقولون وبه يعملون!!

رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليه وسلَّمَ، أو اغتَسَلَ كاغتسالِهِ؛ لم يَطْهُرْ ولم يرْتَفِعْ حَدَثُه!

ولولا العُذْرُ بالجَهْلِ؛ لكانَ هٰذا مُشاقَّةً للرَّسولِ، فقد كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم يتوضَّأُ بالمُدِّ[1]، وهو قريبٌ مِن ثلثِ رَطْلٍ بالدِّمشقي، ويغتَسِلُ بالصَّاعِ[1]، وهو نحوُ رَطْلٍ وثُلُثٍ.

والموسوَسُ يرى أنَّ ذٰلك القَدْر لا يكفيهِ لغسلِ يديهِ.

فالموسوَسُ مسيءٌ متَعَدٍّ ظالمٌ، فكيفَ يتقرَّبُ إلى اللهِ بما هو مسيءٌ بِهِ متعدٍّ فيهِ لحُدودِهِ؟

وصحَّ عنهُ أنَّهُ كانَ يغتَسِلُ هو وعائشةُ رضي الله عنها مِن قصعةٍ بينَهما، فيها أثرُ العجينِ[2].

ولو رأى الموسْوَسُ مَن يفعَلُ هٰذا لأنكَرَ عليهِ غايةَ الإنكارِ، وقالَ: ما يَكْفي هٰذا القَدْرُ لغسلِ اثنينِ؟ كيفَ والعجينُ يحلِّله الماءُ فيغَيِّرُه؟ هٰذا والرَّشاشُ ينزِلُ في الماءِ فينَجِّسَه عندَ بعضهِم، ويفسِدَه عندَ آخرينَ، فلا تصحُّ بِه الطَّهارةُ.

وثَبَتَ أيضاً في «الصَّحيحِ»[3] عن ابنِ عُمرَ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ: «كانَ الرِّجالُ والنِّساءُ على عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم يتوضَّؤونَ مِن إناءٍ واحدٍ».

والآنيةُ التي كانَ ﷺ وأزواجُهُ وأصحابُه ونساؤهُم يغتسلونَ منها لم تكنْ

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٦٣)، ومسلم (٣٢٥)؛ عن أنس.

(٢) أخرجه النَّسائي (١/ ٤٧)، وابن ماجه (٣٧٨)، وابن حبان (٢٢٧)، وأحمد (٦/ ٣٤٢)، من طريق مُجاهد عن أم هانئ: أنَّ القصَّة مع ميمونة، وسنده صحيحٌ. وقد أُعِلَّ الحديث بما لا يقدح! كما تره والجواب عليه في «الإتمام» (٢٦٩٤٠) يسَّر الله إتمامه. وأمَّا حديث اغتساله ﷺ مع عائشة؛ فليس فيه ذكر القصعة، وقد رواه البخاري (٢٩٩)، ومسلم (٣١٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٣) عن ابن عُمر.

مِن كبارِ الآنيةِ، ولا كانتْ لها مادَّةٌ تمدُّها كأُنبوبِ الحمامِ ونحوِهِ، ولم يكونوا يراعونَ فَيَضانَها حتى يجري الماءُ مِن حافَّاتِها كما يُراعيه جُهَّالُ النَّاسِ مِمَّنْ بُلِي بالوَسْواسِ في جُرْنِ الحمَّامِ(١).

فهَدْيُ رسولِ اللهِ ﷺ الذي مَنْ رَغِبَ عنهُ فقدْ رَغِبَ عن سُنَّتِه: جوازُ الاغتسالِ مِن الحياضِ والآنيةِ، وإنْ كانت ناقصةً غيرَ فائضةٍ، ومَنِ انتظَرَ الحوضَ حتى يفيضَ ثمَّ استعْمَلَهُ وحدَه، ولم يمكِّنْ أحداً أنْ يُشارِكَه في استعمالِه؛ فهو مبتَدعٌ مخالفٌ للشّريعةِ.

قالَ شيخُنا: ويستَحِقُّ التَّعزيرَ البليغَ الذي يزجُرُهُ وأمثالَهُ عن أنْ يَشْرَعوا في الدِّينِ ما لمْ يأْذَنْ بِهِ اللهُ، ويعبدوا اللهَ بالبِدَعِ لا بالاتِّباعِ.

ودَلَّتْ هٰذه السُّنَنُ الصَّحيحَةُ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وأصحابَهُ لم يكونوا يُكْثِرونَ صبَّ الماءِ، ومَضى على هٰذا التَّابعونَ لهُم بإحسانٍ.

قالَ سعيدُ بنُ المسيِّبِ: «إنِّي لأسْتَنْجي مِن كوزِ الحَبِّ(٢)، وأتوضَّأُ وأُفْضِلُ منهُ لأهلي».

وقالَ الإمامُ أحمدُ: «مِن فِقْهِ الرَّجلِ قلَّةُ ولوعِه بالماءِ».

وقال المروزيُّ: «وضَّأْتُ أبا عبدِ اللهِ بالعسكرِ، فسترْتُه مِن النَّاسِ لئلَّا يقولوا: إنَّهُ لا يُحْسِنُ الوضوءَ لقلَّةِ صبِّهِ الماءَ».

وكانَ أحمدُ يتوضَّأُ فلا يكادُ يَبُلُّ الثَّرى.

وثَبَتَ عنهُ ﷺ في «الصَّحيحِ» «**أنَّهُ توضَّأَ مِن إناءٍ فأَدْخَلَ يدَه فيهِ، ثم تمضمَضَ واستنشقَ**»(٣)، وكذٰلك كانَ في غُسْلِه يُدْخِلُ يدَه في الأناءِ، ويتناوَلُ الماءَ منهُ، والموسْوِسُ لا يُجَوِّزُ ذٰلك، ولعلَّهُ أنْ يحكُمَ بنجاسَةِ الماءِ، ويسلُبه طهوريَّتَه بذٰلك.

---

(١) هو الحَجَر المنقورُ يُتَوَضَّأُ منه. (٢) هو: الجَرَّة.

(٣) رواه البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦)؛ عن عُثمان.

وبالجملة؛ فمثلُ هذا تُطاوِعُهُ نفسُه لاتِّباعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم، وأنْ يأتيَ بمثلِ ما أتى بهِ أبداً، وكيفَ يطاوِعُ الموسوسُ نفسَه أن يغتسِل هو وامرأتُه مِن إناءٍ واحدٍ قدْرَ الفَرَقِ[1] قريباً من خمسةِ أرطالٍ بالدِّمشقيِّ، يغمسانِ أيديهِما فيهِ، ويُفرِغانِ عليهِما؟

فالموسوِسُ يشمئزُّ مِن ذلك كما يشمَئِزُّ المشرِكُ إذا ذُكِرَ اللهُ وحده.

◘ شُبُهاتُ أَهلِ الوَسْواسِ:

قالَ أصحابُ الوَسْواسِ: إنَّما حَمَلَنا على ذلك الاحتياطُ لدينِنا، والعملُ بقولِه صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم: «**دَعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُك**»[2]، وقوله: «**مَن اتَّقى الشُّبُهاتِ استَبْرَأَ لدينِه وعِرْضِه**»[3]، وقوله: «**الإثمُ ما حاكَ في الصَّدْرِ**»[4].

وقالَ بعضُ السَّلَفِ[5]: الإثْمُ حَوازُّ القلوبِ[6].

وقد وَجَدَ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ تمرةً فقال: «لولا أنِّي أَخْشى أنْ تكونَ مِن الصَّدَقَةِ لأكَلْتُها»[7].

أفلا يرى أنَّهُ تركَ أكلَها احتياطاً؟

وهٰذا بابٌ يطولُ تتبُّعُه.

---

(١) هو مِكْيال معروف.

(٢) رواه الترمذي (٢٥٢٠)، والنسائي (٨/ ٣٢٧)، وأحمد (١/ ٢٠٠)؛ عن الحسن بن علي بسند صحيح.

(٣) رواه البخاري (١/ ١١٧)، ومسلم (١٥٩٩)؛ عن النعمان بن بشير.

(٤) رواه مسلم (٢٥٥٣) عن النواس بن سمعان.

(٥) هو ابن مسعود، رواه عنه الطبراني في «الكبير» (٨٧٤٨). ورواه العَدَنيُّ وغيره، ولا يصحُّ مرفوعاً.
انظر: «تخريج أحاديث الإحياء» (رقم ٨٠)، و«مجمع الزوائد» (١/ ١٧٦).

(٦) هي الأمور التي تحزُّ فيها، ويُخشى أن تكون معاصي يواقعُها العبد.

(٧) رواه البخاري (٤/ ٢٥١)، ومسلم (١٠٧١)؛ عن أنس.

فالاحتياطُ غيرُ مستَنْكَرٍ في الشَّرْعِ، وإنْ سمَّيْتُموهُ وَسْواساً[١].

وقد كان عبدُ اللهِ بنُ عمرَ يغسِلُ داخلَ عينيهِ في الطَّهارَةِ، حتى عَميَ[٢].

وكانَ أبو هُريرةَ إذا توضَّأَ أَشْرَعَ في العضدِ، وإذا غَسَلَ رجليهِ أشرَعَ في السَّاقينِ.

فنحنُ إذا احْتَطْنا لأنفسِنا وأَخَذْنا باليقينِ وترَكْنا ما يَريبُ إلى ما لا يريبُ، وتَرَكْنا المشكوكَ فيهِ للمتَيَقَّنِ المعلومِ، وتجنَّبْنا محلَّ الاشتباهِ، لم نكُنْ بذٰلك عنِ الشَّريعةِ خارجينَ، ولا في البدعَةِ والجِينَ[٣]، وهل هٰذا إلَّا خيرٌ مِن التَّسهيلِ والاسترسالِ؟ حتى لا يُبالي العبدُ بدينِه، ولا يحتاطُ لهُ، بل يُسَهِّلُ الأشياءَ ويُمَشِّي حالَها، ولا يُبالي كيفَ توضَّأ؟ ولا بأيِّ ماءٍ توضَّأ؟ ولا بأيِّ مكانٍ صلَّى؟ ولا يُبالي ما أصابَ ذَيْلَه وثوبَهُ، ولا يسأَلُ عمَّا عَهِدَ، بل يتغافلُ، ويحسِّنُ ظنَّهُ، فهو مهمِلٌ لدينِه لا يبالي ما شكَّ فيهِ، ويحمِلُ الأمورَ على الطَّهارَةِ، وربَّما كانتْ أفحَشَ النَّجاسةِ، ويدخُلُ بالشَّكِّ ويخرُجُ بالشَّكِّ، فأينَ هٰذا ممَّنِ استقْصى في فعلِ ما أُمِرَ بهِ، واجتَهَدَ فيهِ، حتى لا يُخِلَّ بشيءٍ منهُ، وإنْ زادَ على المأمورِ فإنَّما قصْدُهُ بالزِّيادةِ تكميلُ المأمورِ، وأنْ لا يُنْقِصَ منهُ شيئاً؟

قالوا: وجِماعُ ما يُنْكِرونَه علينا احتياطٌ في فِعْلِ مأمورٍ، أو احتياطٌ في اجتنابِ محظورٍ، وذٰلك خيرٌ وأحسنُ عاقبةً مِن التَّهاوِدِ بهٰذينِ، فإنَّهُ يُفْضي غالباً إلى النَّقْصِ مِن الواجِبِ، والدُّخولِ في المحرَّمِ!

وإذا وازَنَّا بينَ هٰذه المفسَدَةِ ومفسَدَةِ الوِسْواسِ كانتْ مَفْسَدَةُ الوسواسِ أخَفَّ، هٰذا إنْ ساعَدْناكُم على تسمِيَتِه وِسْواساً، وإنَّما نُسمِّيهِ احتياطاً واستظهاراً، فلستُم بأسعَدَ منَّا بالسُّنَّةِ، ونحنُ حولَها نُدَنْدِنُ، وتكميلُها نريدُ!

---

(١) كذا شُبَهُهُم!

(٢) انظر: «سنن البيهقي» (١/ ١٧٧)، و«مصنّف عبد الرزاق» (٩٩١).

(٣) داخلين.

○ ميزانُ أَهلِ الاتِّباعِ:

وقالَ أَهلُ الاقتصادِ والاتِّباعِ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقالَ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقالَ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقالَ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهٰذا الصِّراطُ المستقيمُ الذي وصَّانا باتِّباعِه هو الصِّراطُ الذي كانَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّم وأَصحابُه، وهو قَصْدُ السَّبيلِ، وما خَرَجَ عنهُ فهو مِن السُّبُلِ الجائرةِ، وإِنْ قالَه مَن قالَه، لكنِ الجَوْرُ قد يكونُ جَوْراً عظيماً عن الصِّراطِ، وقد يكونُ يسيراً، وبينَ ذٰلك مراتبُ لا يُحصيها إِلَّا اللهُ، وهٰذا كالطَّريقِ الحسِّيِّ؛ فإِنَّ السالِكَ قدْ يَعْدِلُ عنهُ، ويجورُ جَوْراً فاحِشاً، وقد يجورُ دونَ ذٰلك.

فالميزانُ الَّذي يُعْرَفُ بهِ الاستقامَةُ على الطَّريقِ والجَوْرُ عنهُ هو ما كان رسولُ اللهِ وأَصحابُهُ عليهِ، والجائرُ عنهُ إِمَّا مُفْرِطٌ ظالِمٌ، أو مجتَهِدٌ متأَوِّلٌ، أو مقلِّدٌ جاهِلٌ، فمنهُم المستحقُّ للعقوبَةِ، ومنهُم المغفورُ لهُ، ومنهُم المأْجورُ أجراً واحِداً، بحسبِ نِيَّاتِهم ومقاصِدِهم واجتهادِهم في طاعةِ اللهِ تعالى ورسولِه أو تَفْريطِهم.

ونحنُ نسوقُ مِن هَدْيِ رسولِ اللهِ وهَدْيِ أَصحابِه ما يبيِّنُ أَيَّ الفريقينِ أَوْلى باتِّباعِه، ثمَّ نجيبُ عمَّا احتَجُّوا بهِ بعونِ اللهِ وتوفيقِه.

ونقدِّمُ قبلَ ذٰلك ذِكْرَ النَّهْيِ عنِ الغلوِّ، وتعدِّي الحدودِ، والإِسرافِ، وأَنَّ الاقتصادَ والاعتصامَ بالسنَّةِ عليهِما مدارُ الدِّينِ:

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وقالَ تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقالَ تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقالَ تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقالَ تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ ﷺ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم ـ غَداةَ العقَبَةِ وهُو على ناقتِه ـ: «**الْقُطْ لي حَصًى**»، فلَقَطْتُ لهُ سبعَ حَصَياتٍ مِن حَصى الخَذْفِ، فجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ في كفِّهِ، ويقولُ: «**أمثالَ هٰؤلاءِ فارْمُوا**»، ثمَّ قالَ: «**أيُّها النَّاسُ! إيَّاكُم والغُلوَّ في الدِّينِ؛ فإنَّما أهلَكَ الذينَ مِن قبلِكُم الغُلوُّ في الدِّينِ**» رواه الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ[1].

فنَهى النبيُّ ﷺ عنِ التَّشديدِ في الدِّينِ، وذٰلك بالزِّيادةِ على المشروعِ، وأخبرَ أنَّ تشديدَ العبدِ على نفسِهِ هو السَّبَبُ لتشديدِ اللهِ عليهِ، إمَّا بالقَدَرِ، وإمَّا بالشَّرْعِ:

فالتَّشديدُ بالشَّرْعِ؛ كما يشدِّدُ على نفسِه بالنَّذْرِ الثَّقيلِ، فيلزَمُه الوفاءُ بِه.

وبالقَدَرِ؛ كفعلِ أهلِ الوسواسِ، فإنَّهُم شدَّدوا على أنفُسِهم فشدَّدَ عليهِم القَدَرُ، حتى استَحْكَمَ ذٰلك وصارَ صفةً لازمةً لهُم.

قالَ البخاريُّ[2]: «وكَرِهَ أهلُ العلمِ الإسرافَ فيهِ ـ يعني: الوضوءَ ـ وأنْ يُجاوِزُوا فعلَ النبيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم».

وقالَ ابنُ عُمرَ ﷺ: «إسباغُ الوضوءِ: الإنقاءُ»[3].

---

(١) رواه أحمد (١٨٥١ و٣٢٤٨)، والنسائي (٥/ ٢٦٨)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن حبان (١٠١١)، والطبراني في «الكبير» (١٢٧٤٧)، والحاكم (١/ ٤٦٦)؛ من طريق أبي العالية عن ابن عباس. وسنده صحيح.

(٢) في «صحيحه» (١/ ٢٣٢).

(٣) «صحيح البخاري» (١/ ٢٣٩ ـ فتح) معلَّقاً، وصحَّحه الحافظ في «تغليق التعليق» (٨/ ٩٩) ذاكراً من وصله. وانظر: «مصنَّف عبد الرزاق» (١/ ٣٧ ـ ٤٤).

فالفقهُ كلُّ الفقهِ الاقتصادُ في الدِّينِ، والاعتصامُ بالسُّنَّةِ.

قالَ أُبَيُّ بنُ كعبٍ: «عليكُم بالسَّبيلِ والسُّنَّةِ؛ فإنَّهُ ما مِن عبدٍ على السَّبيلِ والسُّنَّةِ ذَكَرَ اللهَ ﷻ فاقشعَرَّ جِلْدُه مِن خشيةِ اللهِ تعالى إلَّا تحاتَّتْ عنهُ خطاياهُ كما يَتحاتُّ عن الشَّجرةِ اليابسَةِ وَرَقُها، وإنَّ اقتصاداً في سبيلٍ وسنَّةٍ خيرٌ مِن اجتهادٍ في خلافِ سبيلٍ وسُنَّةٍ، فاحْرِصُوا إذا كانَتْ أعمالُكُم اقتصاداً أنْ تكونَ على منهاجِ الأنبياءِ وسُنَّتِهم».

قالَ الشيخُ أبو محمَّدٍ المقدسيُّ في كتابِهِ «ذَمِّ الوِسْواسِ»(١):

الحمدُ للهِ الذي هدانا بنِعْمَتِه، وشرَّفَنا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ، وبرسالَتِه، ووفَّقَنا للاقتداءِ بهِ والتَّمَسُّكِ بسنَّتِه، ومَنَّ علينا باتِّباعِه الذي جَعَلَهُ عَلَماً على محبَّتِه ومَغْفِرَتِه، وسبباً لكتابةِ رَحْمَتِه وحصولِ هدايَتِه، فقالَ سبحانَه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقالَ تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، ثمَّ قالَ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف ١٥٨].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ سبحانَه جعَلَ الشَّيطانَ عَدُوّاً للإنسانِ، يقعُدُ لهُ الصِّراطَ المستقيمَ، ويأتيهِ مِن كلِّ جهةٍ وسبيلٍ، كما أخبرَ اللهُ تعالى عنهُ أنَّهُ قالَ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وحَذَّرَنا اللهُ ﷻ مِن متابعتِه، وأمرنا بمعاداتِه ومخالفتِه، فقالَ سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، وقالَ: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

---

(١) وقد أفردت بالطبع قديماً سنة (١٩٢٣) في المطبعة العربية بالقاهرة.

وأَخْبَرَنا بما صنعَ بأَبَوَيْنا تحذيراً لنا مِن طاعتِه، وقطعاً للعُذْرِ في متابعتِه.
وأَمَرَنا اللهُ ﷻ باتِّباعِ صِراطِه المستقيم، ونهانا عن اتِّباعِ السُّبُلِ، فقالَ سبحانَه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وسَبيلُ اللهِ وصراطُهُ المستقيمُ: هو الذي كانَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ وصحابتُه؛ بدليلِ قولِهِ ﷻ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ [يس: ١ ـ ٤]، وقالَ: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، وقالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فمَنِ اتَّبَعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّم في قولِه وفِعْلِه؛ فهو على صِراطِ اللهِ المستقيمِ، وهو ممَّنْ يُحِبُّهُ اللهُ ويَغْفِرُ لهُ ذنوبَهُ، ومَن خالَفَهُ في قولِه أو فعلِهِ فهو مبتَدعٌ، متَّبعٌ لسبيلِ الشَّيطانِ، غيرُ داخلٍ فيمَن وَعَدَ اللهُ بالجنَّةِ والمغفِرَةِ والإِحسانِ.

◘ طاعَةُ المُوَسْوِسينَ للشَّيطانِ:

ثمَّ إنَّ طائفةً مِن الموسوِسينَ قد تحقَّق منهُم طاعَةُ الشَّيطانِ، حتَّى اتَّصفوا بوسْوَسَتِه، وقَبِلوا قولَه، وأطاعوهُ، ورَغِبوا عن اتِّباعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم وصحابتِه، حتى إنَّ أحدَهُم لَيرى أنَّهُ إذا توضَّأ وُضوءَ رسولِ اللهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، أو صلَّى كصلاتِه؛ فوضوؤهُ باطلٌ، وصلاتُهُ غيرُ صحيحةٍ. ويَرى أنَّهُ إذا فعَلَ مثلَ فعلِ رسولِ اللهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في مُواكَلَةِ الصِّبيانِ، وأكلِ طعامِ عامَّةِ المسلمينَ: أنَّهُ قدْ صارَ نَجِساً، يجبُ عليهِ تسبيعُ يدِه وفمِه، كما لو وَلَغَ فيهما كلبٌ، أو بالَ عليهما هِرٌّ!

ثمَّ إنَّهُ بلَغَ مِن استيلاءِ إبليسَ عليهِم أنَّهُم أجابُوهُ إلى ما يُشْبِهُ الجُنونَ، ويُقارِبُ مذهَبَ السوفَسْطائيَّةِ[١] الَّذينَ يُنْكِرونَ حقائقَ الموجوداتِ، والأمورَ المحسوساتِ.

---

(١) قال الفارابي في «إحصاء العلوم» (ص٢٤): «وهذا الاسمُ اسمُ المهنة التي بها يقدِر

وعِلْمُ الإنسانِ بحالِ نفسِهِ مِن الأمورِ الضَّروريَّات اليقينيَّاتِ، وهؤلاءِ يغْسِلُ أَحَدُهُم عُضْوَهُ غَسْلاً يشاهِدُهُ ببصَرِه، ويُكَبِّرُ، ويقرأُ بلسانِهِ، بحيثُ تسمَعُه أذناهُ، ويعلَمُه بقلبِهِ، بل يعْلَمُه غيرُه منهُ ويتيَقَّنُه، ثمَّ يشكُّ: هلْ فعَلَ ذٰلك أَمْ لا؟ وكذلك يُشَكِّكُهُ الشَّيطانُ في نِيَّتِه وقَصْدِه التي يَعْلَمها مِن نفسِهِ يقيناً، بل يَعْلَمها غيرُه بقرائِنِ أحوالِهِ!

ومعَ هٰذا يقبلُ قولَ إبليسَ في أنَّهُ ما نوى الصَّلاةَ، ولا أرادَها، مُكابرةً منهُ لعَيانِه، وجَحْداً ليقينِ نَفْسِه، حتى تراهُ مُتردِّداً مُتحيِّراً، كأَنَّهُ يعالجُ شيئاً يجتَذِبُه أو يَجِدُ شيئاً في باطِنِه يستخرِجُه!

كلُّ ذٰلك مبالغةٌ في طاعةِ إبليسَ، وقَبولِ وسوستِه، ومَنِ انتَهَتْ طاعَتُه لإبليسَ إلى هٰذا الحدِّ فقد بَلَغَ النِّهايَةَ في طاعتِه.

ثمَّ إنَّهُ يُقْبَلُ قولُهُ في تعذيبِ نفسِهِ ويُطيعُهُ في الإضرارِ بجَسَدِه، تارةً بالغَوْصِ في الماءِ البارِدِ، وتارةً بكثرةِ استعمالِهِ وإطالةِ العَرْكِ[1]، وربَّما فَتَحَ عينيهِ في الماءِ البارِدِ، وغَسَلَ داخِلَهما حتى يَضُرَّ ببصرِهِ، وربَّما أفضى إلى كشفِ عورَتِه للنَّاسِ، وربَّما صارَ إلى حالٍ يسخَرُ منهُ الصِّبيانُ ويستهزئُ بِه مَن يراهُ.

قلتُ: ذكَرَ أبو الفرجِ بنُ الجوزيِّ[2] عن أبي الوفاءِ بنِ عقيلٍ: أنَّ رجلاً قالَ لهُ: أَنْغَمِسُ في الماءِ مراراً كثيرةً وأشكُّ: هل صحَّ لي الغسلُ أم لا، فما ترى في ذٰلك؟

= الإنسان على المغالطة والتمويه والتلبيس بالقول والإيهام».
وانظر: «الصفدية» (١/ ٩٧ ـ ٩٨)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ١٥) كلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية، وتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، و«المنتقى النفيس من تلبيس إبليس» (ص٦٥) بقلمي.

(١) الدَّلْك.

(٢) في «تلبيس إبليس» (ص١٦٦ ـ ١٦٧، المنتقى النفيس).

فقالَ لهُ الشَّيخُ: اذْهَبْ؛ فقدْ سَقَطَتْ عنكَ الصَّلاةُ. قالَ: وكيفَ؟ قالَ: لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ قالَ: **«رُفِعَ القلمُ عن ثلاثةٍ: المجنونِ حتَّى يُفيقَ، والنَّائمِ حتى يستَيْقِظَ، والصبيِّ حتَّى يَبْلُغَ»**[1]، ومَن ينغَمِسُ في الماءِ مِراراً ويشكُّ هل أصابَهُ الماءُ أَمْ لا؛ فهو مجنونٌ.

قالَ[2]: وربَّما شَغَلَهُ بوسْواسِهِ حتى تفوتَهُ الجماعةُ، وربَّما فاتَه الوقتُ، ويَشغلُه بوسوسَتِه في النيَّةِ حتى تفوتَه التَّكبيرةُ الأولى، وربَّما فوَّتَ عليهِ ركعةً أو أكثرَ، ومنهُم مَن يحلِفُ أنَّهُ لا يزيدُ على هٰذا ثم يكْذِبُ!

قلتُ: وحكى لي مَن أثِقُ بهِ عَن مُوَسْوَسٍ عظيمٍ رأيْتُه أنا يُكرِّرُ عقدَ النيَّةِ مراراً عديدةً، فَيَشُقُّ على المأمومينَ مشقَّةً كبيرةً، فعُرِضَ لهُ أنْ حَلَفَ بالطَّلاقِ إنَّهُ لا يَزيدُ على تلكَ المرَّةِ، فلم يَدَعْهُ إبليسُ حتى زادَ، ففرَّقَ بينَه وبينَ امرأتِه. فأصابَهُ لذٰلك غَمٌّ شديدٌ، وأقاما متفرِّقَيْنِ دهراً طويلاً، حتَّى تزوَّجَتْ تلكَ المرأةُ برجلٍ آخَرَ، وجاءَهُ منها ولدٌ، ثمَّ إنَّهُ حَنَثَ في يمينٍ حَلَفَها ففرَّقَ بينَهما، ورُدَّتْ إلى الأوَّلِ بعدَ أنْ كادَ يتْلَفُ[3] لمفارَقَتِها.

وبلَغَني عن آخَرَ أنَّهُ كانَ شديدَ التَّنطُّعِ في التلفُّظِ بالنيَّةِ والتقعُّرِ في ذٰلك، فاشتدَّ بهِ التَّنَطُّعُ والتقعُّرُ يوماً إلى أنْ قالَ: أُصَلِّي، أُصَلِّي - مراراً - صلاةَ كذا وكذا، وأرادَ أنْ يقولَ: أداءً[4]، فأعْجَمَ الدَّالَ، وقال: أذاءً للهِ. فقطعَ الصَّلاةَ رجلٌ إلى جانِبِهِ، فقالَ: ولرسولِهِ وملائكتِهِ وجَماعةِ المصلِّينَ!!

قالَ: ومنهُم مَن يتوسْوَسُ في إخراجِ الحرْفِ حتَّى يُكَرِّرَهُ مراراً.

قالَ: فرأيْتُ مِنْهُم مَن يقولُ: اللهُ أكْككبَرُ!

---

(١) حديث صحيح، يُنظر تخريجه في «المنتقى النفيس» (ص١٦٧).

(٢) يعني: ابن قُدامة. (٣) يهلك.

(٤) وكلُّ هذه الألفاظ المنكرَّرة التي يقولُها العامةُ: (أداءً)... (اقتداءً)... (مستقبل القبلة)... كلها لا أصل لها. والنيَّةُ عزم القلب على فعل الشيء، ولا شأن للسان بها، وسيشرحها المصنف قريباً.

قالَ: وقالَ لي إنسانٌ منهُم: قَدْ عَجِزْتُ عن قولِ: «السلامُ عليكُم»، فقلتُ لهُ: قُلْ مثلَ ما قد قُلْتَ الآنَ، وقد استَرَحْتَ!

وقد بَلَغَ الشَّيطانُ مِنهُم أنْ عَذَّبَهُم في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ، وأخرَجَهُم عَنِ اتِّباعِ الرَّسولِ، وأدْخَلَهُم في جملةِ أهلِ التَّنَطُّعِ والغُلُوِّ.

وهُمْ يَحْسَبونَ أنَّهُم يُحْسِنونَ صُنْعاً.

فمَن أرادَ التَّخَلُّصَ مِن هٰذه البليَّةِ فليستشْعِرْ أنَّ الحقَّ في اتِّباعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ وفِعْلِه، وليعْزِمْ على سُلوكِ طريقتِه عزيمةَ مَن لا يشُكُّ أنَّهُ على الصِّراطِ المستقيم، وأنَّ ما خالَفَهُ مِن تسويل إبليسَ ووسوستِه، ويوقِنُ أنَّهُ عدوٌّ لهُ لا يدعُوهُ إلى خيرٍ، ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وليتْرُكِ التَّعريجَ على كلِّ ما خالَفَ طريقةَ رسولِ اللهِ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ كائناً ما كانَ؛ فإنَّهُ لا يشكُّ أنَّ رسولَ اللهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كانَ على الصِّراطِ المستقيمِ، ومَن شكَّ في هٰذا؛ فليسَ بمسلمٍ.

ومَن عَلِمَه؛ فإلى أينَ العُدولُ عن سُنَّتِه؟

وأَيُّ شيءٍ يَبْتَغي العبدُ غيرَ طريقَتِهِ؟

ويقولُ لنفسِهِ: ألسْتِ تعلمينَ أنَّ طريقةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ هي الصِّراطُ المستقيمُ؟

فإذا قالتْ له: بلى.

قالَ لها: فهَلْ كانَ يفعَلُ هٰذا؟

فستقولُ: لا.

فقُلْ لها: فماذا بعدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ؟

وهل بعدَ طريقِ الجنَّةِ إلَّا طريقُ النَّارِ؟

وهل بعدَ سبيلِ اللهِ وسبيلِ رسولِهِ إلَّا سَبيلُ الشَّيطانِ؟

فإنِ اتَّبَعْتِ سبيلَهُ كُنْتِ قرينَه، وستقولينَ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

ولْيَنْظُرْ أحوالَ السَّلَفِ في متابَعَتِهم لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ، فليَقْتَدِ بهِم، ولْيَحْتَذِ طريقَهُمْ، فقد رُوِّينا عن بعضِهم أنَّهُ قالَ: «لقد تَقَدَّمني قومٌ لو لم يجاوِزوا بالوضوءِ الظُّفْرَ ما تجاوزْتُه».

قلتُ: هو إبراهيمُ النَّخَعيُّ.

وقالَ زينُ العابدينَ يوماً لابنِهِ: «يا بنيَّ! اتَّخِذْ لي ثوباً ألبَسُه عندَ قضاءِ الحاجَةِ؛ فإنِّي رأيْتُ الذُّبابَ يسقُطُ على الشَّيءِ، ثمَّ يقعُ على الثَّوْبِ، ثمَّ انتبَه، فقالَ: ما كانَ للنبيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم وأصحابِه إلَّا ثوبٌ واحدٌ[١]، فتَرَكَهُ».

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ يهمُّ بالأمرِ ويعزِمُ عليهِ، فإذا قيلَ لهُ: لم يَفْعَلْهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ؛ انتهى، حتى إنَّهُ قالَ: لقد هَمَمْتُ أنْ أنْهى عن لُبْسِ هذه الثِّيابِ؛ فإنَّهُ قد بَلَغَني أنَّها تُصْبَغُ ببولِ العجائِزِ!

فقالَ لهُ أُبَيٌّ: ما لَكَ أنْ تَنْهى؛ فإنَّ رسولَ اللهِ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ قد لبسَها ولُبِسَتْ في زمانِه، ولو عَلِمَ اللهُ أنَّ لُبْسَها حرام؛ لبيَّنَه لرسولِهِ ﷺ.

فقالَ عمرُ: صَدَقْتَ[٢].

ثم لِيَعْلَمْ أنَّ الصَّحابَةَ ما كانَ فيهِم مُوَسْوَسٌ، ولو كانَتِ الوسوسةُ فضيلةً؛ لما ادَّخَرَها اللهُ عن رسولِهِ وصحابته، وهُم خيرُ الخَلْقِ وأفضلُهم، ولو أدركَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم الموسْوَسينَ لمَقَتَهُم، ولو أدركَهُم عُمرُ رضي اللهُ تعالى عنهُ لضَرَبَهُم وأدَّبَهُم، ولو أدْرَكَهُم الصَّحابَةُ لبدَّعوهُم.

وها أنا أذكُرُ ما جاءَ في خِلافِ مذهَبِهِم على ما يسَّرَهُ اللهُ تعالى مفصَّلاً:

---

(١) وفي «شمائل الترمذي» (ص٤٦ ـ ٥١) بيانُ أنه ﷺ كان له أكثر من ثوبٍ، لكنْ كلُّها على قَدْر الحاجة، والله أعلم.

(٢) رواه أحمد (٥/١٤٣)، وعبد الرزاق (١٤٩٥) بسند منقطع كما قال الهيثمي (٥/١٢٨).



١ النيَّةُ في الطَّهارةِ والصَّلاةِ

النيَّةُ هي القَصْدُ والعزمُ على فعلِ الشَّيءِ.

ومحلُّها القلبُ، لا تَعَلُّقَ لها باللِّسانِ أصلاً، ولذٰلك لم يُنقَلْ عن النبيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم ولا عنْ أصحابِه في النيَّةِ لَفْظٌ بحالٍ، ولا سَمِعْنا عنهُم ذِكْرَ ذٰلك.

وهٰذه العباراتُ التي أُحْدِثَتْ عندَ افتتاحِ الطَّهارَةِ والصَّلاةِ قد جَعَلها الشَّيطانُ مُعْتَرَكاً لأهلِ الوسواسِ، يحبِسُهم عندَها، ويعذِّبُهُم فيها، ويوقِعُهم في طلبِ تصحيحِها، فترى أحدَهُم يكَرِّرها ويُجْهِدُ نَفْسَهُ في التَّلَفُّظِ بها، وليستْ مِن الصَّلاةِ في شيءٍ.

وإنَّما النِّيَّةُ قصدُ فِعْلِ الشَّيْءِ، فكلُّ عازمٍ على فعلٍ فهو ناويه، لا يُتَصَوَّرُ انفكاكُ ذٰلك عنِ النِّيَّةِ؛ فإنَّهُ حقيقتُها، فلا يمكِنُ عَدَمُها في حالِ وجودِه، ومَن قَعَدَ ليتوضَّأَ؛ فقدْ نوى الوضوءَ، ومَن قامَ لِيُصَلِّيَ؛ فقد نوى الصَّلاةَ، ولا يكادُ العاقِلُ يفعَلُ شيئاً مِن العِباداتِ ولا غَيْرِها بغيرِ نِيَّةٍ.

فالنِّيَّةُ أمرٌ لازمٌ لأفعالِ الإنسانِ المقصودةِ، لا يحتاجُ إلى تَعَبٍ ولا تحصيلٍ، ولو أرادَ إخلاء أفعالِهِ الاختيارِيَّةِ عن نيَّةٍ؛ لعَجَزَ عن ذٰلك، ولو كلَّفَهُ اللهُ ﷻ الصَّلاةَ والوضوءَ بغيرِ نيَّةٍ؛ لكلَّفَهُ ما لا يطيقُ، ولا يدخُلُ تحتَ وُسْعِهِ.

وما كانَ هٰكذا؛ فما وَجْهُ التَّعَبِ في تحصيلِهِ؟!

وإنْ شَكَّ في حصولِ نيَّتِه؛ فهو نوعُ جُنونٍ، فإنَّ عِلْمَ الإنسانِ بحالِ نفسِهِ أمرٌ يقينيٌّ، فكيفَ يَشُكُّ فيهِ عاقلٌ مِن نفسِهِ؟ ومَن قامَ لِيُصَلِّي صلاةَ الظُّهْرِ خَلْفَ الإمامِ فكيفَ يشكُّ في ذٰلك؟

ولو دَعاهُ داعٍ إلى شُغْلٍ في تلكَ الحالِ؛ لقالَ: إنِّي مشتغلٌ أُريدُ صلاةَ الظُّهرِ!

ولو قالَ لهُ قائلٌ في وقتِ خروجِهِ إلى الصَّلاةِ: أينَ تمضي؟ لقالَ: أُريدُ صلاةَ الظُّهرِ معَ الإمامِ.

فكيفَ يشكُّ عاقِلٌ في هٰذا مِن نفسِهِ وهو يعلَمُه يقيناً؟

بل أعجَبُ مِن هٰذا كلِّهِ أنَّ غيرَهُ يعلَمُ بنيَّتِه بقرائِنِ الأحوالِ؛ فإنَّهُ إذا رأى إنساناً جالساً في الصَّفِّ في وقتِ الصَّلاةِ عندَ اجتماعِ النَّاسِ؛ عَلِمَ أنَّهُ ينتَظِرُ الصَّلاةَ، وإذا رآهُ قد قامَ عندَ إقامَتِها ونهوضِ النَّاسِ إليها؛ عَلِمَ أنَّهُ إنَّما قامَ ليصَلِّيَ، فإنْ تقدَّمَ بينَ يدي المأمومينَ؛ عَلِمَ أنَّهُ يريدُ إمامَتَهُم، فإنْ رآهُ في الصَّفِّ؛ عَلِمَ أنَّهُ يُريدُ الائتِمامَ.

قالَ: فإذا كانَ غيرُهُ يعلمُ نيَّتَه الباطنةَ بما ظهَرَ مِن قرائنِ الأحوالِ. فكيفَ يجهَلُها مِن نفسِهِ، مع اطِّلاعِهِ هو على باطنِه؟ فَقبولُهُ مِن الشَّيطانِ أنَّهُ ما نوى تصديقٌ لهُ في جحدِ العِيانِ، وإنكارِ الحقائقِ المعلومةِ يقيناً، ومخالفةٌ للشَّرعِ، ورغبةٌ عن السُّنَّةِ، وعن طريقِ الصَّحابةِ.

ثمَّ إنَّ النيَّةَ الحاصلةَ لا يمكِنُ تحصيلُها، والموجودةُ لا يُمْكِنُ إيجادُها؛ لأنَّ مِن شرطِ إيجادِ الشَّيءِ كونَهُ معدوماً؛ فإنَّ إيجادَ الموجودِ محالٌ، وإذا كانَ كذٰلك؛ فما يحصُلُ لهُ بوقوفِه شيءٌ، ولو وقفَ ألْفَ عامٍ!

قالَ: ومِن العَجَبِ أنَّهُ يتوسْوَسُ حالَ قيامِهِ، حتى يركَعَ الإمامُ، فإذا خَشِيَ فواتَ الرُّكوعِ كَبَّرَ سريعاً، وأدْرَكَهُ، فمَن لم يُحَصِّلِ النِّيَّةَ في الوقوفِ الطَّويلِ حالَ فراغِ بالِهِ؛ كيفَ يُحَصِّلُها في الوقتِ الضَّيِّقِ معَ شُغْلِ بالِهِ بفواتِ الرَّكعةِ؟!

ثم ما يطلُبُه إمَّا أنْ يكونَ سهلاً أو عسيراً:

فإنْ كانَ سهلاً؛ فكيفَ يُعَسِّرُهُ؟

وإنْ كانَ عسيراً؛ فكيفَ تَيَسَّرَ عندَ ركوعِ الإمامِ سواءً؟

وكيفَ خَفِيَ ذٰلك على النبيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وصحابَتِه مِن أوَّلِهم إلى آخِرِهِم، والتَّابعينَ، ومَن بعْدَهُم؟

وكيفَ لم يَنْتَبِهْ لهُ سوى مَن استَحْوَذَ عليهِ الشَّيطانُ، أفَيَظُنُّ بجَهْلِهِ أنَّ الشَّيطانَ ناصِحٌ لهُ؟

أما عَلِمَ أنَّهُ لا يَدْعو إلى هُدًى، ولا يَهْدي إلى خيرٍ؟

وكيفَ يقولُ في صلاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وسائرِ المسلمينَ الَّذينَ لم يفْعَلوا فعلَ هٰذا الموسوِس؟

أهِيَ ناقصةٌ عندَهُ مفضولةٌ؟

أم هِيَ التَّامَّةُ الفاضِلَةُ، فما دعاهُ إلى مخالَفَتِهم والرَّغبةِ عن طريقِهِم؟

فإنْ قالَ: هٰذا مرضٌ بُليتُ منهُ!

قلْنا: نعمْ؛ سببُه قَبولُكَ مِن الشَّيطانِ، ولم يَعْذُرِ اللهُ تعالى أحداً بذٰلك، ألا ترى أنَّ آدَمَ وحوَّاءَ لمَّا وَسْوَسَ لهُما الشَّيطانُ فَقَبِلا منهُ أُخرِجا مِن الجنَّةِ، ونُودِيَ عليهِما بما سَمِعْتَ، وهُما أقرَبُ إلى العُذْرِ؛ لأنَّهما لم يتقَدَّمْ قبلَهُما مَن يَعْتَبِرانِ بهِ، وأنتَ قد سَمِعْتَ وحَذَّرَكَ اللهُ تعالى مِن فِتْنَتِه، وبيَّنَ لكَ عَداوَتَه، وأوضحَ لكَ الطَّريقَ، فما لكَ عُذرٌ ولا حُجَّةٌ في تَرْكِ السُّنَّةِ والقَبولِ مِن الشَّيطانِ.

قلتُ: قالَ شيخُنا: ومِن هٰؤلاءِ مَن يأتي بعَشْرِ بدَعٍ لَمْ يَفْعَلْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ ولا أحدٌ مِن أصحابِهِ واحدةً منها، فيقولُ:

أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، نويتُ أُصلِّي صلاةَ الظُّهْرِ، فَريضةَ الوقتِ، وأداءً، للهِ تعالى، إماماً أو مأموماً، أربعَ رَكَعاتٍ، مستَقْبِلَ القِبلَةِ. ثمَّ يُزْعِجُ أعضاءَهُ، ويَحْني جَبْهَتَه، ويقيمُ عروقَ عُنُقِه، ويصرخُ بالتَّكبيرِ كأنَّهُ يُكَبِّرُ على العَدُوِّ!

ولو مَكَثَ أحدُهُم عُمُرَ نوحٍ ﷺ يفتِّشُ: هل فعَلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ أو أحدٌ مِن أصحابِهِ شيئاً مِن ذٰلك، لما ظَفِرَ بهِ؛ إلَّا أنْ يُجاهِرَ الكَذِبَ البَحْتَ، فلو كانَ في هٰذا خيرٌ لَسَبقونا إليهِ، ولدَلُّونا عليهِ؛ فإنْ كانَ هٰذا هُدًى؛ فقد ضَلُّوا عنهُ، وإنْ كانَ الَّذي كانُوا عليهِ هُو الهُدى والحقُّ؛ فماذا بعدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ؟!

قالَ: ومِن أصنافِ الوسواسِ ما يُفْسِدُ الصَّلاةَ؛ مثلُ تكريرِ بعضِ الكلمةِ؛ كقولِهِ في التَّحيَّاتِ: اتَ اتَ، التحيّ، التحيّ، وفي السَّلامِ: أسّ أسّ. وقولُه في التَّكبيرِ: أكَكْكْبر... ونحو ذٰلك!

فهٰذا؛ الظَّاهِرُ بُطلانُ الصَّلاةِ بهِ، وربَّما كانَ إماماً فأفسَدَ صلاةَ المأمومينَ، وصارتِ الصَّلاةُ التي هيَ أكبَرُ الطَّاعاتِ أعظمَ إبعاداً لهُ عَنِ اللهِ مِن الكبائرِ، وما لم تَبْطُلْ بهِ الصَّلاةُ مِن ذٰلك فمكروهٌ، وعُدولٌ عن السُّنَّةِ، ورغبةٌ عن طريقةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وهَدْيِهِ، وما كانَ عليهِ أصحابُه.

وربَّما رَفَعَ صَوْتَهُ بذٰلك، فآذى سامِعيهِ، وأغْرى النَّاسَ بذمِّهِ والوقيعَةِ فيهِ، فجَمَعَ على نفسِهِ طاعَةَ إبليسَ ومخالفَةَ السُّنَّةِ، وارتكابَ شَرِّ الأمورِ ومحدَثاتِها، وتعذيبَ نفسِهِ، وإضاعَةَ الوقتِ، والاشتغالَ بما يُنْقِصُ أجْرَهُ، وفواتَ ما هُو أنْفَعُ لهُ، وتعريضَ نفسِهِ لطعنِ النَّاسِ فيهِ، وتغريرَ الجاهلِ بالاقتداءِ بهِ ـ فإنَّهُ يقولُ: لولا أنَّ ذٰلك فَضْلٌ لما اختارَهُ لنفسِهِ، وأساءَ الظَّنَّ بما جاءَتْ بهِ السُّنَّةُ، وأنَّهُ لا يكفي وَحْدَه ـ وانفعالَ النَّفْسِ وضَعْفَها للشَّيطانِ، حتى يشتَدَّ طمَعُهُ فيهِ، وتعريضَهُ نفسَهُ للتَّشديدِ عليهِ بالقَدَرِ، عقوبةً لهُ، وإقامَتَهُ على الجهلِ، ورِضاهُ بالخَبَلِ في العقْلِ.

فهذه نحوُ خمسَ عَشرَةَ مفسدةً في الوسواسِ!

ومفاسِدُهُ أضعافُ ذٰلك بكثيرٍ.

وقد روى مسلمٌ في «صحيحِه»[1] مِن حديثِ عُثمانَ بنِ أبي العاصِ قالَ: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ! إنَّ الشَّيطانَ قَد حالَ بَيْني وبينَ صَلاتي يُلَبِّسُها عليَّ. فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ: **«ذاكَ شيطانٌ يُقالُ لهُ: خِنْزَبٌ، فإذا أحْسَسْتَهُ فتَعَوَّذْ باللهِ منهُ، واتْفُلْ عن يَسارِكَ ثلاثاً، ففَعَلْتُ ذٰلك، فأذْهَبَهُ اللهُ تعالى عنِّي»**.

فأهْلُ الوسواسِ قُرَّةُ عينِ خِنْزَبَ وأصحابِهِ، نعوذُ باللهِ ﷻ منهُ.

---

(١) برقم (٢٢٠٣).

• الإسرافُ في الماءِ:

ومِن ذٰلك الإسرافُ في ماءِ الوضوءِ والغُسْلِ:

وقد روى أحمدُ في «مسندِه»[1] مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو: «أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ مَرَّ بسعدٍ وهو يتوضَّأُ»، فقالَ: «**لا تُسْرِفْ**». فقالَ: يا رسولَ اللهِ! أَوَ في الماءِ إسرافٌ؟ قالَ: «**نعمْ؛ وإنْ كُنْتَ على نهرٍ جارٍ**».

وفي «المسنَدِ» و«السُّنَنِ»[2] مِن حديثِ عمرِو بنِ شُعيبٍ عن أبيهِ عن جَدِّهِ قالَ: «جاءَ أعرابيٌّ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ يسألُهُ عن الوضوءِ، فأراهُ ثلاثاً ثلاثاً، وقالَ: «**هٰذا الوضوءُ فمَنْ زادَ على هٰذا فقدْ أساءَ وتَعَدَّى وظَلَمَ**»».

روى الإمامُ أحمدُ في «مسندِهِ»[3] عن جابرٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ: «**يُجْزِئُ مِن الغُسْلِ الصَّاعُ، ومِن الوُضوءِ المُدُّ**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[4] عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنها: «أنَّها كانتْ تَغْتَسِلُ هي والنبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ مِن إناءٍ واحدٍ يَسَعُ ثلاثةَ أمدادٍ أو قَريباً مِن ذٰلك».

وقالَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ عطاءٍ: سمعتُ سعيدَ بنَ المسيِّبِ يقولُ: «إنَّ لي رِكْوَةً[5] أو قَدَحاً، ما يسعُ إلَّا نَصْفَ المدِّ أو نَحْوَهُ، أبولُ ثمَّ أتوضَّأُ منهُ، وأُفْضِلُ منهُ فَضْلاً».

قالَ عبدُ الرحمٰنِ: فَذَكَرْتُ ذٰلك لسليمانَ بنِ يسارٍ، فقالَ: «وأنا يَكْفيني مثلُ ذٰلك».

---

(١) برقم (٧٠٦٥) وسنده حسنٌ كما بيَّنْتُه في «المنتقى النفيس» (ص١٦٣)

(٢) رواه أبو داود (١٣٥)، وأحمد (٢/ ١٨٠)، وغيرهما؛ بسند حسن.

(٣) سنده صحيح، وهو في «الإتمام لتخريج أحاديث المسند الإمام» (١٥٠١٨) مفصَّلاً.

(٤) برقم (٣٢١) (٤٤).

(٥) إناء من جلد يُستعمل للشرب ونحوه.

قالَ عبدُ الرحمٰنِ: فذَكَرْتُ ذٰلك لأبي عُبيدةَ بنِ محمَّدِ بنِ عمَّارِ بنِ ياسرٍ، فقالَ: «وهٰكذا سَمِعْنا مِن أَصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ». رواهُ الأثرمُ في «سُنَنِهِ».

وقالَ إبراهيمُ النَّخَعِيُّ: «كانُوا أَشدَّ استيفاءً للماءِ منكُم، وكانُوا يَرَوْنَ أَنَّ ربعَ المُدِّ يُجْزِئُ مِن الوضوءِ».

وهٰذا مبالغةٌ عظيمةٌ؛ فإِنَّ ربعَ المُدِّ لا يبلغُ أُوقِيَّةً ونِصْفاً بالدِّمَشْقيِّ.

وفي «الصَّحيحينِ»[1] عن أنسٍ قالَ: «كانَ رسولُ اللهُ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ يتوضَّأُ بالمدِّ، ويغتَسِلُ بالصَّاعِ إلى خمسةِ أمدادٍ».

وتوضَّأَ القاسِمُ بنُ محمَّدِ بنِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ بقَدْرِ نِصْفِ المُدِّ أو أَزيَدَ بقليلٍ.

وقالَ محمَّدُ بنُ عَجْلانَ: «الفِقْهُ في دِينِ اللهِ إسباغُ الوضوءِ وقِلَّةُ إهراقِ الماءِ».

وقالَ الإمامُ أحمدُ: «كانَ يُقالُ: مِنْ قِلَّةِ فقْهِ الرَّجلِ ولَعُهُ بالماءِ».

وقال الميمونيُّ: «كُنْتُ أتوضَّأُ بماءٍ كثيرٍ، فقالَ لي أحمدُ: يا أَبا الحسنِ! أَتَرْضى أَنْ تكونَ كذا؟ فتركْتُه؟».

وقد روى أبو داودَ في «سُنَنِه»[2] مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ قالَ: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ يقولُ: «**سيكونُ في هٰذه الأمَّةِ قومٌ يعتدونَ في الطَّهورِ والدُّعاءِ**».

فإذا قَرَنْتَ هٰذا الحديثَ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وعَلِمْتَ أَنَّ اللهَ يُحِبُّ عبادَتَه؛ نَتَجَ لكَ مِن هذا أَنَّ وضوءَ الموسوسِ ليسَ بعبادَةٍ يَقْبَلُها اللهُ تعالى، وإِنْ أَسْقَطَتِ الفَرْضَ عنهُ، فلا تُفْتَحُ

(١) رواه البخاري (١/ ٢٦٣)، ومسلم (٣٢٥).

(٢) برقم (٩٦)، وهو حديثٌ صحيحٌ، خرَّجته في «المنتقى النفيس» (ص١٦٣)

أبوابُ الجَنَّةِ الثمانيةُ لوضوئِهِ يَدْخُلُ مِن أَيِّها شاءَ[١].

ومِن مفاسِدِ الوسواسِ: أَنَّهُ يَشْغَلُ ذِمَّتَهُ بالزَّائِدِ على حاجَتِهِ، إذا كان الماءُ مملوكاً لغيرِهِ كماءِ الحمَّامِ، فيخرُجُ منهُ وهو مُرْتَهنُ الذِّمَّةِ بما زادَ على حاجتِهِ، ويتطاوَلُ عليهِ الدَّيْنُ حتى يَرْتَهِنَ مِن ذلك بشيءٍ كثيرٍ جدّاً يتضرَّرُ بهِ في البرْزَخِ ويومِ القيامةِ.

○ وسوَسَةُ نقضِ الطَّهارَةِ:

ومِن ذٰلك الوسواسُ في انتقاضِ الطَّهارَةِ لا يُلْتَفَتُ إليهِ:

وفي «صحيح مسلم»[٢] عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّمَ: «**إذا وَجَدَ أَحدُكم في بطْنِه شيئاً، فأَشْكَلَ عليهِ: أَخَرَجَ منهُ شيءٌ أم لا؟ فلا يخْرُجْ مِن المسجِدِ حتى يَسْمَعَ صَوْتاً أو يَجِدَ ريحاً**».

قالَ الشَّيخُ أبو محمَّدٍ[٣]: «وَيُسْتَحَبُّ للإنسانِ أَنْ يَنْضَحَ فرجَهُ وسراويلَه بالماءِ إذا بالَ؛ لِيَدْفَعَ عن نفْسِهِ الوسوسَةَ، فمتى وجَدَ بلَلاً؛ قالَ: هٰذا مِن الماءِ الذي نَضَحْتُه، لما روى أبو داودَ[٤] بإسنادِهِ عنْ سُفيانَ بنِ الحكمِ الثَّقفِيِّ، أو الحكمِ بنِ سفيانَ؛ قالَ: «كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّم إذا بَالَ تَوَضَّأَ ويَنْتَضِحُ».

وفي روايةٍ: «رأيْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ بالَ ثُمَّ نَضَحَ فرْجَهُ».

---

(١) كما رواه مسلم (٢٣٤) عن عُقبة بن عامر

(٢) برقم (٣٦٢).

(٣) هو المقدسيُّ صاحب «ذم الوسواس» المتقدِّم ذِكره، والكلام لا زال له.

(٤) برقم (١٦٦)، ورواه النسائي (١/ ٤٠)، وابن ماجه (٤٦١)، وهو حديث صحيح. وانظر: تخريجه في «الإتمام» (١٥٤٢١).

وكانَ ابنُ عُمَرَ ينضَحُ فَرْجَهُ حتى يَبُلَّ سَراويلَهُ.

وشَكا إلى الإمامِ أحمدَ بعضُ أصحابِهِ أَنَّهُ يَجِدُ البَلَلَ بعدَ الوضوءِ، فأَمرَهُ أَنْ يَنْضَحَ فرْجَهُ إذا بالَ. قالَ: ولا تَجْعَلْ ذٰلك مِن هِمَّتِكَ، والْهُ عنهُ.

وسُئِلَ الحسنُ أو غيرُهُ عَنْ مثلِ هٰذا، فقال: «الْهُ عنهُ»، فأعادَ عليهِ المسألةَ، فقالَ: «أَتَسْتَدِرُّهُ لا أَبَ لكَ، الهُ عنهُ».

◘ وَسْوَسَةُ ما بعدَ البولِ:

ومِن هٰذا ما يفعَلُهُ كثيرٌ مِن الموسوَسينَ بعدَ البولِ، وهو عَشرةُ أشياءَ: السَّلْتُ، والنَّتْرُ، والنَّحْنَحَةُ، والمشيُ، والقَفْزُ، والحَبْلُ، والتَّفَقُّدُ، والوَجورُ، والحشوُ، والعصابةُ، والدَّرْجَةُ[1]:

أمَّا السَّلتُ؛ فيَسْلُتُهُ مِن أصلِهِ إلى رَأْسِهِ، على أَنَّهُ قدْ رُوِيَ في ذٰلكَ حَديثٌ غريبٌ لا يثبُتُ، ففي «المسندِ» و«سُننِ ابنِ ماجه»[2] عن عيسى بنِ يَزْدادَ عن أبيهِ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ: «**إذا بالَ أحدُكُمْ فلْيَنْتُرْ ذَكَرَهُ ثلاثَ مرَّاتٍ**».

قالوا: ولأنَّهُ بالسَّلْتِ والنَّترِ يُسْتَخْرَجُ ما يُخْشى عَوْدُه بعدَ الاستنجاءِ.

قالوا: وإنِ احتاجَ إلى مَشْيِ خُطواتٍ لذٰلك، ففعلَ، فقد أَحْسَنَ.

والنَّحْنَحَةُ ليستَخْرِجَ الفَضْلَةَ.

---

(١) قال الشيخ محمود خطاب السُّبكي في «الدين الخالص» (١/ ١٩٢ ـ الطبعة الرابعة): «... فيلزم الرجل الاستبراء حسبَ عادتِه بنحو مشيٍ أو تنحنُحٍ، أو ركضٍ، أو اضطجاعٍ»!! هكذا يكون الفقه!!

(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٤٧)، وابن ماجه (٣٢٦)، والبيهقي (١/ ١١٣)، وأبو داود في «المراسيل» (رقم ٣)، وابن أبي شيبة (١/ ١٦١)؛ من طريق زمعة بن صالح وزكريا بن إسحاق عن عيسى بن يزداد ـ ويقال: أزداد ـ عن أبيه به.
وهذا سند ضعيف لإرساله، وراويه مجهولٌ؛ كما قال أبو حاتم فيما نقله عنه ابنه في «العلل» (١/ ٤٢)، وانظر: «الإتمام» (١٩٠٧٦).

وكذٰلك القَفْزُ يرتَفِعُ عنِ الأرضِ شيئاً ثمَّ يَجْلِسُ بسرعةٍ.

والحَبْلُ يَتَّخِذُ بعضُهُم حَبْلاً يتعَلَّقُ بهِ حتَّى يكاد يرتَفِعُ، ثمَّ ينخَرِطُ منهُ حتَّى يَقْعُدَ.

والتَّفَقُّدُ يُمْسِكُ الذَّكَرَ ثم يَنْظُرُ في المَخْرَجِ هل بقِيَ منهُ شيءٌ أم لا؟

والوَجورُ: يُمْسِكُهُ، ثمَّ يَفْتَحُ الثُّقْبَ، ويصبُّ فيهِ الماءَ.

والحَشْوُ يكونُ معهُ ميلٌ وقُطنٌ يحشوهُ بِهِ كما يحشو الدُّمَّلَ بعدَ فتْحِها.

والعِصابَةُ يعْصِبُه بخرقَةٍ.

والدَّرجَةُ يصعَدُ في سُلَّمٍ قليلاً، ثمَّ ينزِلُ بسرعةٍ.

والمشيُ يمشي خُطواتٍ ثمَّ يعيدُ الاستجمارَ.

قالَ شيخُنا: وذٰلك كلُّهُ وَسْواسٌ وبِدْعةٌ، فراجَعْتُه في السَّلْتِ والنَّتْرِ فلمْ يَرْضَهُ، وقال: لم يَصِحَّ الحديثُ.

قالَ: والبَوْلُ كاللَّبَنِ في الضَّرْعِ، إنْ تَرَكْتَهُ قَرَّ، وإنْ حَلَبْتَهُ دَرَّ.

قالَ: ومَنِ اعتادَ ذٰلك ابْتُلِيَ منهُ بما عُوفِيَ منهُ مَنْ لَها عنهُ.

قالَ: ولَو كانَ هٰذا سُنَّةً لكانَ أوْلى النَّاسِ بِهِ رسولَ اللهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وأصحابُه، وقد قالَ اليهوديُّ لسلمانَ: «لقد عَلَّمَكُم نبيُّكُم كُلَّ شَيْءٍ حتَّى الخِرَاءَةَ، فقالَ: أجَلْ»[1].

فأيْنَ عَلَّمَنا نبيُّنا صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ ذٰلك أو شيئاً منهُ؟!

• تَشدُّدُ الموسوسِينَ:

ومِن ذٰلك أشياءُ سَهَّلَ فيها المبعوثُ بالحنيفيَّةِ السَّمْحَةِ[2] فشَدَّدَ فيها هٰؤلاءِ:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢).

(٢) كما قال ﷺ: «بُعثت بالحنيفية السمحة»، وهو حديث حسنٌ، له طرق عدَّة ذكرتُها في «الإتمام» (٢٤٨٩٩) يسَّر الله إتمامه.

ومِنْ ذٰلكَ المشيُ حافياً في الطُّرُقاتِ، ثمَّ يُصَلِّي ولا يغسلُ رجليهِ.

قالَ عبدُ اللهِ بن مَسعُودٍ: «كنَّا لا نتوضَّأُ مِن مَوْطِئٍ»[1].

وعن عليٍّ ﷺ: أنَّهُ خاضَ في طينِ المَطَرِ، ثمَّ دَخَلَ المسجِدَ فصَلّى، ولم يَغْسِلْ رجليهِ.

وسُئِلَ ابنُ عبَّاسٍ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يَطَأُ العَذِرَةَ[2]؟ قالَ: «إنْ كانَتْ يابسةً فليسَ بشيءٍ، وإنْ كانَتْ رطبةً غَسَلَ ما أصابَهُ».

وقالَ أبو الشَّعْثاءِ: «كانَ ابنُ عُمرَ يمشي بمنًى في الفَروثِ والدِّماءِ اليابسةِ حافياً، ثمَّ يدخُلُ المسجدَ فيصَلِّي، ولا يغْسِلُ قدميهِ».

وقالَ عاصمٌ الأحولُ: «أَتَيْنا أبا العاليةِ فَدَعَوْنا بوَضوءٍ، فقالَ: ما لَكُم، أَلَسْتُم مُتَوَضِّئينَ؟ قلنا: بلى، ولكنْ هٰذه الأقذارُ التي مَرَرْنا بها!

قالَ: هَلْ وَطِئْتُم على شيءٍ رطبٍ تَعَلَّق بأَرجُلِكم؟

قلنا: لا.

فقالَ: فكيفَ بأشدَّ مِن هٰذه الأقذارِ يجفُّ، فيَنْسِفُها الريحُ في رؤوسِكُم ولِحاكُم؟».

○ كيفَ ترتفعُ نَجاسَةُ الحذاءِ؟:

ومِن ذٰلكَ أنَّ الخُفَّ إذا أصابَتِ النَّجاسَةُ أسفَلَهُ أجْزأَ دَلْكُهُ بالأرضِ مُطْلقاً، وجازَتِ الصَّلاةُ فيهِ بالسُّنَّةِ الثَّابِتَةِ؛ لما رَوى أبو هُريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ؛ قالَ: **«إذا وَطِئَ أَحدُكُم بنَعْلِهِ الأَذَى فإنَّ التُّرابَ لهُ طَهورٌ»**.

وفي لفظٍ: **«إذا وَطِئَ أحدُكُم الأذى بخُفَّيْهِ فطَهُورُهما التُّرابُ»**. رواهُما أبو دَاودَ[3].

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٤) بسند صحيح. (٢) هي الغائط.

(٣) رواه أبو داود (٣٨٧)، وابن خزيمة (٢٩٢)، والبغوي (٣٠٠)، والحاكم (١/١٦٦)، =

وروى أبو سعيدٍ الخُدْريُّ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ صَلَّى، فخَلَعَ نعليهِ، فخَلَعَ النَّاسُ نعالَهُم، فلمَّا انصَرَفَ؛ قالَ: لِمَ خَلَعْتُم؟ قالوا: يا رسولَ اللهِ! رأيْناكَ خَلَعْتَ فخَلَعْنا. فقالَ: «**إنَّ جبريلَ أتاني، فأَخْبَرَني أنَّ بِهِما خَبَثاً، فإذا جَاءَ أَحَدُكُم المسجِدَ؛ فلْيَقْلِبْ نَعْلَيْهِ، ثمَّ ليَنْظُرْ، فإنْ رَأَى خَبَثاً؛ فليَمْسَحْهُ بالأرضِ، ثمَّ ليصلِّ فيهِما**». رواهُ الإمامُ أحمدُ[1].

وتأويلُ ذٰلك على مَا يُسْتَقْذَرُ مِن مُخاطٍ أو نَحوِهِ مِن الطّاهِراتِ لا يَصِحُّ؛ لوجوهٍ:

أحدُها: أنَّ ذٰلك لا يُسَمَّى خَبَثاً.

الثَّاني: أن ذٰلك لا يُؤمَرُ بمَسْحِه عندَ الصَّلاةِ.

الثَّالِثُ: أنَّهُ لا تخلَعُ النَّعْلَ لذٰلك في الصَّلاةِ؛ فإنَّهُ عملٌ لغيرِ حاجةٍ، فأقلُّ أحوالِهِ الكراهةُ.

ولأنَّهُ محلٌّ يتكرَّرُ ملاقاتُه للنَّجاسَةِ غالباً، فأَجْزَأَ مَسْحُهُ بالجامدِ، كَمَحلِّ الاستجمارِ، بل أَوْلى. فإنَّ محلَّ الاستحمارِ يُلاقي النَّجاسَةَ في اليومِ مرَّتينِ أو ثلاثاً.

◙ طهارَةُ ثَوْبِ المرأَةِ:

وكذٰلك ذَيْلُ المَرأةِ على الصَّحيحِ، وقالَتْ امرأةٌ لأمِّ سَلَمَةَ: «إنِّي أُطيلُ ذَيْلي وأَمْشِي في المكانِ القَذِرِ، فقالَتْ: قالَ رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلَّمَ: يُطَهِّرُهُ ما بعدَه». رواهُ أحمدُ وأبو داودَ[2].

والبيهقي (٢/ ٤٣٠)؛ من طرق عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة. وسنده صحيح. وانظر: «نصب الراية» (١/ ٢٠٨).

(١) في «مسنده» (٣/ ٢٠ و٩٢). وأخرجه أبو داود (٦٥٠)، وعنه البيهقي (٢/ ٤٣١)، والدارمي، وغيرهم؛ بسند صحيح. انظر تخريجه والكلام عليه في «الإتمام» (١١١٦٩).

(٢) رواه أبو داود (٣٨٣)، والترمذي (١٤٣)، وابن ماجه (٥٣١)، وأحمد (٦/ ٢٩٠). =

وقد رخَّصَ النبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ للمرأةِ أنْ تُرْخِيَ ذَيْلَها ذِراعاً[1]، ومعلومٌ أنَّهُ يُصيبُ القَذَرَ، ولم يَأْمُرْها بغَسْلِ ذٰلك، بل أفْتاهُنَّ بأنَّهُ تُطهِّرُهُ الأرْضُ.

◘ حُكْمُ الصَّلاةِ في النِّعالِ[2]:

وممَّا لا تَطيبُ بهِ قُلوبُ المُوسوَسِينَ: الصَّلاةُ في النِّعالِ، وهي سُنَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ لأصحابهِ؛ فعْلاً منْهُ وأمْراً.

فروى أَنَسُ بنُ مالكٍ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ: «كانَ يُصَلِّي في نَعْلَيْهِ». متَّفقٌ عليهِ[3].

وعن شدَّادِ بنِ أوْسٍ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: «**خَالِفوا اليهودَ؛ فإنَّهُم لا يُصَلُّونَ في خِفافِهِم ولا نِعالِهِم**». رواهُ أبو داودَ[4].

وقيلَ للإمامِ أحْمَدَ: أيُصَلِّي الرَّجلُ في نَعْلَيْهِ؟ فقالَ: «إيْ واللهِ».

وتَرى أهْلَ الوسواسِ ـ إذا بُلِيَ أحدُهُم بصلاةِ الجنازةِ في نَعْلَيْهِ ـ قامَ على عَقِبَيْهِما؛ كأنَّهُ واقفٌ على الجمرِ، حتَّى لا يُصَلِّي فيهِما!

◘ جَفافُ الأرضِ طَهُورُها:

ومِن ذٰلك أنَّ النَّاسَ في عصرِ الصَّحابَةِ والتَّابعينَ ومَن بعْدَهُم كانُوا يأْتونَ المساجِدَ حُفاةً في الطِّينِ وغيرِهِ.

= وفي سنده جهالةٌ، لكنَّ له شاهداً عند أبي داود (٣٨٤) يصحِّحه

(١) كما رواه مالكٌ (٢/ ٩١٥)، وأبو داود (٤١١٧)، وابن حبان (١٤٥١)، والنَّسائي (٣٩٩)؛ بسند صحيح. وله طرقٌ أخرى تراها مجموعةً في «الصحيحة» (١٨٦٤).

(٢) ولأخينا الفاضل الشيخ مُقبل بن هادي الوادعي رسالةٌ في ذلك.

(٣) رواه البخاري (١/ ٤١٥)، ومسلم (٥٥٥).

(٤) رواه أبو داود (٦٣٨)، والحاكم (١/ ٢٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٧١٦٤)؛ عن شدَّاد بن أوس، وسنده حسنٌ.

قالَ يحيى بنُ وَثَّاب: «قُلْتُ لابنِ عبَّاسٍ: الرَّجُلُ يتوضَّأُ، يخرُجُ إلى المسجِدِ حافياً؟ قالَ: لا بأْسَ بهِ».

وقالَ كُمَيْلُ بنُ زيادٍ: «رأيْتُ عليّاً ﷺ يَخوضُ طينَ المطرِ، ثُمَّ دَخلَ المسجِدَ، فصلَّى، ولم يغْسِلْ رِجْلَيْهِ».

وقالَ إبراهيمُ النَّخَعِيُّ: «كانُوا يَخوضونَ الماءَ والطِّينَ إلى المسجِدِ فيُصَلُّونَ». رواها سعيدُ بنُ مَنْصورٍ في «سُنَنِه».

وقالَ ابنُ المُنْذِرِ: «وَطِىءَ ابنُ عُمَرَ بمنًى وهُو حافٍ في ماءٍ وطينٍ، ثمَّ صلَّى ولم يتوضَّأْ».

قالَ: ومِمَّنْ رأى ذٰلك علقمةُ، والأسودُ، وعبدُ اللهِ بنُ مُغَفَّلٍ، وسعيدُ بنُ المسيّبِ، والشَّعبِيُّ، والإمامُ أحمدُ، وأبو حَنيفةَ، ومالكٌ، وأحدُ الوجْهَيْنِ للشَّافِعِيَّةِ، وهو قولُ عامَّةِ أهْلِ العلمِ، ولأنَّ تنجيسَها فيهِ مشقَّةٌ عظيمةٌ مُنْتَفِيَةٌ بالشَّرْعِ؛ كما في أطعِمَةِ الكفَّارِ وثيابِهِم، وثِيابِ الفُسَّاقِ شَرَبَةِ المُسْكِرِ وغيرِهِم.

قالَ أبو البَرَكاتِ ابنُ تَيْمِيَّةَ: «وهٰذا كُلُّه يُقوِّي طهارَةَ الأرضِ بالجفافِ؛ لأنَّ الإنسانَ في العادةِ لا يزالُ يشاهِدُ النَّجاساتِ في بقعَةٍ مِن طُرُقاتِه التي يكثُرُ فيها تَرَدُّدُه إلى سوقِه ومسجِدِه وغيرِهما، فلو لم تَطْهُرْ إذا أذْهَبَ الجفافُ أثَرَها؛ للزِمَهُ تجنُّبُ ما يشاهِدُهُ مِن بقاعِ النَّجاسَةِ بعدَ ذهابِ أثَرِها، ولَما جازَ لَهُ التَّحَفِّي بعدَ ذٰلك، وقد عُلِمَ أنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ لم يحْتَرِزوا مِن ذٰلك».

ويَعْضُدُهُ أمْرُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بمَسْحِ النَّعْلَيْنِ بالأرْضِ لِمَنْ أتَى المسجِدَ ورَأى فيهِما خَبَثاً، ولو تَنَجَّسَتِ الأرضُ بذٰلك نجاسةً لا تَطْهُرُ بالجفافِ لأمَرَ بصيانَةِ طريقِ المسجِدِ عن ذٰلك؛ لأنَّهُ يسلُكُهُ الحافي وغيرُه.

وقالَ أبو قِلابَةَ: «جَفافُ الأرضِ طَهورُها».

قلتُ: وهٰذا اختيارُ شيخُنا رَحِمَهُ اللهُ.

* وهٰذا الذي ذَكَرْناهُ قليلٌ مِن كثيرٍ من السُّنَّةِ، ومَن لهُ اطِّلاعٌ على ما

كانَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ وأَصحابُهُ لا يَخْفى عليهِ حقيقةُ الحال.

وقد روى الإمامُ أحمدُ في «مسنَدِهِ» عنهُ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: **«بُعِثْتُ بالحنيفيَّةِ السَّمْحَةِ»**[١]، فجَمَعَ بينَ كونِها حنيفيَّةً وكونِها سمحةً، فهي حَنيفيَّةٌ في التَّوحِيدِ، سَمْحَةٌ في العَمَلِ، وضِدُّ الأمرينِ: الشِّرْكُ، وتحريمُ الحَلالِ، وهما اللَّذانِ ذَكَرَهُما النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ فيما يَرْوي عن ربِّهِ تَبارَكَ وتَعالى أَنَّهُ قالَ: **«إنِّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنَفاءَ وإنَّهُم أَتَتْهُم الشَّياطينُ، فاجْتالَتْهُم عن دِينِهِم، وحَرَّمَتْ عليهِمْ ما أَحْلَلْتُ لهُم، وأَمَرَتْهُم أَنْ يُشْرِكوا بي ما لم أُنَزِّلْ بِهِ سُلطاناً»**[٢].

فالشِّرْكُ وتحريمُ الحلالِ قرينانِ، وهُما اللَّذانِ عابَهُما اللهُ تعالى في كتابِهِ على المشرِكِينَ.

وقد ذَمَّ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ المُتَنَطِّعينَ في الدِّينِ، وأَخْبَرَ بهَلَكَتِهم، حيثُ يقولُ: **«أَلا هَلَكَ المُتَنَطِّعونَ، أَلا هَلَكَ المتنطِّعونَ، أَلا هَلَكَ المُتَنَطِّعونَ»**[٣].

وقالَ ابنُ أبي شَيْبَةَ: حدَّثَنا أبو أُسامَةَ عن مسعرٍ قالَ: «أَخْرَجَ إِلَيَّ مَعْنُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ كِتاباً، وحَلَفَ باللهِ إِنَّهُ خطُّ أَبيهِ، فإذا فيهِ: قالَ عبدُ اللهِ: واللهِ الَّذي لا إلٰهَ غيرُه ما رأَيْتُ أحداً كانَ أشدَّ على المُتَنَطِّعينَ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، ولا رأَيْتُ بعدَهُ أحداً أَشدَّ خَوْفاً عليهِم مِن أبي بكرٍ، وإنِّي لأَظُنُّ عمرَ رضي الله عنه كانَ أشدَّ أهلِ الأرضِ خوفاً عليهِم»[٤].

وكانَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يُبْغِضُ المتعمِّقينَ، حتَّى إنَّهُ لما واصَلَ بِهِم،

(١) تقدَّم تخريجه قريباً.

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) عن عِياض بن حِمار المُجاشعي.

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٠) عن بن مسعود.

(٤) حديثٌ صحيحٌ، انظر تخريجه في: «المنتقى النفيس» (ص١٦٨).

ورأى الهِلالَ؛ قالَ: «لو تأخَّرَ الهلالُ لواصَلْتُ وِصالاً يَدَعُ المتعمِّقونَ تعمُّقَهُم، كالمُنَكِّلِ بهِم»[١].

وكانَ الصَّحابَةُ أقَلَّ الأمَّةِ تكَلُّفاً؛ اقتداءً بنبيِّهِم صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦].

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «مَنْ كانَ منكُمْ مستنّاً فليَسْتَنَّ بمَنْ قدْ ماتَ؛ فإنَّ الحَيَّ لا تُؤمَنُ عليهِ الفِتْنَةُ، أُولئكَ أصحابُ محمَّدٍ، كانُوا أفضَلَ هٰذه الأمَّةِ: أبَرَّها قُلوباً، وأعمَقَها عِلْماً، وأقلَّها تكلُّفاً، اختارَهُم اللهُ تعالى لصُحْبَةِ نبيِّهِ، ولإقامَةِ دِينِهِ، فاعْرِفوا لهُم فَضْلَهُم، واتَّبِعوهُم على أثَرِهِم وسِيَرِهِم؛ فإنَّهُم كانُوا على الهُدى المُستقيم»[٢].

وقالَ أنَسٌ رضي الله عنه: «كُنَّا عندَ عمرَ رضي الله عنه، فسمعْتُهُ يقولُ: نُهينا عنِ التَّكَلُّفِ»[٣].

وقالَ مالِكٌ: قالَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ: «سَنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وولاةُ الأمورِ بعْدَهُ سُنناً، الأخذُ بها تَصديقٌ لكتابِ اللهِ، واستكمالٌ لطاعَةِ اللهِ، وقُوَّةٌ على دينِ اللهِ، ليس لأحدٍ تَبْديلُها ولا تَغْييرُها، ولا النَّظَرُ فيما خالَفَها، مَنِ اقْتَدى بها فهو مُهْتَدٍ، ومَن استنْصَرَ بها فهو منصورٌ، ومَن خالَفَها واتَّبَعَ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ ولَّاهُ اللهُ ما تَوَلَّى وأصْلاهُ جَهَنَّمَ وساءَتْ مَصيراً».

وقالَ مالِكٌ: بَلَغَني أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ كانَ يقولُ: «سُنَّتْ لكُم السُّنَنُ، وفُرِضَتْ لكُم الفرائِضُ، وتُرِكْتُم على الواضِحَةِ؛ إلَّا أنْ تميلوا بالنَّاسِ يميناً وشِمالاً».

---

(١) رواه البخاري (٧٢٩٩)، ومسلم (١١٠٣)؛ عن أبي هريرة.

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (١/١٥٩) وغيره، وفي سنده انقطاع؛ كما بينتُه في «الكشف الصريح» (رقم ٤١).

(٣) رواه البخاري (٧٢٩٣)، وانظر: «تخريج الأربعين السُّلَمية» (ص١٣٠) للسخاوي. بتحقيقي.

وقالَ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ: «**يَحْمِلُ هٰذا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ، يَنْفونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ، وانْتِحالَ المُبْطِلينَ، وتأْويلَ الجَاهِلينَ**»[١].

فأَخْبَرَ أَنَّ الغالينَ يُحَرِّفونَ ما جاءَ بِهِ، والمُبْطِلونَ يَنْتَحِلُونَ بباطِلِهِم غيرَ ما كانَ عليهِ، والجاهِلونَ يتأَوَّلونَه على غيرِ تَأْويلِهِ، وفسادُ الإِسلامِ مِن هٰؤلاءِ الطَّوائِفِ الثَّلاثةِ.

فلولا أَنَّ اللهَ تعالى يُقيمُ لدِينِهِ مَنْ يَنْفِي عنهُ ذٰلك؛ لَجَرى عليهِ ما جَرى على أَدْيانِ الأَنبياءِ قبلَهُ.

• وَسْوَسَةُ مَخارِجِ الحُروفِ:

ومِن ذٰلكَ الوَسْوَسَةُ في مخارِجِ الحُروفِ والتَّنَطُّعُ فيها.

قالَ أبو الفرجِ ابنُ الجوزيِّ[٢]: «قَدْ لَبَّسَ إِبليسُ على بعضِ المُصلِّينَ في مخارِجِ الحروفِ، فتراهُ يقولُ: الحمدُ... الحمدُ... فيَخْرُجُ بإِعادةِ الكلمةِ عن قانونِ أَدَبِ الصَّلاةِ».

قالَ: «ولقدْ رأَيْتُ مَن يُخْرِجُ بُصاقَهُ معَ إِخراجِ الضَّادِ لقوَّةِ تشديدِه»!

والمرادُ تحقيقُ الحرفِ حَسْبُ!

وإِبليسُ يُخْرِجُ هٰؤلاءِ بالزِّيادَةِ عن حدِّ التَّحقيقِ، ويَشْغَلُهُم بالمبالَغَةِ في الحُروفِ عَنْ فَهْمِ التِّلاوةِ.

وكلُّ هٰذه الوساوِسِ مِن إِبليسَ.

وقالَ محمَّدُ بنُ قتيبةَ في «مشكِلِ القرآنِ»[٣]: «وقدْ كانَ النَّاسُ يقرؤونَ

---

(١) حديث حَسَنٌ، له طرقٌ عدَّة، جمعتُها في جزء مفرد عنوانه: «إفادة دوي الشرف في طرق حديث: (يحمل هذا العِلْم من كل خَلَف)» يسَّر الله إتمامه. وانظر تعليقي على «الحطّة» (ص٧٠) لصدِّيق حسن خان.

(٢) «تلبيس إبليس» (ص١٧١، المنتقى النفيس).

(٣) وهو مطبوع بتحقيق السيد أحمد صقر رحمه الله.

القرآنَ بلغاتِهِم، ثمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ مِن أَهْلِ الأمصارِ وأبناءِ العَجَمِ ليسَ لهُم طَبْعُ اللُّغَةِ، ولا عِلْمُ التَّكَلُّفِ، فهَفَوْا في كثيرٍ مِن الحُروفِ، وذَلُّوا فأَخَلُّوا».

والمقصودُ أنَّ الأئمَّةَ كَرِهُوا التَّنَطُّعَ والغُلُوَّ في النُّطْقِ بالحرفِ.

ومَن تأَمَّلَ هَدْيَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، وإقرارَهُ أَهْلَ كُلِّ لسانٍ على قراءَتِهِم؛ تَبَيَّنَ لهُ أنَّ التَّنَطُّعَ والتَّشَدُّقَ والوسوسَةَ في إخراجِ الحُروفِ ليس مِنْ سُنَّتِهِ.

* * *





٢ الجوابُ عمَّا احتجَّ بهِ أهلُ الوَسْوَاسِ

* أمَّا قولُهم: إنَّ ما نفعَلُهُ احتياطٌ لا وسواسٌ!

قلْنا: سمُّوهُ ما شئتُم[١]، فنحنُ نسألُكُم: هل هُو موافِقٌ لفِعْلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ وأَمْرِهِ، وما كانَ عليهِ أصحابُهُ، أو مُخالِفٌ؟

فإنْ زَعَمْتُم إنَّهُ مُوافِقٌ، فَبَهْتٌ وكَذِبٌ صَريحٌ، فإذَنْ لا بدَّ مِن الإقرارِ بعَدَمِ موافَقَتِه، وأنَّهُ مخالِفٌ لهُ، فلا ينفَعُكُم تسميَةُ ذٰلك احتياطاً، وهٰذا نظيرُ مَن ارتكَبَ مَحْظوراً وسمَّاهُ بغيرِ اسمِه[٢]، كما يُسَمِّي الخمرَ بغيرِ اسمِها[٣]، والرِّبا معامَلَةً[٤]، والتَّحليلُ الَّذي لَعَنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ فاعِلَهُ[٥]: نِكاحاً، ونَقْرَ الصَّلاةِ الذي أَخْبَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ أنَّ فاعِلَهُ لم يصلِّ[٦]، وأنَّهُ لا تُجْزيهِ صلاتُهُ، ولا يَقْبَلُها اللهُ تعالى منهُ تَخفيفاً!

فهكذا تسميةُ الغُلُوِّ في الدِّين والتَّنطُّعِ: احتياطاً.

وينبَغِي أنْ يُعْلَمَ أنَّ الاحتياطَ الذي يَنْفَعُ صاحِبَهُ ويُثيبُه اللهُ عليهِ:

---

(١) وهذا تنبيهٌ مهمٌّ على أن الأسماء لا تُغيِّر حقيقة المسمَّيات، فكُن منها ـ رعاك الله على ذُكْرٍ!

(٢) كما يُلَبِّس به حِزبيُّو العصر الحاضر، إذ يسمُّون حزبياتهم (عملاً جماعيّاً)!! أو (ترتيباً)!! أو غير ذلك ممَّا يحسن سماعه!!

(٣) فيقولون: (مشروبات روحية)!! نعم؛ إذ هي تزهق الأرواح!!

(٤) واليوم يقولون: (فوائد) و(استثمار)! و(يريدونها) أحياناً فيقولون: (تجارة)!

(٥) كما في قوله ﷺ: «لعن الله المحلِّل والمحلَّل له». وهو حديث صحيح، له طرق عدة، فانظر: «التلخيص الحبير» (٣/ ١٧٠)، و«إرواء الغليل» (١٨٩٧)، و«نصب الراية» (٣/ ٢٣٨). وسيأتي ذكرها ـ بعد ـ مفصَّلاً.

(٦) رواه البخاري (٢/ ٢٢٩)، ومسلم (٣٩٧)؛ عن أبي هريرة.

الاحتياطُ في موافقةِ السُّنَّةِ، وتركِ مخالَفتِها، فالاحتياطُ كلُّ الاحتياطِ في ذلك، وإلَّا فما احتاطَ لنفسِهِ مَنْ خرَجَ عن السُّنَّةِ، وتَرَكَ مخالَفتِها[١].

قالَ شيخُنا: «والاحتياطُ حسَنٌ، ما لم يُفْضِ بصاحِبِهِ إلى مخالفةِ السُّنَّةِ، فإذا أفْضى إلى ذلك فالاحتياطُ تَرْكُ هٰذا الاحتياطِ».

وبهٰذا خَرَجَ الجوابُ عنِ احتجاجِهم بقولِه ﷺ: **«مَن تَرَكَ الشُّبُهاتِ فقدِ اسْتَبْرَأ لِدينِهِ وعِرْضِه»**، وقولِه: **«دَعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ»**، وقولِه: **«الإثْمُ ما حاكَ في الصَّدْرِ»**[٢].

فهٰذا كلُّه مِن أقوى الحُجَجِ على بُطلانِ الوِسْوَاسِ.

فإنَّ الشُّبُهاتِ ما يشتَبِهُ فيهِ الحقُّ بالباطلِ، والحلالُ بالحرامِ، على وجهٍ لا يكونُ فيهِ دَليلٌ على أحدِ الجانبينِ، أو تتعارَضُ الأمارتانِ عندَه، فلا تترَجَّحُ في ظنِّهِ إحداهُما، فيشتَبِهُ عليهِ هٰذا بهٰذا، فأرْشَدَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ إلى تركِ المشتَبِهِ والعُدُولِ إلى الواضِحِ الجَليِّ.

ومعلومٌ أنَّ غايَةَ الوسواسِ أنْ يَشْتَبِهَ على صاحِبِهِ: هل هُو طاعةٌ وقُرْبَةٌ، أمْ مَعْصِيَةٌ وبِدْعَةٌ؟ هٰذا أحسنُ أحوالِهِ، والواضحُ الجَلِيُّ هو اتِّباعُ طريقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وما سنَّه للأمَّةِ قولاً وعملاً، فمَن أرادَ تَرْكَ الشُّبُهاتِ؛ عَدَلَ عن ذلك المشتَبِهِ إلى هٰذا الواضِحِ، فكيفَ، ولا شُبْهَةَ بحمدِ اللهِ هناكَ؟! إذ قد ثبتَ بالسنّةِ أنَّهُ تَنَطُّعٌ وغُلُوٌّ، فالمصيرُ إليهِ تركٌ للسُّنَّةِ، وأخذٌ بالبدعةِ، وتَرْكٌ لما يُحِبُّهُ اللهُ تعالى ويرضاهُ، وأخذٌ بما يكرَهُه ويُبْغِضُه، ولا يُتَقَرَّبُ بهِ إليهِ ألبتَّةَ؛ فإنَّهُ لا يُتَقرَّبُ إليه إلَّا بما شَرَعَ، لا بما يهواهُ العبْدُ ويفعَلُهُ مِن تِلقاءِ نَفْسِهِ، فهٰذا هو الذي يَحيكُ في الصَّدْرِ ويتردَّدُ في القَلْبِ.

---

(١) ومسألة (الاحتياط) وما يتّصل بها من أحكام المسائل المهمّة التي ينبغي تجلية صورتها وتوضيح حقيقتها، وإلا كانت عائمة، يفهم منها كلُّ أحد أيَّ شيء!! وكلام المصنف فيه بيان شيء من ذلك.

(٢) تقدَّم تخريجها جميعاً.

* وأمّا التَّمرةُ التي تَرَكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أكْلَها، وقالَ «أَخْشَى أَنْ تكونَ مِن الصَّدَقةِ»؛ فذٰلك مِن بابِ اتِّقاءِ الشُّبُهاتِ، وتَرْكِ ما اشتُبِهَ فيهِ الحلالُ بالحرامِ، فإنَّ التَّمْرَةَ كانت قد وجَدَها في بيتِه، وكان يؤتَى بتمرِ الصَّدقَةِ يقسِمُه على مَن تحلُّ لهُ الصَّدَقةُ، ويَدْخُلُ بيتَه تمرٌ يقتاتُ منهُ أهْلُه، فكانَ في بيتِه النَّوعانِ، فلما وَجدَ تلكَ التَّمرةَ لم يَدْرِ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ مِن أيِّ النوعينِ هي، فأمْسَكَ عن أكْلِها.

فهٰذا الحديثُ أَصْلٌ في الوَرَعِ، واتِّقاءِ الشُّبُهاتِ، فما لأهْلِ الوسواسِ وما لَهُ؟!

* وأما ما ذكرتُموهُ عنِ ابنِ عُمرَ وأبي هُريرةَ ﷺ؛ فشيءٌ تفرَّدا بهِ دونَ الصَّحابةِ، ولم يوافِقِ ابنَ عمرَ على ذٰلك أحدٌ منهُم، وكانَ ابنُ عُمرَ ﷺ يقولُ: «إنَّ بي وَسْواساً فلا تَقْتَدوا بي»!

وظاهِرُ مذهَبِ الشافعيِّ وأحْمدَ أنَّ غَسْلَ داخِلِ العينينِ في الوضوءِ لا يُستَحَبُّ، وإنْ أَمِنَ الضَّرَرَ؛ لأنَّهُ لم يُنْقَلْ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ أنَّه فعَلَهُ قطُّ، ولا أمرَ بهِ، وقد نَقَلَ وضوءَهُ جماعةٌ؛ كعثمانَ، وعليٍّ، وعبدِ اللهِ بنِ يزيدَ، والرُّبَيِّعِ بنتِ مُعَوِّذٍ، وغيرِهم.

فلم يَقُلْ أحدٌ منهُم: إنَّهُ غَسَلَ داخِلَ عينيهِ.

وأمَّا فِعْلُ أبي هُريرةَ ﷺ فهو شيءٌ تأوَّلَهُ، وخالَفَهُ فيهِ غيرُه، وكانُوا يُنْكِرونَه عليهِ، وهٰذه المسألةُ تُلَقَّبُ بمسألةِ إطالَةِ الغُرَّةِ[1]، وإنْ كانتِ الغُرَّةُ في الوجهِ خاصَّةً.

وقد اختَلَفَ الفقهاءُ في ذٰلك، وفيها روايتانِ عنِ الإمامِ أحمدَ:

إحداهُما: يُسْتَحَبُّ إطالَتُها، وبها قالَ أبو حنيفةَ والشَّافعِيُّ، واختارَها أبو البَركاتِ ابنُ تَيْمِيَّةَ وغيرُه.

---

(١) أصل معنى (الغُرَّة) لغةً: البياض في وجه الفرس، وهي هنا بالمعنى الوارد في الحديث الآتي: نور المؤمن على أعضاء الوضوء يوم القيامة.

والثَّانيةُ: لا يُسْتَحَبُّ، وهي مذهبُ مالكٍ، وهي اختيارُ شيخِنا أبي العبَّاسِ.

فالمستَحِبُّونَ يحتجُّونَ بحديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: «**أنتُم الغُرُّ المُحَجَّلونَ يومَ القيامَةِ مِن أثرِ الوضوءِ، فمَنِ استطاعَ منكُم فَلْيُطِلْ غُرَّتَه وتَحْجيلَهُ**». مُتَّفقٌ عليهِ[1].

ولأنَّ الحِلْيَةَ تبلُغُ مِن المؤمِنِ حيثُ يبلُغُ الوضوءُ.

قالَ النَّافونَ للاستحبابِ: واللهُ سبحانَه قد حدَّ المِرْفَقَيْنِ والكَعْبَينِ، فلا يَنْبغي تَعَدِّيهِما، ولأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ لم يَنْقُلْ مَنْ نَقَلَ عنهُ وُضوءَهُ أنَّهُ تَعَدَّاهُما، ولأنَّ ذلك أصلُ الوسواسِ، ومادَّتُه، ولأنَّ فاعِلَهُ إنَّما يفعَلُهُ قُربةً وعبادَةً، والعباداتُ مَبْناها على الاتِّباعِ، ولأنَّ ذلكَ ذَريعَةٌ إلى الغَسْلِ إلى الفَخِذِ، وإلى الكَتِفِ!

وهٰذا ممَّا يُعْلَمُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ وأصحابَهُ لم يَفْعَلوهُ ولا مرَّةً واحدةً، ولأنَّ هٰذا مِن الغُلوِّ، وقد قالَ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ: «**إيَّاكُم والغُلوَّ في الدِّينِ**»[2]، ولأنَّهُ تَعَمُّقٌ، وهو مَنْهِيٌّ عنهُ، ولأنَّهُ عضوٌ مِن أعضاءِ الطَّهارَةِ، فكُرِهَ مجاوَزَتُهُ كالوجْهِ.

وأمَّا الحديثُ فراويهِ عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ نُعيمٌ المُجْمِرُ، وقد قالَ: «لا أدْري قولَهُ: فَمَنِ استطاعَ منكُم أنْ يُطيلَ غُرَّتَه فليَفْعَلْ، مِن قولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، أو مِن قولِ أبي هُريرة رضي الله عنه». روى ذٰلك عنهُ الإمامُ أحمدُ في «المسنَدِ»[3].

---

(١) رواه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦). وانظر كلام المصنف ـ بعدُ ـ وتعليقي عليه.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) في (٢/ ٣٣٤ و٥٢٣) منه. وانظر لتفصيل تخريجه: «الإتمام» (٨٣٩٤).
وفي «السلسلة الضعيفة» (١٠٣٠) لشيخنا الألباني بحثٌ ماتعٌ في إثبات الإدراج، فليراجع.
وأما محاولة بعض الغُماريين نفيَ هذا الإدراج؛ فهي ذاهبةٌ أدراج الرياح!!

* وأمَّا قولُكُم: إنَّ الوسواسَ خيرٌ ممَّا عليهِ أهْلُ التَّفريطِ والاسترسالِ، وتمشيةِ الأمرِ كيفَ اتَّفقَ... إلى آخرِهِ.

فَلَعَمْرُ اللهِ إنَّهُما لَطَرفا إفراطٍ وتَفريطٍ، وغُلُوٌّ وتقصيرٍ، وزيادةٍ ونقصانٍ، وقد نهى اللهُ ﷻ عنِ الأمرينِ في غيرِ موضعٍ:

كقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقولِه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

فَدِينُ اللهِ بينَ الغالي فيهِ والجافي عنهُ، وخيرُ النَّاسِ النَّمَطُ الأوسَطُ، الَّذينَ ارتَفَعوا عن تَقصيرِ المفرِّطينَ، ولم يَلْحَقُوا بغُلُوِّ المعتَدينَ، وقد جَعَلَ اللهُ سبحانَه هٰذه الأمَّةَ وسَطاً، وهِيَ الخيارُ العَدْلُ، لَتَوَسُّطِها بينَ الطَّرفينِ المذمومَيْنِ، والعَدْلُ هو الوَسَطُ بينَ طَرَفَي الجَوْرِ والتَّفريطِ.

والآفاتُ إنَّما تتطَرَّقُ إلى الأطرافِ، والأوساطُ محمِيَّةٌ بأطرافِها، فخيارُ الأمورِ أوساطُها[١] قالَ الشَّاعِرُ:

كانَتْ هِيَ الوَسَطَ المَحْمِيَّ فاكْتَنَفَتْ ... بِها الحَوادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ طَرَفا

---

(١) والحديث الوارد في هذا المعنى ضعيف، بيَّنه السخاوي في «المقاصد» (٤٥٥)، ولكنه صحيح مقطوعاً من قول وهب بن منبه؛ كما عند أبي يعلى في «المسند» (٦١١٥).



٣ـ الفِتْنَةُ بالقُبُورِ

ومِن أعظَمِ مكايدِهِ التي كادَ بها أكثَرَ النَّاسِ، وما نَجا منها إلَّا مَنْ لَمْ يُرِدِ اللهُ تعالى فِتْنَتَهُ: ما أوحاهُ قديماً وحديثاً إلى حِزبِهِ وأوليائِهِ مِن الفِتْنَةِ بالقبورِ، حتى آلَ الأمرُ فيها إلى أنْ عُبِدَ أربابُها مِن دُونِ اللهِ، وعُبِدَتْ قُبورُهم، واتُّخِذَتْ أوثاناً، بُنِيَتْ عليها الهياكِلُ، وصُوِّرَتْ صورُ أربابِها فيها، ثمَّ جُعِلَتْ تلكَ الصُّوَرُ أجساداً لها ظِلٌّ، ثمَّ جُعِلَتْ أصناماً، وعُبِدَتْ معَ اللهِ تعالى.

وكانَ أَوَّلَ هٰذا الدَّاءِ العظيمِ في قومِ نوحٍ، كما أخبرَ سبحانَه عنهُم في كتابِهِ، حيثُ يقولُ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٤].

قالَ ابنُ جَريرٍ[١]: «وكانَ مِن خبرِ هٰؤلاءِ ـ فيما بَلَغنا ـ ما حَدَّثَنا بهِ ابنُ حُمَيْدٍ: حدَّثَنا مِهْرانُ عن سُفيانَ عن موسى عن محمَّدِ بنِ قيسٍ: أنَّ يغوثَ ويعوقَ ونَسْراً كانُوا قوماً صالِحينَ مِن بَني آدَمَ، وكانَ لهُم أتباعٌ يَقْتَدونَ بهِم. فلمَّا ماتُوا قالَ أصحابُهُم الَّذينَ كانُوا يَقْتَدونَ بهِم: لو صوَّرْناهُم كانَ أشوَقَ لنا إلى العِبادةِ إذا ذَكَرْناهُم، فصوَّروهُم، فلمَّا ماتُوا وجاءَ آخَرونَ دَبَّ إليهِم إبليسُ، فقالَ: إنَّما كانوا يَعْبُدونَهُم، وبهِم يُسقونَ المَطَرَ، فعَبَدوهُم».

وقالَ البخاريُّ[٢]: حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ موسى: حدَّثَنا هشامٌ عنِ ابنِ جُريجٍ؛ قالَ: قالَ عطاءٌ عنِ ابنِ عبَّاسٍ: «صارَتِ الأوثانُ التي كانَتْ في قومِ نوحٍ في العربِ بعدُ، أمَّا وَدٌّ؛ فكانتْ لِكَلْبٍ بدُومَةِ الجَنْدَلِ، وأما سُواعٌ؛ فكانَتْ لِهُذَيْلٍ، وأمَّا يَغوثُ؛ فكانتْ لِمُرادٍ، ثمَّ لِبَني غُطَيْفٍ بالجُرْفِ عندَ سَبَأ.

(١) في «جامع البيان» (٢٩/ ٩٨).

(٢) في «صحيحه» (٤٩٢٠). وانظر لزاماً: «فتح الباري» (٨/ ٦٦٧).

وأما يعوقُ؛ فكانَتْ لِهَمْدانَ، وأَمَّا نَسْرٌ؛ فكانتْ لِحِمْيَرٍ، لآلِ ذِي الكَلاعِ: أسماءُ رجالٍ صالِحينَ مِن قومِ نوحٍ، فلمَّا هَلَكوا أَوْحى الشَّيْطانُ إلى قومِهِم: أن انْصُبُوا إلى مجالِسِهِم التي كانُوا يجلِسونَ أنصاباً، وسمُّوْها بأسمائِهِم. ففَعلوا، فلمْ تُعْبَدْ، حتى إذا هَلَكَ أُولٰئكَ، ونُسِيَ العلمُ؛ عُبِدَتْ».

وقالَ غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ[١]: «كانَ هٰؤلاءِ قوماً صالِحينَ في قومِ نوحٍ ﷺ، فلمَّا ماتُوا عَكَفوا على قُبورِهِم، ثُمَّ صَوَّروا تماثيلَهُم، ثمَّ طالَ عليهِم الأمدُ فعَبَدوهُم».

فهٰؤلاءِ جَمَعوا الفِتْنَتَيْنِ: فتْنَةَ القبورِ، وفِتْنَةَ التَّماثيلِ، وهُما الفِتْنَتانِ اللَّتانِ أشارَ إليهِما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في الحديثِ المتَّفَقِ على صحَّتِه[٢] عن عائشةَ ﵂: «أنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ﵄ ذَكَرَتْ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ كَنيسةً رأَتْها بأَرْضِ الحَبَشَةِ، يُقالُ لها: مارِيَةُ. فذَكَرَتْ لهُ ما رَأَتْ فيها مِن الصُّوَرِ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: أُولٰئكَ قومٌ إذا ماتَ فيهِمُ العبدُ الصَّالِحُ، أو الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا على قَبْرِهِ مسجداً. وصوَّروا فيهِ تلكَ الصُّوَرَ، أُولٰئكَ شِرارُ الخَلْقِ عندَ اللهِ تعالى».

فَجَمَعَ في هٰذا الحديثِ بينَ التَّماثيلِ والقبورِ، وهذا كانَ سببَ عبادةِ اللَّاتِ.

فقد رأَيْتَ أنَّ سبَبَ عبادةِ وَدٍّ ويَغوثَ ويَعوقَ ونَسْرٍ واللَّاتِ إنَّما كانتْ مِن تعظيمِ قُبورِهِم، ثمّ اتَّخذوا لها التَّماثيلَ، وعَبَدُوها؛ كما أشارَ إليهِ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ.

قالَ شيخُنا[٣]: وهٰذه العِلَّةُ التي لأجْلِها نَهى الشَّارِعُ عنِ اتِّخاذِ المساجِدِ على القُبورِ هي التي أَوْقَعَتْ كثيراً مِن الأُمَمِ، إمَّا في الشِّرْكِ الأَكْبَرِ، أو فيما دونَه مِن الشِّرْكِ، فإنَّ النُّفوسَ قد أَشْرَكَتْ بتماثيلِ القومِ الصَّالحينَ، وتماثيلَ يزعُمونَ أنَّها طلاسِمُ للكواكِبِ ونحوُ ذٰلك.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٩).

(٢) رواه البخاري (٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨).

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٣ - ٦٧٥) لابن تيمية ﵀.

فإنَّ الشركَ في قبرِ الرَّجُلِ الذي يُعْتَقَدُ صلاحُهُ أقربُ إلى النُّفُوسِ مِن الشِّرْكِ بخَشَبَةٍ أو حَجَرٍ، ولهٰذا نَجِدُ أَهْلَ الشِّرْكِ كثيراً يتضرَّعُونَ عندَها، ويخشعونَ ويخضَعونَ، ويعبدونَهُم بقلوبِهِم عبادةً لا يفعَلونَها في بيوتِ اللهِ، ولا وقْتَ السَّحَرِ، ومنهُم مَن يسجُدُ لها، أكثرُهُم يرجونَ مِن بركةِ الصَّلاةِ عندَها والدُّعاءِ مَا لا يرجونَه في المساجِدِ.

فلأجْلِ هٰذه المفسدَةِ حَسَمَ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ مادَّتَها، حتَّى نَهى عنِ الصَّلاةِ في المقبرةِ مُطْلقاً[١]، وإنْ لمْ يَقْصِدِ المُصَلِّي بَرَكَةَ البقعةِ بصلاتِه، كما يَقْصِدُ بصلاتِه برَكَةَ المساجِدِ؛ كما نَهى عن الصَّلاةِ وقتَ طلوعِ الشَّمسِ وغُروبِها[٢]؛ لأنَّها أوقاتٌ يقْصِدُ المشركونَ الصَّلاةَ فيها للشَّمْسِ، فنَهى أُمَّتَه عنِ الصَّلاةِ حينئذٍ، وإنْ لم يَقْصِدِ المصلِّي ما قَصَدَهُ المشرِكُونَ سدّاً للذَّريعَةِ.

قالَ: وأمَّا إذا قَصَدَ الرَّجُلُ الصَّلاةَ عندَ القُبورِ متبرِّكاً بالصَّلاةِ في تلكَ البقعَةِ، فهٰذا عينُ المحادَّةِ للهِ ولرسولِه، والمخالَفةِ لدينِه، وابتداعُ دِيْنٍ لم يأْذَنْ بهِ اللهُ تعالى؛ فإنَّ المسلمينَ قد أجْمَعوا على مَا عَلِموهُ بالاضطرارِ مِن دِينِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ أنَّ الصَّلاةَ عندَ القُبورِ منهيٌّ عنها[٣]، وأنَّهُ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَها مساجِدَ[٤].

فمِنْ أعظَمِ المُحْدَثاتِ وأسبابِ الشِّرْكِ: الصَّلاةُ عندَها، واتِّخاذُها مساجِدَ، وبناءُ المساجِدِ عليها.

---

(١) كما قال ﷺ: **«الأرض كلُّها مسجدٌ إلا المقبرة والحمام»**.
رواه أبو داود (٤٩٢)، والترمذي (٣١٧)، وابن ماجه (٧٤٥)، وغيرهم؛ بسند صحيح. وانظر: «الإتمام» (١١٨٠١) لاستيفاء تخريجه والكلام عليه.

(٢) انظر. «تجريد التوحيد المفيد» (ص٣٥) للمقريزي، وتعليقي عليه.

(٣) وفي «تحذير الساجد من اتِّخاذ القبور مساجد» لشيخنا العلامة الألباني حفظه الله تفصيلٌ مطوَّلٌ، فلْيُنْظر.

(٤) سيأتي بيان ذلك وتخريجه.

وقد تواتَرَتِ النُّصوصُ عنِ النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بالنَّهْيِ عن ذٰلك، والتَّغْليظَ فيه.

فقدْ صَرَّحَ عامَّةُ الطَّوائِفِ بالنَّهْيِ عن بناءِ المساجِدِ عليها، متابعةً منهُم للسُّنَّةِ الصَّحيحَةِ الصَّريحةِ، وصرَّحَ أَصحابُ أحمدَ وغيرُهُم مِن أصحابِ مالكٍ والشافعيِّ بتحريمِ ذٰلك، وطائفةٌ أَطْلَقَتِ الكراهَةَ، والذي ينبغي أنْ تُحْمَلَ على كراهةِ التَّحريمِ، إحساناً لظَّنِّ بالعلماءِ، وأَنْ لا يُظَنَّ بهِم أَنْ يُجوِّزوا فِعْلَ ما تواتَرَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لَعْنُ فاعِلِه، والنَّهْيُ عنهُ.

ففي «صحيح مسلم»[1] عن جُنْدَبِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَليِّ قالَ: سمعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ يموتَ بخمسٍ وهو يقولُ: **«إنِّي أَبْرَأُ إلى اللهِ أنْ يكونَ لي منكُم خليلٌ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قدِ اتَّخَذَني خليلاً؛ كما اتَّخَذَ إبراهيمَ خليلاً، ولو كُنْتُ مُتَّخِذاً مِن أُمَّتي خليلاً لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خليلاً، ألا وإنَّ مَن كانَ قبلَكُم كانُوا يَتَّخِذونَ قبورَ أنبيائِهِم مساجِدَ، ألا فلا تَتَّخِذوا القبورَ مساجِدَ؛ فإنِّي أنهاكُم عن ذٰلك»**.

وعن عائشةَ وعبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ قالا: «لما نُزِلَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ طَفِقَ يطْرَحُ خَميصةً لهُ على وجْهِهِ، فإذا اغْتَمَّ كشفَهُ فقالَ وهو كذٰلكَ: **لَعْنَةُ اللهِ على اليهودِ والنَّصارى، اتَّخَذُوا قُبورَ أنبيائِهِم مساجِدَ؛ يُحَذِّرُ ما صَنَعوا**» مُتَّفَقٌ عليهِ[2].

وفي «الصَّحيحَيْنِ»[3] أيضاً عن أبي هُريرةَ ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ: **«قاتَلَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى، اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهِم مساجِدَ»**.

وفي روايةِ مسلمٍ: **«لعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى؛ اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهِم مساجِدَ»**.

---

(١) برقم (٥٣٢).

(٢) رواه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).

(٣) رواه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠).

فقد نَهى عنِ اتِّخاذِ القبورِ مساجِدَ في آخِرِ حياتِه، ثمَّ إِنَّهُ لَعَنَ وهو في السِّياقِ[1] مَن فَعَلَ ذٰلكَ مِن أَهْلِ الكتابِ؛ ليُحَذِّرَ أُمَّتَهُ أنْ يفعَلوا ذٰلكَ.

قالتْ عائشةُ ﵂: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ في مرضِه الَّذي لم يَقُمْ منهُ: «**لعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى؛ اتَّخَذوا قبورَ أنبيائِهِم مساجِدَ، ولولا ذٰلك لأُبْرِزَ قَبْرُهُ؛ غيرَ أنَّهُ خُشِيَ أنْ يُتَّخَذَ مسجِداً**». متَّفقٌ عليهِ[2].

وقولُها: «خُشِيَ» هو بضمِّ الخاءِ؛ تعليلاً لمنْعِ إبرازِ قَبْرِه.

وروى الإمامُ أحمدُ في «مسنده»[3] بإسنادٍ جَيِّدٍ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ﵁ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ؛ قالَ: «إنَّ مِن شِرارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعةُ وهُم أحياءٌ، والَّذينَ يَتَّخِذونَ القُبورَ مساجِدَ».

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[4] أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ ﵁ رأى أنَسَ بنَ مالِكٍ يُصَلِّي عندَ قبرٍ، فقالَ: «القبرَ القبرَ».

وهذا يدُلُّ على أنَّهُ كانَ من المسْتَقِرِّ عندَ الصَّحابةِ ﵃ ما نهاهُم عنهُ نبيُّهُم مِن الصَّلاةِ عندَ القُبورِ، وفعلُ أنسٍ ﵁ لا يدلُّ على اعتقادِهِ جوازَهُ؛ فإنَّهُ لعلَّهُ لم يَرَهُ، أو لم يَعْلَمْ أنَّهُ قبرٌ، أو ذَهِلَ عنهُ، فلمَّا نَبَّهَهُ عمرُ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ تَنَبَّهَ.

وأَبْلَغُ مِن هٰذا: أنَّهُ نهى عنِ الصَّلاةِ إلى القبرِ، فلا يكونُ القبرُ بينَ المصلِّي وبينَ القِبْلَةِ.

---

(١) أي: سياق الموت، عند النَّزْع.

(٢) رواه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).

(٣) (١/ ٤٣٥). ورواه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، وابن خزيمة (٧٨٩)، وابن حبان (٣٤٠ و٣٤١)؛ بسند حسن.

(٤) معلَّقاً (١/ ٥٢٣). ووصله عبد الرزاق (١/ ٤٠٤)، والبيهقي (٢/ ٤٣٥)؛ من طريقين عن أنس.

فروى مسلمٌ في «صحيحِهِ»[1] عن أبي مَرْثَدٍ الغَنَوِيِّ رحمه الله أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ؛ قالَ: **«لا تَجْلِسوا على القُبورِ، ولا تُصَلُّوا إليها»**.

وفي هٰذا إبطالُ قولِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ النَّهْيَ عنِ الصَّلاةِ فيها لأجْلِ النَّجاسَةِ، فهٰذا أبعدُ شيءٍ عن مقاصِدِ الرَّسولِ ﷺ، وهو باطلٌ مِن عدَّةِ أوجُهٍ:

منها: أنَّ الأحاديثَ كلَّها ليس فيها فَرْقٌ بينَ المقبرةِ الحديثةِ والمَنْبوشَةِ؛ كما يقولُهُ المُعَلِّلونَ بالنَّجاسَةِ.

ومنها: أنَّهُ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لَعَنَ اليهودَ والنَّصارى على اتِّخاذِ قُبورِ أنبيائِهِم مساجِدَ، ومعلومٌ قَطْعاً أنَّ هٰذا ليسَ لأجْلِ النَّجاسَةِ؛ فإنَّ ذٰلك لا يخْتَصُّ بقبورِ الأنبياءِ، ولأنَّ قبورَ الأنبياءِ مِن أطْهَرِ البقاعِ، وليسَ للنَّجاسَةِ عليها طريقٌ ألبتَّةَ؛ فإنَّ اللهَ حرَّمَ على الأرْضِ أنْ تأْكُلَ أجسادَهُم[2]، فهُم في قُبورِهِم طرِيُّونَ.

ومنها: أنَّهُ نهى عنِ الصَّلاةِ إليها.

ومنها: أنَّهُ أخْبَرَ أنَّ الأرضَ كلَّها مسجِدٌ؛ إلَّا المقبَرَةَ والحمّامَ، ولو كانَ ذٰلك لأجْلِ النَّجاسَةِ؛ لكانَ ذِكْرُ الحُشوشِ والمجازِرِ ونحوِها أولى مِن ذِكْرِ القُبورِ.

ومنها: أنَّ فتنَةَ الشِّرْكِ بالصَّلاةِ في القُبورِ ومشابَهَةَ عُبَّادِ الأوْثانِ أعظَمُ بكثيرٍ مِن مفسَدَةِ الصَّلاةِ بعدَ العصرِ والفجْرِ، فإذا نهى عنْ ذٰلك سَدّاً لذَريعَةِ التَّشَبُّهِ التي لا تكادُ تخطُرُ ببالِ المصلِّي؛ فكيفَ بهٰذه الذَّريعَةِ القريبةِ التي كثيراً ما تَدْعو صاحِبَها إلى الشِّرْكِ ودُعاءِ المَوْتى واستغاثَتِهم وطَلَبِ الحوائِجِ منهُم،

---

(١) برقم (٩٧٢).

(٢) كما رواه أبو داود (١٠٤٧ و١٥٣١)، والنسائي (٣/ ٩١ - ٩٢)، وابن ماجه (١٦٣٦)، وغيرهم؛ بسند صحيح. وقد أُعِلَّ الحديث بما لا يقدحُ، فانظر «الإتمام» (١٦٢٠٧) لمعرفة البيان

واعتقادِ أنَّ الصَّلاةَ عندَ قبورِهِم أفضَلُ منها في المساجِدِ، وغير ذلك ممّا هو محادَّةٌ ظاهِرَةٌ للهِ ورسولِهِ، فأَيْنَ التَّعليلُ بنجاسةِ البقعةِ مِن هٰذه المفسَدَةِ؟

وممَّا يدُلُّ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قَصَدَ مَنْعَ هٰذه الأُمَّةِ مِن الفِتْنَةِ بالقُبورِ كما افْتُتِنَ بها قومُ نوحٍ ومَن بعْدَهُم.

ومنها: أَنَّهُ لَعَنَ المُتَّخِذينَ عليها المساجِدَ، ولو كانَ ذٰلك لأجْلِ النَّجاسَةِ؛ لأمْكَنَ أنْ يَتَّخِذَ عليها المسجِدَ معَ تَطْيِيبِها بطينٍ طاهرٍ، فتزولُ اللعنَةُ، وهو باطلٌ قطعاً.

ومنها: أَنَّهُ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ: «**اللهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْري وَثَناً يُعْبَدُ، اشتَدَّ غَضَبُ اللهِ على قومٍ اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهِم مساجِدَ**»[1]، فذِكْرُهُ ذٰلك عَقِيبَ قولِه: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قبري وثَناً يُعْبَدُ**»؛ تنبيهٌ منهُ على سبَبِ لحوقِ اللَّعْنِ لهُم، وهو توصُّلُهم بذٰلك إلى أنْ تَصيرَ أوثاناً تُعْبَدُ.

وبالجملةِ؛ فمَنْ لَهُ معرفةٌ بالشِّرْكِ وأسبابِهِ وذرائِعِهِ، وفَهِمَ عنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مقاصِدَهُ؛ جَزَمَ جَزْماً لا يَحْتَمِلُ النَّقيضَ أنَّ هٰذِهِ المبالغَةَ منهُ باللَّعْنِ والنَّهْيِ بصيغتيهِ: صيغةِ: (لا تفعَلوا)، وصيغةِ: (إنِّي أنهاكُم): ليس لأجْلِ النَّجاسَةِ، بل هو لأجْلِ نجاسَةِ الشِّركِ اللَّاحقةِ بمَن عصاهُ، وارتَكَبَ ما عنهُ نهاهُ، واتَّبَعَ هواهُ، ولم يخْشَ ربَّهُ ومولاهُ، وقلَّ نصيبُهُ أو عُدِمَ في تحقيقِ شهادةِ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ.

فإنَّ هٰذا وأمثالَهُ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّم صيانةٌ لحِمَى التَّوحيدِ أنْ يلْحَقَهُ الشركُ ويغشاهُ، وتجريدٌ لهُ، وغَضَبٌ لربِّهِ أنْ يُعْدَلَ بِهِ سواهُ، فأبى المشركونَ إلَّا معصيةً لأمْرِهِ، وارتكاباً لنَهْيِهِ، وغَرَّهُم الشَّيطانُ، فقالَ: بل هٰذا تعظيمٌ لقبورِ المشايخِ والصَّالحين، وكلَّما كنتُم أشدَّ لها تعظيماً، وأشدَّ فيها غُلُوّاً؛ كنتُم بقُرْبِهم أسعدَ، ومِن أعدائِهِم أبعدَ!

---

(١) رواه أحمد (٢/٢٤٦)، والحميدي (١٠٢٥)، وأبو نُعيم (٦/٢٨٣)؛ بسند حسن عن أبي هريرة

ولَعَمْرُ اللهِ مِن هٰذا البابِ بعَيْنِه دَخَلَ على عُبَّادِ يَغوثَ ويعوقَ ونَسْرٍ، ومنهُ دَخَلَ على عُبَّادِ الأصنامِ منذُ كانوا إلى يومِ القيامةِ، فجمَعَ المشركونَ بينَ الغُلُوِّ فيهِم، والطَّعْنِ في طريقتِهِم، وهَدَى اللهُ أَهْلَ التَّوحيدِ لسُلوكِ طريقتِهِم، وإنزالِهِم منازِلَهُم التي أَنْزَلَهُم اللهُ إيَّاها؛ مِن العُبودِيَّةِ، وسَلْبِ خصائِصِ الإلٰهيَّةِ عنهُم، وهٰذا غايةُ تعظيمِهِمْ وطاعَتِهم.

• اتِّخاذُ القُبورِ عيداً:

ومِن ذٰلك اتِّخاذُها عِيداً.

والعيدُ: ما يُعتادُ مجيئُهُ وقصْدُهُ مِن مكانٍ وزمانٍ.

فأمَّا الزَّمانُ؛ فكقولِهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: «**يومُ عَرَفَةَ ويومُ النَّحْرِ وأيَّامُ منًى عيدُنا أَهْلَ الإسلامِ**». رواهُ أبو داودَ وغيرُهُ[1].

وأمَّا المكانُ؛ فكقولِه: «**لا تَجْعَلوا قَبْرِي عيداً**»[2].

والعِيْدُ: مأخوذٌ مِن المُعاوَدَةِ، والاعتيادِ، فإذا كانَ اسماً للمكانِ؛ فهو المكانُ الذي يُقْصَدُ الاجتماعُ فيهِ وانتِيابُهُ للعبادَةِ، أو لغيرِها، كما أنَّ المسجِدَ الحرامَ ومنًى ومُزْدَلِفَةَ وعَرَفَةَ والمشاعِرَ جَعَلَها اللهُ تعالى عيداً للحُنَفاءِ، ومثابَةً، كما جَعَلَ أيَّامَ التَّعَبُّدِ فيها عِيداً.

وكانَ للمُشْرِكينَ أعيادٌ زَمانِيَّةٌ ومكانِيَّةٌ، فلما جاءَ اللهُ بالإسلامِ أَبْطَلَها، وعَوَّضَ الحنفاءَ منها عيدَ الفِطْرِ، وعيدَ النَّحْرِ[3]، وأيَّامَ مِنًى، كما عوَّضَهُم عن أعيادِ المشركينَ المكانيَّةِ بالكعبةِ البيتِ الحرامِ، وعرفةَ، ومنًى، والمشاعِرِ.

فاتِّخاذُ القُبورِ عِيداً هُو مِن أعيادِ المُشركينَ التي كانُوا عليهِ قبلَ

---

(١) رواه الترمذي (٧٧٣)، وأبو داود (٢٤١٩)، وغيرهما؛ بسند حسن. وانظر: «الإتمام» (١٧٤١٧) لزيادة التخريج.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) انظر رسالتي «أحكام العيدين...» (ص٧ - ٨).

الإسلامِ، وقد نَهى عنهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في سيِّدِ القُبورِ، مُنَبِّهاً بهِ على غيرِه.

فقالَ أبو دَاودَ[1]: حدَّثنا أحمدُ بنُ صالحٍ؛ قالَ: قَرَأْتُ على عبدِ اللهِ بنِ نَافعٍ: أَخْبَرَني ابنُ أبي ذِئْبٍ عن سعيدٍ المَقْبُريِّ عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: **«لا تَجْعَلوا بيوتَكُم قُبوراً، ولا تَجْعَلوا قَبْري عِيداً، وصلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكُم تبلُغُني حيثُ كُنْتُم»** صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ.

وهٰذا إسنادٌ حسنٌ، رواتُه كلُّهم ثقاتٌ مشاهيرُ.

وقال سعيدٌ[2]: حدَّثنا عبدُ العزيزِ بنُ محمَّدٍ: أخبَرَني سُهيلُ بنُ أبي سهَيْلٍ؛ قالَ: رآني الحسنُ بنُ الحسنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ عندَ القبرِ، فناداني، وهو في بيتِ فاطمةَ يتَعَشَّى، فقالَ: هَلُمَّ إلى العشاءِ، فقلتُ: لا أُريدُهُ، فقالَ: ما لي رأَيْتُكَ عندَ القبرِ؟ فقُلتُ: سلَّمْتُ على النبيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ، فقالَ: إذا دَخَلْتَ المسجِدَ، فسَلِّمْ. ثمَّ قالَ: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ؛ قالَ: **«لا تَتَّخِذوا بَيْتي عِيداً، ولا تَتَّخِذوا بيوتَكُمْ مَقابِرَ، لَعَنَ اللهُ اليَهودَ والنَّصارى؛ اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهِمْ مَساجِدَ، وصَلُّوا عَلَيَّ فإنَّ صلاتَكُمْ تَبْلُغُني حيثُما كنْتُم»**، ما أَنْتُم ومَن بالأَنْدَلُسِ إلَّا سواءٌ.

قال شيخُ الإسلام قدّسَ اللهُ روحهُ: وَوَجْهُ الدِّلالةِ: أنَّ قبرَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَفضلُ قبرٍ على وجْهِ الأرضِ، وقد نَهَى عنِ

---

(١) رقم (٢٠٤٢). ورواه أحمد (٢/٣٦٧)، والبيهقي في «حياة الأنبياء» (ص١٢). وهو كما قال المصنِّف بعدُ؛ لما قيل في عبد الله بن نافع، وهو الصائغ

(٢) هو ابن منصور، صاحب «السنن». وانظر تخريج هذه الرواية وغيرها في تعليقي على «معارج الألباب في مناهج الحقّ والصواب» (ص١٣٧ ـ ١٣٨) للنُّعمي، نشر مكتبة المعارف، الرياض

اتِّخاذِهِ عيداً، فقبرُ غيرِهِ أَوْلى بالنَّهْيِ كائناً مَنْ كانَ، ثمَّ إنَّهُ قَرَنَ ذٰلك بقولِهِ: «ولا تَتَّخِذوا بُيوتَكُم قُبوراً»؛ أيْ: لا تُعَطِّلوهُا مِنَ الصَّلاةِ فيها، والدُّعاءِ والقراءةِ، فتكونَ بمنزلةِ القُبورِ، فأَمَرَ بتحرِّي النَّافِلَةِ في البُيوتِ، ونَهى عن تَحَرِّي العبادةِ عندَ القُبورِ، وهٰذا ضِدُّ ما عليهِ المشركونَ مِن النَّصارى وأشباهِهِمْ، ثمَّ إنَّهُ عَقَّبَ النَّهْيَ عنِ اتِّخاذِهِ عِيداً بقولِهِ: «وصَلُّوا عَلَيَّ فإنَّ صلاتَكُم تَبْلُغُني حيثُ كُنْتُم»؛ يُشيرُ بذٰلك إلى أنَّ ما ينالُني منكُم مِن الصَّلاةِ والسَّلامِ يحصُلُ مَعَ قُرْبِكُم مِن قبرِي وبُعْدِكُم، فلا حاجَةَ بكُم إلى اتِّخاذِهِ عيداً.

وقد حرَّفَ هٰذه الأحاديثَ بعضُ مَن أَخَذَ شَبَهاً مِن النَّصارى بالشِّرْكِ، وشَبَهاً مِن اليهودِ بالتَّحريفِ، فقالَ: هٰذا أَمرٌ بملازَمَةِ قبرِهِ، والعُكوفِ عندَهُ، واعتيادِ قَصْدِه وانتيابِهِ، ونهيٌ أَنْ يُجْعَلَ كالعيدِ الَّذي إنَّما يكونُ في العامِ مرَّةً أو مرَّتينِ، فكأنَّهُ قالَ: لا تَجْعَلُوهُ بمنزلةِ العيدِ الَّذي يكونُ مِن الحَوْلِ إلى الحَوْلِ، واقصدُوهُ كُلَّ ساعَةٍ وكُلَّ وقتٍ.

وهٰذا مُراغَمَةٌ ومُحادَّةٌ للهِ ومُناقضَةٌ لما قَصَدَهُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ، وقَلْبٌ للحقائِقِ، ونِسْبَةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إلى التَّدليسِ والتَّلبيسِ بعدَ التَّناقُضِ، فقاتَلَ اللهُ أَهْلَ الباطلِ أنَّى يُؤفَكونَ[1].

ولا رَيْبَ أنَّ مَن أَمَرَ النَّاسَ باعتيادِ أَمْرٍ وملازَمَتِهِ وكثرَةِ انتيابِهِ بقولِهِ: «لا تَجْعَلوهُ عيداً»، فهو إلى التَّلْبيسِ وضِدِّ البيانِ أقربُ منهُ إلى الدِّلالةِ والبيانِ، فإنْ لم يَكُنْ هٰذا تنقيصاً فليس للتَّنْقيصِ حقيقةٌ فينا، كمَنْ يَرْمي أنصارَ الرَّسولِ ﷺ وحِزْبَهُ بدائِهِ ومُصابِهِ ويَنْسَلُّ كأنَّهُ بريءٌ، ولا ريبَ أنَّ ارتكابَ كلِّ كبيرةٍ بعدَ

---

(١) ومثلُ هذه التحريفات ـ بل أشد ـ ما كَتَبه الغُماريّان: الكبير أحمد في «إحياء المقبور...»، والصغير عبد الله في «إعلام الراكع والساجد...» في تأييد استحباب بناء المساجد على القبور!!

وانظر رسالتي: «كشف المتواري من تلبيسات الغُماري» (٩٠ ـ ٩١) لكشف ضلالاتهم وانحرافاتهم!!

الشِّركِ أسهَلُ إثماً، وأخَفُّ عُقوبةً مِن تعاطي مِثل ذٰلك في دِينِهِ وسُنَّتِه، وهٰكذا غُيِّرتْ دياناتُ الرُّسُلِ، ولولا أنَّ اللهَ أقامَ لدينِهِ الأنصارَ والأعوانَ الذَّابِّينَ عنهُ، لجَرى عليهِ ما جَرى على الأديانِ قبلَهُ.

ولو أرادَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ما قالَهُ هٰؤلاءِ الضُّلَّالُ؛ لم يَنْهَ عنِ اتِّخاذِ قبورِ الأنبياءِ مساجِدَ، ويَلْعَنْ فاعِلَ ذٰلك؛ فإنَّهُ إذا لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَها مساجِدَ، يُعْبَدُ اللهُ فيها، فكيفَ يأمُرُ بملازَمَتِها، والعُكوفِ عندَها، وأنْ يُعتادَ قصدُها وانتيابُها، ولا تُجْعَلُ كالعيدِ الَّذي يجيءُ مِن الحَوْلِ إلى الحَوْلِ؟

وكيفَ يسألُ ربَّهُ أنْ لا يَجْعَلَ قبرَهُ وثناً يُعْبَدُ؟

وكيفَ يقولُ أعْلَمُ الخَلْقِ بذٰلك: «لولا ذٰلك لأبْرِزَ قبرُهُ، ولكنْ خُشِيَ أنْ يُتَّخَذَ مسجداً»؟.

وكيفَ يقولُ: «لا تَجْعَلوا قبري عيداً، وصَلُّوا عليَّ حيثما كنتُم»؟.

وكيفَ لم يَفْهَمْ أصحابُهُ وأهْلُ بيتِهِ مِن ذٰلك ما فَهِمَهُ هٰؤلاءِ الضُّلَّالُ الذين جَمَعوا بينَ الشِّرْكِ والتَّحْريفِ؟

• المفاسِدُ المترتِّبَةُ على اتِّخاذِ القُبورِ أعياداً:

ثمَّ إنَّ في اتِّخاذِ القبورِ أعياداً مِن المفاسِدِ العظيمةِ التي لا يعلَمُها إلَّا اللهُ تعالى ما يَغْضَبُ لأجْلِهِ كلُّ مَن في قلبِهِ وَقارٌ للهِ تعالى، وغَيْرَةٌ على التَّوحيدِ، وتَهْجينٌ وتقبيحٌ للشِّرْكِ، ولكنْ: ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ.

فَمِنْ مَفاسِدِ اتِّخاذِها أعياداً: الصَّلاةُ إليها، والطَّوافُ بها، وتَقْبيلُها، واستلامُها، وتَعفيرُ الخُدودِ على تُرابِها، وعبادةُ أصحابِها، والاستغاثَةُ بهِم، وسؤالُهُم النَّصْرَ والرِّزْقَ والعافيةَ، وقضاءَ الدُّيونِ، وتفريجَ الكُرُباتِ، وإغاثَةَ اللَّهفاتِ، وغيرَ ذٰلك مِن أنواعِ الطَّلَباتِ، التي كانَ عُبّدُ الأوثانِ يسألونَها أوثانَهُم.

فلو رأيْتَ غُلاةَ المُتَّخِذينَ لها عيداً، وقد نَزَلوا عنِ الأكْوارِ(١) والدَّوابِّ إذا رأَوْها مِن مكانٍ بعيدٍ فوَضَعوا لها الجِباهَ، وقَبَّلوا الأرضَ، وكَشَفوا الرُّؤوس، وارتفعَتْ أصواتُهُم بالضَّجيجِ، وتَباكَوْا حتَّى تسمَعُ لهُم النَّشيجَ، ورأَوْا أنَّهُم قدْ أرْبَوا في الرِّبْحِ على الحَجيجِ، فاستغاثُوا بمَنْ لا يُبْدِي ولا يُعيدُ، ونادَوْا ولكنْ مِن مكانٍ بعيدٍ، حتى إذا دَنَوْا منها صَلَّوْا عندَ القبرِ ركعتينِ، ورأَوْا أنَّهُم قد أحْرَزُوا مِن الأجْرِ ولا أجْرَ مَن صلَّى إلى القِبْلَتَيْنِ، فتراهُم حولَ القبرِ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغونَ فضلاً مِن الميِّتِ ورِضواناً، وقد مَلَؤوا أكُفَّهُم خَيْبَةً وخُسراناً!

فلغيرِ اللهِ، بل للشَّيطانِ ما يُراقُ هُناكَ مِن العَبَراتِ، ويرتَفِعُ مِن الأصواتِ، ويُطلبُ مِن الميِّتِ مِن الحاجاتِ، ويُسأَلُ مِن تفريجِ الكُرُباتِ، وإغناءِ ذَوي الفاقاتِ، ومُعافاةِ أُولي العَاهَاتِ والبَلِيَّاتِ!

ثمَّ انْثَنَوْا بعدَ ذٰلك حولَ القبرِ طائفينَ، تشبيهاً لهُ بالبيتِ الحرامِ، الذي جَعَلَهُ اللهُ مبارَكاً وهُدًى للعالَمينَ، ثمَّ أخذوا في التَّقبيلِ والاستلامِ، أرأيْتَ الحَجَرَ الأسودَ وما يَفْعَلُ بهِ وَفْدُ البيتِ الحرامِ، ثمَّ عَفَّروا لديهِ تلكَ الجِباهَ والخُدودَ، التي يعلمُ اللهُ أنَّها لم تُعَفَّرْ كذٰلك بينَ يديهِ في السُّجودِ.

هٰذا؛ ولم نتجاوَزْ فيما حَكَيناهُ عنهُم، ولا استَقْصينا جميعَ بِدَعِهِم وضلالِهِم، إذ هيَ فوقَ ما يخطرُ بالبالِ، أو يدورُ في الخيالِ.

وهٰذا كانَ مبدأُ عبادَةِ الأصنامِ في قومِ نوحٍ، كما تقدَّمَ.

وكلُّ مَنْ شَمَّ أدْنى رائحةٍ مِن العلمِ والفِقْهِ يعلمُ أنَّ مِنْ أهَمِّ الأمورِ سدَّ الذَّريعَةِ إلى هٰذا المحذورِ، وأنَّ صاحِبَ الشَّرْعِ أعلَمُ بعاقِبَةِ ما نَهى عنهُ لما يؤولُ إليهِ، وأحكمُ في نَهْيِهِ عنهُ وتوعُّدِهِ عليهِ، وأنَّ الخَيْرَ والهَدْيَ في اتِّباعِهِ وطاعَتِهِ، والشَّرَّ والضَّلالَ في مَعْصِيَتِه ومُخالَفَتِه.

---

(١) مفردها (كُورٌ)، وهو الرَّحلُ.

ورأيتُ لأبي الوفاءِ بنِ عَقيلٍ في ذٰلكَ فصلاً حَسناً(١)، فذَكَرْتُه بلفظِهِ؛ قالَ:

«لمَّا صَعُبَتِ التَّكاليفُ على الجُهَّالِ والطَّغامِ، عَدَلوا عَنْ أوضاعِ الشَّرْعِ إلى تعظيمِ أوضاعٍ وَضَعُوها لأنفُسِهِم، فسَهُلَتْ عليهِم، إذ لمْ يَدْخُلوا بها تحتَ أمْرِ غيرِهِم. قالَ: وهُمْ عِنْدي كُفَّارٌ بهٰذهِ الأوضاعِ؛ مثلُ تعظيمِ القبورِ، وإكرامِها، بما نهى عنهُ الشَّرْعُ؛ مِن إيقادِ النِّيرانِ، وتقبيلِها وتَخْليقِها(٢)، وخِطابِ الموتى بالحوائجِ، وكَتْبِ الرِّقاعِ فيها: يا مولاي! افْعَلْ بي كذا وكذا، وأخْذِ تُرْبَتِها تَبَرُّكاً، وإفاضَةِ الطِّيبِ على القُبورِ، وشَدِّ الرِّحالِ إليها، وإلقاءِ الخِرَقِ على الشَّجرِ؛ اقتداءً بمَنْ عَبَدَ اللَّاتَ والعُزَّى، والويلُ عندَهُم لمَنْ لم يُقَبِّلْ مشهَدَ الكفِّ، ولم يتمَسَّحْ بآجُرَّةِ مسجدِ المأمونيَّةِ يومَ الأربعاءِ!».

ومَن جَمَعَ بينَ سُنَّةِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ في القُبورِ، وما أمِرَ بِهِ ونَهى عنهُ وما كانَ عليهِ أصحابُه، وبينَ ما عليهِ أكثرُ النَّاسِ اليومَ رأى أحدَهُما مُضاداً للآخَرِ، مناقِضاً لهُ، بحيثُ لا يجتمِعانِ أبداً.

فنَهَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ عنِ الصَّلاةِ إلى القُبورِ، وهٰؤلاءِ يُصَلُّونَ عندَها.

ونَهى عنِ اتِّخاذِها مساجِدَ، وهٰؤلاءِ يَبْنُونَ عليها المساجِدَ، ويسمُّونها مشاهِدَ، مضاهاةً لبيوتِ اللهِ تعالى.

ونَهى أَنْ تُتَّخَذَ عيداً، وهٰؤلاء يتَّخِذونَها أعياداً ومناسكَ، ويجتمِعونَ لها كاجتماعِهِم للعيدِ أو أكثرَ.

وأَمَرَ بتسوِيَتِها كما روى مسلمٌ في «صحيحِهِ»(٣) عن أبي الهَيَّاجِ الأَسَدِيِّ؛

---

(١) وقد نَقَله عنه تلميذُه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص٥٥٣ ـ ٥٥٤، المنتقى النفيس)

(٢) هو وضعُ الخلوق عليها، وهو مِن أنواع الطِّيب.

(٣) برقم (٩٦٩).

قالَ: قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: «ألا أَبعَثُكَ على مَا بَعَثَني عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: أَنْ لا تَدَعَ تِمثالاً إلَّا طَمَسْتَهُ، ولا قَبْراً مُشْرِفاً إلَّا سوَّيْتَه».

وفي «صحيحِه»[1] أيضاً عن ثُمامَةَ بنِ شُفَيٍّ قالَ: «كُنَّا مَعَ فَضالَةَ بنِ عُبيدٍ بأرضِ الرُّومِ برُودِس، فتُوفِّيَ صاحبٌ لنا، فأمرَ فَضالَةُ بقبْرِهِ، فسُوِّيَ، ثمَّ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ يأمُرُ بتسويَتِها».

وهٰؤلاءِ يبالِغونَ في مخالَفَةِ هٰذينِ الحديثَيْنِ، ويرفَعونَها عنِ الأرضِ كالبيتِ، ويَعْقِدونَ عليها القِبابَ.

ونَهى عنْ تَجْصيصِ القبرِ والبناءِ عليهِ؛ كما روى مسلمٌ في «صحيحِهِ»[2] عن جابرٍ قالَ: «نَهَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ عن تجصيصِ القبْرِ، وأَنْ يُقْعَدَ عليهِ، وأَنْ يُبْنى عليهِ بِناءٌ».

ونَهى عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ أَنْ يُبنَى القبرُ بآجُرٍّ، وأوصى أَنْ لا يُفْعَلَ ذٰلكَ بقَبْرِهِ.

وأوصى الأَسْوَدُ بنُ يزيدَ أَنْ: لا تَجْعَلوا عَلى قبري آجُرّاً.

وقالَ إبراهيمُ النَّخَعِيُّ: «كانُوا يكرَهُونَ الآجُرَّ على قُبورِهم».

وأوصى أَبو هُريرةَ حينَ حَضَرَتْهُ الوَفاةُ: أَنْ لا تَضْرِبُوا عليَّ فُسطاطاً.

وكَرِهَ الإمامُ أحمدُ أَنْ يُضْرَبَ على القبرِ فسطاطٌ.

والمقصودُ أنَّ هٰؤلاءِ المعظِّمينَ للقبُورِ، المُتَّخِذينَها أعياداً، الموقِدينَ عليها السُّرُجَ، الذين يبنون عليها المساجِدَ والقِبابَ، مُناقِضونَ لما أَمَرَ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ، محادُّونَ لما جَاءَ بِهِ، وأَعْظَمُ ذٰلكَ اتِّخاذُها مساجِدَ، وإيقادُ السُّرُجِ عليها. وهُو مِنَ الكَبائِرِ، وقد صَرَّحَ الفُقهاءُ مِن أصحابِ أحمدَ وغيرِهِم بتحريمِهِ.

---

(١) برقم (٩٦٨). (٢) برقم (٩٧٠).

قالَ أبو محمَّدٍ المقدِسِيُّ[١]:

«. . . لأنَّ فيهِ تضييعاً للمالِ في غيرِ فائدةٍ، وإفراطاً في تعظيمِ القُبورِ، أشْبَهَ تعظيمَ الأصنامِ».

قالَ: «ولا يَجُوزُ اتِّخاذُ المساجِدِ على القُبورِ لهٰذا الخبرِ، ولأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ؛ قالَ: **«لَعَنَ اللهُ اليهودَ اتَّخَذوا قُبورَ أَنْبيائِهِمْ مَساجِدَ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعوا»**». متَّفق عليه[٢].

وقالتْ عائشةُ ﵂: «إنَّما لم يُبْرَزْ قَبْرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ لئلَّا يُتَّخَذَ مسجداً»؛ لأنَّ تخصيصَ القبورِ بالصَّلاةِ عندَها يشبِهُ تعظيمَ الأصنامِ بالسُّجودِ لها والتَّقَرُّبِ إليها.

وقد رُوِّينا أنَّ ابتداءَ عبادَةِ الأصنامِ تعظيمُ الأمواتِ باتِّخاذِ صُوَرِهِم، والتَّمَسُّحِ بها، والصَّلاةِ عندَها. انتهى.

وقدْ آلَ الأمْرُ بهٰؤلاءِ الضُّلَّالِ المشركينَ إلى أنْ شَرَعُوا للقُبورِ حَجّاً، ووضَعُوا لهُ مناسِكَ، حتَّى صَنَّفَ بعضُ غُلاتِهِم[٣] في ذٰلك كتاباً وسمّاهُ: «مناسكُ حَجِّ المشاهِدِ»، مضاهاةً منهُ بالقُبورِ للبيتِ الحرامِ، ولا يَخْفى أنَّ هٰذا مفارقَةٌ لدينِ الإسلامِ، ودُخولٌ في دينِ عُبَّادِ الأصْنامِ.

فانْظُرْ إلى هٰذا التَّبايُنِ العظيمِ بينَ ما شرَعَهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ وقَصَدَهُ مِنَ النَّهْيِ عمّا تقدَّمَ ذِكْرُهُ في القُبورِ، وبين ما شَرَعَهُ هٰؤلاءِ وقَصَدُوهُ، ولا ريبَ أنَّ في ذٰلك مِن المفاسِدِ ما يَعْجَزُ العَبْدُ عنْ حَصْرِهِ.

فمِنْها: تعظيمُها الموقِعُ في الافتتانِ بها.

---

(١) في «المغني» (٢/ ٣٨٨).

(٢) رواه البخاري (١/ ٥٣٢)، ومسلم (٥٣١).

(٣) وهو من الشِّيعة الروافض، وانظر: «منهاج السنة النبوية» (١/ ٤٧٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية. ومؤلِّفه هو ابن النُّعمان، المعروف عندهم بـ(المُفيد)، توفي سنة (٤١٣هـ)، ترجمته في «شذرات الذهب» (٣/ ١٩٩).

ومِنها: اتِّخاذُها عيداً.

ومِنْها: السَّفَرُ إليها.

ومِنها: مشابَهةُ عبادةِ الأصنامِ بما يُفْعَلُ عندَها مِن العُكوفِ عليها، والمجاوَرَةِ عندَها، وتعليقِ السُّتورِ عليها وسدانَتِها، وعُبَّادُها يُرَجِّحونَ المجاورةَ عندَها على المجاورةِ عندَ المسجدِ الحرامِ، ويَرَوْنَ سِدانَتَها أفْضَلَ مِنْ خِدْمَةِ المساجِدِ، والويلُ عندَهُم لقَيِّمِها ليلةَ يُطْفِئُ القنديلَ المعلَّقَ عليها!

ومِنها: النَّذْرُ لها ولِسَدَنَتِها.

ومِنها: اعتقادُ المشركينَ بها أنَّ بها يُكْشَفُ البلاءُ، ويُنْصَرُ على الأعداءِ، ويُسْتَنْزَلُ غيثُ السَّماءِ، وتُفَرَّجُ الكروبُ، وتُقْضى الحوائجُ، ويُنْصَرُ المظلومُ، ويُجازُ الخائفُ... إلى غيرِ ذٰلكَ.

ومنها: الدُّخولُ في لعنةِ اللهِ تعالى ورسولِهِ باتِّخاذِ المساجِدِ عليها، وإيقادِ السُّرُجِ عليها.

ومنها: الشِّرْكُ الأكبَرُ الذي يُفْعَلُ عندَها.

ومنها: إيذاءُ أصحابِها بما يفعَلُهُ المشرِكونَ بقبورِهِم؛ فإنَّهُم يؤذيهم ما يُفْعَلُ عندَ قُبورِهِم، ويكرهونَهُ غايةَ الكراهةِ، كما أنَّ المسيحَ يكْرَهُ ما يفعَلُهُ النَّصارى عندَ قبرِهِ، وكذٰلكَ غيرُهُ مِن الأنبياءِ والأولياءِ والمشايخِ يُؤذيهِم ما يفعَلُهُ أشباهُ النَّصارى عندَ قُبورِهِم، ويومَ القيامَةِ يتبرَّؤونَ منهُم؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧ ـ ١٨]، قالَ اللهُ للمشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الفرقان: ١٩] الآية.

وقالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية.

وقالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

ومنها: مُشابهةُ اليهودِ والنَّصارى في اتِّخاذِ المساجِدِ والسُّرُجِ عليها.

ومنها: محادَّةُ اللهِ ورسولِهِ ومُناقضَةُ ما شرعَهُ فيها.

ومنها: التَّعَبُ العظيمُ مَعَ الوِزْرِ الكَثيرِ، والإِثْمِ العظيمِ.

ومنها: إماتةُ السُّنَنِ وإِحياءُ البِدَعِ.

ومنها: تفضيلُها على خيرِ البقاعِ وأَحَبِّها إلى اللهِ، فإنَّ عُبَّادَ القبورِ يُعْطونَها مِن التَّعظيمِ والاحترامِ والخُشوعِ ورقَّةِ القلبِ والعُكوفِ بالهِمَّةِ على الموتى ما لا يفعَلونَه في المساجِدِ، ولا يحصُلُ لهُم فيها نظيرُهُ ولا قريبٌ منه.

ومنها: أنَّ ذلك يتضمَّنُ عمارةَ المشاهِدِ وخرابَ المساجِدِ، ودينُ اللهِ الذي بَعَثَ بِهِ رسولَهُ بضدِّ ذلك، ولهذا لمَّا كانَتِ الرَّافِضةُ مِن أَبْعَدِ النَّاسِ عنِ العِلْمِ والدِّينِ، عَمَروا المشاهِدَ، وأَخْرَبوا المساجِدَ.

ومنها: أنَّ الذي شَرَعَهُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ عندَ زيارَةِ القُبورِ: إنَّما هُو تَذَكُّرُ الآخرةِ[١]، والإحسانُ إلى المزورِ بالدُّعاءِ لهُ، والترحُّمِ عليهِ، والاستغفارِ لهُ، وسؤالِ العافيةِ لهُ.

فيكونُ الزَّائِرُ محسِناً إلى نفسِهِ، وإلى الميِّتِ، فقَلَبَ هٰؤلاءِ المشركونَ الأمْرَ، وعَكَسوا الدِّينَ، وجَعَلُوا المقصودَ بالزِّيارَةِ الشِّرْكَ الميِّتِ، ودعاءَهُ، والدُّعاءَ بِهِ، وسؤالَهُ حوائِجَهُم، واستنزالَ البركاتِ منهُ، ونصرَهُ لهُم على الأعداءِ، ونحوَ ذٰلكَ، فصاروا مُسيئينَ إلى نفوسِهِم، وإلى الميِّتِ، ولو لم يَكُنْ إلَّا بحِرْمانِهِ بَرَكَةَ ما شرعَهُ اللهُ تعالى مِنَ الدُّعاءِ لهُ والتَّرَحُّمِ عليهِ، والاستغفارِ لهُ.

(١) كما سيورده المصنف بعد قليل

فاسْمَعِ الآنَ زيارَةَ أهلِ الإيمانِ التي شَرَعَها اللهُ تعالى على لسانِ رسولِهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآله وسلَّمَ، ثمَّ وازِنْ بينَها وبينَ أهْلِ الإشراكِ، التي شرَعَها لهُم الشَّيْطانُ، واخْتَرْ لنَفْسِكَ:

قالَتْ عائشةُ رضي الله عنها: «كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ كلَّما كانَ ليلتها منهُ يخرُجُ مِن آخِرِ الليلِ إلى البَقيعِ، فيقولُ: السَّلامُ عليكُمْ دَارَ قومٍ مؤمِنينَ، وأتاكُمْ ما تُوعَدُونَ، غداً مُؤجَّلونَ، وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكُمْ لاحِقونَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لأهلِ بَقيعِ الغَرْقَدِ»، رواهُ مسلمٌ[1].

وعن بُرَيْدَةَ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهِ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: **«كنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَن زِيارَةِ القُبورِ، فَمَنْ أرادَ أنْ يَزورَ فَلْيَزُرْ، ولا تَقُولوا هُجْراً»** رواه أحمدُ والنَّسائيُّ[2].

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ قد نَهى الرِّجالَ عن زيارَةِ القُبورِ، سدّاً للذَّريعةِ، فلمَّا تمكَّنَ التَّوحيدُ في قُلوبِهم أذِنَ لهُم في زيارَتِها على الوجهِ الذي شَرَعَهُ، ونَهاهُمْ أنْ يَقولوا هُجْراً، فمَنْ زارَها على غيرِ الوجْهِ المشروعِ الذي يُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ؛ فإنَّ زيارَتَهُ غيرُ مأذونٍ فيها.

ومِن أعْظَمِ الهُجْرِ: الشِّرْكُ عندَها قولاً وفِعْلاً.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[3] عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: **«زُوروا القُبورَ؛ فإنَّها تُذَكِّرُ الموتَ»**.

فهٰذه الزِّيارَةُ التي شرَعها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ لأمَّتِهِ، وعلَّمَهُم إيَّاها، هل تَجِدُ فيها شيئاً ممَّا يعْتَمِدُه أهلُ الشِّرْكِ والبِدَعِ؟ أمْ تَجِدُها مُضادَّةً لما هُم عليهِ مِن كُلِّ وجْهٍ؟

---

(١) برقم (٩٧٤).
(٢) هو في «الإتمام» (٢٣٠٠٨)، وأصله في «صحيح مسلم» (٩٧٧).
(٣) برقم (٩٧٦) (١٠٨).

وما أَحْسَنَ ما قالَ مالكُ بنُ أنسٍ رَحِمَهُ اللهُ: «لَنْ يُصْلِحَ آخِرَ هٰذه الأمَّةِ إلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَها»، ولكنْ كُلَّما ضَعُفَ تمسُّكُ الأممِ بعُهودِ أنبيائِهِم، ونَقَصَ إيمانُهُم؛ عُوِّضوا عَنْ ذٰلك بما أَحْدَثُوهُ مِن البِدَعِ والشِّرْكِ.

ولقد جَرَّدَ السَّلَفُ الصَّالِحُ التَّوحيدَ، وحَمَوْا جانِبَهُ، حتى كانَ أَحَدُهُم إذا سلَّمَ على النَّبِيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، ثمَّ أرادَ الدُّعاءَ، استقْبَلَ القِبْلَةَ، وجَعَلَ ظهرَهُ إلى جِدارِ القبرِ، ثمَّ دَعا.

فقالَ سَلَمَةُ بنُ وَرْدَانَ: «رأَيْتُ أَنَسَ بنَ مالكٍ رضي الله عنه يُسَلِّمُ على النَّبِيِّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، ثُمَّ يُسْنِدُ ظَهْرَهُ إلى جِدارِ القَبْرِ، ثُمَّ يَدْعُو».

ونَصَّ على ذٰلك الأئمَّةُ الأربَعَةُ: أنَّهُ يَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ وَقْتَ الدُّعاءِ، حتى لا يَدْعُو عندَ القَبْرِ؛ فإنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ.

وفي التِّرمذيِّ وغيرِهِ مرفوعاً: «الدُّعاءُ هو العبادةُ»(١).

فجَرَّدَ السَّلَفُ العبادَةَ للهِ، ولم يَفْعَلُوا عندَ القُبورِ منها إلَّا ما أَذِنَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: مِنَ السَّلامِ على أصحابِها والاستغفارِ لهُم، والتَّرَحُّمِ عليهِم.

وبالجملة؛ فالميِّتُ قد انقَطَعَ عمَلُهُ، فهو محتاجٌ إلى مَن يدعو لهُ ويشفَعُ لهُ، ولهٰذا شُرِعَ في الصَّلاةِ عليهِ مِن الدُّعاءِ لهُ، وجوباً واستِحباباً، ما لم يُشْرَعْ مِثْلُهُ في الدُّعاءِ للحيِّ.

قالَ عوفُ بنُ مالكٍ: «صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ على جَنازةٍ فحَفِظْتُ مِن دُعائِهِ وهُو يقولُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لهُ، وارْحَمْهُ، وعافِهِ، واعْفُ عنهُ، وأَكْرِمْ نُزُلَهُ، ووسِّعْ مُدْخَلَهُ، وأَبْدِلْهُ داراً خيراً مِن دارِهِ، وأَهْلاً خيراً مِن أهلِهِ، وزوجاً خيراً مِن زوجِهِ، وأَدْخِلْهُ الجنَّةَ، وأَعِذْهُ مِن عذابِ القبرِ ـ أو مِن عذابِ النَّارِ ـ، حتَّى

---

(١) وهو حديث صحيح، خرجته في تعليقي على «معارج الألباب» (ص٢٤٢).

تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكونَ أنا الميِّتَ؛ لدُعاءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ على ذلك الميِّتِ». رواه مسلمٌ[١].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ يقولُ: «**ما مِنْ رجلٍ مسلمٍ يموتُ فيقومُ على جَنازتِهِ أربعونَ رجُلاً، لا يُشْرِكونَ باللهِ شيئاً؛ إلَّا شَفَّعَهُم اللهُ فيهِ**» رواه مسلم[٢].

فهٰذا مقصودُ الصَّلاةِ على الميِّتِ[٣]، وهو لدُّعاءُ لهُ والاستغفارُ، والشَّفاعةُ فيهِ.

وقد كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ يقفُ على القبرِ بعدَ الدَّفْنِ، فيقولُ: «**سَلُوا اللهَ لهُ التَّثْبيتَ؛ فإنَّهُ الآنَ يُسأَلُ**»[٤].

فعُلِمَ أَنَّهُ أَحْوَجُ إلى الدُّعاءِ لهُ بعدَ الدَّفْنِ، فإذا كُنَّا على جنازتِه نَدْعو لهُ، لا نَدْعو بِهِ، ونَشْفَعُ لهُ، لا نَشْفَعُ بِه، فبَعْدَ الدَّفْنِ أَوْلى وأَحْرى.

فبدَّلَ أهلُ البدعِ والشِّرْكِ قولاً غيرَ الَّذي قيلَ لهُم، بدَّلوا الدُّعاءَ لهُ بدعائِهِ نفسَه، والشَّفاعَةَ لهُ بالاستشفاعِ بهِ، وقصدُو بالزِّيارَةِ التي شرعها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ إحساناً إلى الزَّائرِ، وتذكيراً بالآخرةِ: سؤالَ الميِّتِ، والإقسامَ بهِ على اللهِ، وتخصيصَ تلك البُقْعةِ بالدُّعاءِ الذي هو العبادةُ، وحضورَ القلبِ عندَها، وخشوعَه أعظمَ منهُ في المساجِدِ، وأوقاتِ الأسْحارِ.

ومِنَ المُحالِ أَنْ يكونَ دُعاءُ الموتى، أو الدُّعاءُ بهم، أو الدُّعاءُ عندَهُم، مشروعاً وعملاً صالحاً، ويُصْرَفَ عنهُ القرونُ الثلاثةُ المفضَّلَةُ بنصِّ

---

(١) برقم (٩٦٣). (٢) برقم (٩٤٨).

(٣) انظر: «الحوادث والبدع» (ص١٧٨) وتعليقي عليه.

(٤) رواه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم (١/ ٣٧٠)، والبيهقي (٤/ ٥٦)؛ بسند جوّده الإمام النووي في «المجموع» (٥/ ٢٩٢)، وهو كما قال.

(٥) انظر: «المنتقى النفيس» (ص٨٣).

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، ثمَّ يُرْزَقُهُ الخُلوفَ الذينَ يقولونَ ما لا يفعَلونَ، ويفعَلُونَ ما لا يؤمَرونَ.

فهٰذه سُنَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ في أَهلِ القُبورِ بِضعاً وعشرينَ سنةً، حتَّى توفَّاهُ الله تعالى. وهٰذه سُنَّةُ خُلفائِه الرَّاشدينَ، وهٰذه طريقةُ جميعِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ لهُم بإحسانٍ، هل يمكِنُ بَشَرٌ على وَجْهِ الأرضِ أنْ يَأْتيَ عن أحدٍ منهُم بنقْلٍ صحيحٍ، أو حسنٍ، أو ضعيفٍ، أو منقَطِعٍ: أنَّهُم كانوا إذا كانَ لهُم حاجةٌ قَصَدوا القُبورَ، فدَعَوْا عندَها، وتمسَّحُوا بها، فضلاً أنْ يُصَلُّوا عندَها، أو يسألوا اللهَ بأصحابِها، أو يسألوهُم حوائِجَهُم، فلْيُوقِفُونا على أثرٍ واحدٍ، أو حرفٍ واحدٍ في ذٰلك. بلى، يمْكِنُهُم أنْ يأْتُوا عنِ الخُلوفِ التي خَلَفَتْ بعدَهُم بكثيرٍ مِن ذٰلك، وكلَّما تأَخَّرَ الزَّمانُ وطالَ العهدُ؛ كانَ ذٰلك أكثرَ، حتى لقدْ وُجِدَ في ذٰلك عِدَّةُ مصنَّفاتٍ ليس فيها عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ، ولا عن خُلفَائِهِ الرَّاشدينَ، ولا عن أَصحابِهِ حَرْفٌ وحدٌ مِن ذٰلك، بلى، فيها مِن خِلافِ ذٰلك كثيرٌ.

وأَمَّا آثارُ الصَّحابَةِ فأَكْثَرُ مِن أنْ يُحاطَ بها، وقد ذَكَرْنا إنكارَ عُمَرَ ﷺ على أَنسٍ ﷺ صلاتَه عندَ القبرِ، وقوله لهُ: «القبرَ القبرَ».

فلو كانَ الدُّعاءُ عندَ القُبورِ والصَّلاةُ عندَها والتَّبرُّكُ بها فضيلةً أو سنَّةً أو مباحاً، لنَصَبَ المهاجِرونَ والأنصارُ على القُبورِ أعلاماً، ودَعَوْا عندَها، وسَنُّوا ذٰلكَ لمَن بَعْدَهُم، ولكنْ كانُوا أعلَمَ باللهِ ورسولِهِ ودِينِهِ مِن الخُلوفِ التي خَلَفَتْ بعْدَهُم.

وكذٰلك التَّابِعونَ لهُم بإِحسانٍ راحوا على هٰذا السَّبيلِ، وقد كانَ عندَهُم مِن قُبورِ أَصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ بالأمصارِ عددٌ كثيرٌ، وهُم متوافِرونَ، فما مِنْهُم مَنِ استغاثَ عندَ قبرِ صاحبٍ، ولا دَعاهُ، ولا دَعا بِهِ، ولا دَعا عندَه، ولا استَشْفى بِهِ، ولا استَسْقى بِهِ، ولا استَنْصَرَ بِهِ.

ومِن المعلومِ أَنَّ مثلَ هٰذا ممَّا تتوفَّرُ الهِمَمُ والدَّواعي على نقلِهِ، بل على نقلِ ما هُو دونَه.

وحينئذٍ؛ فلا يخلو، إمَّا أَنْ يكونَ الدُّعاءُ عندَها والدُّعاءُ بأَربابِها أفضلَ منهُ في غيرِ تلكَ البقعَةِ، أو لا يكونَ، فإنْ كانَ أفضلَ، فكيفَ خَفِيَ علماً وعَملاً على الصَّحابَةِ والتَّابِعينَ وتابِعيهِم؟ فتكونَ القُرونُ الثَّلاثةُ الفاضلَةُ جاهلةً بهٰذا الفَضْلِ العظيمِ، وتَظْفَرَ بِهِ الخُلوفُ علماً وعملاً؟ ولا يجوزُ أَنْ يعلموهُ ويزهَدُوا فيهِ، مع حِرْصِهِم على كلِّ خيرٍ، لا سيَّما الدّعاءُ، فإنَّ المضطرَّ يتشبَّثُ بكلِّ سببٍ، وإنْ كانَ فيهِ كراهةٌ ما، فكيفَ يكونونَ مُضْطَّرِّينَ في كثيرٍ مِن الدُّعاءِ، وهُم يعلمونَ فَضْلَ الدُّعاءِ عندَ القُبورِ، ثمَّ لا يقصِدُونَهُ؟ هٰذا مُحالٌ طبعاً وشرعاً.

فتَعَيَّنَ القِسْمُ الآخَرُ، وهو أَنَّهُ لا فَضْلَ للدُّعاءِ عندَها، ولا هُو مشروعٌ، ولا مأْذونٌ فيهِ بقصدِ الخُصوصِ، بل تخصيصُها بالدُّعاءِ عندَها ذَريعَةٌ إلى ما تقدَّمَ مِن المفاسِدِ.

ومثلُ هٰذا ممَّا لا يشرَعُهُ اللهُ ورسولُهُ أَلبتَّةَ، بل استحبابُ الدُّعاءِ عندَها شرعُ عِبادةٍ لم يَشْرَعْها اللهُ، ولم يُنَزِّلْ بها سُلطاناً.

وقد أنكَرَ الصَّحابَةُ ما هُو دُونَ هٰذا بكثيرٍ.

فروى غيرُ واحدٍ عَنِ المَعْرورِ بنِ سويدٍ؛ قالَ: «صلَّيْتُ مَعَ عمرَ بنِ الخطَّابِ ﷺ في طريقِ مكَّةَ صلاةَ الصُّبْحِ، فقرأ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، ثمَّ رأى النَّاسَ يذهَبونَ مذاهِبَ، فقالَ: أينَ يذهَبُ هٰؤلاءِ؟ فقيلَ: يا أميرَ المؤمنينَ! مسجدٌ صلَّى فيهِ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، فهم يُصَلُّونَ فيهِ، فقالَ: إنَّما هَلَكَ مَنْ كانَ قبلَكُم بمثلِ هٰذا، كانُوا يتَّبِعونَ آثارَ أنبيائِهِم، ويتَّخِذونَها كنائسَ وبِيعاً، فمَنْ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ منكُم في هذه المساجِدِ؛

فليُصَلِّ، ومَن لا فَلْيَمْضِ، ولا يَتَعَمَّدْها»[١].

وكذلك أرسَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهُ أيضاً فَقَطَعَ الشَّجَرَةَ التي بايَعَ تحتَها أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآله وسلَّمَ[٢].

بل قد أنْكَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ على الصَّحابَةِ لَمَّا سألوهُ أنْ يجْعَلَ لهُم شَجَرَةً يعَلِّقونَ عليها أسْلِحَتَهُم ومتاعَهُم بخصوصِها:

فروى البُخاريُّ في «صحيحِهِ»[٣] عن أبي واقِدٍ اللَّيْثِيِّ؛ قالَ: «خَرَجْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ قِبَلَ حُنَيْنٍ، ونحنُ حَديثو عهدٍ بِكُفرٍ، وللمُشْرِكينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفونَ حوْلَها وينوطونَ بها أسْلِحَتَهُم، يُقالُ لها: ذاتُ أنواطٍ، فمَرَرْنا بسِدْرَةٍ، فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ! اجْعَلْ لَنا ذاتَ أنواطٍ كما لهُمْ ذاتُ أنواطٍ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: اللهُ أكبرُ، هٰذا كما قالَتْ بنو إسرائيلَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن كانَ قبلَكُم».

فإذا كانَ اتِّخاذُ هٰذه الشَّجرةِ لتعليقِ الأسلِحَةِ والعُكوفِ حولَها اتِّخاذَ إلٰهٍ مَعَ اللهِ تَعالى، مَعَ أنَّهُم لا يعبُدونَها، ولا يسألونَها، فما الظَّنُّ بالعُكوفِ حولَ القبرِ، والدُّعاءِ بهِ ودُعائِهِ، والدُّعاء عندَهُ؟!

فأيُّ نِسْبَةٍ للفتنَةِ بشجرةٍ إلى الفتنةِ بالقَبْرِ؟ لو كانَ أهْلُ الشِّرْكِ والبِدْعةِ يَعْلمونَ.

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» ـ كما في «الاقتضاء» (٢/ ٧٤٤) ـ، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (ص٤١ ـ ٤٢)، بسند صحيح؛ كما قاله شيخ الإسلام في «التوسل والوسيلة» (ص١٠٢).

(٢) انظر: «الحوادث والبدع» (ص٣٨) للطُّرطوشي ـ بتعليقي ـ نشر دار ابن الجوزي، الدمام.

(٣) لم يروه البخاريُّ! نعم؛ الحديث صحيح، فانظر تخريجه في «معارج الألباب» (ص١٤٢).

قالَ بعضُ أهْلِ العلمِ مِن أصحابِ مالِكٍ(١): فانْظُروا رحِمَكُم اللهُ أينَما وَجْدْتُم سِدْرةً أو شجرةً يقصِدُها النَّاسُ، ويعظِّمونَها، ويَرْجُونَ البُرْءَ والشِّفاءَ مِنْ قِبَلِها، ويَضْرِبونَ بها المساميرَ والخِرَقَ؛ فهِيَ ذاتُ أنواطٍ، فاقْطَعوها.

ومَن لهُ خِبْرةٌ بما بَعَثَ اللهُ تعالى بِه رسولَه، وبما عليهِ أهلُ الشِّرْكِ والبِدَعِ اليومَ في هٰذا البابِ وغيرِه؛ عَلِمَ أنَّ بينَ السَّلَفِ وبينَ هٰؤلاءِ الخُلوفِ مِن البُعْدِ أبعَدَ مِمَّا بينَ المشرقِ والمغربِ، وأنَّهُم على شيءٍ، والسَّلَفُ على شيءٍ؛ كما قيلَ:

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وسِرْتُ مُغَرِّباً ... شَتَّانَ بينَ مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ

والأمْر ـ واللهِ ـ أعْظَمُ مِمَّا ذَكَرْنا.

وقد ذَكَرَ البخاريُّ في «الصَّحيحِ»(٢) عن أُمِّ الدَّرداءِ رضي الله عنها؛ قالتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ أبو الدَّرداءِ مُغْضَباً، فقلتُ لهُ: ما لَكَ؟ فقالَ: واللهِ ما أعْرِفُ فيهِمْ شَيْئاً مِنْ أمرِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ؛ إلَّا أنَّهُم يُصَلُّونَ جَميعاً».

وقالَ الزُّهْرِيُّ: «دَخَلْتُ على أنسِ بنِ مالكٍ بدِمَشْقَ وهو يَبْكي. فقلتُ لهُ: ما يُبْكِيكَ؟ فقالَ: ما أعْرِفُ شيئاً مِمَّا أدْرَكْتُ إلَّا هٰذه الصَّلاةَ، وهٰذه الصَّلاةُ قد ضُيِّعَتْ».

ذكرَهُ البخاريُّ(٣).

وهٰذه هي الفِتْنَةُ العُظمى التي قال فيها عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «كيفَ أنْتُم إذا لَبِسَتْكُم فتنةٌ يَهْرَم فيها الكَبيرُ، وينشأُ فيها الصَّغيرُ، تَجْري على النَّاسِ، يَتَّخِذونَه سُنَّةً، إذا غُيِّرَتْ؛ قيلَ: غُيِّرَتِ السُّنَّةُ، أو هٰذا منكَرٌ»(٤).

---

(١) هو الإمام الطُّرطوشي في «الحوادث والبدع» (ص٣٨ ـ ٣٩) بتعليقي. وقول المصنِّف: «من أصحاب مالك»؛ أي: من أهل مذهبه، لا من تلامذته وطلبته؛ كما هو ظاهر.

(٢) (١١٥/٢).

(٣) (رقم ٥٣٠)، وفي «النكت الظراف» (٣٨٥/١) لطيفةٌ حوله.

(٤) رواه الدارمي (٦٤/١)، والحاكم (٥١٤/٤). وانظر تتمة تخريجه في «أربعي الشخصية الإسلامية» (رقم ٤٠) بقلمي وتخريجي.

وهٰذا ممَّا يَدُلُّ على أنَّ العمرَ إذا جَرى على خِلافِ السُّنَّةِ، فلا عِبْرَةَ بِه، ولا التفاتَ إليهِ؛ فإنَّ العملَ قد جَرى على خِلافِ السُّنَّةِ مُنذُ زَمَنِ أبي الدَّرداءِ وأنسٍ(١)!

وذَكَر أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ يَحْيى؛ قالَ: حدَّثَني محمَّدُ بنُ عُبيدِ بنِ ميمونٍ: حدَّثَني عبدُ اللهِ بنُ إسحاقَ الجَعْفَرِيُّ؛ قالَ: «كانَ عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ يُكْثِرُ الجلوسَ إلى ربيعةَ. قالَ: فتَذاكَروا يوماً السُّنَنَ، فقالَ رجُلٌ كانَ في المجْلِسِ: ليسَ العملُ على هٰذا، فقالَ عبدُ اللهِ: **أرأَيْتَ إنْ كَثُرَ الجُهَّالُ حتى يكونُوا هُمُ الحُكَّامَ؛ فهُم الحُجَّةُ على السُّنَّةِ**(٢)؟! فقالَ ربيعةُ: أشهدُ أنَّ هٰذا كلامُ أبناءِ الأنبياءِ».

• ومِن مَكايِدِهِ الأنصابُ والأزلامُ:

ومِن أعظمِ مكايِدِه: ما نَصَبَهُ للنَّاسِ مِن الأنصابِ والأزلامِ، التي هي مِن عَمَلِهِ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى باجتنابِ ذٰلك، وعَلَّقَ الفلاحَ باجتنابِه، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

فالأنصابُ: كُلُّ ما نُصِبَ يُعْبَدُ مِن دونِ اللهِ؛ مِن حجرٍ، أو شجرٍ، أو وَثَنٍ، أو قبرٍ(٣)، وهي جمعٌ، واحِدُها نُصُبٌ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: «هِيَ الأصنامُ التي يعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ تعالى».

وقالَ الزَّجَّاجُ: «حِجارةٌ كانَتْ لهُم يعبُدونَها، وهِيَ الأوثانُ».

وقالَ الفَرَّاءُ: «هِيَ الآلهةُ التي كانَتْ تُعْبَدُ مِن أحجارٍ وغيرِها»(٣).

---

(١) وهذا كلام حقٌّ يجب أن يُكتَب ـ كما يقال ـ بماء الذهب.

(٢) فلْتَنْشرح صدور أهل السنة بها، ولو كانوا قليلاً؛ فإنهم على الحق المبين، وعلى الصراط المستقيم.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٧/ ٣٢).

وأَصْلُ اللَّفظةِ: الشيءُ المنصوبُ الَّذي يقصِدُهُ مَن رآهُ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]؛ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «إلى غايةٍ، أو عَلَمٍ يُسْرِعونَ».

وقالَ الحسنُ: «يعني إلى أنصابِهم، أيُّهُم يَسْتَلِمُها أوَّلاً».

وهٰذا قولُ أكثرِ المفسِّرينَ(١).

والمقصودُ أنَّ النُّصُبَ كلُّ شيءٍ نُصِبَ؛ مِن خشبةٍ، أو حجرٍ، أو عَلَمٍ.

والإِيفاضُ: الإِسراعُ.

وأمَّا الأزلامُ؛ فقالَ ابنُ عبَّاسٍ ﷺ: «هِيَ قِداحٌ كانُوا يَسْتَقْسِمونَ بها الأمورَ»؛ أي: يطلُبونَ بها عِلْمَ ما قُسِمَ لهُم.

وقالَ سَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: «كانَتْ لهُم حَصَياتٌ إذا أرادَ أحدُهُم أنْ يَغْزُو، أو يَجْلِسَ؛ استقْسَمَ بها».

وقيلَ: الاستقسامُ: إلزامُ أنْفُسِهِم بما تأْمُرُهُم بِهِ القِداحُ؛ كَقَسَمِ اليمينِ.

وقالَ الأزْهَرِيُّ: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ [المائدة: ٣]؛ أي: «تطلُبوا مِن جهةِ الأزلامِ ما قُسِمَ لكُمْ مِن أحدِ الأمرينِ».

وقالَ أبو إسحاقَ الزَّجَّاجُ وغيرُه: «الاستقسامُ بالأزْلامِ حَرامٌ».

ولا فَرْقَ بينَ ذٰلك وبينَ قولِ المنَجِّمِ: لا تَخْرُجْ مِن أجْلِ نَجْمِ كذا، واخْرُجْ مِن أجْلِ طُلوعِ نجْمِ كذا؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، وذٰلك دُخولٌ في علمِ اللهِ ﷻ، الذي هو غَيْبٌ عنَّا(٢)، فهو حرامٌ كالأزْلامِ التي ذَكَرها اللهُ تعالى.

والمقصودُ أنَّ النَّاسَ قد ابْتُلوا بالأنصابِ والأزلامِ، فالأنصابُ للشِّركِ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٦٢).

(٢) وللقاضي ابن العربي المالكي في «أحكام القرآن» (١/ ٢٢٥) كلمة جيدة في تفسير الآية ومعرفة أحكامها، فليراجع.

والعبادَةِ، والأزْلامُ للتَّكَهُّنِ وطَلَبِ عِلمِ ما استَأْثَرَ اللهُ بهِ، هٰذه للعلم، وتلكَ للعملِ، ودينُ اللهِ ﷻ مضادٌّ لهٰذا وهٰذا، والذي جاءَ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ إبطالُهما، وكسرُ الأنصابِ والأزْلامِ.

فمِنَ الأنصابِ مَا قَدْ نَصَبَهُ الشَّيطانُ للمشرِكينَ؛ مِن شَجرةٍ، أو عَمودٍ، أو وَثَنٍ، أو قبرٍ، أو خشبةٍ، أو عينٍ، ونحو ذٰلك.

والواجِبُ هَدْمُ ذٰلك كلِّهِ، ومَحْوُ أثَرِهِ؛ كما أمرَ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ عليّاً رضي الله عنه بهَدْمِ القُبورِ المشرفةِ[١]، وتسويَتِها بالأرضِ، كما روى مسلمٌ في «صحيحِه»[٢] عن أبي الهَيَّاجِ الأسَدِيِّ؛ قالَ: قالَ لي عليٌّ رضي الله عنه: «ألا أبْعَثُكَ على ما بَعَثَني عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ؟ أنْ لا أدَعَ تِمثالاً إلَّا طَمَسْتُه، ولا قَبْراً مُشْرِفاً ألَّا سَوَّيْتُه».

ولمَّا بَلَغَ عُمَرَ رضي الله عنه أنَّ النَّاسَ ينتابونَ الشَّجَرَةَ التي بايَعَ تحتَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ أصحابَهُ، أرْسَلَ فَقَطَعَها[٣].

فإذا كانَ هٰذا فعلُ عُمَرَ رضي الله عنه بالشَّجَرَةِ التي ذكَرَها اللهُ تعالى في القرآنِ[٤]، وبايَعَ تحتَها الصَّحابةُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، فماذا حكمُهُ فيما عداها مِن هٰذه الأنصابِ والأوثانِ، التي قد عَظُمَتِ الفِتْنَةُ بها، واشتَدَّتِ البَلِيَّةُ بها؟

وأبْلَغُ مِن ذٰلك أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ هَدَمَ مسجِدَ الضِّرارِ[٥].

---

(١) علّق الشيخ محمد حامد الفقي هنا بقوله: «ومن أعجب كيد الشيطان أن عليّاً رضي الله عنه هو الذي كان يهدمُها بأمر رسول الله ﷺ، ثمَّ أُقيمت وأُعيد بناؤها محادَّة لله ورسوله باسم عليٍّ وأولاد علي، وهم ـ والله ـ بُرآء من ذلك».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سبق الكلام عليه.

(٤) كما في سورة الفتح: ١٨.

(٥) وهو المذكور في سورة التوبة: ١٠٧. وانظر كلام المصنِّف رحمه الله في «زاد المعاد» (٣/ ٢٢) حول ذلك.

ففي هٰذا دليلٌ على هَدْمِ ما هُو أعظمُ فساداً منهُ؛ كالمساجِدِ المبنيَّةِ على القُبورِ؛ فإنَّ حُكْمَ الإسلامِ فيها: أنْ تُهْدَمَ كلُّها، حتَّى تُسوَّى بالأرضِ، وهي أوْلى بالهَدْمِ مِن مسجِدِ الضِّرارِ، وكذٰلك القِبابُ التي على القُبورِ، يَجِبُ هَدْمُها كُلُّها؛ لأنَّها أُسِّسَتْ على معصيةِ الرَّسولِ؛ لأنَّهُ قد نَهى عنِ البناءِ على القُبورِ ـ كما تقدَّمَ ـ فبناءٌ أُسِّسَ على معصيتِهِ ومخالفتِهِ بناءٌ غيرُ محترمٍ، وهو أوْلى بالهَدْمِ مِن بناءِ الغاصِبِ قَطْعاً.

وقد أمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ بهَدْمِ القُبورِ المشرفةِ كما تقدَّمَ.

فهَدْمُ القبابِ والبناءِ والمساجِدِ التي بُنِيَتْ عليها أولى وأحْرى؛ لأنَّهُ لَعَنَ مُتَّخِذي المساجِدِ عليها، ونَهَى عنِ البناءِ عليها، فيَجِبُ المبادَرَةُ والمساعَدَةُ إلى هَدْمِ ما لَعَنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ فاعِلَهُ، ونهى عنه، واللهُ ﷻ يُقيمُ لدينِهِ وسنَّةِ رسولِهِ مَن ينصُرُهما، ويذبُّ عنهما، فهُو أشدُّ وأسرعُ تغييراً.

وكذٰلك يجِبُ إزالةُ قِنْديلٍ أو سراجٍ على قبرٍ، وطَفْيُهُ.

قالَ الإمامُ أبو بكرٍ الطُّرْطوشِيُّ[1]: «انْظُروا رحِمَكُم اللهُ أينما وَجَدْتُم سِدْرةً، أو شجرةً يقصِدُها النَّاسُ ويعظِّمونَها، ويرجونَ البُرْءَ والشِّفاءَ من قِبَلِها، ويَضْرِبونَ بها المساميرَ والخِرَقَ؛ فهي ذاتُ أنواطٍ، فاقْطَعوها».

وقالَ الحافظُ أبو محمَّدٍ عبدُ الرحمٰنِ بنُ إسماعيلَ المعروفُ بأبي شامَةَ ـ في كتابِ «الحوادِثِ والبِدَعِ»[2] ـ: ومِن هٰذا القسمِ أيضاً ما قدْ عَمَّ بهِ الابتلاءُ؛ مِن تَزْيينِ الشَّيطانِ للعامَّةِ تَخْليقَ الحيطانِ والعُمُدِ، وسَرْجَ مواضعَ مخصوصةٍ مِن كُلِّ بَلَدٍ، يَحْكي لهُم حاكٍ أنَّهُ رأى في منامِهِ بها أحداً ممَّنْ شُهِرَ

---

(١) في «الحوادث والبدع» (ص٣٨).

(٢) وهو المسمَّى بـ«الباعث» (ص٢٥ ـ ٢٦).

بالصَّلاحِ والولايةِ، فيفْعَلونَ ذٰلك، ويُحافِظونَ عليهِ، مع تضييعِهم فرائضَ اللهِ وسُنَنَهُ، ويظنُّونَ أَنَّهُم مُتقرِّبونَ بذٰلك، ثمَّ يتجاوزونَ هٰذا إِلى أنْ يَعْظُمَ وقعُ تلكَ الأماكِنِ في قلوبِهِم فيعَظِّمونَها، ويرجُونَ لشِّفاءَ لمرضاهُم، وقضاءَ حوائِجِهِم بالنَّذْرِ لها، وهي مِن بينِ عُيونٍ، وشَجَرٍ، وحائطٍ، وحجرٍ، وفي مدينةِ دمشقَ مِن ذٰلك مواضِعُ متعدِّدةٌ[1]؛ كعُوَيْنَةِ الحمى خارجَ بابِ تُوما، والعمودِ المخلَّقِ داخِلَ بابِ الصَّغيرِ، والشَّجرةِ الملعونةِ اليابسةِ خرجَ بابِ النَّصْرِ، في نفسِ قارعةِ الطَّريقِ، سَهَّلَ اللهُ قَطْعَها واجتِثاثَه مِن أَصْلِها، فما أَشْبَهَها بذاتِ أنواطِ التي في الحديثِ».

ثمَّ ساقَ حديثَ أَبي واقِدٍ «أَنَّهُم مَرُّوا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ بشجرةٍ عظيمةٍ خضراءَ، يقالُ لها: ذاتُ أنواطٍ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ! اجْعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهُم ذاتُ أنواطٍ. فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: **اللهُ أكبرُ، هٰذا كما قالَ قومُ موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قبلَكُم**». قالَ الترمذيُّ: هٰذا حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ[2].

ثمَّ ذكرَ ما صَنَعَهُ بعضُ أَهلِ لعلم ببلادِ إِفريقيَّةَ: أَنَّهُ كانَ إِلى جانبِهِ عينٌ تسمَّى عينَ العافيةِ، كانَ العامَّةُ قد افْتُتِنُوا بها يأْتونها مِن لآفاقِ، فمَنْ تعَذَّرَ عليهِ نِكاحٌ، أو وَلَدٌ، قالَ: امْضُوا بي إِلى (العافيةِ)، فيعْرِفُ فيها الفتنَةَ، فخَرَجَ في السَّحَرِ، فهَدَمَها، وأَذَّنَ للصُّبْحِ عليها، ثمَّ قالَ: اللهُمَّ إِنِّي هَدَمْتُها لكَ، فلا تَرْفَعْ لها رأْساً. قالَ: فما رُفِعَ لها رأْسٌ إِلى الآنَ.

---

(١) علَّق الشيخ محمد حامد الفقي هنا بقوله: «وفي مصر وغيرها من بلاد الإسلام من ذلك مثل ما في دمشق وأكثر، فإن أصل البليَّة فيه كلها من العبيديِّين المارقين، الذين ادَّعوا كذباً وزوراً انتسابهم إلى فاطمة ﵂، وهي منهم ومن أعمالهم بريئة، فهم أول من أسَّسَ ذلك بالقاهرة وغيرها، ودافع عنه بالسيف والذهب. قبَّحهم الله وأخزاهم ومن يواليهم ويُروِّج كُفرهم وطواغيتهم».

(٢) سبقَ ذِكرهُ والعزوُ لتخريجه.

وقد كانَ بدمشقَ كثيرٌ مِن هٰذه الأنصابِ، فيسَّرَ اللهُ سبحانَه كَسْرها على يدِ شيخِ الإسلامِ وحِزْبِ اللهِ الموحِّدينَ؛ كالعمودِ المخَلَّقِ، والنُّصُبِ الذي كانَ بمسجدِ النَّارنجِ عندَ المصلَّى يعبُدُه الجهَّالُ، والنُّصُبِ الذي كانَ تحتَ الطَّاحونِ، الذي عندَ مقابرِ النَّصارى، ينتابُهُ النَّاسُ للتبرُّكِ به، وكانَ صورةَ صنمٍ في نهرِ القَلُّوطِ ينذِرُونَ لهُ، ويتبرَّكُونَ به. وقطَعَ اللهُ سبحانَه النُّصُبَ الذي كانَ عندَ الرَّحَبَةِ يُسْرَجُ عندَهُ، ويَتَبَرَّكُ بِه المشرِكونَ، وكانَ عموداً طويلاً على رأْسِهِ حَجَرٌ كالكُرَةِ، وعندَ مسجِدِ دربِ الحَجَرِ نُصُبٌ قد بُنِيَ عليهِ مسجدٌ صغيرٌ، يعبُدُه المشركونَ يسَّرَ اللهُ كَسْرَهُ.

فما أسرعَ أهلَ الشركِ إلى اتِّخاذِ الأوثانِ مِن دونِ اللهِ! ولو كانت ما كانتْ، ويقولونَ: إنَّ هٰذا الحجَرَ وهٰذه الشجرةَ، وهٰذه العينَ تقبلُ النَّذْرَ؛ أيْ: تقبَلُ العبادَةَ مِن دُونِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ النَّذْرَ عبادةٌ وقُربةٌ، يتقرَّبُ بها النَّاذِرُ إلى المنذورِ لهُ، ويتمسَّحونَ بذلك النُّصُبِ، ويستَلِمونَه.

ولقد أنْكرَ السَّلَفُ التَّمَسُّحَ بحَجَرِ المقامِ الذي أمَرَ اللهُ تعالى أنْ يُتَّخذَ منهُ مُصَلًّى، كما ذَكَرَ الأزْرَقِيُّ في كتابِ «تاريخِ مكَّةَ»[١] عن قتادةَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]؛ قالَ: «إنَّما أُمِرُوا أنْ يُصَلُّوا عندَهُ، ولم يُؤمَروا بمَسْحِهِ، ولقد تكَلَّفَت هٰذه الأمَّةُ شيئاً ما تكلَّفَتْهُ الأمَمُ قبلَها، ذَكَرَ لنا مَن رأى أثَرَهُ وأصابِعَهُ، فما زالَتْ هٰذه الأمَّةُ تمسَحُه حتى اخْلَوْلَقَ».

وأعْظَمُ الفتنةِ بهٰذه الأنصابِ: فتْنَةُ أنصابِ القُبورِ، وهي أصلُ فتنَةِ عبادَةِ الأصنامِ، كما قالَهُ السَّلَفُ مِن الصَّحابَةِ والتَّابِعينَ.

ومِن أعظمِ كيدِ الشَّيطانِ: أنَّهُ يَنْصِبُ لأهْلِ الشِّرْكِ قبرَ مُعَظَّمٍ يُعَظِّمُهُ النَّاسُ، ثمَّ يَجْعَلُهُ وثَناً يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، ثمَّ يوحي إلى أوليائِهِ أنَّ مَن نهى عن

---

(١) (٢/ ٢٩).

عبادَتِه واتِّخاذِه عيداً، وجَعَلَهُ وَثَنَاً قد تَنَقَّصَهُ، وهَضَمَ حقَّهُ، فيسعى الجاهِلونَ المشركونَ في قتْلِه وعقوبَتِه ويكفِّرونَهُ، وذَنْبُه عندَ أهلِ الإشراكِ أمْرُهُ بما أمرَ اللهُ به ورسولُهُ، ونهيهُ عمَّا نهى اللهُ عنهُ ورسولُهُ؛ مِن جَعْلِهِ وثناً وعيداً، وإيقادِ السُّرُجِ عليهِ، وبناءِ المساجِدِ والقِبابِ عليهِ وتَجْصيصِهِ، وإشادَتِهِ وتقبيلِهِ، واستلامِهِ، ودُعائِهِ، أو الدُّعاءِ به، أو السَّفرِ إليهِ، أو الاستغاثَةِ بِهِ مِن دُونِ اللهِ، ممَّا قدْ عُلِمَ بالاضطرارِ مِن دِينِ الإسلامِ أنَّهُ مضادٌّ لما بَعَثَ اللهُ بِه رسولَهُ؛ مِن تجريدِ التَّوحيدِ للهِ وأنْ لا يُعْبَدَ إلَّا اللهُ. فإذا نهى الموحِّدُ عن ذٰلك؛ غَضِبَ المشركونَ، واشْمَأَزَّتْ قلوبُهُم، وقالوا: قَد تَنَقَّصَ أهلَ الرُّتَبِ العاليةِ، وزَعَمَ أنَّهُم لا حُرْمَةَ لهُم، ولا قَدْرَ!

وسَرَى ذٰلكَ في نُفوسِ الجُهّالِ والطَّغامِ، وكثيرٍ مِمَّنْ يُنْسَبُ إلى العلمِ والدِّينِ، حتَّى عادَوْا أهْلَ التَّوحيدِ، ورَمَوْهُمْ بالعظائِمِ، ونَفَّروا النَّاسَ عنهُم[1]، ووالَوْا أهلَ الشِّرْكِ وعَظَّموهُم، وزعموا أنَّهُم هُم أولياءُ اللهِ وأنصارُ دينِهِ ورسولِهِ، ويأْبى اللهُ ذلكَ، فما كانوا أولياءَهُ! إنْ أوْلياؤهُ إلَّا المُتَّبِعونَ لهُ، المُوافِقونَ لهُ، العارِفونَ بما جاءَ بِه، الدَّاعُونَ إليهِ، لا المُتَشَبِّعونَ بما لمْ يُعْطَوْا، لابِسو ثِيابِ الزُّورِ، الَّذينَ يَصدُّونَ النَّاسَ عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِمْ، ويَبْغُونَها عِوَجاً، وهُم يَحْسَبونَ أنَّهُم يُحْسِنونَ صُنْعاً.

• دَفْعُ ظَنٍّ:

ولا تَحْسَبْ ـ أيُّها المُنْعَمُ عليهِ باتِّباعِ صِراطِ اللهِ المستقيمِ، صراطِ أهلِ نِعْمَتِهِ ورَحْمَتِه وكرامتِه ـ أنَّ النَّهْيَ عنِ اتِّخاذِ القُبورِ أوثاناً وأعياداً وأنصاباً، والنَّهْيَ عنِ اتِّخاذِها مساجِدَ، أو بناءِ المساجِدِ عليها، وإيقادِ السُّرُجِ عليها، والسَّفَرِ إليها، والنَّذْرِ لها، واستلامِها، وتقبيلِها، وتعميرِ الجِباهِ في عَرَصاتِها:

---

(١) والتاريخ يُعيد نفسه حذو القُذّة بالقُذّة! فاليوم تسمعُ كثيراً من العبارات والكلمات؛ تنفيراً وإبعاداً وتمويهاً!!

غَضٌّ مِن أَصحابِها، ولا تنقيصٌ لهُم، ولا تنقُّصٌ - كما يحسَبُه أهلُ الشِّرْكِ والضَّلالِ - بل ذٰلك مِن إكرامِهِم، وتعظيمِهِم، واحترامِهِم، ومتابعَتِهِم فيما يُحِبُّونَه، وتجنُّبِ ما يكرهُونَه.

فأَنْتَ واللهِ وليُّهُم ومُحِبُّهُم، وناصرُ طريقتِهِم وسنَّتِهِم، وعلى هَدْيِهِم ومنهاجِهِمْ، وهٰؤلاءِ المشرِكونَ أعْصى النَّاسِ لهُم، وأبعَدُهُم مِن هَدْيِهِم ومتابَعَتِهِم؛ كالنَّصارى مع المسيحِ، واليهودِ معَ موسى عليه السلام، والرَّافضةِ معَ عليٍّ رضي الله عنه.

فأَهْلُ الحَقِّ أَوْلى بأَهْلِ الحَقِّ مِن أَهْلِ الباطِلِ، فالمؤمِنُونَ والمؤمِناتُ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ، والمُنافِقونَ والمنافِقاتُ بعضُهُم مِن بعضٍ.

فاعْلَمْ أنَّ القُلوبَ إذا اشْتغلَتْ بالبِدَعِ أَعْرَضَتْ عن السُّنَنِ، فتَجِدُ أكثرَ هٰؤلاءِ العاكِفينَ على القُبورِ مُعْرِضينَ عن طريقةِ مَن فيها وهَدْيِه وسُنَّتِه، مشتَغلينَ بقبرِهِ عمَّا أَمَرَ به ودَعا إليهِ.

وتعظيمُ الأنبياءِ والصَّالِحينَ ومحبَّتُهم إنَّما هي باتِّباعِ ما دعوا إليه مِن العلمِ النَّافعِ، والعملِ الصَّالحِ، واقتفاءِ آثارِهم، وسلوكِ طريقتِهِم؛ دون عبادةِ قُبورِهِم، والعُكوفِ عليها، واتِّخاذِها أعْياداً؛ فإنَّ مَن اقتفى آثارَهُم كان مُتَسَبِّباً إلى تكثيرِ أُجورِهِم باتِّباعِه لهُم، ودَعْوتِه النَّاسَ إلى اتِّباعِهِم. فإذا أعْرَضَ عمَّا دَعَوْا إليهِ، واشتغلَ بضدِّهِ؛ حَرَمَ نفسَهُ وحَرمَهُم ذٰلك الأجْرَ، فأيُّ تعظيمٍ لهُم واحترامٍ في هٰذا؟

وإنَّما اشتغل كثيرٌ مِن النَّاسِ بأنواعٍ مِن العبادات المبتدَعة التي يكرهُها اللهُ ورسولُهُ؛ لإعراضِهِمْ عَن المشروعِ أو بعضِه، وإنْ قاموا بصورتِه الظَّاهرةِ؛ فقد هجروا حقيقتَهُ المقصودةَ منهُ، وإلَّا فَمَنْ أقبلَ على الصَّلواتِ الخمسِ بوجْهِه وقَلْبِه، عارِفاً بما اشتَمَلَتْ عليه مِن الكَلِمِ الطَّيِّبِ والعَمَلِ الصَّالحِ، مُهْتمّاً بها كلَّ الاهتمامِ، أغْنَتْهُ عن الشِّركِ، وكلُّ مَن قَصَّرَ فيها أو في بعضِها تجدُ فيهِ مِن الشِّرْكِ بحسبِ ذٰلك.

ومَن أصغى إلى كلامِ اللهِ بقلبِهِ، وتدبَّرَهُ وتفهَّمَهُ؛ أغناهُ عنِ السَّماعِ الشَّيطانيِّ[1] الَّذي يَصُدُّ عن ذِكْرِ اللهِ وعَنِ الصَّلاةِ، ويُنْبِتُ النِّفاقَ في القلبِ، وكذلك مَن أصْغى إليهِ وإلى حديثِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ بكلِّيَّتِه، وحَدَّثَ نفسَه باقتباسِ الهُدى والعِلْمِ منهُ، لا من غيره أغناهُ عنِ البِدَعِ والآراءِ والتَّخَرُّصاتِ والشَّطَحاتِ والخيالاتِ، التي هي وساوِسُ النُّفوسِ وتخيُّلاتُها.

ومَن بَعُدَ عن ذلك؛ فلا بدَّ لهُ أنْ يَتَعَوَّضَ بما لا ينفَعُه، كما أنَّ مَن عَمَرَ قلبَهُ بمحبَّةِ اللهِ تعالى وذِكْرِهِ، وخَشْيَتِه، والتَّوكُّلِ عليهِ، والإنابةِ إليهِ؛ أغناهُ ذلك عن محبَّةِ غيرِهِ وخَشْيَتِه والتَّوَكُّلِ عليهِ، وأغناهُ أيضاً عن عِشْقِ الصُّورِ، وإذا خلا مِن ذلك صارَ عبدَ هواهُ؛ أيَّ شيءٍ استَحْسَنَهُ ملكهُ واسْتَعْبَدَه.

فالمُعْرِضُ عنِ التَّوحيدِ مشركٌ شاءَ أَمْ أبى، والمُعْرِضُ عنِ السُّنَّةِ مُبْتَدِعٌ ضالٌّ شاءَ أَمْ أبى، والمُعْرِضُ عن محبَّةِ اللهِ وذِكْرِه عبدُ الصُّوَرِ، شاءَ أَمْ أبى.

واللهُ المستعانُ، وعليه التُّكلانُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ.

● أسبابُ فتنَةِ القُبورِ

فإنْ قيلَ: فمَا الذي أَوْقَعَ عُبَّادَ القُبورِ في الافتتانِ بها، معَ العلم بأنَّ ساكِنيها أمواتٌ، لا يملِكون لهُم ضرّاً ولا نَفْعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً؟

قيلَ: أَوْقَعَهُم في ذلك أُمورٌ:

منها: الجَهْلُ بحقيقةِ ما بعثَ اللهُ به رسولَه، بل جميعَ الرُّسلِ؛ مِن تحقيقِ التَّوحيدِ، وقَطْعِ أسبابِ الشِّرْكِ، فقلَّ نصيبُهُم جدّاً مِن ذلك، ودَعاهُم الشَّيطانُ إلى الفِتْنَةِ، ولم يَكُنْ عندَهُم مِن العِلْمِ ما يُبْطِلُ دَعوتَهُ، فاستجابُوا لهُ

---

(١) وهو الغناء والمعازف كما سيفصِّله مطوَّلاً مصنِّفنا رحمه الله.

بحسْبِ ما عندَهُم مِن الجهلِ، وعُصِموا بقَدْرِ ما معهُم مِن العِلْمِ.

ومنه: أحاديثُ مَكذوبةٌ مختَلَقَةٌ، وضَعَها أشباهُ عُبّادِ الأصنامِ؛ مِن المقابِريَّةِ، على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ تُناقضُ دِينَهُ، وما جَاءَ بِه؛ كحديثِ: «إذا أعيَتْكُم الأمورُ؛ فعليكُم بأصحابِ القُبورِ»[1]، وحديثُ: «لو أحسنَ أحدُكُم ظنَّهُ بحَجَرٍ نَفَعَهُ»[2]، وأمثالِ هٰذه الأحاديثِ التي هي مناقِضةٌ لدينِ الإسلامِ، وضَعَها المشرِكونَ، وراجَتْ على أشباهِهِمْ مِن الجُهَّالِ الضُّلَّالِ، واللهُ بَعَثَ رسولَهُ بقَتْلِ مَنْ حَسَّنَ ظنَّهُ بالأحجارِ، وجَنَّبَ أُمَّته الفتنةَ بالقُبورِ بكلِّ طريقٍ.

ومنها حكاياتٌ حُكِيَتْ لهُم عن تلكَ القُبورِ:

أنَّ فلاناً استغاثَ بالقبرِ لفلانيٍّ في شدَّةٍ، فخَلُصَ منها!

وفلاناً دعاهُ أو دَعا بِه في حاجةٍ، فقُضِيَتْ لهُ!

وفلاناً نَزَلَ بِه ضُرٌّ، فاسترجى صاحِبَ ذٰلك القبرِ، فكَشفَ ضُرَّهُ!

وعندَ السَّدنَةِ والمَقابِريَّةِ مِن ذٰلك شَيْءٌ كَثيرٌ يطولُ ذِكْرُهُ، وهُم مِن أكْذَبِ خَلْقِ اللهِ تعالى على الأحياءِ والأمواتِ.

والنّفوسُ مولَعَةٌ بقضاءِ حوائجِها، وإزالةِ ضروراتِها، ويسْمَعُ بأنَّ قبرَ فلانٍ تِرْياقٌ مُجَرَّبٌ! والشَّيطانُ لهُ تَلَطُّفٌ في الدَّعوةِ، فيدعوهُم أوَّلاً إلى الدُّعاءِ عندَه، فيدعو العبدُ عندَه بحُرْقَةٍ وانكسارٍ وذلَّةٍ، فيُجيبُ اللهُ دعوتَهُ لما قامَ بقَلْبِه.

---

(١) قال شيخ الإسلام في «التوسُّل» (ص٢٩٧): «فهذا الحديث كذبٌ مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه، لم يروه أحدٌ من العلماء بذلك، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة». وأورده العجلوني في «كشف الخفاء» (رقم ٢١٣)، ثم قال: «كذا في «الأربعين» لابن كمال باشا»!! فكان ماذا؟! فإنه ليس من أهل الصّناعة!!

(٢) نقل السخاوي في «المقاصد الحسنة» (رقم ٨٨٣) عن شيخ الإسلام «أنّه كذبٌ»، وعن شيخه الحافظ ابن حجر «أنه لا أصل له»! وانظر «تذكرة الموضوعات» (ص٢٨٦) للفتّني الهندي، و«تنزيه الشريعة» (٢/٣١٦)، و«الأسرار المرفوعة» (٤٩٦).

لا لأجلِ القبرِ؛ فإنَّهُ لو دَعاهُ كذٰلك في الحانَةِ والخمَّارَةِ والحمَّام والسُّوقِ؛ أجابَهُ، فيظُنُّ الجاهِلُ أنَّ للقبرِ تأثيراً في إجابَةِ تلكَ الدَّعوةِ[1]، واللهُ سبحانه يُجيبُ دعوةَ المضْطَرِّ، ولو كانَ كافِراً، وقد قالَ تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، وقد قالَ الخليلُ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فقالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فليسَ كُلُّ مَن أجابَ دُعاءَهُ يكونُ راضياً عنهُ، ولا مُحِبّاً لهُ، ولا راضِياً بفِعْلِهِ؛ فإنَّهُ يُجيبُ البَرَّ والفاجِرَ، والمؤمِنَ والكافِر، وكثيرٌ مِن النَّاسِ يدعو دُعاءً يعْتَدي فيهِ، أو يشتَرِطُ في دُعائِهِ، أو يكونُ ممَّا لا يَجوزُ أنْ يُسْأَلَ، فيَحْصُلُ لهُ ذٰلك أو بعضُهُ، فيظنُّ أنَّ عملَهُ صالِحٌ مرضِيٌّ للهِ، ويكونُ بمنزلَةِ مَنْ أُمْلِيَ لهُ وأُمِدَّ بالمالِ والبنينَ، وهو يَظُنُّ أنَّ اللهَ تعالىٰ يُسارِعُ لهُ في الخيْراتِ، وقد قالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

والمقصودُ أنَّ الشَّيطانَ بلُطْفِ كَيْدِه يُحَسِّنُ الدُّعاءَ عندَ القبرِ، وأنَّهُ أرجحُ منهُ في بيتِهِ ومسجدِه، وأوقاتِ الأسْحارِ، فإذا تقرَّرَ ذٰلك عندَه نَقَلَهُ درجةً أُخرى: مِن الدُّعاءِ عندَهُ إلى الدُّعاءِ به، والإقسامِ على اللهِ بهِ، وهٰذا أعظمُ مِن الَّذي قبلَه؛ فإنَّ شأنَ اللهِ أعظمُ مِنْ أنْ يُقْسَمَ عليهِ، أو يُسأَلَ بأحدٍ مِن خَلْقِهِ. وقد أنْكَرَ أئمَّةُ الإسلامِ ذٰلك.

فقالَ أبو الحسينِ القُدوريُّ[2] في شَرْحِ «كتابِ الكَرْخيِّ»: قالَ بِشْرُ بنُ الوليدِ: سمِعْتُ أبا يوسُفَ يقولُ: قالَ أبو حنيفةَ: «لا ينبغي لأحدٍ أنْ يدعُو اللهَ إلَّا بِهِ. قالَ: وأكرَهُ أنْ يقولَ: أسأَلُكَ بمَعْقِدِ العِزِّ مِن عَرْشِكَ، وأكرَهُ أنْ يقولَ: بحقِّ فلانٍ، وبحقِّ أنبيائِكَ ورُسُلِكَ، وبحقِّ البيتِ الحرامِ».

---

(١) وهذه فائدة مهمَّة، تكشفُ حقيقة ما تراه في بعض كُتُب التراجم من قولهم: «والدعاء عند قبره مُستجابٌ»!

(٢) انظر: «ردّ المحتار» (٢/ ٦٣٠) لابن عابدين.

قالَ أبو الحسينِ: «أما المسألَةُ بغيرِ اللهِ؛ فمُنْكَرَةٌ في قولِهم؛ لأنَّهُ لا حَقَّ لغيرِ اللهِ عليهِ، وإنَّما الحقُّ للهِ على خَلْقِه»، وأمَّا قولُه: «بِمَعْقِدِ العزِّ مِن عرشِكَ»؛ فكَرِهَهُ أبو حنيفةَ، ورخَّصَ فيهِ أبو يوسُفَ.

وقالَ: ورُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ دَعا بذلك[1]؛ قالَ: ولأنَّ مَعْقِدَ العزِّ مِنَ العرشِ إنَّما يُرادُ بِهِ القُدْرَةُ التي خَلَقَ اللهُ بها العرشَ معَ عَظَمَتِه، فكأنَّهُ سألَهُ بأوصافِه.

وقالَ ابنُ بَلْدَجِيٍّ في «شَرْحِ المُختارِ»[2]: «ويُكْرَهُ أنْ يَدْعوَ اللهَ تعالى إلَّا بِه، فلا يقولُ: أسألُكَ بفلانٍ، أو بملائكَتِك، أو بأنبيائِكِ، ونحو ذلك؛ لأنَّهُ لا حَقَّ للمخلوقِ على خالقِهِ، أو يقولُ في دُعائِهِ: أسألُكَ بمَعْقِدِ العزِّ مِن عرشِكَ، وعن أبي يوسُفَ جوازُه».

وما يقولُ فيهِ أبو حَنيفةَ وأصحابُه: «أكرَهُ كذا» هو عندَ محمَّدٍ حرامٌ، وعندَ أبي حنيفةَ وأبي يوسُفَ هو إلى الحرامِ أقربُ، وجانِبُ التَّحريم عليهِ أغلبُ[3].

وفي «فتاوى»[4] أبي محمَّدِ بنِ عبدِ السَّلامِ: أنَّهُ لا يجوزُ سؤالُ اللهِ سبحانَه بشيءٍ مِن مَخْلوقاتِه، لا الأنبياءِ، ولا غيرِهِم، وتَوَقَّفَ في نبيِّنا صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ؛ لاعتقادِهِ أنَّ ذلك جاءَ في حديثٍ، وأنَّهُ لم يَعْرِفْ صحَّةَ الحديثِ[5].

---

(١) وهذا حديث موضوع؛ كما تراه في: «نصب الراية» (٤/ ٢٧٢)، و«الموضوعات» (٢/ ١٤٢)، و«التوسُّل» (ص٤٩) لشيخنا الألباني.

(٢) قرن بـ«الفتاوى الهندية» (٥/ ٢٨٠).

(٣) «إتحاف السادة المتقين» (٢/ ٢٨٥) للزَّبيدي.

(٤) (ص١٢٧).

(٥) وهو حديثُ توسُّل الضرير، انظر نصَّه وتخريجه موسّعاً في رسالتي «كشف المتواري من تلبيسات الغُماري»، وهي مبنيَّة عليه، نشر دار ابن الجوزي، الدمام.

فإذا قرَّرَ الشَّيطانُ عندَه أنَّ الإقسامَ على اللهِ بِه، والدُّعاءَ بِه أبلغُ في تعظيمِهِ واحترامِه، وأَنْجَعُ في قضاءِ حاجَتِه، نَقَلَهُ درجةً أُخرى إلى دُعائِهِ نَفْسَهُ مِن دُونِ اللهِ، ثمَّ يَنْقُلُه بعدَ ذلك درجةً أُخرى إلى أَنْ يتَّخِذَ قبرَهُ وَثناً، يَعْكِفُ عليهِ، ويُوقِدُ عليهِ القِنْديلَ، ويُعَلِّقُ عليهِ السُّتورَ، ويَبْني عليهِ المسجِدَ، ويعبُدُه بالسُّجودِ لهُ، والطَّوافِ بهِ، وتَقْبيلِهِ، واستلامِه، والحَجِّ إليهِ، والذَّبحِ عندَهُ، ثمَّ يَنْقُلُهُ درجةً أُخرى إلى دُعاءِ النَّاسِ إلى عِبادَتِه، واتِّخاذِه عيداً ومَنْسكاً، وأنَّ ذلك أنْفَعُ لهُم في دُنياهُم وآخرتِهم.

قالَ شيخُنا قَدَّسَ اللهُ روحَهُ: وهٰذه الأمورُ المبْتَدَعَةُ عندَ القُبورِ مراتبُ، أبعدُها عنِ الشَّرْعِ: أنْ يسأَلَ الميِّتَ حاجتَهُ، ويستغيثَ به فيها؛ كما يَفْعَلُهُ كثيرٌ مِن النَّاسِ. قالَ: وهٰؤلاءِ مِن جِنْسِ عُبَّادِ الأصنامِ، ولهٰذا قد يتمَثَّلُ لهُم الشَّيطانُ في صورةِ الميِّتِ، أو الغائبِ؛ كما يتَمَثَّلُ لعُبَّادِ الأصنامِ، وهٰذا يحْصُلُ للكُفَّارِ مِن المشْركينَ، وأهلِ الكتبِ، يَدْعو أحدُهُم مَن يُعَظِّمُهُ فيتمَثَّلُ لهُ الشَّيطانُ أَحياناً، وقد يُخاطِبُهُم ببعضِ الأمورِ الغائبةِ، وكذلك السُّجودُ للقبرِ، والتمسُّحُ بهِ وتقبيلُهُ.

المرتبةُ الثانيةُ: أنْ يسأَلَ اللهَ ﷻ بهِ، وهٰذا يفعَلُهُ كثيرٌ مِن المتأَخِّرينَ، وهو بدْعَةٌ باتِّفاقِ المسلمينَ.

الثالثةُ: أنْ يسأَلَهُ نفْسَهُ.

الرابعةُ: أنْ يَظُنَّ أنَّ الدُّعاءَ عندَ قبرِه مستجابٌ، أو أنَّهُ أفضلُ مِن الدُّعاءِ في المسجدِ، فيقْصِدُ زيارَتَه، والصَّلاةَ عندَهُ؛ لأجْلِ طلبِ حوائِجِه، فهٰذا أيضاً مِن المُنْكَراتِ المبتَدَعَةِ باتِّفاقِ المسلمينَ، وهيَ محرَّمَةٌ، وما عَلِمْتُ في ذلك نزاعاً بينَ أئمَّةِ الدِّينِ، وإنْ كانَ كثيرٌ مِن المتأَخِّرينَ يفعَلُ ذلك، ويقولُ بعضُهُم: قبرُ فلانٍ تِرْياقٌ مُجَرَّبٌ!!

والحكايَةُ المنقولَةُ عَنِ الشَّافعيِّ أَنَّهُ كانَ يَقْصِدُ الدُّعاءَ عندَ قبرِ أَبي حَنيفَةَ مِنَ الكَذِبِ الظَّاهِرِ[1].

---

(١) رواها الخطيب في «تاريخه» (١/ ١٢٣) وزعم الكوثري في «مقالاته» (ص٣٨١) أنها «بسند صحيح»!! وهو زعمٌ باطل! فانظر نقضها في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١/ ٣١)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (ص١٦٥).



٤ الفَرْقُ بينَ زِيارةِ الموحِّدينَ للقبورِ وزيارةِ المشركينَ

أَمَّا زيارَةُ الموحِّدينَ؛ فمقصودُها ثلاثةُ أشياءَ:

أحدُها: تذكُّرُ الآخرةِ، والاعتبارُ، والاتِّعاظُ، وقد أشارَ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إلى ذٰلك بقولِهِ: **«زُوروا القُبورَ؛ فإنَّها تُذَكِّرُكُم الآخِرَةَ»**[1].

الثَّاني: الإحسانُ إلى الميِّتِ، وأنْ لا يطولَ عهْدُهُ به، فيَهْجُرَهُ، ويتناساهُ، كما إذا تَرَكَ زيارةَ الحيِّ مدَّةً طويلةً تناساهُ، فإذا زارَ الحيَّ؛ فرح بزيارته، وسُرَّ بذلك، فالميِّتُ أولى؛ لأنَّه قد صارَ في دارٍ قد هَجَرَ أهلُها إخوانَهُم وأهلَهُم ومعارِفَهُم، فإذا زارَهُ وأَهْدى إليهِ هديَّةً؛ مِن دُعاءٍ، أو صدقةٍ، أو أَهْدى إليهِ قُربَةً؛ ازدادَ سرورُه وفرحُه، كما يُسَرُّ الحيُّ بمَنْ يزورُهُ ويُهْدي لهُ.

ولهٰذا شَرَعَ النبيُّ صلَّى اللهُ تعالى عليه وآلهِ وسلَّمَ للزَّائرينَ أنْ يَدْعوا لأهْلِ القُبورِ بالمغفِرَةِ والرَّحْمَةِ وسؤالِ العافيةِ فقطْ[2]، ولم يَشْرَعْ لهُم أَنْ يدعوهُم، ولا أنْ يدعوا بهِم، ولا يُصَلِّي عندَهُم.

الثَّالِثُ: إحسانُ الزَّائرِ إلى نفسِهِ باتِّباعِ السُّنَّةِ، والوقوفِ عندَ ما شرَعَهُ

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) من ذلك ما رواه مسلمٌ في «صحيحه» (٩٧٤) (١٠٣) أنَّ النبيَّ ﷺ علَّم السيدة عائشة ﵂ الدعاء في ذلك: «السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون». وهناك أدعية أخرى، فانظر: «أحكام الجنائز» (ص١٨٣ فما بعد).

الرَّسولُ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ[١]، فيُحْسِنُ إلى نفسِه وإلى المزور.

وأمَّا الزِّيارةُ الشِّركيَّةُ؛ فأصْلُها مأخوذٌ عن عُبَّادِ الأصنام!

قالوا: الميِّتُ المعظَّمُ، الذي لروحِهِ قربٌ ومنزلةٌ ومَزِيَّةٌ عندَ اللهِ تعالى، لا يزالُ تأْتيهِ الألطافُ مِن اللهِ تعالى، وتَفيضُ على روحِه الخيراتُ، فإذا عَلَّقَ الزَّائرُ روحَهُ بِه، وأدْناها منهُ؛ فاضَ مِن روحِ المزورِ على روحِ الزَّائرِ مِن تلكَ الألطافِ بواسِطَتِها، كما ينعكِسُ الشُّعاعُ مِن المرآةِ الصَّافيةِ والماءِ ونحوِه على الجسمِ المقابِلِ لهُ!

قالوا: فتمامُ الزِّيارةِ أنْ يَتَوَجَّهَ الزَّائرُ بروحِهِ وقَلْبِه إلى الميِّتِ، ويعْكُفَ بهمَّتِه عليهِ، ويوجِّهَ قصْدَهُ كلَّهُ وإقبالَهُ عليهِ، بحيثُ لا يبقى فيهِ التفاتٌ إلى غيرِه، وكلَّما كانَ جَمْعُ الهِمَّةِ والقلبِ أعظمَ؛ كانَ أقربَ إلى انتفاعِهِ بِه!

وقد ذَكَرَ هٰذه الزِّيارَةَ على هٰذا الوجهِ ابنُ سِينا، والفارابي[٢]، وغيرُهما، وصرَّحَ بها عُبَّادُ الكواكِبِ في عِبادَتِها، وقالوا: إذا تعَلَّقَتِ النَّفْسُ الناطقةُ بالأرواحِ العلويَّةِ، فاضَ عليها منها النُّورُ!!

وبهٰذا السِّرِّ عُبِدَتِ الكواكِبُ، واتُّخِذَتْ لها الهياكِلُ، وصُنِّفَتْ لها الدَّعواتُ، واتُّخِذَتْ الأصنامُ المجسَّدةُ لها.

وهٰذا بعيْنِه هو الذي أوجَبَ لعُبَّادِ القُبورِ اتِّخاذَها أعياداً، وتعليقَ السُّتورِ عليها، وإيقادَ السُّرُجِ عليها، وبناءَ المساجدِ عليها، وهو الذي قَصَدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إبطالَهُ ومحْوَهُ بالكلِّيَّةِ، وسدَّ الذَّرائِعِ المُفْضِيَةِ إليهِ[٣]، فوقَفَ المشرِكونَ في طريقِه، وناقَضوهُ في قَصْدِه،

---

(١) فما يُكتب على كثير من القبور، وما يفعله كثيرٌ من زائري القبور: من قراءة سورة الفاتحة أو غيرها، فكلُّها لم يرد عن النبيِ ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه.

(٢) وهما من الفلاسفة الخارجين عن الكتاب والسنة، على خلاف ما توهَّمه ويوهمه كثيرٌ من العصرانيِّين الذين يعظِّمونهم ويحلُّونهم ويفخِّمون من شأنهم!

(٣) انظر ما كتبتُه حول «سدّ الذرائع» في تعليقي على «الحوادث والبدع» (ص٢٣) للطُّرطوشي

وكانَ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ في شِقٍّ، وهٰؤلاء في شِقٍّ.

وهٰذا الَّذي ذكرَهُ هٰؤلاءِ المشركونَ في زيارَةِ القُبورِ: هو الشَّفاعَةُ التي ظَنُّوا أَنَّ آلِهَتَهُم تنفَعُهُم بها، وتشفَعُ لهُم عندَ اللهِ تعالى.

قالوا: فإنَّ العَبْدَ إذا تعلَّقَتْ روحُه بروحِ الوجيهِ المقرَّبِ عندَ اللهِ، وتوجَّهَ بهِمَّتِهِ إليهِ، وعَكَفَ بقَلْبِه عليهِ؛ صارَ بينَه وبينَهُ اتِّصالٌ، يَفيضُ بِه عليهِ منهُ نَصيبٌ مما يحْصُلُ لهُ مِن اللهِ.

وشبَّهوا ذٰلك بمَنْ يَخْدُمُ ذا جَاهٍ وحَظْوةٍ وقُرْبٍ مِن السُّلطانِ[1]، فهو شديدُ التَّعَلُّقِ بهِ، فما يحصُلُ لذٰلك مِن السُّلطانِ مِن الإنعامِ والإفضالِ يَنالُ ذلك المتعلِّقَ بهِ بحسبِ تعَلُّقِه بهِ.

فهٰذا سِرُّ عبادةِ الأصنامِ، وهو الذي بَعَثَ اللهُ بهِ رُسُلَهُ، وأَنْزَلَ كُتُبَهُ بإبطالِهِ، وتكفيرِ أصحابِه، ولَعْنِهِمْ، وأباحَ دِمَاءَهُم وأموالَهُم، وسَبى ذَرارِيَهُم، وأوجَبَ لهُم النَّارَ.

والقُرآنُ مِن أوَّلِهِ إلى آخرِهِ مملوءٌ مِن الرَّدِّ على أهلِهِ، وإبطالِ مذهَبِهِم.

قَالَ تَعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر: ٤٣].

فأَخْبَرَ أَنَّ الشَّفاعَةَ لمَن لهُ ملكُ السَّماواتِ والأرضِ، وهو اللهُ وحدَهُ، فهو الذي يشفَعُ بنفسِهِ إلى نفسِهِ؛ ليرْحَمَ عبدَهُ، فيأْذَنُ هُو لمَنْ يشاءُ أَنْ يشفَعَ فيهِ.

فصارَتِ الشَّفاعَةُ في الحقيقةِ إنَّما هي لهُ، والذي يشفَعُ عندَهُ إنَّما يشفَعُ بإذنِهِ لهُ وأمْرِه، بعدَ شفاعَتِه سبحانَه إلى نفسِهِ، وهي إرادتُه مِن نفسِهِ أنْ يرحَمَ عبدَهُ.

وهٰذا ضدُّ الشَّفاعَةِ الشِّركيَّةِ التي أَثْبَتَها هٰؤلاءِ المشركونَ ومَن وافَقَهُم،

(١) قارن بما قاله شيخُنا في «التوسُّل. أنواعه وأحكامه» (ص١٠٥).

وهي التي أبْطلَها اللهُ سبحانَه في كتابِه؛ بقولِه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة ١٢٣]، وقولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقالَ تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقالَ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤].

فأخْبَرَ سبحانَه أنَّهُ ليسَ للعبادِ شفيعٌ مِن دونِه، بل إذا أرادَ اللهُ سبحانَه رحمةَ عبدِهِ أذِنَ هُو لمَنْ يَشْفَعُ بهِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، وقالَ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالشَّفاعَةُ بإذْنِه ليست شفاعَةً مِن دُونِه، ولا الشَّافِعُ شفيعٌ مِن دُونه، بل شفيعٌ بإذْنِه.

والفَرْقُ بينَ الشَّفيعَيْنِ كالفَرْقِ بينَ الشَّريكِ والعبدِ المأمورِ.

فالشَّفاعَةُ التي أبْطَلَها اللهُ: شفاعَةُ الشَّريكِ؛ فإنَّهُ لا شريكَ لهُ. والَّتي أثْبَتَها: شفاعَةُ العبدِ المأمورِ، الذي لا يشفَعُ ولا يَتَقَدَّمُ بينَ يدي مالِكِه حتَّى يأْذَنَ لهُ، ويقولَ: اشْفَعْ في فلانٍ. ولهٰذا كانَ أسعَدَ النَّاسِ بشفاعَةِ سَيِّدِ الشُّفَعاءِ يومَ القِيامَةِ أهلُ التَّوحيدِ، الَّذينَ جَرَّدُوا التَّوْحيدَ وخَلَّصوهُ مِن تَعَلُّقاتِ الشِّرْكِ وشَوائِبِه، وهُم الذين ارْتَضى اللهُ سبحانَه.

قالَ تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

فأخْبَرَ أنَّهُ لا يَحْصُلُ يومئذٍ شفاعَةٌ تَنْفَعُ إلَّا بعدَ رضاءِ قَوْلِ المشفوعِ لهُ، وإذْنِه للشَّافِعِ فيهِ، فأمَّا المشرِكُ؛ فإنَّه لا يرتضيهِ، ولا يَرضَى قَوْلَهُ، فلا يأْذَنُ للشُّفَعاءِ أنْ يَشْفَعوا فيهِ؛ فإنَّهُ سبحانَه علَّقها بأمرينِ: رضاهُ عنِ المشفوعِ لهُ، وإذْنِه للشَّافعِ، فما لم يوجَدْ مجموعُ الأمرينِ لم توجَدِ الشَّفاعَةُ.

وسرُّ ذٰلك أنَّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ وحدَهُ، فليس لأحدٍ معَهُ مِن الأمرِ شيءٌ، وأعلى الخَلْقِ وأفضَلُهُم وأكرَمُهُم عندَه هُم الرُّسُلُ والملائكةُ المقرَّبونَ، وهُم عَبيدٌ مَحْضٌ، لا يسبقونَهُ بالقولِ، ولا يتقدَّمُونَ بينَ يديهِ، ولا يفعلونَ شيئاً إلَّا بعدَ إذْنِهِ لهُم، وأمْرِهِم، ولا سيَّما يومَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لنفسٍ شيئاً، فهُم مملوكونَ مربوبونَ، أفعالُهُم مقيَّدَةٌ بأمْرِهِ وإذْنِهِ، فإذا أشركَ بهِم المشركُ، واتَّخذَهُم شُفعاءَ مِن دُونِه؛ ظنّاً منهُ أنَّهُ إذا فَعَلَ ذلك تقدَّموا وشَفَعوا لهُ عندَ اللهِ، فهو مِن أجهَلِ النَّاسِ بحقِّ الرَّبِّ سبحانَه، وما يَجِبُ لهُ، ويمتَنِعُ عليهِ؛ فإنَّ هٰذا محالٌ ممتَنِعٌ، شبيهُ قياسِ الرَّبِّ تعالى على الملوكِ والكبراءِ، حيثُ يَتَّخِذُ الرَّجُلُ مِن خواصِّهِم وأوليائِهِم مَنْ يَشْفَعُ لهُ عندَهُم في الحوائجِ.

وبهٰذا القِياسِ الفاسِدِ عُبِدَتِ الأصنامُ، واتَّخَذَ المُشْرِكونَ مِن دُونِ اللهِ الشَّفيعَ والوليَّ.

والفَرْقُ بينَهُما هُو الفَرْقُ بينَ المخلوقِ والخالِقِ، والرَّبِّ والمَرْبُوبِ، والسَّيِّدِ والعبدِ، والمالِكِ والمملوكِ، والغنيِّ والفقيرِ، والذي لا حاجةَ بهِ إلى أحدٍ قطُّ، والمحتاجُ مِن كُلِّ وجهٍ إلى غيرِه.

فالشُّفَعاءُ عِندَ المخلوقينَ هُم شركاؤُهُم، فإنَّ قِيامَ مصالِحِهِمْ بهِم، وهُم أعوانُهم وأنصارُهُم، الذينَ قيامُ أمرِ الملوكِ والكُبراءِ بهِم، ولولاهُم لما انْبَسَطَتْ أيديهِم وألسنَتُهُم في النَّاسِ، فلحاجَتِهِم إليهِم يحتاجونَ إلى قَبولِ شفاعَتِهِم، وإنْ لم يأْذَنوا فيها ولم يرْضَوْا عنِ الشَّافِعِ؛ لأنَّهُم يخافونَ أنْ يَرُدُّوا شفاعَتَهُم، فتنتَقِضُ طاعتُهم لهُم، ويذهبونَ إلى غيرِه، فلا يجدونَ بُدّاً مِن قَبولِ شفاعَتِهم على الكُرْهِ والرِّضى.

فأمَّا الغنيُّ الَّذي غِناهُ مِن لوازِمِ ذاتِه، وكلُّ ما سواهُ فقيرٌ إليهِ بذاتِه، وكلُّ مَن في السَّماواتِ والأرضِ عَبيدٌ لهُ، مقهورونَ بقهْرِهِ، مُصَرَّفونَ بمشيئَتِه، لو أهْلَكَهُمْ جَميعاً لم يَنْقُصْ مِن عِزِّهِ وسُلْطانِهِ ومُلْكِه وربوبيَّتِه وإلٰهيَّتِه مثقالُ ذرَّةٍ.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ

فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧].

وقالَ سبحانَهُ في سيدةِ آيِ القرآنِ[1]؛ آيةِ الكرسيِّ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقالَ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

فأَخْبَرَ أَنَّ حالَ مُلْكِه للسَّماواتِ والأرْضِ يوجِبُ أَنْ تكونَ الشَّفاعَةُ كُلُّها لهُ وَحْدَهُ، وأَنَّ أحداً لا يشفَعُ عندَهُ إلَّا بإذنِهِ؛ فإنَّهُ ليسَ بشريكٍ، بل مملوكٌ مَحْضٌ، بخلافِ شفاعَةِ أَهْلِ الدُّنيا بعضِهِم عندَ بعضٍ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ الشَّفاعَةَ التي نَفاها اللهُ سبحانَه في القرآنِ هي هٰذه الشَّفاعَةُ الشِّرْكِيَّةُ، التي يعْرِفُها النَّاسُ، ويفعلُها بعضُهُم مع بعضٍ، ولهٰذا يُطْلِقُ نفيَها تارةً؛ بناءً على أَنَّها هي المعروفةُ المشاهَدَةُ عندَ النَّاسِ، ويُقَيِّدُها تارةً بأَنَّها لا تنفَعُ إلَّا بعدَ إِذْنِهِ.

وهٰذه الشَّفاعَةُ في الحقيقةِ هي منهُ؛ فإِنَّهُ الذي أَذِنَ، والَّذي قَبِلَ، والَّذي رَضِيَ عنِ المشفوعِ، والَّذي وَفَّقَهُ لِفِعْلِ ما يستَحِقُّ بِهِ الشَّفاعَةَ وقَوْلِهِ.

فمُتَّخِذُ الشَّفيعِ مشركٌ، لا تَنْفَعُهُ شفاعَتُه، ولا يُشَفَّعُ فيهِ، ومُتَّخِذُ الرَّبِّ وحدَهُ إِلٰهَهُ ومعبودَهُ ومحبوبَه ومَرجوَّهُ ومَخوفَهُ، الذي يتقرَّبُ إليهِ وحدَهُ، ويطلُبُ رضاهُ، ويتباعَدُ مِن سَخَطِهِ، هو الذي يأْذَنُ اللهُ سبحانَهُ للشَّفيعِ أَنْ يَشْفَعَ فيهِ.

قالَ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ

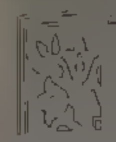
(١) ورد هذا اللفظ منسوباً إلى النبي ﷺ فيما رواه: الحُمَيدي (٢/٤٣٧)، والترمذي (٥/١٥٧)، وعبد الرزاق (٣/٣٧٦)؛ عن أبي هريرة. وفي سنده حَكيم بن جُبير، وهو ضعيفُ الحديث.
أما أنها أعظم آية في القرآن؛ فهذا مرويٌّ من عدة طرق، فانظر: «الإتمام» (٢١٣١٥).

شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، وقالَ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

فبيَّنَ سبحانَهُ أنَّ المُتَّخذينَ شُفعاءَ مُشْرِكُونَ، وأنَّ الشَّفاعَةَ لا تَحْصُلُ باتِّخاذِهِمْ هُمْ، وإنَّما تَحْصُلُ بإذنِهِ للشَّافِعِ، ورِضاهُ عَنِ المَشْفوعِ لهُ.

ومَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تعالى لفَهْمِ هٰذا الموضِعِ ومعرفَتِهِ؛ تبيَّنَ لهُ حقيقةُ التَّوحيدِ والشِّرْكِ، والفَرْقُ بينَ ما أَثْبَتَهُ اللهُ تعالى مِنَ الشَّفاعَةِ وبينَ ما نفاهُ وأَبْطَلَهُ.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].



٥ الغِناءُ والمعازِفُ

ومِن مَكايِدِ عدوِّ اللهِ ومصايِدِه، التي كادَ بها مَنْ قَلَّ نصيبُهُ مِن العلمِ والدِّينِ، وصادَ بها قُلوبَ الجاهِلينَ والمُبْطِلينَ: سماعُ المُكاءِ والتَّصْدِيَةِ، والغناءُ بالآلاتِ المحرَّمَةِ، الذي يَصُدُّ القلوبَ عن القرآنِ، ويجعَلُها عاكفةً على الفُسوقِ والعِصْيانِ، فهو قرآنُ الشَّيْطانِ، والحجابُ الكثيفُ عنِ الرَّحْمٰنِ، وهو رُقْيَةُ اللِّواطِ والزِّنا، وبِهِ يَنالُ العاشِقُ الفاسِقُ مِن معشوقِهِ غايةَ المُنى، كادَ بِهِ الشَّيطانُ النُّفوسَ المبطِلَةَ، وحَسَّنَهُ لها مكراً منهُ وغُروراً، وأَوْحى إليها الشُّبَهَ الباطلةَ على حُسْنِه فقبِلَتْ وَحْيَهُ، واتَّخَذَتْ لأجْلِهِ القرآنَ مهْجوراً.

فلو رأيْتَهُم عندَ ذَيَّاكَ السَّماعِ وقد خَشَعَتْ منهُم الأصواتُ، وهَدَأَتْ منهُم الحركاتُ، وعَكَفَتْ قلوبُهُم بكُلِّيَّتِها عليهِ، وانصبَّتْ انصبابةً واحدةً إليهِ، فتمايلوا لهُ ولا كتمايُلِ النَّشوانِ، وتكسَّروا في حَرَكَاتِهم ورَقْصِهِمْ، أرأيْتَ تَكَسُّرَ المخانيثِ والنِّسوانِ؟!

ويحقُّ لهُم ذٰلك، وقد خالَطَ خُمارُهُ النُّفوسَ، ففَعلَ فيها أعظمَ ما يفعَلُهُ حُمَيَّا الكؤوسِ، فلغيرِ اللهِ، بل للشَّيطانِ، قلوبٌ هناكَ تُمزَّقُ، وأثوابٌ تُشَقَّقُ، وأموالٌ في غيرِ طاعةِ اللهِ تُنْفَقُ، حتى إذا عَمِلَ السُّكْرُ فيهِم عَمَلَهُ، وبلغَ الشَّيطانُ منهُم أُمْنِيَّتَهُ وأَمَله، واستفزَّهُم بصوته وحِيلِه، وأجْلب عليهِم برجلِهِ وخَيْلِه، وخَزَ في صدورِهِم وَخزاً، وأزَّهُم إلى ضَرْبِ الأرضِ بالأقدامِ أزّاً، فَطَوْراً يجعَلُهُم كالحميرِ حولَ المدرِ، وتارةً كالذِّبابِ ترقُصُ وُسْطَ الدِّيارِ.

فيا رَحْمتا للسُّقوفِ والأرضِ مِن دَكِّ تلكَ الأقدامِ.

ويا سَوْأَتا مِن أشباهِ الحَميرِ والأنعامِ.

ويا شماتَةَ أعداءِ الإسلام بالَّذينَ يزعُمونَ أنَّهُم خَواصُّ الإسلامِ[١]، قَضَوْا حياتَهُم لذَّةً وطَرباً، واتَّخذوا دينَهُم لهْواً ولَعِباً.

مَزاميرُ الشَّيطانِ أحَبُّ إليهِم مِن استماعِ سُوَرِ القُرآنِ، لو سَمِعَ أحدُهُم القرآنَ مِن أوَّلِه إلى آخِرِهِ لما حَرَّكَ لهُ ساكِناً، ولا أزعَجَ لهُ قاطِناً، ولا أثارَ فيهِ وَجْداً، ولا قَدَحَ فيهِ مِن لواعِجِ الشَّوْقِ إلى اللهِ زَنْداً.

حتى إذا تُلِيَ عليهِ قرآنُ الشَّيطانِ، وولَجَ مَزْمورُه سَمْعَهُ؛ تفجَّرَتْ يَنابيعُ الوَجْدِ مِن قلبِهِ على عينيهِ فجَرَتْ، وعلى أقدامِهِ فَرَقَصَتْ، وعلى يديهِ فصَفَّقَتْ، وعلى سائرِ أعضائِهِ فاهتَزَّتْ وطَرِبَتْ، وعلى أنفاسِهِ فتصاعَدَتْ، وعلى زَفَراتِه فتزايَدَتْ، وعلى نيرانِ أشواقِهِ فاشتَعَلَتْ!

فيا أيُّها الفاتِنُ المفتونُ، والبائِعُ حَظَّهُ مِن اللهِ بنصيبِهِ مِن الشَّيطانِ صَفْقَةَ خاسرٍ مَغْبونٍ، هَلَّا كانَتْ هٰذه الأشجانُ عندَ سماعِ القُرآنِ؟ وهٰذه الأذواقُ والمواجيدُ عندَ قراءةِ القرآنِ المجيد؟ وهٰذه الأحوالُ السَّنِيَّات، عندَ تلاوةِ السُّوَرِ والآيات؟

ولكنْ؛ كُلُّ امرئٍ يَصْبُو إلى ما يُناسِبُه، ويميلُ إلى ما يُشاكِلُه، والمُشاكَلَةُ سببُ المَيْلِ عَقْلاً وطَبْعاً، فمِنْ أينَ هٰذا الإخاءُ والنَّسَب؟ لولا التَّعَلُّقُ مِن الشَّيْطانِ بأقوى سَبَب؟!

ومِن أينَ هٰذه المصالحَةُ التي أوْقعَتْ في عَقدِ الإيمانِ، وعَهْدِ الرَّحمٰنِ خَلَلاً؟

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) قال الشيخ محمد حامد الفقي تعليقاً: «يقصد الشيخ رحمه الله المتصوِّفة الذين يتحلَّقون حِلَقاً يقومون فيها يرقصون ويتمايلون على أنغام الغناء والآلات، ويتصايحون ويهتزُّون ويتراقصون بما يسمُّونه ذكراً، وهو فسوقٌ وعصيان، وذكر للشيطان، هداهم الله، وخلَّصهم وخلَّص الإسلام من تلك الشرور والآثام».

ولقد أَحْسَنَ القائِلُ:

تُلِيَ الكِتَابُ فأَطْرَقُوا لَا خِيْفَةً ... لٰكِنَّهُ إِطْراقُ ساهٍ لاهِي
وأَتَى الغِناءُ فَكَالْحَمِيرِ تَنَاهَقُوا ... واللّهِ مَا رَقَصُوا لأجْلِ اللّهِ
دُفٌّ ومِزْمَارٌ ونَغْمَةُ شَادِنٍ ... فَمَتَى رَأَيْتَ عِبادَةً بِمَلاهِي؟
ثَقُلَ الكِتابُ عَلَيْهِمُ لَمَّا رَأَوْا ... تَقْيِيدَهُ بأوامِرٍ وَنَواهِي
سَمِعُوا لَهُ رَعْداً وبَرْقاً إذ حَوَى ... زَجْراً وتَخْويفاً بِفِعْلِ مَناهي
وَرَأَوْهُ أَعْظَمَ قاطِعٍ للنَّفْسِ عَنْ ... شَهَواتِها، يا وَيْحَها المُتَنَاهِي
وأَتَى السَّماعُ مُوافِقاً أَغْراضَها ... فلأجْلِ ذَاكَ غَدا عَظِيمَ الجاهِ
أيْنَ المُساعِدُ للهَوَى مِنْ قَاطِعٍ ... أَسْبابَهُ عِنْدَ الجَهُولِ السَّاهِي؟
إنْ لَمْ يَكُنْ خَمْرَ الجُسومِ فإنَّهُ ... خَمْرُ العُقولِ مُماثِلٌ ومُضاهِي
فانْظُرْ إلى النَّشْوانِ عندَ شَرابِهِ ... وانْظُرْ إلى النَّسوانِ عندَ مَلاهِي
وانْظُرْ إلى تَمْزِيقِ ذا أَثْوابَهُ ... مِنْ بَعْدِ تَمْزِيقِ الفؤادِ اللَّاهِي
واحْكُمْ فأيُّ الخَمْرَتَيْنِ أَحَقُّ بالتَّـ ... ـحْريمِ والتَّأْثِيمِ عِنْدَ اللّهِ؟

وقالَ آخَرُ:

بَرِئْنَا إلى اللّهِ مِنْ مَعْشَرٍ ... بِهِمْ مَرَضٌ مِنْ سَماعِ الغِنا
وكَمْ قُلْتُ: يَا قَوْمِ أَنْتُم عَلى ... شَفَا جُرُفٍ مَا بِهِ مِنْ بِنا
شَفَا جُرُفٍ تَحْتَهُ هُوَّةٌ ... إلى دَرَكٍ كَمْ بِهِ مِنْ عَنَا؟
وتِكْرَارُ ذَا النُّصْحِ مِنَّا لَهُم ... لِنُعْذَرَ فِيهِمْ إلى رَبِّنا
فلَمَّا اسْتَهَانُوا بِتَنْبِيهِنا ... رَجَعْنا إلى اللّهِ في أَمْرِنا
فَعِشْنَا عَلَى سُنَّةِ المُصْطَفَى ... ومَاتُوا عَلَى تِنْتِنا تِنْتِنا

ولم يزل أَنصارُ الإسلامِ وأَئمَّةُ الهُدى، تصيحُ بهؤلاءِ مِن أَقطارِ الأرضِ، وتُحَذِّرُ مِن سُلوكِ سبيلِهم، واقتفاءِ آثارِهم، مِن جميعِ طوائِفِ المِلَّةِ.

قالَ الإمامُ أبو بكرٍ الطَّرْطُوشيُّ في خُطْبَةِ كتابِهِ في «تحريمِ السَّماعِ»:

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ، والعاقبةُ للمُتَّقينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على

الظَّالمينَ، ونسألُهُ أنْ يُرينا الحقَّ حقّاً فنتَّبِعَهُ، والباطلَ باطلاً فنَجْتَنِبَهُ، وقد كانَ النَّاسُ فيما مَضى يَسْتَتِرُ أحدُهُم بالمعصيةِ إذا واقَعَها، ثمَّ يستَغْفِرُ اللهَ ويتوبُ إليهِ منها، ثمَّ كَثُرَ الجهْلُ، وقلَّ العلمُ، وتناقَصَ الأمْرُ، حتى صارَ أحدُهُم يأتي المعْصِيَةَ جهاراً، ثمَّ ازدادَ الأمرُ إدباراً، حتى بَلَغَنا أنَّ طائفةً مِن إخوانِنا المسلمينَ ـ وفَّقَنا اللهُ وإيَّاهُم ـ اسْتَزَلَّهُم الشَّيطانُ، واستَغْوى عقولَهُم في حُبِّ الأغاني واللَّهْوِ، وسماعِ الطَّقْطَقَةِ والنَّقيرِ، واعتَقَدَتْهُ مِن الدِّينِ الذي يُقَرِّبُهم إلى اللهِ، وجاهَرَتْ بهِ جماعةَ المسلمينَ، وشاقَّتْ سَبيلَ المؤمِنينَ، وخالَفَتِ الفقهاءَ والعُلماءَ وحَمَلَةَ الدِّينِ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، فرأَيْتُ أنْ أُوَضِّحَ الحقَّ، وأكشفَ عن شُبَهِ أهلِ الباطِلِ، بالحُجَجِ التي تضمَّنَها كتابُ اللهِ، وسُنَّةُ رسولِه، وأَبْدأُ بذِكْرِ أقويلِ العلماءِ الَّذينَ تَدُورُ الفُتْيا عليهِم في أقاصي الأرضِ ودانِيها، حتى تَعْلَمَ هٰذه الطَّائفةُ أنَّها قدْ خالَفَتْ علماءَ المسلمينَ في بِدْعَتِها، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ.

ثمَّ قال: فأما مالكٌ؛ فإنَّهُ نَهى عنِ الغناءِ، وعَنِ استماعِهِ، وقالَ: «إذا اشترَى جاريةً فوَجَدَها مُغَنِّيَةً؛ كانَ لهُ أنْ يَرُدَّها بالعيبِ».

وسُئِلَ مالكٌ رحمه الله عمَّا يُرَخِّصُ فيهِ أهلُ المدينةِ مِن الغناءِ؟ فقالَ: «إنَّما يفعَلُهُ عندَنا الفُسَّاقُ»(١).

قالَ: وأمَّا أبو حنيفةَ؛ فإنَّهُ يكرَهُ الغناءَ، ويَجْعَلُهُ مِن الذُّنوبِ(٢).

وكذٰلكَ مذهَبُ أهلِ الكوفةِ: سُفيانَ، وحَمَّادٍ، وإبراهيمَ، والشَّعْبِيِّ،

---

(١) انظر: «عِلل أحمد» (١/٢٣٨)، و«الأمر بالمعروف» (١٦٥) للخلَّال، و«المنتقى النفيس» (ص٣٠٠)، و«الكافي» (٢/٢٠٥) لابن عبد البر، و«شرح مختصر خليل» (٦/١٥٣) للحطَّاب.

(٢) «المنتقى النفيس» (ص٣٠٠)، و«الدر المختار» (٢/٣٥٤)، و«روح المعاني» (٢١/٦٨) للألوسي، و«شرح كنز الدقائق» (٤/١٢٠) للزيلعي.

وغيرِهم، لا اختلاف بينَهُم في ذٰلك، ولا نعلمُ خلافاً أيضاً بينَ أهلِ البصرةِ في المنعِ منهُ.

قلتُ: مذهَبُ أبي حَنيفةَ في ذٰلك مِن أشدِّ المذاهِبِ، وقولُه فيهِ أغلظُ الأقوال، وقد صرَّحَ أصحابُهُ بتحريمِ سماعِ الملاهي كلِّها؛ كالمِزْمارِ، والدُّفِّ، حتَّى الضَّرْبِ بالقَضيبِ، وصرَّحوا بأنَّهُ معصيةٌ، يوجِبُ الفِسْقَ، وتُرَدُّ به الشَّهادَةُ، وأَبلَغُ مِن ذٰلك أنَّهم قالوا: إنَّ السماعَ فِسْقٌ، والتَّلَذُّذَ به كفرٌ. هذا لفظُهم، ورووا في ذٰلك حديثاً لا يصحُّ رفْعُهُ[1].

قالوا: ويَجِبُ عليهِ أنْ يجتَهِدَ في أنْ لا يسمَعَه إذا مرَّ بِهِ، أو كانَ في جِوارِه.

وقالَ أبو يُوسُفَ في دارٍ يُسمَعُ مِنها صوتُ المعازِفِ والملاهِي: «ادْخُلْ عليهِم بغيرِ إذنِهِم؛ لأنَّ النَّهْيَ عنِ المنكرِ فرضٌ، فلو لم يَجُز الدُّخولُ بغيرِ إذنٍ؛ لامتَنَعَ النَّاسُ مِن إقامَةِ الفَرْضِ».

قالوا: ويتقدَّمُ إليهِ الإمامُ إذا سمِعَ ذٰلك مِن دارِهِ، فإنْ أصرَّ حَبَسَهُ أو ضَرَبَهُ سياطاً، وإنْ شاءَ أَزْعَجَهُ عن دارِه.

وأمَّا الشَّافعيُّ، فقالَ في كتابِ «أدبِ القضاءِ»[2]: «إنَّ الغِناءَ لهْوٌ مكروهٌ،

---

(١) وهو «استماع الملاهي معصيةٌ، والجلوسُ عليها فِسْقٌ، والتلذُّذُ بها كُفرٌ» ذكره غير واحد منهم؛ كصاحب «الفتاوى البزازية» (٦/ ٢٥٩) وغيره.
وأورده الزَّبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (٦/ ٤٧٢) عن العراقي، وذكر عَزْوَه لأبي الشيخ من حديث مكحول مُرْسلاً، فهو ضعيف.
وقد رواه أبو يعقوب النيسابوري في «الملاهي وعقوبات المعاصي» (ق٢٢٣/ أ) من طريق بقيَّة عن عبد الرحمٰن بن عبد الله عن مكحول مرسلاً! وهو - على إرساله - ضعيف.
ولم يقف عليه الأخ عبد الله بن يوسف في «أحاديث ذم الغناء» (ص١٣٩)!

(٢) انظر: «الأم» (٦/ ٢١٤) له.
وراجع «الزواجر» (٢/ ٢٧٨) للهيتمي، و«سنن البيهقي» (١٠/ ٢٢٣)، و«نزهة الأسماع» (ص٧١) لابن رجب.

يُشْبِهُ الباطلَ والمحالَ، ومَن استكْثَرَ منهُ؛ فهو سفيهٌ تُرَدُّ شهادَتُه».

وصرَّحَ أصحابُهُ العارِفونَ بمذهَبِهِ بتحريمِه، وأنْكَروا على مَنْ نَسَبَ إليهِ حِلَّهُ، كالقاضي أبي الطَّيِّبِ الطَّبريِّ، والشَّيخِ أبي إسحاقَ، وابنِ الصَّبَّاغِ.

قالَ الشيخُ أبو إسحاقَ في «التَّنبيه»: ولا تَصِحُّ ـ يعني: الإجارة ـ على منفعَةٍ محرَّمةٍ؛ كالغناءِ، والزَّمرِ، وحملِ الخمرِ، ولم يذكُرْ فيهِ خلافاً.

وقال في «المهذَّبِ»: ولا يجوزُ على المنافِعِ المحرَّمَةِ؛ لأنَّهُ محرَّمٌ، فلا يجوزُ أَخْذُ العِوَضِ عنهُ؛ كالميْتَةِ والدَّمِ.

فقد تضمَّنَ كلامُ الشَّيخِ أُموراً:

أَحدُها: أنَّ منفَعَةَ الغناءِ بمجرَّدِهِ منفعةٌ محرَّمةٌ.

الثَّاني: أنَّ الاستئجارَ عليها باطلٌ.

الثَّالِثُ: أنَّ أكلَ المالِ بِهِ أكلُ مالٍ بالباطلِ، بمنزلةِ أكلِهِ عِوَضاً عَنِ الميتَةِ والدَّمِ.

الرَّابعُ: أنَّهُ لا يجوزُ للرَّجُلِ بَذْلُ مالِه للمُغَنِّي، ويَحْرُمُ عليهِ ذلك؛ فإنَّهُ بذلَ مالَه في مقابلةِ محرَّمٍ، وأنَّ بَذْلَهُ في ذلك كبَذْلِه في مقابلةِ الدَّمِ والميتةِ.

الخامسُ: أنَّ الزَّمْرَ محرَّمٌ.

وإذا كانَ الزَّمْرُ الذي هو أَخَفُّ آلاتِ اللهو حراماً، فكيفَ بما هو أشدُّ منهُ؛ كالعودِ والطُّنْبُورِ واليَراعِ!

ولا ينبغي لمن شمّ رائحةَ العلم أن يتوقَّفَ في تحريمِ ذلك، فأَقَلُّ ما فيهِ أنَّهُ مِن شِعارِ الفُسَّاقِ وشارِبي الخُمورِ[١].

---

(١) وقريبٌ من هذه المسألة مسألة السُّبْحَة واتِّخاذها للذكر، فبالرغم من ضعف الأحاديث الواردة فيها، بل صحَّة الآثار الواردة عن السلف في إنكارها، فترى بعض الناس من طلبة العلم يستخدمونها ويظهرونَها في أيديهم(!) قائلين: إنَّ وجهة نظرنا مُغايرةٌ! نعم؛ يجوز لمن كان أهلاً للخلاف والنظر المُخالفة، لكنّه لو تأمّل كلام المصنِّف هنا =

وكذلك قال أبو زكريَّا النوويُّ في «روضتِه»[١]:

«القسمُ الثَّاني: أنْ يُغنِّيَ ببعضِ آلاتِ الغناءِ، بما هو مِن شعارِ شاربي الخمرِ، وهو مُطرِبٌ كالطُّنبورِ والعُودِ والصَّنجِ، وسائرِ المعازفِ، والأوتارِ، يَحْرُمُ استعمالُه، واستماعُه.

قالَ: وفي اليَراعِ وجهانِ، صحَّحَ البغويُّ التَّحريمَ.

ثمَّ ذكَرَ عن الغَزاليِّ[٢] الجوازَ.

قالَ: والصَّحيحُ تحريمُ اليَراعِ، وهو الشَّبَّابَةُ».

وقد صنَّفَ أبو القاسمِ الدَّوْلَعيُّ[٣] كتاباً في تَحْريمِ اليَراعِ.

وقد حكى أبو عمرو ابنُ الصَّلاحِ الإجماعَ على تحريمِ السَّماعِ، الذي جَمَعَ الدُّفَّ والشَّبَّابَةَ والغناءَ، فقالَ في «فتاويه»[٤]:

«وأمَّا إباحةُ هٰذا السَّماعِ وتحليلُه، فلْيُعْلَمْ أنَّ الدُّفَّ والشَّبَّابَةَ والغناءَ إذا اجْتَمَعَتْ؛ فاستماعُ ذٰلك حرامٌ، عندَ أئمَّةِ المذاهبِ وغيرِهم مِن عُلماءِ المسلمينَ، ولمْ يَثْبُتْ عن أحدٍ ممَّنْ يُعْتَدُّ بقولِه في الإجماعِ والاختلافِ أنَّهُ أباحَ هٰذا السَّماعَ.

والخِلافُ المنقولُ عن بعضِ أصحابِ الشافعيِّ إنَّما نُقِلَ في الشَّبَّابةِ

= في قضية (الشعار)، وتذكَّر أنَّ السبحة الآن شعار المتصوِّفة وأهل البدع والضلال، لنسارع - إن شاء الله - في تركها، وتنفير الناس منها.

ولمزيد بيان يُراجع كتابي «إحكام المباني في نقض وصول المهاني» نشر مكتبة المعارف، الرياض.

(١) هو «روضة الطالبين»، وانظر (١١/ ٢٢٨) منه.

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» (٢/ ٢٧٢) له.

(٣) هو ضياء الدين، عبد الملك بن زيد التَّغْلِبي، المتوفى سنة (٥٩٨هـ)، ترجمته في: «طبقات السبكي» (٧/ ١٨٧)، و«تاريخ ابن كثير» (١٣/ ٣٣)، وقد طبع كتابُه قريباً.

(٤) (٢/ ٤٩٨).

منفردةً، والدُّفُّ منفرداً، فمَن لا يُحَصِّلُ، أو لا يتأمَّلْ، ربّما اعتقدَ خلافاً بينَ الشَّافعيِّينَ في السَّماعِ الجامعِ هٰذه الملاهي، وذٰلك وَهمٌ بيِّنٌ مِن الصائرِ إليهِ، تُنادي عليهِ أدلَّةُ الشرعِ والعقلِ.

مع أنَّهُ ليس كلُّ خلافٍ يُسْتَرْوَحُ إليهِ ويُعْتَمَدُ عليهِ، ومن تتبَّع ما اختلفَ فيهِ العلماءُ، وأخذَ بالرُّخَصِ مِن أقاويلِهم؛ تَزَنْدَقَ أو كادَ[1].

قالَ: وقولُهم في السَّماعِ المذكورِ: إنَّهُ مِن القُرُباتِ والطّاعاتِ قولٌ مخالفٌ لإجماعِ المسلمينَ، ومَن خالَفَ إجماعَهُم فعليهِ ما في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

وأطالَ الكلامَ في الرَّدِّ على هاتينِ الطّائفتينِ اللَّتينِ بلاءُ الإسلامِ منهُم: المحلِّلونَ لما حرَّمَ اللّٰهُ، والمتقرِّبونَ إلى اللّٰهِ بما يُبعِدُهُم عنهُ.

والشَّافعيُّ وقُدماءُ أصحابه، والعارِفونَ بمذهَبِهِ مِن أغلَظِ النَّاسِ قولاً في ذٰلك.

وقد تواتَرَ عنِ الشافعيِّ أنَّهُ قالَ: «خَلَّفْتُ ببغدادَ شيئاً أحْدَثَتْهُ الزَّنادِقَةُ، يسَمُّونَه التَّغْبيرَ، يَصُدُّونَ به النَّاسَ عن القُرآنِ»[2].

فإذا كانَ هٰذا قولَه في التَّغبيرِ، وتعليلُه: أنَّهُ يصدُّ عن القرآنِ ـ وهو شِعْرٌ يُزَهِّدُ في الدُّنيا، يغنِّي بهِ مُغَنٍّ، فيضربُ بعضُ الحاضرينَ بقَضيبٍ على نِطْعٍ أو مَخَدَّةٍ على توقيعِ غنائِهِ ـ فليتَ شِعْري ما يقولُ في سماعِ التَّغبيرِ عندَه كتَفْلَةٍ في بَحْرٍ[3]، قد اشتَمَلَ على كلِّ مفسدَةٍ، وجَمَعَ كُلَّ محرَّمٍ.

---

(١) قال سُليمان التَّيمي: «لو أخذتَ برخصة كلِّ عالمٍ أو زلَّةِ كل عالمٍ؛ اجتَمَع فيك الشرُّ كله». رواه الخلَّال في «الأمر بالمعروف» (١٦٨ و١٦٩).

(٢) انظر: «جزء اتِّباع السنن واجتناب البدع» (٨٨ ـ ٨٩) للضياء المقدسي، وتعليقي عليه.

(٣) وماذا يقول في أناشيد (شباب) العصر، المسمَّاة (إسلاميَّة)، وتصاحبها الدُّفوف، وأحياناً الطبول؟! =

فاللَّهُ بينَ دِينِه وبينَ كلِّ متعلِّمٍ مفتونٍ، وعابدٍ جاهلٍ.

قالَ سفيانُ بنُ عُيينَة: «كانَ يُقالُ: احْذَرُوا فِتنَةَ العالِمِ الفاجرِ، والعابدِ الجاهلِ؛ فإنَّ فتنَتَهُما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ».

ومَن تأمَّلَ الفسادَ الدَّاخلَ على الأمَّةِ وَجَدَهُ مِن هٰذين المفتونَيْنِ.

وأما مَذْهَبُ الإمامِ أحمدَ[1]؛ فقالَ عبدُ اللَّهِ ابنُه: «سألْتُ أبي عنِ الغناءِ؟ فقالَ: الغِناءُ يُنْبِتُ النِّفاقَ في القلبِ، لا يُعْجِبُني».

ثمَّ ذكرَ قول مالكٍ: «إنَّما يفعَلُهُ الفُسَّاقُ».

قالَ عبدُ اللَّهِ: «وسمعتُ أبي يقولُ: سمعتُ يحيى القطَّانَ يقولُ: لو أنَّ رجلاً عمِلَ بكُلِّ رُخْصَةٍ؛ بقولِ أهلِ الكوفةِ في النَّبيذِ، وأهلِ المدينةِ في السَّماعِ، وأهلِ مكَّةَ في المُتْعَةِ؛ لكانَ فاسِقاً»[2].

● سماعُ الغِناءِ مِن المرأةِ أو الأمردِ:

وأمَّا سماعُهُ مِن المرأةِ الأجنبيَّةِ، أو الأمْرَدِ؛ فمِنْ أعظَمِ المحرَّماتِ، وأشدِّها فساداً للدِّينِ[3]:

قالَ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وصاحِبُ الجاريةِ إذا جَمَعَ النَّاسَ لسماعِها؛ فهو سفيهٌ تُرَدُّ شهادَتُه».

وأغلَظَ القولَ فيه، وقالَ: «هُو دياثَةٌ، فمَنْ فَعَلَ ذلك كانَ دَيُّوثاً».

= فلا قوّة إلا بالله.

وفي رسالتي: «الجواب السديد لمن سأل عن حكم الدفوف والأناشيد»، تفصيلٌ مطوّل.

(١) انظر: «علل أحمد» (١/ ٢٣٨)، و«المنتقى النفيس» (ص٢٩٧)، و«مسائل عبد الله» (٤٤٩)، و«الاستقامة» (١/ ٣٨٥) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) رواه الخلّال في «الأمر بالمعروف» (١٧).

(٣) انظر: «إتحاف السادة المتقين» (٦/ ٥٠١) للزَّبيدي، و«فصل الخطاب» (١٦٣) للشيخ التُّويجري.

قال القاضي أبو الطَّيِّبِ: وإنَّما جَعلَ صاحِبَه سفيهاً؛ لأنَّهُ دعا النَّاسَ إلى الباطلِ، ومَن دعا النَّاسَ إلى الباطلِ؛ كانَ سفيهاً فاسقاً.

قالَ: «وأمَّا العودُ والطُّنبورُ وسائرُ المَلاهي؛ فحرامٌ، ومُسْتَمِعُهُ فاسقٌ، واتِّباعُ الجماعةِ أَوْلى مِن اتِّباعِ رَجُلَيْنِ مطعونٍ عليهِما».

قلتُ: يريدُ بهما إبراهيمَ بنَ سعدٍ وعبيدَ اللَّهِ بنَ الحسنِ؛ فإنَّهُ قالَ: «وما خالَفَ في الغناءِ إلا رَجُلان: إبراهيمُ بنُ سعدٍ؛ فإنَّ الساجيَّ[1] حكى عنهُ أنَّهُ كان لا يرى بِهِ بأساً، والثَّاني: عُبيدُ اللَّهِ بنُ الحسنِ العَنْبريُّ، قاضِي البصرةِ، وهو مطعونٌ فيهِ».

قال أبو بكرٍ الطُّرطوشيُّ: «وهٰذه الطَّائفةُ مخالفةٌ لجماعةِ المسلمينَ؛ لأنهُم جعلوا الغِناءَ دِيناً وطاعةً، ورأتْ إعلانَهُ في المساجِدِ والجوامعِ وسائرِ البقاعِ الشَّريفةِ والمشاهِدِ الكريمةِ، وليس في الأمَّةِ مَن رأى هٰذا الرَّأيَ.

فإقرارُ الطَّائفةِ على ذلك فِسْقٌ يقدَحُ في عَدالَةِ مَن أقرَّهُم ومَنْصبِهِ الدِّينيِّ».

وما أَحْسَنَ ما قالَ بعضُ العلماءِ[2] وقد شاهَدَ هٰذا وأفعالَهُم:

ألا قُلْ لَهُمْ قَوْلَ عَبْدٍ نَصُوحٍ ... وحَقُّ النَّصيحَةِ أنْ تُسْتَمَعْ
مَتَى عَلِمَ النَّاسُ في دِينِنا ... بأنَّ الغِنَا سُنَّةٌ تُتَّبَعْ؟
وأنْ يَأْكُلَ المَرْءُ أكْلَ الحِمَا ... رِ، ويَرْقُصَ في الجَمْعِ حَتَّى يَقَعْ
وقالُوا سَكِرْنا بحُبِّ الإلٰهِ ... وما أَسْكَرَ القَوْمَ إلَّا القِصَعْ
كَذاكَ البَهائِمُ إنْ أُشْبِعَتْ ... يُرَقِّصُها رِيُّها والشِّبَعْ
ويُسْكِرُهُ النَّايُ ثُمَّ الغِنا ... و(يس) لو تُلِيَتْ مَا انْصَدَعْ
تُهانُ مَساجِدُنا بالسَّما ... عِ وتُكْرَمُ عَنْ مِثْلِ ذاكَ البِيَعْ؟

---

(١) في «اختلاف العُلماء»؛ كما في «نزهة الأسماع» (ص٦٩).

(٢) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن نصر الموصلي، المتوفى سنة (٦١٠هـ)، وقد أورد أبياته هذه ضمن ترجمته: ابنُ كثير في «البداية والنهاية» (١٣/٦٦).

وقالَ آخرُ وأحسَنَ ما شاءَ(١):

ذَهَبَ الرِّجالُ وحَالَ دُونَ مَجالِهِم ... زُمَرٌ مِنَ الأَوْباشِ والأَنْذالِ
زَعَمُوا بأَنَّهُمُ على آثارِهِم ... سارُوا ولكِنْ سِيْرَةَ البَطَّالِ
قَطَعُوا طَرِيقَ السَّالِكِينَ وغَوَّروا ... سُبُلَ الهُدَى بِجَهالَةٍ وضَلَالِ
عَمَرُوا ظَواهِرَهُم بأثوابِ التُّقى ... وحَشَوْا بواطِنَهُم مِنَ الأَدْغالِ
إنْ قُلْتَ قالَ اللهُ قالَ رسولُهُ ... هَمَزوكَ هَمْزَ المُنْكِرِ المُتَعالي
أو قُلْتَ قَدْ قَالَ الصَّحابَةُ والأُولى ... تَبِعُوهُمُ في القَوْلِ والأَعْمَالِ
أو قُلْتَ قَالَ الآلُ آلُ المُصْطَفى ... صلَّى عليهِ اللهُ أفْضَلُ آلِ
أوْ قُلْتَ قَالَ الشَّافِعِيُّ وأحْمَدٌ ... وأبُو حَنيفَةَ والإمامُ العَالِي
أوْ قُلْتَ قَالَ صِحابُهُمْ مِنْ بَعْدِهِم ... فالكُلُّ عِنْدَهُمُ كَشِبْهِ خَيالِ
ويَقُولُ قَلْبِي قَالَ لي عَنْ سِرِّهِ ... عَنْ سِرِّ سِرِّي عَنْ صَفا أحْوالي
عَنْ حَضْرَتي عَنْ فِكْرَتي عَنْ خَلْوَتي ... عَنْ شاهِدِي عَنْ وارِدِي عَنْ حالي
عَنْ صَفْوِ وَقْتي عَنْ حَقِيقَةِ مَشْهَدِي ... عَنْ سرِّ ذَاتي عَنْ صِفاتِ فِعَالي
دَعْوَى إذا حَقَّقْتَها أَلْفَيْتَها ... أَلْقابَ زُورٍ لُفِّقَتْ بِمُحالِ
تَرَكُوا الحقائِقَ والشَّرائِعَ واقْتَدَوْا ... بِظَواهِرِ الجُهَّالِ والضُّلَّالِ
جَعَلُوا المِرا فَتْحاً وأَلْفاظَ الخَنا ... شَطْحاً وصالُوا صَوْلَةَ الإدْلالِ
نَبَذُوا كِتابَ اللهِ خَلْفَ ظُهورِهِمْ ... نَبْذَ المُسافِرِ فَضْلَةَ الأَكَّالِ
جَعَلُوا السَّماعَ مَطِيَّةً لِهَواهُمُ ... وغَلَوْا فَقالُوا فيهِ كُلَّ مُحالِ
هُو طاعَةٌ، هُو قُرْبَةٌ، هُو سُنَّةٌ ... صَدَقُوا لِذاكَ الشَّيْخِ ذِي الإضْلالِ
شَيْخٍ قَديمٍ صَادَهُم بِتَحَيُّلٍ ... حَتَّى أجابُوا دعْوَةَ المُحْتالِ
هَجَرُوا لهُ القُرآنَ والأَخْبارَ والـ ... آثارَ إذْ شَهِدَتْ لَهُمْ بِضَلالِ

---

(١) قال الشيخ حامد الفقي تعليقاً: «أنا لا أشكُّ في أن هذا القائل هو الإمام المحقِّق الربانيُّ الصادقُ ابنُ القيِّم [وهو مُصنِّفنا]، وهذا نَفَسُهُ في الشِّعر وروحه، وهذه شِكايتُه من أهل زمانه، فرحمه الله وجزاه خير الجزاء»

لا يَسْمَعُونَ سِوى الَّذي يَهْوَونَهُ   شُغلاً بهِ عَنْ سائِرِ الأشْغالِ
خَرُّوا عَلى القُرْآنِ عِنْدَ سَماعِهِ   صُمّاً وعُمْياناً ذوي إهمالِ
وإذا تَلا القَارِي عَلَيْهِمْ سُورةً   فأطالَها عَدُّوهُ في الأثْقالِ
ويَقولُ قائِلُهُم: أطَلْتَ ولَيْسَ ذا   عَشْرٌ فَخَفِّفْ أنْتَ ذُو إملالِ
هٰذا وكَمْ لَغْوٍ وكَمْ صَخَبٍ وكَمْ   ضَحِكٍ بِلا أدَبٍ ولا إجمال
حَتَّى إذا قامَ السَّماعُ لَدَيْهِمُ   خَشَعَتْ لَهُ الأصْواتُ بالإجلالِ
وامْتَدَّتِ الأعْناقُ تَسْمَعُ وَحْيَ ذَا   كَ الشَّيْخِ مِنْ مُتَرَنِّمٍ قَوّالِ
وتَحَرَّكَتْ تِلْكَ الرُّؤوسُ وهَزُّها   طَرَبٌ وأشْواقٌ لِنَيْلِ وِصالِ
فهُنالِكَ الأشْواقُ والأشْجانُ والـ   أحْوالُ لا أهْلاً بِذِي الأحْوالِ
تاللّٰهِ لو كانُوا صُحاةً أبْصَرُوا   مَاذا دَهَاهُمْ مِنْ قَبِيحِ فِعَالِ
لٰكِنَّما سُكْرُ السَّماعِ أشَدُّ مِنْ   سُكْرِ المُدَامِ[1] وذا بِلا إشْكالِ
فإذا هُما اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مَرَّةً   نَالَتْ مِنَ الخُسْرانِ كُلَّ مَنالِ
يَا أُمَّةً لَعِبَتْ بِدِينِ نَبِيِّها   كَتَلاعُبِ الصِّبْيانِ في الأوْحَالِ
أشْمَتُّموا أهْلَ الكِتابِ بِدِينِكُمْ   واللّٰهِ لَنْ يَرْضَوْا بِذِي الأفْعالِ
كَمْ ذَا نُعَيَّرُ مِنْهُمُ بِفَرِيقِكُم   سِرًّا وجَهْراً عِنْدَ كُلِّ جِدالِ؟
قَالُوا لَنا: دِينٌ عِبَادَةُ أهْلِهِ   هٰذا السَّماعُ فَذاكَ دِيْنُ مُحالِ
بَلْ لَا تَجيءُ شَرِيعَةٌ بِجَوازِهِ   فَسَلُوا الشَّرائِعَ تَكْتَفُوا بِسُؤالِ
لَوْ قُلْتُمُوا فِسْقٌ ومَعْصِيَةٌ وتَزْ   يِينٌ مِنَ الشَّيْطانِ لِلأنْذالِ
لِيَصُدَّ عَنْ وَحْيِ الإلٰه ودِينِهِ   ويَنالَ فيهِ حِيْلَةَ المُحْتالِ
كُنَّا شَهِدْنَ أنَّ ذا دِينٌ أتَى   بالحَقِّ دِيْنُ الرُّسْلِ لا بِضَلالِ
هٰذا ويشْبَهُ ذاكَ أجْمَعِهِ إلى   دِينِ الرَّسولِ ودا مِنَ الأهْوالِ
حَاشا، رَسُولُ اللّٰهِ يَحْكُمُ بالهَوَى   والجهْلِ؟! تِلْكَ حُكومَةُ الضُّلَّالِ
واللّٰهِ لَوْ عُرِضَتْ عليهِ كُلُّها   لاخْتَتَّها بالنَّقْضِ والإبطالِ

(١) الخمر.

إلَّا الَّتي منها يُوافِقُ حُكْمَهُ … فَهُو الَّذي يَلْقاهُ بالإقبالِ
أحْكامُهُ عَدْلٌ وحَقٌّ كُلُّها … في رَحْمَةٍ ومَصالِحٍ وحَلالِ
شَهِدَتْ عُقولُ الخَلْقِ قاطِبَةً بما … في حُكْمِهِ مِن صِحَّةٍ وكَمالِ
فإذا أتَتْ أحْكامُهُ ألْفَيْتَها … وَفْقَ العُقولِ تُزيلُ كُلَّ عِقالِ
حَتَّى يَقولَ السَّامِعُونَ لِحُكْمِهِ: … ما بَعْدَ هٰذا الحَقِّ غَيْرُ ضَلالِ
لِلَّهِ أحكامُ الرَّسُولِ وعَدْلُها … بينَ العِبادِ ونُورُها المُتَلالِي
كانَتْ بها في الأرضِ أعْظَمُ رحمةٍ … والنَّاسُ في سَعْدٍ وفي إقبالِ
أحكامُهُمْ تَجْري عَلى وَجْهِ السَّدا … دِ وحَالُهُم في ذاكَ أحْسَنُ حَالِ
أمْنٌ وعِزٌّ في هُدًى وتَراحُمٍ … وتَواصُلٍ ومَحَبَّةٍ وجَلالِ
فَتَغَيَّرَتْ أوضاعُها حَتَّى غَدَتْ … مَنْكُورةً بتَلَوُّثِ الأعْمالِ
فَتَغَيَّرَتْ أعمالُهُم وتَبَدَّلَتْ … أحْوالُهُمْ بالنَّقْصِ بعْدَ كَمالِ
لَوْ كانَ دِينُ اللَّهِ فيهِمْ قائِماً … لَرَأيْتَهُم في أحْسَنِ الأحْوالِ
وإذا هُمُوا حَكَمُوا بِحُكْمٍ جائِرٍ … حَكَمُوا لِمُنْكِرِهِ بِكُلِّ وَبالِ
قالُوا: أتُنْكِرُ حُكْمَ شَرْعِ مُحَمَّدٍ … حاشا لِذا الشَّرْعِ الشَّريفِ العالِي
يا بَاغِيَ الإحسانِ تَطْلُبُ رَبَّهُ … لِيَفُوزَ مِنْهُ بِغايَةِ الآمالِ
انْظُرْ إلى هَدْيِ الصَّحابَةِ والَّذي … كانُوا عَلَيْهِ في الزَّمانِ الخَالي
واسْلُكْ طريقَ القَوْمِ أيْنَ تَيَمَّمُوا … خُذْ يَمْنَةً ما الدَّرْبُ ذاتَ شِمالِ
تاللَّهِ ما اخْتارُوا لأنْفُسِهِمْ سِوى … سُبُلِ الهُدَى في القَوْلِ والأفْعالِ
دَرَجُوا عَلى نَهْجِ الرَّسُولِ وهَدْيِهِ … وبِهِ اقْتَدَوْا في سائِرِ الأحْوالِ
نِعْمَ الرَّفيقُ لِطالِبٍ يَبْغِي الهُدَى … فمَآلُهُ في الحَشْرِ خَيْرُ مَآلِ
القانِتِينَ المُخْبِتِينَ لِرَبِّهِمْ … النَّاطِقِينَ بأصْدَقِ الأقْوالِ
التَّارِكِينَ لِكُلِّ فِعْلٍ سَيِّئٍ … والعامِلِينَ بأحْسَنِ الأعْمالِ
أهْواؤهُمْ تَبَعٌ لِدِينِ نَبِيِّهِم … وسِوَاهُمُ بالضِّدِّ في ذِي الحَالِ
ما شابَهُمْ في دِينِهِمْ نَقْصٌ ولا … في قَوْلِهِمْ شَطْحُ الجَهُولِ الغَالِي
عمِلُوا بِما عَلِمُوا ولَمْ يَتَكَلَّفُوا … فلِذاكَ ما شابُوا الهُدَى بِضَلالِ

وسِواهُمْ بالضِّدِّ في الأَمْرَيْنِ قَدْ ... تَرَكُوا الهُدَى ودَعَوْا إلى الإضْلالِ
فهُمُ الأَدِلَّةُ للحَيارَى مَنْ يَسِرْ ... بِهُداهُمُ لَمْ يَخْشَ مِنْ إضْلالِ
وهُمُ النُّجومُ هِدايَةً وإضاءَةً ... وعُلُوَّ مَنْزِلَةٍ وبُعْدَ مَنالِ
يَمْشُونَ بينَ النَّاسِ هَوْناً نُطْقُهُمْ ... بالحَقِّ لا بجَهالَةِ الجُهّالِ
حِلْماً وعِلْماً مَعْ تُقًى وتواضُعٍ ... ونَصيحَةٍ مَعْ رُتْبَةِ الإفْضالِ
يُحْيُونَ لَيْلَهُمُ بطاعَةِ رَبِّهِم ... بِتِلاوَةٍ وتَضَرُّعٍ وسُؤالِ
وعُيونُهُمْ تَجْري بِفَيْضِ دُموعِهِمْ ... مِثْلَ انهمالِ الوابِلِ الهَطّالِ
في اللَّيْلِ رُهْبانٌ وعِنْدَ جِهادِهِمْ ... لِعَدُوِّهِمْ مِنْ أَشْجَعِ الأبْطالِ
بِوجوهِهِمْ أَثَرُ السُّجودِ لِرَبِّهِمْ ... وبِها أَشِعَّةُ نُورِهِ المُتَلالِي

● أَسماءُ الغِناءِ:

هذا السَّماعُ الشَّيطانيُّ المضادُّ للسَّماعِ الرَّحمانيِّ، له في الشَّرعِ بِضْعَةَ عشرَ اسماً:

اللَّهْوُ، واللَّغْوُ، والباطِلُ، والزُّورُ، والمُكاءُ، والتَّصْدِيَةُ، ورُقْيَةُ الزِّنَى، ومُنْبِتُ النِّفاقِ في القَلْبِ، والصَّوْتُ الأحْمَقُ، والصَّوْتُ الفاجِرُ، وصَوْتُ الشَّيطانِ، ومَزْمورُ الشَّيطانِ، والسُّمُودُ.

أَسْماؤُهُ دَلَّتْ عَلى أَوْصافِهِ ... تَبّاً لِذي الأَسْماءِ والأَوْصافِ

فَلنَذكُرْ مَخاريَ هٰذه الأسماء، ووقوعها عليه في كلامِ اللّٰهِ وكلامِ رسولِه، والصَّحابَةِ؛ ليَعْلَمَ أصحابُهُ وأَهْلُهُ بما به ظَفِروا، وأيَّ تجارةٍ رابحةٍ خَسِروا.

فَدَعْ صَاحِبَ المِزْمَارِ والدُّفِّ والغِنا ... وما اخْتَارَهُ عَن طَاعَةِ اللّٰهِ مَذْهَبا
ودَعْهُ يَعِشْ فِي غَيِّهِ وضَلالِهِ ... عَلى تَاتِنَا يَحْيَى ويُبْعَثُ أَشْيَبا

● فالاسمُ الأوَّلُ: اللَّهْوُ، ولَهْوُ الحديثِ:

قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا

كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ [لقمان: ٦، ٧].

قالَ الواحِدِيُّ وغيرُه: «أكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بلَهْوِ الحديث: الغِناءُ، قالَه ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ سعيدِ بنِ جُبيرٍ ومِقْسَمٍ عنهُ، وقالَه عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ في روايةِ أبي الصَّهباءِ عنهُ.

وهو قولُ مجاهدٍ وعِكْرِمَةَ»[1].

وقالَ: أكثرُ ما جَاءَ في التَّفسيرِ أنَّ لَهْوَ الحَديثِ ها هُنا هُو الغِناءُ؛ لأنَّهُ يُلْهِي عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تعالى.

قالَ الواحِدِيُّ: قالَ أَهْلُ المعاني: ويدخُلُ في هٰذا كُلُّ مَن اختارَ اللَّهْوَ والغِناءَ والمزاميرَ والمعازِفَ على القُرآنِ، وإنْ كانَ اللَّفظُ قَدْ وَرَدَ بالشِّراءِ، فَلَفْظُ الشِّراءِ يُذْكَرُ في الاستبدالِ، والاختيارِ، وهو كثيرٌ في القرآنِ، ويدلُّ على هٰذا ما قالَهُ قَتادَةُ في هٰذه الآيةِ: «لعَلَّهُ أنْ لا يكونَ أنْفَقَ مالاً».

قالَ: «وبِحَسْبِ المرءِ مِن الضَّلالَةِ أنْ يختارَ الباطلَ على حَديثِ الحقِّ».

قالَ الواحِدِيُّ: «وهٰذه الآيةُ على هٰذا التفسيرِ تدلُّ على تحريمِ الغناءِ».

قالَ الحاكِمُ أبو عبدِ اللَّهِ في التَّفسيرِ من كتابِ «المُسْتَدْرَكِ»[2]: «لِيَعْلَمَ طالِبُ هٰذا العلمِ أنَّ تفسيرَ الصَّحابيِّ الذي شَهِدَ الوَحْيَ والتَّنزيلَ عندَ الشَّيْخَيْنِ: حَديثٌ مُسْنَدٌ».

وهٰذا، وإنْ كانَ فيهِ نظرٌ، فلا ريبَ أنَّهُ أولى بالقَبولِ مِن تفسيرِ مَن بَعْدَهُم، فهُم أَعْلَمُ الأمَّةِ بمُرادِ اللَّهِ ﷻ مِن كتابِه، فعليهِمْ نَزَلَ، وهُم أوَّلُ مَن خوطِبَ بهِ مِنَ الأمَّةِ، وقد شاهَدُوا تفسيرَهُ مِن الرَّسولِ ﷺ عِلْماً وعَمَلاً، وهُمُ العَرَبُ الفُصحاءُ على الحقيقةِ، فلا يُعْدَلُ عنْ تفسيرِهِمْ ما وُجِدَ إليهِ سبيلٌ.

إذا عُرِفَ هٰذا؛ فأَهْلُ الغِناءِ ومُسْتَمِعوهُ لهُم نَصيبٌ مِن هٰذا الذَّمِّ، بحسبِ

(١) وهي آثارٌ حَسنةٌ عنهم، انظر: تخريجها في «المنتقى النفيس» (ص٣٠٣).

(٢) (٢/٢٥٨).

اشتغالِهِم بالغناءِ عنِ القرآنِ، وإنْ لم ينالوا جَميعَهُ، فإنَّ الآياتِ تضمَّنَتْ ذَمَّ مَن استَبْدَلَ لهْوَ الحَديثِ بالقرآنِ لِيُضِلَّ عن سَبيلِ اللّهِ بغيرِ علمٍ ويَتَّخِذَها هُزواً، وإذا يُتْلَى عليهِ القُرآنُ ولَّى مُسْتَكْبِراً كأنْ لم يَسْمَعْهُ كأنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً ـ وهو الثِّقَلُ والصَّمَمُ ـ وإذا عَلِمَ منهُ شيئاً؛ استهزأَ بِهِ.

فمجموعُ هذا لا يَقَعُ إلَّا مِنْ أعظَمِ النَّاسِ كُفراً، وإنْ وَقَعَ بعضُهُ للمغنِّينَ ومُستمعِيهِم، فلهُم حِصَّةٌ ونصيبٌ مِن هٰذا الذَّمِّ.

يوضِّحُهُ أنَّكَ لا تجِدُ أحداً عُنِيَ بالغناءِ وسماعِ آلاتِهِ؛ إلَّا وفيهِ ضلالٌ عَن طريقِ الهُدى؛ عِلْماً وعَمَلاً، وفيهِ رغبَةٌ عَنِ استماعِ القرآنِ إلى استماعِ الغِناءِ، بحيثُ إذا عَرَضَ لهُ سماعُ الغِناءِ وسماعُ القُرآنِ؛ عَدَلَ عن هٰذا إلى ذاكَ، وثَقُلَ عليهِ سماعُ القُرآنِ، وربَّما حَمَلَهُ الحالُ على أنْ يُسْكِتَ القارئَ ويستَطيلَ قراءَتَهُ، ويستزيدَ المغنِّيَ، ويستَقْصِرَ نَوْبَتَهُ، وأقلُّ مَا في هٰذا أنْ يَنالَهُ نصيبٌ وافِرٌ مِن هٰذا الذَّمِّ إنْ لم يَحْظَ بِهِ جَميعَهُ.

والكلامُ في هٰذا مَع مَنْ في قلبِهِ بعضُ حياةٍ يُحِسُّ بها. فأمَّا مَن ماتَ قَلْبُه، وعَظُمَتْ فِتْنَتُه؛ فقد سَدَّ على نفسِهِ طَريقَ النَّصيحَةِ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

● الاسمُ الثاني والثالثُ: الزُّورُ واللَّغْوُ:

قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قالَ محمَّدُ ابنُ الحَنَفِيَّةِ: «الزُّورُ ها هُنا: الغِناءُ».

وقالَهُ ليثٌ عن مجاهِدٍ.

واللَّغْوُ في اللغةِ: كُلُّ ما يُلْغَى ويُطْرَحُ.

والمعنى: لا يَحْضُرونَ مجالِسَ الباطلِ، وإذا مرُّوا بكلِّ مَا يُلْغَى مِن قولٍ وعَمَلٍ؛ أكْرَموا أنْفُسَهُم أنْ يَقِفُوا عليهِ أوْ يَميلوا إليهِ.

ويَدْخُلُ في هٰذا أعيادُ المُشْرِكينَ؛ كما فسَّرَها بهِ السَّلَفُ، والغِناءُ، وأنواعُ الباطِلِ كُلِّها.

قالَ الزَّجَّاجُ: «لا يُجالِسونَ أهلَ المَعاصي، ولا يُمالِؤونَهُم عليها، ومَرُّوا مَرَّ الكرامِ الذينَ لا يَرْضَوْنَ باللَّغْوِ؛ لأنَّهُم يُكْرِمونَ أنْفُسَهُم عنِ الدُّخولِ فيهِ، والاختلاطِ بأهْلِهِ».

وقد أثْنى اللَّهُ سبحانَهُ على مَنْ أعْرَضَ عنِ اللَّغْوِ إذا سمِعَهُ بقولِه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥].

وهٰذه الآيةُ وإنْ كانَ سَبَبُ نُزولِها خاصّاً[١]؛ فمعناها عامٌّ[٢] مُتناولٌ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَ لَغواً فأَعْرَضَ عنهُ، وقالَ بِلسانِهِ أو بقَلْبِهِ لأصحابِهِ: «**لَنا أعْمالُنا ولَكُمْ أعْمالُكُم**»[٣].

◘ الاسمُ الرَّابعُ: الباطِلُ:

والباطِلُ: ضِدُّ الحقِّ، يُرادُ بهِ المعدومُ الذي لا وُجودَ لهُ، والموجودُ الذي مَضَرَّةُ وجودِهِ أكثرُ مِن منفَعَتِهِ.

فمِنَ الأوَّلِ: قولُ الموحِّدِ: كلُّ إلٰهٍ سوى اللّٰه باطلٌ.

ومِن الثاني قولُه: السِّحْرُ باطلٌ، والكُفْرُ باطلٌ.

قالَ تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فالباطِلُ إمَّا معدومٌ لا وجودَ لهُ، وإمَّا موجودٌ لا نَفْعَ لهُ، فالكُفْرُ

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٧).

(٢) وقد قال أهلُ العلم: «العِبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب»؛ كما كنتُ علّقتُه في رسالتي «حكم الدين في اللحية والتدخين» (ص٤١).

(٣) وهٰذا يعدُّ من أهمِّ حصائص دين الله سبحانه، ألا وهو التميُّز والمفاصلة، فليكن أهل السنَّة وأصحاب الحق على بيِّنةٍ منه، حتى لا تختلط مفاهيمهم، وترتكس علاقاتُهم!

والفُسوقُ والعِصْيانُ والسِّحْرُ والغِناءُ واستماعُ المَلاهِي؛ كلُّهُ مِن النَّوْعِ الثَّاني.

وقالَ رجلٌ لابنِ عبَّاسٍ ﵄: ما تَقُولُ في الغِناءِ: أحلالٌ هُو أم حرامٌ؟

فقالَ: لا أَقولُ حَراماً إلَّا ما في كِتابِ اللّٰهِ.

فقالَ: أفحلالٌ هُو؟

فقالَ: ولا أقولُ ذٰلك.

ثمَّ قالَ لهُ: أرأَيْتَ الحقَّ والباطلَ إذا جاءا يومَ القيامَةِ، فأينَ يكونُ الغِناءُ؟

فقالَ الرَّجُلُ: يكونُ معَ الباطِلِ.

فقالَ لهُ ابنُ عبَّاسٍ: اذْهَبْ؛ فقد أفْتَيْتَ نَفْسَكَ.

فهٰذا جوابُ ابنِ عبَّاسٍ ﵄ عن غِناءِ الأعرابِ، الَّذي ليس فيهِ مَدْحُ الخمرِ والزِّنا واللِّواطِ، والتَّشبيبُ بالأجْنبيَّاتِ، وأصواتُ المعزِفِ والآلاتِ المطرباتِ.

فإنَّ غِناءَ القومِ لم يَكُنْ فيهِ شيءٌ مِن ذٰلك، ولو شاهَدُوا هٰذا الغِناءَ لقالوا فيهِ أعظمُ قولٍ، فإنَّ مَضَرَّته وفتْنَتَهُ فوقَ مضرَّة شُرْبِ الخمرِ بكثيرٍ، وأعظمُ مِن فِتْنَتِه.

فمِن أبْطلِ الباطِلِ أنْ تأْتِيَ شريعةٌ بإباحَتِه، فمَنْ قاسَ هٰذا على غِناءِ القومِ، فقياسُهُ مِن جِنْسِ قِياسِ الرِّبا على البَيْعِ، والميتةِ على المُذَكَّاةِ، والتَّحليلِ الملعونِ فاعِلُهُ[1] على النِّكاحِ الَّذي هُو سنَّةُ رسولِ الله ﷺ، وهو أفْضَلُ مِن التَّخَلِّي لنوافِلِ العبادَةِ، فلو كانَ نِكاحُ التَّحليلِ جائزاً في الشَّرْعِ؛ لكانَ أفضلَ مِن قيامِ اللَّيلِ، وصيامِ التَّطوُّعِ، فضلاً أنْ يُلْعَنَ فاعِلُه.

---

(١) انظر: ما سيأتي (ص٢٧٤ و٢٩٦).

● وأمَّا اسمُ المُكاءِ والتَّصْدِيةِ:

فقالَ تعالى عَنِ الكُفَّارِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمَر، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والحسنُ، وقَتادَةُ: «المُكاءُ: الصَّفيرُ، والتَّصْدِيَةُ: التَّصفيقُ».

وكذلك قالَ أَهْلُ اللغةِ: المُكاءُ: الصَّفيرُ.

وأمَّا التَّصدِيَةُ؛ فهي في اللغةِ: التَّصفيقُ.

قالَ حسَّانُ بنُ ثابتٍ يَعيبُ المشْرِكينَ بصفيرِهِم وتَصْفيقِهِم:

إذا قَامَ المَلائِكَةُ انْبَعَثْتُم صَلاتُكُمُ التَّصَدِّي والمُكاءُ

وهكذا الأشباهُ[1]، يكونُ المسلمونَ في الصَّلواتِ الفرضِ والتَّطوُّعِ، وهُم في الصَّفيرِ والتَّصفيقِ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «كانتْ قريشٌ يطوفونَ بالبيتِ عُراةً، ويُصَفِّرونَ ويُصَفِّقونَ».

قالَ ابنُ عَرَفَة وابنُ الأنباريِّ: «المكاءُ والتَّصْدِيَةُ ليسا بصلاةٍ[2]، ولكنَّ اللَّهَ تعالى أَخبَرَ أَنَّهُم جَعَلوا مَكانَ الصَّلاةِ التي أُمِرُوا بها: المُكاءَ والتَّصْدِيَةَ، فألْزَمَهُم ذلك عظيمَ الأوزارِ، وهذا كقولِك: زُرْتُهُ، فجَعَلَ جَفائي صِلَتي، أيْ: أقامَ الجفاءَ مقامَ الصِّلَةِ.

---

(١) أي: أشباه المشركين.

(٢) قال الشيخ محمد حامد الفقي تعليقاً: «ليسا بصلاةٍ عند الله حقيقةً، وإنما سمَّاهما الله صلاةً؛ لأنهم كانوا يفعلونهما في حركاتهم المُوقَّعة على نَغَم التصفيق والصفير، ويقصدون بذلك القُرْبَة إلى الله، فعاب الله عليهم ذلك، وذمَّهم، وبيَّن أنه لا يحبُّ ذلك، ولا يجزيهم عليه إلا العذاب الأليم.
وذلك مثل حَلَقات المتصوفة في زمننا سواء بسواء؛ حركات ورقص على أنغام الصفير والتصفيق، زيَّن لهم هواهم المستحكم وجهلُهم وشياطينُهم من الجن والإنسان أنه ذكر لله وعبادةٌ! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً»

والمقصودُ: أنَّ المصفِّقينَ والصَّفَّارينَ في يَراعٍ أو مِزْمارٍ ونحوه فيهم شَبَهٌ مِن هٰؤلاءِ، ولو أنَّهُ مجرَّدُ الشَّبَهِ الظَّاهِرِ، فلهُم قِسْطٌ مِن الذَّمِّ، بحسبِ تشبُّهِهِمْ بهِم، وإنْ لم يَتَشَبَّهُوا بهِم في جَميعِ مُكائِهِم وتَصْدِيَتِهِم.

واللَّهُ سُبحانَهُ لَمْ يَشْرَعِ التَّصْفيقَ للرِّجالِ وَقْتَ الحاجَةِ إليهِ في الصَّلاةِ إذا نابَهُمْ أمرٌ، بل أُمِرُوا بالعُدولِ عنهُ إلى التَّسبيحِ؛ لئلَّا يَتَشَبَّهوا بالنِّساءِ، فكيفَ إذا فَعلوهُ لا لحاجةٍ، وقَرَنُوا بهِ أنواعاً مِن المَعاصي قَوْلاً وفِعْلاً؟

◌ وأمَّا تسمِيَتُهُ رُقْيَةَ الزِّنى:

فهُو اسمٌ مُوافِقٌ لمسمَّاهُ، ولفظٌ سابِقٌ لمعناهُ، فليس في رُقَى الزِّنى أَنْجَعُ منهُ، وهٰذه التَّسميةُ معروفةٌ عَنِ الفُضَيْلِ بنِ عِياضٍ، قالَ: «الغِناءُ رُقْيَةُ الزِّنى».

وقالَ يَزيدُ بنُ الوليدِ: «يا بَني أُمَيَّةَ! إيَّاكُمْ والغِناءَ؛ فإنَّهُ يُنْقِصُ الحياءَ، ويهْدِمُ المروءةَ، وإنَّهُ لَيَنوبُ عنِ الخمرِ، ويفْعَلُ ما يفعَلُ السُّكْرُ، فإنْ كُنْتُم لا بدَّ فاعِلينَ؛ فجَنِّبوهُ النِّساءَ، فإنَّ الغِناءَ داعِيَةُ الزِّنى».

وعن محمَّدِ بنِ الفَضْلِ الأزْدِيِّ قالَ: نَزَلَ الحُطَيْئَةُ برجلٍ مِن العربِ، ومعهُ ابنتُهُ مُلَيْكَةُ، فلمَّا جَنَّهُ الليلُ سَمِعَ غِناءً، فقالَ لصاحِبِ المنزلِ: كُفَّ هذا عَنِّي، فقالَ: وما تكْرَهُ مِن ذٰلك؟ فقالَ: أنَّ الغِناءَ رائدٌ مِن رَادَةِ الفُجورِ، ولا أُحِبُّ أنْ تَسْمَعَهُ هٰذه ـ يعني: ابنَتَهُ ـ، فإن كَفَفْتَهُ وإلَّا خَرَجْتُ عنكَ.

فإذا كانَ هٰذا الشَّاعِرُ المفتونُ اللسانِ الذي هَابَتِ العربُ هِجاءَهُ خافَ عاقِبَةَ الغِناءِ، وأنْ تَصِلَ رُقْيَتُهُ إلى حُرْمَتِه، فما الظَّنُّ بغيرِه؟!

ولا ريبَ أنَّ كُلَّ غيورٍ يُجنِّبُ أهْلَهُ سماعَ الغِناءِ؛ كما يُجَنِّبُهُنَّ أسبابَ الرِّيَبِ، ومَن طَرَّقَ أَهْلَهُ إلى سماعِ رُقْيَةِ الزِّنى فهُو أَعْلَمُ بالإثْمِ الذي يستَحِقُّهُ.

فَلَعَمْرُ اللَّهِ كَم مِن حُرَّةٍ صارَتْ بالغِناءِ مِن البَغايا!

وكَمْ مِنْ حُرٍّ أصبَحَ بهِ عبداً للصِّبيانِ أو الصَّبايا!

وكَمْ مِنْ غَيورٍ تَبَدَّلَ بهِ اسماً قَبيحاً بينَ العَرايا!

وكمْ مِنْ ذِي غِنًى وثروةٍ أصبحَ بسببِهِ على الأرضِ بعدَ المطارِفِ والحَشايا!

وكم مِن مُعافًى تعرَّضَ لهُ، فأمسى، وقد حَلَّتْ بِهِ أنواعُ البلايا!

وكم أهْدى للمشغوفِ بهِ مِن أشجانٍ وأحزانٍ، فلم يَجِدْ بُدًّا مِن قَبولِ تِلكَ الهَدايا!

وكَمْ جَرَّعَ مِن غُصَّةٍ وأزالَ مِن نِعْمَةٍ، وجَلَبَ مِن نَقْمَةٍ، وذلك مِنهُ مِن إحدى العطايا!

وكم خبَّأَ لأهْلِهِ مِن آلامٍ مُنْتَظَرةٍ، وغُمومٍ متوقَّعةٍ، وهمومٍ مستقْبَلَةٍ!

فَسَلْ ذا خِبْرَةٍ يُنْبِيكَ عَنْهُ ... لِتَعْلَمَ كَمْ خَبايا في الزَّوايا
وحَاذِرْ إنْ شُغِفْتَ بِهِ سِهاماً ... مُرَيَّشَةً بأهْدابِ المَنايا
إذا مَا خَالَطَتْ قَلْباً كَئيباً ... تَمَزَّقَ بينَ أطباقِ الرَّزايا
ويُصْبِحُ بَعْدَ أنْ قد كانَ حُرًّا ... عَفيفَ الفَرْجِ عَبْداً للصَّبايا

• وأمّا تسمِيَتُه مُنْبِتَ النِّفاقِ:

فقد قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ قالَ: «الغِناءِ يُنْبِتُ النِّفاقَ في القَلْبِ كَما يُنْبِتُ الماءُ الزَّرْعَ».

وقالَ شُعبةُ: حَدَّثَنا الحَكَمُ عن حَمّادٍ عن إبراهيمَ، قالَ: قالَ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ: «الغِناءُ يُنْبِتُ النِّفاقَ في القَلْبِ»[1].

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» (١٠/ ٢٢٣).
وهو كما قال المصنِّف ـ بعدُ ـ.
ورواية إبراهيم عن ابن مسعود بـ(قال) محمولةٌ على السماع من غير واحد؛ كما في «تهذيب التهذيب» (٩/ ١٧٧ ـ ١٧٨).
وحمّاد: هو ابن أبي سليمان: فيه ضعفٌ.
لكنّه متابعٌ ـ كما في «السنن» أيضاً ـ بسند منقطع.
وله طُرقٌ أخرى منقطعةٌ.

وهو صحيحٌ عنِ ابنِ مسعودٍ مِن قولِه، وقد رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ مرفوعاً[١].

فمدارُهُ على شيخٍ مجهولٍ، وفي رَفْعِهِ نَظَرٌ، والموقوفُ أصحُّ.

فإنْ قيلَ: فما وجْهُ إنباتِه للنِّفاقِ في القَلْبِ مِن بينِ سائرِ المعاصي؟

قيلَ: هٰذا مِن أدَلِّ شيءٍ على فِقْهِ الصَّحابَةِ في أحوالِ القُلوبِ، وأعمالِها، ومعرِفَتِهم بأدْوِيَتِها وأدوائِها، وأنَّهُم هُم أطبَّاءُ القلوبِ، دونَ المنْحَرِفينَ عن طريقَتِهم، الذينَ داوَوْا أمراضَ القُلوبِ بأعْظَمِ أدوائِها، فكانُوا كالمُداوي مِن السَّقمِ بالسُّمِّ القاتِلِ.

وهٰكذا واللّٰهِ فَعَلوا بكثيرٍ مِن الأدويةِ التي ركَّبوها، أو بأكثرِها، فاتَّفَقَ قِلَّةُ الأطِبَّاءِ، وكثرةُ المَرْضى، وحدوثُ أمراضٍ مُزْمِنَةٍ لم تَكُنْ في السَّلَفِ، والعُدولُ عن الدَّواءِ النَّافِعِ، الذي رَكَّبَهُ الشَّارِعُ، ومَيْلُ المريضِ إلى ما يُقَوِّي مادَّةَ المرضِ، فاشتَدَّ البلاءُ، وتفاقَمَ الأمْرُ، وامتلأتِ الدُّورُ والطُّرُقاتُ والأسواقُ مِن المَرْضى، وقامَ كُلُّ جَهُولٍ يَطَبَّبُ النَّاسَ[٢].

فاعْلَمْ أنَّ للغناءِ خواصَّ لها تأْثيرٌ في صَبْغِ القلبِ بالنِّفاقِ، ونباتِه فيهِ كنباتِ الزَّرْعِ بالماءِ.

فمِن خَواصِّهِ: أنَّهُ يُلْهي القَلْبَ ويَصُدُّهُ عن فَهْمِ القُرآنِ وتَدَبُّرِهِ، والعَمَلِ بما فيهِ؛ فإنَّ القرآنَ والغناءَ لا يجتمِعانِ في القلبِ أبداً؛ لما بينَهُما مِن التَّضادِّ؛ فإنَّ القرآنَ يَنْهى عنِ اتِّباعِ الهَوى، ويأْمُرُ بالعِفَّةِ، ومُجانبةِ شَهواتِ النُّفوسِ، وأسبابِ الغَيِّ، ويَنْهى عنِ اتِّباعِ خُطواتِ الشَّيْطانِ. والغناءُ يأْمُرُ بضدِّ ذٰلك

= وقال ابن رجب في «نزهة الأسماع» (ص٤٢): «والموقوفُ أشبهُ».

(١) رواه: أبو داود (٤٩٢٧)، والبيهقي (١٠/٢٢٣). ولا يصحُّ.
وانظر: «التلخيص الحبير» (٤/١٩٩)، و«تخريج الإحياء» (٢/٢٨٣).

(٢) وكذا اليوم؛ قام أدعياءُ الدعوة بحملها وهم دونَها؛ حرصاً على الزعامة، وحبًّا في المناصب، ورغبةً في الصِّيتِ وانتشار الذِّكرِ!

كلِّهِ، ويُحَسِّنُهُ، ويُهَيِّجُ النُّفوسَ إلى شَهواتِ الغَيِّ، فَيُثيرُ كامِنَها، ويُزْعِجُ قاطِنَها، ويُحرِّكُها إلى كُلِّ قبيحٍ، ويسوقُها إلى وَصْلِ كلِّ مَليحةٍ ومَليحٍ.

فبينا تَرى الرَّجُلَ وعليهِ سِمَةُ الوَقارِ وبَهاءُ العقلِ، وبهجةُ الإيمانِ، ووقارُ الإسلامِ، وحلاوةُ القرآنِ، فإذا استَمَعَ الغناءَ ومالَ إليهِ نَقَصَ عقلُه، وقلَّ حياؤُهُ، وذَهَبَتْ مروءَتُه، وفارَقَهُ بهاؤُهُ، وتَخَلَّى عنهُ وَقارُهُ، وفَرِحَ بهِ شيطانُهُ، وشكا إلى اللَّهِ تعالى إيمانُهُ، وثَقُلَ عليهِ قرآنُه، وقالَ: يا رَبِّ! لا تَجْمَعْ بيني وبينَ قرآنِ عَدُوِّكَ في صدرٍ واحدٍ، فاستَحْسَنَ ما كانَ قبلَ السَّماعِ يَسْتَقْبِحُهُ، وأَبْدَى مِن سِرِّهِ ما كانَ يكتُمُهُ، وانتَقَلَ مِن الوَقارِ والسكينَةِ إلى كثرةِ الكلامِ والكذبِ، والزَّهْزَهَةِ والفَرْقَعَةِ بالأصابعِ، فيميلُ برأسِهِ، ويَهُزُّ مَنْكِبَيْهِ، ويضرِبُ الأرضَ برجْلَيْهِ، ويدقُّ على أُمِّ رأسِهِ بيديهِ، ويثِبُ وَثباتِ الدِّبابِ، ويَدُورُ دورانَ الحمارِ حولَ الدُّولابِ، ويُصَفِّقُ بيديهِ تصفيقَ النِّسوانِ، ويَخورُ مِنَ الوَجْدِ ولا كَخُوارِ الثِّيرانِ، وتارةً يتأوَّهُ تأَوُّهَ الحزينِ، وتارةً يَزْعَقُ زَعَقاتِ المجانينِ.

وقالَ بعضُ العارِفينَ: السَّماعُ يُورِثُ النِّفاقَ في قومٍ، والعِنادَ في قومٍ، والكَذِبَ في قومٍ، والفجورَ في قومٍ، والرُّعونَةَ في قومٍ.

وأكثرُ ما يورِثُ عِشْقَ الصُّوَرِ، واستحسانَ الفواحِشِ، وإدمانُهُ يُثْقِلُ القرآنَ على القلبِ، ويُكَرِّهُهُ إلى سماعِهِ بالخاصِّيَّةِ، وإِنْ لم يَكُنْ هٰذا نِفاقاً؛ فما للنِّفاقِ حقيقةٌ؟!

وسِرُّ المسألةِ أَنَّ أَساسَ النِّفاقِ أَنْ يُخالِفَ الظّاهِرُ الباطنَ، وصاحِبُ الغِناءِ بينَ أمرينِ:

إمَّا أَنْ يتهتَّكَ فيكونَ فاجِراً.

أو يُظْهِرَ النُّسُكَ فيكونَ منافِقاً.

فإنَّهُ يُظْهِرُ الرَّغبةَ في اللَّهِ والدَّارِ الآخرةِ وقلبُهُ يَغْلي بالشَّهَواتِ، ومحبَّةِ ما يكرَهُهُ اللَّهُ ورسولُهُ، مِن أصواتِ المعازِفِ، وآلاتِ اللَّهْوِ، وما يَدْعو إليهِ الغِناءُ

ويُهَيِّجُهُ، فقلبُهُ بذٰلك معمورٌ، وهُو مِن محبَّةِ ما يحبُّهُ اللَّهُ ورسولُهُ وكراهةِ ما يكرهُهُ قَفْرٌ.

وهٰذا مَحْضُ النِّفاقِ.

وأيضاً؛ فإنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، قولٌ بالحقِّ، وعملٌ بالطَّاعَةِ، وهٰذا يَنْبُتُ على الذِّكْرِ، وتلاوةِ القرآنِ، والنِّفاقُ قولُ الباطلِ، وعملُ البَغْيِ، وهٰذا يَنْبُتُ على الغِناءِ.

وأيضاً؛ فمِن علاماتِ النِّفاقِ: قِلَّةُ ذِكْرَ اللَّهِ، والكسلُ عند القيامِ إلى الصَّلاةِ، ونَقْرُ الصَّلاةِ، وقَلَّ أنْ تَجِدَ مفتوناً بالغناءِ إلَّا وهٰذا وصْفُهُ.

وأيضاً؛ فإنَّ النِّفاقَ مؤسَّسٌ على الكَذِبِ، والغِناءُ مِنْ أكذبِ الشِّعْرِ؛ فإنَّهُ يُحَسِّنُ القبيحَ، ويزيِّنُه، ويأْمُرُ بِهِ، ويُقَبِّحُ الحسنَ، ويُزهِّدُ فيه، وذٰلك عَيْنُ النِّفاقِ.

وأيضاً؛ فإنَّ النِّفاقَ غِشٌّ ومَكْرٌ وخِداعٌ، والغناءُ مؤسَّسٌ على ذٰلك.

وكَتَبَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى مؤدِّبِ ولدِه: «ليكُنْ أوَّلَ ما يعتقدونَ مِن أَدَبِكَ بُغْضُ المَلاهي، التي بَدْؤها من الشَّيطانِ، وعاقِبَتُها سَخَطُ الرَّحمٰنِ؛ فإنَّهُ بَلَغني عنِ الثِّقاتِ مِن أهْلِ العلمِ أنَّ صوتَ المعازفِ، واستماعَ الأغاني، واللَّهَجَ بها، يُنْبِتُ النِّفاقَ في القلبِ كما يَنْبُتُ العُشْبُ على الماءِ»[١].

فالغِناءُ يُفْسِدُ القلبَ، وإذا فَسَدَ القلبُ؛ هاجَ فيهِ النِّفاقُ.

وبالجملةِ، فإذا تأمَّلَ البصيرُ حالَ أهلِ الغِناءِ، وحالَ أَهْلِ الذِّكْرِ والقرآنِ، تَبَيَّنَ لهُ حِذْقُ الصَّحابَةِ ومعرفَتُهُم بأدواءِ القلوبِ وأدْوِيتِها.

وباللّٰهِ التَّوفيقُ.

---

(١) رواه الآجُرِّي في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (٦٢) بسند حسن.

- وأما تَسْمِيَتُهُ بالصَّوْتِ الأحْمَقِ والصَّوْتِ الفاجِرِ:

فهي تسميةُ الصَّادِقِ المصدوقِ، الذي لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى.

فروى التِّرمِذِيُّ(١) مِن حديثِ ابنِ أبي لَيْلى عن عطاءٍ عن جابرٍ ﷺ قالَ: «خَرَجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ معَ عبدِ الرحمٰنِ بنِ عوفٍ إلى النَّخْلِ، فإذا ابنُهُ إبراهيمُ يَجودُ بنَفْسِهِ، فوَضَعَهُ في حِجْرِهِ، ففاضَتْ عيناهُ، فقالَ عبدُ الرحمٰنِ: أتبْكي وأنْتَ تَنْهى النَّاسَ؟ قالَ: «إنِّي لم أنْهَ عنِ البُكاءِ، وإنَّما نَهَيْتُ عن صوتَيْنِ أحْمَقَيْنِ فاجِرَيْنِ: صوتٍ عندَ نَغْمَةٍ: لهوٍ، ولَعِبٍ، ومَزاميرِ شَيْطانٍ، وصوتٍ عندَ مُصيبةٍ: خَمْشِ وُجوهٍ، وشَقِّ جُيوبٍ، ورَنَّةٍ، وهٰذا هو رحمةٌ، ومَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ، لولا أنَّهُ أمْرٌ حَقٌّ، ووعْدُ صِدْقٍ، وأنَّ آخِرَنا سَيَلْحَقُ أوَّلَنا؛ لَحَزِنَّا عليكَ حُزْناً هو أشدُّ مِن هٰذا، وإنَّا بكَ لَمَحْزونونَ، تَبْكي العينُ، ويَحْزَنُ القلبُ، ولا نَقولُ ما يُسْخِطُ الرَّبَّ».

فانْظُرْ إلى هٰذا النَّهْيِ المؤكَّدِ بتسمِيَتِه صوتَ الغِناءِ صوتاً أحْمَقَ، ولم يَقْتَصِرْ على ذٰلك، حتى وَصَفَهُ بالفُجورِ، ولم يقتَصِرْ على ذٰلك، حتّى سمّاهُ مِن مزاميرِ الشَّيْطانِ.

وقد أقرَّ النبيُّ ﷺ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ على تسميةِ الغناءِ مَزمورَ الشَّيطانِ في الحديثِ الصَّحيحِ؛ كما سيأتي؛ فإنْ لم يُسْتَفِدِ التَّحريمُ مِن هذا لم نَسْتَفِدْهُ مِن نَهْيٍ أبداً.

وقد اخْتُلِفَ في قولِهِ: «لا تَفْعَلْ»، وقولِهِ: «نُهيْتُ عن كَذا»؛ أيُّهما أبلَغُ في التَّحريمِ؟

والصَّوابُ بلا ريبٍ: أنَّ صيغَةَ «نُهيتُ» أبلغُ في التَّحريمِ؛ لأنَّ «لا تَفْعلْ» يَحْتمِلُ النَّهْيَ وغيرَهُ؛ بخلافِ الفعلِ الصَّريحِ(٢).

---

(١) برقم (١٠٠٥)، وهو حديث حسن، وانظر تخريجه وشواهده موسّعة في تعليقي على «أربعي الآجُرِّي» (رقم ٣٦)، نشر دار عمار.

(٢) انظر «بدائع الفوائد» (٤/٤ ـ ٥) للمصنِّف، ففيه زيادةُ فائدةٍ.

فكيفَ يستجيزُ العارِفُ إباحَةَ ما نَهى عنهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وسمَّاهُ صوتاً أحْمَقَ فاجراً، ومزمورَ الشَّيطانِ، وجَعَلَهُ والنِّياحَةَ التي لَعَنَ فاعِلَها أخَوَيْنِ؟ وأخرجَ النَّهْيَ عنهُما مخرجاً واحداً، ووصَفَهُما بالحُمْقِ والفُجورِ وصفاً واحداً.

• وأمَّا تَسميتُه صوتَ الشَّيطانِ:

فقد قالَ تعالى للشَّيطانِ وحِزْبِهِ: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٣، ٦٤].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ؛ قالَ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾؛ قالَ: «كُلُّ داعٍ إلى معصيةٍ».

ومن المَعْلومِ أنَّ الغِناءَ مِنْ أعظمِ الدَّواعي إلى المعصيةِ، ولهٰذا فُسِّرَ صوتُ الشَّيطانِ بِهِ.

وعن مُجاهِدٍ قالَ: «﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾: استَزِلَّ مِنهُمْ مَن اسْتَطَعْتَ».

قالَ: «وصوتُهُ الغِناءُ، والباطِلُ».

وعنِ الحسنِ البصريِّ؛ قالَ: «صوتُهُ هو الدُّفُّ».

• وأمَّا تسمِيَتُهُ مَزمورَ الشَّيطانِ:

ففي «الصَّحيحَيْنِ»[(١)] عن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: «دَخلَ عليَّ النبيُّ ﷺ وعندي جاريتانِ تُغَنِّيانِ بغِناءِ بُعاثٍ[(٢)]، فاضطَجَعَ على الفِراشِ، وحَوَّلَ وَجْهَهُ، ودَخلَ أبو بكرٍ رضي الله عنه فانْتَهَرَني، وقالَ: مِزْمارُ الشَّيطانِ عندَ النبيِّ ﷺ؟! فأقْبل

(١) انظر: «المنتقى النفيس»، ص(٢٩٣) وتعليقي عليه.
(٢) انظر: «معجم البلدان» (١/ ٤٥١)، وكذا رسالتي «أحكام العيدين» (ص٨ ـ ٩).

عليهِ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فقالَ: «دَعْهُما»(١). فلمَّا غَفَلَ غَمَزْتُهُما فخَرَجَتا».

فلمْ يُنْكِرْ رسولُ اللَّهِ ﷺ على أبي بكرٍ تسمِيَةَ الغِناءِ مِزْمارَ الشَّيطانِ، وأقرَّهما؛ لأنهما جاريتانِ غيرُ مكلَّفَتَينِ تُغَنِّيانِ بغِناءِ الأعرابِ، الذي قيلَ في يومِ حَرْبِ بُعاثٍ مِن الشَّجاعةِ والحربِ، وكانَ اليومُ يومَ عيدٍ.

فتوسَّعَ حِزْبُ الشَّيطانِ في ذٰلك إلى صوتِ امرأةٍ جميلةٍ أجنبيَّةٍ، أو صبيٍّ أمْرَدَ صوتُه فُتْنَةٌ، وصورَتُه فِتْنَةٌ، يُغَنِّي بما يدعو إلى الزِّنى والفُجورِ وشُرْبِ الخُمورِ، مع آلاتِ اللَّهْوِ الَّتي حَرَّمَها رسولُ اللَّهِ ﷺ في عدَّةِ أحاديثَ، معَ التَّصفيقِ والرَّقْصِ، وتلكَ الهيئةِ المنْكَرَةِ التي لا يستحِلُّها أحدٌ مِن أهلِ الأديانِ؛ فضلاً عن أهلِ العلمِ والإيمانِ.

ويحْتَجُّونَ بغِناءِ جُويرِيَّتَيْنِ غيرِ مُكَلَّفَتَيْنِ بنشيدِ الأعرابِ، ونحوِه في الشَّجاعَةِ ونحْوِها، في يومِ عيدٍ، بغيرِ شبَّابَةٍ ولا دُفٍّ، ولا رَقْصٍ ولا تصفيقٍ، ويَدَعونَ المُحْكَمَ الصَّريحَ، لهٰذا المتشابِهِ، وهذا شأْنُ كُلِّ مُبْطِلٍ.

نعم؛ نحنُ لا نُحَرِّمُ ولا نَكْرَهُ مثلَ ما كانَ في بيتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ على ذٰلكَ الوجْهِ(٢)، وإنَّما نُحَرِّمُ نحْنُ وسائرُ أهْلِ العلمِ والإيمانِ السَّماعَ المخالِفَ لذٰلك.

وباللَّهِ التَّوفيقُ.

• وأمَّا تسمِيَتُهُ بالسُّمُودِ:

فقد قالَ تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١)﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١].

قالَ عِكْرِمَةُ عنِ ابنِ عبَّاسٍ: «السُّمودُ: الغِناءُ في لغةِ حِمْيَرٍ».

يقالُ: اسمُدي لنا؛ أيْ غَنِّي لَنا.

---

(١) وزاد في رواية: «فإنَّ هذا عيدنا».

(٢) وانظر: «فتح الباري» (٧/ ٧٧).

وقالَ أبو زُبَيدٍ:

وكأنَّ العَزِيْفَ فِيها غِناءٌ ... للنَّدامَى مِنْ شارِبٍ مَسْمُودِ

قالَ أبو عُبيدَةَ: «المسمودُ: الّذي غُنِّيَ لهُ».

وقالَ عِكْرِمَةُ: «كانُوا إذا سَمِعُوا القُرآنَ تَغَنَّوْا، فنزلَتْ هٰذه الآيةُ».

وهٰذا لا يُناقِضُ ما قيلَ في هٰده الآيةِ مِن أنَّ «السُّمودَ» الغفلةُ والسَّهْوُ عنِ الشَّيْءِ.

قالَ المُبَرِّدُ: هو الاشتغالُ عنِ الشَّيْءِ بهَمٍّ أو فرحٍ، يتشاغَلُ بهِ، وأنشدَ:

رَمَى الحَدَثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ ... بِمِقْدارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودا

وقالَ ابنُ الأنباريِّ: «السَّامِدُ: اللَّاهي، والسَّامِدُ: السَّاهي، والسَّامِدُ: المتكَبِّرُ، والسَّامِدُ: القائمُ».

وقالَ ابنُ عَبَّاسٍ في الآيةِ: «وأنْتُم مستَكْبِرونَ».

وقالَ الضَّحَّاكُ: «أشِرُونَ بَطِرونَ».

وقالَ مجاهِدٌ: «غِضابٌ مُبَرْطِمونَ».

وقالَ غيرُهُ: «لاهُونَ غافِلونَ مُعْرِضونَ».

فالغِناءُ يَجْمَعُ هٰذا كُلَّهُ، ويوجِبُهُ.

فهٰذه أربعةَ عشرَ اسماً سوى اسم الغناءِ.

● تَحْرِيمُ المَعازِفِ:

في بَيانِ تَحْريمِ رسولِ اللَّهِ ﷺ الصَّريحِ لآلاتِ اللَّهْوِ والمعازِفِ، وسياقِ الأحاديثِ في ذٰلك:

عن عبدِ الرحمٰنِ بنِ غَنْمٍ قالَ: حدَّثَني أبو عامِرٍ، أو أبو مالكٍ الأشعريُّ ﷺ أنَّهُ سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «لَيَكونَنَّ مِنْ أُمَّتي قَوْمٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ والحَريرَ والخَمْرَ والمَعازِفَ».

هٰذا حديثٌ صحيحٌ[١]، أخرجَهُ البخاريُّ في «صحيحِه» محتجًّا بِهِ، وعلَّقَهُ تعليقاً مجزوماً بِهِ[٢]، فقالَ: «بابُ ما جَاءَ فيمَنْ يستَحِلُّ الخَمْرَ ويُسمِّيهِ بغيرِ اسمِهِ، وقالَ هِشامُ بنُ عَمَّارٍ: حدَّثَنا صدَقَةُ بنُ خالِدٍ: حدَّثنا عبدُ الرَّحمٰنِ بنُ يزيدَ بنِ جابرٍ: حدَّثنا عطيةُ بنُ قيسٍ الكِلابيُّ: حَدَّثَني عبدُ الرحمٰنِ بنُ غَنْمٍ الأشعَرِيُّ: قالَ؛ حَدَّثَني أبو عامرٍ، أو أبو مالكٍ الأشعَرِيُّ ـ واللَّهِ ما كَذَبَني ـ أنَّهُ سمِعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتي أَقوامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ والحَريرَ والخَمْرَ والمعازِفَ، ولَيَنْزِلَنَّ أَقوامٌ إلى جَنْبِ عَلَمٍ، يَروحُ عليهِمْ بسارِحَةٍ لهُم، يأْتيهِمْ لحاجةٍ، فيقولوا: ارْجِعْ إلينا غداً، فيُبَيِّتُهُم اللَّهُ تعالى، ويَضَعُ العَلَمَ، ويَمْسَخُ آخَرينَ قِرَدَةً وخَنازيرَ إلى يومَ القيامَةِ».

ولم يصنَعْ مَنْ قَدَحَ في صِحَّةِ هذا الحديثِ شَيئاً؛ كابنِ حَزْمٍ؛ نُصْرَةً لمَذْهَبِهِ الباطِلِ في إباحَةِ المَلاهي، وزَعَمَ أَنَّهُ مُنْقَطِعٌ؛ لأنَّ البخاريَّ لم يَصِلْ سَنَدَهُ بِهِ!

وجوابُ هٰذا الوَهَمِ مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّ البخاريَّ قدْ لَقِيَ هِشَامَ بنَ عَمَّارٍ، وسَمِعَ منهُ، فإذا قالَ: «قالَ هِشامٌ»؛ فهُو بمنزلةِ قولِه: «عَنْ هشامٍ».

الثَّاني. أنَّهُ لو لم يسمَعْ منهُ لم يَسْتَجِزِ الجزمَ بِهِ عنهُ إلَّا وقد صحَّ عنهُ أنَّهُ حدَّثَ بِهِ، وهٰذا كثيراً ما يكونُ لكثرةِ مَن رواهُ عنهُ عن ذٰلك الشَّيخِ وشُهْرَتِه، فالبُخاريُّ أَبْعَدُ خَلْقِ اللَّهِ مِن التَّدليسِ.

الثَّالِثُ: أنَّهُ أَدْخَلَهُ في كتابِهِ المسمَّى «الصَّحيح» محتجاً بِهِ، فلولا صحَّتُه عندَه لما فعَلَ ذٰلك.

---

(١) وقد أفردتُ الكلام عليه مفصلاً في جزء مستقلٍّ سميتُه: «الكاشف في تصحيح رواية البُخاري لحديث المعازف والرد على ابن حزم المخالف ومقلِّده المُحارِف»، وهو من منشورات دار ابن الجوزي، الدمَّام.

(٢) وقد أثبتُّ في «الجزء» المشار إليه آنفاً (ص٣٠ ـ ٣٢) أنه متَّصلٌ صورتُه صورة التعليق.

الرَّابعُ: أَنَّهُ عَلَّقَهُ بصيغَةِ الجَزْمِ، دونَ صيغَةِ التَّمريضِ، فإِنَّهُ إذا توقَّفَ في الحديثِ أَوْ لم يَكُنْ على شَرْطِهِ يقولُ: «ويرْوَى عنْ رَسولِ اللَّهِ ﷺ»، و«يُذْكَرُ عنهُ»، ونحوُ ذٰلكَ، فإذا قالَ: «قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ»، فقد جَزَمَ وقَطَعَ بإِضافَتِهِ إليهِ[1].

الخامِسُ: أَنَّا لو ضَرَبْنا عن هذا كُلِّهِ صَفْحاً؛ فالحديثُ صحيحٌ متَّصلٌ عندَ غيرِهِ.

قالَ أبو دَاودَ في كتابِ «اللِّباسِ»[2]: حدَّثَنا عبدُ الوهَّابِ بنُ نَجْدَةَ: حَدَّثَنا بِشْرُ بنُ بكرٍ عن عبدِ الرحمٰنِ بنِ يزيدَ بنِ جابرٍ: حدَّثنا عطيَّةُ بنُ قيسٍ؛ قالَ: سَمِعْتُ عبدَ الرحمنِ بنَ غَنْمٍ الأشعريَّ قالَ: حدَّثنا أبو عامرٍ أو أبو مالكٍ: فذكرهُ مختصراً.

ورواهُ أبو بكرٍ الإسماعيليُّ في كتابِه «الصَّحيحِ» مسنداً، فقالَ: «أبو عامرٍ»، ولم يَشُكَّ.

ووجهُ الدِّلالةِ منهُ أَنَّ المعازِفَ هي آلاتُ اللَّهْوِ كلُّها، لا خِلافَ بينَ أَهْلِ اللُّغَةِ في ذٰلكَ، ولو كانتْ حَلالاً لما ذَمَّهُمْ على استِحلالِها، ولَما قَرَنَ استحلالَها باستحلالِ الخمرِ والخَزِّ[3].

وقد ذَكَرْنا شُبَهَ المغنِّينَ والمفتونينَ بالسَّماعِ الشَّيطانيِّ، ونَقَضْناها نَقْضاً وإبطالاً في كتابِنا الكبيرِ في «السَّماعِ»[4]، وذَكَرْنا الفرقَ بينَ ما يحرِّكُهُ سماعُ الأبياتِ وما يحرِّكُهُ سماعُ الآياتِ، وذَكَرْنا الشُّبَهَ التي دَخَلَتْ على كثيرٍ مِن العُبَّادِ في حُضورِهِ، حتَّى عَدُّوهُ مِن القُرَبِ.

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١/ ١٧٤ و٢/ ٢٠٥ و١٠/ ٥٣).

(٢) برقم (٤٠٣٩)، وانظر: «الكشف» (ص٤١).

(٣) ورُوِي بالإهمال: «الحِرَ»، وهو الزنى، وبالإعجام: «الخَزّ»؛ يعني: الحرير.

(٤) وقد طبع قريباً في دار العاصمة، الرياض، بتحقيق: راشد بن عبد العزيز الحمد، في مجلّدة لطيفة.

فمَنْ أحَبَّ الوُقوفَ على ذٰلك فهُو مستوفًى في ذٰلك الكتابِ، وإنَّما أشَرْنا ها هُنا إلى نُبْذَةٍ يَسيرةٍ(١) في كونِه مِن مكايِدِ الشّيطانِ، وباللّٰهِ التَّوفيقِ.

* * *

(١) وفي هٰذه النُّبذة من الفوائد والكلمات ما لا يوجد في ذٰلك الكتاب الكبير، فاحرِص على كلام أهل العِلم، وإن تفرّق، ولا يفوتنّكَ شيءٌ منه.



٦ التَّيْسُ المُسْتَعارُ

ومِن مكايِدِهِ التي بَلَغَ فيها مُرادَهُ: مَكيدَةُ التَّحليلِ، الذي لَعَنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فاعِلَهُ، وشَبَّهَهُ بالتَّيْسِ المُسْتَعارِ، وعَظُمَ بسبَبِهِ العارُ والشَّنارُ، وعيَّرَ المسلمينَ بِهِ الكفَّارُ، وحَصَلَ بسببِهِ من الفسادِ ما لا يُحْصِيهِ إلَّا رَبُّ العِبادِ، واسْتُكْرِيَتْ لهُ التُّيوسُ المستعاراتُ، وضاقَتْ بِهِ ذَرْعاً النُّفوسُ الأبِيَّاتُ. ونَفَرَتْ منهُ أشدَّ مِن نِفارِها مِن السِّفاحِ وقالَتْ: لو كانَ هٰذا نِكاحاً صحيحاً لَمْ يَلْعَنْ رسولُ الله ﷺ مَن أتى بما شَرَعَهُ مِن النِّكاحِ، فالنِّكاحُ سُنَّتُهُ، وفاعِلُ السُّنَّةِ مقرَّبٌ غيرُ ملعونٍ، والمحلِّلُ معَ وقوعِ اللَّعْنَةِ عليهِ بالتَّيْسِ المُستعارِ مَقرونٌ، فقدْ سمَّاهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ بالتَّيْسِ المُستَعارِ، وسمَّاهُ السَّلَفُ بِمِسْمارِ النَّارِ.

فَلَوْ شاهَدْتَ الحرائِرَ المصوناتِ، على حوانيتِ المحلِّلينَ مُتَبَذِّلاتٍ، تَنْظُرُ المرأةُ إلى التَّيْسِ نَظَرَ الشَّاةِ إلى شَفْرَةِ الجازِرِ، وتقولُ: يا لَيْتَنِي قَبْلَ هٰذا كنتُ مِن أهْلِ المقابِرِ، حتى إذا تَشارَطا على مَا يَجْلِبُ اللَّعْنَةَ والمَقْتَ، نَهَضَ واسْتَتْبَعَها خَلْفَهُ للوقْتِ، بلا زفافٍ ولا إعلانٍ، بل بالتَّخَفِّي والكِتْمانِ، فلا جِهازٌ يُنْقَلُ، ولا فِراشٌ إلى بيتِ الزَّوْجِ يُحَوَّلُ، ولا صَواحِبُ يهدينَها إليهِ، ولا مُصْلِحاتٌ يَجْلِينَها عليهِ، ولا مَهْرٌ مقبوضٌ، ولا مؤخَّرٌ، ولا نَفَقَةٌ، ولا كِسْوَةٌ تُقَدَّرُ، ولا وَليمةٌ ولا نِثارٌ، ولا دُفٌّ[1] ولا إعلانٌ ولا شِعارٌ، والزَّوْجُ يَبْذُلُ المهرَ، وهٰذا التَّيْسَ يَطَأُ بالأجْرِ.

حتَّى إذا خَلَا بها وأَرْخَى الحِجاب، والمُطَلِّقُ والوَلِيُّ واقِفانِ على الباب، دَنَا لِيُطَهِّرَها بمائِهِ النَّجِسِ الحرام، ويُطَيِّبُها بلعْنَةِ اللَّهِ ورسولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام.

---

(١) وفي تعليقي على «المنتقى» (ص٢٩٢) بيَّنْتُ الجوازَ المقيَّد للدُّفِّ في العيد والنكاح، وللنِّساء فقط.

حتَّى إذا قَضَيا عُرُسَ التَّحليلِ، ولم يَحْصُلْ بينَهُما المودَّةُ والرَّحْمَةُ التي ذَكَرها اللَّهُ تعالى في التَّنْزيل؛ فإنَّها لا تَحْصُلُ باللَّعْنِ الصَّريح، ولا يوجِبُها إلَّا النِّكاحُ الجائِزُ الصَّحيحُ، فإنْ كانَ قدْ قَبَضَ أُجْرَةَ ضِرابِهِ سَلَفاً وتَعْجيلاً، وإلَّا حَبَسَها حتَّى تُعْطِيَهُ أجْرَهُ طويلاً، فهَلْ سَمِعْتُمْ زوجاً لا يأْخُذُ بالسَّاقِ حَتَّى يأخُذَ أُجْرَتَهُ بعدَ الشَّرْطِ والاتِّفاقِ؟ حتَّى إذا طَهَّرَها وطَيَّبَها وخَلَّصَها بزَعْمِهِ مِن الحرامِ وجنَّبَها؛ قالَ لها: اعْتَرِفي بما جَرى بينَنا ليَقَعَ عليكِ الطَّلاقُ، فيَحْصُلَ بعدَ ذٰلك بينَكُما الالتئامُ والاتِّفاقُ، فتَأْتِيَ المُصَحَّمَةُ إلى حضرةِ الشُّهودِ، فيسْأَلونَها: هَلْ كانَ ذٰاك؟ فلا يُمْكِنُها الجُحودُ، فيأْخُذونَ مِنها أو مِنَ المطلِّقِ أَجْراً، وقد أرْهَقوهُما مِن أمْرِهِما عُسْراً.

هٰذا وكثيرٌ مِن هٰؤلاءِ المستأْجَرينَ للضِّرابِ يُحَلِّلُ الأمَّ وابنتَها في عَقْدَيْنِ، ويَجْمَعُ ماءَهُ في أكثرِ مِن أربعٍ وفي رَحِمِ أُخْتَيْنِ، وإذا كانَ هٰذا مِن شأْنِهِ وصِفَتِه، فهو حقيقٌ بما رواهُ عبد اللَّهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ قالَ: «لعَنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ المحلِّلَ والمحلَّلَ لهُ».

رواهُ الحاكِمُ في «الصَّحيحِ»[1] والتِّرمذيُّ، وقالَ: حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ.

قالَ: والعَمَلُ عليهِ عندَ أَهْلِ العلمِ؛ مِنْهُم عمرُ بنُ الخطَّاب، وعثمانُ بنُ عفَّانَ، وعبدُ اللَّهِ بنُ عمرَ ﷺ، وهو قولُ الفقهاءِ مِن التَّابِعينَ.

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ عن النبيِّ محمد صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ: «أنَّهُ لَعَنَ المحلِّلَ والمُحَلَّلَ لهُ». رواهُ الإمامُ أحمدُ وأَهلُ «السُّنَنِ» كلُّهُم غيرَ النسائيِّ[2].

---

(١) أي: «المستدرك»، وليس هو فيه، ولم يعزه إليه من وقفتُ عليه من المُخرِّجين!
وانظر: كلام المصنِّف في تساهُل الحاكم في «الفروسية» (ص٤٦).
ورواه: الترمذي (١١٢٠)، والنسائي (٦/١٤٩)، والدارمي (٢/١٥٨)، وابن أبي شيبة (١٤/١٩٠). وسنده صحيحٌ.

(٢) رواه أحمد (١/٨٣ و٨٧ و٨٨)، وأبو داود (٢٠٧٦ و١١١٩)، ابن ماجه (١٩٣٥)، والبيهقي (٧/٢٠٨)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١٠٧٣).

وعن أبي هُريرةَ ﷺ؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: «لَعَنَ اللهُ المحلِّلَ والمحلَّلَ لهُ». رواهُ الإمامُ أحمدُ بإسنادٍ، رجالُهُ كلُّهم ثقاتٌ، وثَّقَهُمْ ابنُ مَعينٍ وغيرُهُ[1].

وقالَ التِّرْمِذِيُّ في كتابِ «العللِ»[2]: سألْتُ أبا عبدِ اللهِ محمَّدَ بنَ إسماعيلَ البخاريَّ عن هٰذا الحديثِ، فقال: هو حديثٌ حسنٌ، وعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ المخزوميُّ صَدُوقٌ ثِقةٌ، وعثمانُ بنُ محمَّدٍ الأخْنَسِيُّ ثقةٌ.

وعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالى عليهِ وآله وسلَّمَ: «ألا أُخبِرُكُم بالتَّيسِ المُستعارِ؟ قالوا: بَلى يا رسولَ اللهِ».

قالَ: هو المحلِّلُ. لَعَنَ اللهُ المُحَلِّلَ والمُحَلَّلَ لهُ». رواه ابنُ ماجَه بإسنادٍ رجالُهُ كلُّهُم موثوقُونَ، لم يُجَرَّحْ واحدٌ منهُم[3].

وكذٰلك حديثُ نافعٍ عن ابنِ عمرَ ﷺ: «أنَّ رجلاً قالَ لهُ: امرأةٌ تَزَوَّجْتُها أُحِلُّها لزَوْجِها، لم يَأْمُرْني، ولم يَعْلَم؟ قالَ: لا؛ إلَّا نِكاحَ رغْبَةٍ، إنْ أعْجَبَتْكَ أمْسَكْتَها، وإنْ كَرِهْتَها فارَقْتَها، وإنْ كُنَّا لَنَعُدُّ هٰذا على عهدِ رسولِ اللهِ

= وفي سنده الحارث الأعور، وهو ضعيف، ولكن يشهد له ما قبله.

(١) رواه: أحمد (٣/٣٢٣)، والبيهقي (٧/٢٠٨)، وابن الجارود (٦٨٤)، والبزار (١٤٤٢)؛ بسند صحيح.

(٢) هو «العلل الكبير» (١/٤٣٧).

وزاد الزيلعي في «نصب الراية» (٣/٢٤٠) نسبته لأبي يعلى، وإسحاق بن راهويه.

(٣) رواه: ابن ماجه (١٩٣٦)، والحاكم (٢/١٩٨)، والبيهقي (٧/٢٠٨)، والطبراني في «الكبير» (١٧/٢٥٨) (رقم ٨٢٥)، والدارقطني (٣/٢٥١)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١٠٧٢)؛ من طريق الليث عن مِشْرح بن هاعان عن عقبة بن عامر.

ولقد تكلّم شيخ الإسلام ابن تيمية في «إقامة الدليل» (١٥٥ ـ ١٥٦) على هٰذا الحديث بإسهاب، ثم قال:

«فثبت أنَّ هذا الحديث جيِّدٌ، وإسناده حَسَنٌ».

وقد أعلّه ابنُ أبي حاتم بعلّة ردَّها عليه العلماء، فانظر: «نصب الراية» (٣/٢٣٩ ـ ٢٤٠).

صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ سِفاحاً»[1].

وأمَّا الآثارُ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، ومَن بعْدَهُم، فكثيرةٌ جدًّا.

وفي كتابِ «المصنَّفِ» لابنِ أبي شَيْبَةَ، و«سُنَنِ الأثرمِ»، و«الأوسَطِ» لابنِ المنذرِ عدَدٌ كبيرٌ منها.

* ومِنَ العجائبِ معارَضةُ هٰذه الأحاديثِ و لآثارِ عنِ الصَّحابَةِ بظاهِرِ قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

والذي أُنزِلَتْ عليهِ هٰذه الآيةُ هو الذي لَعَنَ المحلِّلَ والمحلَّلَ لهُ، وأصحابُهُ أعلمُ النَّاسِ بكتابِ اللَّهِ تعالى، فلم يجْعَلُوهُ زوجاً، وأبطلوا نِكاحَهُ، ولَعَنوهُ.

وأعْجَبُ مِن هٰذا قول بعضِهِم: نحنُ نحتجُّ بكَوْنِه سَمَّاهُ «مُحَلِّلاً»، فلولا أنَّهُ أثبَتَ الحِلَّ لم يَكُنْ مُحَلِّلاً.

فيُقالُ: هٰذه من العظائِمِ؛ فإنَّ هٰذا يتضمَّنُ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ السُّنَّةَ التي جاءَ بها، وفَعَلَ ما هُو جائزٌ صحيحٌ في شريعتِهِ، وإنَّما سمَّاهُ محلِّلاً لأنَّهُ أحَلَّ ما حَرَّمَ اللَّهُ، فاستحَقَّ اللَّعْنَةَ؛ فإنَّ اللَّهَ سبحانَهُ حرَّمَها على المطلِّقِ، حتى تَنْكِحَ زوجاً غيرَهُ.

والنِّكاحُ اسمٌ في كتابِ اللَّهِ وسنَّةِ رسولِهِ للنِّكاحِ الذي يَتعارَفُهُ النَّاسُ بينَهُم نِكاحاً، وهو الذي شُرِعَ إعلانُهُ، والضَّرْبُ عليهِ بالدُّفوفِ، والوليمةُ فيهِ، وجُعِلَ للإيواءِ والسَّكَنِ، وجعَلَهُ اللَّهُ مودَّةً ورحمةً، وجَرَتِ العادةُ فيهِ بِضدِّ ما جَرَتْ بهِ في نِكاحِ المحلِّلِ.

فإنَّ المحلِّلَ لم يَدْخُلْ على نفقةٍ، ولا كسوةٍ، ولا سُكْنى، ولا إعطاءِ

---

(١) أخرجه: الحاكم (٢/١٩٩)، والبيهقي (٧/٢٠٨)، والطبراني في «الأوسط» ـ كما في «المجمع» (٤/٢٦٧) ؛ من طريق محمد بن مطرف عن عمر بن نافع عن أبيه عن ابن عمر. وسنده صحيح.

مَهرٍ، ولا يحْصُلُ بهِ نَسَبٌ ولا صِهْرٌ، ولا قَصَدَ المُقامَ معَ الزَّوجَةِ، وإنَّما دَخَلَ عاريَّةً، كالتَّيْسِ المُستعارِ للضِّرابِ، ولهٰذا شبَّهَهُ بهِ النبيُّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ، ثمَّ لَعَنَهُ.

فعُلِمَ قطعاً لا شكَّ فيهِ أنَّهُ ليسَ هُو الزَّوجَ المذكورَ في القرآنِ، ولا نِكاحُهُ هو النِّكاحُ المذكورُ في القرآنِ.

وقد فَطَرَ اللَّهُ سبحانَه قلوبَ النَّاسِ على أنَّ هٰذا ليسَ بنكاحٍ، ولا المحلِّلُ بزوجٍ، وأنَّ هٰذا منكَرٌ قبيحٌ، تُعَيَّرُ بهِ المرأةُ والزَّوْجُ، والمحلِّلُ والوَليُّ، فكيفَ يدْخُلُ هٰذا في النِّكاحِ الذي شَرَعَهُ اللَّهُ ورسولُهُ، وأَحَبَّهُ، وأخبرَ أنَّهُ سُنَّتُهُ، ومَنْ رَغِبَ عنهُ فليسَ منهُ[1].

وممَّا لا شَكَّ فيهِ أنّ المحلِّلَ مِن جنسِ المنافِقِ، فإنَّ المنافِقَ يُظْهِرُ أنَّهُ مسلمٌ ملتَزِمٌ لعَقْدِ الإسلامِ ظاهراً وباطناً، وهو في الباطنِ غيرُ ملتزمٍ لهُ، وكذٰلك المحلِّلُ يظْهِرُ أنَّهُ زوجٌ، وأنَّهُ يريدُ النِّكاحَ، ويسمِّي المهر، ويُشْهِدُ على رضى المرأةِ، وفي الباطِنِ بخلافِ ذٰلك، لا يُريدُ أنْ يكونَ زوجاً، ولا أن تكونَ المرأةُ زوجةً لهُ، ولا يُريدُ بذْلَ الصَّداقِ، ولا القيامَ بحقوقِ النِّكاحِ، وقد أظْهَرَ خلافَ ما أبْطَنَ، وأنَّهُ مريدٌ لذٰلك، واللَّهُ يعلمُ، والحاضِرونَ والمرأةُ، وهو، والمطَلِّقُ أنَّ الأمرَ كذٰلكَ، وأنَّهُ غيرُ زوجٍ على الحقيقةِ، ولا هي امرأتُهُ على الحقيقةِ.

ومن دلائلِ بُطلانِهِ أنَّهُ لا يُشْبِهُ نِكاحَ أهلِ الجاهليَّةِ، ولا نِكاحَ أهلِ الإسلامِ، فكانَ أهلُ الجاهليّةِ يتعاطَوْنَ في أنْكِحَتِهِم أُموراً منكرةً، ولم يَكُونُوا يَرْضَوْنَ نِكاحَ التّحليلِ، ولا يفعَلونَهُ.

ففي «صحيحِ البُخاريِّ»[2] عن عُروةَ بنِ الزُّبيرِ أنَّ عائشةَ رضي الله عنها أخبرتْهُ:

(١) انظر: الحديث الوارد في ذٰلك وتخريجه في «المنتقى النفيس» (ص٣٥).
(٢) رقم (٥١٢٧).

«أنَّ النِّكاحَ في الجاهليَّةِ كانَ على أربعةِ أنْحاءٍ: فنكاحٌ منها نكاحُ النَّاسِ اليومَ، يَخْطِبُ الرَّجُلُ إلى الرَّجُلِ وليَّتَهُ أو ابنَتَهُ، فيُصْدِقُها، ثمَّ يَنْكِحُها، ونكاحٌ آخَرُ: كانَ الرَّجُلُ يقولُ لامرأتِهِ إذا طَهُرَتْ مِن طَمْثِها: أَرْسِلي إلى فُلانٍ، فاسْتَبْضِعي منهُ، فيعْتَزِلُها زوجُها ولا يمسُّها أبداً، حتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُها مِن ذٰلك الرَّجُلِ الذي تَسْتَبْضِعُ منهُ، فإذا تبيَّنَ حَمْلُها أصابَها زوجُها إذا أَحَبَّ، وإنَّما يفعَلُ ذلك رغبةً في نَجابَةِ الولدِ، فكانَ هٰذا النِّكاحُ نكاحَ الاستبضاعِ، ونِكاحٌ آخَرُ: يجتَمِعُ الرَّهْطُ ما دُونَ العَشَرَةِ، فيدخُلونَ على المرأةِ، كلُّهُم يُصيبُها، فإذا حَمَلَتْ ووضَعَتْ ومرَّ ليالِيَ بعدَ أنْ تَضَعَ حَمْلَها أَرْسَلَتْ إليهِم، فلم يستَطِعْ رجلٌ منهُم أنْ يمتَنِعَ، حتَّى يجتَمِعوا عندَها، فتقولُ لهُم: قدْ عَرَفْتُم الَّذي كانَ مِن أَمْرِكُم، وقد وَلَدْتُ، فهو ابنُكَ يا فُلانُ، تسمِّي مَنْ أحبَّتْ باسمِهِ، فَيَلْحَقُ بهِ ولدُها، لا يستطيعُ أنْ يَمْتَنِعَ منهُ، ونكاحٌ رابعٌ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكثيرُ، فيدخُلونَ على المرأةِ، لا تَمْتَنِعُ ممَّنْ جاءَها، وهُنَّ البَغايا، كُنَّ ينصِبْنَ على أبوابِهِنَّ راياتٍ تكونُ عَلَماً، فمَنْ أرادَهُنَّ دَخَلَ عليهِنَّ، فإذا حَمَلَتْ إحداهُنَّ ووضَعَتْ حَمْلَها، جَمَعُوا لها ودَعَوْا لهُم القافَةَ، ثمَّ أَلْحَقوا وَلَدَها بالذي يَرَوْنَ فالْتاطَ بهِ ودُعِيَ ابنُهُ لا يمْتَنِعُ مِن ذٰلك، فلمَّا بَعَثَ اللّٰهُ تعالى محمَّداً صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّم بالحقِّ هَدَمَ نِكاحَ الجاهِليَّةِ كلَّهُ، إلَّا نِكاحَ النَّاسِ اليومَ».

ومعلومٌ: أنَّ نِكاحَ المحلِّلِ ليسَ مِن نكاحِ النَّاسِ الَّذي أشارَتْ إليهِ عائشةُ ﵂ أنَّ رسولَ اللّٰهِ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَقَرَّهُ ولم يَهْدِمْهُ، ولا كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يرضَوْنَ بهِ، فلم يَكُنْ مِن أَنْكِحَتِهِمْ؛ فإنَّ الفِطَرَ والأُمَمَ تُنْكِرُهُ وتُعَيِّرُ بهِ.

● حِيَلُ عَدَمِ وُقوعِ الطَّلاقِ:

وسببُ هٰذا كلِّهِ معصيةُ اللّٰهِ ورسولِه، وطاعةُ الشَّيطانِ في إيقاعِ الطَّلاقِ على غيرِ الوجْهِ الذي شَرَعَهُ اللّٰهُ.

وفي «صحيح مسلم»[١] عن جابرِ بنِ عبدِ اللّٰهِ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: «إنَّ إبليسَ يضَعُ عرْشَهُ على الماءِ، ثمَّ يَبْعَثُ سَراياهُ، فأدْناهُم منزلةً أعظَمُهُم فتْنَةً، يَجيءُ أحَدُهُم، فيقولُ: قد فَعلْتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما صَنَعْتَ شيئاً. قالَ: ويَجيءُ أحدُهُم فيقولُ: ما تركْتُهُ حتَّى فَرَّقْتُ بينَهُ وبينَ أهْلِهِ، قالَ: فَيُدْنيهِ منهُ، أو قالَ: فَيَلْتَزِمُهُ، ويقولُ: نعَمْ؛ أنْتَ أنْتَ».

فالشَّيطانُ وحِزْبُهُ قد أغْرَوْا بإيقاعِ الطَّلاقِ، والتَّفريقِ بينَ المرءِ وزوجِهِ، وكثيراً ما يندَمُ المطلِّقُ، ولا يصبِرُ عنِ امرأتِهِ، ولا تُطاوِعُهُ نفْسُهُ أنْ يَصْبِرَ عنها إلى أنْ تتزوَّجَ زواجَ رغْبَةٍ تبقى فيهِ مع الزَّوْجِ إلى أنْ يموتَ عنها أو يفارِقَها إذا قضى منها وَطَرَهُ، ولا بدَّ مِن المرأةِ، فيَهْرَعَ إلى التَّحليلِ، وهو حيلةٌ مِن عدَّةِ حِيَلٍ نَصَبوها للنَّاسِ!

(١) برقم (٢٩٢٥).



٧ الطَّلاقُ الشَّرْعِيُّ

واعلمْ أنَّ مَنْ اتَّقى اللَّهَ في طلاقِهِ، فَطَلَّقَ كما أمرَهُ اللَّهِ ورسولُهُ وشَرَعَهُ لهُ، أغْناهُ عن ذٰلك كلِّهِ، ولهٰذا قالَ تعالى بعدَ أنْ ذَكَرَ حُكْمَ الطَّلاقِ المشروعِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فلو اتَّقى اللَّهَ عامَّةُ المطلِّقينَ لاستَغْنَوْا بتقواهُ عن الآصارِ والأغلالِ، والمكرِ والاحتيالِ، فإنَّ **الطَّلاقَ الَّذي شَرَعَهُ اللَّهُ سبحانَه**: أنْ يُطَلِّقَها طاهِراً من غيرِ جماعٍ، ويُطَلِّقَها واحدةً، ثُمَّ يَدَعها حتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُها، فإنْ بَدا لهُ أنْ يُمْسِكَها في العِدَّةِ أمْسَكَها، وإنْ لم يُراجِعْها حتى انْقَضَتْ عِدَّتُها أمكَنَهُ أنْ يَسْتَقْبِلَ العقدَ عليها مِن غيرِ زوجٍ آخَرَ، وإنْ لم يَكُنْ لهُ فيها غَرَضٌ لم يَضُرَّهُ أنْ تَتَزَوَّجَ بزوجٍ غيرِه.

فمَنْ فعَلَ هٰذا لم يَنْدَمْ، ولم يَحْتَجْ إلى حيلةٍ ولا تَحْليلٍ.

فإنَّ اللَّهَ سبحانَه إنَّما شَرَعَ الطَّلاقَ مَرَّةً بعدَ مرَّةٍ، ولم يَشْرَعْهُ جُملةً واحدةً أصلاً، قالَ تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والمرَّتانِ في لغةِ العربِ، بل وسائرِ لُغاتِ النَّاسِ: إنَّما تكونُ لما يأتي مَرَّةً بعدَ مرَّةٍ، فهٰذا القرآنُ مِن أوَّلِه إلى آخِره، وسُنَّةُ رسولِ اللّٰهِ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ وكلامُ العربِ قاطبةً شاهِدٌ بذٰلك؛ كقولِهِ تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقولِه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦]، وقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور: ٥٨] ثمَّ فسَّرها بالأوقاتِ الثَّلاثةِ[١].

وشواهِدُ هٰذا أكْثَرُ مِن أنْ تُحْصى.

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ [النور: ٥٨].

ثُمَّ قالَ سبحانَهُ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فهٰذه هي المرةُ الثالثةُ.

فهٰذا هو الطَّلاقُ الذي شَرَعَهُ اللَّهُ ﷻ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ.

فهٰذا شَرْعُهُ مِن حَيْثُ العَدَدُ.

وأمَّا شَرْعُهُ مِن حيثُ الوقتُ؛ فشَرَعَ الطَّلاقَ للعِدَّةِ، وقد فسَّرَهُ النبيُّ ﷺ بأَنْ يُطَلِّقَها طاهِراً مِن غيرِ جِماعٍ، فلم يَشْرَعْ جَمْعَ ثلاثٍ، ولا تَطليقَتَيْنِ، ولم يَشْرَعِ الطَّلاقَ في حَيضٍ، ولا في طُهْرٍ وَطِئَها فيهِ.

وكانَ المطلِّقُ في زَمَنِ رسولِ اللَّهِ ﷺ كلِّهِ وزَمَنِ أبي بكرٍ كلِّهِ، وصدْراً مِن خلافَةِ عمرَ ﷺ إذا طَلَّقَ ثلاثاً يُحْسَبُ لهُ واحدةٌ، وفي ذٰلك حديثانِ صحيحانِ: أحدُهُما رواهُ مسلمٌ في «صحيحِهِ»، والثَّاني رواهُ الإمامُ أحمدُ في «مسنَدِهِ»:

فأمَّا حديثُ مسلم[1]؛ فرواهُ مِن طريقِ ابنِ طاوُسٍ عن أبيهِ عن ابنِ عبَّاسٍ ﷺ؛ قالَ: «كانَ الطَّلاقُ على عَهْدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ وأبي بكْرٍ وسَنَتَيْنِ مِن خِلافةِ عُمَرَ: طلاقُ الثَّلاثِ واحدةً، فقالَ عُمَرُ ﷺ: إنَّ النَّاسَ قدِ اسْتَعْجَلوا في أمرٍ كانتْ لهُمْ فيه أناةٌ، فلو أمْضَيْناهُ عليهِمْ؟ فأمضاهُ عليهِم».

وفي «صحيحِهِ»[2] أيضاً عَن طوسٍ أنَّ أبا الصَّهْباءِ قالَ لابنِ عبَّاسٍ: «هاتِ مِن هُنَيَّاتِك: أَلَمْ يَكُنِ الطَّلاقِ الثَّلاثُ على عَهْدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ وأبي بكْرٍ واحدةً؟ فقالَ: قد كانَ ذٰلك فلمَّا كانَ في عَهْدِ عُمَرَ تَتَايَعَ النَّاسُ[3] في الطَّلاقِ، فأَجازَهُ عليهِم».

---

(١) برقم (١٤٧٢) (١٥).
(٢) برقم (١٤٧٢) (١٧)
(٣) أي: تسارعوا وتهافتوا.

وفي لفظٍ لأبي دَاودَ[(١)]: «أنَّ رجلاً يقالُ لهُ: أبو الصَّهباءِ، كانَ كثيرَ السُّؤالِ لابنِ عبَّاسٍ. قالَ: أما عَلِمْتَ أنَّ الرَّجُلَ كانَ إذا طَلَّقَ امرأتَهُ ثلاثاً قبلَ أنْ يَدخلَ بها جَعَلوها واحدةً على عَهْدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وأبي بكرٍ وصَدْراً مِن إمارَةِ عمرَ ﷺ؟ فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: بلَى، كانَ الرَّجُلُ إذا طَلَّقَ امرأتَهُ ثلاثاً قبلَ أنْ يَدْخُلَ بها جَعلوها واحدةً، على عَهْدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ، وأبي بكرٍ، وصَدْراً مِن إمارةِ عمرَ ﷺ، فلمّا رأى النَّاسَ قَدْ تَتايَعُوا فيها؛ قالَ: أَجْرُوهُنَّ عليهِمْ».

هٰكذا في هذه الرِّوايَةِ: «قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بها»، وبها أَخَذَ إسحاقُ بنُ راهويهِ، وخَلْقٌ مِن السَّلَفِ، جَعَلوا الثَّلاثَ واحدةً في غيرِ المدخولِ بها. وسائرُ الرِّواياتِ الصَّحيحَةِ ليس فيها «قبلَ الدُّخولِ»، ولهٰذا لم يَذْكُرْ مسلمٌ منها شيئاً.

---

(١) برقم (٢٢٠٠).
وعنه البيهقي (٧/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩) من طريق محمد بن عبد الملك بن مروان: حدثنا أبو النعمان: حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن طاوس به.
وأبو النعمان: اسمه محمد بن الفضل السَّدوسي، ثقة، مختلط.
وروايةُ ابن مروان عنه غير مُتَبَيَّنَة، فهي إلى الرد أرجح
وقد خولف:
فرواه: مسلم (١٤٧٢) (١٧)، والبيهقي (٧/ ٣٣٦)؛ من طريق سليمان بن حرب عن حماد عن أيوب عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس به.
ولم يذكر الزيادة: «قبل أن يدخل بها».
ورواه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٦) عن عفّان بن مسلم عن حماد بن زيد به.
ورواه الدارقطني (٤/ ٦٤) من طريق محمد بن أبي نُعيم عن حماد بن زيد.
وقد توبع إبراهيم بن ميسرة على عدم ذكر الزيادة.
فأخرجه: مسلم (١٤٧٢) (١٦)، والنَّسائي (٢/ ٩٦)، والطحاوي (٢/ ٣١)، وأحمد (١/ ٣١٤)؛ من طريق عبد الله بن طاوس عن أبيه به.
فهٰذا كلُّه يدلُّ على عدم ضَبط عارم، فهٰذه الزيادة غير مقبولة منه؛ كما أشار المصنِّف هنا رحمه الله.

وأمَّا الحديثُ الآخَرُ؛ فقالَ أبو داودَ في «سننِهِ»[1]: حدَّثَنا أحمدُ بنُ صالحٍ: حدَّثَنا عبدُ الرَّزَّاقِ: أخبَرَنا ابنُ جُريجٍ؛ قالَ: أخبرَني بعضُ بني أبي رافعٍ ـ مولى النبيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ـ عن عِكْرِمَةَ عن ابنِ عبَّاسٍ؛ قالَ: «طَلَّقَ عبدُ يزيدَ ـ أبو رُكانَةَ وإخوَتِهِ ـ أُمَّ رُكانَةَ، ونَكَحَ امرأةً مِن مُزَيْنَةَ، فجاءَتْ إلى النبيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، فقالَتْ: ما يُغْني عنِّي إلَّا كَما تُغني هٰذه الشَّعْرَةُ ـ لِشَعْرَةٍ أخَذَتْها مِن رَأسِها[2] ـ ففرِّقْ بيني وبينَهُ، فأخَذَتِ النبيَّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ حَمِيَّةٌ، فدَعا برُكانَةَ وإخْوَتَهُ، ثمَّ قالَ لجلسائِهِ: أتَرَوْنَ فُلاناً يُشْبِهُ منهُ كذا وكذا؟ مِن عبدِ يزيدَ، وفُلاناً يُشْبِهُ منهُ كذا وكذا؟ قالوا: نَعَمْ. فقالَ النبيُّ ﷺ: طَلِّقْها. ففعَلَ، فقالَ: راجِعْ امرأتَكَ أُمَّ رُكانَةَ. فقالَ: إنِّي طَلَّقْتُها ثلاثاً يا رسولَ اللَّهِ! قالَ: قَدْ عَلِمْتُ. راجِعْها. وتَلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطَّلاق ١].

فأمَرَهُ أنْ يُراجِعَها وقد طلَّقها ثلاثاً، وتَلا الآيةَ التي هي وما بعدَها صريحةٌ في كونِ الطَّلاقِ الذي شَرَعَهُ اللَّهُ لِعبادِهِ هو الطَّلاقُ الذي يكونُ للعِدَّةِ، فإذا شارَفَتِ انقضاءَها، فإمَّا أنْ يُمْسِكَها بمعروفٍ، أو يُفارِقَها بمعروفٍ، وأنَّهُ سُبحانَهُ شَرَعَهُ على وَجْهِ التَّوسعَةِ والتَّيْسيرِ، فَنَعَلَّ المطلِّقَ أنْ يَنْدَمَ، فيكونَ لهُ سَبيلٌ إلى الرَّجْعَةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، فأمَرَهُ بالمُراجَعَةِ، وتلاوتُهُ الآيةَ كافٍ في الاستدلالِ على ما كانَ عليهِ الحالُ.

فإنْ قيلَ: فهٰذا الحديثُ فيهِ مجهولٌ، وهو بَعْضُ بَني أبي رافعٍ، والمجهولُ لا تقومُ بِهِ حُجَّةٌ!

---

(١) برقم (٢١٩٦).
ورواه ـ من طريقهِ ـ البيهقيُّ (٧/ ٣٣٩).
وفيه جهالةٌ؛ كما سيذكره المصنِّف ـ بعدُ ـ ويُجيبُ عنه.

(٢) كناية عن أنه لا يقضي حاجتها، إما لعجزه، أو ضعفه.

فالجوابُ مِن وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنَّ الإمامَ أحمدَ قد قالَ في «المسندِ»[١]: حَدَّثَنا سعدُ بنُ إبراهيمَ: حدَّثَنا أبي عن محمَّدِ بنِ إسحاقَ؛ قالَ: حدَّثَني داودُ بنُ الحُصَيْنِ عَن عِكْرِمَةَ مولى ابنِ عبَّاسٍ عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: «طَلَّقَ رُكانَةُ بنُ عبدِ يَزيدَ ـ أخو المُطَّلِبِ ـ امرأتَهُ ثلاثاً في مجلسٍ واحدٍ، فحَزِنَ عليها حُزناً شديداً، فسألَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: كيفَ طلَّقْتَها؟ قالَ: طَلَّقْتُها ثلاثاً. قالَ: في مجلسٍ واحدٍ؟ قالَ: نعمْ، قالَ: فإنَّما تلكَ واحدةٌ، فأرْجِعْها إنْ شِئْتَ، قالَ: فراجَعَها».

قالَ: «وكانَ ابنُ عبَّاسٍ يرى أنَّ الطَّلاقَ عندَ كُلِّ طُهْرٍ».

ورواهُ الحافظُ أبو عبدِ اللَّهِ محمَّدُ بنُ عبدِ الواحِدِ المقدسيُّ في «مختارتِهِ» التي هي أصحُّ مِن «صحيحِ الحاكِمِ».

فهٰذا موافِقٌ للأوَّلِ، وكلاهُما موافِقٌ لحديثِ طاوسٍ، وأبي الصَّهباءِ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ.

وطاوسُ وعِكْرِمَةُ أعلمُ أصحابِ ابنِ عبَّاسٍ؛ فإنَّ عكرِمَةَ كانَ مولاهُ، مُصاحِباً لهُ، وكان يُقَيِّدُهُ على العلمِ، وكانَ طاوسُ خاصًّا عندَه يجتَمِعُ بهِ كثيراً، ويدخُلُ عليهِ مَعَ الخاصَّةِ، وكانَ طاوسُ وعِكْرِمَةُ يُفْتيانِ بأنَّ الثَّلاثَ واحدةٌ، وكذلك ابنُ إسحاقَ؛ لمَّا صَحَّ عندَهُ هٰذا الحديثُ؛ أفْتى بموجِبِهِ، وكانَ يقولُ: «جَهِلَ السُّنَّةَ، فيُرَدُّ إليها».

فرواةُ هٰذا الحديثِ أفْتَوْا بهِ وعَمِلوا بهِ.

---

(١) (١/ ٢٦٥)، والبيهقي (٧/ ٣٣٩)؛ من طريق داود بن الحصين عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس.

وداود بن الحُصين اختُلِف فيه، والعدلُ أنه ثقةٌ إلا في عكرمة؛ كما قال أبو داود وغيرُه. وهو ـ على ضعفه ـ شاهدٌ للرواية الأولى يدلُّ على ثبوتها. وجوَّد سنَدَه ابن تيمية في «الفتاوى» (٣/ ١٨).

وعنِ ابن عبَّاسٍ روايتانِ:

إحداهُما: مُوافَقَةُ عُمَرَ رضي الله عنه تأْديباً وتَعزيراً للمُطَلِّقينَ.

والثَّانيةُ: الإِفتاءُ بموجَبِهِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ هٰذا المجهولَ هُو مِن التَّابِعينَ، مِن أبناءِ مولى النبيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ، ولمْ يَكُنْ الكَذِبُ مشهوراً فيهِم، والقِصَّةُ معروفةٌ محفوظةٌ، وقد تابَعَهُ عليها داوُدُ بنُ الحُصَيْنِ، وهٰذا يَدُلُّ على أنَّهُ حَفِظَها[1].

فالقولُ بهٰذه الأحاديثِ موافِقٌ لظاهِرِ القرآنِ، ولأقوالِ الصَّحابَةِ، وللقياسِ، ومصالحِ بني آدَمَ.

أمَّا ظاهِرُ القرآنِ؛ فإنَّ اللَّهَ سبحانَهُ شَرَعَ الرَّجْعَةَ في كُلِّ طلاقٍ، إلا طلاقَ غيرِ المَدْخولِ بها، والمطلَّقَةَ طلقةً ثالثةً بعدَ الأُولَيَيْنِ. وليس في القرآنِ طلاقٌ بائِنٌ قَطُّ؛ إلَّا في هٰذينِ الموضِعَيْنِ، وأحدُهما: بائِنٌ غيرُ محرِّمٍ، والثَّاني: بائنٌ محرِّمٌ، وقالَ تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والمرَّتانِ ما كانَ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ؛ كما تقدَّمَ.

وأَمَّا القِياسُ؛ فإنَّ اللَّهَ سبحانَهُ قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِۙ﴾ [النور: ٦]، ثمَّ قالَ: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِۙ﴾ [النور: ٨].

فلو قالَ: أشهَدُ باللَّهِ أربَعَ شَهاداتٍ إنِّي صَادِقٌ، أو قالتْ: أشْهَدُ باللَّهِ أَرْبَعَ شَهادَاتٍ إنَّهُ كَاذِبٌ؛ كانَتْ شهادةً واحدةً، ولم تَكُنْ أَرْبعاً. فكيفَ يكونُ قولُهُ: أنْتِ طَالِقٌ ثلاثاً: ثلاثَ تَطْليقاتٍ؟ وأَيُّ قِياسٍ أَصَحُّ مِن هٰذا؟

وهٰذا كلُّ ما يُعْتَبَرُ فيهِ العدَدُ مِن الإقرارِ ونحوِهِ، ولهٰذا لو قالَ المُقِرُّ بالزِّنى: إنِّي أُقِرُّ بالزِّنى أَرْبَعَ مرَّاتٍ؛ كانَ ذٰلك مرَّةً واحدةً.

---

(١) فرواية كل منهما تؤيِّد الأخرى.

وقد قالَ الصَّحابَةُ لماعِزٍ[١]: «إنْ أقْرَرْتَ أرْبعاً؛ رَجَمَكَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ»، فلو قالَ: أُقِرُّ بهِ أربعَ مَرَّاتٍ؛ كانتْ مرَّةً واحدةً.

فهكذا الطَّلاقُ سواءٌ.

فهٰذا القِياسُ، وتلكَ الآثارُ، وذاكَ ظاهِرُ القُرآنِ.

وأمَّا أقوالُ الصَّحابَةِ؛ فيكفي كَوْنُ ذلك على عَهْدِ الصِّدِّيقِ، ومعه جميعُ الصَّحابَةِ، لم يخْتَلِفْ عليهِ منهُم أحدٌ، ولا حُكِيَ في زمانِه القولانِ[٢].

يَبْقى أنْ يُقالَ: فإذا خَفِيَ على أكثرِ النَّاسِ حُكْمُ الطَّلاقِ، ولم يُفَرِّقوا بينَ الحلالِ والحرامِ منهُ جهلاً، وأَوْقَعوا الطَّلاقَ المحرَّمَ يظنُّونه جائزاً، هل يستحقُّونَ العقوبَةَ بالإلزامِ بهِ؛ لكونِهِمْ لم يتعلَّموا دينَهُم الَّذي أمَرَهُم اللَّهُ تعالى بهِ، وأعْرَضوا عنهُ، ولم يسألُوا أهْلَ العِلْمِ: كيفَ يُطَلِّقونَ؟ وماذا أُبِيْحَ لهُمْ مِن الطَّلاقِ؟ وماذا يُحَرَّمُ عليهم منهُ؟

أَمْ يُقالُ: لا يَستَحِقُّونَ العُقوبَةَ؛ لأنَّ اللَّهَ سُبحانَهُ لا يُعاقِبُ شَرْعاً ولا قَدْراً إلَّا بعدَ قِيامِ الحُجَّةِ، ومخالَفَةِ أَمْرِهِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وأجْمَعَ النَّاسُ على أنَّ الحُدودَ لا تَجِبُ إلَّا على عالمٍ بالتَّحْريمِ، متعَمِّدٍ لارتكابِ أسبابِها، والتَّعْزيراتُ مُلْحَقَةٌ بالحُدودِ.

فهٰذا موضِعُ نظرٍ واجتهادٍ، فمَن طَلَّقَ على غيرِ ما شَرَعَهُ اللَّهُ تعالى وأباحَهُ جاهلاً، ثُمَّ عَلِمَ بهِ، فندِمَ، وتابَ، فهُو حَقيقٌ بأنْ لا يُعاقَبَ، وأنْ يُفْتَى بالمَخْرَجِ الَّذي جَعَلَهُ اللَّهُ تعالى لِمَنِ اتَّقاهُ، ويُجْعَلَ لهُ مِن أَمْرِه يُسْراً.

---

(١) هو ماعِز بن مالك الأسلمي.
وحديثه المشار إليه أخرجه: البخاري (١٢/ ١٢٠)، ومسلم (١٦٩١).

(٢) ولقد فصل المصنِّف ﷺ في الأصل تفصيلاً مطوَّلاً في إثبات ما تبنَّاه في هذه المسألة، ورد على الشبهات الواردة في الباب ردًّا مفصَّلاً: فقهيًّ، وحديثيًّ، وأصوليًّا، فمن أراد التوسع فيه فليراجع الأصل (١/ ٢٨٩ ـ ٣٣٧).

والمقصودُ أَنَّ النَّاسَ لَا بُدَّ لهُم في بابِ الطَّلاقِ مِن أَحدِ ثَلاثِ أبوابٍ يَدْخُلونَ مِنْها:

أَحَدُها: بابُ العلمِ والاعتدالِ، الذي بَعَثَ اللَّهُ تعالى بِهِ رسولَهُ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ، وشَرَعَهُ للأُمَّةِ رحمةً بِهِم، وإِحساناً إِليهِم.

والثَّاني: بابُ المَكْرِ والاحتيالِ، الذي فيه مِن الخِداعِ والتَّحيُّلِ، والتَّلاعُبِ بِحُدودِ اللَّهِ تعالى، واتِّخاذِ آياتِه هُزُواً ما فيهِ، ولكلٍّ بابٍ مِن المطلِّقينَ وغيرِهم جُزْءٌ مَقسومٌ.



٨ الحِيَلُ[1]

ومِن مكايدِهِ التي كَادَ بها الإسلامَ وأهْلَهُ: الحِيَلُ، والمَكْرُ، والخِداعُ الذي يتضمَّنُ تحليلَ ما حَرَّمَ اللَّهُ، وإِسقاطَ ما فَرَضَهُ، ومضادَّتَه في أَمْرِهِ ونَهْيِهِ، وهِي مِن الرَّأْيِ الباطلِ الذي اتَّفَقَ السَّلَفُ على ذَمِّهِ.

فإنَّ الرَّأْيَ رأيانِ:

رأيٌ يوافِقُ النُّصوصَ، وتَشْهَدُ لهُ بالصِّحَّةِ والاعتبارِ، وهو الذي اعتبَرَهُ السَّلَفُ، وعَمِلوا بهِ.

ورأيٌ يخالِفُ النُّصوص، وتَشْهَدُ لهُ بالإبطالِ والإهدار، فهو الَّذي ذمُّوهُ وأنْكَروهُ.

وكذٰلك الحِيَلُ نوعانِ:

نوعٌ يُتَوَصَّلُ بهِ إلى فِعْلِ ما أَمَرَ اللَّهُ تعالى بهِ، وتَرْكِ ما نهى عنهُ، والتَّخَلُّصِ مِن الحرامِ، وتخليصِ الحقِّ مِن الظَّالِمِ المانعِ لهُ، وتخليص المظلومِ مِن يَدِ الظَّالمِ الباغي، فهٰذا النَّوعُ محمودٌ يُثابُ فاعِلُه ومُعَلِّمُه.

ونوعٌ يتَضَمَّنُ إسقاطَ الواجباتِ، وتحليلَ المحرَّماتِ، وقَلْبَ المظْلومِ ظالماً، والظَّالِمَ مظلوماً، والحقَّ باطلاً، والباطِلَ حقًّا، فهٰذا النَّوْعُ الذي اتَّفقَ السَّلَفُ على ذمِّهِ، وصاحُوا بأهْلِهِ مِن أقطارِ الأرْضِ.

قالَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَجوزُ شيءٌ مِن الحِيَلِ في إبطالِ حَقِّ مسلمٍ».

وقال الميمونيُّ: قلتُ لأبي عبدِ اللَّهِ: مَن حلَفَ على يمينٍ، ثمَّ احتالَ لإبطالِها، فهَلْ تَجُوزُ تلكَ الحِيْلَةُ؟

---

(١) وللمصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ في «إعلام الموقعين» (٣/٤ ـ ١١٧) بحثٌ مطوَّلٌ في رد الحيل، وتفصيل القول فيها.

قالَ: نحنُ لا نَرى الحيلةَ إلَّا بما يَجُوزُ.

قلتُ: أَلَيْسَ حِيْلَتُنا فيها أَنْ نَتَّبع ما قالوا، وإذا وَجَدْنا لهُم قولاً في شيءٍ اتَّبَعْناهُ؟

قالَ: بلى. هٰكذا هو.

قلتُ: أَوَلَيْسَ هٰذا مِنَّا نحنُ حِيْلَةً؟

قالَ: نعم.

فبيَّنَ الإمامُ أحمدُ أنَّ مَنِ اتَّبَعَ ما شرَعَهُ اللَّهُ لهُ، وجاءَ عَنِ السَّلَفِ في مَعاني الأسْماءِ التي عُلِّقَتْ بها الأحْكامُ: ليس بمحتالِ الحِيَلَ المذمومَةَ، وإنْ سُمِّيَتْ حيلةً، فليس الكلامُ فيها.

وغَرَضُ الإمامِ أحمدَ بهٰذا: الفَرْقُ بينَ سُلوكِ الطَّريقِ المشروعَةِ التي شُرِعَتْ لحصولِ مقصودِ الشَّارعِ، وبينَ الطَّريقِ التي تُسْلَكُ لإبطالِ مَقْصودِهِ.

فهٰذا هو سِرُّ الفَرْقِ بينَ النَّوعَيْنِ، وكلامُنا الآنَ في النَّوْعِ الثَّاني.

قالَ شيخُنا(١): فالدَّليلُ على تحريمِ هٰذا النَّوْعِ وإبطالِهِ من وُجوهٍ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: قولُهُ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٨، ٩].

وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقالَ في أهْلِ العَهْدِ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢].

فأخْبَرَ ﷻ أنَّ هٰؤلاءِ المُخادعينَ مخدوعونَ، وهُم لا يَشْعُرونَ أنَّ اللَّهَ تَعالى خادعٌ مَن خَدَعَهُ، وأنَّهُ يَكْفي المَخْدوعَ شَرَّ مَن خَدَعَهُ.

---

(١) هو شيخ الإسلام ابن تيمية، والمصنِّف ﷺ ينقل من كتابه: «إقامة الدليل على بطلان التحليل» (١١٠/٣ ـ ضمن الفتاوى الكبرى).

والمُخادَعَةُ[1]: هِيَ الاحتيالُ، والمُراوَغَةُ بإظهارِ الخَيْرِ مَعَ إبطانِ خِلافِه، ليَحْصُلَ مَقصودَ المُخادِعِ.

وهٰذا موافِقٌ لاشتقاقِ اللفظِ في اللغةِ؛ فإنَّهُم يقولونَ: طَريقٌ خَيْدَع، إذا كانَ مُخالِفاً للقَصْدِ لا يُشعَرُ بِهِ، ولا يُفْطَنُ لهُ، ويُقالُ للسَّرابِ: الخَيْدَعُ؛ لأنَّهُ يَغُرُّ مَن يراهُ، وضَبٌّ خَدِعٌ، أي: مُراوِغٌ؛ كما قالوا: أَخْدَعُ مِن ضَبٍّ، ومنهُ: «الحَرْبُ خُدْعَةٌ»[2]، وسوقٌ خادِعَةٌ، أيْ: مُتَلَوِّنَةٌ. وأَصلُهُ: الإخفاءُ والسَّتْرُ، ومنهُ سُمِّيَتِ الخِزانَةُ مَخْدَعاً.

فَلَمَّا كَانَ القائِلُ: «آمَنْتُ»؛ مُظْهِراً لهٰذه الكَلِمَةِ، غيرَ مريدٍ حَقيقَتَها المرعِيَّةَ المطلوبَةَ شَرْعاً، بل مريدٌ لحُكْمِها وثَمَرَتِها فقطْ، مُخادِعاً، كانَ المتكَلِّمُ بلفظ: «بِعْتُ»، و«اشتَرَيْتُ»، و«طَلَّقْتُ»، و«نَكَحْتُ»، و«خالَعْتُ»، و«آجَرْتُ»، و«ساقَيْتُ»، و«أَوْصَيْتُ»؛ غير مُريدٍ لحقائِقِها الشّرعيةِ المطلوبَةِ منه شَرْعاً، بل مريدٍ لأمورٍ أُخرى غيرِ ما شُرِعَتْ لهُ، أو ضِدَّ ما شُرِعَتْ لهُ: مُخادِعاً، ذاكَ مخادِعٌ في أصلِ الإيمانِ، وهٰذا مُخادِعٌ في أعمالِه وشرائِعِهِ.

قالَ شيخُنا: وهٰذا ضَرْبٌ مِن النِّفاقِ في آياتِ اللّٰهِ تعالى وحُدودِهِ، كما أنَّ الأوَّلَ نِفاقٌ في أَصْلِ الدِّينِ.

يُؤيِّدُ ذٰلك ما رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللّٰهُ تعالى عنهُما: «أنَّهُ جاءَهُ رجلٌ فقالَ: إنّ عَمِّي طَلَّقَ امرأتَهُ ثلاثاً، أيُحِلُّها لهُ رجلٌ؟ فقالَ: مَن يُخادِعِ اللّٰهَ يَخْدَعْهُ».

وقالَ أيُّوبُ السَّخْتِيانيُّ في المُحتالينَ: «يُخادِعونَ اللّٰهَ كما يُخادِعونَ الصِّبْيانَ، فلو أَتَوْا الأمْر عياناً؛ كانَ أهْوَنَ عَلَيَّ».

وكذٰلك المُعاهِدونَ إذا أَظْهَروا للرَّسولِ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ١٤).

(٢) رواه: البخاري (٦/ ١١٠)، ومسلم (١٧٣٩)؛ عن جابر.

أَنَّهُ يُريدونَ سِلْمَهُ، وهم يَقْصِدونَ المَكْرَ بهِ من حيثُ لا يشعُرُ، فيُظْهِرُونَ لهُ أَماناً، ويُبْطِنونَ لهُ خِلافَهُ، كما أَنَّ المحلِّلَ والمرابي يظهرانِ النِّكاحَ والبَيْعَ المقصودَيْنِ، ومقصودُ هٰذا: الطَّلاقُ بعدَ استفراشِ المرأةِ، ومقصودُ الآخرِ: ما تواطأَ عليهِ قبلَ إظهارِ العَقْدِ، مِن بيعِ الألفِ الحالَّةِ بالألْفِ والمئتينِ إلى أَجلٍ، فمخالَفَةُ ما يدلُّ عليهِ العَقْدُ شَرعاً أو عُرْفاً: خَديعَةٌ.

قالَ[1]: وتَلْخيصُ ذٰلك أَنَّ مُخادَعَةَ اللّٰهِ تعالى حرامٌ، والحِيَلَ مخادَعَةٌ للّٰهِ:

بيانُ الأوَّلِ: أَنَّ اللّٰهَ تعالى ذَمَّ المنافِقينَ بالمُخادَعَةِ، وأَخْبَرَ أَنَّهُ خادِعُهُم، وخَدْعُهُ للعبدِ عقوبَةٌ تَسْتَلْزِمُ فِعْلَهُ للمحرَّمِ.

وبيانُ الثّاني [من أوجهٍ أحدها]: أَنَّ ابنَ عبّاسٍ وأنساً وغيرَهُما مِن الصَّحابَةِ والتّابعينَ أَفْتَوا: أَنَّ التَّحليلَ ونحْوَهُ مِن الحِيَلِ مخادَعَةٌ للّٰهِ تعالى، وهُم أَعْلَمُ بكتابِ اللّٰهِ تعالى.

الثّاني: أَنَّ المخادَعَةَ إظهارُ شيءٍ مِن الخيرِ، وإبطانُ خلافِهِ، كما تقدَّمَ.

الثّالِثُ: أَنَّ المنافِقَ لمَّا أَظهَرَ الإسلامَ، ومرادُهُ غيرُهُ، سُمِّيَ مخادِعاً للّٰهِ تعالى، وكذٰلك المُرابي؛ فإنَّ النِّفاقَ والرِّبا من بابٍ واحدٍ.

فإذا كانَ هٰذا الَّذي أَظْهَرَ قولاً غيرَ مُعتَقِدٍ ولا مُريدٍ لما يُفْهَمُ منهُ، وهٰذا الَّذي أَظْهَرَ فِعلاً غيرَ معتَقِدٍ ولا مُريدٍ لما شُرِعَ لهُ: مخادعاً.

فالمُحْتالُ لا يخرُجُ عن أحدِ القسمينِ:

إمَّا إظهارُ فعلٍ لغيرِ مقصودِهِ الَّذي شُرِعَ لهُ.

أو إظهارُ قولٍ لغيرِ مقصودِهِ الذي شُرِعَ لهُ.

وإذا كانَ مشارِكاً لهُما في المعنى الذي سُمِّيا بهِ مخادِعَيْنِ؛ وَجَبَ أَنْ يَشْرَكَهُما في اسمِ الخِداعِ، وعُلِمَ أَنَّ الخِداعَ اسمٌ لعُمومِ الحِيَلِ، لا لِخُصوصِ هٰذا النِّفاقِ.

---

(١) يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ، وما بين معكوفين من أصل كتابه.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ اللَّهَ تعالى ذَمَّ المستهْزِئينَ بآياتِه، والمتكلِّمَ بالأقوالِ التي جَعَلَ الشَّارعُ لها حقائقَ ومقاصِدَ؛ مثلِ كلمةِ الإيمانِ، وكلمةِ اللَّهِ تعالى التي يستَحِلُّ بها الفروجَ، ومِثْلِ العهودِ والمواثيقِ التي بينَ المتعاقِدَيْنِ، وهو لا يريدُ بها حقائِقَها المقوِّمَةَ لها، ولا مقاصِدَها التي جُعِلَتْ هٰذه الألفاظُ مُحَصِّلَةً لها، بل يُريدُ أنْ يُراجِعَ المرأةَ ليَضُرَّها ويُسيءَ عِشْرَتَها، ولا حاجةَ له في نِكاحِها، أو يَنْكِحَها ليُحِلَّها لمطلِّقها، لا ليتَّخِذَها زوجاً، أوْ يَخْلَعَها ليَلْبِسَها، أو يبيعَ بَيْعاً جائزاً، ومقصودُهُ بِهِ ما حَرَّمَهُ اللَّهُ تعالى ورسولُهُ، فهُو مِمَّنِ اتَّخذَ آياتِ اللَّهِ تعالى هُزُواً.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللَّهَ سبحانَه أخبرَ عن أهلِ الجنَّةِ الذينَ بلاهُم مِمَّا بلاهُم بهِ في سورةِ (نٓ)[1]، وهُم قومٌ كانَ للمساكينِ حقٌّ في أموالِهم إذا جَدُّوا[2] نهاراً، بأنْ يَلْتَقِطَ المساكينُ ما يتساقَطُ مِن الثَّمَرِ، فأرادُوا أنْ يَجُدُّوا ليلاً ليسْقُطَ ذٰلك الحَقُّ، ولئلَّا يَأْتِيَهُم مسكينٌ، وأنَّهُ عاقَبَهُم بأنَّهُ أرسَلَ على جَنَّتِهِم طائفاً وهُم نائمونَ، فأصْبَحَتْ كالصَّريمِ[3].

وذٰلك لمَّا تَحيَّلوا على إسقاطِ نصيبِ المساكينِ، بأنْ يَصْرِموها مُصْبِحينَ، قبلَ مَجيءِ المساكينِ، فكانَ في ذٰلك عِبرةٌ لكُلِّ محتالٍ على إسقاطِ حَقٍّ مِن حُقوقِ اللَّهِ تعالى أو حُقوقِ عِبادهِ.

الوَجْهُ الرَّابعُ: أنَّ اللَّهَ تعالى أخبرَ عن أهْلِ السَّبْتِ مِن اليهودِ[4] بِمَسْخِهِمْ قِردةً، لمَّا احتالوا على إباحَةِ ما حرَّمَهُ اللَّهُ تعالى عليهِمْ مِن الصَّيْدِ، بأنْ نَصَبُوا الشِّباكَ يومَ الجُمُعَةِ، فلمَّا وَقَعَ فيها الصَّيْدُ أخذوهُ يومَ الأحدِ.

قالَ بعضُ الأئمَّةِ: ففي هٰذا زَجْرٌ لمَنْ يَتَعاطى الحِيَلَ على المَناهي

---

(١) آية ١٧ ـ ٣٣.
والجنة: هي البستان المشتمل على أنواع الفاكهة والثمرات.
(٢) هو قطعُ ثمار النخل.
(٣) أي: احترقتْ واسودَّت.
(٤) الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٧.

الشَّرعيَّةِ، ممَّنْ يَتَلَبَّسُ بعِلْمِ الفِقهِ، وهُو غيرُ فقيهٍ، إذِ الفقيهُ مَن يَخْشى اللّٰهَ تَعالى بحِفْظِ حُدودِهِ، وتعظيمِ حُرُماتِهِ، والوقوفِ عندَها، ليس المتَحَيِّلَ على إباحَةِ محارِمِهِ، وإسقاطِ فرائِضِهِ.

ومعلومٌ أنَّهُ لم يستَحِلُّوا ذٰلك تكذيباً لموسى ﷺ، وكُفْراً بالتوراةِ، وإنَّما هو استحلالُ تأويلٍ واحتيالٍ، ظاهِرُهُ ظاهرُ الاتِّقاءِ، وباطنُهُ باطِنُ الاعتداءِ، ولهٰذا ـ واللّٰهُ أعلمُ ـ مُسِخُوا قِردةً؛ لأنَّ صورَةَ القِرْدِ فيها شَبَهٌ مِن صُورَةِ الإنسانِ، وفي بعضِ ما يُذْكَرُ مِن أوصافِهِ شَبَهٌ منهُ، وهو مخالفٌ لهُ في الحدِّ والحقيقةِ.

فلمَّا مَسَخَ أُولٰئكَ المعتدونَ دِينَ اللّٰهِ تعالى، بحيثُ لم يتمَسَّكُوا إلَّا بما يُشْبِهُ الدِّينَ في بعضِ ظاهِرِهِ دونَ حقيقَتِهِ، مسخَهُمُ اللّٰهُ تعالى قِرَدةً، يشبِّهُونَهُم في بعضِ ظواهِرِهِم، دونَ الحقيقةِ؛ جزاءً وفاقاً.

يُوضِحُهُ:

الوَجْهُ الخامِسُ: أنَّ بَني إسرائيلَ كانُوا أكَلُوا الرِّبا، وأموالَ النَّاسِ بالباطِلِ، كما قصَّهُ اللّٰهُ تعالى في كتابِهِ[1]، وذٰلك أعْظَمُ مِن أكْلِ الصَّيْدِ الحرامِ في يومٍ بعَيْنِهِ، ولذٰلك كانَ الرِّبا والظُّلْمُ حَراماً في شَريعَتِنا، والصَّيْدُ يوم السَّبْتِ غيرَ محرَّمٍ فيها.

ثمَّ إنَّ أكَلَةَ الرِّبا وأموالِ النَّاسِ بالباطِلِ لم يُعاقَبوا بالمَسْخِ، كما عُوقِبَ بهِ مُسْتَحِلُّو الحرامِ بالحيلةِ، وإنْ كانُوا عُوقِبُوا بجِنْسٍ آخَرَ؛ كعُقوباتِ أمثالِهِمْ مِن العُصاةِ.

فيُشْبِهُ ـ واللّٰهُ أعلَمُ ـ أنَّ هٰؤلاءِ لمَّا كانُوا أعْظَمَ جرْماً إذ هُمْ بمنزلَةِ المنافِقينَ، ولا يعْتَرِفونَ بالذَّنْبِ، بل قد فَسَدَتْ عَقِيدَتُهُم وأعمالُهُم، كانَتْ عُقوبَتُهم أغلَظَ مِن عُقوبَةِ غيرِهِم، فإنَّ مَن أكَلَ الرِّبا والصَّيْدَ الحرامَ عالِماً بأنَّهُ

---

(١) النساء: ١٦٠ ـ ١٦١.

حرامٌ، فقدِ اقْتَرَنَ بمعصيتِه اعترافُهُ بالتَّحريمِ، وهو إيمانٌ باللَّهِ تعالى وآياتِهِ، ويترَتَّبُ على ذٰلك مِن خَشْيَةِ اللَّهِ تَعالى، ورجاءِ مَغْفِرَتِه، وإمكانِ التَّوبَةِ، ما قَدْ يُفْضِي بِهِ إلى خيرٍ ورحمةٍ، ومَن أكَلَهُ مُسْتَحِلّاً لهُ بنوعِ احتيالٍ تأَوَّلَ فيهِ، فهُو مُصِرٌّ على الحرامِ، وقد اقتَرَنَ بِهِ اعتقادُهُ الفاسِدُ في حِلِّ الحرامِ، وذٰلك قَدْ يُفْضي بِهِ إلى شَرٍّ طويلٍ.

وقد جاءَ ذِكْرُ المسخِ في عِدَّةِ أحاديثَ؛ كقولِهِ في حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ، الذي رواهُ البخاريُّ في «صحيحِهِ»[1] : «ويَمْسَخُ آخَرينَ قِرَدَةً وخَنازِيرَ إلى يومِ القيامَةِ»، وغيره.

فالمَسْخُ على صورَةِ القِرَدَةِ والخنازِيرِ واقعٌ في هٰذه الأمَّةِ ولا بدَّ، وهو في طائفتَيْنِ:

علماءِ السُّوءِ الكاذبينَ على اللَّهِ ورسولِهِ، الذينَ قَلَبُوا دِينَ اللَّهِ تعالى وشَرْعَهُ، فقَلَبَ اللَّهُ تعالى صُوَرَهُمْ كما قَلَبُوا دِيْنَهُ.

والمُجاهِرينَ المُتَهَتِّكينَ بالفِسْقِ والمحارِمِ، ومَنْ لَمْ يُمْسَخْ منهُم في الدُّنْيا مُسِخَ في قَبْرِهِ، أو يومَ القيامَةِ.

وبكلِّ حالٍ فالمَسْخُ لأجْلِ الاستحلالِ بالاحتيالِ قد جاءَ في أحاديثَ كثيرةٍ.

قالَ شيخُنا: وإنَّما ذٰلكَ إذا اسْتَحَلُّوا هٰذه المحرَّمات بالتأويلاتِ الفاسِدةِ؛ فإنَّهُم لو استَحَلُّوها ـ معَ اعتقادِ أنَّ الرَّسولَ حَرَّمَها ـ كانُوا كُفَّاراً، ولم يكونوا مِن أُمَّتِهِ، ولو كانُوا مُعْتَرفينَ بأنَّها حرامٌ لأوْشَكَ أنْ لا يُعاقَبُوا بالمَسْخِ؛ كسائرِ الذينَ يفعَلُونَ هٰذه المَعاصي، مع اعترافِهِمْ بأنَّها معصيةٌ، ولَمَا قيلَ فيهِم: يَسْتَحِلُّونَ؛ فإنَّ المستَحِلَّ للشَّيْءِ هُو الَّذي يفعَلُهُ معتَقِداً حِلَّهُ، فيُشْبِهُ أنْ يكونَ استِحْلالُهُم للخمرِ، يعني أنَّهُم يُسَمُّونَها بغيرِ اسمِها، فيشرَبونَ الأنبِذَةَ المحرَّمَةَ،

---

(١) انظر: (ص ٢٩٦) مما تقدَّم.

ولا يسمُّونَها خمراً، واستحلالُهُم المعازِفَ باعتقادِهِمْ أنَّ آلاتِ اللَّهْوِ مجَرَّدُ سَمْعِ صَوْتٍ فيهِ لَذَّةٌ، وهٰذا لا يَحْرُمُ كأصواتِ الطُّيورِ[1]، واستحلالِ الحريرِ وسائرِ أنواعِهِ باعتقادِهِم أنَّهُ حلالٌ في بعضِ الصُّورِ، كحالِ الحربِ، وحالِ الحِكَّةِ، فيقيسونَ عليهِ سائرَ الأحْوالِ ويقولونَ: لا فَرْقَ بينَ حالٍ وحالٍ.

وهٰذه التأْويلاتُ ونحوُها واقعةٌ في الطَّوائفِ الثَّلاثةِ الَّذينَ قالَ فيهِم عبدُ اللَّهِ بنُ المُبارَكِ رَحِمَهُ اللهُ:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا المُلو كُ وأَحْبَارُ سُوءٍ ورُهْبانُها[2]

ومعلومٌ أنَّها لا تُغْني عن أصحابِها مِن اللَّهِ شيئاً، بعدَ أنْ بَلَّغَ الرَّسولُ، وبَيَّنَ تحريمَ هٰذه الأشياءِ بياناً قاطعاً للعُذْرِ، مُقيماً للحُجَّةِ.

---

(١) انظر: جواب المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ على هذه الشبهة في «الكلام على مسألة السماع» (ص٣٦٠ ـ ٣٧٦).

(٢) قال ابن أبي العز الحنفي في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٣٥): «وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق كما قال عبد الله بن المبارك رحمة الله عليه».
ثم ذكر البيت الذي أورده المصنِّف، وقال:
«فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويعارضونها بها، ويقدِّمونها على حكم الله ورسوله.
وأحبار السوء هم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، المتضمِّنة تحليل ما حرَّم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاقَ ما قيَّده، وتقييد ما أطلقه، ونحو ذٰلك.
والرهبان: هم جُهّال المتصوفة المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمِّنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعَه على لسان نبيه ﷺ، والتعوضَ عن حقائق الإيمان بخِدَعِ الشيطان وحُظوظ النفس.
فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشريعة قدَّمنا السياسة!
وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل!
وقال أصحاب الذوق: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدَّمنا الذوق والكشف!». انتهى. وهو كلام عظيم جدًا، رحم الله قائله رحمة واسعة.

الوجْهُ السَّادِسُ: أَنَّ النبيَّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ؛ قالَ: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ وإنَّما لكُلِّ امرئٍ مَا نَوَى... الحديث»[1].

وهو أَصْلٌ في إبطالِ الحِيَلِ، وبهِ احتَجَّ البخاريُّ[2] على ذلك.

فإنَّ مَن أرادَ أنْ يعامِلَ رجُلاً معاملةً يعطيهِ فيها ألفاً بألفٍ وخمس مئةٍ إلى أجلٍ، فأقْرَضَهُ تسع مئةٍ، وباعَهُ ثوباً بستِّ مئةٍ يساوي مائةً؛ إنّما نوى بإقراضِ التِّسعِ مئةٍ تحصيلَ الرِّبحِ الزَّائدِ، وإنَّما نوى بالستِّ مئةٍ التي أَظْهَرَ أنَّها ثمنُ الثَّوب: الرِّبا. واللَّهُ يعلَمُ مِن جِذْرِ قَلْبِهِ، وهو يعْلَمُهُ، ومَن عامَلَهُ يعْلَمُه، ومَن اطَّلَعَ على حقيقةِ الحالِ يعلَمُه.

فليسَ لهُ مِنْ عَمَلِهِ إلَّا ما نَواهُ وقَصَدَه حقيقةً مِن إعطاءِ الألفِ حالَّةً، وأخْذِ الألفِ والخمسِ مئةٍ مؤجَّلَةً، وجعلِ صورةِ القَرْضِ وصورةِ البَيْعِ محلِّلاً لهٰذا المحرَّمِ.

الوجْهُ السَّابِعُ: وهُو ما روى ابنُ عبَّاسٍ؛ قالَ: «بَلَغَ عُمَرَ ﷺ أنَّ فلاناً باعَ خمراً، فقالَ: قاتَلَ اللَّهُ فلاناً، ألَمْ يَعْلَمْ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ قالَ: «قاتَلَ اللَّهُ اليهودَ، حُرِّمَتْ عليهِمْ الشُّحومُ، فجَمَلوها، فباعُوها» متَّفقٌ عليهِ[3].

قالَ الخَطَّابي[4]: «جَمَلُوها: معناهُ: أذابوها، حتى تصيرَ وَدَكاً، فيزولَ عنها اسمُ الشَّحْمِ، يُقالُ: جَمَلْتُ الشَّحْمَ، وأَجْمَلْتُه، واجْتَمَلْتُهُ، والجَميلُ: الشَّحْمُ المذابُ»[5].

---

(١) وهو في الكتب الستة، وانظر: تخريجه مطوّلاً في «لحطة في ذكر الصحاح الستة» (١٤١ و٢٨٩) لصديق حسن خان، بتحقيقي.

(٢) في «صحيحه» (٢/٣٢٧): بابٌ في ترك الحيل...

(٣) رواه: البخاري (٥/٣١٩)، ومسلم (١٥٨٢).

(٤) في «أعلام السنن» (٢/١٠٠) تحقيق الدكتور محمد بن سعد آل سعود.

(٥) انظر: «نهاية ابن الأثير» (١/٢٩٨).

قالَ الإمامُ أحمدُ في روايةِ صالحٍ وأبي الحارثِ في أصحابِ الحِيَلِ: «عَمَدُوا إلى السُّنَنِ فاحْتالوا في نَقْضِها، فالشَّيْءُ الذي قيلَ: إنَّهُ حرامٌ، احتالوا فيهِ حتَّى أحَلُّوهُ».

ثمَّ احْتَجَ بهٰذا الحديثِ، وحديثِ: «لَعَنَ اللَّهُ المحلِّلَ والمحلَّلَ لهُ»(١).

قالَ الخَطَّابِيُّ - وقد ذَكَرَ حَديثَ الشُّحوم -: في هٰذا الحديثِ بُطلانُ كُلِّ حيلةٍ يَحْتالُ بها المتوصِّلُ إلى المحرَّمِ، وأنَّهُ لا يتغيَّرُ حُكْمُهُ بتغيُّرِ هيآتِهِ، وتبديلِ اسمِهِ، وقد مُثِّلَتْ حيلةُ أصحابِ الشُّحومِ بمَنْ قيلَ لهُ: لا تَقْرَبْ مالَ اليتيم، فبَعَهُ، وأخَذَ ثَمَنَهُ، فأكَلَهُ، وقالَ: لم آكُلْ نفسَ مالِ اليتيم، أو اشترى شيئاً في ذِمَّتِهِ ونَقَدِه، وقالَ: هٰذا قَدْ مَلَكْتُهُ وصارَ عِوَضُهُ دَيناً في ذِمَّتي، فإنَّما أكَلْتُ ما هُو مِلْكي ظاهِراً وباطناً.

ولولا أنَّ اللَّهَ سبحانه رَحِمَ هٰذه الأمَّةَ بأنَّ نبيَّها نبَّهَهُمْ على ما لُعِنَتْ بِهِ اليهودُ، وكانَ السَّابقونَ منها فُقهاءَ أتقياءَ، عَلِمُوا مَقصودَ الشَّارعِ، فاستقَرَّتِ الشَّريعَةُ بتحريمِ المحرَّماتِ مِن الميتَةِ والدَّمِ ولَحْمِ الخِنزيرِ، وغيرِها، وإنْ تَبَدَّلَتْ صُوَرُها، وبتحريم أثمانِها. لطرَّقَ الشَّيطانُ لأهْلِ الحِيَلِ ما طرَّقَ لهُم في الأثْمانِ ونحوِها، إذ البابانِ بابٌ واحدٌ على ما لا يَخْفى.

الوَجْهُ الثَّامِنُ: أنَّ بابَ الحِيَلِ المحرَّمَةِ مَدارُهُ على تسمِيَةِ الشَّيْءِ بغيرِ اسمِهِ، وعلى تغييرِ صورتِهِ معَ بقاءِ حقيقتِهِ، فمدارُهُ على تغييرِ الاسمِ معَ بقاءِ المسمَّى، وتغييرِ الصُّورَةِ معَ بقاءِ الحقيقةِ.

فإنَّ المحلِّلَ مثلاً غيَّرَ اسمَ التَّحليلِ إلى اسمِ النِّكاحِ، واسمَ المحلِّلِ إلى الزَّوْجِ، وغيَّرَ مسمَّى التَّحليلِ، بأنْ جَعَلَ صورَتَهُ صورَةَ النِّكاحِ. والحقيقةُ حقيقةُ التَّحليلِ.

ومعلومٌ قَطْعاً أنَّ لَعْنَ رسولِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ على ذٰلك

(١) سبق تخريجه.

إنَّما هُو لما فيهِ مِن الفسادِ العظيمِ، الذي اللعنةُ مِن بعضِ عقوبَتِهِ، وهٰذا الفسادُ لم يَزُلْ بتغييرِ الاسمِ والصُّورَةِ، مع بقاءِ الحقيقةِ، ولا بتقديمِ الشَّرْطِ مِن صُلْبِ العَقْدِ إلى ما قَبْلَهُ؛ فإنَّ المفسدَةَ تابِعَةٌ للحقيقةِ، لا للاسمِ، ولا لمجرَّدِ الصُّورَةِ.

وكذٰلك المفسدَةُ العظيمَةُ التي اشتَمَلَ عليها الرِّبا، لا تزولُ بتغييرِ اسمِهِ مِن الرِّبا إلى المعاملةِ، ولا بتغييرِ صورتِهِ مِن صورةٍ إلى صورةٍ، والحقيقةُ معلومةٌ متَّفَقٌ عليها بينهُما قبلَ العَقْدِ، يعلَمُها مِن قلوبِهِما عالِمُ السَّرائِرِ، فقد اتَّفقا على حقيقةِ الرِّبا الصَّريحِ قبلَ العقدِ، ثمَّ غيَّرَ اسمَهُ إلى المعاملةِ، وصورَتَهُ إلى التَّبايُعِ الذي لا قَصْدَ لهما فيهِ ألبتَّةَ، وإنَّما هو حيلةٌ ومَكْرٌ، ومخادَعَةٌ للّٰهِ تعالى ولرسولِهِ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ.

وأيُّ فَرْقٍ بينَ هٰذا وبينَ ما فَعَلَتْهُ اليهودُ مِن استحلالِ ما حَرَّمَ اللّٰهُ عليهِمْ مِنَ الشُّحومِ بتغييرِ اسمِهِ وصورَتِهِ؟ فإنَّهُم أذابوهُ حتى صارَ وَدَكاً، وباعُوهُ، وأكلوا ثَمَنَهُ، وقالُوا: إنَّما أكَلْنا الثَّمَن، لا المثمَنَ، فلم نأْكُلْ شَحْماً.

وكذٰلكَ مَنِ استَحَلَّ الخمرَ باسمِ النَّبيذِ، كما في حَديثِ أبي مالكٍ الأشعَرِيِّ ﷺ عن النبيِّ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليه وآلِهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ: «لَيَشْرَبَنَّ ناسٌ مِنْ أُمَّتي الخَمْرَ، يسمُّونَها بغيرِ اسمِها، يُعْزَفُ على رؤوسِهِم بالمعازِفِ والمُغَنِّياتِ، يَخْسِفُ اللّٰهُ بهِمُ الأرْضَ، ويجْعَلُ منهُم القردَةَ والخَنازيرَ»(١).

وإنَّما أُتِيَ هٰؤلاءِ مِن حيثُ استَحَلُّوا المحرَّماتِ بما ظَنُّوهُ مِن انتفاءِ الاسمِ، ولم يلْتَفِتُوا إلى وجودِ المعنى المحرَّمِ وثبوتِهِ!

وهٰذا بعَيْنِهِ هو شُبْهَةُ اليهودِ في استحلالِ بيعِ الشَّحْمِ بعدَ جَمْلِهِ، واستحلالِ أَخْذِ الحيتانِ يومَ الأحدِ بما أَوْقَعوه بهِ يومَ السَّبْتِ في الحفائِرِ

---

(١) انظر ما سبق (ص٢٩٦)، وترى تخريجه في رسالتي «الكاشف في تصحيح رواية البخاري لحديث المعازف...» (ص٤٣ ـ ٤٦).

والشِّباكِ مِن فِعْلِهِم يومَ الجُمعةِ، وقالوا: ليسَ هٰذا صيدَ يومِ السَّبْتِ، ولا استباحةَ لنفسِ الشَّحْمِ، بل الذي يَسْتَحِلُّ الشَّرابَ المسكِرَ، زاعماً أنَّهُ ليسَ خمراً، مع علمِهِ أنَّ معناهُ معنى الخمرِ، ومقصودَهُ مقصودُهُ، وعملَهُ عملُهُ، أفسدُ تأويلاً، فإنَّ الخمرَ اسمٌ لكُلِّ شرابٍ مُسْكِرٍ؛ كما دَلَّتْ عليهِ النُّصوصُ الصَّحيحَةُ الصَّريحةُ.

فهٰؤلاءِ إنَّما شَرِبُوا الخمرَ استحلالاً لمّا ظَنُّوا أنَّ المحرَّمَ مجرَّدُ ما وَقَعَ عليهِ اللفظُ، وأنَّ ذٰلك اللفظَ لا يتناوَلُ ما استَحَلُّوهُ.

وكذٰلكَ شُبْهَتُهُمْ في استحلالِ الحريرِ والمعازِفِ؛ فإنَّ الحريرَ أُبيحَ للنِّساءِ وأُبيحَ للضَّرورةِ، وفي الحربِ، وقد قالَ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والمعازِفُ قد أُبيحَ بعضُها في العُرْسِ ونحوِه، وأُبيحَ الحُداءُ، وأُبيحَ بعضُ أنواعِ الغِناءِ!

وهٰذه الشُّبْهَةُ أقوى بكثيرٍ مِن شُبَهِ أصحابِ الحِيَلِ، فإذا كانَ مِن عقوبَةِ هٰؤلاءِ: أنْ يُمْسَخَ بعضُهُم قردةً وخَنازِيرَ، فما الظَّنُّ بعقوبَةِ مَن جُرْمُهُم أعظمُ، وفِعْلُهُم أقبحُ؟

فالقومُ الذي يُخْسَفُ بِهِمْ ويُمْسَخُونَ، إنَّما فُعِلَ ذٰلك بهِمْ مِن جِهَةِ التَّأويلِ الفاسِدِ، الذي استَحَلُّوا به المحارِمَ بطريقِ الحيلةِ، وأَعْرَضوا عنْ مقصودِ الشَّارعِ وحِكْمَتِهِ في تحريمِ هٰذه الأشياءِ، ولذٰلك مُسِخُوا قردةً وخَنازِيرَ، كما مُسِخَ أصحابُ السَّبْتِ بِما تَأَوَّلوا مِنَ التَّأويلِ الفاسِدِ الذي اسْتَحَلُّوا بِهِ المحارِمَ، وخُسِفَ ببعضِهِم كما خُسِفَ بقارُونَ[1]؛ لأنَّ في الخمرِ والحريرِ والمعازفِ مِنَ الكِبْرِ والخُيلاءِ ما في الزِّينَةِ التي خَرَج فيها قارونُ على قومِهِ، فلمَّا مَسَخوا دِينَ اللّٰهِ تعالى مَسَخَهُم اللّٰهُ، ولمَّا تَكَبَّروا عنِ الحقِّ أَذَلَّهُمُ اللّٰهُ تعالى، فلما جَمَعُوا بينَ الأمْرَيْنِ جَمَعَ لهُم بينَ هاتَيْنِ العقوبَتَيْنِ، وما هي مِن

(١) كما ذكره ربُّنا سبحانه عنه في سورة القصص: ٧٥ ـ ٨٢.

الظَّالِمينَ ببعيدٍ، وقد جاءَ ذكرُ المسخِ والخَسْفِ في عدَّةِ أحاديثَ، تقدَّمَ ذِكْرُ بعضِها.

• الحِيَلُ الرِّبَوِيَّةُ:

ومِن المعلومِ أنَّ الرِّبا لمْ يُحَرَّمْ لمجرَّدِ صورَتِه ولفظِهِ، وإنَّما حُرِّمَ لحقيقَتِهِ ومعناهُ ومقصودِهِ، وتلكَ الحقيقةُ والمعنى والمقصودُ قائمةٌ في الحِيَلِ الرِّبَوِيَّةِ كقيامِها في صريحِهِ سواءً، والمتعاقِدانِ يعلمانَ ذٰلك مِن أنْفُسِهِما، ويَعْلَمُهُ مَن شاهَدَ حالَهُما، واللَّهُ يَعْلَمُ أنَّ قصْدَهُما نفسُ الرِّبِ، وإنَّما توسَّلا إليهِ بعقدٍ غيرِ مقصودٍ، وسمَّياهُ باسمٍ مستعارٍ غيرِ اسمِهِ!

ومعلومٌ أنَّ هٰذا لا يدفَعُ التَّحريمَ، ولا يرفَعُ المفسدَةَ التي حُرِّمَ الرِّبا لأجْلِها، بل يزيدُها قُوَّةً وتأكيداً مِن وجوهٍ عديدةٍ:

منها: أنَّهُ يُقْدِمُ على مُطالبةِ الغريمِ المحتاجِ بقوَّةٍ لا يُقْدِمُ بمثلِها المُرْبي صريحاً؛ لأنَّهُ واثِقٌ بصورَةِ العَقْدِ واسمِهِ.

ومنها: اعتقادُهُ أنَّ ذٰلك تجارةٌ حاضرةٌ مُدارَةٌ، والنُّفوسُ أرْغَبُ شيءٍ في التِّجارَةِ، فهو في ذٰلك بمنزِلَةِ مَن أحبَّ امرأةً حُبًّا شديداً، ويمنَعُهُ مِن وصالِها كَوْنُها محرَّمةً عليهِ، فاحتالَ لها أنْ أَوْقَعَ بينَه وبينَها صورةَ عقْدٍ لا حقيقةَ لهُ، يأمَنُ بهِ مِن بشاعَةِ الحرامِ وشَناعَتِهِ، فصارَ يأْتيها آمناً، وهُما يعلمانِ في الباطِنِ أنَّها ليستْ زوجَتُه، وإنّما أظْهَرا صورةَ عقْدٍ يتوصَّلانِ بهِ إلى الغَرَضِ.

ومِن المعلومِ أنَّ هٰذا يزيدُ المفسدَةَ التي حَرَّمَ الحكيمُ الخبيرُ لأجْلِها الرِّبا والزِّنى قوَّةً؛ فإنَّ اللَّهَ ﷻ حَرَّمَ الرِّبا لما فيهِ مِن ضَرَرِ المحتاجِ، وتعريضِهِ للفقرِ الدَّائمِ، والدَّيْنِ اللازِمِ الذي لا يَنْفَكُّ عنهُ، وتَوَلُّدِ ذٰلك وزيادَتِهِ إلى غايَةٍ تجتاحُهُ وتَسْلُبُهُ مَتاعَهُ وأثاثَهُ؛ كما هُو الواقعُ في الواقعِ.

فالرِّبا أخو القِمارِ، الذي يَجعَلُ المقمورَ سليباً حَزيناً مَحْسوراً.

فمِنْ تَمامِ الشَّريعَةِ الكامِلَةِ المنتَظِمَةِ لمصالحِ العبادِ: تحريمُهُ، وتحريمُ

الذَّريعةِ الموصِلَةِ إليهِ، فكيفَ يُظَنُّ بالشَّارعِ معَ كمالِ حِكْمَتِهِ أنْ يُبيحَ التَّحَيُّلَ والمكرَ على حصولِ هٰذه المفسدَةِ، ووقوعِها زائدةً متضاعِفَةً بأكْلِ المحتال فيها مالَ المحتاجِ أَضْعافاً مضاعَفَةً؟

ولو سَلَكَ مثلَ هٰذا بعضُ الأطِبَّاءِ مَعَ المرضى لأهْلَكَهُم، فإنَّ ما حَرَّمَ اللَّهُ تعالى ورسولُهُ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ مِنَ المحرَّماتِ إنَّما هو حِمْيَةٌ لحفظِ صحَّةِ القلبِ، وقوَّةِ الإيمان، كما أنَّ ما يَمْنَعُ منهُ الطَّبيبُ ممَّا يَضُرُّ المريضَ حِمْيَةٌ لهُ، فإذا احتالَ المريضُ أو الطَّبيبُ على تناوُلِ ذٰلك المؤذِي بتغييرِ صورَتِه، مع بقاءِ حقيقتِه وطَبْعِه، أو تغييرِ اسمِه مع بقاءِ مسمَّاهُ، ازدادَ المريضُ بتناوُلِهِ مرضاً إلى مرضِهِ، وتَرامى بهِ إلى الهَلاكِ، ولم يَنْفَعْهُ تغيُّرُ صورَتِه، ولا تبدُّلُ اسمِهِ.

وأنْتَ إذا تأمَّلْتَ الحِيَلَ المتضمِّنَةَ لتحليلِ ما حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ، وإسقاطِ ما أوْجَبَ، وحِلِّ ما عَقَدَ، وجَدْتَ الأمرَ فيها كذٰلك، ووجَدْتَ المفسدَةَ الناشئةَ منها أعْظَمَ مِن المفسدَةِ الناشئةِ مِن المحرَّماتِ الباقيةِ على صُوَرِها وأسمائِها، والوُجْدانُ شاهدٌ بذٰلك.

فاللَّهُ سبحانَهُ إنَّما حَرَّمَ هٰذه المحرَّماتِ وغيرَها لما اشتَمَلَتْ عليهِ مِن المفاسِدِ المضرَّةِ بالدُّنيا والدِّين، ولم يُحَرِّمْها لأجْلِ أسمائِها وصُوَرِها.

ومعلومٌ أنَّ تلكَ المفاسِدَ تابعةٌ لحقائِقِها، لا تزولُ بتبدُّلِ أسمائِها، وتغيُّرِ صورَتِها.

ولو زالَتْ تلكَ المفاسدُ بتغيُّرِ الصُّورَةِ والأسماءِ لمَا لَعَنَ اللَّهُ سبحانَه اليهودَ على تغييرِ صورةِ الشَّحْمِ واسمِهِ بإذابَتِه حتى استحدثَ اسمَ الوَدَكِ، وصورَتَهُ، ثمَّ أكلُوا ثَمَنَهُ، وقالوا: لم نأكُلْهُ، وكذٰلك تغييرُ صورةِ الصَّيْدِ يومَ السَّبْتِ بالصَّيْدِ يومَ الأحدِ.

فتغييرُ صُوَرِ المحرَّماتِ وأسمائِها معَ بقاءِ مقاصِدِها وحقائِقِها زيادةٌ في المفْسَدَةِ التي حُرِّمَتْ لأجْلِها، مع تضَمُّنِهِ لمخادَعَةِ اللَّهِ تعالى ورسولِهِ، ونِسْبَةِ

المكرِ والخِداعِ والغِشّ والنِّفاقِ إلى شَرْعِهِ ودِينِه، وأنَّهُ يُحَرِّمُ الشَّيء لمفسدَةٍ، ويُبيحُهُ لأعْظَمَ منها.

ولهٰذا قالَ أيُّوبُ السَّختيانِيُّ: «يُخادِعُونَ اللّٰهَ كأنَّما يُخادِعونَ الصِّبْيانَ، لو أتَوْا الأمرَ على وَجْهِهِ كانَ أهْوَنَ».

وقالَ بِشْرُ بنُ السَّرِيِّ ـ وهُو مِن شُيوخِ الإمامِ أحمدَ ـ: «نَظَرْتُ في العلمِ، فإذا هُو الحديثُ والرَّأْيُ.

فوجَدْتُ في الحديثِ ذِكْرَ النبِيِّينَ، والمُرْسَلينَ، وذكرَ الموتِ، وذكرَ ربوبِيَّةِ الرَّبِّ تعالى وجلالِهِ وعظَمتِه، وذكرَ الجنَّةِ والنَّارِ، والحلالِ والحرامِ، والحثَّ على صِلَةِ الأرحامِ، وجماعَ الخيرِ.

ونظرْتُ في الرأْيِ؛ فإذا فيهِ: المكْرُ، والخَديعَةُ، والتَّشَاحُ، واستقصاءُ الحَقِّ، والمُماراةُ في الدِّينِ، واستعمالُ الحِيَلِ، والبعثُ على قَطيعَةِ الأرْحامِ، والتَّجَرُّؤ على الحرامِ».

وقالَ أبو دَاودَ: سَمِعْتُ أحمدَ بنَ حنبلٍ، وذُكِرَ أصحابُ الحِيَلِ، فقالَ: «يحتالُونَ لِنَقْضِ سُنَنِ رسولِ اللّٰهِ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّم».

والرَّأْيُ الذي اشْتُقَّتْ منهُ الحِيَلُ، المتضمِّنَةُ لإسقاطِ ما أوْجبَ اللّٰهُ تعالى، وإباحةِ ما حَرَّمَ اللّٰهُ، هو الذي اتَّفَقَ السَّلَفُ على ذَمِّهِ وعَيْبِهِ.

فروى حَرْبٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ؛ قالَ: قالَ ابنُ مسعودٍ ﷺ: «إيَّاكُمْ وأرَأيْتَ، أرَأيْتَ، فإنَّما هَلَكَ مَن كانَ قبلَكُم بـ(أرأيْتَ، أرَأيْتَ)، ولا تَقيسوا شيئاً بشيءٍ، فتَزِلَّ قدَمٌ بعد ثُبوتِها».

وعَنِ الشَّعْبِيِّ عن مَسْروقٍ؛ قالَ: قالَ عبدُ اللّٰهِ: «ليسَ مِن عامٍ إلَّا والَّذي بَعْدَهُ شَرٌّ منهُ[1]، لا أقولُ: أميرٌ خيرٌ مِن أميرٍ، ولا عامٌ أخْصَبُ مِن عامٍ،

(١) وقد صحَّ من قول النبي ﷺ نحوُ هٰذه القطعة
انظرها وتخريجَها في «أربعي الدعوة والدعاة» (رقم ٢٩) بقلمي

ولكنْ ذهابُ خيارِكُم وعمائِكُم، ثم يَحْدُثُ قومٌ يَقيسونَ الأمورَ برأيِهِمْ، فَيَنْهدِمُ الإسلامُ، ويَنْثَلِمُ».

وقالَ عمرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَأصحابَ الرَّأْيِ؛ فإِنَّهُم أعداءُ السُّنَنِ، أَعْيَتْهُمُ الأحاديثُ أَنْ يَحْفَظوها، وتَفَلَّتَتْ منهُم أَنْ يَعُوها، واسْتَحْيَوْا حينَ سُئِلُوا أَنْ يَقولوا: لا نَعْلَمُ، فعارَضوا السُّنَنَ برأيِهِمْ، فإِيَّاكُمْ وإِيَّاهُمْ»[١].

وذُكِرَ لأحْمَدَ أَنَّ امرأةً كانَتْ تُريدُ أَنْ تُفارِقَ زَوْجَها، فيَأْبَى عليها، فقالَ لها بعضُ أربابِ الحِيَلِ: لو ارْتَدَدْتِ عَنِ الإسلامِ بِنْتِ[٢] منهُ، ففَعَلَتْ، فغَضِبَ أحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ، وقالَ: «مَنْ أَفْتى بهٰذا أَوْ عَلَّمَهُ أو رَضِيَ بِهِ فهو كافرٌ».

وكذٰلك قالَ عبدُ اللّهِ بنُ المبارَكِ، ثمَّ قالَ: «ما أَرى الشَّيْطانَ يُحْسِنُ مِثْلَ هذا حتى جَاء هٰؤلاءِ فتَعَلَّمَهُ منهُم»[٣].

وقالَ يزيدُ بنُ هارونَ: «أفتى أصحابُ الحِيَلِ بشيءٍ لو أَفْتَى بِهِ اليهودُ والنَّصارى؛ كانَ قبيحاً. أَفْتَوْا رجلاً حلَفَ أَنْ لا يُطَلِّقَ امرأتَهُ بوجْهٍ من الوُجوهِ، فبَذَلَتْ لهُ مالاً كثيراً في طَلاقِها، فأَفْتَوْهُ بأَنْ يُقَبِّلَ أُمَّها أَوْ يُباشِرَها».

قلتُ: ومَن تَأَمَّلَ الشَّريعَةَ ورُزِقَ فيها فِقْهَ نفْسٍ رآها قَدْ أَبْطَلَتْ على أَصحابِ الحِيَلِ مقاصِدَهُم، وقابَلَتْهُم بنقيضِهِ، وسَدَّتْ عليهِمُ الطُّرُقَ التي فَتَحُوها للتَّحَيُّلِ الباطِلِ.

فمِنْ ذٰلك أَنَّ الشَّارِعَ مَنَعَ المتحيِّلَ على الميراثِ بقتلِ مُوَرِّثِهِ ميراثَهُ، ونَقْلِهِ إلى غيرِهِ دونَه لمَّا احتالَ عليهِ بالباطِلِ.

ومِن ذٰلك بِطلانُ وصيَّةِ المُوصى لهُ بمالٍ إذا قَتَلَ المُوْصِي.

---

(١) انظر: شيئاً من هذه الآثار برواياتها في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٣٣ ـ ١٣٦) لابن عبد البرّ.

(٢) أي: فارقتيه.

(٣) ومثله ما قيل:

كانَ فتًى من جُنْدِ إبليسَ فارتَقى ... بهِ الحالُ حتى صارَ إبليسُ مِن جُنْدِهِ

ونظائِرُ ذٰلك كثيرةٌ.

فالمحتالُ بالباطِلِ مُعامَلٌ بنَقيضِ قَصْدِهِ شَرْعاً وقَدَراً.

وقد شاهَدَ النّاسُ عِياناً أَنَّهُ مَنْ عاشَ بالمَكْرِ ماتَ بالفَقْرِ.

ولهٰذا عاقَبَ اللَّهُ ﷻ مَنِ احتالَ على إسقاطِ نَصيبِ المساكينِ وَقْتَ الجِدادِ بحِرْمانِهِمُ الثَّمَرَةَ كلَّها.

وعاقَبَ مَنِ احتالَ على الصَّيْدِ المحرَّمِ بأَنْ مَسَخَهُمْ قِرَدَةً وخَنازِيرَ.

وعاقَبَ مَن احتالَ على أَكْلِ أَموالِ النّاسِ بالرِّبا بأَنْ يَمْحَقَ مالَهُ؛ كما قالَ تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فلا بدَّ أَنْ يُمْحَقَ مالُ المُرابي، ولو بَلَغَ ما بَلَغَ.

وأَصْلُ هذا أَنَّ اللَّهَ سُبحانَهُ جَعَلَ عُقوبَاتِ أَصحابِ الجرائِمِ بضِدِّ ما قَصَدُوا لهُ بتِلْكَ الجرائِمِ، فجَعَلَ عُقوبةَ الكاذِبِ إِهْدارَ كلامِهِ ورَدَّهُ عليهِ.

وجَعَلَ عُقوبَةَ مَن تَكَبَّرَ عَنْ قَبولِ الحَقِّ والانقيادِ لهُ: أَنْ أَلْزَمَهُ مِن الذُّلِّ والصَّغارِ بحسبِ ما تَكَبَّرَ عنهُ من الحَقِّ.

وجَعَلَ عُقوبَةَ مَنِ استَكْبَرَ عَن عُبودِيَّتِهِ وطاعَتِه: أَنْ صَيَّرَهُ عبداً لأَهْلِ عبودِيَّته وطاعَتِه.

وجَعَلَ عُقوبَةَ مَنِ التَذَّ بَدَنُهُ كلُّهُ وروحُه بالوَطْءِ الحَرامِ: إِيلامَ بَدَنِهِ وروحِهِ بالجَلْدِ والرَّجْمِ، فيَصِلُ الأَلَمُ إلى حَيْثُ وَصَلَتِ اللَّذَّةُ.

وشَرَعَ النبيُّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ عُقوبةَ مَنِ اطَّلَعَ في بيتِ غيرِهِ أَنْ تُقْلَعَ عَيْنُهُ بعُودٍ ونحوِه؛ إفساداً للعُضْوِ الذي خانَهُ بهِ، وأَوْلَجَهُ بيتَهُ بغيرِ إِذْنِهِ، واطَّلَعَ بهِ على حُرْمَتِهِ[1].

---

(١) كما روى الإمام مسلم في «صحيحه» (٢١٥٨) عن أبي هريرة «من اطّلع في بيت قوم بغير إذنهم؛ فقد حلّ لهم أن يفقؤوا عينه».
ورواه البخاري (١٢/٢١٦) بنحوه عنه.

وعاقبَ كُلَّ خائنٍ بأنَّهُ يُضِلُّ كَيْدَهُ ويُبْطِلُهُ، ولا يَهديهِ لمقصودِهِ، وإنْ نالَ بعْضَهُ، فالذي نالَهُ سببٌ لزيادَةِ عقوبتِهِ وخيْبَتِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف. ٥٢].

وهٰذا بابٌ واسعٌ جدًّا، عظيمُ النَّفْعِ، فمَنْ تَدَبَّرَهُ يَجِدْهُ متضمِّناً لمعاقَبَةِ الرَّبِّ سبحانَه مَن خَرَجَ عن طاعَتِهِ بأنْ يَعْكِسَ عليهِ مقصودَهُ شرعاً وقَدَراً، دُنْيا وأُخرى.

وقد اطَّرَدَتْ سُنَّتُهُ الكونيَّةُ سبحانَهُ في عِبادِهِ، بأنَّ مَنْ مَكَرَ بالباطِلِ مُكِرَ بهِ، ومَنِ احتالَ احتِيْلَ عليه، ومَن خَادَعَ غَيْرَهُ خُدِعَ.

قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقالَ تَعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

فلا تَجِدُ ماكِراً إلَّا وهُو مَمْكورٌ بهِ، ولا مُخادِعاً إلَّا وهُو مخدوعٌ، ولا مُحتالاً إلَّا وهُو محتالٌ عليهِ.

● سَدُّ الذَّرائعِ:

وإذا تَدَبَّرْتَ الشَّريعَةَ وجَدْتَها قد أَتَتْ بسدِّ الذَّرائعِ إلى المحرَّماتِ، وذٰلكَ عكسُ بابِ الحِيَلِ الموصِلَةِ إليه.

فالحِيَلُ وسائلُ وأبوابٌ إلى المحرَّمات، وسَدُّ الذَّرائعِ عكسُ ذٰلكَ.

فبَيْنَ البابَيْنِ أعظمُ تناقُضٍ، والشَّرعُ حَرَّمَ الذَّرائِعَ، وإنْ لَمْ يُقْصَدْ بها المحرَّمُ؛ لإفضائِها إليه، فكيفَ إذا قُصِدَ بها المحرَّمُ نفسُهُ؟!

فنَهى اللّٰهُ تعالى عن سَبِّ آلهةِ المشركينَ، لكونهِ ذريعَةً إلى أنْ يَسُبُّوا اللّٰهَ ﷻ عَدْواً وكُفْراً، على وَجْهِ المُقابَلَةِ[1].

وأخبرَ النبيُّ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ أنَّ: «مِنْ أكْبَرِ الكبائِرِ شَتْمَ

---

(١) كما في سورة الأنعام: ١٠٨.

الرَّجُلِ والدَيْهِ»، قالوا: وهَلْ يَشتُمُ والرَّجُلُ والدَيْهِ؟! قالَ: «نعمْ؛ يَسُبُّ أَبَ الرَّجُلِ، فيَسُبُّ أباهُ، ويَسُبُّ أُمَّهُ، فيَسُبّ أُمَّهُ»[١].

ولمَّا جاءَتْ صفِيَّةُ ﷺ تَزورُهُ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، وهو معتَكِفٌ قامَ معها، ليوصِلَها إلى بيتِها، فرآهُما رجُلانِ مِن الأنصارِ، فقالَ: «عَلى رِسْلِكُما، إنَّها صَفِيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ». فقالا: سُبحانَ اللَّهِ! يا رسولَ اللَّهِ. فقال: «إنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِي مِنِ ابنِ آدَمَ مَجْرى الدَّمِ، وإنِّي خَشيتُ أنْ يَقْذِفَ في قُلوبِكُما شَرًّا»[٢].

فسَدَّ الذَّريعَةِ إلى ظنِّهما السُّوءَ بإعلامِهما أنَّها صَفِيَّةُ.

وحَرَّمَ الخَلْوَةَ بالمرأَةِ الأجْنَبِيَّةِ، والسَّفَرَ بها، والنَّظَرَ إليها لغيرِ حاجةٍ؛ حَسْماً للمادَّةِ وسدًّا للذَّريعَةِ[٣].

ومَنَعَ النِّساءَ إذا خَرَجْنَ إلى المسجدِ مِن الطِّيبِ والبُخُورِ.

ومَنَعَهُنَّ مِن التَّسبيحِ في الصَّلاةِ لنائبةٍ تَنوبُ، بل جَعَلَ لهُنَّ التَّصفيقَ.

ونَهى المرأَةَ أنْ تَصِفَ لزوجِها امرأَةً غيرَها، حتى كأنَّهُ ينظُرُ إليها.

ونَهى عن بناءِ المساجِدِ على القُبورِ، ولَعَنَ فاعِلَهُ.

ونَهى عَن تَعْلِيَةِ القُبورِ وتَشْريفِها، وأَمَرَ بتَسْويتِها.

ونَهى عَنِ البناءِ عَليها، وتَجْصيصِها، والكتابَةِ عليها، والصَّلاةِ إليها وعندَها، كلُّ ذٰلكَ سدًّا لذريعَةِ اتِّخاذِها أَوثاناً.

وهٰذا كُلُّهُ حرامٌ على مَنْ قَصَدَهُ ومَن لَمْ يَقْصِدْهُ، بل على مَنْ قَصَدَ خِلافَهُ، سدًّا للذَّريعَةِ.

ونَهى عن الصَّلاةِ عندَ طلوعِ الشَّمْسِ، وعندَ غُروبِها، لِكَوْنِ هٰذينِ الوقْتَيْنِ

---

(١) رواه: البخاري (١٠/٣٣٨)، ومسلم (٩٠)؛ عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه: البخاري (٤/٢٤٠)، ومسلم (٢١٧٥)؛ عن صفيَّة.

(٣) والأدلَّة على هٰذا كلِّه صحيحة معروفة، ولولا خشية التطويل لخرَّجتُها جميعاً.

وقتَ سجودِ الكفَّارِ للشَّمْسِ، ففي الصَّلاةِ نوعُ تَشَبُّهٍ بهِم في الظَّاهِرِ، وذٰلك ذَريعَةٌ إلى الموافَقَةِ والمشابَهَةِ في الباطنِ.

وكذٰلك النَّهْيُ عن الصَّلاةِ بعدَ العَصْرِ، وبعدَ الفَجْرِ. وإنْ لَمْ يَحْضُرْ وقتُ سُجودِ الكُفَّارِ للشَّمْسِ، مبالغَةً في هٰذا المقصودِ، وحمايةً لجانِبِ التَّوحيدِ، وسدّاً لذريعَةِ الشِّرْكِ بكلِّ ممكِنٍ.

ونَهى اللَّهُ سبحانَهُ النِّساءَ أنْ ﴿يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، فلما كانَ الضَّرْبُ بالرِّجْلِ ذَريعَةً إلى ظُهورِ صَوْتِ الخَلْخالِ، الذي هُو ذَريعَةٌ إلى مَيْلِ الرِّجالِ إليهِنَّ نهاهُنَّ عنهُ.

وأَمَرَ اللَّهُ سبحانَهُ الرِّجالَ والنِّساءَ، بِغَضِّ أبصارِهِمْ. لمَّا كانَ النَّظَرُ ذَريعَةً إلى الميلِ والمحبَّةِ التي هي ذَريعَةٌ إلى مواقَعَةِ المحظورِ.

ونَهى عنِ استقبالِ رَمَضانَ بيومٍ أو يَوْمَيْنِ؛ لئلَّا يُتَّخَذَ ذَريعَةً إلى الزِّيادَةِ في الصَّوْمِ الواجِبِ؛ كما فَعَلَ أهلُ الكِتابِ.

ونَهى عنِ التَّشَبُّهِ بأَهْلِ الكتابِ وغيرِهِم مِن الكُفَّارِ في مواضِعَ كثيرةٍ؛ لأنَّ المشابَهَةَ الظَّاهِرَةَ ذَريعَةٌ إلى الموافَقَةِ الباطنةِ، فإنَّهُ إذا أَشْبَهَ الهَدْيُ الهَدْيَ؛ أشْبَهَ القَلْبُ القَلْبَ، وقد قالَ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: «مَن تَشَبَّهَ بقومٍ؛ فهُو منهُم»[1].

وأَمَرَ بالتَّسْويَةِ بينَ الأولادِ في العَطِيَّةِ، وأخبرَ أنَّ تخصيصَ بعضِهِم بها جَوْرٌ لا يصلُحُ، ولا تَنْبغي الشَّهادَةُ عليهِ، وأمرَ فاعِلَهُ بردِّهِ، ووعَظَهُ، وأَمَرَهُ بتقوى اللَّهِ تعالى، وأَمَرَهُ بالعَدْلِ[2]؛ لكونِ ذٰلك ذَريعَةً ظاهِرَةً قريبةً جدًّا إلى وقوعِ العَداوَةِ بينَ الأولادِ وقَطيعَةِ الرَّحِمِ بينَهُم، كما هُو المشاهَدُ عِياناً، فلو لم

---

(١) حديث صحيح، وانظر: «المنتقى النفيس» (ص٢٤٧).

(٢) كما في حديث النعمان بن بشير، لمَّا مَنَحه أبوه بشيرٌ عبداً، وجاء يُشهِد النبي ﷺ، فردّه ﷺ قائلاً: «هٰذا جَوْرٌ».

رواه: البخاري (٥/ ١٥٥)، ومسلم (١٦٢٣)

تأتِ السُّنَّةُ الصَّحيحَةُ الصَّريحَةُ التي لا مُعارِضَ لها بالمَنْعِ منهُ؛ لكانَ القياسُ وأُصولُ الشَّريعَةِ، وما تضمَّنَتْهُ مِن المصالحِ ودَرْءِ المفاسِدِ يقتضي تَحريمَهُ.

ومِن ذٰلك أَنَّهُ سبحانَه نَهى الصَّحابَةَ أَنْ يقولوا للنَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: ﴿رَٰعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، معَ قَصْدِهِمُ المَعنى الصَّحيحَ، وهو المراعاةُ؛ لئلَّا يَتَّخِذَ اليَهودُ هٰذه اللَّفْظَةَ ذَريعَةً إلى السَّبِّ، ولئلَّا يَتَشَبَّهُوا بهِم، ولئلَّا يُخاطَبَ بلفظٍ يَحْتَمِلُ معنًى فاسِداً.

ومِن ذٰلك أَنَّ النبيَّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مَنَعَ الرَّجُلَ مِن أَخْذِ نَظيرِ حَقِّهِ بصورةِ الخيانَةِ ممَّنْ خانَهُ، وجَحَدَ حَقَّهُ، وإِنْ كانَ إنَّما يأْخُذُ حَقَّهُ أَوْ دونَهُ، فقالَ لمَنْ سَأَلَهُ عن ذٰلكَ: «أَدِّ الأمانَةَ إلى مَنِ ائْتَمَنكَ، ولا تَخُنْ مَنْ خانَكَ»[1]؛ لأنَّ ذٰلك ذَريعَةٌ إلى إساءَةِ الظَّنِّ بهِ، ونسبَتِهِ إلى الخيانَةِ، ولا يُمْكِنُهُ أَنْ يحتَجَّ عن نَفْسِهِ، ويُقيمَ عُذْرَهُ، مع أَنَّ ذٰلك أيضاً ذَريعَةٌ إلى أَنْ لا يَقْتَصِرَ على قَدْرِ الحقِّ وصِفَتِهِ؛ فإِنَّ النُّفوسَ لا تَقْتَصِرُ في الاستيفاءِ غالباً على قَدْرِ الحَقِّ.

ومِن ذٰلك أَنَّ السُّنَّةَ مَضَتْ بكراهَةِ إِفرادِ رَجَبٍ بالصَّوْمِ[2]، وإفرادِ يومِ الجُمُعَةِ[3]؛ لئلَّا يُتَّخذَ ذَريعَةً إلى الابتداعِ في الدِّينِ، بتَخْصيصِ زمانٍ لم يَخُصَّهُ الشَّارِعُ بالعِبادَةِ[4].

ومِن ذٰلك أَنَّ أميرَ المؤمنينَ عمرَ بنَ الخطَّابِ ﷺ أَمَرَ بقَطْعِ الشَّجَرَةِ التي كانتْ تحتَها البَيْعَةُ، وأَمَرَ بإخفاءِ قَبْرِ دانيالَ؛ سَدًّا لذريعَةِ الشِّرْكِ والفتنَةِ، ونَهى عن تَعَمُّدِ الصَّلاةِ في الأَمْكِنَةِ التي كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ يَنْزِلُ بها في سَفَرِهِ، وقالَ: «أَتريدُونَ أَنْ تَتَّخِذوا آثارَ أَنبيائِكُمْ

---

(١) حديث حسن، له طرق عدة، استوعبتها في «الإتمام...» (١٥٤٦٢).
(٢) والحديث في ذٰلك صحيح، وهو مخرَّج في «زهر الروض» (ص٦٣).
(٣) كما رواه مسلم (٢٠٦٩) عن أسماء بنت أبي بكر في فتيا لابن عمر.
(٤) وهٰذه قاعدة مهمَّة من قواعد معرفة البدع، وقد زدتها بياناً في علم أصول البدع.

مَساجِدَ؟ مَنْ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فيهِ فَلْيُصَلِّ، وإلَّا فلا»[١].

ومِنْ ذٰلِكَ نَهْيُهُ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عَنِ الذَّرائِعِ التي توجِبُ الاختلافَ، والتَّفَرُّقَ، والعداوَةَ، والبغضاءَ، كخِطْبَةِ الرَّجُلِ على خِطْبَةِ أخيهِ، وسَوْمِهِ على سَوْمِه، وبَيْعِه على بيعِهِ، وسؤالِ المرأةِ طَلاقَ ضَرَّتَها، وقالَ: «إذا بُويِعَ لخَليفَتَيْنِ فاقْتُلوا الآخِرَ منهما»[٢] سدًّا لذَريعَةِ الفتنَةِ والفُرْقَة[٣].

ونَهى عَنْ قِتالِ الأمراءِ، والخُروجِ على الأئمَّةِ، وإنْ ظَلَموا وجَارُوا، ما أقامُوا الصَّلاةَ؛ سدًّا لذريعَةِ الفسادِ العظيمِ، والشَّرِّ الكَبيرِ بقتالِهِم، كما هو الواقِعُ، فإنَّهُ حَصَلَ بسبَبِ قتالِهِمْ والخروجِ عليهِم مِن الشُّرورِ أضعافُ أضعافِ ما هُمْ عليه، والأمَّةُ في بقايا تلكَ الشُّرورِ إلى الآنِ[٤].

ومِن ذٰلكَ أنَّ الشُّروطَ المضْروبَةَ على أهْلِ الذِّمَّةِ تَضَمَّنَتْ تمييزَهُم عنِ المسلمينَ في اللِّباسِ والشُّعورِ، والمراكِبِ، والمجالِسِ، لئلَّا تُفْضِي مشابهَتُهم للمسلمينَ في ذٰلك إلى معامَلَتِهم معاملَةَ المسلمينَ: في الإكرامِ، والاحترامِ، ففي إلزامِهِمْ بتمييزِهِمْ عنهُم سدًّا لهٰذه الذَّريعَةِ[٥].

ولو لمْ يَكُنْ في هٰذا البابِ إلَّا أنَّ اللّٰهَ ﷻ أوْجَبَ إقامَةَ الحدودِ، سدًّا للذَّريعَةِ إلى الجرائِمِ، إذا لم يَكُنْ عليها وازِعٌ طبيعيٌّ، وجَعَلَ مقاديرَ عُقوبَتِها وأَجْناسِهِا، وصفاتِها، بحسبِ مفاسِدِها في نفسِها، وقُوَّةِ الدَّاعي إليها، وتقاضِي الطِّباعِ لها.

وبالجملةِ:

فالمُحَرَّماتُ قسمانِ: مفاسِدُ، وذَرائِعُ موصِلَةٌ إليها، مطلوبَةُ الإعدامِ[٦]، كما أنَّ المفاسِدَ مطلوبَةُ الإعدامِ.

---

(١) انظر: ما تقدَّم (ص٢٣٥).
(٢) رواه مسلم (١٨٥٣) عن أبي سعيد الخدري.
(٣) فما بالكم بالأحزاب والفرق الدَّعْوية المعاصرة؟!
(٤) فكيف الآن وقد أقصي حكم الله، وأزيح القرآن؟!
(٥) انظر: «تشبه الخسيس بأهل الخميس» (ص٢٥) للإمام الذهبي، وتعليقي عليه.
(٦) أي: الإبطال والإهدار.

والقُرباتُ نوعانِ: مصالِحُ للعبادِ، وذَرائِعُ موصِلَةٌ إليها.

ففَتْحُ بابِ الذَّرائِعِ في النَّوْعِ الأوَّلِ كسَدِّ بابِ الذَّرائِعِ في النَّوْعِ الثَّاني، وكلاهُما مناقِضٌ لما جَاءَتْ بِهِ الشَّريعَةُ، فبَيْنَ بابِ الحيلِ وبابِ سَدِّ الذَّرائِعِ أعظمُ تناقُضٍ.

وكيفَ يُظَنُّ بهٰذه الشَّريعَةِ العظيمةِ الكاملةِ، التي جاءَتْ بدَفْعِ المفاسِدِ، وسَدِّ أبوابِها، وطُرُقِها، أنْ تُجَوِّزَ فَتْحَ بابِ الحِيَلِ، وطُرُقَ المكرِ على إسقاطِ واجِباتِها، واستباحَةِ محرَّماتِها، والتَّذَرُّعِ إلى حُصولِ المفاسِدِ التي قَصَدَتْ دَفْعَها.

وإذا كانَ الشَّيْءُ الَّذي قد يكونُ ذَريعةً إلى الفعلِ المحرَّمِ، إمَّا بأنْ يُقْصَدَ بهِ ذٰلك المحرَّمُ، أو بأنْ لا يُقْصَدَ بهِ، وإنَّما يُقْصَدُ بهِ المباحُ نفسُه، لٰكِنْ قَدْ يكونُ ذَريعةً إلى المحرَّمِ، يحرِّمُهُ الشَّارِعُ بحسبِ الإمكانِ، ما لمْ يُعارِضْ ذٰلك مصلحةٌ راجِحَةٌ تقضي حِلَّهُ، فالتَّذَرُّعُ إلى المحرَّماتِ بالاحتيالِ عيها أَوْلى أنْ يكونَ حراماً، وأولى بالإبطالِ والإهدارِ، إذا عُرِفَ قَصْدُ فاعِلِه، وأولى أنْ لا يُعانَ فاعِلُهُ عليهِ، وأنْ يُعامَلَ بنقيضِ قَصْدِهِ، وأنْ يُبْطَلَ عليهِ كَيْدُهُ ومَكْرُهُ.

وهٰذا بحمدِ اللَّهِ تعالى بَيِّنٌ لمَنْ لهُ فِقْهٌ وفَهْمٌ في الشَّرْعِ ومقاصِدِهِ.

استدلالُ الأئمَّةِ على بُطلانِ الحِيَلِ:

وقد استَدَلَّ البُخاريُّ في «صحيحِهِ» على بُطلانِ الحِيَلِ بقولِهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: «لا يُجْمَعُ بينَ متفرِّقٍ، ولا يُفَرَّقُ بينَ مجتَمِعٍ، خَشْيَةَ الصَّدَقَةِ»[1].

فإنَّ هٰذا النَّهْيَ يَعُمُّ ما قَبْلَ الحَوْلِ وما بَعْدَهُ.

واحْتَجَّ بقولِهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ في الطَّاعُونِ: «إذا وَقَعَ

---

(١) هو في «صحيحه» (١٤٥٠) عن أنس.

بأرْضٍ وأَنْتُم بها؛ فلا تخرُجوا فِراراً منهُ»[١].

وهٰذا مِن دِقَّةِ فِقْهِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنَّهُ إذا كانَ قدْ نَهى صلّى اللّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عَنِ الفِرارِ مِن قَدَرِ اللّهِ تعالى إذا نَزَلَ بالعبدِ، رضاً بقضاءِ اللّهِ تعالى وتسليماً لحُكْمِهِ، فكيفَ بالفرارِ مِن أمرِهِ ودينِهِ، إذا نَزَلَ بالعبدِ؟!

واحتجَّ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ على بطلانِ الحِيَلِ وتحريمِها بلَعْنَةِ رسولِ اللّهِ صلّى اللّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ للمُحَلِّلِ[٢].

واحتجَّ ابنُ عبَّاسٍ، وبعدَهُ أيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ وغيرُهُ من السَّلَفِ بأنَّ الحِيَلَ مخادَعَةٌ للَّهِ تعالى، وقد قالَ اللّهُ تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]؛ قالَ ابنُ عبّاسٍ: «ومَن يُخادِعِ اللّهَ يَخْدَعْهُ».

ولا ريبَ أنَّ مَن تَدَبَّر القرآنَ والسُّنَّةَ، ومقاصِدَ الشَّارِعِ، جَزَمَ بتحليلِ الحِيَلِ وبطلانِها؛ فإنَّ القرآنَ دَلَّ على أنَّ المقاصدَ والنِّيَّاتِ معتبرةٌ في التصرُّفِ والعاداتِ، كما هي معتبرةٌ في القُرُباتِ والعباداتِ، فيجْعَلُ الفعلَ حلالاً أو حراماً، وصحيحاً أو فاسداً، وصحيحاً من وجهٍ، فاسِداً من وجهٍ، كما أنَّ القصْدَ والنِّيَّةَ في العباداتِ تجعَلُها كذٰلك.

وشواهِدُ هٰذه القاعدةِ كثيرةٌ جدًّا في الكتبِ والسُّنَّةِ.

فمِنْها قولُهُ تعالى في آيةِ الرَّجْعَةِ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة ٢٣١]، وذٰلكَ نَصٌّ في أنَّ الرَّجْعَةَ إنَّما تَثْبُتُ لمَنْ قَصَدَ الصَّلاحَ دونَ الضِّرارِ، فإذا قَصَدَ الضِّرارَ؛ لمْ يُمَلِّكْهُ اللّهُ تعالى الرَّجعيَّةَ.

ومِن ذٰلك قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، فهٰذا دليلٌ على أنَّهُ إذا عَضَلَها لِتَفْتَدِيَ نفسَها منهُ، وهو ظالمٌ لها بذٰلك، لم يحلَّ لهُ أخْذُ ما بَذَلَتْهُ لهُ، ولا يملِكُهُ بذٰلك.

---

(١) رواه: البخاري (٦٩٧٣)، ومسلم (٢٢١٨): عن سعد.

(٢) وقد سبق تخريج الحديث الوارد فيه.

ومِنْ ذٰلك قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]، فحرَّمَ ﷺ أنْ يأخذَ منها شيئاً مما آتاها، إذا كانَ قد توسَّلَ إليهِ بالعَضْلِ.

○ أنْواعُ الحِيَلِ:

قالَ مُنْكِرو الحِيَلِ:

الحِيَلُ ثلاثةُ أنواعٍ:

أ ـ نوعٌ هُو قُرْبَةٌ وطاعةٌ، وهو مِن أفضَلِ الأعمالِ عندَ اللَّهِ تعالى.

ب ـ ونوعٌ هو جائزٌ مباحٌ، لا حَرَجَ على فاعِلِهِ، ولا على تارِكِهِ، وتَرَجُّحُ فعْلِهِ على تَرْكِهِ أَوْ عَكْسُ ذٰلك تابعٌ لمصلَحتِه.

جـ ـ ونوعٌ هو محرَّمٌ ومخادعَةٌ للَّهِ ورسولِهِ، متضمِّنٌ لإسقاطِ ما أوْجَبَهُ، وإبطالِ ما شَرَعَهُ، وتحليلِ ما حَرَّمَهُ، وإنكارُ السَّلَفِ والأئمةِ وأهْلِ الحَديثِ إنَّما هُو لهٰذا النَّوْعِ.

فإنَّ الحيلةَ لا تُذَمُّ مُطْلقاً، ولا تُحْمدُ مُطْلقاً، ولفظُها لا يُشْعِرُ بمدحٍ ولا ذَمٍّ، وإنْ غَلَبَ في العُرْفِ إطلاقُها على ما يكونُ مِن الطُّرُقِ الخَفِيَّةِ إلى حُصولِ الغَرَضِ، بحيثُ لا يُتَفَطَّنُ لهُ إلَّا بنوعٍ مِن الذَّكاءِ والفِطْنَةِ.

وأخَصُّ مِن هٰذا تخصيصُها بما يُذَمُّ مِن ذٰلك، وهٰذا هو الغالِبُ على عُرْفِ الفقهاءِ المُنكِرينَ للحِيَلِ. فإنَّ أهْلَ العُرْفِ لهُم تصَرُّفٌ في تخصيصِ الألفاظِ العامَّةِ ببعضِ موضوعاتِها، وتقييدِ مُطْلَقِها ببعضِ أنواعِهِ.

فإنَّ الحيلةَ فِعْلَةٌ، مِن الحَوْلِ، وهو التَّصَرُّفُ مِن حالٍ إلى حالٍ، وهِيَ مِن ذواتِ الواوِ، وأَصْلُها: «حِوْلَةٌ»، فسُكِّنَتِ الواوُ، وانْكَسَرَ ما قَبْلَها، فقُلِبَتْ ياءً؛ كميزانٍ، وميقاتٍ، وميعادٍ.

قالَ في «المُحْكَمِ»[1]: «الحَوْلُ، والحَيْلُ، والحِوَلُ، والحَوْلَةُ، والحيْلَةُ،

---

(١) لابن سيده، وهو مطبوع في مصر.

والحَوِيلُ، والمَحَالَةُ، والمَحَالُ، والاحتيالُ، والتَّحَوُّلُ، والتَّحَيُّلُ: كلُّ ذٰلك: الحِذْقُ، وجَوْدَةُ النَّظَرِ، والقُدرَةُ على وَجْهِ التَّصَرُّفِ، قالَ: والحِوَلُ والحِيَلُ، والحيلاتُ: جَمْعُ حِيْلَةٍ، ورَجُلٌ حُوَلٌ، وحُوَلَةٌ، وحُوَّلٌ، وحُوْلَةٌ، وحَوَالِيٌّ، وحُوالِيٌّ، وحَوَلْوَلٌ، وحُوَّلِيٌّ: شَديدُ الاحتيالِ، وما أَحْوَلَهُ وأَحْيَلَهُ، وهو أَحْوَلُ منكَ، وأَحْيَلُ». انتهى.

فالحِيْلَةُ: فِعْلَةٌ مِن الحَوْلِ، وهو التَّحَوُّلُ مِن حالٍ إلى حالٍ. وكلُّ مَن حاوَلَ أمراً يُريدُ فِعْلَهُ، أو الخلاصَ منهُ، فما يحاوِلُهُ بهِ: حيلةٌ يَتَوَصَّلُ بها إليهِ.

فالحِيلَةُ: مُعْتَبَرَةٌ بالأمْرِ المحتالِ بها عليهِ إطلاقاً، ومنعاً، ومصلَحَةً، ومفسَدَةً، وطاعةً، ومعصيةً، فإنْ كانَ المقصودُ أمراً حسناً كانتِ الحيلةُ حسنةً، وإنْ كانَ قبيحاً، كانتِ الحيلةُ قبيحَةً. وإنْ كانَ طاعةً وقُربةً؛ كانتِ الحيلَةُ عليهِ كذٰلك، وإنْ كانتْ معصيةً وفُسوقاً؛ كانتِ الحيلةُ عليهِ كذٰلك.

والحِيَلُ في عُرْفِ الفُقهاءِ، إذا أُطلِقَتْ: يُقْصَدُ بها الحِيَلُ التي تُسْتَحَلُّ بها المحارِمُ، كحِيَلِ اليهودِ، وكلُّ حيلةٍ تتضمَّنُ إسقاطَ حقٍّ للَّهِ تعالى، أو لآدَميٍّ، فهي ممَّا يُسْتَحَلُّ بها المحارِمُ.

ونَظيرُ ذلك لفظُ الخِداعِ، فإنَّهُ يَنْقَسِمُ إلى محمودٍ ومذمومٍ، فإنْ كانَ بحقٍّ؛ فهو محمودٌ، وإنْ كانَ بباطلٍ؛ فهو مذمومٌ.

ومِن النَّوْعِ المحمودِ: قولُهُ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: «الحَرْبُ خُدْعَةٌ»[١].

ومِن النَّوعِ المذمومِ: قولُهُ في حَديثِ عِياضِ بنِ حِمارٍ، الذي رواهُ[٢] مسلمٌ في «صحيحِهِ»: «أَهْلُ النارِ خمسةٌ، ذَكَرَ منهم رجلاً لا يُصْبِحُ ولا يُمْسي إلَّا وهُو يخادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ ومالِكَ»، وقولُهُ تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) برقم (٢٨٦٥).

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٩]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وكذٰلك المَكْرُ، ينقَسِمُ إلى محمودٍ ومذمومٍ، فإنَّ حقيقَتَهُ إظهارُ أمْرٍ وإخفاءُ خلافِهِ ليَتَوَصَّلَ به إلى مُرادِهِ:

فمِنَ المَحْمودِ: مَكْرُهُ تعالى بأهْلِ المَكْرِ، مقابلةً لهُم بفِعْلِهِمْ، وجزاءً لهم بجِنْسِ عَمَلِهِم، قالَ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقالَ تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾ [النمل: ٥٠].

وكذٰلك الكَيْدُ يَنْقَسِمُ إلى نوعينِ:

قالَ تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٣].

وقالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [يوسف: ٧٦].

وقالَ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥].

◘ صفَةُ الحِيْلَةِ المُحَرَّمَةِ:

إذا عُرِفَ ذٰلكَ؛ فلا إشكالَ أنَّهُ يجوزُ للإنسانِ أنْ يُظْهِرَ قَولاً أوْ فِعلاً، مقصودُهُ بِهِ مقصودٌ صالحٌ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ خلافَ ما قَصَد بهِ، إذا كانَتْ فيهِ مصلَحَةٌ دينيَّةٌ، مثلُ دَفْعِ الظُّلْمِ عن نفسِهِ، أو غيرِهِ، أو إبطالِ حِيْلَةٍ محرَّمَةٍ.

وإنَّما المحرَّمُ أنْ يَقْصِدَ بالعُقودِ الشَّرعيَّةِ غيرَ ما شَرَعَها اللّٰهُ تعالى ورسولُهُ لهُ، فيصيرُ مخادعاً للّٰهِ تعالى ورسولِهِ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ كائداً لدينِهِ ماكراً بشرعِهِ؛ فإنَّ مقصودَهُ حصولُ الشَّيْءِ الذي حَرَّمَهُ اللّٰهُ تعالى ورسولُهُ بتلكَ الحيلةِ، وإسقاطُ الذي أوْجَبَهُ بتلكَ الحيلَةِ، وهٰذا ضِدُّ الذي قَبْلَهُ، فإنَّ ذٰلك مقصودُهُ التَّوَصُّلُ إلى إظهارِ دينِ اللّٰهِ تعالى، ودَفْعِ مَعْصِيَتِه، وإبطالِ الظُّلْمِ، وإزالَةِ المُنْكَرِ، فهٰذا لَوْنٌ، وذاكَ لونٌ آخَرُ.

ومثالُ ذلك: التَّأويلُ في اليمينِ، فإنَّهُ نوعانِ: نَوْعٌ لا ينفعُهُ، ولا يُخَلِّصُهُ مِنَ الإثمِ، وذلك إذا كانَ الحقُّ عليهِ، فجَحَدَهُ، ثمَّ حَلَفَ على إنكارِهِ متأوِّلاً، فإنَّ تأويلَهُ لا يُسْقِطُ عنهُ إثْمَ اليمينِ الغَموسِ، والنِّيَّةُ للمُسْتحلِفِ في ذلك باتِّفاقِ المسلمينَ، بل لو تأوَّلَ مِن غيرِ حاجةٍ لم ينفَعْهُ ذلك عندَ الأكْثَرينَ.

وأمَّا المظلومُ المحتاجُ؛ فإنَّه ينْفَعُهُ تأْويلُهُ، ويُخلِّصُهُ مِن الإثمِ، وتكونُ اليمينُ على نِيَّتِهِ.

• في أحْكامِ الشَّرْعِ كِفايَةٌ:

ومِمَّا لا يَسَعُ أحداً رَدُّهُ أنَّ اللَّهَ سبحانَهُ أغْنانا بما شَرَعَهُ لنا مِن الحنيفيَّةِ السَّمْحَةِ، وما يسَّرَهُ مِن الدِّينِ على لسانِ رسولِهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، وسَهَّلَهُ للأمَّةِ عنِ الدُّخولِ في الآصارِ والأغْلالِ، وعنِ ارتكابِ طُرُقِ المَكْرِ والخِداعِ، والاحتيالِ، كما أغْنانا عن كلِّ باطلٍ ومحرَّمٍ وضارٍّ، بما هو أنْفَعُ لنا مِنهُ: مِن الحقِّ والمُباحِ النَّافِعِ[١]:

فأغْنانا بأعيادِ الإسلامِ[٢] عن أعيادِ الكُفَّارِ والمُشْرِكينَ، مِن أهْلِ الكتابِ، والمجوسِ، والصَّابئينَ، وعَبَدَةِ الأصنامِ.

وأغْنانا بوجوهِ التِّجاراتِ والمَكاسِبِ الحَلالِ، عَنِ الرِّبا والمَيْسِرِ والقِمارِ.

وأغْنانا بنِكاحِ ما طابَ لَنا مِن النِّساءِ مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ عَنِ الزِّنا والفواحِشِ.

---

(١) ولا نقول كما يقول عصرانيُّو الدعاة: «البديل... البديل»؛ فهي كلمة حادثة، ذات ثمار ـ غالباً ـ فاسدة، كما شرحتُه في تعليقي على كتاب «الدعوة إلى الله» (ص١٢٦ ـ ١٢٧).

(٢) وهما اثنان: عيد الفطر، وعيد الأضحى.
أما تلك الأعياد المبتَدَعة لبعض المناسبات الدينيَّة وغير الدينيَّة (!) فمما لا أصل له في شرعنا. وانظر: «المورد في عمل المولد» (ص٦) وتعليقي عليه

وأَغْنانا بأنواعِ الأشْرِبَةِ اللَّذِيذَةِ النَّافِعَةِ للقَلْبِ والبَدَنِ، عَنِ الأشْرِبَةِ الخَبيثَةِ المُسْكِرَةِ المُذْهِبَةِ للعَقْلِ والدِّينِ.

وأَغْنانا بأنواعِ الملابِسِ الفاخِرَةِ: مِن الكَتَّانِ، والقُطْنِ، والصُّوفِ، عَنِ الملابِسِ المُحَرَّمَةِ؛ مِن الحَريرِ، والذَّهَبِ.

وأَغْنانا عنْ سَماعِ الأبياتِ وقرآنِ الشَّيْطانِ بسماعِ الآياتِ وكلامِ الرَّحْمٰنِ.

وأَغْنانا عَنِ الاستِقْسامِ بالأزْلامِ؛ طَلَباً لما هُو خيرٌ وأَنْفعُ لنا باستِخارَتِهِ[1] التي هِيَ توحيدٌ، وتَفْويضٌ، واستعانَةٌ، وتوكُّلٌ.

وأَغنانا عن طَلَبِ التَّنافُسِ في الدُّنيا وعاجِلِها بما أَحَبَّهُ لنا ونَدَبنا إليهِ مِن التَّنافُسِ في الآخِرَةِ، وما أَعَدَّ لَنا فيها، وأَباحَ الحسدَ في ذلك[2]، وأَغنانا بِهِ عنِ الحَسَدِ على الدُّنيا وشَهَواتِها.

وأَغنانا بالفَرَحِ بفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ ـ وهُما القُرآنُ والإيمانُ ـ عَنِ الفَرَحِ بما يجمَعُهُ أَهْلُ الدُّنيا مِن المَتاعِ، والعقارِ، والأثْمانِ، فقالَ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

وأَغْنانا بالتَّكَبُّرِ على أعداءِ اللَّهِ تعالى، وإظهارِ الفَخْرِ والخُيَلاءِ لهُم، عنِ أولياءِ اللَّهِ تعالى، والفَخْرِ والخُيلاءِ عليهِمْ، فقالَ ﷺ لمَنْ رآهُ يَتَبَخْتَرُ بينَ الصَّفَّيْنِ: «إنَّها لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُها اللَّهُ إلَّا في مِثْلِ هٰذا الموطنِ»[3].

---

(١) ولأخينا الفاضل الشيخ عاصم القريوتي جزءٌ لطيفٌ في حديث الاستخارة وتخريجه وفقهه، وهو مطبوعٌ.

(٢) كما في قوله ﷺ: «لا حَسَد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن، فقام به آناء الليل وآناء النهار، ورجلٌ أعطاه الله مالاً، فهو ينفقُه آناء الليل وآناء النهار».
رواه: البخاري (٩/ ٦٥)، ومسلم (٨١٥)؛ عن ابن عمر.

(٣) رواه: الطبراني في «الكبير» (٦٥٠٦)، وابن إسحاق في «السيرة» (٣/ ١٢)، ومن طريقه البيهقيُّ في «الدلائل» (٣/ ٢٣٤)؛ من طريقين يقوِّي أحدهما الآخر.

وأغنانا بالفُروسيَّةِ الإيمانيَّةِ، والشَّجاعةِ الإسلاميَّةِ، التي تأثيرُها في الغَضَبِ على أعدائِهِ، ونُصْرَةِ دِينِهِ، عَنِ الفُروسيَّةِ الشَّيْطانيَّةِ، التي يَبْعثُ عليها الهَوى وحَمِيَّةُ الجاهِلِيَّةِ.

وكذٰلك أغنانا بالطُّرُقِ الشرعيَّةِ عن طُرُقِ أهْلِ المَكْرِ والاحتيالِ.

فلا تَشْتَدُّ حاجَةُ الأمَّةِ إلى شيءٍ إلَّا وفيما جَاءَ بِهِ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ما يقتَضي إباحَتَهُ وتَوْسِعَتَهُ، بحيثُ لا يُحوِجُهُم فيهِ إلى مَكْرٍ واحتيالٍ، ولا يُلْزِمُهُم الآصارَ والأغْلالَ، فلا هٰذا مِن دِينِهِ، ولا هٰذا[1].

كما أغْنانا بالبراهينِ والآياتِ التي أَرْشَدَ إليها القرآنُ عن الطُّرُقِ المتكلَّفَةِ المتَعَسِّفَةِ المعقَّدَةِ، التي باطِلُها أضعافُ حَقِّها، مِن الطُّرُقِ الكلاميَّةِ، التي الصَّحيحُ منها «كَلَحْمِ جَمَلٍ غَثٍّ على رأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقى، ولا سمينٌ فيُنْتَقَلُ»[2].

ونحنُ نعلَمُ علماً لا نَشُكُّ فيهِ أنَّ الحِيَلَ التي تتضَمَّنُ تحليلَ ما حَرَّمَهُ اللَّهُ تعالى، وإسقاطَ ما أوْجَبَهُ لو كَانَتْ جائزةً لَسَنَّها اللَّهُ سبحانَهُ، ونَدَبَ إليها لما فيها مِن التَّوْسِعَةِ، والفَرَجِ للمكْروبِ، والإغاثَةِ للمَلْهوفِ، كما نَدَبَ إلى الإصْلاحِ بينَ الخصْمَيْنِ[3].

فهَلَّا نَدَبَ النبيُّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ إلى الحِيَلِ، وحَضَّ

---

(١) وهٰذا تأييد قويٌّ لما أشرتُ إليه قبلُ من فساد كلمة (الدليل)!

(٢) اقتباس من حديث أمِّ زرع، الذي رواه: البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).
و(الغث): المهزول.
(لا سهل فيرتقى)؛ أي: الجبل، لا يُستطاع الصُّعود عليه.
(ولا سمين)؛ أي: للحم.
(فيُنتقل)؛ أي: تنقله الناس إلى بيوتهم ليأكلوه، بل يتركوه رغبةً عنه لرداءته.
وانظر: «عِشْرة النساء» (رقم ٢٥٢) للإمام النَّسائي، والتعليق عليه.

(٣) وهو كلامٌ عظيمٌ، يَنزَّل تنزيلاً حسناً على كثير من نوازل هٰذا العصر، الذي تختلف فيه الأنظار، وتحار فيه الأفكار.

عليها، كما حَضَّ على إصلاحِ ذاتِ البَيْنِ؟ بل لم يَزَلْ يُحَذِّرُ مِن الخِداعِ، والمَكْرِ، والنِّفاقِ، ومشابَهَةِ أَهْلِ الكتابِ، باستحلالِ محارِمِهِ بأدنى الحِيَلِ.

ولو كانَ مقصودُ الشَّرعِ إباحَةَ تلكَ المُحَرَّماتِ، التي رَتَّبَ عليها أنواعَ الذَّمِّ والعقوباتِ، وسَدَّ الذَّرائِعِ الموصِّلَةِ إليها لم يُحَرِّمْها ابتداءً، ولا رَتَّبَ عليها العُقوبَةَ، ولا سَدَّ الذَّرائِعَ إليها، ولَكانَ تَرْكُ أبوابِها مُفَتَّحَةً أسهَلَ مِن المُبالَغَةِ في غَلْقِها وسَدِّها، ثمَّ يَفْتَحُ لها أنواعَ الحِيَلِ، حتَّى يُنَقِّبَ المحتالُ عليها مِن كُلِّ ناحيةٍ، فهٰذا ممَّا تُصانُ عنهُ الشَّرائِعُ، فضلاً عنْ أكْمَلِها شريعةً، وأفْضَلِها ديناً.

وقد قَدَّمْنا أنَّ الضَّرَرَ والمفاسِدَ الحاصِلَةَ مِن تلْكَ المُحَرَّماتِ لا يزولُ بالاحتيالِ والتَّنْقيبِ عليها، بل تَقْوى وتَشْتَدُّ مفاسِدُها.

○ طُرُقُ الإصلاحِ:

إذا عُرِفَ هٰذا؛ فالطُّرُقُ التي تتضَمَّنُ نَفْعَ المسلمينَ، والذَّبَّ عن الدِّينِ، ونَصْرَ المظلومينَ، وإغاثَةَ الملهوفينَ، ومعارَضَةَ المحتالينَ بالباطِلِ ليُدْحِضُوا بِهِ الحقَّ، مِن أنْفَعِ الطُّرُقِ، وأَجَلِّها عِلماً وعملاً وتَعْليماً.

فيَجُوزُ للرَّجُلِ أنْ يُظْهِرَ قَوْلاً أو فِعْلاً مقصودُهُ بِهِ مقصودٌ صالِحٌ[1]، وإنْ ظَنَّ النَّاسُ أنَّهُ قَصَدَ بِهِ غيْرَ، ما قُصِدَ بِهِ، إذا كانَ فيهِ مصلَحَةٌ دِينيَّةٌ، مثْلُ دَفْعِ ظُلْمٍ عن نَفْسِهِ، أو عَنْ مُسْلِمٍ، أو مُعاهِدٍ، أوْ نُصْرَةُ حَقٍّ، أو إبطالُ باطِلٍ، مِن حيلَةٍ محرَّمَةٍ، أو غيرِها، أو دَفْعِ الكُفَّارِ عنِ المسلمينَ، أو التَّوَصُّلِ إلى تنفيذِ أَمْرِ اللّٰهِ تعالى ورسولِهِ.

فكُلُّ هٰذه طرُقٌ جائزةٌ، أو مستَحَبَّةٌ، أو واجِبَةٌ.

وإنَّما المُحَرَّمُ أنْ يَقْصِدَ بالعُقودِ الشَّرْعِيَّةِ غيرَ ما شُرِعَتْ لهُ، فيصيرَ

---

(١) بشرط وجود الدليل عليه أصلاً، وإلا ـ كما لا يخفى ـ فإنَّ هذا فتحٌ لباب فساد عريضٍ تحكُمُه الأهواء، وتدفعُه الآراء.

مخادِعاً للَّهِ، فهٰذا مخادِعٌ للَّهِ ورسولِهِ، وذٰلك مُخادِعٌ للكُفَّارِ والفُجَّارِ، والظَّلَمَةِ، وأربابِ المَكْرِ والاحتيالِ.

فَبَيْنَ هٰذا الخِداعِ وذاكَ الخِداعِ مِنَ الفَرْقِ كَما بينَ البِرِّ والإِثْمِ، والعَدْلِ والظُّلْمِ، والطَّاعَةِ والمَعْصِيَةِ، فأَيْنَ مَنْ قَصْدُهُ إِظهارُ دِينِ اللَّهِ تعالى، ونصْرُ المظلومِ، وكَسْرُ الظَّالِمِ إِلى مَنْ قَصْدُهُ ضِدُّ ذٰلك؟

إِذا عُرِفَ هٰذا؛ فنقولُ: الحِيَلُ أَقسامٌ:

أَحَدُها: الطُّرُقُ الخَفِيَّةُ التي يُتَوَصَّلُ بها إِلى ما هُو محرَّمٌ في نفسِهِ، فمتى كانَ المقصودُ بها محرَّماً في نفسِهِ؛ فهيَ حرامٌ باتِّفاقِ المسلمينَ، وصاحِبُها فاجِرٌ ظالِمٌ آثِمٌ.

وذٰلك كالتَّحَيُّلِ على هَلاكِ النُّفوسِ، وأَخْذِ الأَموالِ المعصومَةِ، وفسادِ ذاتِ البَيْنِ، وحِيَلِ الشَّياطينِ على إِغواءِ بَني آدَمَ، وحِيَلِ المُخادِعينَ بالباطِلِ على إِدْحاضِ الحَقِّ، وإِظهارِ الباطِلِ في الخُصوماتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فكلُّ ما هُو محرَّمٌ في نفسِهِ، التَّوَصُّلُ إِليه مُحَرَّمٌ بالطُّرُقِ الظَّاهِرَةِ والخَفِيَّةِ، بل التَّوَصُّلُ إِليهِ بالطُّرُقِ الخَفِيَّةِ أَعظمُ إِثْماً، وأَكبرُ عُقوبَةً؛ فإِنَّ أَذى المُخادِعِ وشَرَّهُ يَصِلُ إِلى المظلومِ من حيثُ لا يَشْعُرُ، ولا يُمْكِنُهُ الاحترازُ عنهُ.

ومن هٰذا البابِ: احتيالُ المرأَةِ على فَسْخِ نِكاحِ الزَّوْجِ، مَعَ إِمساكِهِ بالمعروفِ، بإِنكارِها الإِذْنَ للوَلِيِّ، أَو إِساءَةِ عِشْرَةِ الزَّوْجِ، ونَحْوَ ذٰلك.

فهٰذا النَّوعُ لا يستريبُ أَحدٌ أَنَّهُ مِن كبائِرِ الإِثْمِ، وهو مِن أَقْبَحِ المُحَرَّماتِ، وهو بمنزلَةِ لَحْمِ خِنزيرٍ مَيِّتٍ حَرامٍ، وأَنَّهُ في نفسِه معصيةٌ، لتَضَمُّنِهِ الكَذِبَ والزُّورَ، ومن جِهَةِ تَضَمُّنِهِ إِبطالَ الحَقِّ وإِثباتَ الباطِلِ.

القِسْمُ الثَّالثُ: ما هُو مباحٌ في نفسِه، لكنْ بقصْدِ المحرَّمِ صارَ حراماً، كالسَّفَرِ لقَطْعِ الطَّريقِ، ونحوِ ذٰلك، فهٰهُنا المقصودُ حرامٌ، والوسيلةُ في نفسِها غيرُ محرَّمةٍ، لكنْ لما تُوصِّلَ بها إِلى الحرامِ صارَتْ حراماً.

القِسْمُ الرَّابعُ: أَنْ يَقْصِدُ بالحيلةِ أَخْذَ حَقٍّ، أَوْ دَفْعَ باطِلٍ، لكنْ تكونُ

الطَّريقُ إلى حُصولِ ذٰلك محرَّمَةً، مثلَ أنْ يكونَ لهُ على رجلٍ حقٌّ، فيَجْحَدَهُ، فيقيمَ شاهِدَيْنِ لا يَعْرِفانِ غَريمَهُ، ولم يرياهُ؛ يشْهَدانِ بالزُّورِ، وشهادَةُ الزُّورِ مِن الكَبائِرِ[1]، وقد حَمَلَهما على ذٰلك.

القسمُ الخامِسُ مِن الحِيَلِ: أنْ يَقْصِدَ حِلَّ ما حَرَّمه الشَّارعُ، أو سقوطَ ما أَوْجَبَهُ، بأنْ يَأْتِيَ بسبَبٍ نَصَبَهُ الشَّارعُ سبباً إلى أمرٍ مُباحٍ مقصودٍ، فَيَجْعَلَهُ المُحتالُ المُخادِعُ سبباً إلى أمرٍ محرَّمٍ مقصودٍ اجتنابُهُ.

فهٰذه هِيَ الحيلُ المحرَّمَةُ، التي ذَمَّها السَّلَفُ، وحَرَّموا فِعْلِها وتعليمَها.

وهٰذا حرامٌ مِن جهتينِ: مِن جهةِ غايتِهِ، ومِن جهةِ سببِهِ:

أمَّا غايَتُهُ؛ فإنَّ المقصودَ بِهِ إباحَةُ ما حَرَّمَهُ اللّٰهُ ورسولُهُ، وإسقاطُ مَا أَوْجَبَهُ.

وأمَّا مِنْ جِهَةِ سَبَبِهِ؛ فإنَّه اتَّخَذَ آياتِ اللهِ هُزواً، وقَصَدَ بالسَّبَبِ ما لَمْ يُشْرَعْ لأجْلِهِ، ولا قَصَدَهُ بهِ الشَّارعُ، بل قَصَدَ ضِدَّهُ، فقد ضَادَّ الشَّارِعَ في الغايةِ والحِكْمَة والسَّبَبِ جميعاً.

وقد يكونُ أصحابُ القسمِ الأوَّلِ مِن الحيلِ أحسنَ حالاً مِن كثيرٍ مِن أصحابِ هٰذا القسمِ، فإنَّهُم يقولونَ: إنَّ ما نفعَلُهُ حرامٌ، وإثمٌ، ومعصيةٌ، ونحنُ أصحابُ تَحَيُّلٍ بالباطِلِ، عُصاةٌ للّٰهِ ولرسولِهِ، مخالِفونَ لدِينِهِ.

وكثيرٌ مِن هٰؤلاءِ[2] يَجْعَلونَ هٰذا القِسْمَ مِنَ الدِّينِ الَّذي جَاءَتْ بِهِ الشَّريعَةُ، وأنَّ الشَّارِعَ جوَّزَ لهُمُ التَّحَيُّلَ بالطُّرُقِ المتَنَوِّعَةِ على إباحَةِ مَا حَرَّمَهُ، وإسقاطِ مَا أَوْجَبَهُ، فأيْنَ حالُ هٰؤلاءِ مِن حالِ أُولٰئكَ؟

• مِن صُوَرِ تَسَتُّرِ أَهْلِ الباطِلِ بِما يُشْبِهُ الحَقَّ:

ثمَّ إنَّ هٰذا النَّوْعَ مِن الحِيَلِ يتضمَّنُ نسبةَ الشَّارعِ إلى العَبَثِ، وشَرْعَ ما لا

---

(١) وفي ذٰلك أحاديثُ كثيرة، فانظر: «الكبائر» (رقم ١٦) للذهبي.

(٢) يعني: أصحابَ القسم الخامس.

فائِدَةَ فيهِ إلَّا زِيادَةُ الكُلْفَةِ والعَناءِ، فإنَّ حقيقةَ الأمْرِ عندَ أربابِ الحِيَلِ الباطِلَةِ: أنْ تَصيرَ العُقودُ الشَّرْعِيَّةُ عَبَثاً لا فائِدَةَ فيها، فإنَّها لم يَقْصِدْ بها المحتالُ مقاصِدَها التي شُرِعَتْ لها، بل لا غَرَضَ لهُ في مقاصِدِها وحقائِقِها ألبَتَّةَ، وإنَّما غَرَضُهُ التوصُّلُ بها إلى ما هُو ممنوعٌ منهُ، فجَعَلَها سُترةً وجُنَّةً يتستَّرُ بها مِن ارتكابِ ما نُهِيَ عنهُ صِرْفاً، فأَخْرَجَهُ في قالَبِ الشَّرْعِ!

كما أَخْرَجَتِ الجَهْمِيَّةُ التَّعطيلَ في قالَبِ التَّنْزيهِ!

وأخْرَجَ المنافِقونَ النِّفاقَ في قالَبِ الإحسانِ والتَّوفيقِ والعَقْلِ المَعيشِيِّ!

وأَخْرَجَ الظَّلَمَةُ الفَجَرَةُ الظُّلْمَ والعُدْوانَ في قالَبِ السِّياسَةِ وعُقوبَةِ الجُناةِ!

وأخْرَجَ المَكَّاسُونَ[1] أكْلَ المُكوسِ في قالَبِ إعانَةِ المجاهِدينَ، وسَدِّ الثُّغورِ، وعِمارَةِ الحُصونِ!

وأخْرَجَ الرَّوافِضُ الإلحادَ والكُفْرَ والقَدْحَ في ساداتِ الصَّحابَةِ وحِزْبِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ، وأوليائِهِ وأنصارِهِ، في قالَبِ محبَّةِ أهْلِ البَيْتِ، والتَّعَصُّبِ لهُم، وموالاتِهِم!

وأخْرَجَتِ الإباحِيَّةُ وفَسَقَةُ المتَسِبينَ إلى الفَقْرِ والتَّصَوُّفِ بدَعَهُم وشَطْحَهُم في قالَبِ الفقْرِ، والزُّهْدِ، والأحوالِ، والمعارِفِ، ومحبَّةِ اللَّهِ، ونحْوِ ذٰلك!

وأخْرَجَتِ الاتِّحادِيَّةُ أعظَمَ الكُفْرِ والإلحادِ في قالبِ التَّوحيدِ، وأنَّ الوجودَ واحِدٌ لا اثنانِ، وهو اللَّهُ وحْدَهُ، فليس ها هُنا موجودانِ: خالِقٌ ومخلوقٌ، ولا ربٌّ وعَبْدٌ، بل الوجودُ كلُّهُ واحدٌ، وهو حقيقةُ الرَّبِّ!

وأخْرَجَتِ القَدَرِيَّةُ إنكارَ عُمومِ قُدْرَةِ اللَّهِ تعالى على جَميعِ الموجوداتِ: أفعالِها. وأعيانِها في قالَبِ العَدْلِ، وقالوا: لو كانَ الرَّبُّ قادِراً على أفعالِ عبادِهِ لَزِمَ أنْ يكونَ ظالِماً لهُم! فأَخْرَجوا تكذيبَهُم بالقَدَرِ في قالَبِ العَدْلِ!

وأخْرَجَتِ الجَهْمِيَّةُ جَحْدَهُمْ لصفاتِ كمالِهِ سبحانَهُ في قالَبِ التَّوحيدِ،

---

(١) وهم أصحابُ الضرائب والجمارك ونحو ذٰلك.

وقالوا: لو كانَ لهُ سمعٌ وبَصَرٌ وقُدْرَةٌ وحياةٌ وإرادَةٌ وكلامٌ يقومُ بهِ، لم يَكُنْ واحداً، وكانَ آلهةً متعَدِّدَةً!

وأَخْرَجَتِ الفَسَقَةُ والَّذِينَ يَتَّبِعونَ الشَّهواتِ الفسوقَ والعِصيانَ في قَالَبِ الرَّجاءِ وحُسْنِ الظَّنِّ باللّهِ تعالى، وعَدَمِ إساءَةِ الظَّنِّ بعَفْوِهِ، وقالوا: تَجَنُّبُ المعاصي والشَّهواتِ إزراءٌ بعَفْوِ اللّهِ تعالى، وإساءَةٌ للظَّنِّ بهِ، ونِسبَةٌ لهُ إلى خِلافِ الجودِ والكَرَمِ العَفْوِ!

وأَخْرَجَتِ الخوارِجُ قتالَ الأئمَّةِ والخروجُ عليهِم بالسَّيْفِ في قالَبِ الأمْرِ بالمعروفِ، والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ!

وأَخْرَجَ أربابُ البِدَعِ جَميعُهُم بدَعَهُم في قوالِبَ متنوِّعَةٍ. بحسبِ تلكَ البِدَعِ!

وأَخْرَجَ المُشْرِكونَ شِرْكَهُم في قالَبِ التَّعظيمِ للّهِ، وأَنَّهُ أَجَلُّ مِن أَنْ يُتَقَرَّبَ إليهِ بغيرِ وسائِطَ وشُفعاءَ، وآلهةٍ تُقَرِّبُهُم إليهِ.

فكُلُّ صاحبِ باطلٍ لا يتمكَّنُ مِن ترويجِ باطلِه إلَّا بإخراجِه في قالَبِ الحقِّ.

والمقصودُ أَنَّ أَهْلَ المَكْرِ والحِيَلِ المحرَّمَةِ يُخْرِجُونَ لباطِلَ في القوالِبِ الشَّرعِيَّةِ، ويأْتُونَ بصُوَرِ العُقودِ دُونَ حَقائِقِها ومقاصِدِها.

عرض وجيز

لعَلَّكَ تقولُ: قدْ أَطَلْتَ الكلامَ في هٰذا الفصلِ جِدًّا، وقد كانَ يكفي الإشارَةُ إليه!

فيُقالُ: بل الأمرُ أَعْظَمُ مِمّا ذَكَرْنا، وهو بالإطالَةِ أَجْدَرُ؛ فإنَّ بلاءَ الإسلامِ ومِحْنَتَهُ عَظُمَتْ مِن هاتَيْنِ الطّائفتَيْنِ: أَهْلِ المَكْرِ والمُخادَعَةِ والاحتيالِ في العَمَلِيّاتِ، وأَهْلِ التَّحريفِ والسَّفْسَطَةِ والقَرْمَطَةِ في العِلْمِيّاتِ، وكلُّ فسادٍ في الدِّين - بل والدُّنيا - فمنشؤهُ مِن هاتينِ الطّائفتَيْنِ.

فبالتَّأويلِ الباطِلِ قُتِلَ عُثمانُ ﷺ، وعاثَتِ الأمَّةُ في دِمائِها، وكَفَّرَ بعضُها بعضاً، وتَفرَّقَتْ على بِضْعٍ وسبعينَ فِرقةً، فجَرى على الإسلامِ مِن تأويلِ هٰؤلاءِ، وخِداعِ هٰؤلاءِ ومَكْرِهِم ما جَرَى، واستَوْلَتِ الطَّائِفتانِ، وقَوِيَتْ شَوْكَتُهما، وعاقَبوا مَن لم يوافِقْهُم، وأنْكَرَ عليهِم، ويأبى اللهُ إلّا أنْ يقيمَ له [illegible] مَن يَذُبُّ عنهُ، ويُبيِّنُ أعلامَهُ وحقائِقَهُ؛ لكَيْلا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وبيانُهُ على عبادِهِ.

فلْنَرْجِعْ إلى ما نحنُ بِصَدَدِهِ مِن بيانِ مكايِدِ الشَّيطانِ ومصايِدِهِ:




٩ فِتَنُ عُشَّاقِ الصُّوَرِ

ومِن مكايِدِهِ ومصايِدِهِ ما فَتَنَ بِهِ عُشَّاقَ الصُّوَرِ:

وتِلْكَ لَعَمْرُ اللَّهِ الفِتْنَةُ الكُبْرى، والبَلِيَّةُ العُظْمى، التي استَعْبَدَتِ النُّفوسَ لغيرِ خَلَّاقِها، ومَلَّكَتِ القُلوبَ لمَن يَسومُها الهوانَ مِن عُشَّاقِها، وأَلْقَتِ الحَرْبَ بينَ العِشْقِ والتَّوحيدِ، ودَعَتْ إِلى مُوالاةِ كُلِّ شيطانٍ مَريدٍ، فصَيَّرَتِ القلبَ للهَوى أسيراً، وجَعَلَتْهُ عليهِ حاكِماً وأميراً، فأَوْسَعَتِ القلوبَ مِحْنَةً، وملأَتْها فِتْنَةً، وحالَتْ بينَها وبينَ رُشْدِها، وصَرَفَتْها عن طَريقِ قَصْدِها، ونادَتْ عليها في سُوقِ الرَّقيقِ فباعَتْها بأَبْخَسِ الأثمانِ، وأعاضَتْها بأخسِّ الحُظوظِ وأدْنى المطالِبِ عَنِ العالي مِن غُرَفِ الجِنانِ، فَضْلاً عمَّا هُو فوقَ ذٰلك مِن القُرْبِ مِن الرَّحْمٰنِ. فسَكَنَتْ إِلى ذٰلك المحبوبِ الخسيسِ، الذي أَلَمُها بِهِ أضعافُ لَذَّتِها، ونَيْلُهُ والوصولُ إِليهِ أكبرُ أسبابِ مَضَرَّتِها، فما أَوْشَكَهُ حبيباً يستحيلُ عدوًّا عن قريبٍ، ويتبرَّأُ منهُ مُحِبُّهُ لو أَمْكَنَهُ حتى كأنْ لم يَكُنْ لهُ بحبيبٍ وإنْ تمتَّعَ بهِ في هٰذه الدَّارِ، فسوفَ يَجِدُ بِهِ أعظَمَ الأَلَمِ بعدَ حينٍ، لا سِيَّما إذا صارَ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [الزخرف: ٦٧].

فيا حَسْرَةَ المحبِّ الذي باعَ نفسَهُ لغيرِ الحبيبِ الأوَّلِ بثمنٍ بخْسٍ، وشهوةٍ عاجلةٍ، ذَهَبَتْ لذَّتُها، وبَقِيَتْ تَبِعَتُها، وانْقَضَتْ منفَعَتُها، وبَقِيَتْ مضرَّتُها، فذَهَبَتِ الشَّهْوَةُ، وبَقِيَتِ الشِّقْوَةُ، وزالَتِ النَّشْوَةُ، وبَقِيَتِ الحَسْرَةُ!

فوا رَحْمَتاهُ لِصَبٍّ جُمِعَ لهُ بينَ الحَسْرَتَيْنِ، حسرةِ فوتِ المحبوبِ الأعْلى والنَّعيمِ المُقيمِ، وحسرةِ ما يُقاسيهِ مِن النَّصَبِ في العَذابِ الأليمِ. فهُناكَ يعلمُ المخدوعُ أيَّ بضاعَةٍ أضاعَ، وأنَّ مَنْ كانَ مالِكَ رِقِّهِ وقلبِهِ لم يَكُنْ يَصْلُحُ أنْ يكونَ لهُ مِنْ جملةِ الخَدَمِ والأتْباعِ.

فأيُّ مُصيبةٍ أعظمُ مِن مُصيبةِ مَلِكٍ أُنْزِلَ عن سَريرِ مُلْكِه، وجُعِلَ لمَنْ لا

يَصْلُحُ أَنْ يكونَ مملوكُهُ أسيراً، وجُعِلَ تحتَ أوامِرِهِ ونواهِيه مقهوراً، فلو رأَيْتَ قلبَهُ وهو في يدِ محبوبِهِ لرأَيْتَهُ:

كعُصْفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلٍ يَسُومُها حِيَاضَ الرَّدَى والطِّفْلُ يَلْهُو ويَلْعَبُ

ولو شَاهَدْتَ نَوْمَه وراحَتَه، لَعَلِمْتَ أَنَّ المحبَّةَ والمنامَ تعاهَدَا وتَحالَفا أَنْ ليسَ يَلْتَقِيانِ.

ولو شاهَدْتَ فَيْضَ مَدامِعِهِ ولهيبَ النَّارِ في أحشائِهِ؛ لقُلْتَ:

سُبْحانَ رَبِّ العَرْشِ مُتقِنِ صُنْعِهِ ومُؤَلِّفِ الأضْدادِ دُونَ تَعانُدِ

قَطْرٌ تَوَلَّدَ عَنْ لَهيبٍ في الحَشا مَاءٌ ونَارٌ في مَحَلٍّ واحِدِ

ولو شاهَدْتَ مَسْلَكَ الحُبِّ في القَلْبِ، وتَغَلْغُلَهُ فيهِ؛ لَعَلِمْتَ أَنَّ الحبَّ أَلطَفُ مسلكاً فيهِ مِن الأرواحِ في أبدانِها.

فهل يَليقُ بالعاقِلِ أَنْ يبيعَ هٰذا المُلْكَ المطاعَ لمَن يسومُهُ سوءَ العذابِ، ويوقِعَ بينَهُ وبينَ وليِّهُ ومولاهُ الحقِّ الذي لا غَناءَ لهُ عنهُ ولا بُدَّ لهُ منهُ أَعْظَمَ الحِجابِ؟

فالمُحِبُّ بمَنْ أَحَبَّهُ قتيلٌ، وهو لهُ عبدٌ خاضِعٌ ذليلٌ، إنْ دَعاهُ لبَّاهُ، وإنْ قيلَ لهُ: مَا تَتَمَنَّى؟ فهُو غايَةُ مَا يَتَمَنَّاهُ، لا يأْنَسُ ولا يَسْكُنُ إلى سواهُ، فحقيقٌ بهِ أنْ لا يُمَلِّكَ رِقَّهُ إلَّا لأجَلِّ حبيبٍ، وأنْ لا يَبيعَ نصيبَهُ منهُ بأخَسِّ نَصيبٍ.

المَحَبَّةُ وما تَدْفَعُ إليهِ:

إذا عُرِفَ هٰذا؛ فأَصْلُ كلِّ فعلٍ وحركةٍ في العالَمِ مِنَ الحبِّ والإرادَةِ، فهُما مبدأٌ لجميعِ الأفعالِ والحَرَكاتِ، كما أَنَّ البُغْضَ والكَراهِيَةَ مبدأٌ كُلِّ تَرْكٍ وكَفٍّ.

فالمَحَبَّةُ هي التي تُحَرِّكُ المُحِبَّ في طَلَبِ محبوبِهِ الذي يَكْمُلُ بحصولِهِ لهُ.

فتُحَرِّكُ مُحِبَّ الرَّحمٰنِ، ومُحِبَّ القرآنِ، ومُحِبَّ العلمِ والإيمانِ، ومُحِبَّ

المَتاعِ والأثمانِ، ومُحِبَّ الأوثانِ والصُّلبانِ، ومُحِبَّ النِّسوانِ والمُردانِ، ومُحِبَّ الأوطانِ، ومُحِبَّ الإخوانِ.

فتُثيرُ مِن كلِّ قَلْبٍ حركةً إلى محبوبِهِ مِن هٰذه الأشياءِ، فيتَحَرَّكُ عندَ ذِكْرِ محبوبِهِ منها دُونَ غيرِهِ، ولهٰذا تَجِدُ محبَّ النِّسوانِ والصِّبيانِ، ومحبَّ قُرآنِ الشَّيطانِ بالأصواتِ والألحانِ، لا يتحرَّكُ عنْدَ سمعِ العلمِ وشواهِدِ الإيمانِ، ولا عندَ تلاوةِ القرآنِ، حتَّى إذا ذُكِرَ لهُ محبوبُهُ اهتزَّ لهُ ورَبَا، وتَحَرَّكَ باطنُهُ وظاهِرُهُ شَوْقاً إليهِ وطَرَباً لذِكْرِهِ.

فكُلُّ هٰذهِ المحابِّ باطلَةٌ سِوى محبَّةِ اللّٰهِ وما والاها مِن محبَّةِ رسولِهِ وكتابِهِ ودِينِهِ وأوليائِهِ، فهٰذه المحبَّةُ تَدُومُ. وتدومُ ثَمَرَتُها ونعيمُها بدوامِ من تَعَلَّقَتْ بهِ، وفَضْلُها على سائرِ المحابِّ كفضْلِ مَن تَعَلَّقَتْ بهِ على ما سواهُ، وإذا انْقَطَعَتْ علائقُ المحبِّينَ، وأسبابُ توادِّهِمْ وتَحابِّهِم؛ لم تَنْقَطِعْ أسبابُها.

قالَ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

قالَ عَطاءٌ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «المودَّةُ».

وقالَ مجاهِدٌ: «تواصُلُهُم في الدُّنيا».

وقالَ الضَّحَّاكُ: «يعني تَقَطَّعَتْ بهِمُ الأرحامُ، وتفرَّقَتْ بهِمُ المنازِلُ في النَّارِ».

وقالَ أبو صالحٍ: «الأعمالُ»[١].

والكلُّ حقٌّ؛ فإنَّ الأسبابَ هي الوُصَلُ التي كانَتْ بينَهُم في الدُّنيا، تَقَطَّعَتْ بهِمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إليها.

وأما أسبابُ الموحِّدينَ المخْلِصينَ للّٰهِ؛ فاتَّصَلَتْ بهِمْ، ودامَ اتِّصالُها بدوامِ معبودِهِمْ ومحبوبِهِم، فإنَّ السَّبَبَ تَبَعٌ لغايَتِهِ في البقاءِ والانقطاعِ.

(١) انظر: «الدر المنثور» (١/٤٠٢).

أَصْلُ المحبَّةِ المحمودَةِ:

إِذا تَبَيَّنَ هٰذا؛ فأَصْلُ المحبَّةِ المحمودَةِ التي أَمَرَ اللَّهُ تعالى بها وخَلَقَ خَلْقَهُ لأَجْلِها هي مَحَبَّتُهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، المتضَمِّنَةُ لعبادَتِهِ دونَ عِبادَةِ ما سواهُ.

فإنَّ العِبادَةَ تَتَضَمَّنُ غايَةَ الحُبِّ بغايَةِ الذُّلِّ، ولا يصلُحُ ذٰلك إِلَّا للَّهِ ﷻ وحدَهُ.

ولمَّا كانَتْ المحبَّةُ جنساً تحتَهُ أَنواعٌ مُتفاوِتَةٌ في القَدْرِ والوَصْفِ، كانَ أَغْلَبُ ما يُذْكَرُ فيها في حَقِّ اللَّهِ تعالى ما يختَصُّ بهِ ويَليقُ بهِ؛ كالعِبادَةِ والإِنابَةِ والإِخْباتِ، ولهٰذا لا يُذْكَرُ فيها لفظُ العِشْقِ والغَرام والصَّبابَةِ والشَّغَفِ والهَوَى، وقد يُذْكَرُ لها لفظُ المحبَّةِ، كقولِهِ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقولِهِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومَدارُ كُتُبِ اللَّهِ تعالى المنزَّلَةِ مِن أَوَّلِها إِلى آخِرِها على الأَمْرِ بتلكَ المحبَّةِ ولوازِمِها، والنَّهْيِ عن محبَّةِ ما يضدُّها وملازَمَتِها، وضَرْبِ الأَمثالِ والمقاييسِ لأَهْلِ المحبَّتَيْنِ، وذكْرِ قَصَصِهِم ومآلِهِم، ومنازِلِهِم وثوابِهِم وعقابِهِم، ولا يَجِدُ حَلاوةَ الإِيمانِ، بل لا يَذُوقُ طَعْمَهُ، إِلَّا مَن كانَ اللَّهُ ورسولُهُ أَحبَّ إِليهِ مِمَّا سواهُما، كما في «الصحيحَيْنِ»[1] مِن حديثِ أَنسٍ ﷺ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليه وآلِهِ وسلَّمَ؛ قالَ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجدَ حَلاوةَ الإِيمانِ: مَنْ كانَ اللَّهُ ورسولُهُ أَحبَّ إِليهِ مِمّا سواهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا للَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرْجِعَ في الكُفْرِ بَعْد إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ تعالى منهُ كما يَكْرَهُ أَنْ يُلْقى في النَّارِ».

وفي «الصَّحيحَيْنِ»[2] أَيضاً عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى

---

[1] رواه: البخاري (١/٥٦)، ومسلم (٤٣).

[2] رواه: البخاري (١/٥٥)، ومسلم (٤٤).

عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: «والَّذي نَفْسي بيدِهِ، لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكونَ أَحَبَّ إِليهِ من والدِهِ وولَدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعينَ».

ولهذا اتَّفقَتْ دعوةُ الرُّسلِ مِن أَوَّلِهِمْ إلى آخِرِهم. على عِبادَةِ اللَّهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ.

وأَصْلُ العبادَةِ وتمامُها وكمالُها هو المحبَّةُ، وإِفرادُ الرَّبِّ سبحانَه بها، فلا يُشْرِكُ العَبْدُ بِهِ فيها غَيْرَهُ.

والكَلِمَةُ المتضمِّنَةُ لهٰذين الأَصْلَينِ هي الكَلِمَةُ التي لا يَدْخُلُ في الإِسلامِ إِلَّا بها، ولا يَعْصِمُ دَمَهُ ومالَهُ إِلَّا بالإِتيانِ بها، ولا يَنْجُو مِن عَذابِ اللَّهِ إِلَّا بتحقيقِها بالقلبِ واللسانِ، وذكرُها أَفْضَلُ الذِّكْرِ. كما في «صحيح ابنِ حِبَّانَ»[1] عنهُ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: «أَفْضَلُ الذِّكرِ: لا إِلٰه إِلَّا اللَّهُ». والآيةُ المتضمِّنَةُ لها ولتفضيلِها سيِّدةُ آيِ القرآنِ[2]، والسُّورَةُ المختَصَّةُ بتحقيقِها تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ[3]، وبها أَرْسَلَ اللَّهُ سبحانَه جميعَ رسلِهِ، وأَنْزَلَ جميعَ كُتُبِهِ، وشَرَعَ جميعَ شرائِعِهِ؛ قياماً بحقِّها وتكميلاً لها. وهي التي يَدْخُلُ بها العبدُ على ربِّهِ، ويصيرُ في جوارِهِ، وهي مَفْزَعُ أَوليائِهِ وأَعدائِهِ. فإِنَّ أعداءَهُ إذا مَسَّهُمُ الضُّرُّ في البَرِّ والبَحْرِ فَزِعُوا إِلى توحيدِهِ، وتَبرَّؤوا من شِرْكِهِمْ[4]، ودَعَوْهُ مُخْلِصينَ لهُ الدِّينَ، وأَمَّا أَولياؤهُ فهي مَفْزَعُهُم في شَدائِدِ الدُّنيا والآخِرَةِ.

ولهٰذا كانَتْ دَعَواتُ المكروبِ: «لا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ العظيمُ الحليمُ، لا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظيمِ، لا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّماواتِ ورَبُّ الأَرْضِ ربُّ

---

(١) برقم (٨٤٦).
ورواه الترمذي (٣٣٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٣١)، والحاكم (١/ ٥٠٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)؛ عن جابر؛ بسند حسن إن شاء الله.

(٢) هي آية الكرسي كما سبق عن المصنف في (ص٢٤٠).

(٣) وهي سورة الإخلاص. والحديث الوارد في هٰذه الفضيلة رواه: البخاري (٩/ ٥٣) عن أبي سعيد، ومسلم (٨١١) عن أبي الدرداء.

(٤) كما حكاه الله سبحانه عنهم في سورة لقمان: ٣٢.

العَرْشِ الكريمِ»[١].

وقالتْ أَسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ: «عَلَّمَني رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ كلماتٍ أَقولُها عندَ الكَرْبِ: اللَّهُ، اللَّهُ ربِّي لا أُشْرِكُ بهِ شيئاً»[٢].

وفي «التِّرْمِذِيِّ»[٣] مِن حديثِ إبراهيمَ بنِ محمَّدِ بنِ سعدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ عن أَبيهِ عن جَدِّهِ عن النبيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ؛ قالَ: «دَعْوَةُ يونُسَ إذ نَادَى في بَطْنِ الحوتِ: لا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالمينَ، فإنَّهُ لَمْ يَدْعُ بها مُسْلِمٌ في شَيءٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لهُ».

فالتَّوحيدُ مَلْجَأُ الطَّالِبينَ، ومَفْزَعُ الهَارِبينَ، ونَجاةُ المَكْروبينَ، وغِياثُ المَلْهوفِينَ، وحقيقَتُه إفرادُ الرَّبِّ سبحانَهُ بالمحبَّةِ والإجلالِ والتَّعظيمِ والذُّلِّ والخُضوعِ.

● لا يُحَبُّ لذاتِهِ إِلَّا اللَّهُ:

فإذا عُرِفَ أَنَّ كلَّ حركةٍ فأَصْلُها الحُبُّ والإرادةُ؛ فلا بُدَّ من محبوبٍ مرادٍ لنفسهِ، لا يُطْلَبُ ويُحَبُّ لغيرِهِ، إذ لو كانَ كلُّ محبوبٍ يُحَبُّ لغيرِهِ؛ لَزِمَ الدَّوْرُ[٤] أَو التَّسلْسُلُ في العِلَلِ والغاياتِ، وهو باطِلٌ باتِّفاقِ العُقلاءِ.

والشَّيْءُ قَدْ يُحَبُّ مِن وجهٍ دُونَ وجْهٍ، وليس شيءٌ يُحَبُّ لذاتِهِ مِن كُلِّ وجْهٍ إِلَّا اللَّهُ ﷻ وحدَهُ، الذي لا تصْلُحُ الأُلوهيَّةُ إِلَّا بهِ، فلو كانَ في السَّماواتِ والأَرْضِ آلهةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا، والإلهيَّةُ التي دَعَتِ الرُّسُلُ أُمَمَهُم إلى توحيدِ الربِّ بها: هِيَ العِبادَةُ والتَّأْليهُ، ومِن لوازِمِها: توحيدُ الرُّبوبيَّةِ الَّذي أَقَرَّ

---

(١) رواه: البخاري (٧/ ١٥٤)، ومسلم (٢٧٣٠)؛ عن ابن عباس.

(٢) رواه: أبو داود (١٥٢٥)، وأحمد (٦/ ٣٦٩)؛ بسند حسن.

(٣) برقم (٣٥٠٠).
ورواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٥)، وأحمد (٤٦٢)، والطبراني في «الدعاء» (١٢٤)؛ بسند حسن.

(٤) هو ترتيب شيء على شيء، بحيث لا يكون هٰذا إلا إذا كان هٰذا.

بهِ المُشْرِكُونَ، فاحْتَجَّ اللَّهُ عليهِمْ بهِ، فإنَّهُ يلزَمُ مِن الإقرارِ بهِ الإقرارُ بتوحيدِ الإلٰهيَّةِ.

● المحبَّةُ النَّافِعَةُ:

وكُلُّ حَيٍّ فلهُ إرادَةٌ وعملٌ بحَسَبِهِ، وكلُّ متحرِّكٍ فلهُ غايَةٌ يتحرَّكُ إليها، ولا صَلاحَ لهُ إلَّا أنْ يكونَ غايَةُ حركَتِهِ ونهايةُ مطْلَبِهِ: هو اللَّهُ وحدَهُ، كما لا وجودَ لهُ إلَّا أنْ يكونَ اللَّهُ وحْدَهُ هو ربُّهِ وخالِقُهُ، فوجودُهُ باللَّهِ وحدَهُ، وكمالُهُ أنْ يكونَ للَّهِ وحدَهُ، فما لا يكونُ بهِ لا يكونُ، وما لا يكونُ لهُ لا يَنْفَعُ، ولا يَدُومُ، ولهٰذا قالَ تَعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولم يَقُلْ لَعُدِمَت، إذ هُو سبحانَهُ قادِرٌ على أنْ يُبْقِيَهُما على وجْهِ الفسادِ، لكنْ لا يُمْكِنُ أنْ تكونا صالِحَتَيْنِ إلَّا بأنْ يَكونَ فاطِرُهُما وخالِقُهُما هو المعبودَ وحْدَهُ لا شريكَ لهُ، فإنَّ صلاحَ الأعمالِ والحَركاتِ بصلاحِ نيَّاتِها ومقاصِدِها، فكلُّ عملٍ فهو تابعٌ لنيَّةِ عامِلِهِ وقَصْدِهِ وإرادَتِهِ.

وتقسيمُ الأعمال إلى صالحٍ وفاسِدٍ هو باعتبارِها في ذواتِها تارةً، وباعتبارِ مقاصِدِها ونيَّاتِها تارةً.

وأمَّا تقسيمُ المحبَّةِ والإرادةِ إلى نافِعةٍ وضارَّةٍ، فهو باعتبارِ متعلَّقِها ومحبوبِها ومُرادِها، فإنْ كانَ المحبوبُ المرادُ هو الَّذي لا يَنْبَغي أنْ يُحَبَّ لذاتِهِ، ويُرادَ لذاتِهِ إلَّا هُو، وهو المحبوبُ الأعلى، الَّذي لا صَلاحَ للعبدِ، ولا فلاحَ، ولا نعيمَ، ولا سرورَ، إلَّا بأنْ يكونَ هُو وَحْدَهُ محبوبَهُ، ومُرادَهُ، وغايَةَ مطلوبِهِ، كانَتْ محبَّتُهُ نافعةً لهُ، وإنْ كانَ محبوبُهُ ومرادُهُ ونهايةُ مطلوبِهِ غيرَهُ كانَتْ ضارَّةً لهُ وعذاباً وشقاءً.

فالمحبَّةُ النَّافِعَةُ هي التي تَجْلِبُ لصاحِبِها ما ينفَعُهُ مِن السَّعادَةِ والنَّعيمِ، والمحبَّةُ الضَّارَّةُ هي التي تَجْلِبُ لصاحِبِها ما يضرُّهُ مِن الشَّقاءِ والألَمِ والعَناءِ.

● العِلْمُ والعَدْلُ أَصلُ كُلِّ خَيْرٍ:

إذا تَبَيَّنَ هٰذا؛ فالحيُّ العالِمُ لنفسِهِ لا يُؤْثِرُ مَحَبَّةَ ما يضرُّهُ ويَشْقى بِهِ ويتألَّمُ بهِ، ولا يقعُ ذٰلك إلَّا مِن فسادِ قَصْدِهِ وإرادَتِه.

فالأوَّلُ: جهلٌ، والثَّاني: ظُلْمٌ.

والإنسانُ خُلِقَ في الأصْلِ ظَلوماً جَهولاً، ولا ينفكُّ عن الجهْلِ والظُّلْمِ إلَّا بأَنْ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ ما يَنْفَعُهُ، ويُلْهِمَهُ رُشْدَهُ، فمَنْ أرادَ بِهِ الخيرَ عَلَّمَهُ ما يَنْفَعُهُ، فخَرَجَ بهِ عَنِ الجهلِ، ونَفَعَهُ بما عَلَّمَه، فخَرَجَ بِهِ عَنِ الظُّلْمِ، ومَتى لَمْ يُرِدْ بِهِ خيراً؛ أبْقاهُ على أَصْلِ الخِلْقَةِ؛ كما في «المسنَدِ»[1] مِن حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو عنِ النبيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ؛ قالَ: «إنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ في ظُلْمَةٍ، ثمَّ أَلْقى عليهِمْ مِن نُورِهِ، فمَنْ أصابَهُ ذٰلك النُّورُ اهْتَدى، ومَن أَخْطأَهُ ضلَّ».

فالنَّفْسُ تَهْوى ما يضرُّها ولا ينفَعُها، لجَهْلِها بمضرَّتِه لها تارةً، ولفسادِ قصْدِها تارةً، ولمجموعِهِما تارةً.

وقد ذَمَّ اللَّهُ تعالى في كتابِهِ مَن أجابَ داعيَ الجَهْلِ والظُّلْمِ، فقالَ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٠﴾ [القصص: ٥٠]، وقالَ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فأصلُ كلِّ خيرٍ: هو العِلْمُ والعَدْلُ، وأصلُ كلِّ شرٍّ: هو الجهلُ والظُّلْمُ.

وقد جعلَ اللَّهُ سبحانَه للعَدْلِ المأمورِ به حَدًّا، فمَن تجاوَزَهُ كانَ ظالِماً معتَدِياً، ولهُ مِنَ الذَّمِّ والعُقوبَةِ بحسبِ ظُلْمِه وعُدْوانِهِ الذي خَرَجَ بِهِ عن العَدْلِ،

---

(١) (٢/١٧٦، ١٩٧).

ورواه الآجري في «الشريعة» (ص١٧٥)، وابن حبان (١٨١٢)، والحاكم (١/٣٠)، والترمذي (٢٦٤٤)؛ من طرق عن عبد الله بن الديلمي عن ابن عمرو، وسنده صحيح.

ولهٰذا قالَ ﷺ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقالَ فيمَنِ ابْتَغى سوى زوجَتِهِ أَوْ مُلْكِ يَمينِه: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٧]، وقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

والمقصودُ: أنَّ محبَّةَ الظُّلْمِ والعُدوانِ سبَبُها فسادُ العلمِ، أو فسادُ القَصْدِ، أو فسادُهُما جميعاً.

وقد قيلَ: إنَّ فسادَ القَصْدِ مِن فسادِ العلمِ، وإلَّا فَلَوْ عَلِمَ ما في الضَّارِّ مِن المضَرَّةِ ولوازِمِها حقيقَةَ العِلْمِ لَما آثَرَهُ.

ولهٰذا؛ مَن عَلِمَ مِن طعامٍ شَهِيٍّ لَذيذٍ أنَّهُ مسمومٌ؛ فإنَّهُ لا يُقْدِمُ عليهِ، فضَعْفُ عِلْمِهِ بما في الضَّارِّ مِن وجوهِ المضرَّةِ، وضَعْفُ عَزْمِهِ عنِ اجتنابِهِ يوقِعُهُ في ارتكابِهِ.

ولهٰذا؛ كانَ الإيمانُ الحقيقيُّ هو الذي يحْمِلُ صاحِبَهُ على فِعْلِ ما ينفَعُهُ، وتَرْكِ ما يضرُّهُ، فإذا لم يَفْعَلْ هٰذا، ولم يَتْرُكْ هٰذا؛ لم يكُنْ إيمانُهُ على الحقيقةِ، وإنَّما معَهُ مِن الإيمانِ بحسبِ ذٰلك؛ فإنَّ المؤمِنَ بالنَّارِ حَقيقةَ الإيمانِ، حتَّى كأنَّهُ يراها، لا يسلُكُ طريقَها الموصِلَةَ إليها، فضلاً عن أنْ يسعى فيها بجُهْدِهِ.

والمؤمِنُ بالجنَّةِ حقيقةَ الإيمانِ لا تُطاوِعُهُ نفسُهُ أنْ يقعُدَ عن طَلَبِها، وهٰذا أمْرٌ يَجِدُه الإنسانُ في نفسِه فيما يسعى فيهِ في الدُّنيا مِن المنافِعِ، أو التخلُّصِ منهُ مِن المضارِّ.

○ العَقْلُ والشَّرْعُ:

إذا تبيَّنَ هذا؛ فالعَبْدُ أحْوَجُ شيءٍ إلى علمِ ما يضرُّهُ ليَجْتَنِبَهُ، وما ينفَعُهُ ليحْرِصَ عليهِ ويفْعَلَهُ، فيُحِبَّ النافعَ، ويُبْغِضَ الضَّارَّ، فتكونَ محبَّتُهُ وكراهَتُهُ موافِقَتَيْنِ لمحبَّةِ اللهِ تعالى وكراهتِه، وهٰذا مِن لوازِمِ العبوديَّةِ والمحبَّةِ، ومتى

خَرَجَ عن ذٰلك أحَبَّ ما يَسْخَطُهُ ربُّهُ، وكَرِهَ ما يحبُّهُ، فنَقَصَتْ عبوديَّته بحسبِ ذٰلك.

وها هُنا طريقانِ: العقلُ والشَّرْعُ.

أمَّا العقلُ؛ فقد وَضَعَ اللَّهُ سبحانَه في العقولِ والفِطَرِ استحسانَ الصِّدْقِ، والعَدْلِ، والإحسانِ، والبِرِّ، والعِفَّةِ، والشَّجاعَةِ، ومكارِمِ الأخلاقِ، وأداءِ الأماناتِ، وصِلَةِ الأرحامِ، ونصيحةِ الخَلْقِ، والوفاءِ بالعَهْدِ، وحِفْظِ الجِوارِ، ونَصْرِ المظلومِ، والإعانةِ على نوائِبِ الحقِّ، وقِرَى الضَّيْفِ، وحَمْلِ الكَلِّ، ونحوِ ذٰلك.

ووضَعَ في العُقولِ والفِطَرِ استقْباحَ أضدادِ ذٰلك، ونسبةُ هٰذا الاستحسانِ والاستقباحِ إلى العُقولِ والفِطَرِ؛ كنسبَةِ استحسانِ شُرْبِ الماءِ البارِدِ عندَ الظَّمَإِ، وأكْلِ الطَّعامِ اللَّذيذِ النَّافِعِ عندَ الجُوعِ، ولُبْسِ ما يُدْفِئُهُ عندَ البَرْدِ، فكما لا يُمْكِنُهُ أنْ يَدْفَعَ عن نفسِهِ وطَبْعِهِ استحسانَ ذٰلك ونَفْعَهُ؛ فكَذٰلك لا يَدْفَعُ عن نفسِهِ وفِطْرَتِه استحسانَ صفاتِ الكمالِ ونَفْعِها، واستقباحَ أضْدادِها، ومَن قالَ: إنَّ ذٰلك لا يُعْلَمُ بالعقلِ، ولا بالفطرةِ، وإنَّما عُرِفَ بمجرَّدِ السَّمْعِ، فقولُهُ باطلٌ.

والطَّريقُ الثَّاني لمعرفةِ الضَّارِّ والنَّافِعِ مِن الأعمالِ: السَّمْعُ.

وهو أوْسَعُ وأبْيَنُ وأصْدَقُ مِن الطَّريقِ الأوَّلِ؛ لخفاءِ صفاتِ الأفعالِ وأحوالِها ونتائِجِها، وأنَّ العالِمَ بذٰلك على التَّفصيلِ ليس هو إلَّا الرَّسولُ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهِ.

فأعْلَمُ النَّاسِ وأصحُّهُم عقلاً ورأياً واستحساناً مَن كانَ عقلُهُ ورأيُهُ واستحسانُهُ وقياسُهُ موافِقاً للسُّنَّةِ؛ كما قالَ مجاهِدٌ: «أفضَلُ العبادَةِ الرَّأيُ الحسنُ، وهو اتِّباعُ السُّنَّةِ»، قالَ تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

وكانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ أهْلَ الآراءِ المُخالِفَةِ للسُّنَّة وما جَاءَ بِهِ الرَّسولُ في

مسائل العلم الخَبَرِيَّةِ وأهْلَ مسائل الأحكام العَمَلِيَّةِ؛ يسمُّونَهُم: أهْلَ الشُّبهاتِ والأهواءِ؛ لأنَّ الرَّأيَ المُخالِفَ للسُّنَّةِ جَهْلٌ، لا علمٌ، وهَوى لا دينٌ، فصاحِبُهُ ممَّن اتَّبَعَ هواهُ بغيرِ هُدًى مِن اللَّهِ، وغايتُهُ الضَّلالُ في الدُّنيا والشَّقاءِ في الآخرةِ، وإنَّما ينتفي الضَّلالُ والشَّقاءُ عمَّنِ اتَّبَعَ هُدى اللَّهِ الذي أرْسَلَ بهِ رُسُلَهُ، وأنْزلَ بهِ كُتُبَهُ، كما قالَ تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

واتِّباعُ الهَوى يكونُ في الحبِّ والبُغْضِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: ١٣٥]، وقالَ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟﴾ [المائدة: ٨].

والهوى المنهيُّ عن اتِّباعِهِ كما يكونُ هو هَوى الشَّخْصِ في نفسِهِ، فقد يكونُ أيضاً هَوى غَيْرِهِ، فهو منهيٌّ عَنِ اتِّباعِ هٰذا وهٰذا؛ لمضادَّةِ كُلٍّ منهُما لهُدى اللَّهِ الذي أرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وأنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ.

• المحبَّةُ النَّافِعَةُ والمحبَّةُ الضَّارَّةُ:

فمِنَ المحبَّةِ النَّافِعَةِ: محبَّةُ الزَّوجَةِ وما مَلَكَتْ يمينُ الرَّجُلِ؛ فإنَّها مُعِينَةٌ على ما شَرَعَ اللَّهُ سبحانَه لهُ مِن النِّكاحِ ومِلْكِ اليَمينِ؛ مِن إعفافِ الرَّجُلِ نفسَهُ وأهْلَهُ، فلا تَطْمَحُ نفسُهُ إلى سواها مِن الحرام، ويُعِفُّها، فلا تَطْمَحُ نفسُها إلى غيره، وكلَّما كانَتِ المحبَّةُ بينَ الزَّوْجَيْنِ أتَمَّ وأقْوى كانَ هٰذا المقصودُ أتَمَّ وأكْمَلَ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقالَ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وفي «الصَّحيحِ»[١] عنه صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ أنَّهُ سُئِلَ مَن أحبُّ النَّاسِ إليكَ؟ فقالَ: «عائشةُ».

ولهٰذا كانَ مسروقٌ كَثَلَلهُ يقولُ إذا حَدَّثَ عنها: «حَدَّثتني الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيقِ حَبيبةُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، المبرَّأَةُ مِن فوقِ سبعِ سماواتٍ»[٢].

فلا عَيْبَ على الرَّجُلِ في محبَّتِه لأهْلِهِ، وعِشْقِهِ لها، إلَّا إذا شَغَلَهُ ذٰلك عن محبَّةِ ما هو أنْفَعُ لهُ، مِن محبَّةِ اللَّهِ ورسولِهِ، وزاحَمَ حبَّهُ وحبَّ رسولِهِ، فإنَّ كُلَّ محبَّةٍ زاحمتْ محبَّةَ للَّهِ ورسولِهِ، بحيثُ تُضْعِفُها وتَنْقصُها فهي مذمومةٌ، وإنْ أعانَتْ على محبَّةِ اللَّهِ ورسولِهِ وكانَتْ من أسبابِ قوَّتِها، فهي محمودةٌ، ولذٰلك كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ يحبُّ الشَّرابَ البارِدَ الحُلْوَ، ويحبُّ الحلواءَ والعسلَ، ويحبُّ الخيلَ، وكانَ أحبَّ الثِّيابِ إليهِ القميصُ، وكانَ يُحِبُّ الدُّبَّاءَ[٣]، فهٰذه المحبَّةُ لا تُزاحِمُ محبَّةَ اللَّهِ، بل قد تجمَعُ الهمَّ والقَلْبَ على التفرُّغِ لمحبَّةِ اللَّهِ، فهٰذه محبَّةٌ طبيعيَّةٌ تتبعُ نِيَّةَ صاحِبِها وقَصْدَهُ بفعْلِ ما يحبُّهُ.

فإنْ نوى بهِ القوَّةَ على أمْرِ اللَّهِ تعالى وطاعَتِهِ كانَتْ قُرْبَةً، وإنْ فعلَ ذٰلك بحُكْمِ الطَّبْعِ والميلِ المجرَّدِ لم يُثَبْ ولم يُعاقَبْ، وإنْ فاتَتْهُ دَرجَةُ مَن فَعَلَهُ متقرِّباً بهِ إلى اللَّهِ.

فالمحبَّةُ النافعةُ ثلاثةُ أنواعٍ: محبَّةُ اللَّهِ، ومحبَّةٌ في اللَّهِ، ومحبَّةُ ما يُعينُ على طاعةِ اللَّهِ تعالى واجتنابِ معصيَتِهِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٨٤) عن عمرو بن العاص.

(٢) رواه: أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ٤٤)، والمُوَفَّق المقدسي في «إثبات صفة العلو» (رقم ٨٣)، والذهبي في «العلو» (ص٩٢).

(٣) وهٰذا كلُّه صحيحٌ ثابتٌ عن النبيِّ ﷺ، تُراجع له كتب الشمائل.

والمحبّةُ الضارّةُ ثلاثةُ أنواعٍ: المحبّةُ معَ اللَّهِ، ومحبّةُ ما يُبْغِضُهُ اللَّهُ تعالى، ومحبّةُ ما تقطَعُ محبَّتُهُ عن محبَّةِ اللَّهِ تعالى أَو تُنْقِصُه.

فهٰذه ستّةُ أنواعٍ، عليها مدارُ محابِّ الخَلْقِ.

فمحبَّةُ اللَّهِ ﷻ أصْلُ المحابِّ المحمودَةِ، وأصلُ الإيمانِ والتَّوحيدِ، والنَّوعانِ الآخرانِ تَبَعٌ لها.

والمحبَّةُ معَ اللَّهِ أصلُ الشِّرْكِ والمحابِّ المذمومَةِ، والنَّوعانِ الآخَرَانِ تَبَعٌ لها.

ومحبَّةُ الصّوَرِ المحرَّمَةِ وعِشْقُها من موجِباتِ الشِّرْكِ، وكلَّما كانَ العبدُ أقربَ إلى الشِّركِ وأبْعَدَ مِن الإخلاصِ؛ كانتْ محبَّتُهُ بعشْقِ الصُّورِ أشدَّ، وكلَّما كانَ أكثَرَ إخلاصاً وأشدَّ توحيداً؛ كانَ أبعدَ مِن عِشْقِ الصُّورِ. ولهٰذا أصابَ امرأةَ العَزيزِ مَا أصابَها مِن العِشْقِ؛ لشِرْكِها، ونَجا منهُ يوسُفُ الصِّدِّيقُ ﷺ بإخلاصِهِ، قالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فالسُّوءُ: العِشْقُ، والفحشاءُ: الزِّنى.

فالمُخْلِصُ قد خَلَّصَ حُبَّهُ للَّهِ، فخلَّصَهُ اللَّهُ مِن فتنَةِ عِشْقِ الصُّوَرِ، والمُشْرِكُ قلبُهُ مُتَعَلِّقٌ بغيرِ اللَّهِ، لم يَخْلُصْ توحيدُهُ وحبُّهُ للَّهِ ﷻ.

○ المَفْتونون بالصُّوَرِ:

ومِن أَبْلَغِ كَيْدِ الشَّيطانِ وسُخْرِيَتِه بالمفتونينَ بالصُّوَرِ: أنَّهُ يُمَنِّي أحَدَهُم أنَّهُ إنَّما يُحِبُّ ذٰلك الأمرَدَ، أو تلكَ المرأَةَ الأجنبيَّةِ للَّهِ تعالى، لا للفاحِشَةِ، ويأْمُرُهُ بمؤاخاتِهِ!

وهٰذا مِن جِنْسِ المخادَنَةِ[1]، بل هو مخادَنَةٌ باطِنَةٌ، كذواتِ الأخدانِ

---

(١) قال البغوي في «معالم التنزيل» (٢/٤٦) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ [النساء: ٢٥]: «أي: أحبابٍ تزنون بهنَّ في السرِّ».

اللَّاتي [حَذَّرَ اللَّهُ مِن التَّزَوُّجِ بهِنَّ، وذَكَرَ أنَّهُنَّ غيرُ مُحْصَناتٍ][١]، فقالَ اللَّهُ تعالى فيهِنَّ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وقالَ في حَقِّ الرِّجالِ: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]، فيُظْهِرونَ للنَّاسِ أنَّ محبَّتَهُم تلكَ الصُّورَةَ للَّهِ تعالى، ويُبْطِنونَ اتِّخاذَها خِدْناً، يَتَلَذَّذونَ بها فِعْلاً، أو تَقْبيلاً، أو تمتُّعاً بمجرَّدِ النَّظرِ والمخادَنةِ، والمعاشرةِ، واعتقادُهُمْ أنَّ هٰذا للَّهِ، وأنَّهُ قُربةٌ وطاعةٌ: هو مِن أعظمِ الضَّلالِ والغَيِّ، وتبديلِ الدِّينَ، حيثُ جَعَلوا ما كَرِهَهُ اللَّهُ سبحانَه محبوباً لهُ، وذلك مِن نوعِ الشِّرْكِ.

والمحبوبُ المتَّخَذُ مِن دُونِ اللَّهِ طاغوتٌ، فإنَّ اعتقادَ كونِ التَّمَتُّعِ بالمحبَّةِ والنَّظَرِ والمُخادَنَةِ وبعضِ المباشَرَةِ للَّهِ، وأنَّهُ حُبٌّ فيه: كفرٌ وشِرْكٌ؛ كاعتقادِ محبِّي الأَوْثانِ في أوثانِهِم.

وقد يَبْلغُ الجهلُ بكثيرٍ من هؤلاء إلى أنْ يعْتَقِدَ أنّ التَّعاوُنَ على الفاحِشَةِ تعاونٌ على الخيرِ والبِرِّ، وأنَّ الجالبَ محسنٌ إلى العاشِقِ، جَديرٌ بالثَّوابِ، وأنَّهُ ساعٍ في دوائِهِ وشِفائِهِ، وتفريجِ كُرَبِ العشقِ عنهُ، وأنَّ «مَن نَفَّسَ عن مؤمنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنيا؛ نَفَّسَ اللَّهُ عنهُ كربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامَةِ»[٢].

◘ أقسامُ النَّاسِ في ذلك:

ثُمَّ هم بعدَ هٰذا الضَّلالِ والغَيِّ أربعةُ أقسامٍ:

* قومٌ يعتَقِدُونَ أنَّ هذا للَّهِ، وهٰذا كثيرٌ في طوائفِ العامَّةِ، والمنتسبينَ إلى الفقرِ والتَّصَوُّفِ.

* وقومٌ يعلمونَ في الباطِنِ أنَّ هٰذا ليسَ للَّهِ، وإنَّما يُظْهِرونَ أنَّهُ للَّهِ خِداعاً ومَكْراً وتستُّراً!

---

(١) زيادة من تعليق الشيخ محمد حامد الفقي على الأصل (٢/١٤١).

(٢) كما رواه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة.

وهٰؤلاءِ مِن وجهٍ أقربُ إلى المغفرةِ من أُولئكَ، لما يُرْجَى لهُم مِن التَّوْبَةِ، ومِن وجهٍ أخبثُ؛ لأنَّهُم يعدمونَ التَّحريمَ ويأْتونَ المحرَّمَ، وأُولٰئكَ قد يَشْتَبِهُ الأمْرُ على بعضِهم، كما اشتَبَهَ على كثيرٍ مِن النَّاسِ أنَّ استماعَ أصواتِ الملاهي قُربةٌ وطاعةٌ[١]، ووقعَ في ذٰلك مَن شاءَ اللَّهُ مِن الزُّهَّادِ والعُبَّادِ، فكذٰلك اشتَبَهَ على مَنْ هُو أَضْعَفُ عِلْماً وإيماناً أنَّ التَّمَتُّعَ بعشقِ الصُّوَرِ ومشاهَدَتَها ومعاشَرَتَها عبادةٌ وقُربةٌ!

القسمُ الثالثُ: مقصودُهُم الفاحِشَةُ الكُبْرى، فتارةً يكونونَ مِن أُولٰئكَ الضَّالينَ الذين يعتَقِدونَ أنَّ هٰذه المحبَّةَ التي لا وَطْءَ فيها للَّهِ تعالى، وأنَّ الفاحِشَةَ معصيةٌ، فيقولونَ: نفعَلُ شيئاً للَّهِ تعالى، ونفعَلُ أمراً لغيرِ اللَّهِ تعالى، وتارةً يكونونَ مِن أَهْلِ القسم الثاني، الذين يُظْهِرونَ أنَّ هٰذه المحبَّةَ للَّهِ، وهُم يعلمونَ أنَّ الأمرَ بخلافِ ذٰلك، فيجمعونَ بينَ الكَذِبِ والفاحشةِ، وهُم في هٰذه المخادَنَةِ والمؤاخاةِ مُضاهِؤونَ للنِّكاحِ، فإنَّهُ يحصلُ بينَ هٰذين مِن الاقترانِ والازدواجِ والمخالَطةِ نظيرُ ما يحصَلُ بين الزَّوجينِ، وقد يزيدُ عليهِ تارةً في الكمِّ والكَيْفِ، وقد ينقُصُ عنهُ، وقد يحصُلُ بينهُما مِن الاقترانِ ما يُشْبِهُ اقترانَ المتواخيينِ المتحابَّيْنِ في اللَّهِ، لكنِ الَّذينَ آمنوا أشدُّ حبًّا للَّهِ؛ فإنَّ المتحابَّيْنِ يَعْظُمُ تحابُّهُما ويَقْوى ويثبُتُ؛ بخلافِ هٰذه المؤاخاةِ والمحبَّةِ الشَّيطانيَّةِ.

ثمَّ قد يشتَدُّ بينَهما الاتِّصالُ حتى يسمُّونَه رواجاً، ويقولونَ: تزوَّج فلانٌ بفلانٍ؛ كما يفعلُهُ المستهزئونَ بآياتِ اللَّهِ تعالى ودِينهِ مِن مُجّانِ الفسَقَةِ. ويُقِرُّهُم الحاضِرونَ على ذٰلك، ويضحكونَ منهُ، ويُعْجِبْهُم مثلُ ذٰلك المزاحِ والنِّكاحِ، وربَّما يقولُ بعضُ زنادِقَةِ هٰؤلاءِ: الأمْرَدُ حبيبُ اللَّهِ، والمُلْتحي عَدُوُّ اللَّهِ! وربَّما اعتقَدَ كثيرٌ مِن المُرْدانِ أنَّ هٰذا صحيحٌ، وأنَّهُ المرادُ بقولِهِ: «إذا أَحَبَّ اللَّهُ العبدَ؛ نادى: يا جِبريلُ! إنِّي أُحِبُّ فلاناً، فأَحِبَّهُ...»

---

(١) سبق تفصيلُ القول في ذمِّ الملاهي

الحديث[١]، وأَنَّهُ توضَعُ لهُ المحبَّةُ في الأرضِ، فيُعْجِبُهُ أنْ يُحَبَّ، ويفتَخِرُ بذٰلك بينَ النَّاسِ، ويُعْجِبُهُ أنْ يُقالَ: هو معشوقٌ، أو حُظْوَةُ البلدِ، وأنَّ النَّاسَ يتغايَرونَ على محبَّتِهِ ونحوِ ذٰلك[٢]!

ولا ريبَ أنَّ الكُفْرَ والفسوقَ والمَعاصي درَجاتٌ؛ كما أنَّ الإيمانَ والعملَ الصَّالحَ دَرجاتٌ؛ كما قالَ تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقالَ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، وقالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

ونَظائِرُهُ في القرآنِ كَثيرةٌ.

ومِنْ أخفِّ هٰؤلاءِ جُرْماً: مَنْ يرتكِبُ ذلك معْتَقِداً تحريمَه، وأنَّهُ إذا قَضى حاجَتَهُ؛ قالَ: أَسْتَغفِرُ اللَّهَ! فكأَنَّ ما كانَ لم يكُنْ!

فقد تلاعبَ الشَّيطانُ بأكثرِ هٰذا الخلْقِ؛ كتلاعُبِ الصِّبْيانِ بالكُرَةِ، وأَخْرَجَ لهُم أنواعَ الكُفْرِ والفسوقِ والعصيانِ في كُلِّ قالَبٍ.

وبالجملةِ؛ فمراتِبُ الفاحشةِ متفاوِتةٌ بحسبِ مفاسِدِها، فالمُتَّخِذُ خِدْناً مِن النِّساءِ، والمتَّخِذَةُ خِدْناً مِن الرِّجالِ أقلُّ شرٍّ مِن المسافحِ والمسافِحَةِ مع كلِّ أحدٍ، والمستخفي بما يرْتَكِبُهُ أقلُّ إثماً مِن المجاهِرِ المُسْتَعْلِن، والكاتِمُ لهُ أقلُّ إثماً مِن المُخْبِرِ المحدِّثِ للنّاسِ بهِ، فهٰذا بعيدٌ مِن عافيةِ اللَّهِ تعالى وعفْوِهِ؛ كما قالَ النبيُّ صلّى اللّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتي مُعافىً إلَّا المُجاهِرينَ، وإنَّ مِن المُجاهَرةِ أنْ يستُرَ اللّهُ تعالى عليهِ، ثمَّ يُصْبِحَ يكشِفُ

---

(١) رواه: البخاري (١٣/٣٨٧)، ومسلم (٢٦٣٧)؛ عن أبي هريرة.

(٢) يُنظر كتاب «ذمّ اللواط» للدُّوري، وكذا للآجُرّي، طبع الرياض، تحقيق أخينا الفاضل خالد العسري حفظه المولى.

سِتْرَ اللَّهِ عنهُ، يقولُ: يا فلانُ! فعلْتُ البارِحَةَ كذا وكذا، فيبيتُ ربُّهُ يسترُهُ، ويُصْبِحُ يكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عن نَفْسِهِ»[١]، أو كما قالَ[٢].

○ فِتْنَةُ عِشْقِ الصُّورِ منافيةٌ للتَّوحيدِ:

والفتنَةُ بعشقِ الصُّوَرِ تُنافي أنْ يكونَ دينُ العبدِ كُلُّهُ للَّهِ، بل ينقُصُ مِن كونِ دينِهِ للَّهِ بحسبِ ما حصلَ لهُ مِن فتنَةِ العِشْقِ، وربَّما أخرجَتْ صاحِبَهُ مِن أنْ يَبقى معهُ شيءٌ مِن الدِّينِ للَّهِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فناقَضَ بينَ كونِ الفتنَةِ وبينَ كونِ الدِّينِ كُلِّهِ، فكلٌّ منهما يناقِضُ الآخَرَ.

والفتنَةُ قد فُسِّرَتْ بالشِّرْكِ.

فما حَصَلَتْ بِهِ فتنَةُ القلوبِ فهو إمَّا شِرْكٌ، وإمَّا مِن أسبابِ الشِّرْكِ.

وهي جِنْسٌ تحتَهُ أنواعٌ مِن الشُّبُهاتِ والشَّهواتِ.

وفتْنَةُ الَّذينَ اتَّخَذوا مِن دُونِ اللَّهِ أنْداداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ مِنْ أعْظَمِ الفِتَنِ.

ومنهُ فتْنَةُ أصحابِ العِجْلِ؛ كما قالَ تعالى لموسى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥].

ولفظُ الفِتنَةِ في كتابِ اللَّهِ تعالى يُرادُ بها الامتحانُ الذي لم يُفْتَنْ صاحِبُهُ، بل خَلُصَ من الافتتانِ، ويُرادُ بها الامتحانُ الذي حَصَلَ معهُ افتتانٌ.

فمِن الأوَّلِ: قولُه تعالى لموسى ﷺ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

ومِن الثَّاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقولُه: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

---

(١) رواه البخاري (١٠/٤٠٥)، ورواه ـ مختصراً ـ مسلمٌ (٢٩٩٠).

(٢) كلمَةٌ تُقال عند الرواية بالمعنى، فكأنَّ المصنِّف ﷺ يروي الحديثَ من حفظه.

ويُطْلَقُ على ما يتناوَلُ الأمْرَيْنِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]، ومنهُ قولُ موسى ﷺ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: امتحانُكَ وابتلاؤكَ، تُضِلُّ بها مَنْ وَقَعَ فيها، وتَهْدِي مَنْ نَجا منها.

فالفِتْنَةُ كِيرُ القُلوبِ، ومَحَكُّ الإيمانِ، وبها يَتَبَيَّنُ الصَّادِقُ مِن الكَاذِبِ.

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٣].

فالفِتْنَةُ قَسَمَتِ النَّاسَ إلى صادِقٍ وكاذِبٍ، ومؤمِنٍ ومُنافِقٍ، وطيِّبٍ وخَبيثٍ، فمَنْ صَبَرَ عليها؛ كانتْ رحمةً في حقِّهِ، ونَجا بصبْرِهِ مِن فتنةٍ أعْظَمَ منها. ومَنْ لَمْ يَصْبِرْ عليها؛ وَقَعَ في فتنةٍ أَشَدَّ منها.

فالفتنَةُ لا بدَّ منها في الدُّنيا والآخرةِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]، فالنَّارُ فتنةُ مَن لم يصبِرْ على فتنَةِ الدُّنيا، قالَ تعالى في شجرةِ الزَّقُّومِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣﴾ [الصافات: ٦٣].

قالَ ابنُ قُتَيبَةَ: قد تكونُ شجَرَةُ الزَّقُّومِ نَبْتاً مِن النَّارِ، ومِن جَوْهَرٍ لا تأْكُلُهُ النَّارُ، وكذٰلكَ سلاسِلُ النَّار وأغلالُها وأنْكالُها، وعقارِبُها وحَيَّاتُها، ولو كانتْ على ما يُعْلَمْ لم تَبْقَ على النَّارِ، وإنَّما دَلَّنا اللَّهُ تعالى على الغائب عندَهُ بالحاضِرِ عندَنا، فالأسماءُ متَّفِقَةُ الدَّلالَةِ، والمعاني مختَلِفَةٌ، وما في الجنَّةِ مِن ثَمرِها وفُرُشِها وشَجَرِها وجميعِ آلاتِها على مِثْلِ ذٰلكَ[1].

والمقصودُ أنَّ هٰذه الشَّجَرَةَ فتنةٌ لهُم في الدُّنيا بتكذيبِهِم بها، وفتنَةٌ لهُم في الآخرةِ بأكلِهِم منها.

---

(١) «تأويل مشكل القرآن» (ص٧٠).

وكذٰلك إخبارُهُ سبحانَهُ بأَنَّ عِدَّةَ الملائكَةِ الموكَّلينَ بالنَّارِ تسعَةَ عشرَ كانَ فتنَةً للكُفَّارِ، حيثُ قالَ عدوُّ اللَّهِ أبو جَهْلٍ: أَيُخَوِّفُكُم محمَّدٌ بتسعَةَ عشرَ، وأَنْتُمُ الدُّهْمُ[1]. أَفَيَعْجِزُ كلُّ مئة منكُم أنْ يَبْطِشوا بواحدٍ منهُم، ثمَّ تخرجُونَ مِن النَّارِ؟ فقالَ أبو الأَسَدِ[2]: يا معشرَ قريشٍ! إذا كانَ يومُ القيامَةِ؛ فأنا أَمْشي بينَ أيديكُمْ على الصِّراطِ، فأَدْفَعُ عشرةً بمَنْكِبي الأيمَنِ، وتسعةً بمَنْكِبي الأَيْسَرِ في النَّارِ، ونمضي فندْخُلُ الجنَّةَ[3].

فكانَ ذِكْرُ هٰذا العددِ فتنةً لهُم في الدُّنيا، وفتنةً لهُم يومَ القيامةِ[4].

والكافِرُ مفتونٌ بالمؤمِنِ في الدُّنيا، كما أَنَّ المؤمِنَ مفتونٌ بهِ، ولهٰذا سأَلَ المؤمِنونَ ربَّهُم أَنْ لا يَجْعَلَهُم فتنةً للَّذينَ كَفَروا؛ كما قالَ الحُنفاءُ: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الممتحنة: ٤، ٥]، وقالَ أصحابُ موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

قالَ مجاهدٌ: المعنى: لا تُعَذِّبْنا بأيديهم، ولا بعذابٍ مِن عندِكَ، فيقولونَ: لو كانَ هٰؤلاءِ على الحَقِّ ما أصابَهُم هٰذا.

وقالَ الزَّجَّاجُ: معناهُ: لا تُظْهِرْهُم علينا، فيظنُّوا أَنَّهُم على حَقٍّ، فيُفْتَنُوا بذٰلك.

---

(١) أي: الخلْق الكثيرون.

(٢) كما حكاه الله ﷻ في سورة المدَّثر: ٣٠ ـ ٣١. وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٩٥)، و«جامع البيان» (٢٩/ ١٥٩).

(٣) وفي «الدر المنثور» (٨/ ٣٣٣): «أبو الأشدين»، فالله أعلم.

(٤) وهو ـ أيضاً ـ فتنةٌ لهم في هٰذا العصر، كما ابْتدعَ الملحد الدكتور رشاد خليفة في بدعته الضالَّة الكافرة في ذكر الإعجاز العددي (!!) للقرآن في رقم (١٩) ليثبتَ بزعمه (!) ضلالَ البهائية وكُفرهم!! واغتر به بعض أدعياء العلم من المسلمين؛ كما سبقت الإشارة إليه، فلا قوة إلا بالله، ونسأل الله العظيم أن يهدي مَن على شاكلته من المبتدعين الضالِّين، أو أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ إنه ولي ذٰلك والقادر عليه. ولقد هَلك هٰذا الدكتور قريباً، وأراح اللهُ المسلمين من شرِّه!

وقالَ الفَرَّاءُ: لا تُظْهِرْ علينا الكُفَّارَ، فيَرَوْا أنَّهُم على حقٍّ وأنا على باطلٍ.

وقالَ مقاتِلٌ: لا تُقَتِّرْ علينا الرِّزْقَ وتَبْسُطْهُ عليهم، فيكونَ ذٰلك فتنةً لهُم.

وقد أَخْبَرَ اللَّهُ سبحانَهُ أنَّهُ قَدْ فَتَنَ كُلًّا مِنَ الفريقينِ بالفريقِ الآخَرِ، فقالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، فقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

والمقصودُ أنَّ اللَّهَ سبحانَهُ فَتَنَ أصحابَ الشَّهواتِ بالصُّورِ الجميلةِ، وفتَنَ أُولٰئكَ بهِم، فكُلٌّ مِن النَّوْعَيْنِ فتنةٌ للآخَرِ، فمَنْ صَبَرَ منهُم على تلكَ الفتنةِ؛ نجا مِمَّا هُو أعظمُ منها، ومَن أصابَتْهُ تلكَ الفتنةُ سَقَطَ فيما هُو شرٌّ منها، فإنْ تَدارَكَ ذٰلك بالتَّوبَةِ النَّصوحِ، وإلَّا فبسبيلِ مَن هَلَكَ، ولهٰذا قالَ النبيُّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: «ما تركْتُ بعدي فتنةً أضَرَّ مِن النِّساءِ على الرِّجالِ»[1] أو كما قالَ.

فالعبدُ في هٰذه الدَّارِ مفتونٌ بشهواتِهِ ونفسِهِ الأمَّارَةِ، وشَيطانِهِ المُغْوي المُزَيِّنِ، وقُرنائِهِ، وما يراهُ، ويشاهِدُهُ، ممَّا يَعْجِزُ صبرُهُ عنهُ، ويَتَّفِقُ مع ذٰلك ضعفُ الإيمانِ واليقينِ، وضعفُ القلبِ، ومرارةُ الصَّبْرِ، وذَوْقُ حلاوةِ العاجِلِ، ومَيْلُ النَّفسِ إلى زَهْرَةِ الحياةِ الدُّنيا، وكونُ العِوَضِ مؤجَّلاً في دارٍ أُخرى غيرِ هذه الدَّارِ التي خُلِقَ فيها، وفيها نشأ، فهو مكلَّفٌ بأنْ يترُكَ شهْوَتَهُ الحاضرةَ المشاهَدَةَ لغيبٍ طُلِبَ منهُ الإيمانُ بهِ.

فواللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ يُسْعِدُ عَبْدَهُ ... بِتَوْفِيقِهِ واللَّهُ بالعَبْدِ أَرْحَمُ
لَمَا ثَبَتَ الإيمانُ يَوْماً بقَلْبِهِ ... عَلى هٰذِهِ العِلَّاتِ والأَمْرُ أَعْظَمُ
ولا طاوَعَتْهُ النَّفْسُ في تَرْكِ شَهْوَةٍ ... مَخافَةَ نارٍ جَمْرُهَا يَتَضَرَّمُ
ولا خافَ يَوْماً مِنْ مقامِ إلٰهِهِ ... عليهِ بحُكْمِ القِسْطِ إذْ ليسَ يَظْلِمُ

(١) رواه: البخاري (٩/١١٨)، ومسلم (٢٧٤٠)، عن أسامة بن زيد.

○ أَقسامُ الفتنةِ:

والفتنةُ نوعانِ:

فتنةُ الشُّبهاتِ، وهي أعظمُ الفتنتَيْنِ.

وفتنةُ الشهواتِ.

وقد يجتمِعانِ للعبدِ، وقد ينفرِدُ بإحداهما:

○ فتنة الشبهات:

ففتْنَةُ الشُّبُهاتِ مِن ضعفِ البَصيرةِ وقلَّةِ العِلْمِ(١)، ولا سيَّما إذا اقترَنَ بذلك فسادُ القَصْدِ، وحُصولِ الهَوى، فهنالك الفتنةُ العظمى، والمصيبةُ الكُبْرى، فقلْ ما شئتَ في ضلالِ سَيِّئِ القَصْدِ، الحاكِمُ عليهِ الهوى لا الهُدى، مع ضعفِ بصيرتِهِ، وقِلَّةِ علمِهِ بما بعثَ اللَّهُ بهِ رسولَهُ، فهو مِن الَّذينَ قالَ اللَّهُ تعالى فيهِم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وقد أخبرَ اللَّهُ سُبحانَهُ أنَّ اتِّباعَ الهَوى يُضِلُّ عَن سَبيلِ اللَّهِ، فقالَ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

وهٰذه الفتْنَةُ مآلُها إلى الكُفْرِ والنِّفاقِ، وهي فتنةُ المُنافِقينَ، وفتنَةُ أهْلِ البِدَعِ، على حَسَبِ مَراتِبِ بِدَعِهِم، فجَميعُهُم إنَّما ابْتَدَعُوا مِنْ فِتْنَةِ الشُّبُهاتِ التي اشْتَبَهَ عليهِم فيها الحقُّ بالباطِلِ، والهُدَى بالضَّلالِ.

ولا يُنْجِي مِن هٰذه الفتنَةِ إلَّا تَجريدِ اتِّباعِ الرَّسولِ، وتحكيمُهُ في دِقِّ الدِّينِ وجِلِّهِ، ظاهِرِه وباطنِهِ، عقائِدِهِ وأعمالِهِ، حقائِقِهِ وشرائِعِهِ، فيتلَقَّى عنهُ حقائِقَ الإيمانِ وشرائِعَ الإسلامِ، وما يُثْبِتُهُ للَّهِ مِن الصِّفاتِ والأفعالِ، والأسماءِ، وما ينفيهِ عنهُ؛ كما يتلَقَّى عنهُ وُجوبَ الصَّلواتِ وأوقاتِها وأعدادِها، ومقادير أنصِبِ

---

(١) ومن باب قلة العلم يدخل الشيطان على كثير من القاصرين؛ مزخرفاً ومزيِّناً ومبهرجاً، فيقعون في شباكه، فالعلم النافع مفتاحٌ لكل خير، ودرءٌ لكل شر.

الزَّكاةِ ومُسْتَحِقِّيها، ووجوبَ الوضوءِ والغُسْلِ مِن الجَنابَةِ، وصومِ رَمضانَ، فلا يجعَلُهُ رسولاً في شيءٍ دُونَ شَيءٍ مِن أُمورِ الدِّينِ، بل هو رسولٌ في كُلِّ شيءٍ تحتاجُ إليهِ الأمَّةُ في العلمِ والعَمَلِ، ولا يُتلقَّى إلَّا عنهُ، ولا يؤخذُ إلا منهُ، فالهُدى كُلُّهُ دائرٌ على أقوالِهِ وأفعالِهِ، وكلُّ ما خَرَجَ عنها فهُو ضلالٌ، فإذا عَقَدَ قَلْبَهُ على ذٰلك وأعْرَضَ عمَّا سواهُ، ووزَنَهُ بما جَاءَ به الرَّسولُ، فإنْ وافَقَهُ قَبِلَهُ، لا لِكَوْنِ ذٰلك القائلِ قالَهُ، بل لموافَقَتِه للرِّسالةِ، وإنْ خالَفَهُ ردَّهُ، ولو قالَه مَن قالَه، فهٰذا الَّذي يُنْجِيهِ مِن فتنةِ الشُّبُهاتِ، وإنْ فاتَهُ ذٰلك أصابَهُ مِن فتْنَتِها بحسبِ ما فاتَهُ منهُ.

وهٰذه الفتنَةُ تنشأُ تارةً مِن فَهْمٍ فاسِدٍ، وتارةً مِن نقلٍ كاذِبٍ، وتارةً مِن حقٍّ ثابتٍ خَفِيَ على الرَّجُلِ، فلم يَظْفَرْ بهِ، وتارةً مِن غَرَضٍ فاسِدٍ وهَوًى مُتَّبعٍ، فهي مِن عَمًى في البصيرةِ، وفسادٍ في الإرادةِ.

● فتنةُ الشَّهَواتِ:

وأمَّا النَّوعُ الثَّاني من الفتنةِ؛ ففتنةُ الشَّهواتِ:

وقد جَمَعَ سبحانَهُ بينَ ذِكْرِ الفتنَتَيْنِ في قولِهِ: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٩]؛ أي: تمتَّعوا بنصيبِهِم مِن الدُّنيا وشهواتِها، والخَلاقُ هُو النَّصيبُ المُقَدَّرُ، ثُمَّ قالَ: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]، فهٰذا الخَوْضُ بالباطلِ، وهو الشُّبُهاتُ.

فأشارَ سبحانَهُ في هٰذه الآيةِ إلى ما يحصُلُ بهِ فسدُ القلوبِ والأديانِ، مِنَ الاستمتاعِ بالخَلاقِ، والخَوْضِ بالباطِلِ؛ لأنَّ فسادَ الدِّينِ إمَّا أنْ يكونَ باعتقادِ الباطلِ والتكلُّمِ بهِ، أو بالعَمَلِ بخلافِ العلمِ الصَّحيحِ.

فالأوَّلُ: هو البِدَعُ وما والاها.

والثاني: فِسْقُ الأعمالِ.

فالأولُ: فسادٌ مِن جهةِ الشُّبُهاتِ.

والثاني: مِن جِهَةِ الشَّهواتِ.

ولهٰذا كانَ السَّلَفُ يقولونَ: «احْذَروا مِن النَّاسِ صِنْفينِ: صاحِبَ هوًى قد فَتَنَهُ هواهُ، وصاحِبَ دُنيا أعْمَتْهُ دُنياهُ».

وكانُوا يقولونَ: «احْذَروا فِتْنَةَ العالِمِ الفاجِرِ، والعابِدِ الجاهِلِ، فإِنَّ فتنَتَهُما فتنةٌ لكُلِّ مفتونٍ».

وأَصلُ كُلِّ فتنةٍ إِنَّما هُوَ مِن تَقْديمِ الرَّأْيِ على الشَّرْعِ، والهَوى على العَقْلِ[1].

فالأوَّلُ أصلُ فتنةِ الشُّبْهَةِ.

والثَّاني أصلُ فتنَةِ الشَّهْوَةِ.

ففِتْنَةُ الشُّبُهاتِ تُدْفَعُ باليقينِ، وفتنةُ الشَّهَواتِ تُدْفَعُ بالصَّبْرِ، ولِذٰلك جَعَلَ سبحانَهُ إِمامَةَ الدِّينِ مَنوطَةً بهٰذينِ الأمْرينِ، فقالَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

فدلَّ على أنَّهُ بالصبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدينِ.

وجَمَعَ بينَهُما أيضاً في قولِهِ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، فتواصَوْا بالحقِّ الذي يَدْفَعُ الشُّبُهاتِ، وبالصَّبْرِ الذي يَكُفُّ عنِ الشَّهوات، وجَمَعَ بينَهُما في قولِهِ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝٤٥﴾ [صٓ: ٤٥].

[illegible]: القوى والعزائِمُ في ذاتِ اللّٰهِ.

[illegible]: البصائِرُ في أمْرِ اللّٰهِ.

وعباراتُ السَّلَفِ تَدُورِ على ذٰلك.

---

[1] انظر: «الدر المنثور» (٧/ ١٩٧ ـ ١٩٨).

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «أولي القُوَّةِ في طاعَةِ اللَّهِ، والمعرفةِ باللَّهِ».

وقالَ الكلْبِيُّ: «أُولي القُوَّةِ في العبادَةِ، والبَصَرِ فيها».

وقالَ مجاهِدٌ: «الأيدي: القُوَّةُ في طاعةِ اللَّهِ، والأبصارِ: البصرُ في الحقِّ».

وقالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ: «الأيْدي: القوَّةُ في العملِ، والأبصارُ: بصرُهُم بما هُم فيهِ مِن دينِهِم».

فبكمالِ العقلِ والصَّبْرِ تُدْفَعُ فتنَةُ الشَّهْوَةِ، وبكمالِ البصيرةِ واليقينِ تُدْفَعُ فتنةُ الشُّبْهَةِ.

واللَّهُ المستعانُ

• الهدى والرَّحمةُ.

إذا سَلِمَ العبدُ مِن فتنةِ الشُّبهاتِ والشَّهواتِ؛ حَصَلَ لهُ أعظمُ غايتَيْنِ مطلوبَتَيْنِ، بهما سعادَتُه وفلاحُهُ وكمالُهُ، وهُما الهُدى والرَّحْمَةُ.

قالَ تعالى عن موسى وفَتاهُ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥]، فجمعَ لهُ بينَ الرَّحمةِ والعلمِ، وذلك نظيرُ قولِ أصحاب الكهف: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، فإنَّ الرَّشَدَ هو العلمُ بما ينفعُ، والعملُ بهِ، والرَّشدُ والهُدى إذا أُفْرِدَ كُلٌّ منهُما تَضمَّنَ الآخَرَ، وإذا قُرِن أَحدُهْما بالآخرِ: فالهدى هو العلمُ بالحقِّ، والرشدُ هو العملُ به، وضدُّهُما الغيُّ واتِّباعُ الهَوى.

وقد يُقابَلُ الرُّشْدُ بالضُّرِّ والشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن: ٢١]، وقالَ مؤمنو الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠].

فالرَّشَدُ يقابِلُ الغيَّ؛ كما في قولِهِ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ويقابِلُ الضُّرَّ

والشَّرَّ؛ كما تقدَّمَ، وذلك لأنَّ الغَيَّ سَببٌ لحصولِ الشَّرِّ والضُّرِّ، ووقوعِهما بصاحِبِهِ.

فالضَّرَرُ والشَّرُّ غايَةُ الغَيِّ وثمرتُهُ، كما أنَّ الرَّحمةَ والفلاحَ غايةُ الهُدى وثمرتُهُ.

فلهذا يُقابَلُ كُلٌّ منهُما بنقيضِهِ وسببِ نقيضِهِ، فيقابَل الهُدى بالضَّلالِ؛ كقولِهِ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]، وقولِهِ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وهو كثيرٌ.

ويقابَلُ بالضَّلالِ والعذابِ؛ كقولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، فقابَلَ الهُدَى بالضَّلالِ والشَّقاءِ.

وجمعَ سبحانَهُ بينَ الهُدى والفلاحِ، والهُدى والرَّحمةِ؛ كما يجمَعُ بينَ الضَّلالِ والشَّقاءِ، والضَّلالِ والعذابِ؛ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر: ٤٧]، فالضَّلَالُ ضِدُّ الهُدى، والسُّعُرُ: العذابُ: وهو ضِدُّ الرَّحمةِ.

وقالَ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

والمقصودُ: أَنَّ مَنْ سَلِمَ مِن فِتْنَةِ الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ؛ جُمِعَ لَهُ بينَ الهُدى والرَّحْمَةِ والهُدى والفَلاحِ.

وقد جَمَعَ اللَّهُ سبحانَه لأهْلِ هِدايتِهِ بينَ الهُدى والرَّحمةِ والصَّلاةِ عليهِم، فقالَ تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٧]؛ قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ: «نِعْمَ العَدْلانِ، ونِعْمَتِ العِلاوةُ»(١).

---

(١) قال البغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ١٨٢) بعد ذكره خبر عُمَرَ ﷺ: «فالعدلانِ: الصلاةُ والرحمةُ، والعلاوةُ: الهداية».
ورواه الحاكم (٢/ ٢٧٠) وغيره، فانظر: «الدر المنثور» (١/ ٣٧٨).

فبالهُدى خَلَصُوا مِن الضَّلالِ، وبالرَّحْمَةِ نَجَوْا مِن الشَّقاءِ والعذابِ، وبالصَّلاةِ عليهِم نالُوا منزلَةَ القُرْبِ والكَرَامَةِ، والضَّالُّونَ حَصَلَ لهُم ضِدُّ هٰذه الثَّلاثةِ:

الضَّلالُ عن طريقِ السَّعادةِ.

والوقوعُ في ضِدِّ الرَّحمةِ مِن الألمِ والعذابِ.

والذَّمُّ واللَّعْنُ الذي هُو ضدُّ الصَّلاةِ.

ولمَّا كانَ نصيبُ كُلِّ عبدٍ مِن الرَّحمةِ عَلى قَدْرِ نصيبِه مِن الهُدى؛ كانَ أكمَلُ المؤمنينَ إيماناً أعْظَمَهُم رَحْمةً؛ كما قالَ تعالى في أصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وكان الصِّدِّيقُ رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ مِن أرْحَمِ الأمَّةِ، وقد رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ: «أرْحَمُ أُمَّتِي بأُمَّتِي أبو بكرٍ»، رواهُ التِّرمذيُّ[1]، وكانَ أعلمَ الصَّحابَةِ باتِّفاقِ الصَّحابَةِ، كما قالَ أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ ﷺ: «وكانَ أبو بكرٍ ﷺ أعْلَمَنا بِهِ»؛ يعني: النبيَّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآله وسلَّمَ[2]، فجَمَعَ اللَّهُ لهُ بينَ سَعَةِ العلمِ والرَّحمةِ.

وهٰكذا الرَّجُلُ؛ كُلَّما اتَّسَعَ علمُهُ اتَّسَعَتْ رحمتُهُ، وقد وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً، فوَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شيءٍ، وأحاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلماً، فهُو أرْحَمُ بعبادِهِ مِن الوالِدَةِ بولَدِها، بل هُو أرْحَمُ بالعبدِ مِن نفسِهِ؛ **كما هُو أعلمُ بمصلَحَةِ العبدِ مِن نفسِهِ، والعبدُ لجهلِهِ بمصالحِ نفسِهِ، وظلمِهِ لها، يسعَى فيما**

---

(١) برقم (٣٧٩٠).

ورواه: أحمد (٣/ ١٨٤، ٢٨٠)، وابن ماجه (١/ ٥٥)، والطيالسي (٢/ ١٤٠ ـ ترتيبه)؛ من طرق عن أبي قِلابة عن أنس. وسنده صحيحٌ. فتصديرُ المصنِّف له بصيغة التصحيف على غير الحدة!

(٢) رواه: البخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢)؛ عنه.

يضرُّه ويؤلمها، ويُنقِصُ حظَّها مِن كَرامَتِه وثوابه، ويُبْعِدُها مِن قُرْبِهِ، وهو يَظُنُّ أنه ينفعها ويُكْرِمُها، وهذا غايَةُ الجهل والظُّلْم. والإنسانُ ظَلومٌ جَهولٌ، فكَمْ مِنْ مُكْرِمٍ لنفسِه بزعمِهِ، وهو لها مهينٌ(١)، ومُرَفِّهٍ لها، وهو لها متْعِبٌ، ومعطيها بعضَ غَرَضِها ولذَّتِها وقد حالَ بينهما وبينَ جميعِ لذَّاتِها، فلا علمَ لهُ بمصالِحِها التي هي مصالِحُها، ولا رحمةَ عندَهُ لها، فما يبلُغُ عدوُّهُ منهُ ما يبلُغُ هو مِن نفسِه، فقد بَخَسَها حظَّها، وأَضاعَ حقَّها، وعَطَّلَ مصالِحَها، وباعَ نعيمَها الباقي، ولذَّتَها الدَّائِمَةَ الكامِلَةَ، بلذَّةٍ فانيةٍ مَشوبَةٍ بالتَّنغيصِ، إنَّما هي كأَضغاثِ أحلامٍ، أو كَطَيْفٍ زارَ في المنامِ!

وليس هٰذا بعجيبٍ مِن شأْنِهِ، وقد فَقَدَ نصيبَهُ مِن الهُدى والرَّحْمَةِ، فلو هُدِيَ ورُحِمَ لكانَ شأْنُهُ غيرَ هٰذا الشَّأْنِ، ولكنَّ الرَّبَّ تعالى أعلمُ بالمحلِّ الذي يصلُحُ للهُدى والرَّحمةِ، فهو الَّذي يُؤتيها العبدَ؛ كما قالَ عنْ عبدِهِ الخَضِرِ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

● الرحمةُ الحقيقيةُ:

وممَّا ينبَغي أنْ يُعْلَمَ أنَّ الرَّحمةَ صفةٌ تقتضي إيصالَ المنافِعِ والمصالِحِ إلى العبدِ، وإنْ كَرِهَتْها نفسُهُ، وشَقَّتْ عليها، فهٰذه هي الرَّحمةُ الحقيقيَّةُ، فأَرْحَمُ النَّاسِ بكَ مَنْ شَقَّ عليكَ في إيصالِ مصالِحِكَ، ودَفْعِ المضارِّ عنكَ.

[illegible] أنْ يُكْرِهَهُ على التَّأدُّبِ بالعلمِ والعملِ، ويَشُقَّ عليهِ في ذٰلك بالضَّرْبِ وغيرِه، ويمنَعَهُ شهواتِهِ التي تعودُ بضرَرِه، ومتى أهْمَلَ ذٰلك من ولدِه؛ كان لِقلَّةِ رحمتِهِ بهِ، وإنْ ظنَّ أنَّهُ يرْحَمُهُ ويرفِّهُهُ ويُريحُهُ؛ فهٰذه رحمةٌ مقرونةٌ بجهلٍ، كرحمةِ الأمِّ.

---

(١) فليتأمّل هٰذا الكلام دعاة البدع والضلال والانحراف.

ولهٰذا كانَ مِن تمامِ رحمةِ أرحَمِ الرَّاحمينَ: تَسْليطُ أنواعِ البلاءِ على العبدِ؛ فإنَّهُ أعلمُ بمصلحتِهِ، فابتلاؤهُ لَهُ وامتحانُهُ ومنعُهُ مِن كثيرٍ من أغراضِهِ وشهواتِهِ: مِن رحمَتِهِ بهِ، ولكنَّ العبدَ لجهْلِهِ وظُلْمِهِ يتَّهِمُ ربَّهُ بابتلائِهِ، ولا يعلَمُ إحسانَهُ إليهِ بابتلائِهِ وامتحانِهِ.

فهٰذا مِن تمامِ رحمَتِهِ بهِ، لا مِنْ بُخْلِهِ عليهِ.

كيفَ وهُو الجَوادُ الماجِدُ! الذي لهُ الجودُ، كلُّهُ، وجودُ جميعِ الخلائِقِ في جَنْبِ جُودِهِ أقلُّ مِن ذَرَّةٍ في جِبالِ الدُّنيا ورِمالِها.

فمِنْ رحمتِهِ سبحانَهُ بعبادِهِ: ابتلاؤهُم بالأوامِرِ والنَّواهي رحمةً وحميةً، لا حاجةَ منهُ إليهِم بما أمَرَهُم بهِ، فهو الغنيُّ الحميدُ، ولا بُخْلاً منهُ عليهِم بما نهاهُمْ عنهُ؛ فهُو الجوادُ الكريمُ.

ومِن رحمتِهِ: أنْ نَغَّصَ عليهِم الدُّنيا وكَدَّرَها لئلَّا يَسْكُنُوا إليها، ولا يطمَئِنُّوا إليها، ويَرْغَبوا في النَّعيمِ المُقيمِ في دَارِهِ وجوارِهِ، فساقَهُم إلى ذٰلك بِسياطِ الابتلاءِ والامتحانِ، فمنعَهُم ليُعطيَهُم، وابتلاهُم ليُعافيَهُم، وأماتَهُم ليُحييَهُم.

ومِن رحمتِهِ بِهِم: أنْ حَذَّرَهُم نفسَهُ لئلَّا يَغْتَرُّوا بِهِ، فيعامِلوهُ بما لا تَحْسُنُ معامَلتُه بهِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

● هدايةُ الصِّراط:

ولمَّا كانَ تمامُ النِّعمةِ على العبدِ إنَّما هُو بالهُدى والرَّحمةِ؛ كانَ لهُما ضِدَّانِ: الضَّلالُ والغضبُ.

فأمَرَنا اللَّهُ سبحانَهُ أنْ نسألَهُ كُلَّ يومٍ وليلةٍ مَرَّاتٍ عديدةً أنْ يَهْدِيَنا صِراطَ الَّذينَ أنْعَمَ عليهِم، وهُم أُولو الهُدى والرَّحمةِ، ويُجَنِّبَنا طريقَ المغضوبِ عليهِم، وهُم ضدُّ المرحومينَ، وطريقَ الضَّالِّينَ، وهُم ضدُّ المهْتَدينَ، ولهٰذا كانَ هٰذا الدُّعاءُ مِن أَجْمَعِ الدُّعاءِ، وأفضَلِه، وأوجَبِهِ.

وباللَّهِ التَّوفيقُ.

○ ابتلاءُ المؤمنِ:

وتمامُ الكلامِ في هٰذا المقامِ العظيمِ يتبيَّنُ بأُصولٍ نافعةٍ جامعةٍ:

الأوَّلُ: أنَّ ما يصيبُ المؤمنينَ مِن الشُّرورِ والمِحَنِ والأذى دونَ ما يصيبُ الكُفَّارِ، والواقِعُ شاهِدٌ بذٰلك، وكذٰلك ما يصيبُ الأبرارَ في هٰذه الدُّنيا دونَ ما يصيبُ الفُجَّارَ والفُسَّاقَ والظَّلَمَة بكثيرٍ.

الأصلُ الثَّاني: أنَّ ما يصيبُ المؤمِنينَ في اللّٰهِ تعالى مقرونٌ بالرِّضا والاحتسابِ، فإنْ فاتَهُم الرِّضا؛ فمُعَوَّلُهم على الصَّبْرِ وعلى الاحتسابِ، وذٰلك يُخَفِّفُ عنهُم ثِقَلَ البلاءِ، ومُؤْنَتَهُ؛ فإنَّهُم كلَّما شاهَدوا العِوَضَ هانَ عليهِم تحمُّلُ المشاقِّ والبلاءِ، والكُفَّارُ لا رضا عندَهُم ولا احتسابٌ، وإنْ صَبَروا؛ فكَصَبْرِ البهائِمِ، وقد نبَّهَ تعالى على ذٰلك بقولِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤].

فاشْتَرَكوا في الألمِ، وامتازَ المؤمِنونَ برجاءِ الأجْرِ والزُّلْفى مِن اللّٰهِ تعالى.

الأصْلُ الثَّالِثُ: أنَّ المؤمِنَ إذا أُوذِيَ في اللّٰهِ؛ فإنَّهُ محمولٌ عنهُ بحسبِ طاعتِه وإخلاصِه ووجودِ حقائقِ الإيمانِ في قلبِهِ، حتى يحمِلَ عنهُ مِن الأذى ما لَوْ كانَ شيءٌ منهُ على غيرِهِ لعَجَزَ عن حَمْلِهِ.

وهٰذا مِن دَفْعِ اللّٰهِ عَن عَبْدِهِ المؤمِنِ؛ فإنَّهُ يَدْفَعُ عنهُ كثيراً مِن البلاءِ، وإذا كانَ لا بُدَّ لهُ مِن شيءٍ منهُ؛ دَفَعَ عنهُ ثقلَهُ ومُؤْنَتَهُ ومشقَّتَهُ وتَبِعَتَهُ.

الأصلُ الرَّابعُ: أنَّ المحبَّةَ كُلَّما تمكَّنَتْ في القلبِ ورَسَخَتْ فيهِ؛ كانَ أذى المُحِبِّ في رِضا محبوبِهِ مُسْتَحْلًى غيرَ مسخوطٍ، والمحبُّونَ يفتَخِرونَ عندَ أَحبابِهِمْ بذٰلك، حتَّى قالَ قائِلُهُم:

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نِلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ ... لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبالِكَ

فما الظَّنُّ بمحبَّةِ المحبوبِ الأعْلى، الذي ابْتِلاؤُهُ لحبيبِه رحْمَةٌ منهُ لهُ وإحْسانٌ إليهِ؟!

الأَصْلُ الخامسُ: أنَّ ما يصيبُ الكافِرَ والفاجِرَ والمنافِقَ مِن العزِّ والنَّصرِ والجاهِ دونَ ما يحصلُ للمؤمنينَ بكثيرٍ، بل باطِنُ ذٰلك ذلٌّ وكسرٌ وهوانٌ، وإنْ كانَ في الظَّاهِرِ بخلافِهِ.

الأَصْلُ السَّادِسُ: أنَّ ابتلاء المؤمِنِ كالدَّواءِ لهُ يستَخْرِجُ منهُ الأدواءَ التي لو بَقِيَتْ فيهِ أَهْلَكَتْهُ أو نَقَّصَتْ ثوابَهُ وأَنْزَلَتْ دَرَجَتَهُ، فيستخرِجُ الابتلاءُ والامتحانُ منهُ تلكَ الأدواءَ، ويستَعِدُّ بِهِ لتمامِ الأَجْرِ وعلوِّ المنزلةِ.

ومعلومٌ أنَّ وجودَ هٰذا خيرٌ للمؤمِنِ مِن عَدَمِهِ، كما قالَ النبيُّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: «والَّذي نفسي بيدِهِ لا يَقْضِي اللَّهُ للمؤمِنِ قضاءً إلَّا كَانَ خَيْراً لهُ، وليس ذٰلك إلَّا للمؤمِنِ، إنْ أَصابَتْهُ سَرَّاءُ؛ شَكَرَ، فكانَ خيراً لهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ؛ صَبَرَ، فكانَ خيراً لهُ»[1].

فهذا الابتلاءُ والامتحانُ مِن تمامِ نَصْرِهِ وعِزِّهِ وعافيتِهِ، ولهٰذا كانَ «أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياء، ثمَّ الأقربُ إليهِم فالأقْربُ، يُبْتَلى المَرءُ على حسبِ دِينِهِ، فإنْ كانَ في دِينِهِ صلابةٌ؛ شُدِّدَ عليهِ البلاءُ، وإنْ كانَ في دِينِهِ رِقَّةٌ؛ خُفِّفَ عنهُ، ولا يزالُ البلاءُ بالمؤمِنِ حتَّى يَمْشي على وَجْهِ الأرضِ وليسَ لهُ خطيئةٌ»[2].

الأَصلُ السَّابِعُ: أَنَّ ما يصيبُ المؤمِنَ في هٰذه الدَّارِ مِن إدالةِ عَدُوِّهِ عليهِ، وغَلَبَتِهِ لهُ، وأذاهُ لهُ في بعضِ الأحيانِ: أمرٌ لازمٌ، لا بدَّ منهُ، وهو كالحَرِّ الشَّديدِ، والبردِ الشَّديدِ، والأمراضِ، والهُمومِ، والغُمومِ، فهٰذا أمرٌ لازمٌ للطَّبيعةِ والنَّشأةِ الإنسانيَّةِ في هٰذه الدَّارِ، حتَّى للأطفالِ والبهائِمِ، لما اقْتَضَتْهُ حكمةُ أحكمِ الحاكِمينَ.

فلو تجرَّدَ الخيرُ في هٰذا العالَمِ عنِ الشَّرِّ، والنَّفعُ عن الضُّرِّ، واللَّذَّةُ عن الألمِ، لكانَ ذٰلك عالِماً غيرَ هٰذا، ونشأةً أُخرى غيرَ هٰذه النَّشأةِ، وكانَت تفوتُ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) عن صُهَيب.

(٢) كما صحَّ عن النبيِّ ﷺ. وانظر تخريجَه في كتابي «الدعوة إلى الله» (ص٣٣).

الحكمةُ التي مَزَجَ لأجْلِها بينَ الخيرِ والشَّرِّ، والألمِ واللَّذَّةِ، والنَّافعِ والضَّارِّ، وإنَّما يكونُ تخليصُ هٰذا مِن هٰذا، وتمييزُه في دارٍ أُخرى، غيرِ هٰذه الدَّارِ، كما قالَ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧].

الأَصْلُ الثَّامِنُ: أنَّ ابتلاء المؤمنينَ بغَلَبَةِ عَدُوِّهِمْ لهم، وقَهْرِهِم، وكَسْرِهِم لهُم أحياناً فيهِ حِكمةٌ عظيمةٌ، لا يعلَمُها على التَّفصيلِ إلَّا اللَّهُ ﷻ:

فمنها: استِخراجُ عُبودِيَّتِهِم وذُلِّهِم للَّهِ، وانْكسارِهِم لهُ، وافتقارِهِم إليهِ، وسؤالِهِ نَصْرَهُم على أعدائِهِم، ولو كانُوا دائماً منصورينَ قاهِرينَ غالبينَ؛ لَبَطِروا وأَشِرُوا، ولو كانُوا دائِماً مَقْهُورينَ مَغْلوبينَ منصوراً عليهِم عَدُوُّهُم لما قامَت للدِّينِ قائمةٌ، ولا كانَتْ للحَقِّ دولةٌ.

فاقْتَضَتْ حِكْمَةُ أَحْكَمِ الحاكِمينَ أنْ صَرَّفَهُم بينَ غَلَبِهِم تارةً، وكونِهِم مغلوبينَ تارةً، فإذا غُلِبوا تَضَرَّعُوا إلى ربِّهِم، وأنابوا إليهِ، وخَضَعُوا لهُ، وانْكَسَرُوا لهُ، وتابوا إليهِ، وإذا غَلَبُوا أقامُوا دينَهُ وشعائِرَهُ، وأمروا بالمعروفِ، ونَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، وجاهَدُوا عَدُوَّهُ، ونَصَروا أولياءَهُ.

ومنها: أنَّهُم لو كانُوا دائماً منصورينَ، غالِبينَ، قاهِرينَ؛ لَدَخَلَ معهُم مَن ليس قَصْدُهُ الدِّينُ، ومُتابَعَةُ الرَّسولِ؛ فإنَّهُ إنَّما ينضافُ إلى مَنْ لهُ الغَلَبَةُ والعِزَّةُ، ولو كانوا مَقْهُورينَ مَغْلوبينَ دائماً لم يَدْخُلْ معهُم أحدٌ.

فاقتَضَت الحكمَةُ الإلٰهيَّةُ أنْ كانتْ لهُم الدَّوْلَةُ تارةً، وعليهِم تارةً، فيتَمَيَّزَ بذٰلك بينَ مَن يُريدُ اللَّهَ ورسولَهُ، ومَن ليسَ لهُ مرادٌ إلّا الدُّنيا والجاهَ.

ومنها: أنَّهُ سبحانَه يُحِبُّ مِن عبادِهِ تَكْميلَ عُبودِيَّتِهِم على السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، وفي حالِ العافيةِ والبلاءِ، وفي حالِ إدالَتِهِم والإدالَةِ عليهِم، فللَّهِ سبحانَه على العبادِ في كِلْتا الحالينِ عُبودِيَّةٌ بمقتَضَى تلكَ الحالِ، لا تحصُلُ إلَّا بها، ولا يستقيمُ القَلْبُ بدونِها، كما لا تستقيمُ الأبْدانُ إلّا بالحَرِّ والبَرْدِ، والجوعِ والعَطَشِ، والتَّعَبِ والنَّصَبِ، وأضدادِها، فتلكَ المِحَنُ والبلايا شرْطٌ

في حُصولِ الكمالِ الإنسانيِّ والاستقامَةِ المطلوبَةِ منهُ، ووجودُ الملزومِ بدونِ لازِمِهِ ممتَنِعٌ.

ومنها: أنَّ امتحانَهُم بإدالَةِ عَدُوِّهِمْ عليهِم يُمَحِّصُهُم، ويُخَلِّصُهُم، ويُهَذِّبُهُم؛ كما قالَ تعالى في حِكْمَةِ إدالَةِ الكُفَّارِ على المؤمنينَ يومَ أُحُدٍ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٤].

فذكَر سبحانَهُ أنواعاً مِن الحِكَمِ التي لأجْلِها أُديلَ عليهِم الكُفَّارُ، بعْدَ أنْ ثَبَّتَهُمْ وقَوَّاهُمْ وبَشَّرَهُم بأنَّهُم الأعْلَوْنَ بما أُعْطوا مِن الإيمانِ، وسَلَّاهُم بأنَّهُم وإنْ مَسَّهُمُ القَرْحُ في طاعَتِهِ وطاعَةِ رسولِهِ؛ فقد مَسَّ أعداءَهُم القَرْحُ في عَداوَتِهِ وعَداوَةِ رسولِهِ.

ثُمَّ أخْبَرَهُم أنَّهُ سبحانَهُ بحكمَتِهِ يجعَلُ الأيامَ دُوَلاً بينَ النَّاسِ، فَيصيبُ كُلًّا مِنْهُم نَصيبُهُ منها؛ كالأرْزاقِ والآجالِ.

ثمَّ أخْبَرَهُمْ أنَّهُ فعَلَ ذلك ليعْلَمَ المؤمنينَ منهُم، وهُو سبحانَهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ قبلَ كونِهِ وبعدَ كونِه، ولكنَّهُ أرادَ أنْ يعلَمَهُم موجودِينَ مُشاهَدِينَ، فيعلمُ إيمانَهُم واقعاً.

ثمَّ أخْبَرَ أنَّهُ يُحِبُّ أنْ يتَّخِذَ مِنهُم شُهداءَ؛ فإنَّ الشَّهادَةَ درجةٌ عاليةٌ عندَهُ، ومنزِلةٌ رفيعةٌ لا تُنالُ إلَّا بالقتلِ في سبيلِهِ[1]، فلولا إدالَةُ العَدُوِّ لم

(١) وليس هذا دقيقاً؛ إلا إذا لم يُرد المصنِّف رحمه الله الحَصْرَ، فالشُّهداء ـ حُكْماً ـ في الأمَّة كثيرٌ، ذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/٤٣) أنَّه أوصلهم إلى أكثر من عشرين. =

تَحصُلُ درجةُ الشَّهادةِ التي هي مِن أحبِّ الأشياءِ إليهِ، وأنفعِها لعبدِ.

ثمّ أخبرَ سبحانَهُ أنَّهُ يريدُ تمْحيصَ المؤمِنينَ؛ أي: تخليصَهُم مِن ذُنوبِهِمْ بالتَّوبَةِ والرُّجوعِ إليهِ واستغفارِهِ مِن الذُّنوبِ التي أُديلَ بها عليهِم العَدُوُّ، وأنَّهُ معَ ذٰلك يريدُ أنْ يَمْحَقَ الكافِرينَ ببَغْيِهِم وطُغيانِهِم، وعُدْوانِهِم إذا انْتَصروا.

ثمَّ أنْكَرَ عليهِمْ حُسْبانَهُم وظنَّهُم دُخولَ الجنَّةِ بغيرِ جِهادٍ ولا صبرٍ، وأنَّ حِكْمَتَهُ تأبى ذٰلك، فلا يدخُلونَها إلّا بالجِهادِ والصَّبْرِ، ولو كانُوا دائماً منصورينَ غالِبينَ لما جَاهَدَهُم أحدٌ ولما ابْتُلوا بما يصْبِرونَ عليهِ مِن أذى أعدائِهِم.

فهٰذه بعضُ حِكَمِهِ في نُصْرَةِ عدوِّهِم عليهِم، وإدالَتِهِ في بعضِ الأحيانِ.

الأصْلُ التَّاسِعُ: أنَّهُ ﷻ إنَّما خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ وخَلَقَ الموتَ والحيَاةَ، وزَيَّنَ الأرضَ بما عليها لابتلاءِ عِبادِهِ، وامتحانِهِم، ليعْلَمَ مَن يريدُهُ ويريدُ ما عندَهُ ممّنْ يريدُ الدُّنيا وزينَتَها.

قالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

فالنَّاسُ إذا أُرْسِلَ إليهِم الرُّسُلُ بينَ أمْرينِ، إمَّا أنْ يقولَ أحدُهُم: آمنْتُ، أو لا يؤمِنَ بل يستمرُّ على السَّيِّئاتِ والكُفْرِ، ولا بدَّ مِن امتحانِ هٰذا وهذا.

فأمَّا مَن قالَ: آمنتُ؛ فلا بدَّ أنْ يمتَحِنَهُ الرَّبُّ ويبتَلِيَهُ، ليتَبَيَّنَ: هل هُو صادِقٌ في قولِهِ: آمَنْتُ، أو كاذِبٌ؟

فإنْ كانَ كاذِباً؛ رجَعَ على عَقِبَيْهِ، وفرَّ مِن الامتحانِ، كما يفرُّ مِن عذابِ اللّٰهِ.

= وللسيوطيِّ رسالة: «أبواب السعادة في أسباب الشهادة»، وهي مطبوعة في مصر. وانظر: «أحكام الجنائز» (٣٤ ـ ٤٣) لشيخنا الألباني.

وإنْ كانَ صادِقَ ثَبَتَ على قولِهِ، ولم يَزِدْهُ الابتلاءُ والامتحانُ إلَّا إيماناً على إيمانِهِ.

قالَ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأمَّا مَن لم يُؤمِنْ؛ فإنَّهُ يُمْتَحَنُ في الآخرةِ بالعذابِ، ويُفْتَنُ بهِ، وهي أعظمُ المِحنَتَيْنِ، هٰذا إنْ سَلِمَ مِن امتحانِهِ بعذابِ الدُّنيا ومصائِبِها، وعُقوبَتِها التي أوْقَعَها اللَّهُ بمَنْ لم يَتَّبِعْ رُسُلَهُ وعصاهُمْ، فلا بُدَّ مِن المحنَةِ في هٰذه الدَّارِ وفي البَرْزَخِ، وفي القيامَةِ لِكُلِّ أحدٍ، ولكنَّ المؤمِنَ أخفُّ محنةً وأسهلُ بَلِيَّةً؛ فإنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عنهُ بالإيمانِ، ويَحْمِلُ عنهُ بهِ، ويرزُقُهُ مِن الصَّبْرِ والثَّباتِ والتَّسليمِ ما يهوِّنُ بهِ عليهِ محْنَتَهُ.

وأمَّا الكافِرُ والمنافِقُ والفاجِرُ؛ فتشتَدُّ مِحْنَتُهُ وبليَّتُهُ وتدومُ، فمِحْنَةُ المؤمِنِ خَفيفةٌ منقطعةٌ، ومحنَةُ الكافِرِ والمنافِقِ والفاجِرِ شديدةٌ متَّصِلةٌ.

فلا بدَّ مِن حُصولِ الألَمِ والمِحْنَةِ لكلِّ نفسٍ آمَنَتْ أو كَفَرَتْ، لٰكِنِ المؤمِنُ يحصُلُ لهُ الألمُ في الدُّنيا ابتداءً، ثمَّ تكونُ لهُ عاقبةُ الدُّنيا والآخرةِ، والكافرُ والمنافِقُ والفاجِرُ، تحصُلُ لهُ اللَّذَّةُ والنَّعيمُ ابتداءً، ثمَّ يصيرُ إلى الألمِ، فلا يطمَعُ أحدٌ أنْ يَخْلُصَ مِن المحنَةِ والألَمِ ألبتَّةَ. يوضِّحُهُ:

الأصْلُ العاشِرُ وهو أنَّ الإنسانَ مَدَنيٌّ بالطَّبْعِ، لا بدَّ لهُ أنْ يعيشَ معَ النَّاسِ، والنَّاسُ لهُم إراداتٌ وتصوُّراتٌ واعتقاداتٌ، فيطلُبونَ منهُ أنْ يوافِقَهُم عليها، فإنْ لم يوافِقْهُمْ؛ آذَوْهُ، وعذَّبوهُ، وإنْ وافقَهُم حَصَلَ لهُ الأذى والعذابُ مِن وجهٍ آخرَ، فلا بدَّ لهُ من النَّاسِ ومخالطَتِهِم، ولا ينفكُّ عن مُوافَقَتِهِم أو مُخالَفَتِهِم، وفي الموافقةِ ألَمٌ وعذابٌ، إذا كانَتْ على باطلٍ، وفي المخالَفَةِ ألَمٌ وعذابٌ، إذا لم يوافِقْ أهواءَهُمْ واعتقاداتِهِم وإراداتِهِم، ولا ريبَ أنَّ ألَمَ المُخالَفَةِ لهُم في باطلِهِمْ أَسْهلُ وأيْسرُ مِن الألمِ المترتِّبِ على مُوافَقَتِهِم.

واعْتَبِرْ هٰذا بمَنْ يَطْلُبونَ منهُ الموافَقَةَ على ظُلْمٍ أو فاحشةٍ أو شهادةِ زُورٍ،

أو المعاوَنَةَ على محرَّم، فإنْ لم يوافِقْهُم؛ آذَوْهُ وظلموهُ وعادَوْهُ، ولٰكنْ لهُ العافيةُ والنُّصْرَةُ عليهِم إنْ صَبَرَ واتَّقى وإنْ وافَقَهُم فِراراً مِن ألمِ المخالفةِ أعْقَبَهُ ذٰلك مِن الألَمَ أعظمَ ممَّا فرَّ منهُ، والغالبُ أنَّهُم يسَلَّطونَ عليهِ، فينالُهُ مِن الألمِ منهُم أضعافُ ما نالَهُ مِن اللَّذَّةِ أوّلاً بموافقَتِهم.

فمعرفةُ هٰذا ومراعاتُهُ من أنفعِ ما للعبدِ، فألمٌ يسيرٌ يُعْقِبُ لذّةً عظيمةً دائمةً أولى بـالاحتمالِ مِن لذَّةٍ يسيرةٍ تُعْقِبُ ألماً عظيماً دائماً، والتَّوفيقُ بيدِ اللّٰهِ.

الأصْلُ الحادي عَشَرَ: أنَّ البلاء الذي يُصيبُ العبدَ في اللّٰهِ لا يخرُجُ عن أربعةِ أقسام: فإنَّهُ إمّا أنْ يكونَ في نفسهِ، أو في مالِهِ، أو في عِرْضه، أو في أهلِهِ ومَن يحبُّ.

والَّذي في نفسهِ قد يكونُ بتَلَفِها تارةً، وبتألُّمِها بدونِ التَّلَفِ، فهذا مجموعُ ما يُبْتَلى بهِ العبدُ في اللّٰهِ.

وأشدُّ هٰذه الأقسام: المُصيبَةُ في النَّفْسِ.

• عَوْدٌ إلى المحبَّة:

اعْلَمْ أنَّ محبَّةَ اللّٰهِ سبحانَه والأُنْسَ بهِ والشَّوقَ إلى لقائِهِ والرِّضى بهِ وعنهُ، أَصلُ الدِّينِ وأصلُ أعمالِهِ وإراداتِهِ، كما أنَّ معرفتَهُ، والعلمَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ أجلُّ علوم الدِّينِ كلِّها، فمعرفتُهُ أجلُّ المعارِفِ، وإرادةُ وجْهِهِ أجلُّ المقاصِدِ، وعبادتُهُ أشرفُ الأعمالِ، والثّناءُ عليهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ ومَدْحِهِ وتمجيدِهِ أشرفُ الأقوالِ، وذٰلك أساسُ الحنيفيّةِ مِلَّةِ إبراهيم.

وقد قالَ تعالى لرسولِهِ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

وكانَ النبيُّ ﷺ يوصِي أصحابَهُ إذا أصْبَحُوا أنْ يَقولوا: «أصْبَحْنا على فطْرَةِ الإسلامِ، وكَلِمَةِ الإخلاصِ، ودِينِ نبيِّنا محمَّدٍ، ومِلَّةِ أبينا إبراهيمَ، حنيفاً

مسلماً، وما كَانَ مِن المُشْرِكينَ»[١].

وذٰلك هُو حقيقةُ شهادةِ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللَّهُ، وعليها قامَ دينُ الإسلامِ الذي هُو دينُ جميعِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وليس للَّهِ دينٌ سواهُ، ولا يَقبَلُ مِن أحدٍ دِيناً غيرَهُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

فمحبَّتُهُ تعالى، بل كونُهُ أحبَّ إلى العبدِ من كُلِّ ما سواهُ على الإطلاقِ، مِن أعْظَمِ واجِباتِ الدِّينِ، وأكبرِ أُصولِهِ، وأجلِّ قواعِدِه، ومَن أحبَّ معهُ مخلوقاً مثلَ ما يحبُّهُ فهو مِن الشِّركِ الذي لا يُغْفَرُ لصاحِبِه، ولا يُقْبَلُ معهُ عملٌ.

قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان العبدُ لا يكونُ مِن أهْلِ الإيمانِ حتى يكونَ عبداً للَّهِ، ورسولُهُ أحَبَّ إليهِ مِن نفسِهِ وأهلِهِ وولدِهِ ووالدِهِ والنَّاسِ أجمعينَ[٢]، ومحبَّتُهُ تَبَعٌ لمحبَّةِ اللَّهِ، فما الظَّنُّ بمحبَّتِهِ سبحانَه؟! وهو سبحانَهُ لم يَخْلُقِ الجنَّ والإنسَ إلَّا لعبادَتِهِ، التي تتضمَّنُ كمالَ محبَّتِهِ، وكمالَ تعظيمِه والذُّلِّ له، ولأجْلِ ذٰلك أرْسَلَ رسلَهُ، وأنزَلَ كُتُبَهُ، وشرعَ شرائِعَهُ، وعلى ذلك وَضَعَ الثَّوابَ والعقابَ، وأُسِّسَتِ الجنَّةُ والنَّارُ، وانقسَم النَّاسُ إلى شقيٍّ وسعيدٍ، وكما أنَّهُ سبحانَه ليس كمِثْلِه شيءٌ؛ فليس كمحبَّتِه وإجلالِهِ وخَوْفِهِ محبَّةٌ وإجلالٌ ومخافةٌ.

فالمخلوقُ كلَّما خِفْتَهُ استوحَشْتَ منهُ، وهَرَبْتَ منهُ، واللَّهُ سبحانَه كلَّما

---

(١) رواه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (١)، وابن السُّني (٣٤)، والدارمي (٢/ ٢٩٢)، وأحمد (٣/ ٤٠٦)، والطبراني في «الدعاء» (٢٩٤)؛ عن عبد الرحمن بن أبزى، وسنده حسن.

(٢) سبق تخريجه.

خِفْتَهُ أَنِسْتَ بِهِ، وفَرَرْتَ إليه، والمخلوقُ يُخافُ ظُلْمُهُ وعُدوانُهُ، والرَّبُّ سبحانَهُ إنَّما يُخافُ عَدْلُهُ وقِسْطُهُ.

وكذٰلك المحبَّةُ؛ فإنَّ محبَّةَ المخلوقِ إذا لم تَكُنْ للَّهِ فهي عذابٌ للمحبِّ ووبالٌ عليهِ، وما يحصُلُ لهُ بها مِن التَّألُّم أعظمُ مِمَّا يحصُلُ لهُ مِن اللَّذَّةِ، وكلَّما كانت أبعدَ عنِ اللَّهِ كانَ أَلَمُها وعذابُها أعظمَ.

هٰذا إلى ما في محبَّتِهِ مِن الإعراض عنكَ، والتَّجَنّي عليكَ، وعَدَم الوفاءِ لكَ، إمَّا لمزاحَمَةِ غيرِك مِن المحبِّينَ لهُ، وإمَّا لكراهَتِه ومعادَاتِهِ لكَ، وإمَّا لاشتغالِهِ عنكَ بمصالِحِهِ وما هُو أحبُّ إليهِ منكَ، وإمَّا لغيرِ ذٰلك مِن الآفاتِ.

وأمَّا محبَّةُ الرَّبِّ سبحانَه فشأنُها غيرُ هٰذا الشَّأنِ، فإنَّهُ لا شيءَ أَحَبُّ إلى القُلوبِ من خالِقِها وفاطِرِها، فهو إلٰهُها ومعبودُها، ووليُّها ومَولاها، وربُّها ومدبِّرها ورازِقُها، ومُميتُها ومُحْييها.

فمحبَّتُه نعيمُ النُّفوسِ، وحياةُ الأرواحِ، وسرورُ النُّفوسِ، وقوتُ القلوبِ، ونُورِ العقولِ، وقُرَّةُ العيونِ، وعِمارَةُ البطِنِ.

فليسَ عندَ القُلوبِ السَّليمةِ والأرواحِ الطَّيِّبَةِ والعقول الزَّاكيةِ أحْلى ولا أَلَذُّ ولا أطيبُ ولا أسرُّ ولا أنعَمُ مِن محبَّتِهِ والأنْسِ بهِ والشَّوْقِ إلى لقائِهِ.

والحَلاوةُ التي يَجِدُها المؤمِنُ في قلبِهِ بذٰلك فوقَ كلِّ حلاوةٍ، والنَّعيمُ الذي يحصُلُ لهُ بذٰلك أتَمُّ مِن كُلِّ نعيمٍ، واللَّذَّةُ التي تَنالُهُ أعلى مِن كُلِّ لَذَّةٍ.

فمَن كانَ باللَّهِ سبحانَهُ وأسمائِهِ وصفاتِهِ أعْرَفُ، وفيهِ أرغَبُ، ولهُ أحَبُّ، وإليهِ أقربُ؛ وَجَدَ مِن الحلاوَةِ في قلبِهِ ما لا يمكِنُ التَّعبيرُ عنهُ، ولا يُعْرَفُ إلَّا بالذَّوقِ والوَجْدِ، ومتى ذاقَ القلبُ ذٰلك؛ لم يُمْكِنْهُ أنْ يقَدِّمَ عليهِ حُبًّا لغيرِهِ، ولا أُنْساً بهِ، وكلَّما ازدادَ حُبًّا ازدادَ لهُ عُبوديَّةً وذُلًّا، وخُضوعاً ورِقًّا لهُ، وحُرِّيَّةً عن رِقِّ غيرِه.

فالقلبُ لا يفلِحُ ولا يصلُحُ ولا يتنَعَّمُ ولا يبتَهِجُ ولا يلتَذُّ ولا يطمَئِنُّ ولا يسكُنُ إلَّا بعبادَةِ ربِّهِ وحبِّهِ والإنابَةِ إليهِ، ولو حَصَلَ لهُ جميعُ ما يلتَذُّ به مِن

المخلوقاتِ لم يطمَئنَّ إليها، ولم يسكُنْ إليها، بل لا تزيدُهُ إلَّا فاقةً وقلقاً، حتى يظفَرَ بما خُلِقَ لهُ وهُيِّئَ لهُ؛ مِن كونِ اللَّهِ وحدَهُ نهايَةَ مُرادِهِ، وغايَةَ مطالِبِه، فإنَّ فيهِ فقراً ذاتيًّا إلى ربِّهِ وإلٰهِهِ، مِن حيثُ هُو معبودُهُ ومحبوبُهُ وإلٰهُهُ ومطلوبُهُ، كما أنَّ فيهِ فقراً ذاتيًّا إليهِ مِن حيثُ هو ربُّهُ وخالِقُهُ ورازِقُهُ ومدبِّرُهُ.

وكلَّما تمكَّنَتْ محبَّةُ اللَّهِ مِن القلب وقَوِيَتْ فيهِ؛ أَخْرَجَتْ منهُ تألُّهَهُ لما سواهُ وعبوديَّتَهُ لهُ:

فأَصْبَحَ حُرًّا عِزَّةً وصِيانَةً عَلى وَجْهِهِ أَنْوارُهُ وضِياؤُه

وما مِن مؤمِنٍ إلَّا وفي قلبِهِ محبَّةٌ للَّهِ تَعالى، وطمأْنينةٌ بذكْرِهِ، وتنعُّمٌ بمعرفَتِهِ، ولذَّةٌ وسرورٌ بذِكرِهِ، وشوقٌ إلى لقائِهِ، وأُنسٌ بقُرْبِهِ، وإنْ لم يُحِسَّ بهِ، لاشتغالِ قلبِهِ بغيرِهِ، وانصرافِهِ إلى ما هُو مشغولٌ بهِ، فوجودُ الشَّيْءِ غيرُ الإحساسِ والشُّعورِ بهِ.

وقوَّةُ ذٰلك وضعفُهُ وزيادَتُهُ ونُقصانُهُ: هُو بحسبِ قوَّةِ الإيمانِ وضعفِهِ وزيادَتِهِ ونُقصانِه.

ومتى لم يَكُنِ اللَّهُ وحدَهُ غايَةَ مُرادِ العبدِ ونهايَةَ مقصودِهِ، وهو المحبوبُ المرادُ لهُ بالذَّاتِ والقصدُ الأوَّلُ، وكلُّ ما سواهُ فإنَّما يُحِبُّهُ ويريدُهُ ويطلبُهُ تبعاً لأجْلِهِ، لم يَكُنْ قد حَقَّقَ شهادَةَ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللَّهُ، وكانَ فيهِ مِن النَّقْصِ والعَيْبِ والشِّرْكِ بقدرِهِ، ولهُ مِن موجِباتِ ذٰلك مِن الألمِ والحسرةِ والعذابِ بحسبِ ما فاتَهُ مِن ذٰلك.

ولو سعى في هٰذا المطلوبِ بكلِّ طريقٍ، واستَفْتَحَ مِن كلِّ بابٍ، ولم يَكُنْ مُستعيناً باللَّهِ، متوكِّلاً عليهِ، مفتَقِراً إليهِ في حُصولِهِ، متيقِّناً أنَّهُ إنَّما يحْصُلُ بتوفيقِهِ ومشيئَتِهِ وإعانَتِهِ لا طريقَ لهُ سوى ذٰلك بوجهٍ من الوجوهِ، لم يَحْصُلْ لهُ مطلوبُهُ، فإنَّ ما شاءَ اللَّهُ كانَ، وما لم يشأْ لَمْ يَكُنْ، فلا يوصِّلُ إليهِ سواهُ، ولا يدلُّ عليهِ سواهُ، ولا يُعْبَدُ إلَّا بإعانَتِهِ، ولا يُطاعُ إلَّا بمشيئَتِهِ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وإذا عُرِفَ هٰذا؛ فالعبدُ في حالِ معصيتِهِ واشتغالِهِ عنهُ بشَهْوَتِهِ ولَذَّتِهِ تكونُ تلكَ اللَّذَّةُ والحلاوةُ الإيمانيَّةُ قد اسْتَتَرَتْ عنهُ، وتوارَتْ، أو نَقَصَتْ، أو ذَهَبَتْ؛ فإنَّها لو كانتْ موجودةً كاملةً لما قَدَّمَ عليها لَذَّةً وشهوةً، لا نسبَةَ بينها وبينَهُ بوجهٍ ما، بل هي أَدْنى مِن حبَّةِ خَرْدَلٍ بالنِّسبةِ إلى الدُّنيا وما فيها، ولهٰذا قالَ النبيُّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: «لا يَزْني الزَّاني حِينَ يَزْني وهُو مؤمِنٌ، ولا يَسْرِقُ السَّارِقُ حينَ يسرِقُ وهُو مؤمِنٌ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حينَ يشرَبُها وهُو مؤمِنٌ»(١)؛ فإنَّ ذوقَ حقيقةِ الإيمانِ ومباشَرَتَهُ لقلْبِهِ يمنَعُهُ مِن أَنْ يُؤْثِرَ عليهِ ذٰلك القَدْرَ الخسيسَ، وينهاهُ عمَّا يُشَعِّثُهُ ويَنْقُصُهُ.

ولهٰذا تَجِدُ العبدَ إذا كانَ مُخْلِصاً للَّهِ مُنيباً إليهِ مطمئنًّا بذكرِهِ، مُشتاقاً قلبُهُ إلى لقائِهِ، منصَرِفاً عن هٰذه المحرَّماتِ، لا يلتَفِتُ إليها، ولا يُعَوِّلُ عليها، ويَرَى استبدالَهُ بها عمَّا هو فيهِ كاستبدالِ البَعْرَ الخسيسِ بالجَوْهرِ النَّفيسِ، وبَيْعِهِ المسكَ بالرَّجيعِ.

ولا ريبَ أنَّ في النُّفوسِ البشريَّةِ مَن هُو بهذه المثابَةِ، إنَّما يصبو إلى ما يناسِبُهُ، ويميلُ إلى ما يُشاكِلُهُ، يَنْفُرُ مِن المطالِبِ العاليةِ، واللَّذَّاتِ الكاملةِ، كما ينفُرُ الجُعَلُ(٢) مِن رائحةِ الورْدِ، وشاهدْنا مَنْ يُمْسِكُ بأنفِهِ عندَ وُجودِ رائحةِ المسكِ، ويتكَرَّهُ بها، لما ينالُهُ بها مِن المضرَّةِ.

فمَنْ خُلِقَ للعَمَلِ في الدِّباغَةِ لا يجيءُ منهُ العملُ في صناعةِ الحبيبِ، ولا يليقُ ولا يَتأَتَّى منهُ.

والنَّفسُ لا تتركُ محبوباً إلَّا لمحبوبٍ هو أحبُّ إليها منهُ، أو للخوفِ مِن مكروهٍ هو أشقُّ عليها مِن فواتِ ذٰلك المحبوبِ.

فالذَّنْبُ يُعْدَمُ لعدمِ المُقْتَضي لهُ تارةً، ولاشتغالِ القلبِ بما هو أحبُّ إليهِ

---

(١) رواه: البخاري (٥/٨٦)، ومسلم (٥٧)؛ عن أبي هريرة.

(٢) هو حيوان كالصُّرصور.

منهُ تارةً، ولوجودِ المانعِ تارةً، ومِن خوفِ فواتِ محبوبٍ هو أحبُّ إليه منهُ تارةً:

فالأوَّل: حالُ من حَصَلَ لهُ مِن ذَوْقِ حلاوةِ الإيمانِ وحقائِقهِ والتَّنَعُّمِ بهِ ما عوَّضَ قلْبَهُ عن مَيْلِهِ إلى الذُّنوبِ.

والثَّاني: حالُ مَنْ عِندَهُ داعٍ وإرادَةٌ لها، وعندَه إيمانٌ وتصديقٌ بوعدِ اللّهِ تعالى ووعيدِهِ، فهو يخافُ إنْ واقَعَها أنْ يقعَ فيما هو أكْرَهُ إليهِ، وأشَقُّ عليه.

فالأوَّلُ: للنُّفوسِ المطمَئنَّةِ إلى ربِّها.

والثَّاني: لأهْلِ الجهادِ والصَّبْرِ.

وهاتانِ النَّفسانِ هما المخصوصتانِ بالسَّعادةِ والفلاحِ.

قالَ اللّهُ تعالى في النَّفس الأولى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

وقالَ في الثَّانيةِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠].

فالنُّفوسُ ثلاثةٌ:

نفسٌ مطمئنَّةٌ إلى ربِّها، وهي أشرفُ النُّفوسِ وأزكاها.

ونفسٌ مجاهدةٌ صابرةٌ.

ونفسٌ مفتونَةٌ بالشَّهواتِ والهَوى، وهي النَّفْسُ الشَّقِيَّةُ، التي حَظُّها الألَمُ والعذابُ والبعدُ عن اللّهِ تعالى والحجابُ.



١٠ كيدُ الشَّيطانِ لنفسِهِ

وكيدُ الشَّيطانِ لنفسِهِ، قبل كيدِهِ للأبوينِ، ثمَّ لم يَقْتَصِرْ على ذٰلك، حتى كادَ ذُرِّيَّةَ نفسه، وذُرِّيَّةَ آدَمَ، فكانَ مشؤوماً على نفسِهِ وعلى ذُرِّيَّتِهِ وأوليائِهِ وأهلِ طاعتِهِ مِن الجِنِّ والإِنسِ.

أَمَّا كيدُهُ لنفسِهِ:

فإنَّ اللَّهَ سبحانَهُ لمَّا أَمَرَهُ بالسُّجودِ لآدَمَ ﷺ؛ كانَ في امتثالِ أَمرِهِ وطاعتِهِ سعادتُهُ وفلاحُهُ، وعِزُّهُ ونجاتُه، فسوَّلَتْ لهُ نفسهُ الجاهلةُ الظَّالِمَةُ أنَّ في سجودِهِ لآدَمَ ﷺ غَضاضةً عليه، وهَضْماً لنفسِهِ، إذ يَخْضَعُ ويقعُ ساجداً لمَن خُلِقَ مِن طينٍ، وهو مخلوقٌ مِن نارٍ، والنَّارُ ـ بزعْمِهِ ـ أشرفُ مِن الطِّينِ، فالمخلوقُ منها خيرٌ مِن المخلوقِ مِنهُ، وخضوعُ الأفْضَلِ لمَن هو دُونَهُ غَضاضةٌ عليه، وهضمٌ لمنزلِتِهِ.

فلمَّا قامَ بقلبِهِ هٰذه الهَوَسُ، وقارَنَهُ الحسدُ لآدَمَ؛ لِمَا رأَى ربَّهُ سبحانهُ قد خَصَّهُ بهِ مِن أنواعِ الكرامةِ؛ فإنَّهُ خَلَقَهُ بيدِهِ، ونَفَخَ فيهِ روحَهُ، وأسْجَدَ لهُ ملائكَتَهُ، وعلَّمهُ أسماءَ كُلِّ شَيْءٍ، ومَيَّزَهُ بذلك عنِ الملائكَةِ، وأسكَنَهُ جَنَّتَهُ، فعندَ ذٰلك بَلَغَ الحسدُ مِن عَدُوِّ اللَّهِ كُلَّ مبلغٍ، وكانَ عَدُوُّ اللَّهِ يُطيفُ بهِ وهو صَلْصَالٌ كالفَخَّارِ، فيتعجَّبُ منهُ، ويقولُ: لأمْرٍ عظيمٍ قد خُلِقَ هٰذا، ولئِنْ سُلِّطَ عَلَيَّ لأعْصِيَنَّهُ، ولئنْ سُلِّطْتُ عليهِ لأُهْلِكَنَّهُ. فلمَّا تَمَّ خلقُ آدَمَ ﷺ في أحسنِ تقويمٍ وأكملِ صورةٍ وأجمَلِها، وكَمُلَتْ محاسِنُه الباطِنَةُ بالعلمِ والحِلْمِ والوَقارِ، وتَوَلَّى ربُّهُ سبحانَهُ خَلْقَهُ بيدِهِ، فجاءَ في أَحسنِ خَلْقٍ، وأتَمِّ صورةٍ، طولُهُ في السَّماءِ ستُّونَ ذِراعاً، قد أُلْبِسَ رِدَاءَ الجمالِ والحُسْنِ، والمهابَةِ والبَهاءِ، فرأَتِ الملائكَةُ منظراً لم يُشاهِدُوا أَحْسَنَ منهُ ولا أَجْمَلَ، فوقَعُوا كلُّهُم سجوداً لهُ، بأَمْرِ ربِّهِم تبارَكَ وتعَالى، فشَقَّ الحَسودُ قَميصهُ مِنْ دُبُرٍ، واشْتَعَلَتْ في قلبِهِ

نيرانُ الحَسَدِ المَتينِ، فعارَضَ النَّصَّ الصَّريحَ بالمعقولِ بزَعْمِهِ، كفعلِ أوليائِهِ مِن المبْطِلينَ، وقالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فأَعْرَضَ عَنِ النَّصِّ الصَّريحِ، وقابَلَهُ بالرَّأْسِ الفاسِدِ القَبيحِ، ثمَّ أردَفَ ذٰلك بـالاعتراضِ على العليمِ الحَكيمِ، الذي لا تَجِدُ العقولُ إلى الاعتراضِ على حِكمتِه سبيلاً، فقالَ: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وتحتَ هذا الكلامِ مِن الاعتراضِ معنى: أَخْبِرْني؛ لِمَ كَرَّمْتَهُ عليَّ؟!

وغَوْرُ هٰذا الاعتراضِ: أنَّ الذي فعَلْتَهُ ليس بحِكْمَةٍ ولا صوابٍ، وأنَّ الحكمةَ كانتْ تقتضي أنْ يسجُدَ هُو لي؛ لأنَّ المفضولَ يخضَعُ للفاضِلِ، فلِمَ خالَفْتَ الحِكْمَةَ؟!

ثمَّ أردَفَ بتفضيلِ نفسِهِ عليهِ، وإزرائِهِ بهِ، فقالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

ثمَّ قرَّر ذٰلك بحجَّتِهِ الدَّاحضةِ في تفضيلِ مادَّتِه وأَصْلِهِ على مادَّةِ آدَمَ ﷺ وأَصْلِهِ، فَأَنْتَجتْ لهُ هٰذه المقدِّماتُ إباءَهُ مِن السُّجودِ ومعصِيَتَهُ الرَّبَّ المعبودَ.

فجمَعَ بينَ الجهلِ والظُّلمِ، والكِبْرِ والحسدِ والمعصيةِ، ومعارضةِ النَّصِّ بالرَّأيِ والعَقْلِ، فأهانَ نفسَهُ كُلَّ الإهانةِ من حيثُ أرادَ تعظيمَها، ووضَعَها مِن حيثُ أرادَ رِفْعَتَها، وأذلَّها مِن حيثُ أرادَ عِزَّتَها، وآلَمَها كلَّ الألَمِ مِن حيثُ أرادَ لَذَّتَها، ففعلَ بنفسِهِ ما لو اجتهَدَ أعظمُ أعدائِهِ في مَضَرَّتِهِ لم يبلُغْ منهُ ذٰلك المبلَغَ، ومَن كانَ هٰذا غِشَّهُ لنفسِه، فكيفَ يسمعُ منهُ العاقِلُ ويقبَلُ ويُواليهِ؟!

قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: ٥٠].

• وأمَّا كيدُهُ للأبوينِ:

فقدْ قَصَّ اللَّهُ سبحانَهُ علينا قصَّتَهُ معهما[١]، وأنَّهُ لم يزَلْ يَخْدَعُهُما ويَعِدُهُما ويُمَنِّيهِما الخُلودَ في الجنَّة، حتَّى حَلَفَ لهُما باللَّهِ جَهْدَ يَمينِهِ أنَّهُ ناصحٌ لهُما، حتَّى اطمَأنَّا إلى قولِهِ، وأجابَاهُ إلى ما طلَبَ منهُما، فجَرى عليهِما مِن المِحْنَةِ والخروجِ مِن الجنَّةِ ونَزْعِ لباسِهِما عنهُما ما جَرى، وكانَ ذلك بكَيْدِهِ ومَكْرِهِ، الذي جَرَى بِهِ القَلَمُ، وسَبَقَ بِهِ القَدَرُ، وردَّ اللَّهُ سبحانَهُ كَيْدَهُ عليهِ، وتَدارَكَ الأبَوَيْنِ برحمتِهِ ومَغْفِرَتِه، فأعادَهُما إلى الجنَّةِ على أحسنِ الأحوالِ وأجمَلِها، وعادَ عاقِبَةُ مكرِهِ عليه، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وظنَّ عدوُّ اللَّهِ بجهْلِهِ أنَّ الغلَبَةَ والظَّفَرَ لهُ في هٰذه الحَرْبِ، ولم يعْلَمْ بِكَمينِ جَيْشِ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولا بإقبالِ دَوْلَةِ ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

وظنَّ اللعينُ بجهْلِهِ أنَّ اللَّهَ يتخلَّى عن صَفِيِّهِ وحَبيبِه الَّذي خَلَقَهُ بيدِه، ونَفَخَ فيهِ من روحِه، وأسجَدَ لهُ ملائكتَهُ، وعلَّمَهُ أسماءَ كُلِّ شيءٍ، مِن أجْلِ أَكْلَةٍ أكَلَها.

وما عَلِمَ أنَّ الطَّبيبَ قد عَلَّمَ المريضَ الدَّواءَ قبلَ المرضِ، فلمَّا أحَسَّ بالمرضِ بادَرَ إلى استعمالِ الدَّواءِ، لمَّا رماهُ العَدُوُّ بسهْمٍ وقعَ في غيرِ مقْتَلٍ، فبادَرَ إلى مُداواةِ الجُرْحِ، فقامَ كأنْ لمْ يَكُنْ بِهِ قَلَبَةٌ[٢].

بُلِيَ العَدُوُّ بالذَّنْبِ فأصَرَّ واحتجَّ وعارَضَ الأمْرَ، وقَدَحَ في الحِكمةِ، ولم يسْألِ الإقالَةَ، ولا نَدِمَ على الزَّلَّةِ.

وبُلِيَ الحَبيبُ بالذَّنْبِ، فاعْتَرفَ وتابَ ونَدِمَ، وتَضرَّعَ واستكانَ وفَزِعَ إلى

(١) في سورة الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢.
(٢) أي: داءٌ وعلَّةٌ.

مَفْزَعِ الخَليقَةِ، وهو التَّوحيدُ والاستغفارُ، فأُزيلَ عنهُ العَتْبُ، وغُفِرَ لَهُ الذَّنْبُ، وقُبِلَ منهُ المتابُ، وفُتِحَ لهُ مِن الرَّحمةِ والهِدايةِ كُلُّ بابٍ، ونحنُ الأبناءُ، ومَن أشبَهَ أباهُ فما ظَلَمَ.

ومَنْ كانَتْ شِيمَتُهُ التَّوبةَ والاستغفارَ؛ فقدْ هُدِيَ لأحْسَنِ الشِّيَمِ.

○ كيدُهُ لابنِ آدَمَ:

ثمَّ كادَ أحَدَ وَلَدَيْ آدَمَ، ولم يَزَلْ يتلاعَبُ بهِ، حتَّى قتلَ أخاهُ، وأسخَطَ أباهُ، وعَصى مولاهُ، فسَنَّ للذُّرِّيَّةِ قتلَ النُّفوسِ، وقد ثَبَتَ في «الصَّحيحِ»[1] عنهُ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلماً إلَّا كانَ عَلى ابنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِها؛ لأنَّهُ أوَّلُ مَن سنَّ القتلَ».

فكادَ العدوُّ هٰذا القاتِلَ بقَطيعَةِ رَحِمَهِ، وعُقوقِ والدَيهِ، وإسخاطِ رَبِّهِ، ونَقْصِ عدَدِهِ، وظُلْمِ نفسِهِ، وعَرَّضَهُ لأعْظَمِ العقابِ، وحَرَمَهُ حَظَّهُ مِن جزيلِ الثَّوابِ.

○ تَفريقُهُ للأمَّةِ:

ثمَّ الأمْرُ على السَّدادِ والاستقامَةِ، والأمَّةُ واحدةٌ، والدِّينُ واحدٌ، والمعبودُ واحدٌ.

قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: ١٩]، وقالَ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدةً: كانُوا عَلى الإسلامِ كُلُّهُم».

وهٰذا هُو القولُ الصَّحيحُ في الآيةِ.

---

(١) رواه: البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧)؛ عن ابن مسعود.

والمقصودُ أنَّ العدوَّ كادَهُمْ وتَلاعَبَ بهِم حَتَّى انْقَسَمُوا قسمينِ: كُفَّاراً ومُؤمِنِينَ، فكادَهُمْ بعبادةِ الأصنامِ، وإنكارِ البَعْثِ.

وكانَ أَوَّلُ مَا كَادَ بهِ عُبَّادَ الأصنامِ مِن جِهةِ العُكوفِ على القُبورِ، وتَصاويرِ أَهلِها؛ ليَتَذَكَّروهُم بها، كما قَصَّ اللَّهُ سُبْحانَهُ قَصَصَهُم في كِتابِهِ، فقالَ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

قالَ البخاريُّ في «صحيحِهِ»[١] عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «هٰذه أَسماءُ رجالٍ صالِحينَ مِن قومِ نوحٍ، فلمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيطانُ إلى قومِهِم: أنِ انْصِبُوا إلى مجالِسِهِم التي كانُوا يجلِسونَ أنصاباً وسمُّوها بأسمائِهِمْ، ففَعَلُوا، فلم تُعْبَدْ، حتَّى إذَا هَلَكَ أولئكَ، ونُسِخَ العِلْمُ؛ عُبِدَتْ».

(١) تقدَّم تخريجُه.



١١ . تَلاعُبُ الشَّيطانِ بالمُشْرِكينَ

وتَلاعُبُ الشَّيطانِ بالمُشرِكينَ في عِبادَةِ الأصنامِ لهُ أَسبابٌ عديدةٌ، تلاعَبَ بكُلِّ قومٍ على قدْرِ عُقولِهِم:

فطائفةٌ دَعاهُمْ إلى عِبادَتِها مِن جهةِ تعظيمِ المَوْتى، الَّذِينَ صوَّروا تلكَ الأصنامَ على صُوَرِهِم كما تقدَّمَ عن قومِ نوحٍ ﷺ، ولهٰذا لَعَنَ النبيُّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ المُتَّخِذينَ على القُبورِ المساجِدَ، ونَهى عن الصَّلاةِ إلى القُبورِ، وسأَلَ ربَّهُ سحانَهُ أَنْ لا يجعَلَ قبرَهُ وثناً يُعْبَدُ، ونَهى أُمَّتَه أَنْ يَتَّخِذُوا قبرَهُ عيداً، وقالَ: «اشتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ على قومٍ اتَّخذوا قُبورَ أنبيائِهِمْ مَساجِدَ»[1]، وأمرَ بتسويةِ القُبورِ، وطَمْسِ التَّماثيلِ.

فأَبى المُشْرِكونَ إلَّا خلافَهُ في ذٰلك كلِّهِ، إمَّا جهلاً، وإمَّا عِناداً لأهلِ التَّوحيدِ، ولم يَضُرَّهُم ذٰلك شيئاً.

وهٰذا السَّببُ هو الغَالِبُ على عوامِّ المشرِكينَ.

وأمَّا حواصُّهُمْ؛ فإنَّهم اتَّخذوها ـ بزَعْمِهِمْ ـ على صُوَرِ الكواكِبِ المؤثِّرَةِ في العالَم عندَهُم، وجَعَلوا لها بيوتاً وسَدَنةً، وحُجَّاباً، وحَجًّا، وقُرباناً!

ولم يَزَلْ هٰذا في الدُّنيا قديماً وحديثاً.

فمنها: بيتٌ على رأسِ جبرٍ بأصبهانَ، كانَ بهِ أصنامٌ أخرَجَها بعضُ ملوكِ المجوسِ، وجَعَلَهُ بيتَ نارٍ.

ومنها: بيتٌ ثانٍ وثلثٌ ورابعٌ بصنعاءَ، بناهُ بعضُ المشرِكينَ على اسمِ الزُّهرَةِ، فخَرَّبَهُ عُثمانُ بنُ عفَّانَ رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ.

---

(١) تقدَّم تحريجُه

ومنه: بيتٌ بناهُ قابُوسُ الملِكُ على اسمِ الشَّمسِ بمَدينةِ فرْغَانَةَ، فخرَّبَهُ المعتَصِمُ.

وأشدُّ الأمَمِ في هٰذا النَّوعِ مِن الشِّركِ: الهِنْدُ.

قالَ يحيى بنُ بِشْرٍ: إنَّ شَريعَةَ الهِنْدِ وَضَعَها لهُم رَجُلٌ يُقالُ لهُ: بَرْهَمَنْ[1] وجَعَلَ لهُم أعظمَ بيوتِها بيتاً بمدينةٍ مِن مدائِنِ السِّندِ، وجَعَلَ فيهِ صَنَمَهُمْ الأعظَمَ، وزعَمَ أنَّهُ بصورةِ الهَيُولَى[2] الأكْبَرِ!

فالهِنْدُ تحجُّ إليهِ مِن نَحْوِ أَلْفَيْ فرْسَخٍ، ولا بدَّ لمَنْ يحجُّهُ أنْ يحْملَ معهِ مِن النَّقْدِ ما يمكِنُهُ، مِن مئةٍ إلى عَشرةِ آلافٍ، لا يكونُ أقلَّ مِن هٰذا ولا أكْثَرَ، فيُلقيهِ في صندوقٍ هناكَ عظيمٍ، ويطوفُ بالصَّنَمِ!!

وأصلُ هٰذا المذهَبِ مِن مُشْرِكي الصَّابئةِ، وهُم قومُ إبراهيمَ ﷺ، الَّذِينَ ناظرَهُم في بُطلانِ الشِّركِ، وكَسَرَ حُجَّتَهُم بعِلْمِهِ، وآلهتَهُم بيدهِ، فطَلَبوا تحريقَهُ[3].

وهو مذهَبٌ قديمٌ في العالَمِ، وأهْلُهُ طوائفُ شتَّى!!

○ عُبَّادُ القَمَرِ:

وطائفةٌ أُخرى اتَّخَذَتْ للقمرِ صَنَماً، وزَعَمُوا أنَّهُ يستَحِقُّ التَّعظيمَ والعبادَةَ، وإليهِ تدبيرُ هٰذا العالَمِ السُّفْليِّ.

ومِن شريعةِ عُبَّادِهِ: أنَّهُم اتَّخذوا لهُ صنماً على شكلِ عِجْلٍ يجرُّهُ أربعةٌ، وبيدِ الصَّنمِ جوهرةٌ، ويعبدُونَه، ويَسْجُدونَ لهُ، ويَصومُونَ لهُ أيَّاماً معلومةً مِن كلِّ شهرٍ، ثمَّ يأْتُونَ إليهِ بالطَّعامِ والشَّرابِ، والفرحِ والسُّرورِ، فإذا فَرَغُوا مِن الأكْلِ أخَذُوا في الرَّقْصِ والغِناءِ، وأصواتُ المعازفِ بينَ يديهِ!!

---

(١) وهو مؤسِّس ديانة البراهمة.

(٢) هي مادَّةُ الشيء التي يُصْنَعُ منها، وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٨٦/٣).

(٣) كما في آيات سورة الأنعام: ٧٤ ـ ٨٣، وآيات سورة الأنبياء: ٥١ ـ ٧١.

ومنهُم مَن يعبُدُ أصناماً اتَّخَذوها على صورةِ الكواكِبِ وروحانِيَّتِها بزعْمِهِمْ، وبَنَوْا لها هياكِلَ ومتعَبَّداتٍ، لكلِّ كوكَبٍ منها هيكلٌ يخصُّهُ، وصنمٌ يخصُّهُ، وعبادةٌ تخصُّهُ.

وكلُّ هٰؤلاءِ مرجِعُهُم إلى عبادةِ الأصنامِ، فإنَّهُم لا تَسْتَمِرُّ لهُم طريقةٌ إلَّا بشخصٍ خاصٍّ على شكلٍ خاصٍّ، ينظرونَ إليهِ، ويَعْكِفونَ عليهِ.

ومِن ها هُنا اتَّخَذَ أصحابُ الرُّوحانيَّاتِ والكواكِبِ أصناماً، زَعَموا أنَّها على صورَتِها.

فَوَضْعُ الصَّنَمِ إنَّما كانَ في الأصْلِ على شكلِ معبودٍ غائبٍ، فجَعَلوا الصَّنَم على شكلِهِ وهيئتِهِ وصورَتِه؛ ليكونَ نائباً منابَهُ، وقائماً مقامَهُ، وإلَّا فمِن المعلومِ أنَّ عاقلاً لا ينحِتُ خَشَبَةً أو حجراً بيدِهِ، ثمَّ يعتقدُ أنَّهُ إلٰهُهُ ومعبودُهُ.

ومِن أسبابِ عبادَتِها أنَّ الشَّياطينَ تدخُلُ فيها، وتخاطِبُهُم منها، وتخبِرُهُم ببعضِ المغيَّباتِ، وتَدُلُّهُم على بعضِ ما يخْفى عليهِم، وهُم لا يُشاهِدُونَ الشَّياطينَ[١]، فجهلتُهُم وسَقَطُهم يظنُّونَ بأنَّ الصَّنَمَ نفسَهُ هُو المتكلِّمُ المُخاطِبُ، وعُقلاؤهُم يقولونَ: إنَّ تلكَ روحانيَّاتُ الأصنامِ، وبعضُهُم يقولُ: إنَّها الملائكةُ، وبعضُهُم يقولُ: إنَّها العقولُ المجرَّدَةُ، وبعضُهُم يقولُ: هي روحانيَّاتُ الأجرامِ العلويَّةِ، وكثيرٌ منهُم لا يَسأَلُ عمَّا عَهِدَ، بل إذا سَمِعَ الخِطابَ مِن الصَّنَمِ اتَّخَذَهُ إلٰهاً، ولا يسْأَلُ عمّا وراءَ ذٰلك.

وبالجملةِ، فأكثرُ أهلِ الأرضِ مفتونونَ بعبادَةِ الأصنامِ والأوثانِ. ولمْ يَتَخَلَّصْ منها إلَّا الحُنفاءُ، أتباعُ مِلَّةِ إبراهيمَ ﷺ، وعبادَتُها في الأرضِ مِن قَبْلِ نوحٍ ﷺ، كما تقدَّمَ، وهياكِلُها ووقوفُها وسَدَنَتُها، وحُجّابُها، والكتبُ المصنَّفَةُ في شرائعِ عبادَتِها طبَّقَ ذٰلك كلُّهُ الأرضَ.

---

(١) وفي هٰذا عبرةٌ بالغةٌ في ردِّ ضلالات الذين يزعمون أنهم يحكمون الجن... أو أن الجنّ يُطلعهم على الغيب... أو أنهم يعلمون المستقبل... وغير ذٰلك من خرافات مُضلّات!!

قالَ إمامُ الحُنَفاءِ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

والأمَمُ التي أهلَكَها اللَّهُ بأنواعِ الهلاكِ كلُّهُم كانُوا يعبُدونَ الأصنامَ، كما قَصَّ اللَّهُ تعالى ذٰلك عنهُم في القرآنِ، وأنجى الرُّسُلَ وأتباعَهُم مِن الموحِّدينَ.

ويَكْفي في معرفةِ كَثْرَتِهِم، وأنَّهُم أكثرُ أهلِ الأرضِ: ما صحَّ عنِ النبيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: «أنَّ بَعْثَ النَّارِ مِنْ كُلِّ ألفٍ تِسعٌ مِئةٍ وتِسعةٌ وتِسعونَ»(١).

وقد قال تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقالَ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقالَ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقالَ: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ۝١٠٢﴾ [الأعراف: ١٠٢].

ولو لم تَكُن الفِتْنَةُ بعبادةِ الأصنامِ عظيمةً لما أقْدَمَ عُبَّادُها على بذْلِ نفوسِهِمْ وأموالِهِم وأبنائِهِم دُونَها، فهُم يُشاهِدُونَ مصارعَ إخوانِهِم وما حَلَّ بهِم، ولا يَزيدُهُم ذٰلك إلَّا حُبًّا وتعظيماً، ويوصِي بعضُهُم بعضاً بالصَّبْرِ عليها، وتحمُّلِ أنواعِ المكارِهِ في نُصْرَتِها وعبادَتِها، وهُم يسمَعُونَ أخبارَ الأمَمِ التي فُتِنَتْ بعبادَتِها، وما حَلَّ بِهِمْ مِن عَاجِلِ العُقوباتِ، ولا يُثْنِيهِمْ ذٰلكَ عن عِبادَتِها.

ففِتْنَةُ عبادةِ الأصنامِ أشدُّ مِن فتنةِ عِشْقِ الصُّورِ، وفتنةِ الفُجورِ بِها، والعاشِقُ لا يُثْنِيه عن مُرادِهِ خشيَةُ عقوبةٍ في الدُّنيا، ولا في الآخرةِ، وهو يُشاهِدُ ما يَحُلُّ بأصحابِ ذٰلك مِن الآلامِ والعقوباتِ، والضَّرْبِ، والحَبْسِ،

---

(١) أخرجه: البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢)، عن أبي سعيد.

والنَّكالِ، والفَقْرِ؛ غيرَ ما أَعَدَّ اللَّهُ لهُ في الآخرةِ، وفي البَرْزَخِ، ولا يزيدُهُ ذٰلك إلَّا إقداماً وحِرْصاً على الوُصولِ والظَّفَرِ بحاجَتِهِ.

فهكذا الفِتنَةُ بعبادَةِ الأصنامِ وأَشَدُّ، فإنَّ تألُّهَ القُلوبِ لَها أعظمُ من تألُّهِها للصُّوَرِ التي يُريدُ منها الفاحِشَةَ بكثيرٍ.

والقرآنُ، بل وسائرُ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، مِن أوَّلِهِ إلى آخِرِها، مُصَرِّحَةٌ ببُطلانِ هٰذا الدِّينِ، وكُفْرِ أهلِهِ، وأنَّهُم أعداءُ اللَّهِ ورُسُلِهِ، وأنَّهُم أولياءُ الشَّيطانِ وعُبَّادُهُ، وأنَّهُم هُم أهلُ النَّارِ الَّذين لا يَخْرُجونَ منها، وهُم الَّذينَ حَلَّتْ بهِمُ المَثُلاتُ[1]، ونَزَلَتْ بهِمُ العُقوباتُ، وأنَّ اللَّهَ سبحانَهُ بريءٌ منهُم هو وجميعُ رُسُلِهِ وملائكتِهِ، وأنَّهُ سبحانَهُ لا يَغْفِرُ لهُم، ولا يقبَلُ لهُم عملاً.

وهٰذا معلومٌ بالضَّرورةِ مِن الدِّينِ الحَنيفِ.

وقد أباحَ اللَّهُ ﷻ لرسولِهِ وأتباعِهِ مِن الحُنفاءِ دِماءَ هٰؤلاءِ، وأموالَهُم، ونِساءَهُم، وأبناءَهُم، وأَمَرَهُم بتَطْهيرِ الأرضِ منهُم، حيثُ وُجِدُوا، وذَمَّهُم بسائِرِ أنواعِ الذَّمِّ، وتوعَّدَهُم بأعظمِ أنواعِ العُقوبَةِ، فهٰؤلاءِ في شِقٍّ ورُسُلُ اللَّهِ تَعالى كلُّهُم في شِقٍّ.

● أسبابُ عِبادَةِ الأصنامِ:

ومِن أسبابِ عبادَةِ الأصنامِ: الغُلُوُّ في المخلوقِ، وإعطاؤهُ فوقَ منزلَتِهِ، حتى جُعِلَ فيهِ حَظٌّ مِن الإلهيَّةِ، وشَبَّهوهُ باللَّهِ سبحانَهُ، وهٰذا هو التَّشبيهُ الواقعُ في الأُمَمِ، الذي أبْطَلَهُ اللَّهُ سبحانَهُ، وبَعَثَ رُسُلَهُ، وأنْزَلَ كُتُبَهُ بإنكارِهِ والرَّدِّ على أهلِهِ.

فهُو سبحانَهُ يَنْفي، ويَنْهى، أنْ يُجْعَلَ غيرُهُ مِثْلاً لهُ، ونِدًّا لهُ، وشِبهاً لهُ، لا أنْ يُشَبَّهَ هُو بغيرِهِ، إذ ليس في الأُممِ المعروفةِ أُمَّةٌ جعَلَتْهُ سبحانَهُ مِثْلاً لشيءٍ مِن مخلوقاتِهِ، فجَعَلَتِ المخلوقَ أصلاً، وشبَّهَتْ بِهِ الخالِقَ، فهٰذا لا يُعْرَفُ في

---

(١) مفردها: المَثُلَة، وهي: العقوبة.

طائفة مِن طوائِفِ بَني آدَمَ، وإنَّما الأوَّلُ هُو المعروفُ في طوائفِ أهلِ الشِّرْكِ، غُلُوًّا فيمَن يعظِّمونَهُ، ويحبُّونَهُ، حتَّى شبَّهوهُ بالخالِقِ، وأعْطَوْهُ خصائصَ الإلٰهيَّةِ، بل صرَّحوا أنَّهُ إلٰهٌ، وأنْكَرُوا جَعْلَ الآلهةِ إلٰهاً واحداً، وقالوا: ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]، وصرَّحوا بأنَّهُ إلٰهٌ معبودٌ، يُرْجَى ويُخافُ، ويُعَظَّمُ ويُسْجَدُ لهُ، ويُحْلَفُ باسمِهِ، وتُقَرَّبُ لهُ القرابينُ، إلى غيرِ ذٰلك مِن خصائصِ العبادةِ، التي لا تَنْبَغي إلَّا للَّهِ تعالى.

فكلُّ مشرِكٍ فهُو مشبِّهٌ لإلٰهِهِ ومعبودِهِ باللَّهِ سبحانَهُ، وإنْ لَمْ يُشَبِّهْهُ بهِ من كلِّ وجهٍ، حتَّى إنَّ الَّذينَ كَفَروا وصفوهُ سبحانَه بالنَّقائِصِ والعُيوبِ؛ كقولِهِم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وإنَّ ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وإنَّهُ استراحَ لمَّا فَرَغَ مِن خَلْقِ العالَمِ[1]، والَّذِينَ جَعَلُوا لهُ وَلَداً وصاحِبَةً، تَعالى اللَّهُ عن ذٰلكَ عُلُوًّا كبيراً لم يَكُنْ قصدُهُم أنْ يَجْعَلوا المخلوقَ أصْلاً، ثمَّ يُشبِّهونَ بهِ الخالِقَ، بل وَصَفوهُ بهٰذه الأشياءِ استقلالاً، لا قصداً أنْ يكونَ غيرُهُ أصلاً فيها، وهو مشبَّهٌ بهِ.

ولهٰذا كانَ وصفُهُ سبحانَهُ بهٰذهِ الأمورِ من أبْطَلِ الباطِلِ؛ لكوْنِها في نفسِها نقائِصَ وعُيوباً، ليس جهةَ البُطلانِ في اتِّصافِهِ بها: هُو التَّشبيهُ والتَّمثيلُ، فلا يُتَوَقَّفُ في نَفْيِها عنهُ على ثُبوتِ انتفاءِ التَّشبيهِ، كما يفعَلُهُ بعضُ أهلِ الكلامِ الباطلِ، حيثُ صَرَّحُوا بأنَّهُ لا يقومُ دَليلٌ عقليٌّ على انتفاءِ النَّقائِصِ والعُيوبِ عنهُ، وإنَّما تُنْفَى عنهُ لاستِلْزامِها التَّشبيهَ والتَّمثيلَ!

وهٰؤلاءِ إذا قالَ لهُم الواصِفونَ للَّهِ سبحانَه بهٰذه الصِّفاتِ: نحنُ نُثْبِتُها لهُ على وَجْهٍ لا يُماثِلُ فيهَا خَلْقَهُ، بل نُثْبِتُ لهُ فَقراً وصاحِبَةً وإيلاداً لا يُماثِلُ فيهِ خَلْقَهُ؛ كما تُثْبِتُونَ أنْتُم لهُ عِلماً وقُدرةً وحَياةً وسمعاً وبصراً لا يُماثِلُ فيهِ خَلْقَهُ؛ فقولُنا في هٰذا كقولِكُم فيما أثْبَتُّموهُ سواءٌ! لم يتَمَكَّنوا مِن إبطالِ قولِهِم،

---

(١) كما هو قولُ اليهود، قُضَّت أفواهُهم.

ويصيرونَ أكْفاءً لهُم في المُناظَرَةِ، فإنَّهُم قدْ أعْطوهُم أنَّهُ لا يقومُ دليلٌ عقليٌّ على انتفاءِ النَّقائِصِ والعُيوبِ، وإنَّما نَنْفِي ما نُفِيَ عنهُ لأجْلِ التَّشبيهِ والتَّمثيلِ، وقد أثْبَتُوا لهُ صفاتٍ على وجهٍ لا يستَلْزِمُ التَّشبيهَ، فقالَ أولٰئكَ: وهٰكذا نقولُ نحنُ!

ولمَّا عَرَفَ بعضُهُم أنَّ هٰذا لازمٌ لهُ لا محالَةَ استروَحَ إلى دليلِ الإجماعِ، وقالَ: إنَّما نَفَيْنا النَّقائِصَ والعُيوبَ عنهُ بالإجماعِ، وعندَهُم أنَّ الإجماعَ أدِلَّتُهُ ظنِّيَّةٌ، لا تُفيدُ اليَقينَ، فليسَ عندَ القومِ يقينٌ وقَطْعٌ بأنَّ اللَّهَ سبحانَهُ منزَّهٌ عن النَّقائِصِ والعُيوبِ.

وأهْلُ السُّنَّةِ يقولونَ: إنَّ تنزيهَهُ سبحانَهُ عن العُيوبِ والنَّقائِصِ واجبٌ لذاتِهِ، كما أنَّ إثباتَ صفاتِ الكمالِ والحمدِ واجبٌ لهُ لذاتِهِ، وهُو أظهَرُ في العُقولِ والفِطَرِ وجميعِ الكُتُبِ الإلٰهيَّةِ وأقوالِ الرُّسُلِ مِن كُلِّ شيءٍ.

ومِن العَجَبِ أنَّ هٰؤلاءِ جاؤوا إلى ما عُلِمَ بالاضطرارِ أنَّ الرُّسُلَ جاؤوا بهِ، ووصَفُوا اللَّهَ سبحانَهُ بهِ، ودَلَّتْ عليهِ العقولُ والفِطَرُ والبراهينُ، فنَفَوْهُ، وقالوا: إثباتُهُ يستَلْزِمُ التَّجسيمَ والتَّشبيهَ، فلم يَثْبُتْ لهُم قدمٌ ألبتَّةَ فيما يُثْبِتُونَهُ لهُ سبحانَهُ، وينْفونَهُ عنهُ.

وجاؤوا إلى ما عُلِمَ بالاضطرارِ والفِطَرِ والعُقولِ وجميعِ الكُتُبِ الإلٰهيَّةِ مِن تنزيهِ اللَّهِ سبحانَهُ عن كُلِّ نقصٍ وعيبٍ، فقالوا: ليسَ في أدِلَّةِ العقلِ ما ينفيهِ، وإنَّما نفيهِ بما نَنْفي بهِ التَّشبيهَ.

وليس في الخذلانِ فوقَ هٰذا، بل إثباتُ هذه العيوبِ والنَّقائِصِ يُضادُّ كمالَهُ المقدَّسَ. وهو سبحانَهُ موصوفٌ بما يُضادُّها ويُنافيها مِن كلِّ وجهٍ، ونَفْيُها أظهَرُ وأبْيَنُ في العُقولِ مِن نَفْيِ التَّشبيهِ، فلا يجوزُ أنْ تَثْبُتَ لهُ على وجهٍ لا يُشابِهُ فيهِ خَلْقَهُ.

والمقصودُ أنَّهُ لم يكُنْ في الأمَمِ مَن مَثَّلَهُ بِخَلْقِهِ، وجعَلَ المخلوقَ أصلاً ثمَّ شبَّهَهُ بهِ، وإنَّما كانَ التَّمثيلُ والتَّشبيهُ في الأمَمِ، حيثُ شبَّهُوا أوْثانَهُم

ومَعْبودِيهِم بهِ في الإِلٰهيَّةِ، وهٰذا التَّشبيهُ هو أَصلُ عِبَادَةِ الأصنامِ، فأَعْرَضَ عنهُ وعن بيانِ بُطلانِهِ أَهلُ الكلامِ، وصَرَفوا العِنايَةَ إلى إنكارِ تَشْبيهِهِ بالخَلْقِ الَّذي لم تُعْرَفْ أُمَّةٌ مِن الأممِ عليهِ، وبالَغوا فيهِ حَتَّى نَفَوْا بِهِ عنهُ صفاتِ الكمالِ.

وهٰذا موضعٌ مُهِمٌّ نافِعٌ جدًّا، بِهِ يُعْرَفُ الفَرْقُ بينَ ما نزَّهَ الرَّبُّ سبحانَهُ نفسَهُ عنهُ، وذَمَّ بِهِ المشرِكينَ المُشَبِّهينَ العادِلينَ بِهِ خَلْقَهُ، وبينَ ما ينفيهِ الجهمِيَّةُ المُعطِّلَةُ مِن صفاتِ كمالِه، ويزعُمون أنَّ القرآنَ دَلَّ عليهِ وأُريدَ بهِ نَفْيُهُ.

والقرآنُ مملوءٌ مِن إبطالِ أَنْ يكونَ في المَخْلوقاتِ ما يُشْبِهُ الرَّبَّ تَعالى أو يماثِلُهُ، فهٰذا هو الذي قُصِدَ بالقرآنِ، إبطالاً لما عليهِ المشرِكونَ والمشبِّهونَ العادِلونَ باللّٰهِ تعالى غيرَهُ.

قالَ تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهٰؤلاءِ جعَلوا المَخْلوقَ مِثْلاً للخالِقِ.

فالنِّدُّ: الشِّبهُ؛ يُقالُ: فلانٌ نِدُّ فُلانٍ، ونَديدُهُ؛ أي: مِثْلُهُ وشِبْهُهُ.

ومنهُ قولُ حَسَّانَ بنِ ثابِتٍ:

أَتَهْجُوهُ ولَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ ... فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِدَاءُ

ومنهُ قولُ النَّبيِّ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ـ لِمَنْ قالَ لَهُ: ما شاءَ اللّٰهُ وشِئْتَ ـ: «أَجعَلْتَني للّٰهِ نِدًّا»[1].

قالَ ابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ: «لا تَجْعَلوا للّٰهِ أَكْفاءَ مِن الرِّجالِ، تُطيعُونَهُم في معصِيَةِ اللّٰهِ».

وقالَ ابنُ زيدٍ: «الأندادُ: الآلهةُ التي جَعَلوها معهُ».

---

(١) حديثٌ حسنٌ، انظر تخريجه في رسالتي: «التصفية والتربية وأثرهما في استئناف الحياة الإسلامية» (ص١٦).

وقالَ الزَّجَّاجُ: «أي: لا تَجْعَلوا للّٰهِ أمثالاً»(١).

فالَّذي أنْكَرَهُ اللّٰهُ سبحانَهُ عليهِم: هُو تشبيهُ المَخْلوقِ بهِ، حتَّى جَعَلوهُ نِدًّا للّٰهِ تعالى، يَعْبُدونَهُ كما يعبُدونَ اللّٰهَ، وكذٰلك قولُهُ في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأنْكَرَ هٰذا التَّشبيهَ عليهِم، وهو أصلُ عبادةِ الأصنامِ.

ونَظيرُ هٰذا قولُهُ سبحانَهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١]؛ أي: يعدِلونَ بهِ غيرَهُ، فيجْعَلونَ لهُ مِن خَلْقِهِ عَدْلاً وشَبَهاً.

قالَ الزَّجاجُ: «أعلمَ اللّٰهُ سبحانَهُ أنَّهُ خالِقُ ما ذَكَرَ في هٰذه الآيةِ، وأنَّ خالِقَها لا شَيْءَ مثْلُهُ، وأعْلَمَ أنَّ الكُفَّارَ يجعلونَ لهُ عَديلاً».

والعَدْلُ التَّسويةُ، يُقالُ: عَدَلَ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ: إذا سوَّاه بهِ، ومعنى: يعْدِلونَ بهِ: يُشْرِكونَ بهِ غيرَهُ.

وقالَ الكِسائِيُّ: «عَدَلْتُ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ أَعْدِلُهُ عدولاً إذا ساوَيْتَهُ بهِ».

وكذٰلكَ قولُهُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل ٧٣، ٧٤].

فنهاهُم أنْ يَضْرِبوا لهُ مِثْلاً مِن خلقِهِ، ولم يَنْهَهُمْ أنْ يَضْرِبوهُ هُو مَثَلاً لخَلْقِهِ، فإنَّ هٰذا لم يَقُلْهُ أحدٌ، ولم يكونوا يفعَلونَه.

فإنَّ اللّٰهَ سبحانَهُ أجلُّ وأعْظَمُ وأكْبَرُ مِن كُلِّ شيءٍ في فِطَرِ النَّاسِ كُلِّهِم، ولكنِ المُشَبِّهونَ المشركونَ يَغْلونَ فيمَن يُعَظِّمونَهُ، فيشَبِّهونَهُم بالخالِقِ، واللّٰهُ تعالى أجَلُّ في صُدورِ جَميعِ الخَلْقِ مِن أنْ يَجْعَلوا غيرَهُ أصلاً، ثمَّ يُشَبِّهونَهُ سبحانَهُ بغيرِهِ.

فالذي يشبِّهُهُ بغيرِهِ إنْ قَصَدَ تعظيمَهُ؛ لم يكنْ في هٰذا تعظيمٌ؛ لأنَّهُ مَثَّلَ

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢).

أعظمَ العظماءِ بما هُو دُونَهُ، بل بما ليسَ بينَهُ وبينَهُ نسبةٌ وشَبَهٌ في العظمةِ والجَلالةِ، وعاقلٌ لا يفعَلُ هٰذا.

وإنْ قَصَدَ التَّنقيصَ شَبَّهَهُ بالنَّاقِصينَ المذمومينَ، لا بالكامِلينَ المَمْدوحِينَ.

ومِن هُنا يُعْلَمُ أنَّ إثباتَ صفاتِ الكمالِ لهُ لا يتضَمَّنُ التَّشبيهَ والتَّمثيلَ، لا بالكامِلينَ ولا بالنَّاقِصينَ، وأنَّ نَفْيَ تلكَ الصِّفاتِ يستَلْزِمُ تشبيهَهُ بأنْقَصِ النَّاقِصينَ.

فانْظُرْ إلى الجهميَّةِ وأتباعِهِم، جاؤوا إلى التَّشبيهِ المذموم، فأعْرَضوا عنهُ صَفْحاً، وجاؤوا إلى الكمالِ والمدحِ فجعلوهُ تشبيهاً وتمثيلاً، عكسَ ما يُثبِتُهُ القرآنُ، وجاءَ بِهِ مِن كُلِّ وجهٍ.

ومِن هٰذا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، هو سَلْبٌ عن المخلوقِ مكافأتَهُ ومماثَلَتَه للخالقِ سبحانَهُ، ولم يقل: ولم يكنْ هُو كُفواً لأحدٍ، فينفي عن نفسِهِ مشابَهتَهُ للمخلوقِ ومكافأتَهُ لهُ، إذ كانَ ذٰلكَ أبْيَنَ وأظْهَرَ مِن أنْ يُحتاجَ إلى نَفْيِهِ.

وسِرُّ ذٰلك أنَّ المقصودَ أنَّ المخلوقَ لا يماثِلُهُ سبحانَهُ في شيءٍ مِن صفاتِهِ وخصائصِه، وأمَّا كونُهُ سبحانَهُ هو لا يُماثِلُ المخلوق، ولا يُشابِهُهُ، ولا هُو نِدٌّ ولا كُفْءٌ؛ فليس فيهِ مدحٌ لهُ.

فإنَّهُ لو مُدِحَ بعضُ الملوكِ أو غيرُهُم بأنَّهُ لا يُشْبِهُ الحيواناتِ، ولا الحجارَةَ، ولا الخَشَبَ، ونحوَ ذٰلك؛ لم يُعَدَّ هٰذا مَدْحاً، ولا ثناءً عليهِ، ولا كمالاً لهُ، بخلافِ ما إذا قيلَ: لا تَجْعَلْ للملكِ نِدًّا ولا كُفُواً ولا شبيهاً مِن رعيَّتِه؛ تُعَظِّمُه كتعظيمِهِ، وتُطيعُهُ كطاعتِهِ؛ فإنَّهُ ليس في رعيَّتِه مَن يُساميهِ، ولا يُماثِلُهُ، ولا يُكافِئُهُ؛ كانَ هٰذا غايَةَ المَدْحِ.

وكذٰلك قولُهُ سبحانَهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: ١١] إنَّما قصدَ بِهِ نفيَ أنْ يكونَ معهُ شريكٌ، أو معبودٌ يستحِقُّ العبادَةَ

والتَّعظيمَ، كما يفعَلُهُ المشبِّهونَ والمشرِكونَ، ولم يَقْصِدْ بهِ نفيَ صفاتِ كمالِهِ، وعُلُوِّهِ على خَلْقِهِ، وتكلُّمِه بكتبهِ، وتكليمِهِ لرُسُلِه، ورؤيةِ المؤمنينَ لهُ جَهْرَةً بأبصارِهِم، كما تُرى الشَّمسُ والقمرُ في الصَّحْوِ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ إنَّما ذكرَ هٰذا في سياقِ ردِّهِ على المُشرِكينَ، الَّذينَ اتَّخذوا مِن دُونِهِ أولياءَ، يوالُونَهُم مِن دُونِهِ، فقالَ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الشُّورى: ٦ - ١١].

فتأمَّلْ كيفَ ذَكَرَ هٰذا النَّفْيَ تقريراً للتَّوحيدِ، وإبطالاً لِما عليهِ أهلُ الشِّرْكِ مِن تشبيهِ آلِهَتِهِم، وأوْليائِهِم بهِ، حتَّى عَبَدوهُم معهُ، فحَرَّفَها المحرِّفونَ، وجَعَلوها تُرْساً لهُم في نفيِ صفاتِ كمالِهِ، وحَقائِقِ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ[١].

وهٰذا التَّشبيهُ الَّذي أبْطَلَهُ اللَّهُ سبحانَهُ نفياً ونَهْياً هو أصلُ شركِ العالَمِ، وعبادَةِ الأصنامِ، ولهٰذا نَهى النبيُّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ أنْ يَسْجُدَ أَحَدٌ لمَخْلوقٍ مثلِهِ، أوْ يَحْلِفَ بِمَخْلوقٍ مِثْلِهِ، أو يُصلِّيَ إلى قبرٍ، أو يقولَ القائلُ: ما شاءَ اللَّهُ وشاءَ فلانٌ[٢]. ونحوُ ذٰلك؛ حَذَراً مِن هٰذا التَّشبيهِ الذي هُو أصلُ الشِّركِ.

---

(١) وهٰكذا سائرُ أهلِ الانحرافِ يُورِدون الدلائل الحقّة، منزِّلين لها على ضلالاتهم وانحرافاتهم وطامّاتهم!
فلْيحذر مِن هٰذا الشَّرَك دُعاةُ الإسلام، ولْيَجْعلوا سبيرَ فهم الكتاب والسنة هو فهم السَّلف الصالح رضوان الله عليهم، فهو صمَّام الأمان من الزَّيغ والافتتان.

(٢) وكلٌّ هٰذا ثبتٌ بالأسانيد الصحيحة.

وأمَّا إثباتُ صفاتِ الكمالِ؛ فهو أصلُ التَّوحيدِ.

فتَبَيَّنَ أنَّ المشبِّهَةَ هُم الَّذينَ يُشَبِّهونَ المخلوقَ بالخالِقِ في العِبادَةِ والتَّعظيمِ والخضوعِ والحَيفِ به، والنَّذْرِ له، والسُّجودِ لهُ، والعُكوفِ عندَ بيتِهِ، وحَلْقِ الرَّأْسِ لهُ، والاستغاثَةِ بهِ، والتَّشريكِ بينَهُ وبينَ اللَّهِ، في قولِهِمْ: ليسَ لي إلَّا اللَّهُ وأنتَ، وأنا مُتَّكِلٌ على اللَّهِ وعليكَ، وهٰذا مِن اللَّهِ ومنكَ، وأنا في حَسَبِ اللَّهِ وحَسَبِكَ، وما شاءَ اللَّهُ وشِئْتَ، وهٰذا للَّهِ ولكَ، وأمثالُ ذٰلك.

فهٰؤلاءِ هُم المشبِّهَةُ حَقًّا، لا أهْلُ التَّوحيدِ، المثْبِتونَ للَّهِ ما أثْبَتَهُ لنفسِهِ، والنَّافونَ عنهُ ما نفاهُ عن نفسِهِ، الَّذينَ لا يجعَلونَ لهُ نِدًّا مِن خَلْقِهِ، ولا عَدْلاً، ولا كُفْئاً، ولا سَمِيًّا، وليس لهُم مِن دُونِهِ وَلِيٌّ ولا شفيعٌ.

فمَنْ تَدَبَّرَ هٰذا الفَصْلَ حَقَّ التَّدَبُّرِ تَبَيَّنَ لهُ كيفَ وَقَعَتِ الفتنَةُ في الأرضِ بعبادَةِ الأصنامِ، ونبيِّنَ لهُ سرُّ القرآنِ في الإنكارِ على هٰؤلاءِ المشبِّهَةِ المُمَثِّلَةِ، ولا سيَّما إذا جَمَعوا إلى هٰذا التَّشبيهِ تعطيلَ الصِّفاتِ والأفعالِ، كما هُو الغالِبُ عليهِم، فيجْمَعونَ بينَ تعطيلِ الرَّبِّ سبحانَهُ عن صفاتِ كمالِهِ، وبينَ تَشبيهِ خَلْقِهِ بهِ.

• استمتاعُ الجِنِّ والإنسِ بعْضِهِم معَ بعضٍ:

وقالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨]؛ يعني: قد استكثَرْتُم مِن إضلالِهِم وإغوائِهِم.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، والحسنُ، وغيرُهُم: «أضْلَلْتُم منهُم كثيراً».

فيُجيبُهُ سُبحانَهُ أولياؤهُمْ مِنَ الإنسِ بقولِهِم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾؛ يعنونَ: استِمْتاعَ كُلِّ نوعٍ بالنَّوعِ الآخَرِ[1].

---

(١) قال الشيخ محمد حامد الفقي ﷺ تعليقاً على الأصل: «الاستمتاعُ: التوسُّع في -

فاسْتِمْتاعُ الجِنِّ بالإِنسِ طاعَتُهُم لهُم فيما يأْمُرونَهُم بِهِ؛ من الكُفْر، والفُسوقِ، والعِصيانِ، فإنَّ هٰذا أكثرُ أغراضِ الجِنِّ مِن الإِنسِ، فإذا أطاعُوهُم فيهِ؛ فقد أعْطَوْهُم مُناهُم.

واستِمْتاعُ الإِنسِ بالجِنِّ: أنَّهُم أعانُوهُم على مَعصِيَةِ اللَّهِ تعالى، والشِّرْكِ بهِ بكلِّ ما يقدِرونَ عليه: مِن التَّحسينِ، والتَّزيينِ، والدُّعاءِ، وقضاءِ كثيرٍ مِن حوائِجِهِم، واستِخدامِهِم بالسِّحْرِ والعزائِمِ وغيرِها، فأطاعَهُم الإِنسُ فيما يُرضيهِم مِن الشِّرْكِ والفواحِشِ والفُجورِ. وأطاعَتْهُمُ الجِنُّ فيما يُرضِيهِم؛ مِن التَّأْثيراتِ، والإِخبارِ ببعضِ المغيَّباتِ.

فتمَتَّعَ كُلٌّ مِن الفريقينِ بالآخَرِ.

وهٰذه الآيةُ منطَبِقَةٌ على أصحابِ الأحْوالِ الشَّيطانيَّةِ[1] الَّذينَ لهُم كُشوفٌ شيطانيَّةٌ وتأْثيرٌ شيطانيٌّ. فيَحْسَبُهُم الجاهِلُ أولياءَ الرَّحمٰنِ. وإنَّما هُم مِن أولياءِ الشَّيطانِ[2]، أطاعوهُ في الإِشراكِ، ومعصيةِ اللَّهِ، والخُروجِ عمَّا بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، وأنزَلَ بهِ كُتُبَهُ، فأطاعَهُم في أنْ خَدَمَهُم بإخبارِهِم بكثيرٍ مِن المغيَّباتِ والتأْثيراتِ، واغترَّ بهِم مَن قلَّ حَظُّهُ مِن العلمِ والإِيمانِ فوالى أعداءَ اللَّهِ، وعَادى أولياءَهُ، وحَسَّنَ الظَّنَّ بمَنْ خرَجَ عن سبيلِهِ وسُنَّتِهِ، وأساءَ الظَّنَّ بمَنِ اتَّبَعَ سُنَّةَ الرَّسولِ وما جاءَ بهِ، ولم يَدَعْها لأقوالِ المختَلِفينَ، وآراءِ المتحيِّرينَ، وشَطَحاتِ المارِقينَ، وتُرَّهاتِ المتصوِّفينَ.

= الانتفاع، والمعنى: أنَّ كلَّ واحد من شياطين الجنِّ والإنس انتفع بخدمةِ الآخر، وبلغ غايتَه وأمنيّته. فشيطانُ الجنِّ بغيتُه وأمنيَّتُه إضلالُ بني آدم، وإغواؤهم، وقطعُهم عن ربِّهم بالكُفر به.

وغايةُ شيطان الإنس وأمنيَّته: رياسةُ الدنيا، ومتاعُها، وطاعةُ الخَلْق له، وتعظيمُهم له، وتقديسُهم إيّاه بأنَّه جاسوس قلوبهم، ومالكُ أمرِهم، والمتصرِّفُ في كلِّ شأنهم».

(١) وهم مدَّعو الكرامة، ومُنْتَحِلو الولاية!!

(٢) ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالةٌ بديعةٌ بعنوان: «الفُرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان».

والبصيرُ الَّذي نَوَّرَ اللَّهُ بصيرَتَهُ بنورِ الإيمانِ والمعرفةِ إذا عَرَفَ حقيقةَ ما عليهِ أكثرُ هٰذا الخَلْقِ، وكانَ ناقِداً، لا يَروجُ عليهِ الزَّغَلُ، تَبَيَّنَ لهُ أَنَّهُم دَاخِلُونَ تحتَ حُكْمِ هٰذه الآيةِ، وهي منطبِقةٌ عليهِم.

فالفاسِقُ يستَمْتِعُ بالشَّيْطانِ، بإعانَتِه لهُ على أسبابِ فُسوقِهِ، والشَّيطانُ يستَمْتِعُ بهِ في قَبولِهِ منهُ، وطاعَتِهِ لهُ فَيَسُرُّهُ ذٰلك، ويفرَحُ بهِ منهُ.

والمُشْرِكُ يستَمْتِعُ بهِ الشَّيطانُ بشِرْكِه بهِ، وعبادَتِهِ لهُ، ويستَمْتِعُ هو بالشَّيطانِ في قضاءِ حوائِجِهِ، وإعانَتِه لهُ[1].

ومَن لم يُحِطْ علماً بهٰذا لم يَعْلَم حَقيقةَ الإيمانِ والشِّرْكِ، وسرَّ امتحانِ الرَّبِّ سبحانَهُ كُلًّا مِن الثَّقَلَيْنِ بالآخَرِ.

ثمَّ قالوا: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾، وهو يتناوَلُ أجَلَ الموتِ، وأجَلَ البَعْثِ، فكلاهُما أجلٌ أَجَّلَهُ اللَّهُ تعالى لعبادِهِ، وهُما الأجَلانِ اللَّذانِ قالَ اللَّهُ فيهِما: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

وكأَنَّ هٰذا ـ واللَّهُ أعلمُ ـ إشارةٌ منهُم إلى نوعِ استعْطافٍ وتوبةٍ، فكأَنَّهُم يقولونَ: هٰذا أمرٌ قد كانَ إلى وقتٍ، وانقطَعَ بانقطاعِ أَجَلِه، فلم يستَمِرَّ، ولم يَدُمْ، فبلَغَ الأمْرُ الَّذي كَانَ أجَلَهُ، وانتهى إلى غايَتِهِ، ولكلِّ شيءٍ آخِرٌ، فقالَ تَعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ فإنَّهُ وإنِ انقَطَعَ زمنُ التَّمتُّعِ وانقضى أَجَلُهُ، فقد بَقِيَ زَمَنُ العُقوبَةِ، فلا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ إذا انْقَضى زَمَنُ الكُفْرِ والشِّرْكِ، وتَمَتَّعَ بعضُكُم ببعضٍ، أنَّ مفسدَتَهُ زالَتْ بزوالِهِ، وانتهتْ بانتهائِهِ.

والمقصودُ أَنَّ الشَّيطانَ تَلاعَبَ بالمُشْرِكينَ حتَّى عَبَدُوهُ، واتَّخذوهُ وذُرِّيَّتَهُ أولياءَ مِن دُونِ اللَّهِ.

◐ فِرْعَوْنُ:

ثمَّ سرى هذا الدَّاءُ في الأمَمِ، وفي فِرَقِ المعطِّلَةِ.

---

(١) انظر: «تجريد التوحيد المفيد» (ص٥٢) للمقريزي، بتحقيقي.

فكانَ منهُم إمامُ المعطِّلينَ فرعَوْنُ؛ فإنَّهُ أخرَجَ التَّعطيلَ إلى العَمَلِ، وصرَّحَ بِهِ، وأذَّنَ بِهِ بينَ قومِهِ، ودَعا إليهِ، وأنْكَرَ أنْ يكونَ لقومِهِ إلٰهٌ غيرُه، وأنكَرَ أنْ يكونَ اللَّهُ تعالى فوقَ سماواتِه على عرشِهِ، وأنْ يكونَ كلَّمَ عبدَهُ موسى تكليماً، وكَذَّبَ موسى في ذٰلك، وطَلَبَ مِن وزيرِهِ هامانَ أنْ يَبْنِيَ لهُ صرحاً ليَطَّلِعَ - بزعْمِهِ - إلى إلٰهِ موسى عليه السلام، وكَذَّبَهُ في ذٰلك[1]، فاقْتَدَى بِهِ كُلُّ جَهْمِيٍّ، فَكَذَّبَ أنْ يكونَ اللَّهُ مكَلِّماً متكلِّماً، أو أنْ يكونَ فوقَ سماواتِه على عَرْشِهِ، بائناً[2] مِن خَلْقِهِ، على العرشِ استوى، ودَرَجَ قومُهُ وأصحابُهُ على ذٰلك، حتَّى أهْلَكَهُم اللَّهُ تعالى بالغَرَقِ، وجَعَلَهُم عِبرةً لعبادِهِ المؤمِنينَ، ونَكالاً لأعدائِهِ المعطِّلينَ.

ثمَّ استمرَّ الأمرُ على عهدِ نبوَّةِ موسى كليم الرَّحمٰنِ، على التَّوحيدِ وإثباتِ الصِّفاتِ، وتكليمِ اللَّهِ لعبدِهِ موسى تكليماً، إلى أنْ تُوُفِّيَ موسى عليه السلام، ودَخَلَ الدَّاخِلُ على بني إسرائيلَ، ورَفَعَ التَّعطيلُ رأْسَهُ بينَهم، وأقبلوا على علومِ المعطِّلَةِ، أعداءِ موسى عليه السلام، وقدَّموها على نصوصِ التَّوراةِ، فسلَّطَ اللَّهُ تعالى عليهِم مَن أزالَ مُلْكَهُم، وشرَّدَهُم مِن أوطانِهِم، وسَبَى ذَرارِيَهُمْ، كما هي عادَتُهُ سبحانَهُ، وسُنَّتُه في عبادِهِ إذا أعْرَضوا عَنِ الوَحيِ، وتَعَوَّضوا عنهُ بكلامِ الملاحِدَةِ والمعطِّلَةِ مِن الفلاسِفَةِ وغيرِهِم، كما سَلَّطَ النَّصارى على بلادِ المغرِبِ لمَّا طهرَتْ فيها الفلسَفَةُ والمنْطِقُ، واشْتَغَلوا بها، فاستولَت النَّصارى على أكثرِ بلادِهِم، وأصاروهُم رعيَّةً لهُم.

---

(١) وهو ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]

وللأخ الفاضل أسامة القصاص رحمه الله كتابٌ كبيرٌ عنوانه: «إثبات علوّ الرحمٰن من قول فرعون لهامان»، وهو فريدٌ في بابه، ماتعٌ في لُبابه.

فليتنبه المسلمون وطلبة العلم، وليعلموا أنَّ خلافَهم مع الآخرين من أهل البدع والضلال خلافٌ منهجيٌّ عقديٌّ...

فالله يرحم أخانا أسامة، ويعفو عنه، ويكرم نُزُله، ويجمعنا وإياه في الفردوس الأعلى بمنّه وكرمه.

(٢) أي: منفصلاً عنهم، غير ممازجٍ لهم.

وكذلك لمَّا ظهَرَ ذلك ببلادِ المشرِقِ؛ سَلَّطَ اللَّهُ عليهِم عساكِرَ التَّتارِ، فأبادوا أكثرَ البلادِ الشَّرقيَّةِ، واستَوْلَوْا عليها. وكذلك في أواخِرِ المئةِ الثَّالِثَةِ، وأوَّلِ الرَّابِعَةِ، لمَّا اشتَغَلَ أهلُ العراقِ بالفلسَفَةِ وعلومِ أهلِ الإلحادِ سَلَّطَ عليهِمُ القَرامِطَةَ الباطِنِيَّةَ، فكَسَروا عسكَرَ الخَليفةِ عِدَّةَ مرَّاتٍ، واستَوْلَوْا على الحاجِّ، واستعرَضُوهُم قتلاً وأسراً، واشتَدَّتْ شوكَتُهُم. واتُّهِمَ بموافَقَتِهِم في الباطِنِ كثيرٌ مِن الأعيانِ، مِن الوُزراءِ والكُتَّابِ، والأدباءِ وغيرِهِم، واستولى أهلُ دَعْوَتِهِم على بلادِ المغربِ، واستقرَّتْ دارُ مملَكَتِهِم بمِصْرَ[1]، وبُنِيَتْ في أيَّامِهِمُ القاهرةُ، واستَوْلَوْا على الشَّامِ والحجازِ واليمنِ والمغربِ، وخُطِبَ لهُم على مِنْبَرِ بغدادَ.

والمقصودُ أنَّ هٰذا الدَّاءَ لمَّا دَخَلَ في بَني إسرائيلَ كَانَ سبَبَ دَمارِهِمْ وزَوالَ مَملَكَتِهِم.

• النَّصارى:

ثُمَّ بعثَ اللَّهُ سبحانَهُ عبدَهُ ورسولَهُ وكلمتَهُ المسيحَ ابنَ مريمَ، فجَدَّدَ لهُم الدِّينَ، وبيَّنَ لهُم معالِمَهُ، ودَعاهُم إلى عِبادةِ اللَّهِ وحدَهُ، والتَّبَرِّي مِن تلك الأحداثِ والآراءِ الباطلةِ، فعادَوْهُ، وكَذَّبوهُ، ورمَوْهُ وأُمَّهُ بالعظائِمِ. وراموا قَتْلَهُ، فطهَّرَهُ اللَّهُ تعالى منهُم، ورفَعَهُ إليه، فلم يَصِلُوا إليهِ بسوءٍ.

وأقامَ اللَّهُ تعالى للمسيحِ أنصاراً دَعَوْا إلى دِينِهِ وشريعَتِهِ، حتَّى ظَهَرَ دِينُهُ على مَن خالَفَهُ، ودَخَلَ فيهِ الملوكُ، وانتَشَرَتْ دعوتُهُ. واستقامَ الأمْرُ على السَّدادِ بعدَهُ نحوَ ثلاث مئةِ سنةٍ.

ثُمَّ أخَذَ دينُ المسيحِ في التَّبديلِ والتَّغييرِ، حتَّى تناسَخَ واضمَحَلَّ. ولم يَبْقَ بأيدي النَّصارى منهُ شيءٌ، بل رَكَّبُوا دِيناً بينَ دينِ المسيحِ ودينِ الفلاسفةِ

---

(١) قال الشيخ محمد حامد الفقي تعليقاً على الأصل: «هُم العُبيديون المُدَّعون كذباً وزوراً أنهم فاطميُّون...».

عُبَّادِ الأصنامِ، وراموا بذٰلك أنْ يَتَلَطَّفوا للأمَمِ حتى يُدْخِلوهُم في النَّصرانِيَّةِ، فنَقَلوهُم مِن عِبادَةِ الأصنامِ المجسَّدَةِ إلى عِبادَةِ الصُّوَرِ الَّتي لا ظِلَّ لها، ونَقَلوهُم مِن السُّجودِ للشَّمْسِ إلى السُّجودِ إلى جهةِ المشرِقِ، ونقلُوهُم مِن القولِ باتِّحادِ العاقِلِ والمعقولِ والعقلِ[1] إلى القولِ باتِّحادِ الأبِ والابنِ وروحِ القُدُس.

هٰذا ومعهُم بقايا مِن دينِ المسيحِ؛ كالخِتانِ، والاغتسالِ مِن الجَنابَةِ، وتعظيمِ السَّبْتِ، وتحريمِ الخنزيرِ، وتحريمِ ما حرَّمَتْهُ التَّوراةُ، إلَّا مَ أُحِلَّ لهُم بنصِّها.

ثمَّ تناسَخَتِ الشَّريعَةُ إلى أنِ استحَلُّوا الخِنزيرَ، وأحلُّوا السَّبتَ، وعوَّضوا منهُ يومَ الأحَدِ، وتَركوا الخِتانَ، والاغتسالَ مِن الجَنابَةِ، وكانَ المسيحُ يُصلِّي إلى بيتِ المقدسِ فصَلَّوْا هُم إلى المشرِقِ، ولم يُعَظِّمِ المسيحُ ﷺ صَليباً قطُّ، فعَظَّمُوا هُم الصَّليبَ، وعَبَدوهُ، ولم يَصُمِ المسيحُ ﷺ صوْمَهُم هٰذا أبداً، ولا شَرَعَهُ، ولا أمَرَ بهِ ألبتَّةَ، بل هُم وَضَعُوهُ على هٰذا العَدَدِ، ونَقَلوهُ إلى زمَنِ الرَّبيعِ، فجَعَلوا ما زادوا فيهِ مِن العدَدِ عِوَضاً عن نقلِهِ مِن الشُّهورِ الهِلاليَّةِ إلى الشُّهورِ الرُّومِيَّةِ، وتَعَبَّدوا بالنَّجاساتِ، وكانَ المسحُ ﷺ في غايَةِ الطَّهارَةِ والطِّيبِ والنَّظافَةِ، وأبْعَدَ الخَلْقِ عنِ النَّجاسَةِ. فقصَدوا بذٰلك تغييرَ دِينِ اليَهودِ، ومُراغَمَتَهُم، فغَيَّروا دِينَ المسيحِ[2]، وتَقَرَّبوا إلى الفلاسفَةِ وعُبَّادِ الأصنامِ، بأنْ وافَقوهُم في بعضِ الأمْرِ ليُرْضُوهُمْ بهِ، ولِيَسْتَنْصِروا بذٰلك على اليَهودِ.

ولمَّا أخَذَ دِينُ المسيحِ ﷺ في التَّغييرِ والفسدِ اجْتَمَعَتِ النَّصارى عدَّةَ مجامِعَ تزيدُ على ثمانينَ مجمَعاً، ثمَّ يتفرَّقونَ على الاختلافِ والتَّلاعُنِ يلْعَنُ بعضهم بعضاً، حتَّى قالَ فيهِم بعضُ العُقلاءِ:

---

(١) وهي من اعتقادات الفلاسفة والوثنيِّين.

(٢) ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتابٌ كبيرٌ في مجلَّدين اسمه: «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» وهو عظيمٌ جداً.

«لو اجتمعَ عشرةٌ مِن النَّصارى يتكَلَّمونَ في حقيقةِ ما هُم عليهِ؛ لتفَرَّقوا عن أحدَ عشرَ مذهباً».

فهٰذه حالُ المتقدِّمينَ معَ قُرْبِ زمانِهِم مِن أيَّامِ المسيحِ، ووُجودِ أخبارِهِ فيهِم، والدَّولَةُ دولَتُهُم، والكلمَةُ كلِمَتُهُم، وعُلماؤهُم إذ ذاكَ أوْفَرُ ما كانُوا، واهتمامُهُم بأمْرِ دينِهِم واحتفالُهُم بهِ كما ترى. وهُم حَيارى تائِهونَ، ضالُّونَ مُضِلُّونَ، لا يثْبُتُ لهُم قَدَمٌ، ولا يستَقِرُّ لهُم قولٌ في إلٰهِهِم، بل كلٌّ منهُم قد اتَّخَذَ إلٰهَهُ هَواهُ، وصرَّحَ بالكُفْرِ والتَّبَرِّي مِمَّن اتَّبَعَ سِواهُ، قد تفرَّقَتْ بهِم في نبيِّهِم وإلهِهِم الأقاويلُ، وهُم كما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فلو سألْتَ أهلَ البيتِ الواحِدِ منهُم عن دِينِهِم ومعتَقَدِهِم في ربِّهِم ونبيِّهِم؛ لأجابَكَ الرَّجُلُ بجوابٍ، وامرأتُهُ بجوابٍ، وابنُهُ بجوابٍ، والخادِمُ بجوابٍ، فما ظنُّكَ بمَنْ في عَصْرِنا هٰذا، وهُم نُخالَةُ الماضينَ، وزُبَالَةُ الغابرينَ، ونُفايَةُ المتحيِّرينَ؟ وقد طالَ عليهِمُ الأمَدُ، وبَعُدَ عهدُهُم بالمسيحِ ودينِهِ.

وهٰؤلاءِ هُم الَّذين أوْجَبوا لأعداءِ الرُّسُلِ ـ مِن الفلاسِفَةِ والمَلاحِدَةِ ـ أنْ يَتَمَسَّكوا بما هُم عليهِ، فإنَّهُم شرحوا لهُم دِينَهُم الذي جاءَ بهِ المسيحُ على هٰذا الوجهِ، ولا ريبَ أنَّ هٰذا دينٌ لا يقْبَلُهُ عاقلٌ، فتَواصى أولٰئكَ بينَهُم أنْ يتَمَسَّكوا بما هُم عليهِ، وساءَتْ ظُنونُهُم بالرُّسُلِ والكُتُبِ، ورأَوْا أنَّ ما هُم عليهِ مِن الآراءِ أقربُ إلى المعقولِ مِن هٰذا الدِّينِ، وقالَ لهُم هؤلاءِ الحَيارى الضُّلَّالُ: إنَّ هٰذا هو الحقُّ الذي جَاءَ بهِ المسيحُ، فترَكَّبَ مِن هٰذينِ الظَّنَّيْنِ الفاسِدَيْنِ إساءَةُ الظَّنِّ بالرُّسُلِ، وإحسانُ الظَّنِّ بما هُم عليهِ.

○ ضلالُهُمْ:

ومِن المعلومِ أنَّ هٰذه الأمَّةَ[1] ارتكبَتْ محذورَيْنِ عظيمَيْنِ، لا يَرْضى بهِما ذو عقلٍ ولا معرفةٍ:

---

(١) أي: النصارى.

أحدُهُما: الغلوُّ في المخلوقِ، حتى جَعَلوهُ شريكَ الخالِقِ وجُزءاً منهُ، وإلٰهاً آخرَ معهُ، وأَنِفُوا أنْ يكونَ عبداً لهُ.

والثَّاني: تَنَقُّصُ الخالِقِ وسَبُّهُ، ورَميهُ بالعظائمِ، حيثُ زَعَموا أنّهُ ـ ﷻ عن قولِهِم عُلوًّا كبيراً ـ نزلَ مِن العرشِ عن كُرسِيِّ عظمَتِهِ، ودَخَلَ في فَرْجِ امرأةٍ، وأقامَ هناكَ تسعةَ أشهرٍ يتَخَبَّطُ بينَ البَوْلِ والدَّمِ والنَّجْوِ[1]، وقدْ عَلَتْهُ أطباقُ المَشيمَةِ والرَّحِمِ والبَطْنِ، ثمَّ خَرَجَ مِن حيثُ دَخَلَ، رضيعاً، صغيراً، يمصُّ الثَّديَ، ولُفَّ في القُمُطِ، وأُودِعَ السَّريرَ، يبكي ويَجوعُ، ويعطَشُ، ويَبُولُ، ويتَغَوَّطُ، ويُحملُ على الأَيْدِي والعواتِقِ، ثمَّ صارَ إلى أنْ لَطَمَتْ اليهودُ خَدَّيْهِ، ورَبَطوا يدَيْهِ، وبَصَقُوا في وجهِهِ، وصَفَعوا قَفاهُ، وصَلَبوهُ جهراً بينَ لِصَّيْنِ، وألبسوهُ إكليلاً من الشَّوكِ، وسَمَّروا يديهِ ورجْلَيْهِ، وجَرَّعوهُ أعظمَ الآلامِ، هٰذا وهو الإِلٰهُ الحَقُّ الَّذي بيدِهِ أُتقِنَتْ العوالِمُ، وهو المعبودُ المسجودُ لهُ.

ولَعَمْرُ اللَّهِ إنَّ هٰذه مَسَبَّةٌ للَّهِ سبحانَه ما سبَّهُ بها أحدٌ مِن البَشَرِ قبلَهُم ولا بعدَهُم، كما قالَ تَعالى، فيما يحكي عنهُ رسولُهُ الَّذي نَزَّهَهُ ونَزَّهَ أخاهُ المسيحَ عن هٰذا الباطِلِ الذي ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم: ٩٠]، فقال: «شتَمَني ابنُ آدَمَ وما ينْبَغي لهُ ذٰلك، وكَذَّبني ابنُ آدَمَ وما ينْبَغي لهُ ذٰلك، أمّا شَتْمُهُ إيّايَ؛ فقولُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ ولَداً، وأنا الأحَدُ، الصَّمَدُ، الذي لَم أَلِدْ، ولمْ أُولَدْ، ولم يَكُنْ لي كُفواً أحدٌ. وأمَّا تكذيبُهُ إيَّايَ؛ فقولُهُ: لنْ يُعيدَني كَما بَدَأني. وليسَ أوَّلُ الخَلْقِ بأَهْوَنَ عليَّ مِن إعادَتِهِ»[2].

وقالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ في هٰذه الأُمَّةِ: «أَهِينُوهُمْ ولا تَظْلِمُوهُم، فلقَدْ سَبُّوا اللَّهَ ﷻ مَسَبَّةً ما سَبَّهُ إيَّاها أحدٌ مِن البشرِ».

ولَعَمْرُ اللَّهِ؛ إنَّ عُبَّادَ الأصنامِ، مع أَنَّهُم أعداءُ اللَّهِ ﷻ على الحقيقةِ،

---

(١) الأذى.

(٢) رواه البخاري (٨/٨٣٩) عن أبي هُريرة.

وأعداءُ رُسُلِهِ ﷺ، وأشدُّ الكُفَّارِ كُفراً؛ يأْنَفونَ أنْ يَصِفوا آلهتَهُمُ الَّتي يعبُدونَها مِن دُونِ اللَّهِ تَعالى ـ وهِيَ مِن الحجارَةِ، والحَديدِ، والخَشبِ ـ بمثْلِ ما وَصَفَتْ بهِ هٰذه الأمَّةُ ربَّ العالَمينَ، وإِلٰهَ السَّماواتِ والأرَضينَ، وكانَ اللَّهُ تعالى في قُلوبِهِم أجَلَّ وأعظَمَ مِن أنْ يَصِفُوهُ بذٰلك، أو بما يُقارِبُهُ، وإنَّما شِرْكُ القومِ أنَّهُم عَبَدوا مِن دُونِهِ آلهةً مخلوقةً مربوبةً مُحْدَثَةً، وزَعَمُوا أنّها تُقَرِّبُهُم إليهِ، لم يجْعَلوا شَيْئاً مِن آلهتِهِم كُفُواً لهُ، ولا نَظيراً، ولا ولداً، ولم ينالوا مِن الرَّبِّ تَعالى ما نالَتْ منهُ هٰذه الأمَّةُ.

○ أَصلُ عقيدَتِهِم:

وعُذْرُهُم في ذٰلك أقبَحُ مِن قولِهِم، فإنَّ أصلَ معتَقَدِهِم[1]: أنَّ أرواحَ الأنبياءِ ﷺ كانتْ في الجَحيم في سجنِ إبليسَ. من عهدِ آدمَ إلى زمَنِ المسيحِ، فكانَ إبراهيمُ وموسى ونُوحٌ وصالحٌ وهُودٌ مُعَذَّبينَ مسجونينَ في النَّارِ بسببِ خَطيئةِ آدمَ ﷺ، وأكلِهِ مِن الشَّجَرَةِ، وكانَ كُلَّما ماتَ واحدٌ مِن بَني آدمَ أخَذَهُ إبليسُ وسَجَنَهُ في النَّارِ بذَنْبِ أبيهِ. ثمَّ إنَّ اللّهَ ﷻ لمّا أرادَ رحمتَهُم وخَلاصَهُم مِن العذابِ؛ تَحَيَّلَ على إبليس بحيلةٍ، فنَزَلَ عن كُرسيِّ عظَمَتِهِ، والتحَمَ ببطْنِ مريمَ، حتَّى وُلِدَ وكَبُرَ وصارَ رجلاً، فمكَّنَ أعداءَهُ ليهودَ مِن نفسِهِ، حتَّى صَلَبوهُ، وتَوَّجوهُ بالشَّوكِ على رأْسِهِ، فخَلَّصَ أنبياءَهُ ورُسُلَهُ، وفَداهُم بنفْسِهِ ودَمِهِ، فهَرَقَ دَمَهُ في مرضاةِ جَميعِ وَلَدِ آدَمَ، إذ كَانَ ذنبُهُ باقياً في أعناقِ جَميعِهِم، فخَلَّصَهُم منهُ بأنْ مَكَّنَ أعداءَهُ مِن صَلْبِهِ، وتَسْميرِهِ وصَفْعِهِ، إلَّا مَن أنْكَرَ صَلْبَهُ أو شكَّ فيهِ، أو قالَ: بأنَّ اللّهَ يَجِلُّ عَن ذٰلك، فهو في سجنِ إبليسَ مُعَذَّبٌ حتى يُقِرَّ بذٰلك، وأنَّ إلٰهَهُ صُلِبَ وصُفِعَ وسُمِّرَ!!

فنَسَبوا الإِلٰهَ الحقَّ سبحانَهُ إلى ما يأْنَفُ أسقَطُ النَّاسِ وأقَلُّهُم أنْ يفْعَلَهُ بمملوكِهِ وعَبْدِه، وإلى ما يأْنَفَ عُبَّادُ الأصنامِ أنْ يُنْسَبَ إليهِ أوثانُهُم،

---

(١) لذٰلك يسمُّونها (عقيدة الصَّلب والفداء).

وكَذَّبوا اللَّهَ ﷻ في كونِهِ تابَ على آدَمَ ﷺ وغَفَرَ لهُ خَطيئَتَهُ، ونَسَبُوهُ إلى أَقْبَحِ الظُّلْمِ، حيثُ زَعَموا أَنَّهُ سَجَنَ أنبياءَهُ وأولياءَهُ في الجَحيمِ، بسبَبِ خَطيئةِ أبيهِم، ونَسَبوهُ إلى غايَةِ السَّفَهِ، حيثُ خَلَّصَهُم مِن العذابِ بتَمْكِينِهِ أعداءَهُ مِن نفسِهِ، حتَّى قَتَلوهُ، وصَلَبوهُ، وأراقُوا دَمَهُ، ونَسبوهُ إلى غايةِ العَجْزِ، حيثُ عَجَّزوهُ أنْ يُخَلِّصَهُم بقُدْرَتِهِ مِن غيرِ هٰذه الحِيلةِ، ونَسَبوهُ إلى غايَةِ النَّقْصِ، حيثُ سَلَّطَ أعداءَهُ على نفسِهِ وابنِهِ، ففَعَلوا بهِ ما فَعَلوا.

وبالجملةِ؛ فلا نعلمُ أُمَّةً مِن الأُمَمِ سبَّتْ ربَّها ومعبودَها وإلٰهَها بما سَبَّتْ بهِ هٰذه الأُمَّةُ كما قالَ عُمَرُ ﷺ: «إِنَّهُم سَبُّوا اللَّهَ مَسَبَّةً مَا سَبَّهُ إِيَّاها أحدٌ مِن البَشَرِ».

وكانَ بعضُ أئمَّةِ الإسلامِ إذا رأى صَليباً أغمَضَ عينَيْهِ عنهُ، وقالَ: لا أستطيعُ أنْ أملأَ عينَيَّ مِمَّن سَبَّ إلٰهَهُ ومعبودَهُ بأقبحِ السَّبِّ.

ولهٰذا قالَ عُقلاءُ المُلوكِ: إنَّ جِهادَ هٰؤلاءِ واجِبٌ شَرْعاً وعَقلاً؛ فإنَّهُم عارٌ على بَني آدَمَ، مُفْسِدونَ للعُقولِ والشَّرائعِ.

○ تَعظيمُهُم الصَّليبَ:

ومِن العَجيبِ أَنَّهُم يقرؤونَ في التَّوراةِ: «مَلعونٌ مَنْ تَعَلَّقَ بالصَّليبِ»، وهُم قد جَعَلوا شعارَ دينِهِم ما يُلعَنونَ عليه، ولو كانَ لهُم أَدْنى عقلٍ؛ لكانَ الأَوْلى بهِم أنْ يُحرِّقوا الصَّليبَ حيثُ وجَدوهُ، ويُكَسِّروهُ، ويُضَمِّخوهُ بالنَّجاسَةِ؛ فإنَّهُ قد صُلِبَ عليهِ إلٰهُهُم ومعبودُهُم بزَعْمِهِم، وأُهينَ عليهِ، وفُضِحَ، وخُزِيَ.

فيا للعَجَبِ! بأيِّ وجهٍ ـ بعدَ هٰذا ـ يستَحِقُّ الصَّليبُ التَّعظيمَ، لولا أنَّ القومَ أضلُّ مِن الأنعامِ.

وتعظيمُهُم للصَّليبِ ممَّا ابْتَدَعوهُ في دينِ المسيحِ بعدَهُ بزمانٍ، ولا ذِكْرَ لهُ في الإنجيلِ ألبتَّةَ، وإنَّما ذُكِرَ في التَّوراةِ باللَّعْنِ لمَن تَعَلَّقَ بهِ، فاتَّخَذَتْهُ هٰذه الأُمَّةُ معبوداً يسجُدونَ لهُ، وإذا اجتَهَدَ أَحَدُهُم في اليمينِ، بحيثُ لا يَحْنَثُ ولا

يَكْذِبُ؛ حَلَفَ بالصَّليبِ، ويكذِبُ إذا حَلَفَ باللَّهِ، ولا يكذِبُ إذا حَلَفَ بالصَّليبِ، ولو كانَ لهٰذه الأمَّةِ أدْنى مُسْكَةٍ مِن عقلٍ لكانَ ينْبَغي لهُم أنْ يَلْعَنوا الصَّليبَ مِن أجلِ معبودِهِم وإلٰهِهِم حينَ صُلِبَ عليهِ؛ كما قالوا: إنَّ الأرْضَ لُعِنَتْ من أجلِ آدَمَ حينَ أخطأَ، وكما لُعِنَتِ الأرضُ حينَ قتلَ قابيلُ أخاهُ، وكما في الإنجيلِ: «إنَّ اللَّعْنَةَ تنزِلُ على الأرْضِ إذا كانَ أُمراؤها الصِّبيانَ».

فلو عَقَلوا لكانَ ينْبَغِي لهُم أنْ يَحْمِلوا صَليباً، ولا يَمَسُّوهُ بأيديهِم، ولا يذكُروهُ بألسِنَتِهم، وإذا ذُكِرَ لهُم سَدُّوا مسامِعَهُم عن ذِكرِه.

ولقد صَدَقَ القائلُ: «عَدُوٌّ عاقلٌ خيرٌ مِن صديقٍ أحمقَ»؛ لأنَّهُم بحُمْقِهِم قصَدوا تعظيمَ المسيحِ، فاجتَهَدُوا في ذَمِّهِ وتَنَقُّصِهِ والإزراءِ بهِ والطَّعْنِ عليهِ، وكانَ مقصودُهُم بذٰلك التَّشنيعَ على اليهودِ، وتَنْفيرَ النَّاسِ عنهُم، وإغراءَهُم بهِم، فنَفَّروا الأمَمَ عن النَّصرانيَّةِ، وعنِ المسيحِ ودِينِهِ أعظمَ تنفيرٍ، وعَلِموا أنَّ الدِّينَ لا يقومُ بذٰلك، فوَضعَ لهُم رُهبانُهُم وأساقِفَتُهُم مِن الحِيَلِ والمَخاريقِ وأنواعِ الشَّعْبَذَةِ ما استمالوا بهِ الجُهَّالَ، ورَبطوهُمْ بهِ، وهُم يستَجيزونَ ذٰلك، ويستَحْسِنونَه، ويقولونَ: يَشُدُّ دينَ النَّصرانيَّةِ.

وكأنَّهُم إنَّما عَظَّموا الصَّليبَ لمَّا رأَوْهُ قد ثَبَتَ لصَلْبِ إلٰهِهِم، ولم ينْشَقَّ ولم يتطايَرَ، ولم يَتَكَسَّرَ مِن هَيْبَتِه لمَّا حُمِلَ عليهِ، وقد ذَكَروا أنَّ الشمسَ اسوَدَّتْ، وتَغَيَّرَ حالُ السَّماءِ والأرْضِ، فلمَّا لم يتَغَيَّرِ الصَّليبُ ولم يَتطايَرْ؛ استَحَقَّ عندَهُم التَّعظيمَ، وأنْ يُعْبَدَ.

ولقد قالَ بعضُ عُقلائِهِم: إنَّ تعظيمَنا للصَّليبِ جارٍ مَجْرى تعظيمِ قُبورِ الأنبياءِ؛ فإنَّهُ كانَ قبرَ المسيحِ وهُو عليهِ، ثمَّ لمَّا دُفِنَ صارَ قبرُهُ في الأَرْضِ! وليسَ وراءَ هٰذا الحُمْقِ حُمْقٌ، فإنَّ السُّجودَ لقبورِ الأنبياءِ وعبادَتَها شِرْكٌ، بل مِن أعظَمِ الشِّرْكِ، وقد لعنَ إمامُ الحُنفاءِ وخاتَمُ الأنبياءِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ اليهودَ والنَّصارى، حيثُ اتَّخذوا قُبورَ أنبيائِهِم مساجِدَ، وأصلُ الشِّركِ وعبادَةِ الأوْثانِ مِن العُكوفِ على القُبورِ، واتِّخاذِها مساجدَ.

ثمَّ يُقالُ: فأنتُمْ تُعظِّمونَ كُلَّ صليبٍ، لا تَخُصُّونَ لتَّعظيمَ بذلك الصَّليبِ بعَيْنِهِ.

فإنْ قُلْتُم: الصَّليبُ مِن حيثُ هو يُذَكِّرُ بالصَّليبِ الَّذي صُلِبَ عليهِ إلٰهُنا!

قُلْنا: وكذٰلك الحُفَرُ تُذَكِّرُ بحفرَتِهِ، فعَظِّموا كُلَّ حُفرةٍ، واسجُدُوا لها؛ لأنَّها كحُفْرَتِهِ أيضاً، بل أولى؛ لأنَّ خَشَبَةَ الصَّلْبِ لم يستَقِرَّ عليها استقرارَهُ في الحفرَةِ.

ثمَّ يُقالُ: اليدُ التي مَسَّتْهُ أولى أنْ تُعَظَّمَ مِن الصَّليبِ، فعَظِّموا أيادي اليَهودِ لِمَسِّهِمْ إيَّاهُ وإمساكِهِم لهُ، ثمَّ انْقُلوا ذٰلك التَّعظيمَ إلى سائِرِ الأيْدي.

فإنْ قُلْتُم: مَنَعَ مِن ذٰلك مانِعُ العداوَةِ، فعندَكُم أنَّهُ هو الَّذي رَضِيَ بذٰلك، واختارَهُ، ولو لم يرضَ بِهِ لم يَصِلوا إليهِ منهُ، فعلى هٰذا فينبَغي لكُمْ أنْ تَشْكُروهُم وتَحْمَدوهُم، إذ فَعَلوا مرضاتَهُ واختيارَهُ الَّذي كانَ سببَ خَلاصِ جَميعِ الأنبياءِ والمؤمِنينَ والقِدِّيسينَ مِن الجحيمِ ومِن سِجْنِ إبليسَ.

فما أعظمَ مِنَّةَ اليَهودِ عليكم وعلى آبائِكم وعلى سائِرِ النَّبِيِّينَ مِن لَدُنْ آدَمَ عليه السلام إلى زَمَنِ المسيحِ!

والمقصودُ أنَّ هٰذه الأمَّةَ جَمَعَتْ بينَ الشِّرْكِ وعَيْبِ الإلٰهِ وتَنقُّصِهِ، وتَنَقُّصِ نَبِيِّهِم وعَيْبِهِ ومُفارَقَةِ دينِهِ بالكُلِّيَّةِ، فلم يتَمَسَّكوا بشيءٍ مِمَّا كانَ عليهِ المسيحُ، لا في صَلاتِهِم، ولا في صِيامِهِم، ولا في أعيادِهِم، بل هُم في ذٰلك أتباعُ كُلِّ ناعِقٍ، مستَجيبونَ لكُلِّ مُمَخْرِقٍ ومُبْطِلٍ، أدْخَلوا في الشَّريعَةِ ما ليسَ منها، وتَرَكُوا ما أتَتْ بِهِ.

● خُلاصةُ القولِ:

والمقصودُ أنَّ دينَ الأمَّةِ الصَّليبيَّةِ بعدَ أنْ بعَثَ اللَّهُ ﷻ محمَّداً صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ، بل قبْلَهُ بنحوِ ثلاث مئةِ سنةٍ، مبنيٌّ على مُعانَدةِ العقولِ والشَّرائعِ، وتَنَقُّصِ إلٰهِ العالَمينَ، ورَمْيِهِ بالعظائمِ، فكلُّ نَصرانيٍّ لا يأخذُ بحظِّهِ مِن هٰذه البليَّةِ فليسَ بنَصْرانيٍّ على الحقيقةِ.

أَفَلَيْسَ هُو الدِّينَ الَّذي أَسَّسَهُ أصحابُ المجامعِ المُتلاعِنونَ على أنَّ الواحِدَ ثلاثةٌ والثَّلاثةُ واحدٌ؟

فيا عَجباً! كيفَ رَضِيَ العاقِلُ أنْ يكونَ هٰذا مبلَغَ عقلِهِ، ومُنْتهى علمِهِ؟

أَفَتَرى لم يَكُنْ في هٰذه الأمَّةِ مَن يرجِعُ إلى عقلِهِ وفطرَتِهِ، ويعلمُ أنَّ هٰذا عينُ المُحالِ، وإنْ ضَرَبوا لهُ الأمثالَ، واستَخْرَجُوا لهُ الأشباهَ، فلا يذْكُرونَ مثالاً ولا شِبْهاً إلَّا وفيهِ بيانُ خطئِهِم وضلالِهِم؛ كتشبيهِ بعضِهِم اتِّحادَ اللَّاهوتِ بالنَّاسُوتِ، وامتزاجَهُ بِهِ باتِّحادِ النَّارِ والحَديدِ، وتمثيلِ غيرِهِم ذٰلك باختلاطِ الماءِ باللَّبنِ، وتشبيهِ آخَرينَ ذٰلك بامتزاجِ الغذاءِ واختلاطِهِ بأعضاءِ البدنِ... إلى غيرِ ذٰلك مِن الأمثالِ والمقاييسِ التي تتضَمَّنُ امتزاجَ حقيقَتَيْنِ واختلاطَهُما، حتى صارَا حَقيقةً أُخرى، تعالى اللَّهُ ﷻ عن إفْكِهِم وكَذِبِهِم.

ولم يُقْنِعْهُم هٰذا القولُ في ربِّ السَّماواتِ والأرضِ، حتَّى اتَّفَقُوا بأَسْرِهِم على أنَّ اليهودَ أخذوهُ، وساقوهُ بينَهُم ذَليلاً مقهوراً، وهُو يحمِلُ خَشَبَتَهُ التي صَلَبوهُ عليها، واليهودُ يبصُقُونَ في وجهِهِ، ويَضْربونَهُ، ثمَّ صَلَبوهُ، وطَعَنوهُ بالحرْبَةِ، حتَّى ماتَ، وتَركوهُ مصْلوباً حتَّى الْتصقَ شعرُهُ بجلْدِهِ، لمَّا يَبِس دمُهُ بحرارَةِ الشَّمْسِ، ثمَّ دُفِنَ، وأقامَ تحتَ التُّرابِ ثلاثةَ أيَّامٍ، ثمَّ قامَ بلاهُوتِيَّتِهِ مِن قبرِهِ.

وهٰذا قولُ جَميعِهِم، ليس فيهِم مَن يُنْكِرُ منهُ شيئاً.

فيا للعُقولِ! كيفَ كانَ حالُ هٰذا العالَمِ الأعلى والأسْفَلِ في هذه الأيَّامِ الثَّلاثَةِ؟ ومَن كانَ يُدَبِّرُ أمْرَ السَّماواتِ والأرْضِ؟ ومَنِ الَّذي خلَفَ الرَّبَّ ﷻ في هٰذه المُدَّةِ؟ ومَنِ الذي كانَ يُمْسِكُ السَّماءَ أنْ تقَعَ على الأرضِ، وهُو مدفونٌ في قبرِهِ؟

ويا عجباً! هل دُفِنَتْ الكلمةُ معهُ بعدَ أنْ قُتِلَتْ وصُلِبَتْ؟ أم فارَقَتْهُ وخَذَلَتْهُ أحوجَ ما كانَ إلى نَصْرِها لهُ، كما خَذَلَهُ أبوهُ وقومُهُ؟ فإنْ كانتْ قد فارَقَتْهُ وتجَرَّدَ منها؛ فليسَ هُو حينئذٍ المسيحَ، وإنَّما هو كغيرِهِ مِن آحادِ النَّاسِ،

وكيفَ يَصِحُّ مُفارَقَتُها لهُ بعدَ أنِ اتَّحَدَتْ بهِ، ومازَجَتْ لحمَهُ ودَمَهُ؟ وأينَ ذَهَبَ الاتِّحادُ والامتزاجُ؟ وإنْ كانتْ لم تُفارِقْهُ لو قُتِلَتْ وصُلِبَتْ ودُفِنَتْ معهُ، فكيفَ وَصَلَ المخلوقُ إلى قتْلِ الإلٰهِ، وصَلْبِهِ، ودَفْنِهِ؟

ويا عجباً! أيُّ قبرٍ يَسَعُ إلٰهَ السَّماواتِ والأرضِ؟ هٰذا وهُو المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المؤمِنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ، سبحانَ اللّٰهِ عمّا يُشْرِكونَ.

الحمدُ للّٰهِ، ثمَّ الحمدُ للّٰهِ تعالى، الَّذي هَدانا للإسلامِ، ومَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أنْ هَدانا اللّٰهُ.

يا ذا الجَلالِ والإكرامِ، كما هَدَيْتَنا للإسلامِ، أسْأَلُكَ أنْ لا تَنْزِعَهُ عنّا، حتى تَتَوفَّانا على الإسلامِ:

أعُبَّادَ المَسِيحِ لَنا سُؤالٌ ... نُرِيدُ جَوابَهُ مِمَّنْ وَعَاهُ
إذا ماتَ الإلٰهُ بِصُنْعِ قَوْمٍ ... أمَاتُوهُ فَما هٰذا الإلٰهُ؟
وهَلْ أرْضاهُ مَا نَالُوهُ مِنْهُ ... فَبُشْرَاهُمْ إذا نَالُوا رِضَاهُ
وإنْ سَخِطَ الَّذي فعَلوهُ فيهِ ... فَقُوَّتُهُمْ إذاً أوْهَتْ قُواهُ
وهَلْ بَقِيَ الوُجُودُ بِلا إلٰهٍ ... سَمِيعٍ يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعاهُ
وهَلْ خَلَتِ الطِّباقُ السَّبْعُ لَمَّا ... ثَوى تَحْتَ التُّرابِ وقَدْ عَلاهُ
وهَلْ خَلَتِ العَوالِمُ مِنْ إلٰهٍ ... يُدَبِّرُها وقَدْ سُمِرَتْ يَداهُ
وكَيْفَ تَخَلَّتِ الأمْلاكُ عنهُ ... بنَصْرِهِمُ وقَدْ سَمِعُوا بُكاهُ
وكيفَ أطاقَتِ الخَشَبَاتُ حَمْلَ الـ ... إلٰهِ الحَقِّ شُدَّ على قَفاهُ
وكَيْفَ دَنا الحَدِيدُ إليه حَتَّى ... يُخالِطُهُ ويَلْحَقُهُ أذاهُ
وكيفَ تَمَكَّنَتْ أيْدي عِداهُ ... وطالَتْ حيثُ قَدْ صَفَعُوا قَفَاهُ
وهَلْ عَادَ المَسِيحُ إلى حَياةٍ ... أمِ المُحْيي لهُ رَبٌّ سِواهُ
ويا عَجَباً لِقَبْرٍ ضَمَّ رَبّاً ... وأعْجَبُ مِنهُ بَطْنٌ قَدْ حَواهُ
أقامَ هُناكَ تِسْعاً مِنْ شُهورٍ ... لَدَى الظُّلُماتِ مِنْ حَيضٍ غَذَاهُ

وشَقَّ الفَرْجَ مَوْلوداً صَغيراً ضَعيفاً فاتِحاً للثَّدْيِ فَاهُ
ويأكُلُ ثُمَّ يَشْرَبُ ثُمَّ يأتِي بِلازِم ذَاكَ هَلْ هذا إلٰهُ
تَعَالى اللّهُ عن إفْكِ النَّصارَى سَيُسْأَلُ كُلُّهُمْ عَمَّ افْتَراهُ
أعُبَّادَ الصَّليبِ لأيِّ مَعْنَى يُعَظَّمُ أوْ يُقَبَّحُ مَنْ رَمَاهُ
وهَلْ تَقْضي العُقولُ بغَيْرِ كَسْرٍ وإحْراقٍ لَهُ ولِمَنْ بَغَاهُ
إذا رَكِبَ الإلٰهُ عليهِ كُرْهاً وقدْ شُدَّتْ لِتَسْميرٍ يَداهُ
فَذَاكَ المَرْكَبُ الملْعُونُ حَقًّا فَدُسْهُ لا تَبُسْهُ إذْ تَراهُ
يُهانُ عليهِ رَبُّ الخَلْقِ طُرًّا وتَعْبُدُهُ؟! فإنَّكَ مِن عِداهُ
فإنْ عَظَّمْتَهُ مِن أجْلِ أنْ قدْ حَوَى رَبَّ العِبادِ وقدْ عَلاهُ
وقَدْ فُقِد الصَّليبُ فإنْ رَأيْنا لَهُ شَكْلاً تَذَكَّرْنا سَنَاهُ
فَهَلَّا للقُبُورِ سَجَدْتَ طُرًّا لِضَمِّ القَبْرِ رَبَّكَ في حَشاهُ؟
فَيا عَبْدَ المَسيحِ أفِقْ فَهٰذا بِدايَتُهُ وهٰذا مُنْتَهاهُ

○ ذِكْرُ تلاعُبِهِ بالأمَّةِ الغَضبيةِ، وهُم اليَهودُ:

قالَ اللّهِ تعالى في حقِّهِم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

وقالَ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٠ ـ ٦٣].

وقالَ تَعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة: ٨٠].

وقد أمَرَنا اللَّهُ سبحانَه أنْ نسألَهُ في صَلواتِنا أنْ يَهْدِيَنا صِراطَ الَّذينَ أنْعَمَ عليهِمْ غيرِ المغضوبِ عليهِمْ ولا الضَّالِّينَ.

وثَبَتَ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ: «اليهودُ مَغْضوبٌ عليهِمْ، والنَّصارى ضالُّونَ»[1].

فأوَّلُ تَلاعُبِ الشَّيطانِ بهٰذه الأمَّةِ في حياةِ نبيِّها، وقُرْبِ العهدِ بإنجائِهِم مِن فرعَوْنَ وإغراقِهِ قومِهِ، فلمَّا جاوَزُوا البحرَ رأَوْا قوماً يَعْكُفونَ على أصنامٍ لهُم، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، فقالَ لهُمْ موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

فأيُّ جَهْلٍ فوقَ هٰذا؟ والعهدُ قريبٌ، وإهلاكُ المُشرِكينَ أمامَهُم، بمَرْأى مِن عُيونِهِم، فَطَلبوا مِن موسى عليه السلام أنْ يَجْعَلَ لهُم إلٰهاً، فطَلَبوا مِن مخلوقٍ أنْ يجْعَلَ لهُم إلٰهاً مخلوقاً، وكيفَ يكونُ الإلٰهُ مجعولاً؟ فإنَّ الإلٰهَ هُو الجاعِلُ لِكُلِّ ما سواهُ، والمَجْعولُ مَرْبوبٌ مصنوعٌ، فيستحيلُ أنْ يكونَ إلٰهاً.

وما أكْثَرَ الخَلَفَ لهٰؤلاءِ في اتِّخاذِ إلٰهٍ مَجْعولٍ! فكُلُّ مَنِ اتَّخَذَ إلٰهاً غيرَ اللَّهِ فقَدِ اتَّخذَ إلٰهاً مَجْعولاً.

وقد ثَبَتَ عن النبيِّ صلّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلّمَ أنَّهُ كانَ في بعضِ غَزَواتِهِ، فمرُّوا بشجرةٍ يُعَلِّقُ عليها المشرِكونَ أسْلِحَتَهُم وشاراتِهِم وثيابَهُم، يسمُّونَها ذاتَ أنواطٍ، فقالَ بعضُهُم: يا رسولَ اللَّهِ! اجْعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كَما لهُم ذاتُ أنواطٍ. فقالَ: «اللَّهُ أكْبَرُ! قُلْتُمْ كَما قالَ قومُ موسى لمُوسى، اجْعَلْ لنا إلٰهاً كما لهُمْ آلِهَةٌ»، ثمَّ قالَ: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قبلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ»[2].

---

(١) رواه: الترمذي (٢٩٥٤ و٢٩٥٥)، وأحمد (٤/٣٧٨)، والطيالسي (١٠٤٠)، وابن حبّان (١٧١٥ و٢٢٧٩)؛ عن عدي بن حاتم؛ بسند حسن.

(٢) حديث صحيح، خرَّجتُه في تعليقي على «الحوادث والبدع» (ص٣٨) نشر دار ابن الجوزي. وانظر: ما سبق (ص٢١٩ و٢٢٥).

وقد تَلاعَبَ الشَّيطانُ بهِم على صُوَرٍ شَتَّى، وأشكالٍ متنوِّعَةٍ، ابتداءً مِن عِبادَتِهِم العِجْلَ مِن دُونِ اللَّهِ، ومُروراً بقصَّةِ ذَبْحِ البقرةِ وانتهاءً بحيلتِهِم يومَ السَّبْتِ استِحلالاً لما حرَّمَهُ اللَّهِ عليهِم، إلى غيرِ ذلك[١].

● فِرْقَتا اليَهودِ:

ثُمَّ إنَّ هٰذه الأمَّةَ الغَضِبيةَ فرقَتانِ:

إِحداهُما: عَرَفوا أنَّ أُولئكَ السَّلَفَ الَّذينَ أَلَّفوا المَشْنا والتَّلمودَ[٢] هُم فقهاءُ ليهودِ، وهُم قومٌ كذَّابونَ على اللَّهِ وعلى موسى النبيِّ، وهُم أَصحابُ حَماقاتٍ وتَنَطُّعٍ ودَعاوى كَاذِبَةٍ، يزعُمونَ أَنَّهُم كانُوا إذا اختَلفوا في شيءٍ مِن تلكَ المسائلِ يُوحِي اللَّهُ تعالى إليهِم بصوتٍ يسمَعُهُ جمهورُهُم، يقولُ: الحَقُّ في هٰذه المسأَلَةِ معَ الفقيهِ فُلانٍ، ويُسَمُّونَ هٰذا الصَّوتَ: «بَثَّ قولٍ».

فلمَّا نظرتِ اليهودُ القرَّاؤونَ ـ وهُم أصحابُ عنانَ وبِنيامينَ ـ إلى هذه المحالاتِ الشَّنيعَةِ، وهٰذا الافتراءِ الفاحِشِ، والكَذبَ البارِدِ؛ انفَصلوا بأنفسِهِم عن الفُقهاءِ وعن كُلِّ مَن يقولُ بمقالاتِهِم، وكَذَّبوهُم في كُلِّ ما افْتَرَوا بهِ على اللَّهِ، وزَعَموا أَنَّهُ لا يجوزُ قَبولُ شيءٍ مِن أقوالِهِم، حيثُ ادَّعَوْا النُّبُوَّةَ، وأنَّ اللَّهَ تَعالى كانَ يوحِي إليهِم كما يوحِي إلى الأنبياءِ.

وأمَّا تلكَ التُّرهاتُ التي أَلَّفَها الحاخاميمُ، وهُم فقهاؤهُم، ونَسَبوها إلى التَّوراةِ وإلى موسى؛ فإنَّ القَرَّائينَ اطَّرحوها كُلَّها، وأَلْغَوْها، ولم يُحَرِّموا شيئاً مِن الذَّبائحِ التي يَتَوَلَّوْنَ ذِباحَتَها أَلبتَّةَ، ولم يُحَرِّموا سوى لحمِ الجَدْيِ بلبنِ أُمِّهِ فقط؛ مُراعاةً لنصِّ التَّوراةِ: «لا يُنْضَجُ الجَدْيُ بلَبَنِ أُمِّهِ»، وليسوا بأَصحابِ قياسٍ، بل أصحابُ ظاهرٍ فقط.

وأمَّا الفِرْقَةُ الثَّانيةُ: فهُم الرَّبانِيُّونَ، وهُم أصحابُ القِياسِ، وهُم أكثرُ

---

(١) يُنظر تفصيل هٰذا كلّه في «الأصل» (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٣٢).

(٢) وهما من كتبهم.

عدداً مِن القَرَّائينَ، وفيهم الحاخاميمُ المفترونَ على اللَّهِ تعالى الكَذِبَ، الَّذينَ زَعَمُوا أنَّ اللَّهَ تعالى كانَ يُخاطِبُ جميعَهُم في كُلِّ مسألةٍ بالصَّوْتِ، الذي يسمُّونَهُ: «بَثَّ قولٍ».

وهٰذه الطَّائفةُ أشدُّ اليهودِ عَداوةً لغيرِهِم مِن الأمَمِ؛ لأنَّ حاخاميمَهُم أوْهَموهُم أنَّ المأكولاتِ إنَّما تَحِلُّ للنَّاسِ إنِ استَعْملوا فيها العلمَ الذي نَسَبوهُ إلى موسى ﷺ، وإلى اللَّهِ تعالى، وأنَّ سائِرَ الأمَمِ لا يعرِفونَ هٰذا، وإنَّما شَرَّفَهُم اللَّهُ تعالى بهٰذا، وأمثالِ ذٰلك مِنَ التُّرَّهاتِ، فصارَ أحَدُهُم ينظُرُ إلى مَنْ ليسَ على مذهَبِهِ ومِلَّتِه كما ينظرُ إلى الحيوانِ البهيمِ، وينظرُ إلى مآكِلِ الأمَمِ وذبائِحِهِم، كما ينظرُ إلى العَذِرَةِ.

وهٰذا مِن كيدِ الشَّيطانِ لهُم، ولَعِبِهِ بهم، فإنَّ الحاحاميمَ قصدوا بذٰلك المبالَغَةَ في مخالَفَتِهم الأمَمَ، والإزراءِ عليهِم، ونسبَتِهم إلى قلَّةِ العلمِ، وأنَّهُم اخْتَصُّوا دُونَ الأمَمِ بهٰذه الآصارِ والأغلالِ والتَّشديداتِ.

وكُلَّما كانَ الحاخاميمُ فيهِم أكثرَ تَكَلُّفاً وأشدَّ إصراً وأكثرَ تحريماً؛ قالوا: هٰذا هُو العالمُ الرَّبَّانيُّ.

وممَّا دَعاهُم إلى التَّصييقِ والتَّشديدِ: أنَّهُم مُبَدَّدونَ في شرقِ الأرضِ وغَرْبِها[1]، فما مِن جماعةٍ منهُم في بلدَةٍ إلَّا إذا قَدِمَ عليهِم رَجُلٌ مِن أهْلِ

---

(١) والآن ـ ونحن في أوائل عام (١٤١١هـ) الموافق لمنتصف عام (١٩٩٠م) تقريباً ـ يجمعُ اليهود أنفسهم، ويلمُّون شتاتهم، ويأتون من كلِّ حَدَبٍ وصوبٍ، (مهاجرين) إلى فلسطين، حيث ينتظِرُهم الوعدُ الحقُّ لدي فيه فناؤهم بمشيئة الله سبحانه وإذنه! فما بالُ (العرب) وكثير من المسلمين يخافون من (هجرة) اليهود، و(اجتماعهم) في فلسطين؟!

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

فإذا كان لنا أن نخاف أن نخشى، فلنَخْشَ على أنفسنا من ضعفِ تمسُّكنا بكتاب ربِّنا، وسنّة نبيِّنا ﷺ، ولْنَخف على أنفسنا من وهاء التزامنا بأوامر الله ورسولهُ ﷺ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

دينِهِم مِن بلادٍ بعيدَةٍ، يُظْهِرُ لهُم الخُشونَةَ في دِينِهِم، والمبالَغَةَ في الاحتياطِ، فإِنْ كانَ من المُتَفَقِّهَةِ؛ فهُو يسرعُ في إنكارِ أشياءَ عليهِم، ويوهِمُهُمُ التَّنَزُّهَ عمَّا هُم عليهِ، وينسِبُهُم إلى قِلَّةِ الدِّينِ، وينسِبُ ما يُنْكِرُهُ عليهِم إلى مشايِخِهِ، وإلى أهلِ بلَدِهِ، ويكونُ في أكثرِ تلكَ الأشياءِ كاذِباً، وقصْدُهُ بذٰلك إمَّا الرِّياسَةُ عليهِم، وإمَّا تحصيل بعضِ مآربه منهُم، ولا سيَّما إنْ أرادَ المقامَ عندَهُم.

فتراهُ أوَّلَ ما ينزِلُ بهِم لا يأْكُلُ مِن أطعِمَتِهِم، ولا مِن ذبائِحِهِم، ويتأمَّلُ سكينَ ذابِحِهِم، وينْكِرُ عليهِم بعضَ أمرِهِ، ويقولُ: أنا لا آكُلُ إلَّا مِن ذبيحَةِ يَدي، فتراهُم معهُ في عذابٍ، لا يزالُ يُنْكِرُ عليهِم المُباحَ، ويوهِمُهُم تحريمَهُ بأشياءَ يخْتَرِعُها، حتَّى لا يَشُكُّوا في ذٰلك.

فإِنْ قَدِمَ عليهِم قادِمٌ آخَرُ، فخافَ المقيمُ أنْ ينْقُضَ عليهِ القادِمُ، تَلَقَّاهُ وأكرَمَهُ، وسَعى في موافَقَتِهِ وتصديقِهِ، فيستَحْسِنُ ما فعَلَهُ الأوَّلُ، ويقولُ لهُم: لقد عَظَّمَ اللَّهُ تعالى ثوابَ فلانٍ إذ قَوَّى نامُوسَ الدِّينِ في قلوبِ هٰذه الجماعَةِ. وشَدَّ سِياجَ الشَّرْعِ عندَهُم! وإذا لَقِيَهُ يظهَرُ مِن مَدْحِهِ وشكْرِهِ والدُّعاءِ لهُ ما يؤكِّدُ أمْرَهُ.

وإِنْ كانَ القادِمُ الثَّاني منكِراً لما جاءَ بهِ الأوَّلُ مِن التَّشديدِ والتَّضييقِ؛ لم يَقَعْ عندَهُم بموقِعٍ وينسبونَهُ إمَّا إلى الجهلِ، وإمَّا إلى رِقَّةِ الدِّينِ؛ لأنَّهُم يعتَقِدونَ أنَّ تضييقَ المعيشةِ، وتحريمَ الحلالِ، هو المبالَغَةُ في الدِّينِ.

وهُم أبداً يعتَقِدونَ الصَّوابَ والحَقَّ مَعَ مَن يُشَدِّدُ ويُضَيِّقُ عليهِم.

هٰذا إذا كانَ القادِمُ مِن فُقهائِهِم.

فأمَّا إنْ كَانُوا مِن عُبَّادِهِم وأحبارِهِم؛ فهُناكَ تَرى العَجَبَ العُجابَ مِن النَّاموسِ الذي يُعْتَمَدُ، والسُّنَنِ التي يُحْدِثُها ويُلْحِقُها بالفَرائِضِ، فتراهُم مُسَلِّمينَ لهُ مُنقادِينَ، وهُو يَحْتَلِبُ دَرَّهُم، ويَجْتَلِبُ دِرْهَمَهُم، حتَّى إذا بَلَغَهُ أنَّ يهودِيًّا جَلَس على قارِعَةِ الطَّريقِ يومَ السَّبْتِ، أو اشترى لَبناً مِن مُسلِمٍ؛ ثَلَبَهُ، وسَبَّهُ في مجمعِ اليهودِ، وأباحَ عِرْضَهُ ونَسَبَهُ إلى قلَّةِ الدِّينِ.

• إلزامٌ إيمانيٌّ:

ولا يمكنُ ألبتَّةَ أنْ يؤمنَ يهوديٌّ بنبوَّةِ موسى عليه السلام إنْ لمْ يؤمنْ بنبوَّةِ محمدٍ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وسلَّم، ولا يمكنُ نصرانيًّا أنْ يُقِرَّ بنبوَّةِ المسيحِ إلَّا بعدَ إقرارِهِ بنبوَّةِ محمدٍ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ.

وبيانُ ذٰلكَ: أنْ يُقالَ لهاتينِ الأمَّتينِ: أنتُم لم تُشاهِدوا هٰذينِ الرّسولينِ، ولا شاهَدْتُم آياتِهما وبراهينَ نبوَّتِهما، فكيفَ يسعُ العاقلَ أنْ يُكَذِّبَ نبيًّا ذا دَعوةٍ سابقةٍ، وكلمةٍ قائمةٍ، وآياتٍ باهرةٍ، ويصدِّقَ مَن ليس مثلَه، ولا قَريباً منه في ذٰلك، لأنَّه لم يرَ أحدَ النَّبيَّيْنِ ولا شاهَدَ مَعجزاتِهِ؟! فإذا كَذَّبَ بنبوَّةِ أحدِهما؛ لزِمَهُ التَّكذيبُ بنبوَّتِهما، وإنْ صدَّقَ بأحَدِهما؛ لَزِمَهُ التَّصديقُ بنبوَّتِهما، فمَنْ كَفرَ بنَبيٍّ واحدٍ؛ فقدْ كَفرَ بالأنبياءِ كُلِّهم، ولم ينفَعْهُ إيمانُه به.

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

وقالَ تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فنقولُ للمغضوبُ عليه: هلْ رأيت موسى وعايَنْتَ مُعجزاتِهِ؟

فبالضَّرورةِ يقولُ: لا.

فنقول لهُ: بأيِّ شيءٍ عرفتَ نبوَّتَهُ وصِدقَهُ؟

فلهُ جوابان:

أحدهما: أن يقولَ: أبي عرَّفَني ذٰلك، وأخبرَني به.

والثاني: أنْ يَقولَ: التَّواتُرُ وشَهاداتُ الأمَمِ حقَّقَ ذٰلكَ عِندي كما حَقَّقتْ شهادَتُهُم وُجودَ البلادِ النَّائيةِ والبحارِ والأنهارِ المعروفَةِ، وإنْ لمْ أُشاهِدْها!

فإنِ اختارَ الجوابَ الأوَّلَ، وقالَ: إنَّ شَهادَةَ أبي وإخبارَهُ إيَّايَ بنبُوَّةِ مُوسى هيَ سببُ تصديقي بنبوَّتهِ.

قُلْنا لَهُ: ولِمَ كانَ أبوكَ عِنْدَكَ صادِقاً في ذٰلكَ، معصوماً عنِ الكذبِ؟ وأنتَ تَرى الكُفَّارِ يعلِّمُهُمْ آباؤهُم مَا هُو كُفْرٌ عندَكَ، فإذا كُنْتَ تَرى الأدْيانَ الباطِلةَ والمذاهِبَ الفاسِدَةَ قد أَخَذَها أربابُها عن آبائِهِم كأَخْذِكَ مذْهَبَكَ عن أبيكَ، وأنتَ تَعْلَمُ أنَّ الذي هُم عليهِ ضَلالٌ؛ فلزِمَكَ أنْ تَبْحَثَ عمَّا أَخَذْتَهُ عن أبيكَ؛ خَوْفاً أنْ تَكونَ هٰذه حالَهُ!

فإنْ قالَ: إنَّ الَّذي أخَذْتُه عن أبي أصحُّ مِن الذي أَخَذَهُ النَاسُ عن آبائِهِمْ! كفاهُ مُعارَضَةُ غيرِهِ له بمثلِ قولِهِ.

فإنْ قالَ: أبي أصدقُ مِن آبائِهِمْ وأعْرَفُ وأفضلُ! عارَضَهُ سائرُ النَّاسِ في آبائِهِم بنظيرِ ذٰلك.

فإنْ قالَ: أنا أعرِفُ حالَ أبي، ولا أعْرِفُ حالَ غيرِه.

قيلَ لهُ: فما يُؤمِنُكَ أنْ يكونَ غيرُ أبيكَ مِن أبيكَ وأفضلَ وأعرف؟.

وبكلِّ حالٍ؛ فإنْ كانَ تقليدُ أبيهِ حُجَّةً صحيحةً؛ كانَ تَقليدُهُ غيرِهِ لأبيهِ كذٰلكَ.

وإنْ كانَ ذٰلك باطِلاً؛ كانَ تَقليدُهُ لأبيهِ باطِلاً.

فإنْ رَجَعَ عَن هٰذا الجوابِ، واختارَ الجَوابَ الثَّاني، وقالَ: إنَّما عَلِمْتُ نُبُوَّةَ موسى بالتَّواتِرِ قرناً بعدَ قرنٍ؛ فإنَّهُم أخبروا بظهورِهِ وبمعجزاتِهِ وآياتِهِ وبراهينِ نُبوَّتِهِ التي تضطرُّني إلى تصديقِهِ.

فيُقالُ لهُ: لا ينفَعُكَ هٰذا الجوابُ؛ لأنَّكَ قد أبطلْتَ ما شَهِدَ بهِ التَّواتُرُ مِن نبوَّةِ عيسى ومحمَّدٍ عليهِما الصلاةُ والسلامُ.

فإنْ قُلتَ: تواتَرَ ظُهورُ موسى ومعجزاتُهُ وآياتُهُ، ولم يتواتَرْ ذٰلكَ في المسيحِ ومحمَّدٍ عليهِما الصَّلاة والسلامُ!

قيلَ لكَ: هٰذا هُو اللائِقُ ببَهْتِ الأُمَّةِ الغضبيَّةِ؛ فإنَّ الأمَمَ جميعَهُم قد عَرَفوا أنَّهُم قومُ بَهْتٍ، وإلَّا؛ فَمِنَ المعلومِ أنَّ الناقلينَ لمُعْجِزاتِ المسيحِ ومحمدٍ صلَّى اللَّهِ تعالى عليهِما وسلَّمَ أضعافُ أضعافِكُم بكثيرٍ، والمعجزاتُ التي شاهَدَها أوائِلُهُم لا تَنْقُصُ عنِ المُعْجِزاتِ التي أتى بها مُوسى ﷺ، وقد نَقَلها عنهُم أهلُ التواتُرِ جيلاً بعدَ جيلٍ، وقَرْناً بعدَ قرنٍ، وأنتَ لا تقبلُ خَبَرَ التَّواتُرِ في ذٰلك، وتردُّهُ، فيلزمُكَ أنْ لا تُقِرَّ بهِ في أمرِ موسى ﷺ.

ومِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ مَنْ أثْبَتَ شيئاً ونَفَى نظيرَهُ فقد تَناقَضَ.

وإذا اشتُهِرَ النبيُّ في عصرٍ وصحَّتْ نُبُوَّتُهُ في ذٰلك العصرِ بالآياتِ التي ظَهَرَتْ عليهِ لأهْلِ عصرِهِ، ووصلَ خبرُهُ إلى أهلِ عصرٍ آخَرَ، وَجَبَ عليهِم تصديقُهُ والإيمانُ بهِ، وموسى ومحمَّدٌ والمسيحُ في هٰذا سواءٌ، ولعلَّ تواتُرَ الشَّهاداتِ بنبوةِ موسى أضعَفُ مِن تواتُرِ الشَّهاداتِ بنُبُوَّةِ عيسى ومحمَّدٍ؛ لأنَّ الأمَّةَ الغَضبيَّةَ قد مَزَّقَها اللَّهُ تعالى كلَّ مُمَزَّقٍ، وقطَّعَها في الأرضِ، وسَلَبها مُلْكَها وعِزَّها، فلا عيشَ لها إلَّا تحتَ قَهْرِ سِواها من الأمَمِ لها، بخلافِ أمَّةِ عيسى ﷺ؛ فإنَّها قد انتشَرَتْ في الأرضِ، وفيهِمُ الملوكُ، ولهُم الممالِكُ.

وأمَّا الحُنفاءُ؛ فممالِكُهُم قد طَبَّقَتْ مشارقَ الأرضِ ومغارِبَها، وملؤوا الدُّنيا سهلاً وجَبلاً، فكيفَ يكونُ نَقْلُهُم لما نَقلوهُ كَذِباً، ونقلُ الأمَّةِ الغَضَبيَّةِ الخامِلَةِ القليلةِ الزَّائلةِ صِدْقاً؟!

فثبَتَ أنَّهُ لا يمكِنُ يهوديًّا على وجهِ الأرضِ أنْ يُصَدِّقَ بنُبُوَّةِ موسى ﷺ إلَّا بتصديقِهِ وإقرارِهِ بنبُوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، ولا يمكِنُ نَصرانيًّا ألبتَّةَ الإيمانُ بالمسيحِ ﷺ إلَّا بعدَ الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وسلَّم.

ولا ينفعَ هاتينِ الأُمَّتَيْنِ شهادةُ المسلمينَ بنبوَّةِ موسى والمسيحِ؛ لأنَّهُم آمَنوا بهما على يدِ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ، وكانَ إيمانُهم بهما مِن الإيمانِ بمحمَّدٍ، وبما جَاءَ بهِ، فلولاهُ ما عرفْنا نبوَّتَهُما، ولا آمَنا بهِما.

ولا سيَّما أنَّ أُمَّةَ الغضَبِ والضَّلالِ ليسَ بأيديهِم عن أنبيائِهِم ما يوجِبُ

الإيمانَ بهم، فلولا القُرآنُ ومحمَّدٌ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ ما عَرَفْنا شيئاً مِن آياتِ الأنبياءِ المتقدِّمينَ.

فمحمَّدٌ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وكتابُهُ هو الذي قَرَّرَ نبوَّةَ موسى ونُبُوَّةَ المسيحِ، لا اليهودُ، ولا النَّصارى.

بل كانَ نفسُ ظهورِهِ ومجيئه تَصديقاً لنبوَّتِهما، فإنَّهُما أخبرا بظُهورِهِ، وبَشَّرا بهِ قبلَ ظُهورِهِ، فلمَّا بُعِثَ كانَ بعثُهُ تصديقاً لهُما.

وهٰذا أحدُ المَعْنَيَيْنِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾ [الصافات: ٣٦، ٣٧]؛ أي: مجيئهُ تصديقٌ لهُم مِن جِهَتَيْنِ: مِن جهةِ إخبارِهِم بمجيئِهِ ومَبْعَثِهِ، ومِن جهَةِ إخبارِهِ بمثلِ ما أَخْبَرُوا بهِ، ومطابَقَةِ ما جَاء بهِ لما جاؤوا بهِ؛ فإنَّ الرَّسولَ الأوَّلَ إذا أتى بأمْرٍ لا يُعْلَمُ إلَّا بالوَحْيِ، ثمَّ جاءَ نبيٌّ آخَرُ، لم يقارِنْهُ في الزَّمنِ ولا في المكانِ، ولا تَلَقَّى عنهُ ما جاءَ بهِ، وأخبرَ بمثْلِ ما أخبرَ بهِ سواءً؛ دَلَّ ذٰلكَ على صِدْقِ الرَّسولينِ الأوَّلِ والآخِرِ، وكانَ ذٰلك بمنزلَةِ رجلينِ أَخبرَ أحدُهما بخبرٍ عن عَيانٍ، ثمَّ جاءَ آخَرُ مِن غيرِ بلَدِهِ وناحيَتِه، بحيثُ يُعْلَمُ أنَّهُ لم يجْتَمِعْ بهِ، ولا تَلَقَّى عنهُ، ولا عمَّنْ تَلقَّى عنهُ، فأَخْبَرَ بمثلِ ما أَخْبَرَ بهِ الأوَّلُ سواءً؛ فإنَّهُ يضطَرُّ السامِعَ إلى تصديقِ الأوَّلِ والثَّاني.

والمعنى الثَّاني: أنَّهُ لم يأْتِ مكَذِّباً لمَن قبلَهُ مِن الأنبياءِ، مُزْرِياً عليهِم؛ كما يفعَلُ الملوكُ المتغَلِّبونَ على النَّاسِ بمَنْ تَقَدَّمَهُم مِن الملوكِ، بل جاءَ مُصَدِّقاً لهُم، شاهِداً بنُبوَّتِهم، ولو كانَ كاذِباً متقوِّلاً مُنْشِئاً مِن عندِهِ سياسةً؛ لَمْ يُصَدِّقْ مَن قَبْلَهُ، بل كانَ يُزْرِي بهِم، ويَطْعَنُ عليهِم؛ كما يفعَلُ أعداءُ الأنبياءِ.

◌ تحريفُ التَّوراةِ:

وقد اخْتَلَفَتْ أقوالُ النَّاسِ في التَّوراةِ التي بأيديهِم: هل هِي مُبَدَّلَةٌ، أمِ التَّبديلُ والتَّحريفُ وقعَ في التَّأويلِ دُونَ التَّنزيلِ؟

على ثلاثةِ أقوالٍ: طرفَيْن ووسطٍ:

فأفرطَتْ طائفةٌ وزَعَمَتْ أنَّها كُلَّها أو أكثرَها مُبَدَّلَةٌ مغَيَّرَةٌ، ليستِ التَّوراةُ التي أنْزَلَها اللَّهُ تعالى على موسى ﷺ، وتعرَّضَ هٰؤلاءِ لتناقُضِها وتكذيبِ بعضِها لبعضٍ.

وقابَلَهُم طائفةٌ أُخرى مِن أئِمَّةِ الحديثِ والفقهِ والكلامِ، فقالوا: بل التَّبديلُ وقعَ في التَّأويلِ لا في التَّنزيلِ.

وهٰذا مذهَبُ أبي عبدِ اللَّهِ محمَّدِ بنِ إسماعيلَ البُخاريِّ.

قالَ في «صحيحِهِ»: «يُحَرِّفونَ: يُزيلونَ، وليس أحدٌ يُزيلُ لفظَ كِتابٍ مِن كُتُبِ اللَّهِ، ولٰكِنَّهُم يُحَرِّفونَهُ: يتأوَّلونَهُ على غيرِ تأويلِهِ».

وهٰذا اختيارُ الرَّازيِّ في «تفسيرِهِ»[(١)].

وسمعتُ شيخَنا يقولُ: وَقَعَ النِّزاعُ في هٰذه المسألَةِ بينَ بعضِ الفُضلاءِ، فاختارَ هٰذا المذهَبَ، ووهَّنَ غيرَهُ، فأُنْكِرَ عليهِ، فأحْضَرَ لهُم خمسةَ عشرَ نقلاً بهِ.

ومِن حُجَّةِ هٰؤلاءِ أنَّ التَّوراةَ قد طَبَّقَتْ مشارِقَ الأرْضِ، ومَغارِبَها، وانتَشَرَتْ جَنوباً وشَمالاً، ولا يَعْلَمُ عَدَدَ نُسَخِها إلَّا اللَّهُ تعالى، ومِن المُمْتَنِعِ أنْ يَقَعَ التَّواطُؤ على التَّبديلِ والتَّغييرِ في جميعِ تلكَ النُّسَخِ. بحيثُ لا يبقى في الأرْضِ نسخةٌ إلَّا مُبَدَّلَةً مُغَيَّرَةً، والتَّغييرُ على منهاجٍ واحدٍ، وهٰذا ممَّا يُحيلُهُ العقلُ، ويشهَدُ ببُطلانِهِ.

قالوا: وقد قالَ اللَّهُ تعالى لنبيِّهِ ﷺ محْتَجًّا على اليهودِ بها: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

قالوا: وكذٰلك صفاتُ النبيِّ صلَّى اللَّهُ تعالى عليهِ وسلَّمَ ومَخْرَجُهُ هو في

---

(١) «مفاتيح الغيب» (١١/١٨٧).

التَّوراةِ بَيِّنٌ جدًّا، ولم يُمَكِنْهُم إزالَتُهُ وتغييرُهُ[١]، وإنَّما ذَمَّهُمُ اللَّهُ تعالى بكِتْمانِهِم، وكانُوا إذا احتَجَّ عليهِم بما في التَّوراةِ مِن نَعْتِهِ وصِفَتِه يقولونَ: ليسَ هُو، ونحنُ ننتَظِرُهُ.

فهٰذا بعضُ ما احتَجَّتْ بهِ هٰذه الفِرْقَةُ.

وتوسَّطَتْ طائفَةٌ ثالثةٌ، وقالوا: قد زِيْدَ فيها وغُيِّرَ ألفاظٌ يَسيرةٌ، ولكنْ أكثَرُها باقٍ على ما أُنْزِلَ عليهِ، والتَّبديلُ في يسيرٍ منها جِدًّا.

ومِمَّنِ اخْتارَ هٰذا القولَ شيخُنا في كتابِهِ «الجوابُ الصَّحيحُ لمَنْ بَدَّلَ دِينَ المَسيحِ»[٢].

○ مِن أَدلَّةِ غِلَظِ أفهامِهِم:

وممَّا يدلُّ على غِلَظِ أفهامِ هٰذه الأمَّةِ الغَضَبيَّةِ وقِلَّةِ فِقْهِهِم، وفسادِ رأْيِهِم وعقولِهِم ـ كما في «التَّوراةِ»: «أَنَّهُ شَعْبٌ عادِمُ الرَّأْيِ، فليس فيهِم فَطانَةٌ» ـ: أَنَّهُم سَمِعوا في التَّوراةِ: «يكونُ ثِمارُ أرضِكَ تُحْمَلُ إلى بيتِ اللَّهِ رَبِّكَ، ولا يُنْضَجُ الجَدْيُ بلَبَنِ أُمِّهِ».

والمرادُ بذٰلك أَنَّهُم أُمِرُوا عَقيبَ افتراضِ الحَجِّ إلى بيتِ المقدِسِ عليهِم أنْ يستَصْحِبوا مَعَهُم إذا حَجُّوا أبكارَ أغنامِهِم، وأبكارَ مُسْتَغَلَّاتِ أَرْضِهِم؛ لأنَّهُ

---

(١) أما اليوم؛ فقد أزالوا كثيراً منها، وحرَّفوا العديد من البشارات، ومع ذلك؛ فإنَّ الله سبحانه يأبى إلَّا أن يُتمَّ نورَه، فبقيت في كتبهم بقيَّة باقيةٌ لا يسعهُم ردُّها، ولا يستطيعونَ التفلُّت منه، فانظر رسالة: «ماذا تقول التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ؟» للشيخ الداعية أحمد ديدات، ترجمة الأخ وليد طاش، بتقديمي وتعليقي، نشر دار ابن الجوزي.

(٢) ولقد ألَّف كثيرٌ من العلماء قُدامى ومُحْدَثين كتباً ومؤلَّفاتٍ في إثبات تحريف التوراة والإنجيل، وعقدوا في كتبهم فصولاً في ذٰلك.
إذ اليهودُ والنصارى إنما يحرِّفون كُتُبهم تبعاً لمجامعهم الدينية (!)، فهي التي تنصُّ أنَّ آخر أحكامهم أو أقوالهم في مسألة كذا: كذا وكذا... وهٰكذا اليوم، فكلُّ طبعة فيها اختلافٌ عما قبلَها... وهٰكذا.

كانَ فَرَضَ عليهِمْ قبلَ ذٰلك أنْ تَبْقى سُخُولَةُ الغَنَمِ والبقرِ وراءَ أُمِّها سبعةَ أيَّامٍ، وفي اليوم الثَّامِنِ فصاعِداً يصلُحُ أنْ تكونَ قُرْباناً، فأشارَ في هٰذا النَّصِّ بقولِهِ: «لا يُنْضَجُ الجَدْيُ بلَبَنِ أُمِّهِ» إلى أنَّهُم لا يُبالِغُونَ في إطالَةِ مُكْثِ باكُورِ أولادِ البقرِ والغَنَمِ وراءَ أُمِّها، بل يسْتَصْحِبونَ أبكارَهُم اللَّاتي قَدْ عَبَرَتْ سبعةَ أيَّامٍ منذُ مِيلادِهِنَّ معَهُم إذا حَجُّوا إلى بيتِ المقدِسِ؛ ليَتَّخِذوا مِنها القَرابينَ.

فتوَهَّمَ المشايخُ البُلْهُ أنَّ الشَّرْعَ يُريدُ بالإِنضاجِ إِنضاجَ الطَّبيخِ في القِدْرِ، وأَنَّهُم نُهوا أنْ يَطْبُخُوا لحمَ الجَدْيِ باللَّبَنِ.

ولم يكْفِهِم هٰذا الغَلَطُ في تفسيرِ هٰذه اللفظةِ حتَّى حَرَّموا أكْلَ سائرِ اللُّحْمانِ باللَّبَنِ، فأَلْغَوْا لَفْظَ (الجَدْيِ)، وأَلْغَوْا لفظَ (أُمِّهِ)، وحمَّلوا النَّصَّ ما لا يحتَمِلُهُ، وإذا أرادُوا أنْ يَأْكُلوا اللحمَ واللَّبَنَ أكلوا كُلّاً منهُما على حِدَةٍ!

والأمْرُ في هذا ونحوِه قريبٌ[1].

اتِّفاقُهُم عَلى المُحالِ:

ولا يُسْتَبْعَدُ اصطلاحُ كافَّةِ هٰذه الأمَّةِ على المُحالِ، واتِّفاقُهُم على أنواعِ الضَّلالِ.

فإنَّ الدَّولةَ إذا انْقَرَضَتْ عن أُمَّةٍ باستبلاءِ غَيْرِها عليها، وأَخْذِهِ؛ انْطَمَسَتْ معالِمُ دِينِها، وانْدَرَسَتْ آثارُها.

فإنَّ الدَّولةَ إنَّما يكونُ زوالُها بتتابُعِ الغاراتِ والمصافَّاتِ، وإخرابِ البلادِ وإحراقِها، ولا تزالُ هٰذه الأمورُ متواتِرَةً عليها إلى أنْ يعودَ عِلْمُها جَهْلاً، وعِزُّها ذُلًّا، وكَثْرَتُها قِلَّةً.

وكُلَّما كانَتِ الأمَّةُ أقدَم، واخْتَلَفَتْ عليها الدُّوَلُ المتناوِلةُ لها بالذُّلِّ والصَّغارِ؛ كانَ حَظُّها مِن انْدِراسِ معالِمِ دِينِهِ وآثارِها أَوْفَرَ.

---

(١) مقدرنةً مع غيره!

وهٰذه الأمَّةُ أوْفرُ الأمَم حَظًّا مِن هٰذا الأمْرِ؛ لأنَّها مِن أقدَمِ الأمَمِ، ولِكثْرَةِ الأمَمِ التي اسْتَوْلَتْ عليها؛ مِن الكَلْدَانِيِّينَ، والبابِلِيِّينَ، والفُرْسِ، واليُونانِ، والنَّصارى، وآخِرُ ذٰلك المُسلِمونَ.

ومَا مِنْ هٰذه الأمَمِ إلَّا مَن طَلَب استِئْصالَهُم، وبالَغَ في إحراقِ بِلادِهم وكُتُبِهم، وقَطعَ آثارَهُمْ؛ إلَّا المُسْلِمينَ؛ فإنَّهُم أعْدَلُ الأمَمِ فيهم، وفي غَيْرِهِم، حِفْظاً لِوَصِيَّةِ اللّٰهِ تعالى بهِم، حيثُ قالَ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، ويقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨].

وصادَفَ الإسلامُ هٰذه الأمَّةَ تحتَ ذِمَّةِ الفُرْسِ، وذِمَّةِ النَّصارى، بحيثُ لم يَبْقَ لهُم مَدينةٌ ولا جَيْشٌ.

وأعَزُّ مَا صَادَفَهُ الإسلامُ مِن هٰذه الأمَّةِ يَهودُ خَيْبَرَ والمدينَةِ وما جَاوَرَها؛ فإنَّهُم إنَّما قَصَدوا تِلكَ النَّاحيةِ لِما كَانُوا وُعِدُوا بهِ مِن ظُهورِ رَسولِ اللّٰهِ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ، وكانُوا يُقاتِلونَ المُشركينَ مِنَ العربِ فيَسْتَنْصِرونَ عليهِمْ بالإيمانِ برسولِ اللّٰهِ ﷺ قبلَ ظُهورِهِ، ويَعِدُونَهُم بأنَّهُ سَيخرُجُ نبيٌّ نتبَعُهُ ونقتُلُكم معَهُ قتلَ عادٍ وإرَمَ، فلمَّا بعثَ اللّٰهُ ﷻ نبيَّهُ صلَّى اللّٰهُ تعالى عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ؛ سبَقَهُم إليهِ مَن كانوا يُحارِبونَهُم مِن العَرَبِ، فحَمَلَهُم الحسدُ والبَغْيُ على الكُفْرِ بهِ وتَكْذيبِهِ.

الخاتِمَةُ

فهٰذه فصولٌ مختَصَرَةٌ في كَيْدِ الشَّيطانِ وتلاعُبِهِ بهٰذه الأمَّةِ، يعْرِفُ بها المسلمُ الحَنيفُ قَدْرَ نَعْمَةِ اللَّهِ تعالى ﷻ عليهِ، وما مَنَّ بِهِ عليهِ مِن نعمةِ العلمِ والإِيمانِ، ويهْتَدِي بهِ مَن أرادَ اللَّهُ هِدايَتَهُ مِن طالبِي الحَقِّ مِن هٰذه الأمَّةِ. ومِن اللَّهِ التَّوفيقُ والإِرشادُ إلى سواءِ الطَّريقِ.

والحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمينَ.

اللهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ على جَميعِ الأنبياءِ والمُرْسَلينَ، خُصوصاً مِن بينِهِم مُحَمَّداً وآلهُ بأَفضلِ الصَّلاةِ والتَّسليمِ.

وهَدانا اللَّهُ لِهدايَتِه، وحَشَرَنا في زُمْرَتِه، تحتَ لوائِهِ، وأَورَدَنا حَوْضَهُ الذي لا يظمَأُ مَنْ شَرِبَ منهُ، وأَوْفَرَ نَصيبَنا مِن شفاعَتِهِ؛ إنَّهُ جَوادٌ كريمٌ [1].

---

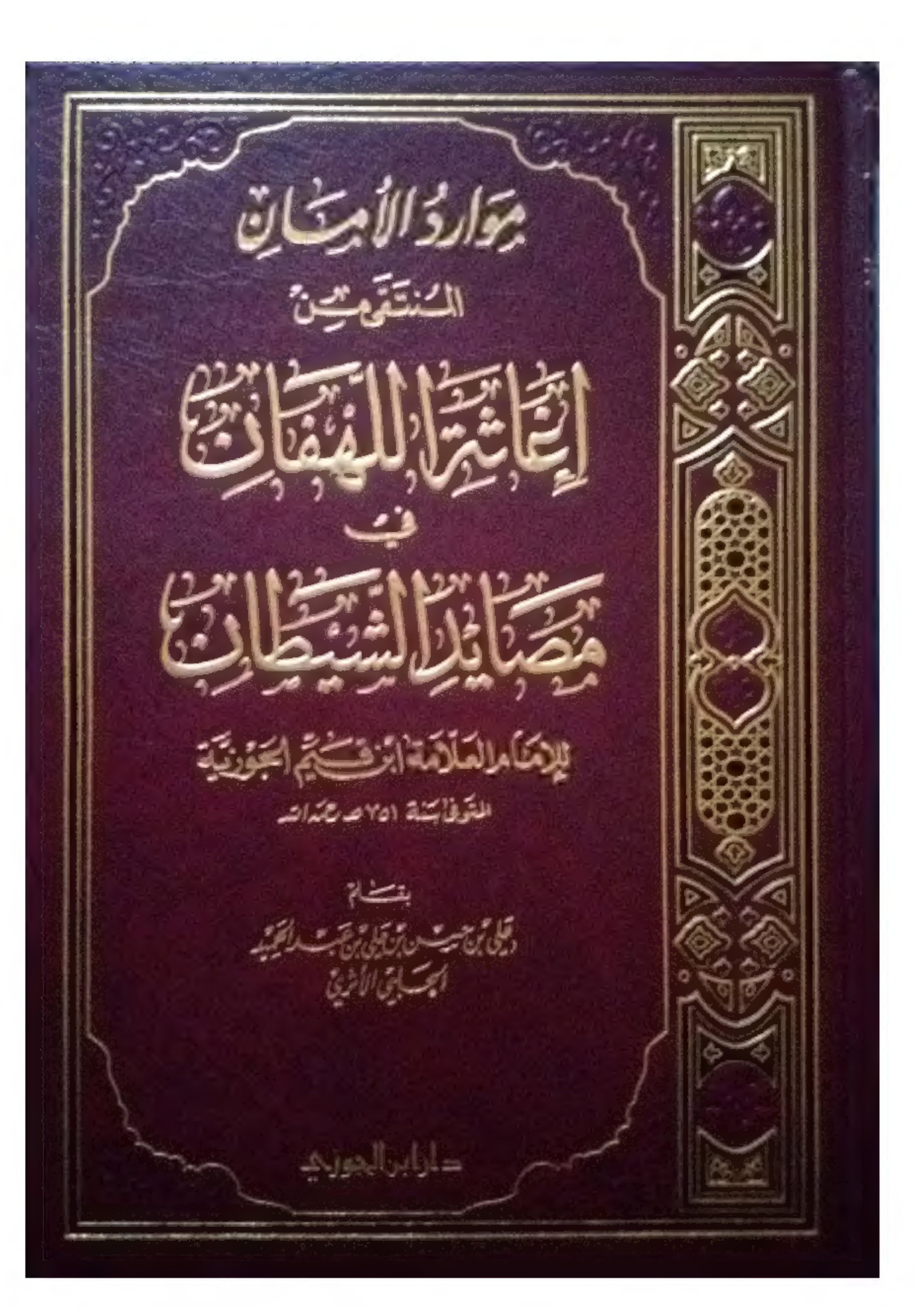
(١) كان الفراغُ من اختصار هٰذا الكتاب وضبطِ نصِّه والتعليق عليه وتخريج أحاديثِه صبيحَة يوم الأربعاء ٢١ شوال ١٤١٠هـ، الموافق ١٦ أيار ١٩٩٠م، والحمد لله رب العالمين.

فهرس الأحاديث مرتبة على حُروف الهجاء

الفهرس الإجمالي

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة



موارد الأمان
المنتقى من
إغاثة اللهفان
في
مصايد الشيطان
للإمام العلامة ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١ هـ رحمه الله
بقلم
د. علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد
الحلبي الأثري
دار ابن الجوزي